

تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصلابي

دار ابن كثير



الإهـــداء

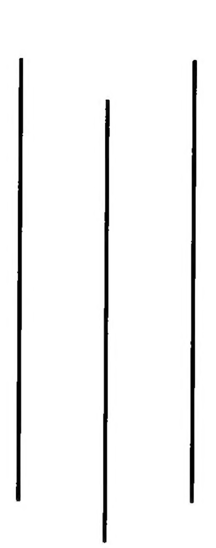
إلى العلماء العاملين ، والدُّعاة المخلصين ، وطلاب العلم المجتهدين ، وأبناء الأمَّة الغيورين ، أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى ـ عزَّ وجل ـ بأسمائه الحسنى ، وصفاته العُلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠]

المؤلِّف

علي محمَّد محمَّد الصَّلاَّبي






تيسير الكريم المنان في سيرة أمير المؤمنين
عثمان بن عفان رضي الله عنه
شخصيته وعصره



الموضوع: سيرة - تراجم
العنوان: موسوعة السير 1\10
التأليف: الدكتور علي محمد محمد الصلابي

الطبعة الثانية
1430 هـ - 2009 م

الورق: كريم
ألوان الطباعة: لونان
عدد الصفحات: 5558
القياس: 17×24
التجليد: كرتونيه
الوزن: 10 كغ

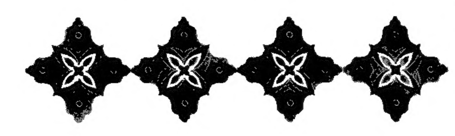


للطباعة و النشر و التوزيع

التنفيذ الطباعي :
مطبعة 53dots - بيروت
التجليد :
مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت


ISBN: 978-9953-520-38-4

دمشق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
تلفاكس : 817857 01 - جوال : 204459 03
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com





المقدِّمـــة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيِّئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١] .

أمَّا بعد :

هذا الكتاب يتحدَّث عن شخصية عثمان بن عفَّان ـ رضي الله عنه ـ وعصره ، وهو امتدادٌ لما سبقه من كتبٍ تحدَّثت عن الصِّدِّيق ، والفاروق ، تبحث في دراسة عهد الخلفاء الرَّاشدين ؛ لكي نستخرج الدُّروس ، والعبر ، ونستوعب السُّنن ، والقوانين الإلهيَّة في حركة المجتمعات ، وبناء الدُّول ، ونهضة الشُّعوب ، وتربية القادة ، والأفراد العاملين لنشر دين الله بين النَّاس .

إنَّ عودة الأمَّة لما كانت عليه في قيادتها للبشريَّة منوطٌ بسيرها على هدي النَّبيِّ ﷺ وخلفائه الرَّاشدين ، فقد أخبر الحبيب المصطفى ﷺ عن المراحل التَّاريخية الَّتي تمرُّ بها الأمَّة في مسيرتها في الحياة ، فقال ﷺ : « **تكون النُّبوَّة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثمَّ يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثمَّ تكون خلافةٌ على منهاج النُّبوَّة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثمَّ يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثمَّ تكون ملكاً عاضّاً ، فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثمَّ يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثمَّ تكون خلافةٌ على منهاج النبوَّة** »[1] .

---

(١) المسند (٤/ ٢٧٣) . والبزَّار رقم (١٥٨٨) رجاله ثقاتٌ .

إنَّ معرفة عهد الخلافة الرَّاشدة ، ومنهاج النُّبوَّة خطوةٌ لا بدَّ منها في تحقيق الأهداف الَّتي تسعى الأمَّة لتحقيقها في هذه الحياة ؛ فقد قال ﷺ : « **عليكم بسنَّتي ، وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين من بعدي** »(١) .

إنَّ تاريخ عصر الخلفاء الرَّاشدين مليءٌ بالدُّروس ، والعبر ، وهي متناثرةٌ في بطون الكتب ، والمصادر ، والمراجع سواءٌ كانت تاريخيَّةً ، أو حديثيَّةً ، أو فقهيَّةً ، أو أدبيَّةً ، أو تفسيريَّة ، فنحن في أشدِّ الحاجة لجمعها ، وترتيبها ، وتوثيقها ، وتحليلها ، فتاريخ الخلافة الرَّاشدة إذا أحسن عرضه ؛ يغذِّي الأرواح ، ويهذِّب النُّفوس ، وينوِّر القلوب ، ويبني العقول ، ويشحذ الهمم ، ويقدِّم الدُّروس ، ويسهِّل العبر ، وينضج الأفكار ، ويوضِّح معالم هذه الخلافة ، وصفات قادتها ، ونظام حكمها ، وأخلاق جيلها ، وعوامل ازدهارها ، وأسباب زوالها ؛ فنستفيد من ذلك في إعداد الجيل المسلم ؛ الَّذي يتربَّى على منهاج النُّبوَّة ، وفقه الخلافة الرَّاشدة ، ونتعرَّف على حياة عصر مَنْ قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

وقال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقال فيهم رسول الله ﷺ : « **خير أمَّتي القرن الَّذي بعثتُ فيهم . . .** »(٢) .

وقال فيهم عبد الله بن مسعود : « من كان مستنّاً فليستنَّ بمن قد مات ؛ فإنَّ الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة) ، أولئك أصحاب محمَّد ﷺ ، كانوا والله أفضل هذه الأمة ! وأبرَّها قلوباً ، وأعمقها علماً وأقلَّها تكلُّفاً ، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيِّه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتَّبعوهم في آثارهم ، وتمسَّكوا بما استطعتم من أخلاقهم ، ودينهم ، فإنَّهم كانوا على الهدي المستقيم »(٣) .

فالصَّحابة قاموا بتطبيق أحكام الإسلام ونشروه في مشارق الأرض ومغاربها ، فعصرهم خير العصور ، فهم الذين علَّموا الأمَّة القرآن الكريم ، ورووا السُّنن ، والآثار عن رسول الله ﷺ ، فتاريخهم هو الكنز الَّذي حفظ مدَّخرات الأمَّة في الفكر ، والثقافة ، والعلم ، والجهاد ، وحركة الفتوحات ، والتَّعامل مع الشُّعوب ، والأمم ، فتجد الأجيال في هذا التَّاريخ المجيد ما يعينها على مواصلة رحلتها في الحياة على منهجٍ صحيحٍ ، وهديٍ رشيدٍ ، وتعرف من خلاله حقيقة رسالتها ، ودورها في دنيا النَّاس .

---

(١) سنن أبي داود (٤/ ٢٠١) . والتِّرمذيُّ (٥/ ٤٤) حسنٌ صحيح .

(٢) مسلمٌ (٤/ ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤) .

(٣) شرح السُّنَّة للبغوي (١/ ٢١٤ ـ ٢١٥) .

إنَّ التاريخ الإسلاميَّ أصبح غرضاً ومرمىً لسهام أعداء الإسلام على مختلف مذاهبهم ، وعقائدهم ، يحاولون أن يوجدوا فجوةً في الإسلام ، وتاريخه الزَّاهر ؛ حتَّى يتسنَّى لهم عزل الأجيال عن الإسلام ، وعقيدته ، وشريعته ، وقيمه ، وتراثه العلميِّ ، ولذلك يبذلون قصارى جهدهم لنفث السُّموم في المجتمع الإسلاميِّ .

لقد حاول المستشرقون على مختلف مشاربهم أن ينشروا كلَّ روايةٍ باطلةٍ تنقص من شأن الصَّحابة الكرام ، وتطعن في تاريخ الأمَّة المجيد ، وتصوِّر تاريخهم بأنَّه صراعٌ على السُّلطة ، والسِّيادة ، والنُّفوذ ، ولذلك يجب الحذر من كلِّ مؤرخ كاذب ، ومستشرقٍ حاقدٍ ، وعلمانيٍّ جاهلٍ ، وكلٍّ من سار على نهجهم ، ولا بدَّ من الدِّفاع المستميت عن تاريخنا الخالد ، والهجوم الشُّجاع على مناهج الكذَّابين والمنحرفين ، ويكون هذا الهجوم المبارك بقذائف الحقِّ العلميَّة المملوءة بالحقائق السَّاطعة ، والأدلَّة القاطعة ، والبراهين الدَّامغة .

إنَّ صياغة التَّاريخ الإسلاميِّ بمنهج أهل السُّنَّة والجماعة ضرورةٌ ملحَّةٌ لأبناء الأمَّة ، وقد بدأت أقلام الباحثين والكتَّاب تصوغ التَّاريخ من هذا المنظور ، وهم لم يبدؤوا من فراغ ؛ لأنَّ الله حمى دينه ، وحمى أمَّة الإسلام ، فقيَّض لتاريخ الصَّحابة من يحقِّق وقائعه ، ويصحِّح أخباره ، ويكشف السِّتار عن الوضَّاعين ، والكذَّابين من ملفِّقي الأخبار ، ويرجع الفضل في ذلك الجهد العظيم إلى الله ، ثم إلى أهل السُّنَّة والجماعة من أئمَّة الفقهاء والمحدِّثين ، الَّذين حفلت مصادرهم بالكثير من الإشارات، والرِّوايات الصَّحيحة الَّتي تنقض، وتردُّ كلَّ ما وضعه الملفِّقون[١] .

هذا ، وقد سِرْتُ على أصول منهج أهل السُّنَّة ، فعكفت على المصادر ، والمراجع القديمة ، والحديثة ، ولم أعتمد في دراسة عصر الخلفاء الرَّاشدين على الطَّبري ، وابن الأثير ، والذَّهبي ، وكتب التاريخ المشهورة فقط ؛ بل رجعت إلى كتب التَّفسير ، والحديث ، وشروحها ، وكتب العقائد ، والفرق ، وكتب التَّراجم ، والجرح ، والتَّعديل ، وكتب الفقه ، فوجدت فيها مادَّةً تاريخيَّةً غزيرةً ، يصعب الوقوف على حقيقتها في الكتب التَّاريخيَّة المعروفة ، والمتداولة ، وقد شرعت في هذا الكتاب بالحديث عن الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفَّان ـ رضي الله عنه ـ الَّذي قال فيه رسول الله ﷺ : « **وأصدقها حياءً عثمان** »[٢] .

وقال فيه رسول الله ﷺ في غزوة تبوك بعد تقديمه النَّفقة العظيمة : « **ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم**»[٣]، وقد بشَّره رسول الله ﷺ بالجنَّة على بلوى

---

(١) المنهج الإسلامي لكتابة التَّاريخ ، د . محمَّد محزون ، ص ٤ .

(٢) فضائل الصَّحابة ، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل (١/ ٦٠٤) إسناده صحيحٌ .

(٣) سنن التِّرمذيِّ رقم (٣٧٨٥) .

تصيبه[١] ، وحثَّ النَّاسَ عند وقوع الفتنة أن يكونوا مع عثمان ، وأصحابه ، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : إنِّي سمعت رسول الله يقول : « **إنَّكم تلقون بعدي فتنةً ، واختلافاً ـ أو اختلافاً وفتنةً ـ ، فقال له قائلٌ من النَّاس : فمن لنا يا رسول الله ؟ ! قال : عليكم بالأمين ، وأصحابه** » وهو يشير إلى عثمان[٢] .

وقد كان الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ في زمن النبي ﷺ لا يعدلون بأبي بكر أحداً ، ثمَّ عمر ، ثمَّ عثمان ، فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : (**كنَّا في زمن النَّبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ثمَّ عمر ، ثمَّ عثمان ، ثم نترك أصحاب النَّبيِّ ﷺ لا نفاضل بينهم**)[٣] .

* **وقد قال فيه الشاعر النُّميري :**

عَشِيَّـةَ يَـدْخُلُـونَ بِغَيْـرِ إِذْنٍ ... عَلَـىٰ مُتَـوَكِّـلٍ أَوْفَـى وَطَـابَـا
خَلِيْـلُ مُحَمَّـدٍ وَوَزِيْـرُ صِـدْقٍ ... وَرَابِـعُ خَيْـرِ مَـنْ وَطِـئَ التُّـرابـا[٤]

* **وقال فيه أبو محمَّد القحطاني :**

لَمَّـا قَضَـى صِـدِّيـقُ أَحْمَـدَ نَحْبَـهُ ... دَفَـعَ الخِـلاَفَـةَ لِـلإِمَـام الثَّـانـي
أَعْنِـي بِـهِ الفَـارُوقَ فَـرَّقَ عَنْـوةً ... بِـالسَّيْـفِ بَيْـنَ الكُفْـرِ وَالإِيمَـانِ
هُـوَ أَظْهَـرَ الإِسْـلاَمَ بَعْـدَ خَفَـائِـهِ ... وَمَحَـا الظَّـلاَمَ وَبَـاحَ بِـالْكِتمَـانِ
وَمَضَـى وَخَلَّـى الأَمْـرَ شُـورَى بَيْنَهُـمْ ... فِـي الأَمْـرِ فَـاجْتَمَعُـوا عَلَـى عُثْمَـانِ
مَـنْ كَـانَ يَسْهَـرُ لَيْلَـهُ فـي رَكْعَـةٍ ... وِتْـراً فَيُكْمِـلُ خَتْمَـةَ القُـرْآنِ

* **إلى أن قال :**

والْـوَيـلُ لِلـرَّكْـبِ الَّـذِيْـنَ سَعَـوا إِلَـىٰ ... عُثْمَـانَ فَـاجْتَمَعُـوا علـى العِصْيَـانِ[٥]

إنَّ حياة ذي النُّورين عثمان بن عفَّان ـ رضي الله عنه ـ صفحةٌ مشرقةٌ في تاريخ الأمَّة ، وقد قمت بتتبُّع أخباره ، وحياته ، وعصره ، وقمت بترتيبها ، وتنسيقها ، وتوثيقها ، وتحليلها ؛ لكي تصبح في متناول أبناء أمَّتي على مختلف طبقاتهم من علماء ، ودعاةٍ ، وخطباء ، وساسةٍ ، ومفكِّرين ، وقادة جيوش ، وحكَّامٍ ، وطلاَّب علمٍ ، وعامَّة النَّاس ؛ لعلَّهم يستفيدون منها في حياتهم ، ويقتدون بها في أعمالهم ، فيكرمهم الله بالفوز في الدَّارين .

---

(١) البخاريُّ رقم (٣٦٩٥) .
(٢) فضائل الصَّحابة (١/ ٥٥٠) إسناده صحيحٌ .
(٣) البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النَّبيِّ ﷺ رقم (٣٦٩٨) .
(٤) البداية والنِّهاية (٧/٢٠٦) .
(٥) نونيَّة القحطاني ، ص (٢١ ـ ٢٥) .

لقد تحدَّثت في هذا الكتاب عن اسم ذي النُّورين ، ونسبه ، وكنيته ، وألقابه ، وأسرته ، ومكانته في الجاهليَّة ، وإسلامه ، وزواجه من رقيَّة بنت رسول الله ﷺ ، وابتلائه ، وهجرته للحبشة ، وعن حياته مع القرآن الكريم ، وملازمته للنَّبيِّ ﷺ ، وعن مواقفه في غزوات رسول الله ﷺ ، وعن حياته الاجتماعيَّة بالمدينة ، ومساهمته الاقتصاديَّة في بناء الدَّولة ، وتتبَّعت أحاديث رسول الله ﷺ في ذي النُّورين فيما ورد في فضائله مع غيره ، وما ورد عن رسول الله في أخباره عن الفتنة الَّتي يقتل فيها عثمان ، وتكلَّمت عن مكانته في عهد الصِّدِّيق ، والفاروق ، وبيَّنت قصَّة استخلافه ، وما قام به عبد الرحمن بن عوف من عملٍ عظيمٍ في إشرافه على إدارة الشُّورى ، ورددت على الروايات الباطلة الَّتي دسَّت في قصَّة الشُّورى ، فأثبتُّ بطلانها وزيفها بالحجج العلميَّة ، والبراهين القويَّة ، والأدلَّة المنطقيَّة ، وذكرت أقوال أهل العلم في أحقيَّة عثمان بالخلافة ، وانعقاد الإجماع على خلافته ، وشرحت منهج عثمان ـ رضي الله عنه ـ في نظام الحكم من خلال رسائله للولاة ، وأمراء الجند ، وعامَّة النَّاس ، ومواقفه في الحياة ، فقد وضَّح ـ رضي الله عنه ـ المرجعيَّة العليا للدَّولة ، وحقَّ الأمَّة في محاكمة الخليفة ، وقواعد الشُّورى ، والعدل ، والمساواة ، والحريَّات ، وأهميَّة الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر في حياة المجتمعات .

وقد أشرت إلى أهمِّ صفات عثمان ـ رضي الله عنه ـ القياديَّة ، وذكرت تسع عشرة صفةً من صفاته مع المواقف الدَّالة على تلك الصِّفات الرَّفيعة ، والأخلاق الحميدة ، وتحدَّثت عن المؤسَّسة الماليَّة ، فبيَّنت معالم السِّياسة الماليَّة الَّتي أعلنها عثمان عندما تولَّى الحكم ، وأنواع النَّفقات العامَّة في عهده ، كصرف مرتبات الولاة ، والجنود ، والإنفاق على الحجِّ ، وتمويل إعادة بناء المسجد النَّبويِّ ، وتوسعة المسجد الحرام ، وإنشاء أوَّل أسطولٍ بحريٍّ ، وتحويل السَّاحل من الشُّعيبة إلى جدَّة ، وتمويل حفر الآبار ، ورواتب المؤذِّنين ، وأشرت إلى أثر تدفُّق الأموال على الحياة الاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة ، وإلى حقيقة العلاقة بين عثمان ، وأقاربه ، والعطاء من بيت المال ، وتكلَّمت عن مؤسَّسة القضاء ، وبعض الاجتهادات الفقهيَّة لعثمان ، والَّتي أثرت في المدارس الفقهيَّة فيما بعد .

وجمعت فتوحات عثمان المتناثرة في كتب التَّاريخ ، وقمت بترتيبها ، وتنظيمها وفق حركة الجيوش في المشرق ، وبلاد الشَّام ، وفي الجبهة المصريَّة ، والشَّمال الإفريقي ، واستخرجت من حركة الفتوح دروساً ، وعبراً ، وفوائد ، كتحقُّق وعد الله للمؤمنين ، وتطوُّر فنون الحرب ، والسِّياسة ، والاهتمام بحدود الدَّولة ، والحرص على وحدة الكلمة في مواجهة العدوِّ ، وجمع المعلومات عن الأعداء ، وترجمت لبعض قادة الفتوح ، كالأحنف بن قيس ، وعبد الرَّحمن بن ربيعة الباهلي ، وسلمان بن ربيعة ، وحبيب بن مسلمة الفهريِّ ، وأشدتُ بأعظم مفاخر عثمان في توحيده للأمَّة على قراءة المصحف العثمانيِّ ، ووضَّحت المراحل الَّتي مرَّت بها كتابة القرآن

الكريم ، وتحدَّثت عن الباعث على جمع القرآن في عهده ، واستشارته لجمهور الصَّحابة ، وعن عدد المصاحف الّتي أرسلها إلى الأمصار ، وفهم الصَّحابة لآيات النَّهي عن الاختلاف ، وعن مؤسَّسة الولاة ، وأقاليم الدَّولة في عهده ، وسياسته مع الولاة ، وحقوقهم ، وواجباتهم ، وأساليبه في متابعة ولاته ، ومراقبتهم ، والاطلاع على أخبارهم ، وبيَّنت حقيقة ولاة عثمان ـ رضي الله عنهم ـ وماذا لهم ، وماذا عليهم ، وحقيقة علاقة عثمان بأبي ذرٍّ ، وابن مسعود ، وعمار بن ياسر ـ رضي الله عنهم ـ جميعاً .

وفصَّلت أسباب فتنة مقتل عثمان ، وأهمِّيَّة دراسة وقائع هذه الفتنة ، وتحدَّثت عن كلّ سببٍ من الأسباب في فقرةٍ مستقلَّةٍ ، كالرَّخاء وأثره في المجتمع ، وطبيعة التحوُّل الاجتماعيِّ ، ومجيء عثمان بعد عمر ـ رضي الله عنهما ـ وخروج كبار الصَّحابة من المدينة ، والعصبيَّة الجاهليَّة ، وتوقُّف الفتوحات ، والورع الجاهليِّ ، وطموح الطَّامحين ، وتآمر الحاقدين ، والتَّدبير المحكم لإثارة المآخذ ضدَّ الخليفة الرَّاشد المظلوم ، واستخدام الأساليب والوسائل المهيِّجة للناس ، وعن أثر السَّبئية في أحداث الفتنة ، والخطوات الّتي اتَّخذها عثمان ـ رضي الله عنه ـ لمعالجتها ، كإرسال لجان تحقيقٍ ، وتفتيشٍ ، وإرساله لكلِّ الأمصار كتاباً شاملاً بمثابة إعلانٍ عامٍّ لكلِّ المسلمين ، ومشورته لولاة الأمصار ، وإقامة الحجَّة على المتمرِّدين ، والاستجابة لبعض مطالبهم ، وبيَّنت ضوابط التعامل مع الفتن من خلال فقه عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، كالتَّثبُّت ، ولزوم العدل ، والإنصاف ، والحلم ، والأناة ، والحرص على ما يجمع ، ونبذ ما يفرِّق ، ولزوم الصَّمت ، والحذر من كثرة الكلام ، واستشارة العلماء الرَّبَّانيِّين ، والاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ في الفتن ، ووصفت احتلال أهل الفتنة للمدينة ، وحصارهم لعثمان ، ودفع الصَّحابة عنه ، ورفضه لذلك ، وذكرت مواقف الصَّحابة من مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ وما ورد من أقوالهم في الفتنة .

إنَّ هذا الكتاب يبرهن على عظمة ذي النُّورين ، ويثبت للقارئ الكريم بأنَّه كان عظيماً بإيمانه ، وبعلمه ، وبخُلُقه ، وبآثاره ، وكانت عظمته مستمدةً من فهمه ، وتطبيقه للإسلام ، وصلته العظيمة بالله واتِّباعه لهدي الرَّسول الكريم ﷺ .

إن عثمان ـ رضي الله عنه ـ من الأئمَّة الّذين يتأسَّى الناس بهديهم ، وبأقوالهم ، وأفعالهم في هذه الحياة ، فسيرته من أقوى مصادر الإيمان ، والعاطفة الإسلاميَّة الصَّحيحة ، والفهم السَّليم لهذا الدِّين ، فلذلك اجتهدت في دراسة شخصيته ، وعصره حسب وسعي ، وطاقتي ، غير مدعٍ عصمةً ، ولا متبرئٍ من زلَّةٍ ، ووجهَ الله الكريم لا غيره قصدتُ ، وثوابَه أردتُ ، وهو المسؤولُ في المعونة عليه ، والانتفاع به ، إنَّه طيِّب الأسماء ، وسميع الدُّعاء .

هذا ، وقد انتهيتُ من هذا الكتاب السَّاعة الثَّانية من فجر يوم الأربعاء بتاريخ ٨ من شهر ربيع

حالثاني لعام ١٤٢٣ هـ الموافق ١٨/٦/٢٠٠٢ م والفضل لله من قبلُ ، ومن بعدُ ، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ، ولعباده نافعاً ، وأن يثيبني على كلِّ حرف كتبته ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني الّذين أعانوني بكافَّة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع ، ونرجو من كلِّ مسلم يطَّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ، ومغفرته ، ورحمته ، ورضوانه من دعائه ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك

أشهد أن لا إلٰه إلاَّ أنت

أستغفرك وأتوب إليك

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

الفقير إلى عفو ربِّه ، ومغفرته ، ورحمته ، ورضوانه

علي محمَّد محمَّد الصلابيُّ

الفصل الأوَّل
ذو النُّورين عثمان بن عفَّان رضي الله عنه بين مكَّة والمدينة

المبحث الأوَّل
اسمه، ونسبه، وكنيته، وألقابه، وصفته، وأسرته، ومكانته في الجاهلية

أولاً: اسمه، ونسبه، وكنيته، وألقابه:

١ـ هو عثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيٍّ بن كلاب[١]، ويلتقي نسبه بنسب رسول الله ﷺ في عبد مناف. وأمَّه أروى بنت كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيٍّ[٢]، وأمُّها أمُّ حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، وهي شقيقة عبد الله والد النَّبيِّ ﷺ، ويقال: إنَّهما وُلدا توءماً، حكاه الزُّبير بن بكَّار، فكان ابن بنت عمَّة النَّبيِّ ﷺ، وكان النَّبيُّ ﷺ ابن خال والدته، وقد أسلمت أمُّ عثمان، وماتت في خلافة ابنها عثمان، وأنَّه كان ممَّن حملها إلى قبرها[٣]، وأمَّا أبوه فهلك في الجاهليَّة.

٢ـ كنيته: كان يكنى في الجاهليَّة أبا عمرو، فلمَّا وُلد له من رقيَّة بنت رسول الله غلامٌ سمَّاه عبد الله، واكتنى به، فكنَّاه المسلمون أبا عبد الله[٤].

٣ـ لقبه: كان عثمان رضي الله عنه يلقَّب بذي النُّورين، وقد ذكر بدر الدِّين العيني[٥] في شرحه على صحيح البخاريِّ: أنه قيل للمهلب بن أبي صفرة[٦]: لم قيل لعثمان: ذو النُّورين؟

---

(١) الطَّبقات، لابن سعد (٣/ ٥٣). والإصابة (٤/ ٣٧٧) رقم (٥٤٦٣).

(٢) التَّمهيد والبيان، لمحمد يحيى الأندلسي، ص (١٩).

(٣) الخلافة الرَّاشدة والدَّولة الأمويَّة، د. يحيى اليحيى، ص (٣٨٨).

(٤) التَّمهيد والبيان، ص (١٩).

(٥) هو محمود بن أحمد بن موسى العيني، أبو محمَّد: من علماء التَّاريخ، والحديث، والفقه، له تآليف كثيرةٌ. توفِّي ٨٥٥ هـ. انظر: شذرات الذهب (٧/ ٢٨٦). والضَّوء اللامع (١٠/ ١٣١).

(٦) هو المهلَّب بن أبي صفرة الأزدي العقلي: من الأمراء الأبطال، غزا الهند في خلافة معاوية، وولي الجزيرة لابن الزُّبير، وحارب الخوارج في عهد عبد الملك بن مروان، ثمَّ ولي خراسان من قبله سنة =

فقال: لأنَّا لا نعلم أحداً أرسل ستراً على بنتي نبيٍّ غيره[١].

وقال عبد الله بن عمر بن أبان الجعفيُّ: قال لي خالي حسين الجعفيُّ: يا بني! أتدري لِمَ سُمِّي عثمان ذا النُّورين؟ قلت: لا أدري! قال: لم يجمع بين ابنتي نبيٍّ منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم السَّاعة، غير عثمان، فلذلك سمِّي ذا النُّورين[٢].

وقيل: قد سمِّي بذي النُّورين؛ لأنَّه كان يكثر من تلاوة القرآن في كلِّ ليلة في صلاته، فالقرآن نورٌ، وقيام اللَّيل نورٌ[٣].

٤ـ ولادته: ولد في مكَّة بعد عام الفيل بستٍّ سنين على الصَّحيح[٤]، وقيل: ولد في الطَّائف؛ فهو أصغر من رسول الله ﷺ بنحو خمس سنين[٥].

٥ـ صفته الخَلْقيَّة: كان رجلاً ليس بالقصير، ولا بالطَّويل، رقيق البشرة، كثَّ اللِّحية، عظيمها، عظيم الكراديس[٦]، عظيم ما بين المنكبين، كثير شعر الرَّأس، يصفِّر لحيته، وقال الزُّهري: كان عثمان رجلاً مربوعاً، حسن الشَّعر، حسن الوجه، أصلع، أرْوَح الرِّجلين[٧]، وأقنى[٨]، خدل السَّاقين[٩]، طويل الذِّراعين، قد كسا ذراعيه، جعد الشَّعر، أحسن النَّاس ثغراً، جُمَّتُه[١٠] أسفل من أذنيه، حسن الوجه، والرَّاجح: أنَّه أبيض اللَّون، وقيل: أسمر اللَّون[١١].

ثانياً: أسرته:

تزوَّج عثمان رضي الله عنه ثماني زوجات، كلُّهنَّ بعد الإسلام وَهُنَّ: رقيَّة بنت رسول الله

= ٧٩ هـ، وترجع شهرته إلى حرب الخوارج. توفي ٨٣ هـ. وفيات الأعيان (٥/ ٣٥٠)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٣).

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاريِّ (١٦/ ٢٠١).
(٢) سنن البيهقي (٧/ ٧٣)، قال الدُّكتور عاطف لماضة: خبرٌ حسن.
(٣) عثمان بن عفان ذو النُّورين ـ لعباس العقاد، ص (٧٩).
(٤) الإصابة (٤/ ٣٧٧) رقم (٥٤٦٤).
(٥) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص (٤٥).
(٦) الكراديس: جمع كردوس، وهو كلُّ عظمين التقيا في مفصل.
(٧) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٤٠). وأروح الرِّجلين: منفرج ما بينهما.
(٨) أقنى: طويل الأنف مع دقة أرنبته، وحدب في وسطه.
(٩) خدل الساقين: أي: ضخم السَّاقين.
(١٠) جمَّته: مجتمع شعر الرأس.
(١١) صفة الصَّفوة (١/ ٢٩٥)، صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي النُّورين، ص (١٥).

ﷺ ، وقد أنجبت له عبد الله بن عثمان ، ثمَّ تزوج أمَّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة رقيَّة ، وتزوج فاختة بنت غزوان ؛ وهي أخت الأمير عتبة بن غزوان ، وأنجبت لعثمان عبد الله الأصغر ، وأم عمرو بنت جندب الأزديَّة ؛ وقد أنجبت لعثمان : عَمْراً ، وخالداً ، وأبان ، وعُمَرَ ، ومريم ، وتزوَّج فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزوميَّة ؛ وأنجبت لعثمان : الوليد ، وسعيداً ، وأمَّ سعد ، وتزوَّج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزاريَّة ؛ وأنجبت لعثمان ، عبد الملك ، وتزوَّج رملة بنت شيبة بن ربيعة الأمويَّة ؛ وأنجبت لعثمان ، عائشة ، وأمَّ أبان ، وأمَّ عمرو ، وقد أسلمت رملة ، وبايعت رسول الله ﷺ ، وتزوَّج نائلة بنت الفرافصة الكلبيَّة ، وكانت على النَّصرانية ، وقد أسلمت قبل أن يدخل بها ، وحَسُنَ إسلامها[١] .

وأمَّا أبناؤه ؛ فقد كانوا تسعة أبناء من الذُّكور من خمس زوجاتٍ . وهم : **عبد الله** : وأمَّه رقيَّة بنت رسول الله ﷺ ، ولد قبل الهجرة بعامين ، وأخذته أمُّهُ معها عندما هاجرت مع زوجها عثمان إلى المدينة ، وفي أوائل أيَّام الحياة في المدينة نقره الدِّيك في وجهه قرب عينه ، وأخذ مكان نقر الدِّيك يتَّسع حتَّى طمر وجهه حتَّى مات في السَّنة الرابعة للهجرة ، وكان عمره ستَّ سنواتٍ[٢] .

وعبد الله الأصغر : وأمُّه فاختة بنت غزوان . **وعمرو** : وأمُّه أم عمرو بنت جندب ، وقد روى عن أبيه ، وعن أسامة بن زيدٍ ، وروى عنه عليُّ بن الحسين ، وسعيد بن المسيَّب ، وأبو الزِّنَّاد ، وهو قليل الحديث ، وتزوَّج رملة بنت معاوية بن أبي سفيان ، توفي سنة ثمانين للهجرة .

وخالد : وأمَّه أم عمرو بنت جندب . **وأبان** : وأمه أم عمرو بنت جندب ، كان إماماً في الفقه ، يكنى أبا سعيد ، وتولَّى إمرة المدينة سبع سنين في عهد عبد الملك بن مروان ، سمع أباه ، وزيد بن ثابت ، له أحاديث قليلةٌ ، منها ما رواه عن عثمان : « مَنْ قال في أوَّل يومه وليلته : بسم الله الَّذي لا يضرُّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء ، وهو السَّميع العليم ؛ لم يضرَّه ذلك اليوم شيءٌ ، أو تلك اللَّيلة » . فلمَّا أصاب أبانَ الفالجُ قال : إنِّي والله نسيت هذا الدُّعاء ليمضي فيَّ أمر الله[٣] . ويعتبر من فقهاء المدينة في زمنه ، وقد توفِّي سنة خمس ومئةٍ[٤] .

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/٤٤١) ، والتَّمهيد والبيان في مقتل الشَّهيد عثمان ، ص (١٩) . والأمين ذو النُّورين ، لمحمود شاكر ، ص (٣٦٤) .

(٢) الأمين ذو النُّورين ، ص(٣٦٥) ، والتَّمهيد والبيان ، ص(١٩) .

(٣) سنن التِّرمذي ، كتاب الدَّعوات رقم (٣٣٨٥) حديثٌ صحيحٌ .

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٣) . وتاريخ القضاعي ، ص(٣٠٨) .

وعمر : وأمُّه أم عمرو بنت جندب . **والوليد** : وأمَّه فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزوميَّة . **وسعيد** : وأمُّه فاطمة بنت الوليد المخزوميَّة ، تولَّى أمر خراسان عام ستةٍ وخمسين أيَّام معاوية بن أبي سفيان . **وعبد الملك** : وأمَّه أمُّ البنين بنت عيينة بن حصن ، ومات صغيراً . ويقال : ولدت نائلة بنت الفرافصة ولداً لعثمان سُمِّيَ : عنبسة[1] .

وأمَّا بناته ؛ فهنَّ سبعٌ من خمس نساءٍ . **مريم** : وأمَّها أمُّ عمرو بنت جندب . **وأمُّ سعيد** : وأمُّها فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس المخزوميَّة . **وعائشة** : وأمُّها رملة بنت شيبة بن ربيعة . **ومريم بنت عثمان** : وأمُّها نائلة بنت الفرافصة . **وأمُّ البنين** : وأمُّها أم[2] ولد .

وأمَّا شقيقة عثمان ؛ فهي آمنة بنت عفَّان ، فقد عملت ماشطةً في الجاهليَّة ، ثمَّ تزوَّجت الحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة المخزومي ، وأَسرتْ سريَّةُ **عبد الله** ابن جحش الحكم بن كيسان ، وفي المدينة أسلم ، وحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله ؛ حتَّى قتل يوم بئر معونة شهيداً في بداية السَّنة الرَّابعة للهجرة ، وبقيت آمنة بنت عفَّان في مكَّة على شِركِها حتَّى يوم الفتح ، حيث أسلمت مع أمِّها ، وبقيَّة أخواتها ، وبايعت رسول الله ﷺ مع هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقْن ، ولا يزنين[3] .

وأمَّا إخوة عثمان من أمِّه ؛ فله ثلاثة إخوةٍ ، وهم : الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، قتل أبوه يوم بدرٍ صبراً وهو كافرٌ ، وخرج الوليد مع أخيه عمارة بعد الحديبية لردِّ أختهما أمِّ كلثوم الَّتي أسلمت ، وهاجرت ، فأبى رسول الله ﷺ ردَّها ، وأسلم الوليد يوم الفتح . وعمارة بن عقبة ، تأخَّر إسلامه . وخالد بن عقبة .

وأمَّا أخواته من أمِّه ؛ فهنَّ : أمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، أسلمت بمكَّة ، وهاجرت ، وبايعت رسول الله ﷺ ، وهي أوَّل من هاجر من النِّساء بعد أن عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية . وأمُّ حكيم بنت عقبة . وهند بنت عقبة[4] .

ثالثاً : مكانته في الجاهليَّة :

كان رضي الله عنه في أيَّام الجاهليَّة من أفضل النَّاس في قومه ؛ فهو عريض الجاه ، ثريٌّ ، شديد الحياء ، عذب الكلمات ، فكان قومه يحبُّونه أشدَّ الحبِّ ، ويوقِّرونه ، لم يسجد في

---

(١) الأمين ذو النُّورين ، ص (٣٦٩) .

(٢) التَّمهيد والبيان ، ص(٢٠) .

(٣) الأمين ذو النُّورين ، ص (٣٤٦) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٣٥٤) .

الجاهليَّة لصنم قطُّ ، ولم يقترف فاحشة قطُّ ، فلم يشرب خمراً قبل الإسلام ، وكان يقول : إنَّها تذهب العقل . والعقل أسمى ما منحه الله للإنسان ، وعلى الإنسان أن يسمو به ، لا أن يصارعه ، وفي الجاهليَّة كذلك لم تجذبه أغاني الشَّباب ، ولا حلقات اللَّهو ، ثمَّ إنَّ عثمان كان يتعفَّف عن أن يرى عورته[(١)] ، ويرحم الله عثمان رضي الله عنه فقد يسَّر لنا سبيل التعرُّف عليه ، حيث قال : « ما تغنَّيت ، ولا تمنَّيت ، ولا مسَسْت ذكري بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ ، ولا شربت خمراً في جاهليَّةٍ ، ولا إسلام ، ولا زنيت في جاهليَّة ولا في إسلامٍ »[(٢)] .

وكان رضي الله عنه على علمٍ بمعارف العرب في الجاهليَّة ، ومنها الأنساب ، والأمثال ، وأخبار الأيَّام ، وساح في الأرض ، فرحل إلى الشَّام ، والحبشة ، وعاشر أقواماً غير العرب ، فعرف من أحوالهم ، وأطوارهم ما ليس يعرفه غيره[(٣)] ، واهتمَّ بتجارته الَّتي ورثها عن والده ، ونمت ثرواته ، وأصبح يعدُّ من رجالات بني أميَّة الَّذين لهم مكانةٌ في قريشٍ كلِّها ، فقد كان المجتمع المكِّيُّ الجاهليُّ الَّذي عاش فيه عثمان يقدِّر الرِّجال حسب أموالهم ، ويُهاب فيه الرِّجال حسب أولادهم ، وإخوتهم ، ثمَّ عشيرتهم ، وقومهم ، فنال عثمان مكانةً مرموقةً في قومه ، ومحبَّةً كبيرةً . ومن أطرف ما يروى عن حبِّ النَّاس لعثمان لما تجمَّع فيه من صفات الخير : أنَّ المرأة العربية في عصره كانت تغنِّي لطفلها أغنيةً تحمل تقدير النَّاس له ، وثناءهم عليه ، فقد كانت تقول :

أحبُّــــك والـــــرَّحمــــــن حــــبَّ قــــريـــشٍ لعثمــــان[(٤)]

رابعاً : إسلامه :

كان عثمان قد ناهز الرَّابعة والثلاثين من عمره حين دعاه أبو بكر الصِّدِّيق إلى الإسلام ، ولم يُعْرَف عنه تلكُّؤٌ ، أو تلعثمٌ ، بل كان سباقاً أجاب على الفور دعوة الصِّدِّيق ، فكان بذلك من السَّابقين الأوَّلين حتَّى قال أبو إسحاق : كان أوَّل النَّاس إسلاماً بعد أبي بكرٍ ، وعليٍّ ، وزيد بن حارثة عثمان[(٥)] ، فكان بذلك رابع من أسلم من الرِّجال ، ولعلَّ سبقه هذا إلى الإسلام كان نتيجةً لما حدث له عند عودته من الشَّام ، وقد قصَّه رضي الله عنه على رسول الله ﷺ حين دخل عليه هو ، وطلحة بن عبيد الله ، فعرض عليهما الإسلام ، وقرأ عليهما القرآن ، وأنبأهما بحقوق

---

(١) موسوعة التَّاريخ الإسلامي ، لأحمد شلبي (١/ ٦١٨) .

(٢) حلية الأولياء (١/ ٦٠ ، ٦١) الخبر صحيحٌ .

(٣) عبقريَّة عثمان ، للعقَّاد ، ص (٧٢) .

(٤) موسوعة التَّاريخ الإسلامي (١/ ٦١٨) .

(٥) السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (١/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩) .

الإسلام ، ووعدهما الكرامة من الله ، فآمنا ، وصدَّقا . فقال عثمان : يا رسول الله ! قدمت حديثاً من الشَّام ، فلمَّا كنَّا بين معان والزَّرقاء ، ونحن كالنِّيام إذا منادٍ ينادينا : أيُّها النِّيام ! هبُّوا ؛ فإنَّ أحمد قد خرج بمكَّة ، فقدمنا ، فسمعنا بك[١] .

لا شكَّ أنَّ هذه الحادثة تترك في نفس صاحبها أثراً إيجابياً لا يستطيع أن يتخلَّى عنه ، عندما يرى الحقيقة ماثلةً بين عينيه ، فمن ذا الذي يسمع بخروج النبيِّ ﷺ قبل أن يصل إلى البلد الّذي يعيش فيه ؛ حتَّى إذا نزله ، ووجد الأحداث والحقائق تنطق كلُّها بصدق ما سمع به ، ثمَّ يتردد في إجابة الدَّعوة ؟ ! لا يستطيع الإنسان مهما كان مكابراً إلا أن يذعن للحقِّ ، ومهما أظهر الجفاء فإنَّ ضميره لا يزال يتلجلج في صدره ؛ حتَّى يؤمن به أو يموت ، فيتخلَّص من وخز الضَّمير ، وتأنيبه ، ولم تكن سرعة تلبيته عن طيشٍ ، أو حمقٍ ، ولكنَّها كانت عن يقينٍ راسخٍ ، وتصديقٍ لا يتطرَّق إليه شكٌّ[٢] ، فقد تأمّل في هذه الدَّعوة الجديدة بهدوءٍ كعادته في معالجة الأمور ، فوجد : أنَّها دعوةٌ إلى الفضيلة ، ونبذٌ للرَّذيلة ، دعوةٌ إلى التَّوحيد ، وتحذير من الشِّرك ، دعوةٌ إلى العبادة ، وترهيب من الغفلة ، ودعوةٌ إلى الأخلاق الفاضلة ، وترهيبٌ من الأخلاق السَّيِّئة ، ثمَّ نظر إلى قومه ، فإذا هم يعبدون الأوثان ، ويأكلون الميتة ، ويسيئون الجوار ، ويستحلُّون المحارم من سفك الدِّماء ، وغيرها[٣] ، وإذا بالنَّبيِّ محمَّد بن عبد الله ﷺ صادقٌ أمينٌ ، يُعرف عنه كلُّ خير ، ولا يُعرف عنه شرٌّ قطُّ ، فلم تعهد عليه كذبةٌ ، ولم تحسب عليه خيانةٌ ، فإذا هو يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى صلة الرَّحم ، وحسن الجوار ، والصَّلاة ، والصَّوم ، وألا يُعبد غير الله[٤] ، فأسلم على يد أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، ومضى في إيمانه قدماً ، قويّاً ، هادئاً ، وديعاً ، صابراً ، عظيماً ، راضياً ، عفوّاً ، كريماً ، محسناً ، رحيماً ، سخيّاً ، باذلاً ، يؤاسي المؤمنين ، ويعين المستضعفين ، حتَّى اشتدَّت قناة الإسلام[٥] ، وفي إسلام عثمان قالت خالته سعدى بنت كريز :

هَـدَى الله عُثْمَـانَـا بِقَـوْلِـي إِلَـى الْهُـدَىٰ ... وَأَرْشَـدَهُ والله يَهْـدِي إِلَـى الحَـقِّ
فَتَـابَـعَ بِـالـرَّأْيِ السَّـدِيْـدِ مُحَمَّـداً ... وَكَـانَ بِـرَأْيٍ لاَ يُصَـدُّ عَـنِ الصِّـدْقِ
وَأَنْكَحَـهُ الْمَبْعُـوثُ بِـالْحَـقِّ بِنْتَـهُ ... فَكَـانَ كَبَـدْرٍ مَـازَجَ الشَّمْـسَ فِـي الأُفْـقِ

---

(١) الطَّبقات ، لابن سعد (٣/ ٥٥) .

(٢) جولة تاريخيَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص (٣٠٢) .

(٣) انظر : مرويَّات العهد المكِّي ، لعادل عبد الغفور (٢/ ٨٠٥) .

(٤) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص (٥٣) .

(٥) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ٣٧) .

فِـدَاؤُكَ يَـا بْـنَ الهَـاشِمِيِّـن مُهْجَتِـي وَأَنْـتَ أَمِيْـنُ اللهِ أُرْسِلْـتَ لِلْخَلْـقِ(١)

خامساً : زواجه من رقيّة بنت رسول الله ﷺ :

فرح المسلمون بإسلام عثمان فرحاً شديداً ، وتوثَّقت بينه وبينهم عُرا المحبَّة ، وأخوَّة الإيمان ، وأكرمه الله تعالى بالزَّواج من بنت رسول الله ﷺ رقيَّة ، وقصَّة ذلك : أنَّ رسول الله ﷺ كان قد زوَّجها من عتبة بن أبي لهب ، وزوّج أختها أمَّ كلثوم من عتيبة بن أبي لهب ، فلمَّا نزلت سورة المسد : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ [المسد : ١ ـ ٥] قال لهما أبو لهب ، وأمُّهما أمُّ جميل بنت حرب بن أميَّة (حمَّالة الحطب) : فارقا ابنتي محمَّد ! ففارقاهما قبل أن يدخلا بهما كرامةً من الله تعالى لهما ، وهواناً لابني أبي لهبٍ(٢) ، وما كاد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه يسمع بخبر طلاق رقيَّة حتَّى استطار(٣) فرحاً . . . وبادر فخطبها من رسول الله ﷺ فزوَّجها الرَّسول الكريم ﷺ منه ، وزفَّتها(٤) أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وقد كان عثمان من أبهى قريش طلعةً ، وكانت هي تضاهيه قسامةً ، وصباحةً ، فكان يقال لها حين زُفَّت إليه :

أَحْسَـنُ زَوْجَيْـنِ رَأَىٰ إِنْسَـانُ رُقَيَّـةُ ، وَزَوْجُهَـا عُثْمَـانُ(٥)

وعن عبد الرَّحمن بن عثمان القرشيِّ : أنَّ رسول الله ﷺ دخل على ابنته وهي تغسل رأس عثمان ، فقال : يا بُنية ! أحسني إلى أبي عبد الله ، فإنَّه أشبه أصحابي بي خُلُقاً(٦) .

ظنَّت أمُّ جميل بنت حرب ، وزوجها أبولهب : أنَّهما بتسريح رقيَّة ، وأمِّ كلثوم رضي الله عنهما سيصيبان من البيت المحمَّديِّ مقتلاً ، أو سيوهنانه ، ولكنَّ الله ـ عز وجل ـ اختار لرقيَّة ، وأمِّ كلثوم الخيْر ، وردَّ الشَّقيَّيْن أمَّ جميلٍ ، وأبا لهبٍ بغيظهما لم ينالاً خيراً ، وكفى الله البيت النَّبويَّ شرَّهما ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً(٧) .

سادساً : ابتلاؤه ، وهجرته إلى الحبشة :

إنَّ سنَّة الابتلاء ماضيةٌ في الأفراد ، والجماعات ، والشُّعوب ، والأمم ، والدُّول ، وقد

---

(١) البداية والنِّهاية (٧/ ٢١٠) .

(٢) ذو النُّورين عثمان بن عفان رضي الله عنه لمحمد رشيد رضا ، ص(١٢) .

(٣) كاد يطير من شدَّة الفرح .

(٤) زفَّتها : قدَّمتها إلى زوجها .

(٥) أنساب الأشراف ، ص(٨٩) .

(٦) رواه الطَّبراني ورجاله ثقاتٌ ، قاله الهيثمي ، المجمع ، رقم (٩/ ٨١) .

(٧) دماءٌ على قميص عثمان ، د . إبراهيم المنتاوي ، ص (٨٤) .

مضت هذه السُّنَّة في الصَّحابة الكرام ، وتحمَّلوا من البلاء ما تنوء به الرَّواسي الشَّامخات ، وبذلوا أموالهم ، ودماءهم في سبيل الله ، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء ، فقد أوذي عثمان ، وعذِّب في سبيل الله تعالى على يدي عمِّه الحكم بن أبي العاص بن أميَّة ، الَّذي أخذه ، فأوثقه رباطاً ، وقال له : أترغب عن ملَّة آبائك إلى دينٍ محدثٍ ؟ والله لا أحُلُّك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدِّين ! فقال عثمان رضي الله عنه : والله لا أدعه أبداً ، ولا أفارقه ! فلمَّا رأى الحكم صلابته في دينه ؛ تركه[١] ، واشتدَّ الإيذاء بالمسلمين جميعاً ، وتجاوز الحدَّ ؛ حيث قُتل ياسرٌ ، وزوجته سميَّة ، والنَّبيُّ يتألَّم أشدَّ الألم ، ويفكِّر إلى أين يذهب المسلمون ؟ ثمَّ اهتدى رسول الله ﷺ إلى الحبشة ، حيث قال للمسلمين : « **لو خرجتم إلى الحبشة ؛ فإنَّ بها ملكاً صالحاً ، لا يظلم عنده أحدٌ** »[٢] .

وبدأت الهجرة والنَّبيُّ ﷺ يتألَّم ، وهو يرى الفئة المؤمنة تتسلَّل سرّاً[٣] خارجةً من مكَّة ، ويركبون البحر ، وخرج يمتطي بعضهم الدَّواب ، والبعض الآخر يسير على الأقدام ، وتابعوا السَّير حتَّى وصلوا ساحل البحر الأحمر ، ثمَّ أمَّروا عليهم عثمان بن مظعون ، وشاءت عناية الله أن يجدوا سفينتين ، فركبوا مقابل نصف دينار لكلٍّ منهم ، وعلمت قريش ، فأسرعت في تعقُّبهم إلى السَّاحل ، ولكنَّهم كانوا قد أبحرت بهم السَّفينتان[٤] ، وكان ممَّن هاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الأولى ، والهجرة الثَّانية عثمان بن عفَّان ، ومعه فيهما امرأته رقيَّة بنت رسول الله ﷺ ، وكان وصولهم للحبشة في شهر رجب من السَّنة الخامسة من البعثة ، فوجدوا الأمن ، والأمان ، وحرِّيَّة العبادة ، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن هجرة المسلمين الأوائل إلى أرض الحبشة قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤١] .

وقد نقل القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ قول قتادة ـ رحمه الله ـ : المراد : أصحاب محمَّدٍ ﷺ ، ظلمهم المشركون بمكَّة ، وأخرجوهم ؛ حتَّى لحق طائفةٌ منهم بالحبشة ، ثمَّ بوَّأهم الله تعالى دار الهجرة ، جعل لهم أنصاراً من المؤمنين[٥] .

وقال تعالى : ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ

---

(١) التَّمهيد والبيان ، ص(٢٢) .

(٢) الهجرة في القرآن الكريم ، ص (٢٩٠) . والسِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (١/ ٤١٣) .

(٣) دماءٌ على قميص عثمان ، ص(١٥) . والطَّبقات (١/ ٢٠٤) .

(٤) الطَّبقات (١/ ٢٠٤) . وتاريخ الطَّبري (٢/ ٦٩) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٠٧) .

وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] . قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما : يريد جعفر بن أبي طالب ، والّذين خرجوا معه إلى الحبشة[١] . وقد استفاد عثمان رضي الله عنه من هذه الهجرة ، وأضاف خبرةً ، ودروساً لنفسه ، استفاد منها في مسيرته الميمونة ، ومن أهمِّ هذه الدُّروس ، والعبر :

١ ـ أنَّ ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن يُنزل بهم الأشرار ، والضَّالون أنواع العذاب والاضطهاد دليلٌ على صدق إيمانهم ، وإخلاصهم في معتقداتهم ، وسموِّ نفوسهم ، وأرواحهم ، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضَّمير ، واطمئنان النَّفس ، والعقل ، وما يأملونه من رضا الله ـ جلَّ شأنه ـ أعظمُ بكثير ممَّا ينال أجسادهم من تعذيبٍ ، وحرمانٍ ، واضطهادٍ ، لأنَّ السَّيطرة في المؤمنين الصَّادقين ، والدُّعاة المخلصين ، تكون دائماً وأبداً لأرواحهم ، لا لأجسادهم ، وهم يسرعون إلى تلبية مطلب أرواحهم من حيث لا يبالون بما تتطلَّبه أجسامهم من راحةٍ ، وشبعٍ ، ولذَّةٍ ، وبهذا تنتصر الدَّعوات وبهذا تتحرَّر الجماهير من الظُّلمات ، والجهالات[٢] .

٢ ـ وقد تعلَّم عثمان رضي الله عنه من هدي النبي ﷺ الشَّفقة على الأمَّة ، وظهرت هذه الشَّفقة عندما تولَّى الخلافة ، وقَبْلها لمَّا كان في المجتمع المدنيِّ في عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ ، وأبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما فقد رأى بعينه وبصيرة قلبه شفقة النَّبيِّ ﷺ على أصحابه ، ورحمته بهم ، وحرصه الشَّديد للبحث عن أمنهم ، وراحتهم ، ولذلك أشار عليهم بالذَّهاب إلى الملك العادل الّذي لا يظلم عنده أحدٌ ، فكان الأمر كما قال ﷺ ، فأمنوا في دينهم ، ونزلوا عنده في خير منزلٍ[٣] ، فالرَّسول ﷺ هو الّذي وجَّه الأنظار إلى الحبشة ، وهو الّذي اختار المكان الآمن لجماعته ، ودعوته ؛ كي يحميها من الإبادة ، وهذه تربيةٌ نبويَّةٌ لقيادات المسلمين في كلِّ عصرٍ أن تخطِّط بحكمةٍ ، وبُعد نظرٍ لحماية الدَّعوة ، والدُّعاة ، وتبحث عن الأرض الآمنة الّتي تكون عاصمةً احتياطيَّةً للدَّعوة ، ومركزاً من مراكز انطلاقها فيما لو تعرَّض المركز الرَّئيسيُّ للخطر ، أو وقع احتمال اجتياحه ، فجنود الدَّعوة هم الثَّروة الحقيقيَّة ، وهم الّذين تنصبُّ الجهود كلُّها لحفظهم ، وحمايتهم ، دون أن يتمَّ أيُّ تفريطٍ بأرواحهم ، وأمنهم ، ومسلمٌ واحدٌ يعادل ما على الأرض من بشرٍ خارجين عن دين الله ، وتوحيده[٤] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (١٥/ ٢٤٠) .
(٢) السِّيرة النَّبوية ، للدُّكتور مصطفى السِّباعي ، ص(٥٧) .
(٣) الهجرة في القرآن الكريم ، ص(٣١٢) .
(٤) التَّربية القياديَّة (١/ ٣٣٣) .

٣ ـ وتعلَّم عثمان رضي الله عنه من هدي النَّبيِّ ﷺ في هجرة الحبشة : أنَّ الأخطار لا بدَّ أن يتجشَّمها المقرَّبون إلى القائد ، وأهله ، ورحمه ، أمَّا أن يكون خواصُّ القائد في منأى عن الخطر ، ويدفع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة ، فهو منهجٌ بعيدٌ عن نهج النَّبيِّ ﷺ[١] ، ولهذا لمَّا تولى ذو النُّورين الخلافة كان أقرباؤه في مقدَّمة الجيوش ، فهذا عبد الله بن أبي سرح في فتوحات إفريقية ، وذاك عبد الله بن عامر في فتوحات المشرق ، وألزم معاوية أن يركب البحر ومعه زوجته ، وأن يكون في مقدّمة الجيوش الغازية ، وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله عند حديثنا عن الفتوحات .

٤ ـ كان عثمان رضي الله عنه أول من هاجر إلى الحبشة بأهله من هذه الأمَّة[٢] ، قال رسول الله ﷺ : « **صحبهما الله ! إنَّ عثمان لأوَّل من هاجر إلى الله بأهله بعد لوطٍ** »[٣] .

ولمَّا أُشيع : أن أهل مكة قد أسلموا وبلغ ذلك مهاجري الحبشة أقبلوا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكَّة كان باطلاً ، فدخلوا في جوار بعض أهل مكة ، وكان فيمن رجع عثمان بن عفَّان وزوجه رقيَّة رضي الله عنهما[٤] ، واستقرَّ المقام به حتَّى أذن الله بالهجرة إلى المدينة ، ومنذ اليوم الّذي أسلم فيه عثمان لزم النَّبيَّ ﷺ حيث كان ، ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه ، أو في مهمَّةٍ من المهامِّ الّتي يندب لها ، ولا يغني أحد فيها غناءه ، شأنه في هذه الملازمة شأن الخلفاء الرَّاشدين جميعاً ، كأنَّما هي خاصَّةٌ من خواصِّهم ، رشَّحهم لها ما رشَّحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين[٥] ، لقد كان ذو النُّورين على صلةٍ وثيقةٍ بالدَّعوة الكبرى من سنتها الأولى ، فلم يَفُتْهُ شيءٌ من أخبار النُّبوَّة الخاصَّة ، والعامَّة في حياة النَّبيِّ ﷺ ، ولم يَفُتْهُ شيءٌ بعدها من أخبار الخلافة في حياة الشَّيخين ، ولم يَفُتْهُ بعبارةٍ أخرى شيءٌ ممَّا نسميه اليوم بأعمال التَّأسيس في الدَّولة الإسلاميَّة[٦] .

* * *

(١) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٣٣٣) . والسِّيرة النَّبوية للصَّلاَّبي (١/ ٣٤٨) .

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٣١٤) .

(٣) المعرفة والتَّاريخ (٣/ ٢٦٨) ضعيف الإسناد .

(٤) السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (١/ ٤٠٢) .

(٥) عثمان بن عفان ، للعقاد ، ص(٨٠) .

(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٧٨) .

المبحث الثَّاني
حياة عثمان رضي الله عنه مع القرآن الكريم

كان المنهج التَّربويُّ الّذي تربَّى عليه عثمان بن عفَّان وكلُّ الصَّحابة الكرام هو القرآن الكريم ، المنزَّل من عند ربِّ العالمين ، فهو المصدر الوحيد للتَّلقِّي ؛ لذلك حرص الحبيب المصطفى على توحيد مصدر التَّلقِّي وتفرُّده ، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج الّذي يتربَّى عليه الفرد المسلم ، والأسرة المسلمة ، والجماعة المسلمة ، فكانت للآيات الكريمة الّتي سمعها عثمان رضي الله عنه من رسول الله ﷺ مباشرةً أثرها في صياغة شخصيَّة ذي النُّورين الإسلاميَّة ، فقد طهَّرت قلبه ، وزكَّت نفسه ، وتفاعلت معها روحه ، فتحوَّل إلى إنسانٍ جديدٍ بقيمه ، ومشاعره ، وأهدافه ، وسلوكه ، وتطلُّعاته[١] ، وقد تعلَّق عثمان رضي الله عنه بالقرآن الكريم ، وحدَّثنا أبو عبد الرَّحمن السُّلمي كيف تعلَّمه من رسول الله ﷺ ، وله أقوالٌ تدلُّ على حبِّه الشَّديد للعيش مع كتاب الله تعالى ، فعن أبي عبد الرحمن السُّلمي قال : حدَّثنا الّذين كانوا يقرئوننا القرآن ـ كعثمان بن عفَّان ، وعبد الله بن مسعودٍ ، وغيرهما : أنَّهم كانوا إذا تعلَّموا من النَّبيِّ ﷺ عشر آيات ، لم يتجاوزوها حتَّى يتعلموا ما فيها من العلم ، والعمل ، قالوا : فتعلَّمنا القرآن ، والعلم ، والعمل جميعاً ، ولهذا كانوا يبقون مدَّةً في حفظ السُّورة[٢] ، وذلك : أن الله تعالى قال : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] وقد روى عثمان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قوله : « **خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه** »[٣] .

وقد عرض القرآن الكريم كاملاً على رسول الله ﷺ قبل وفاته ، ومن أشهر تلاميذ عثمان في تعلُّم القرآن الكريم ، أبو عبد الرحمن السُّلمي ، والمغيرة بن أبي شهابٍ ، وأبو الأسود ، وزِرّ بن حُبَيْش[٤] ، وقد حفظ لنا التَّاريخ بعض أقوال عثمان رضي الله عنه في القرآن الكريم حيث

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة ، للصَّلاَّبي (١/ ١٤٥) .

(٢) الفتاوى (١٣/ ١٧٧) .

(٣) البخاريُّ ، فضائل القرآن رقم (٥٠٢٧) .

(٤) تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الراشدين للذَّهبي ، ص (٤٦٧) .

قال: لو طهرت قلوبنا؛ لما شبعت من كلام الله عزَّ وجلَّ[١]، وقال: إني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله.[٢] ـ يعني المصحف ـ وقال: حُبِّب إليَّ من الدُّنيا ثلاثٌ: إشباع الجيعان، وكسوة العريان، وتلاوة القرآن.[٣] وقال: أربعةٌ ظاهرهنَّ فضيلة، وباطنهنَّ فريضةٌ: مخالطة الصَّالحين فضيلةٌ، والاقتداء بهم فريضة، وتلاوة القرآن فضيلةٌ، والعمل به فريضةٌ، وزيارة القبور فضيلةٌ، والاستعداد للموت فريضةٌ، وعيادة المريض فضيلةٌ، واتخاذ الوصيَّة فريضةٌ[٤].

وقال رضي الله عنه: أضيع الأشياء عشرة: عالمٌ لا يُسألُ عنه، وعلمٌ لا يُعمل به، ورأيٌ صوابٌ لا يُقبل، وسلاحٌ لا يستعمل، ومسجدٌ لا يُصلَّى فيه، ومصحفٌ لا يقرأ فيه، ومالٌ لا ينفق منه، وخيلٌ لا تُركب، وعلم الزُّهد في بطن من يريد الدُّنيا، وعمرٌ طويلٌ لا يتزوَّد صاحبه فيه لسفره[٥].

وكان رضي الله عنه حافظاً لكتاب الله، وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف، فقيل له في ذلك، فقال: إنَّه مباركٌ جاء به مباركٌ[٦]. وما مات عثمان حتَّى خرق مصحفه من كثرة ما يديم[٧] النَّظر فيه، وقالت امرأة عثمان يوم الدَّار: اقتلوه، أو دعوه، فوالله لقد كان يحيي اللَّيل بالقرآن في ركعة[٨].

وقد ذكر عنه أنَّه قرأ القرآن ليلةً في ركعةٍ لم يصلِّ غيرها[٩]. وقد تحقَّق فيه قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

لقد تشرَّب عثمان رضي الله عنه بالمنهج القرآنيِّ، وتتلمذ على يدي رسول الله ﷺ، وعرف من خلال القرآن الكريم من هو الإله الَّذي يجب أن يعبده، وكان النَّبيُّ ﷺ يغرس في نفسه معاني تلك الآيات العظيمة، فقد حرص ﷺ أن يربِّي أصحابه على التصوُّر الصَّحيح عن ربِّهم، وعن حقِّه عليهم، مدركاً: أنَّ هذا التصوُّر سيورث التَّصديق، واليقين عندما تصفو النُّفوس،

---

(١) الفتاوى (١١/ ١٢٢). والبداية والنِّهاية (٧/ ٢٢٥).

(٢) البداية والنِّهاية (٧/ ٢٢٥). وفرائد الكلام، ص (٢٧٥).

(٣) إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، ص (٨٨).

(٤) المصدر السَّابق نفسه، ص (٩٠) وفرائد الكلام، ص (٢٧٨).

(٥) المصدر السَّابق نفسه، ص (٩١). وفرائد الكلام، ص (٢٧٨).

(٦) البيان والتِّبيان (٣/ ١٧٧)، فرائد الكلام، ص (٢٧٣).

(٧) يديم: يطيل. البداية والنِّهاية (٧/ ٢٢٥).

(٨) البداية والنِّهاية (٧/ ٢٢٥).

(٩) الخلافة الرَّاشدة والدَّولة الأمويَّة، ص (٣٩٧).

وتستقيم الفطرة ، فأصبحت نظرة ذي النُّورين إلى الله ـ عزَّ وجل ـ ، والكون ، والحياة ، والجنَّة ، والنَّار ، والقضاء ، والقدر ، وحقيقة الإنسان ، وصراعه مع الشَّيطان مستمدةً من القرآن الكريم ، وهدي النَّبيِّ ﷺ .

● فالله سبحانه وتعالى منزَّهٌ عن النَّقائص ، موصوفٌ بالكمالات ، الّتي لا تتناهى فهو سبحانه (واحدٌ لا شريك له ، ولم يتَّخذ صاحبةً ولا ولداً) .

● وأنَّه سبحانه حدَّد مضمون هذه العبوديَّة ، وهذا التَّوحيد في القرآن الكريم[1] . وأمَّا نظرته للكون ، فقد استمدَّها من قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ٩ ـ ١٢] .

وأمَّا هذه الحياة مهما طالت ؛ فهي إلى زوالٍ ، وأنَّ متاعها مهما عظم ؛ فإنَّه قليلٌ حقيرٌ ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] .

وأمَّا نظرته إلى الجنَّة ، فقد استمدَّها من خلال الآيات الكريمة ، فأصبح هذا التصوُّر رادعاً له في حياته عن أيِّ انحرافٍ عن شريعة الله ، فيرى المتتبِّع لسيرة ذي النُّورين عمق استيعابه لفقه القدوم على الله عزَّ وجلَّ ، وشدَّة خوفه من عذاب الله ، وعقابه ، وسنرى ذلك في صفحات هذا البحث بإذن الله تعالى .

وأمَّا مفهوم القضاء ، والقدر ، فقد استمدَّه من كتاب الله ، وتعليم رسول الله ﷺ له ، فقد رسخ مفهوم القضاء والقدر في قلبه ، واستوعب مراتبه في كتاب الله تعالى ، فكان على يقينٍ بأنَّ علم الله محيطٌ بكلِّ شيءٍ ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] .

وأنَّ الله تعالى قد كتب كلَّ شيءٍ كائنٍ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] .

---

(١) منهج الرَّسول في غرس الرُّوح الجهاديَّة ، ص (١٠ إلى ١٦) .

وأنَّ مشيئة الله نافذةٌ ، وقدرته تامَّةٌ ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر : ٤٤] .

وأن الله خالقٌ لكلِّ شيءٍ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

وقد ترتَّب على الفهم الصَّحيح والاعتقاد الرَّاسخ في قلبه لحقيقة القضاء والقدر ، ثمارٌ نافعةٌ ، ومفيدةٌ ، ظهرت في حياته ، وسنراها ـ بإذن الله تعالى ـ في هذا الكتاب ، وعرف من خلال القرآن الكريم حقيقة نفسه ، وبني الإنسان ، وأنَّ حقيقة خلقه ترجع إلى أصلين : الأصل البعيد ، وهو الخلقة الأولى من طينٍ ، حين سوَّاه ، ونفخ فيه الرُّوح . والأصل القريب ، وهو خلقه من نطفةٍ ، قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السَّجدة : ٧ ـ ٩] .

وعرف : أنَّ هذا الإنسان خلقه الله بيده ، وأكرمه بالصُّورة الحسنة ، والقامة المعتدلة ، ومنحه العقل ، والنُّطق ، والتَّمييز ، وسخَّر له ما في السَّموات والأرض ، وفضَّله على كثير من خلقه ، وكرَّمه بإرساله الرُّسل له ، وأنَّ من أروع مظاهر تكريم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ للإنسان أن جعله أهلاً لحبِّه ، ورضاه ، ويكون ذلك باتِّباع النَّبيِّ ﷺ الَّذي دعا النَّاس إلى الإسلام ؛ لكي يحيوا حياةً طيِّبةً في الدُّنيا ، ويظفروا بالنَّعيم المقيم في الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

وعرف عثمان رضي الله عنه من خلال القرآن الكريم حقيقة الصِّراع بين الإنسان والشَّيطان ، وأنَّ هذا العدوَّ يأتي للإنسان من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله يوسوس له بالمعصية ، ويستثير فيه كوامن الشَّهوات ، فكان مستعيناً بالله على عدوِّه إبليس ، وانتصر عليه في حياته .

وتعلَّم من قصَّة آدم مع الشَّيطان في القرآن الكريم : أنَّ آدم هو أصل البشر ، وجوهر الإسلام الطَّاعة المطلقة لله ، وأنَّ الإنسان له قابليَّةٌ للوقوع في الخطيئة . وتعلَّم من خطيئة آدم ضرورة توكُّل المسلم على ربِّه ، وأهميَّة التَّوبة . والاستغفار في حياة المؤمن ، وضرورة الاحتراز من الحسد ، والكبر ، وأهمّيَّة التَّخاطب بأحسن الكلام مع الصَّحابة لقول الله تعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء : ٥٣] .

لقد أكرم المولى ـ عزَّ وجل ـ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه بالإسلام فعاش به ، وجاهد به من أجل نشره ، واستمدَّ أصوله ، وفروعه من كتاب الله ، وهدي النَّبيِّ ﷺ وأصبح من أئمَّة الهدى ؛ الّذين يرسمون للنَّاس خطَّ سيرهم ، ويتأسَّى النَّاس بأقوالهم ، وأفعالهم في هذه الحياة ، ولا ننسى : أنَّ عثمان بن عفَّان كان من كُتَّاب الوحي لرسول الله ﷺ[1] .

* * *

(١) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص(٢٢) ، والتَّبيين في أنساب القرشيِّين ، ص(٩٤) .

المبحث الثَّالث

ملازمته للنَّبيِّ ﷺ في المدينة

إنَّ الرَّافد القويَّ الّذي أثَّر في شخصية عثمان رضي الله عنه وصقل مواهبه، وفجَّر طاقته ، وهذَّب نفسه هو مصاحبته لرسول الله ﷺ وتتلمذه على يديه في مدرسة النُّبوَّة ؛ ذلك أنَّ عثمان رضي الله عنه لازم الرَّسول ﷺ في مكَّة بعد إسلامه كما لازمه في المدينة بعد هجرته ، فقد نظَّم عثمان نفسه ، وحرص على التَّلمذة في حلقات مدرسة النبوَّة في فروعٍ شتَّى من المعارف ، والعلوم على يدي معلِّم البشريَّة ، وهاديها ، والّذي أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه ، فحرص على تعلُّم القرآن الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة من سيِّد الخلق أجمعين ، وهذا عثمان يحدِّثنا عن ملازمته لرسول الله ﷺ ، فيقول :

(إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعث محمَّداً بالحقِّ وأنزل عليه الكتاب ، فكنت ممَّن استجاب لله ، ولرسوله ، وآمن ، فهاجرت الهجرتين الأوليين ، ونلت صهر رسول الله ، ورأيت هَدْيه)[1] ، لقد تربَّى عثمان رضي الله عنه على المنهج القرآنيِّ ، وكان المربِّي له رسول الله ﷺ ، وكانت نقطة البدء في تربية عثمان لقاءه برسول الله ﷺ ، فحدث له تحوُّلٌ غريبٌ ، واهتداءٌ مفاجىءٌ بمجرَّد اتِّصاله بالنَّبيِّ ﷺ؛ فخرج من دائرة الظَّلام إلى دائرة النُّور، واكتسب الإيمان، وطرح الكفر، وقوي على تحمُّل الشَّدائد، والمصائب في سبيل الإسلام، وعقيدته السَّمحة .

كانت شخصية رسول الله ﷺ تملك قوى الجذب ، والتَّأثير في الآخرين ، فقد صنعه الله على عينه ، وجعله أكمل صورة لبشر في تاريخ الأرض ، والعظمة دائماً تُحبُّ ، وتُحاط من النَّاس بالإعجاب ، ويلتفُّ حولها المعجبون ، يلتصقون بها التصاقاً بدافع الإعجاب ، والحبِّ ، ولكنَّ رسول الله ﷺ يضيف إلى عظمته تلك : أنَّه رسول الله ، متلقِّي الوحي من الله ، ومبلِّغه إلى النَّاس ، وذلك بُعْدٌ آخر ، له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه ، فهو لا يحبُّه لذاته فقط ، كما يحبُّ العظماء من الناس ، ولكن أيضاً لتلك النَّفحة الربَّانيَّة الّتي تشمله من عند

---

(١) فضائل الصَّحابة ، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل (١/ ٥٩٧) إسناده صحيحٌ .

الله ، فهو معه في حضرة الوحي الإلهيِّ المكرم ، ومن ثمَّ يلتقي في شخص الرَّسول ﷺ : البشر العظيم ، والرَّسول العظيم ، ثمَّ يصبحان شيئاً واحداً في النِّهاية ، غير متميِّز البداية ، ولا النِّهاية ؛ حبٌّ عميقٌ شاملٌ للرَّسول البشر ، أو للبشر الرَّسول ، ويرتبط حبُّ الله بحبِّ رسوله ، ويمتزجان في نفسه ، فيصبحان في مشاعره هما نقطة ارتكاز المشاعر كلِّها ، ومحور الحركة الشُّعورية ، والسُّلوكيَّة كلِّها كذلك .

كان هذا الحبُّ الَّذي حرَّك الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة هو مفتاح التَّربية الإسلاميَّة ، ونقطة ارتكازها ، ومنطلقها الَّذي تنطلق منه[١] ، لقد حصل لعثمان رضي الله عنه وللصَّحابة ببركة صحبتهم لرسول الله ﷺ ، وتربيتهم على يديه أحوالٌ إيمانيَّةٌ عاليةٌ ، ولقد تتلمذ عثمان رضي الله عنه على يدي رسول الله ﷺ ، فتعلَّم منه القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة ، وأحكام التِّلاوة ، وتزكية النُّفوس ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

وحرص على التبحُّر في الهدي النَّبويِّ الكريم خلال ملازمته لرسول الله ﷺ في غزواته ، وسلمه ، وقد أمدَّته تلك المعايشة بخبرةٍ ، ودربةٍ ، ودرايةٍ بشؤون الحرب ، ومعرفةٍ بطبائع النُّفوس ، وغرائزها ، وفي الصَّفحات القادمة سنبيِّن ـ بإذن الله تعالى ـ مواقفه في الميادين الجهاديَّة ، والسِّياسيَّة ، والاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة مع رسول الله ﷺ في العهد المدنيِّ .

أولاً : عثمان رضي الله عنه في ميادين الجهاد مع رسول الله :

شرع رسول الله ﷺ بعد استقراره بالمدينة في تثبيت دعائم الدَّولة الإسلاميَّة ، فآخى بين المهاجرين ، والأنصار ، فكلُّ مهاجريٍّ يتَّخذ أخاً له من الأنصار ، فكان نصيب عثمان بن عفَّان في المؤاخاة أوس بن ثابت[٢] ، ثمَّ أقام النَّبيُّ ﷺ المسجد ، وأبرم المعاهدة مع اليهود ، وبدأت حركة السَّرايا ، واهتمَّ بالبناء الاقتصاديِّ ، والتَّعليميِّ ، والتَّربويِّ في المجتمع الجديد ، وكان عثمان رضي الله عنه من أعمدة الدَّولة الإسلاميَّة ، فلم يبخل بمشورةٍ ، أو مالٍ ، أو رأيٍ ، وشهد المشاهد كلَّها إلا غزوة بدر[٣] .

---

(١) منهج التَّربية الإسلاميَّة ، لمحمد قطب ، ص(٣٤ ، ٣٥) .

(٢) الأمين ذو النُّورين ، ص(٤٠) .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون ، عبد الوهاب النَّجار ، ص(٢٦٩) .

١ـ عثمان وغزوة بدر :

لمَّا خرج المسلمون لغزوة بدر كانت زوجة عثمان السَّيدة رقيَّة بنت رسول الله ﷺ مريضةً بمرض الحصبة ، ولزمت الفراش ، في الوقت الَّذي دعا فيه رسول الله ﷺ للخروج لملاقاة القافلة، وسارع عثمان رضي الله عنه للخروج مع رسول الله ﷺ ، إلا أنَّه تلقَّى أمراً بالبقاء إلى جانب رقيَّة رضي الله عنها لتمريضها ، وامتثل لهذا الأمر بنفسٍ راضيةٍ ، وبقي إلى جوار زوجته الصَّابرة الطَّاهرة رُقيَّة ابنة رسول الله ﷺ ؛ إذ اشتد بها المرض ، وطاف بها شبح الموت ، كانت رقيَّة رضي الله عنها تجود بأنفاسها ، وهي تتلهَّف لرؤية أبيها الَّذي خرج إلى بدرٍ ، ورؤية أختها زينب في مكَّة، وجعل عثمان رضي الله عنه يرنو إليها من خلال دموعه، والحزن يعتصر قلبه[1] ، وودَّعت نبض الحياة وهي تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسول الله ، ولحقت بالرَّفيق الأعلى ، ولم ترَ أباها رسول الله ﷺ ، حيث كان ببدرٍ مع أصحابه الكرام ، يُعلون كلمة الله ، فلم يشهد دفنها رضي الله عنها وجُهِّزت رقيَّة ثمَّ حُمل جثمانها الطَّاهر على الأعناق ، وقد سار خلفه زوجها عثمان وهو حزينٌ ، حتَّى إذا بلغت الجنازة البقيع ؛ دفنت رقيَّة هناك ، وقد انهمرت دموع المشيِّعين ، وسوِّي التُّراب على قبر رقيَّة بنت رسول الله ﷺ ، وفيما هم عائدون إذا بزيد بن حارثة قد أقبل على ناقة رسول الله ﷺ يبشِّر بسلامة رسول الله ﷺ ، وقتل المشركين ، وأسر أبطالهم ، وتلقَّى المسلمون في المدينة هذه الأنباء بوجوهٍ مستبشرةٍ بنصر الله لعباده المؤمنين ، وكان من بين المستبشرين وجه عثمان الَّذي لم يستطع أن يخفي آلامه لفقده رقيَّة رضي الله عنها .

وبعد عودة الرسول ﷺ علم بوفاة رقيَّة رضي الله عنها فخرج إلى البقيع ، ووقف على قبر ابنته يدعو لها بالغفران[2] .

لم يكن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ممَّن تخلَّفوا عن بدرٍ لتقاعسٍ منه ، أو هروبٍ ينشده كما يزعم أصحاب الأهواء ممَّن طعن عليه بتغيُّبه عن بدرٍ ، فهو لم يقصد مخالفة الرَّسول ﷺ ؛ لأنَّ الفضل الَّذي حازه أهل بدر في شهود بدرٍ طاعةً للرَّسول ، ومتابعةً له ؛ حازه عثمان رضي الله عنه ، حيث خرج فيمن خرج مع رسول الله فردَّه ﷺ للقيام على ابنته ، فكان في أجلِّ فرضٍ لطاعته لرسول الله بتخلُّفه عن بدرٍ ، وقد ضرب له بسهمه ، وأجره ، فشاركهم في الغنيمة ، والفضل ، والأجر لطاعته لله ، ورسوله وانقياده لهما[3] ، فعن عثمان بن عبد الله بن موهبٍ ، قال : جاء رجلٌ من مصر حجَّ البيت فقال : يابن عمر ! إنِّي سائلك عن شيءٍ ، فحدِّثني أنشدك الله بحرمة هذا البيت ! هل تعلم أنَّ عثمان تغيَّب عن بدرٍ فلم يشهدها ؟ فقال :

---

(١) نساء أهل البيت ، أحمد خليلٍ جمعة ، ص(٤٩١ ـ ٥٠٤) .

(٢) دماء على قميص عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، ص(٢٠) .

(٣) كتاب : الإمامة والرَّدُّ على الرَّافضة ، للأصبهاني ، ص(٣٠٢) .

نعم ، ولكن أمَّا تغيُّبه عن بدرٍ فإنَّه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ ، فمرضت رضي الله عنها فقال له رسول الله ﷺ : لك أجر رجلٍ شهد بدراً ، وسهمه[١] . وعن أبي وائلٍ عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه أنَّه قال : أمَّا يوم بدرٍ ؛ فقد تخلَّفت على بنت رسول الله ، وقد ضرب رسول الله لي فيها بسهم . وقال زائدة في حديثه : ومن ضرب له رسول الله ﷺ فيها بسهمٍ ؛ فقد شهد[٢] . وقد عُدَّ عثمان رضي الله عنه من البدريِّين بالاتِّفاق[٣] .

٢ـ عثمان ، وغزوة أحدٍ :

في غزوة أحدٍ منح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ النَّصر للمسلمين في أوَّل المعركة ، وأخذت سيوف المسلمين تعمل عملها في رقاب المشركين ، وكانت الهزيمة لا شكَّ فيها ، وقُتل أصحاب لواء المشركين واحداً واحداً ، ولم يقدر أحدٌ أن يدنو من اللِّواء ، وانهزم المشركون ، وولولت النِّسوة بعد أن كنَّ يغنِّين بحماسٍ ، ويضربن بالدُّفوف ، فألقين بالدُّفوف ، وانصرفن مذعوراتٍ إلى الجبل كاشفاتٍ سيقانهنَّ . . ولكن مال ميزان المعركة فجأةً ، وكان سبب ذلك : أنَّ الرُّماة الَّذين أوكل إليهم النَّبيُّ مكاناً على سفح الجبل ، لا يغادرونه مهما كانت نتيجة المعركة قد تخلَّوا إلا قليلاً عن أماكنهم ، ونزلوا إلى السَّاحة يطلبون الغنائم لمَّا نظروا المسلمين يجمعونها ، وانتهز خالد بن الوليد قائد سلاح الفرسان القرشيِّ فرصة خلوِّ الجبل من الرُّماة ، وقلَّة من به منهم ، فكرَّ بالخيل ، ومعه عكرمة بن أبي جهل ، فقتلوا بقيَّة الرُّماة ومعهم أميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه الَّذي ثبت هو وطائفةٌ قليلةٌ معه ، وفي غفلة المسلمين ، وأثناء انشغالهم بالغنائم أطبق خالدٌ ومن معه عليهم ، فأعملوا فيهم القتل ، فاضطرب أمر المسلمين اضطراباً شديداً ، وانهزمت طائفةٌ من المسلمين إلى قرب المدينة منهم عثمان بن عفَّان ، ولم يرجعوا حتَّى انفضَّ القتال ، وفرقةٌ صاروا حيارى لمَّا سمعوا : أن النَّبيَّ ﷺ قد قتل ، وفرقةٌ ثبتت مع النَّبيِّ ﷺ .

أمَّا الفرقة الَّتي انهزمت ، وفرَّت ، فلقد أنزل الله فيها قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [آل عمران : ١٥٥] . غير أنَّ أصحاب الأهواء لا يرون إلا ما تهوى أنفسهم ، فلم يروا من المتراجعين ، إلا عثمان رضي الله عنه فكانوا يتَّهمونه دون سائر المتراجعين من الصَّحابة ، وهل يبقى وحده ؟ ولو فعل ؛ لخاطر بنفسه[٤] ، وبعد أن عفا الله عن

---

(١) البخاري رقم (٣٦٩٨) .

(٢) الإمامة والرَّدُّ على الرَّافضة ، ص(٣٠٤) .

(٣) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص(٤٧) .

(٤) الأمين ذو النُّورين ، ص(٤٩) .

المتراجعين ، فالحكم واضحٌ جليٌّ ، لا لبس فيه ، ولا غموض . فلا مؤاخذة بعد ذلك على عثمان بن عفان رضي الله عنه [(١)] فيكفي : أنَّ الله عفا عنه بنصِّ القرآن الكريم ، وحياته الجهادية بمجموعها تشهد له على شجاعته رضي الله عنه .

٣ـ في غزوة غطفان (ذي إمر) :

ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج إلى غطفان ، فخرجوا في أربعمئة رجلٍ ، ومعهم بعض الجياد ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه فأصاب المسلمون رجلاً منهم (بذي القُصَّة) يقال له : جبار من بني ثعلبة ، فأدخل على رسول الله ﷺ ، فأخبره مِنْ خَبرهم ، وقال : لن يلاقوك ، لمَّا سمعوا بمسيرك ؛ هربوا في رؤوس الجبال ، وأنا سائر معك ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فأسلم ، وضمَّه رسول الله ﷺ إلى بلالٍ ، ولم يلاق رسول الله ﷺ أحداً ، ثمَّ أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلقَ كيداً ، وكانت غيبته إحدى عشرة ليلةً[(٢)] .

٤ـ في غزوة ذات الرِّقاع :

بلغ رسول الله ﷺ : أنَّ جمعاً من غطفان من ثعلبة وأنمار يريدون غزو المدينة ، فخرج في أربعمئةٍ من أصحابه ؛ حتَّى قدم صراراً ، وكان رسول الله ﷺ قد استخلف على المدينة قبل خروجه عثمان بن عفَّان ، ولقي المسلمون جمعاً غفيراً من غطفان ، وتقارب النَّاس ، ولم يكن بينهم حربٌ ، وقد خاف النَّاس بعضهم بعضاً ، حتَّى صلَّى رسول الله ﷺ بالنَّاس صلاة الخوف ، ثمَّ انصرف بالنَّاس ، وقد غاب عن المدينة خمسة عشر يوماً[(٣)] .

٥ـ في بيعة الرِّضوان :

عندما نزل رسول الله ﷺ الحديبية رأى من الضَّرورة إرسال مبعوثٍ خاصٍّ من جانبه إلى قريش ، يبلغهم فيها نواياه السِّلميَّة بعدم الرَّغبة في القتال ، وحرصه على احترام المقدَّسات ، ومن ثمَّ أداء مناسك العمرة ، والعودة إلى المدينة ، فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرَّسول ﷺ إلى قريش (خراش بن أميَّة الخزاعي) وحمله على جمل يقال له : (الثَّعلب) ، فلمَّا دخل مكة عقرت به قريش ، وأرادوا قتل خراش ، فمنعهم الأحابيش ، فعاد خراش بن أميَّة إلى رسول الله ﷺ ، وأخبره بما صنعت قريش ، فأراد رسول الله ﷺ أن يرسل سفيراً آخر بتبليغ قريشٍ رسالة رسول الله ﷺ ، ووقع الاختيار في بداية الأمر على عمر بن الخطاب[(٤)] ، فاعتذر

---

(١) ذو النُّورين مع النَّبيِّ ﷺ ، د . عاطف لماضة ، ص(٣٢) .

(٢) الرَّوض الأنف (٣/ ١٣٧) . والطَّبقات ، لابن سعد (٢/ ٣٤ ، ٣٥) .

(٣) الأمين ذو النُّورين ، ص(٥٢ ، ٥٣) .

(٤) غزوة الحديبية لأبي فارس ، ص(٨٣) .

لرسول الله ﷺ عن الذَّهاب إليهم ، وأشار على رسول الله ﷺ أن يبعث عثمان مكانه[١] ، وعرض عمر رضي الله عنه رأيه هذا معزَّزاً بالحجَّة الواضحة ، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء ، وحيث إنَّ هذا الأمر لم يكن متحقِّقاً بالنِّسبة إلى عمر رضي الله عنه فقد أشار على النَّبيِّ ﷺ بعثمان رضي الله عنه لأنَّ له قبيلةً تحميه من أذى المشركين ، حتى يبلِّغ رسالة رسول الله ﷺ[٢] ، وقال لرسول الله ﷺ : إنِّي أخاف قريشاً على نفسي ، قد عرفت عداوتي لها ، وليس بها من بني عديٍّ من يمنعني ، وإن أحببت يا رسول الله ! دخلت عليهم[٣] . فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً ، قال عمر : ولكن أدلُّك يا رسول الله ! على رجلٍ أعزَّ بمكَّة مني ، وأكثر عشيرةً ، وأمنع : عثمان بن عفَّان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه فقال : اذهب إلى قريش فخبرهم أنَّا لم نأت لقتال أحدٍ ، وإنَّما جئنا زوَّاراً لهذا البيت ، معظِّمين لحرمته ، معنا الهديُ ، ننحره ، وننصرف . فخرج عثمان بن عفَّان رضي الله عنه حتَّى أتى بلدح[٤] ، فوجد قريشاً هناك ، فقالوا : أين تريد ؟ قال : بعثني رسول الله ﷺ إليكم ، يدعوكم إلى الله ، وإلى الإسلام ، تدخلون في دين الله كافَّةً ، فإنَّ الله مظهر دينه ، ومعزٌّ نبيِّه ، وأخرى : تكفُّون ويلي هذا منه غيركم ، فإن ظفروا بمحمَّد ؛ فذلك ما أردتم ، وإن ظفر محمَّدٌ كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه النَّاس ، أو تقاتلوا ، وأنتم وافرون جامُّون ، إنَّ الحرب قد نهكتكم ، وأذهبت بالأماثل منكم . . . فجعل عثمان يكلِّمهم ، فيأتيهم بما لا يريدون ، ويقولون : قد سمعنا ما تقول ، ولا كان هذا أبداً ، ولا دخلها علينا عنوةً ، فارجع إلى صاحبك ، فأخبره ، أنَّه لا يصل إلينا . فقام إليهم أبان بن سعيد ابن العاص ، فرحَّب به ، وأجاره ، وقال : لا تقصر عن حاجتك ، ثمَّ نزل عن فرسٍ كان عليه ، فحمل عثمان على السَّرج ، وردفه وراءه ، فدخل عثمان مكَّة ، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً : أبا سفيان بن حرب ، وصفوان بن أميَّة ، وغيرهم ممن لقي ببلده ، ومنهم من لحقي بمكَّة ، فجعلوا يردُّون عليه : إنَّ محمداً لا يدخلها علينا أبداً[٥] .

وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت ، فأبى[٦] ، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكَّة ، وبشَّرهم بقرب الفرج ، والمخرج[٧] ،

---

(١) المغازي (٢/ ٦٠٠) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

(٤) مكان قريب من مكَّة .

(٥) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠) . والسِّيرة النَّبويَّة لابن هشام(٣/ ٣٤٤) .

(٦) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠) .

(٧) المصدر السَّابق نفسه (٣/ ٢٩٠) .

وأخذ منهم رسالةً شفهيّة إلى رسول الله ﷺ جاء فيها : اقرأ على رسول الله ﷺ منَّا السَّلام ، إنَّ الّذي أنزله بالحديبية لقادر على أن يدخله بطن مكَّة[١] ، وتسرَّبت شائعة إلى المسلمين ، مفادها : أنَّ عثمان قتل ، فدعا رسول الله أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ، ومناجزتهم ، فاستجاب الصَّحابة وبايعوه على الموت[٢] ، سوى الجدِّ بن قيس ، وذلك لنفاقه[٣] ، وفي روايةٍ ، أنَّ البيعة كانت على الصَّبر[٤] ، وفي روايةٍ : على عدم الفرار[٥] ، ولا تعارض في ذلك ؛ لأنَّ المبايعة على الموت تعني : الصَّبر ، وعدم الفرار[٦] ، وكان أوَّل من بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي[٧] ، فخرج النَّاس بعده يبايعون على بيعته[٨] ، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرَّات ، في أوّل الناس ، وأوسطهم ، وآخرهم[٩] ، وقال النَّبيُّ ﷺ بيده اليمنى : (هذه يد عثمان) فضرب بها على يده[١٠] ، وكان عدد الصَّحابة الّذين أخذ منهم الرَّسول المبايعة تحت الشَّجرة ألفاً وأربعمئة صحابيٍّ[١١] .

وقد تحدَّث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرِّضوان ، وورد فضلهم في نصوصٍ كثيرةٍ من الآيات القرآنيّة ، والأحاديث النّبويّة ، منها :

١ـ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

٢ـ قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٧ ـ ١٨] .

---

(١) غزوة الحديبية لأبي فارس ، ص(٨٥) .

(٢) البخاريُّ ، رقم الحديث (٤١٦٩) .

(٣) السِّيرة النَّبويّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص(٤٨٦) .

(٤) البخاريُّ ، رقم (٤١٦٩) .

(٥) مسلم ، رقم (١٨٥٦) .

(٦) السِّيرة النَّبويّة في ضوء المصادر الأصلية ، (٤٨٦) .

(٧) المصدر السَّابق نفسه .

(٨) المصدر السَّابق نفسه .

(٩) زاد المعاد (٣/ ٢٩١) .

(١٠) صحيح السِّيرة النّبويّة ، ص(٤٠٤) .

(١١) السِّيرة النّبويّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص(٤٨٢) .

٣ـ قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية : « **أنتم خير أهل الأرض** » وكنَّا ألفاً وأربعمئةٍ ، ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشَّجرة[١] . هذا الحديث صريحٌ في فضل أصحاب الشَّجرة ، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعةٌ بمكَّة ، وبالمدينة ، وبغيرهما . . . وتمسَّك به بعض الشِّيعة في تفضيل عليٍّ على عثمان ؛ لأنَّ علياً كان من جملة من خوطب بذلك ، وممن بايع تحت الشَّجرة ، وكان عثمان حينئذٍ غائباً ، وهذا التمسُّك باطلٌ ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ بايع عنه ، فاستوى معهم عثمان في الخيريَّة المذكورة ، ولم يقصد في الحديث إلى تفضيل بعضهم على بعضٍ[٢] .

وفي الحديبية ذكر المحبُّ الطَّبريُّ اختصاص عثمان بعدَّة أمورٍ ، منها : اختصاصه بإقامة يد النَّبيِّ الكريمة مقام يد عثمان لمَّا بايع الصَّحابة ، وعثمان غائبٌ ، واختصاصه بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى من بمكَّة أسيراً من المسلمين ، وذكر شهادة النَّبيِّ لعثمان بموافقته في ترك الطَّواف لمَّا أرسله في تلك الرِّسالة[٣] ، فعن إياس بن سلمة عن أبيه : أنَّ النَّبيَّ ﷺ بايع عثمان إحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئاً لأبي عبد الله الطَّواف بالبيت آمناً ، فقال النَّبيِّ ﷺ : « **لو مكث كذا ما طاف حتَّى أطوف** »[٤] .

وقد اتُّهم عثمان ظلماً بأنَّه لم يبايع رسول الله ﷺ بيعة الرِّضوان ، وكان متغيِّباً عنها ! ! فهذه من الاتِّهامات الَّتي أُلصِقت بعثمان في أحضان فتنةٍ أريد بها تقويض أركان الخلافة خاصَّةً[٥] ، وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله تعالى . وعن أنسٍ ، قال : لمَّا أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرِّضوان كان عثمان بن عفَّان بعثه رسول الله إلى أهل مكَّة ، فبايعه النَّاس ، فقال : إنَّ عثمان في حاجة الله ، وحاجة رسوله ، فضرب بإحدى يديه على الأرض فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم[٦] .

٦ـ شفاعة عثمان بن عفَّان في عبد الله بن أبي السَّرح في فتح مكَّة :

لمَّا كان يوم فتح مكَّة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح عند عثمان بن عفَّان ، فجاء به حتَّى أوقفه على النَّبيِّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! بايع عبد الله ، فرفع رأسه ، فنظر إليه ثلاثاً ، كلَّ

---

(١) مسلمٌ (٣/ ١٤٨٥) .

(٢) فتح الباري (٧/ ٤٤٣) .

(٣) الرِّياض النَّضرة في مناقب العشرة ، ص(٤٩٠ ، ٤٩١) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، (٤٩١) وفي سنده ضعفٌ .

(٥) ذو النُّورين مع النَّبيِّ ﷺ ، ص(٣٢) .

(٦) سير السَّلف الصَّالحين (١/ ١٨١)، إسناده ضعيف ، والحديث صحيحٌ . سنن التُّرمذي رقم (٣٧٠٢) .

ذلك يأبى ، فبايعه بعد ثلاثٍ ، ثمَّ أقبل على الصَّحابة فقال : « أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته ، فيقتله ؟ » فقالوا : ما ندري يا رسول الله ما في نفسك ! ألا أومأت إلينا بعينك ؟ قال : « إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنة الأعين »(١) ، وجاء في روايةٍ : لمَّا كان يوم فتح مكَّة أمَّن رسول الله النَّاس إلا أربعة نفر ، وقال : « اقتلوهم ؛ وإن وجدتموهم متعلِّقين بأستار الكعبة » عكرمة بن أبي جهل ، وعبد الله بن خطل ، ومقيسُ بن صُبابة(٢) ، وعبد الله بن سعد بن أبي السَّرح(٣) ، فأمَّا عبد الله بن خطل ؛ فأدرك وهو متعلِّق بأستار الكعبة ، فاستبق إليه سعيد بن حارث ، وعمَّار بن ياسر ، فسبق سعيدٌ عماراً ، وكان أشبَّ الرَّجلين ، فقتله .

وأمَّا عكرمة ؛ فركب في البحر فأصابتهم ريحٌ عاصف ، فقال أصحاب السَّفينة : أخلصوا فإنَّ آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ها هنا ، فقال عكرمة : والله لئن لم ينجِّني في البحر إلا الإخلاص لا ينجِّني في البر غيره ، اللَّهُمَّ لك عليَّ عهدٌ إن أنت عافيتني ممَّا أنا فيه أن آتي محمداً ؛ حتَّى أضع يدي في يده ، ولأجدنَّه عَفُوّاً كريماً ! فجاء ، وأسلم ، وأمَّا عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح ؛ فإنَّه اختبأ عند عثمان بن عفَّان ، فلمَّا دعا رسول الله النَّاس إلى البيعة ؛ جاء به ؛ حتَّى أوقفه على النَّبيِّ ﷺ ، ثمَّ ذكر الباقي كما مرَّ معنا(٤) .

وعن عبد الله بن عبَّاس ، قال : كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ ، فأزلَّه الشَّيطان ، فلحق بالكفَّار ، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح ، فاستجار له عثمان ، فأجاره رسول الله(٥) . وذكر ابن إسحاق سبب أمر رسول الله بقتل سعدٍ ، وشفاعة عثمان فيه ، فقال : وإنَّما أمر رسول الله بقتله ؛ لأنَّه كان قد أسلم ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي ، فارتدَّ مشركاً راجعاً إلى قريش ، ففرَّ إلى عثمان بن عفَّان ، وكان أخاه للرَّضاعة ، فغيَّبه ، حتَّى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأنَّ النَّاسُ ، وأهلُ مكَّة ، فاستأمن له . قال ابن هشام : ثمَّ أسلم بعد ، فولاه عمر بن الخطَّاب بعض أعماله ، ثمَّ ولاه عثمان بن عفَّان بعد عمر(٦) .

٧ـ غزوة تبوك :

في العام التَّاسع الهجريِّ ولَّى هرقل وجهه المتآمر صوب الجزيرة العربيَّة متلمظاً برغبةٍ

---

(١) الصَّارم المسلول على شاتم الرَّسول ﷺ ، ص(١٠٩) .

(٢) أضواء البيان في تاريخ القرآن ، لصابر أبي سليمان ، ص(٧٩) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص(٨٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام(٤/٥٧ ، ٥٨) .

شريرة في العدوان عليها ، والتهامها . . وأمر قوَّاته بالاستعداد ، وانتظار أمره بالزَّحف ، وترامت الأنباء إلى الرَّسول ﷺ فنادى في أصحابه بالتَّهيُّؤ للجهاد ، وكان الصَّيف حارّاً يصهر الجبال ، وكانت البلاد تعاني الجدب ، والعسرة ، فإن قاوم المسلمون بإيمانهم وطأة الحرِّ القاتل ، وخرجوا إلى الجهاد فوق الصَّحراء الملتهبة المتأجِّجة ، فمن أين لهم العتاد ، والنَّفقات الّتي يتطلَّبها الجهاد . . ؟ لقد حضَّ الرَّسول على التَّبرُّع ، فأعطى كلٌّ قدر وسعه ، وسارعت النِّساء بالحلي يقدِّمنه إلى رسول الله ﷺ يستعين به في إعداد الجيش . . بيد أنَّ التَّبرعات جميعَها لم تكن لتغني كثيراً أمام المتطلَّبات للجيش الكبير . . ونظر الرسول ﷺ إلى الصُّفوف الطَّويلة العريضة من الّذين تهيَّؤوا للقتال وقال : « **من يجهز هؤلاء ، ويغفر الله له ؟** » وما كاد عثمان يسمع نداء الرَّسول ﷺ هذا ؛ حتَّى سارع إلى مغفرةٍ من الله ورضوانٍ ، وهكذا وجدت العسرة الضَّاغطة (عثمانها المعطاء)[١] . وقام رضي الله عنه بتجهيز الجيش ، حتَّى لم يتركه بحاجة إلى خطامٍ ، أو عقالٍ .

يقول ابن شهابٍ الزُّهريُّ : قدَّم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسعمئةٍ وأربعين بعيراً ، وستين فرساً أتمَّ بها الألف ، وجاء عثمان إلى رسول الله في جيش العسرة بعشرة آلاف دينارٍ صبَّها بين يديه ، فجعل الرسول يقلِّبها بيده ، ويقول : «**ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم**» ـ مرَّتين[٢] ـ.

لقد كان عثمان رضي الله عنه صاحب القِدْح المعلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة[٣] ، وهذا عبد الرَّحمن بن حباب يحدِّثنا عن نفقة عثمان ، حيث قال : شهدت النَّبيَّ ﷺ وهو يحثُّ على جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفَّان ، فقال : يا رسول الله ! عليَّ مئتا بعير بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، ثمَّ حضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفان ، فقال : يا رسول الله ! عليَّ ثلاثمئة بعيرٍ بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر ، ويقول : « **ما على عثمان ماعمل بعد هذه ! ما على عثمان ما عمل بعد هذه !** »[٤] . وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنهما قال : جاء عثمان بن عفَّان إلى النَّبيِّ ﷺ بألف دينارٍ في ثوبه حين جهَّز النَّبيُّ ﷺ جيش العسرة ، قال : فجعل النَّبيُّ ﷺ يقلِّبها بيده ، ويقول : « **ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم** » يردِّدها مراراً[٥] .

---

(١) فتح الباري (٦٧/٧) . وخلفاء الرَّسول ، ص (٢٥٠) . والعشرة المبشرون بالجنَّة ، محمد صالح عوض ، ص(٥٣) .

(٢) سنن التِّرمذي رقم (٣٧٨٥) . وصحيح التوثيق ، ص(٢٦) .

(٣) السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص(٦١٥) .

(٤) سنن التِّرمذي ، رقم (٣٧٠٠) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه ، رقم (٣٧٠٢) .

إنَّه يبدو وكأنَّه المموِّل الوحيد للأمَّة الجديدة ! ! ومضى الرَّسول ﷺ على رأس جيشه ، حتَّى وصلوا موطناً يُدعى تبوك في منتصف الطَّريق بين المدينة ودمشق ، وهناك جاءته الأنباء مبشِّرةً بأنَّ هرقل الَّذي كان يعد العدَّة للزَّحف من دمشق ، قد ثلم الله عزمه ، وغادر دمشق نافضاً يديه من محاولته اليائسة بعد أن علم بخروج النَّبيِّ ، وأصحابه إليه ، ورجع الجيش بكلِّ عتاده الَّذي أمده به عثمان ، فهل استرجع من ذلك شيئاً ؟ كلا . . وحاشاه أن يفعل ! ! وقد ظلَّ كما كان دوماً سريع التَّلبية لكلِّ إيماءةٍ من النَّبيِّ ﷺ تعني جديداً من البذل ، ومزيداً من العطاء[١] .

ثانياً : من حياته الاجتماعيَّة في المدينة :

١ـ زواجه من أمِّ كلثوم سنة ٣ هـ :

عُرفت أمُّ كلثوم رضي الله عنها بكنيتها ، ولا يعرف لها اسم إلا ما ذكره الحاكم عن مصعب الزُّبيري : أنَّ اسمها أميَّة ، وهي أكبر سنّاً من فاطمة رضي الله عنها[٢] .

قال سعيد بن المسيِّب : تأيَّم عثمان من رقيَّة بنت رسول الله ﷺ ، وتأيَّمت حفصة بنت عمر من زوجها ، فمرَّ عمر بعثمان ، فقال : هل لك في حفصة ؟ وكان عثمان قد سمع رسول الله ﷺ يذكرها فلم يجبه ، وذكر ذلك عمر للنَّبيِّ ﷺ ، فقال : « **هل لك في خير من ذلك؟ أتزوَّج حفصة، وأزوِّج عثمان خيراً منها: أمَّ كلثوم** »[٣] . وفي رواية البخاريِّ : قال عمر : تأيَّمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السَّهمي ، وكان من أصحاب رسول الله ، فتوفِّي في المدينة . فقال عمر : أتيت عثمان بن عفَّان ، فعرضت عليه حفصة بنت عمر ، قال : فقلت : إن شئت أنكحتك حفصة ، فقال : سأنظر في أمري ، فلبثت لياليَ ، ثمَّ لقيني ، فقال : قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا .

قال عمر : فلقيت أبا بكر الصِّدِّيق ، فقلت : إن شئت زوَّجتك حفصة بنت عمر ، فصمت أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فلم يرجع إليَّ شيئاً ، فكنت عليه أوجد منِّي على عثمان ، فلبثت لياليَ ، ثمَّ خطبها رسول الله ﷺ ، فأنكحتها إيَّاه ، فلقيني أبو بكر ، فقال : لعلَّك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة ، فلم أرجع إليك شيئاً ؟ قال عمر : نعم . قال : فإنَّه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ ، إلا أنِّي كنت علمت : أن رسول الله قد ذكرها ، فلم أكن لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ ، ولو تركها رسول الله ؛ قبلتها[٤] .

---

(١) خلفاء الرَّسول ، ص (١٣٨) . والعشرة المبشرون بالجنَّة ، ص (٣١) .

(٢) الدَّوحة النَّبويَّة الشَّريفة ، فاروق حمادة ، ص (٤٥ ، ٤٦) .

(٣) مستدرك الحاكم (٤/ ٤٩) . والآثار لأبي يوسف ، رقم (١٩٥٧) .

(٤) البخاريُّ ، كتاب النِّكاح ، رقم (٥١٢٢) .

وتروي أمُّ المؤمنين الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنها خبر زواج أمِّ كلثوم من عثمان رضي الله عنه فتقول : لمَّا زوَّج النبيُّ ابنته أمَّ كلثوم ؛ قال لأم أيمن : « **هيِّئي ابنتي أمَّ كلثوم ، وزفِّيها إلى عثمان ، واخفقي**[١] **بين يديها بالدُّفِّ** » ففعلت ذلك ، فجاءها النَّبيُّ ﷺ بعد الثَّالثة فدخل عليها فقال : « **يا بُنيّة ! كيف وجدت بعلك . ؟** » قالت : خير بعلٍ[٢] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ النَّبيَّ ﷺ وقف عند باب المسجد ، فقال : **يا عثمان ! هذا جبريل أخبرني : أنَّ الله قد زوجك أمَّ كلثوم بمثل صداق رقيَّة ، وعلى مثل صحبتها** . وكان ذلك سنة ثلاثٍ من الهجرة النَّبويّة ، في ربيع الأوّل ، وبنى بها في جمادى الآخرة[٣] .

٢ـ وفاة عبد الله بن عثمان :

وفي جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة مات عبد الله بن عثمان رضي الله عنه من رقيَّة بنت رسول الله ﷺ ، وهو ابن ستِّ سنين ، فصلَّى رسول الله ﷺ عليه ، ونزل حفرته والده عثمان[٤] ، وهذه محنةٌ عظيمةٌ تعرَّض لها عثمان ، وما أكثر المحن في حياة الدُّعاة إلى الله تعالى!

٣ـ وفاة أمِّ كلثوم رضي الله عنها :

ولم تزل أمُّ كلثوم عند عثمان رضي الله عنه إلى أن توفِّيت في شعبان سنة تسع من الهجرة ، بسبب مرضٍ نزل بها ، وصلَّى عليها رسول الله ﷺ ، وجلس على قبرها . وعن أنس بن مالكٍ : أنّه رأى النَّبيَّ ﷺ جالساً على قبر أمِّ كلثوم ، قال : فرأيت عينيه تدمعان ، فقال : « **هل منكم رجلٌ لم يقارف الليلة ؟** » فقال أبو طلحة : أنا ، قال : « **فانزل في قبرها** »[٥] . وعن ليلى بنت قانف الثَّقفيَّة ، قالت : كنت فيمن غسَّل أمَّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ عند وفاتها ، فكان أوَّل ما أعطانا رسول الله ﷺ الحقو ، ثمَّ الدِّرع ، ثمَّ الخمار ، ثمَّ الملحفة ، ثمَّ أدرجت بعده في الثَّوب الآخر ، قالت : ورسول الله ﷺ عند الباب ، ومعه كفنها ، يناولنا إيّاه ثوباً ثوباً[٦] ، وجاء عند ابن سعدٍ : أنَّ عليَّ بن أبي طالبٍ ، والفضل بن العبَّاس ، وأسامة بن زيدٍ ، قد نزلوا في حفرتها مع أبي طلحة ، وأنَّ الّتي غسَّلتها هي أسماء بنت عُميس ، وصفيَّة بنت عبد المطَّلب[٧] .

---

(١) خفق : اضطرب ، وتحرَّك .

(٢) السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٢٣١) . ودماء على قميص عثمان ، ص(٢٢) .

(٣) سنن ابن ماجه رقم (١١٠) وفيه عثمان بن خالد ، وهو ضعيفٌ .

(٤) الكامل ، لابن الأثير (٢/ ١٣٠) . ودماء على قميص عثمان ، ص(٢٢) .

(٥) البخاري ، كتاب الجنائز ، رقم (١٣٤٢) .

(٦) سنن أبي داود ، رقم (٣١٥٧) .

(٧) الطبقات ، لابن سعد (٨/ ٣٩) . والدَّوحة النَّبويَّة ، ص(٤٨) .

وقد تأثَّر عثمان رضي الله عنه وحزن حزناً عظيماً على فراقه لأمِّ كلثوم ، ورأى رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه وهو يسير منكسراً ، وفي وجهه حزنٌ لما أصابه ، فدنا منه وقال : « لو كانت عندنا ثالثةٌ لزوَّجناكها يا عثمان »[١] ! وهذا دليل حبِّ رسول الله ﷺ لعثمان ، ودليل وفاء عثمان لنبيِّه ، وتوقيره ، وفيه دليلٌ على نفي ما اعتاده النَّاس من التَّشاؤم في مثل هذا الموطن ، فإنَّ قدر الله ماضٍ ، وأمره نافذٌ ، ولا رادَّ لأمره[٢] .

ثالثاً : من مساهمته الاقتصاديَّة في بناء الدَّولة :

كان عثمان رضي الله عنه من الأغنياء الّذين أغناهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وكان صاحب تجارةٍ ، وأموالٍ طائلةٍ ، ولكنَّه استخدم هذه الأموال في طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وابتغاء مرضاته ، وما عنده ، وصار سبَّاقاً لكلِّ خيرٍ ، ينفق ، ولا يخشى الفقر ، وممَّا أنفقه رضي الله عنه من نفقاته الكثيرة على سبيل المثال ما يأتي :

١ ـ بئر رومة :

عندما قدم النَّبيُّ ﷺ المدينة المنوَّرة ؛ وجد : أنَّ الماء العذب قليلٌ ، وليس بالمدينة ما يستعذب غير بئر رومة ، فقال رسول الله ﷺ : « **من يشتري رومة ، فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخيرٍ له منها في الجنة ؟** »[٣] . وقال ﷺ : « **من حفر بئر رومة فله الجنَّة** »[٤] .

وقد كانت رومة قبل قدوم النَّبيِّ ﷺ لا يشرب منها أحد إلا بثمن ، فلمَّا قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء ، وكانت لرجل من بني غفار عينٌ يقال لها : رومة ، وكان يبيع منها القربة بمدٍّ ، فقال النَّبيُّ ﷺ : « **تبيعها بعينٍ في الجنة ؟** » فقال : يا رسول الله ! ليس لي ، ولا لعيالي غيرها . فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهمٍ ، ثمَّ أتى النَّبيَّ ﷺ ، فقال : أتجعل لي فيها ما جعلت له ؟ قال : « **نعم !** » قال : قد جعلتها للمسلمين[٥] ، وقيل : كانت رومة رَكِيَّةً ليهوديٍّ يبيع المسلمين ماءها ، فاشتراها عثمان بن عفَّان من اليهوديِّ بعشرين ألف درهمٍ ، فجعلها للغنيِّ ، والفقير ، وابن السَّبيل[٦] .

---

(١) مجمع الزَّوائد للهيثمي (٩/ ٨٣) ، إسناده حسن لما له من شواهد .

(٢) الخلفاء الرَّاشدون ، أعمال ، وأحداث ، د . أمين القضاة ، ص(٧٣) .

(٣) صحيح النَّسائي ، للألباني (٢/ ٧٦٦) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، رقم (٢٧٧٨) معلقاً ، وهو صحيحٌ لشواهده .

(٥) تحفة الأحوذي بشرح سنن التِّرمذي (١٠/ ١٩٦) .

(٦) فتح الباري (٥/ ٤٠٨) . والحكمة في الدَّعوة إلى الله ، ص(٢٣١) .

٢ـ توسعة المسجد النَّبويِّ :

بعد أن بنى رسول الله ﷺ مسجده في المدينة صار المسلمون يجتمعون فيه ليصلُّوا الصَّلوات الخمس ، ويحضروا خطب النَّبيِّ ﷺ الّتي يُصدر إليهم فيها أوامره ، ونواهيه ، ويتعلَّمون في المسجد أمور دينهم ، وينطلقون منه إلى الغزوات ، ثمَّ يعودون بعدها ، ولذلك ضاق المسجد بالنَّاس ، فرغب النَّبيُّ ﷺ من بعض الصَّحابة أن يشتري بقعةً بجانب المسجد ، لكي تزاد في المسجد ، حتَّى يتَّسع لأهله ، فقال ﷺ : « **من يشتري بقعة آل فلان ، فيزيدها في المسجد بخيرٍ له منها في الجنَّة ؟** » فاشتراها عثمان بن عفَّان رضي الله عنه من صلب ماله[١] بخمسة وعشرين ألف درهمٍ ، أو بعشرين ألفاً ، ثمَّ أضيفت للمسجد[٢] ، ووسَّع على المسلمين ، رضي الله عنه ، وأرضاه[٣] .

٣ـ العسرة ، وعثمانها المعطاء :

عندما أراد رسول الله ﷺ الرَّحيل إلى غزوة تبوك حثَّ الصحابة الأغنياء على البذل لتجهيز جيش العسرة الّذي أعدَّه رسول الله ﷺ لغزو الرُّوم ، فأنفق الأموال من صحابة رسول الله ﷺ كلٌّ على حسب طاقته وجهده ، أمَّا عثمان فقد أنفق نفقةً عظيمة لم ينفق أحدٌ مثلها[٤] ، وقد تمَّ بيانها عند حديثنا عن موقفه في غزوة تبوك .

* * *

---

(١) صحيح سنن التِّرمذي للألباني (٣/ ٢٠٩) ، رقم (٢٩٢١) .

(٢) صحيح سنن النَّسائي (٢/ ٧٦٦) .

(٣) أعلام المسلمين لخالد البيطار (٣/ ٤١) .

(٤) الحكمة في الدَّعوة إلى الله ، ص (٢٣١) .

المبحث الرَّابع
من أحاديث الرسول ﷺ في عثمان بن عفَّان

أولاً : فيما ورد في فضائله مع غيره :

١ـ افتح له وبشره بالجنَّة على بلوى تصيبه :

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : كنت مع النَّبيِّ ﷺ في حائطٍ من حيطان المدينة ، فجاء رجل ، فاستفتح ، فقال النَّبيُّ ﷺ : « افتح له ، وبشِّره بالجنَّة » . ففتحت له ؛ فإذا هو أبو بكر ، فبشَّرته بما قال رسول الله ، فحمد الله ، ثم جاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ : « افتح له وبشره بالجنة » . ففتحت له ؛ فإذا هو عمر ، فأخبرته بما قال النَّبيُّ ﷺ ، فحمد الله . ثمَّ استفتح رجلٌ ، فقال لي : « افتح له وبشِّره بالجنَّة على بلوى تصيبه » . فإذا عثمان ، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ ، فحمد الله ، ثمَّ قال : الله المستعان[1] .

هذا الحديث تضمَّن فضيلة هؤلاء الثَّلاثة المذكورين ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ؛ وأنَّهم من أهل الجنَّة ، كما تضمَّن فضيلةً لأبي موسى . وفيه دلالة على جواز الثَّناء على الإنسان في وجهه إذا أمنت عليه الإعجاب ونحوه . وفيه معجزةٌ ظاهرةٌ للنَّبيِّ ﷺ لإخباره بقصَّة عثمان ، والبلوى ، وأنَّ الثَّلاثة يستمرُّون على الإيمان ، والهدى[2] .

٢ـ اسكن أُحُد فليس عليك إلا نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدان :

عن أنسٍ رضي الله عنه قال : صعد النَّبيُّ ﷺ أحداً ، ومعه أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، فَرَجَف ، فقال : « اسكن أحد ـ أظنُّه ضربه برجله ـ فليس عليك إلا نبيٌّ ، وصدِّيقٌ ، وشهيدان »[3] .

---

(١) البخاريُّ ، رقم (٣٦٩٥) .

(٢) شرح النَّوويِّ على صحيح مسلمٍ (١٥/ ١٧٠ـ١٧١) .

(٣) البخاريُّ ، رقم (٣٦٩٧) .

٣ـ اهدأ فما عليك إلا نبيٌّ ، أو صديقٌ ، أو شهيدٌ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ كان على حراء ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليٌّ ، وطلحة ، والزُّبير ، فتحرَّكت الصَّخرة ، فقال رسول الله ﷺ : « **اهدأ فما عليك إلا نبيٌّ ، أو صدِّيقٌ ، أو شهيدٌ** »[١] .

٤ـ حياء عثمان رضي الله عنه :

عن يحيى بن سعيد بن العاص : أنَّ سعيد بن العاص أخبره : أنَّ عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ وعثمان حدَّثاه : أنَّ أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجعٌ على فراشه لابسٌ مِرْطَ عائشة ، فأذن لأبي بكرٍ ؛ وهو كذلك ، فقضى إليه حاجته ، ثمَّ انصرف ، ثم استأذن عمر ، فأذن له ، وهو على تلك الحال ، فقضى إليه حاجته ، ثمَّ انصرف ، قال عثمان : ثم استأذنت عليه ، فجلس ، وقال لعائشة : « **اجمعي عليك ثيابك** » . فقضيت إليه حاجتي ، ثمَّ انصرفت ، فقالت عائشة : يا رسول الله ! ما لي لم أرَكَ فزعت لأبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما كما فزعت لعثمان ؟ ! قال رسول الله ﷺ : « **إن عثمان رجلٌ حَيِيٌّ ، وإنِّي خشيت إن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إليَّ في حاجته** »[٢] .

٥ـ استحياء الملائكة من عثمان :

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن : أن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيتي ، كاشفاً عن فخذيه ، أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدَّث ، ثمَّ استأذن عمر ، فأذن له وهو كذلك ، فتحدَّث ، ثمَّ استأذن عثمان ، فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه . قال محمد ـ أحد رواة الحديث ـ ولا أقول ذلك في يومٍ واحدٍ ـ فدخل فتحدَّث ، فلمَّا خرج ؛ قالت عائشة : دخل أبوبكر ، فلم تَهْتَشَّ له ، ولم تُبَالِهِ ، ثمَّ دخل عمر ، فلم تَهْتَشَّ له ، ولم تُبالِهِ ، ثمَّ دخل عثمان ، فجلستَ ، وسوَّيت ثيابك ! فقال : «**ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة؟ !**»[٣] .

قال المناوي : مقام عثمان مقام الحياء ، والحياء فرعٌ يتولَّد من إجلال من يشاهده ، ويعظِّم قدره ، مع نقصٍ يجده في النَّفس ، فكأنَّه غلب عليه إجلال الحقِّ تعالى ، ورأى نفسه بعين النَّقص ، والتقصير ، وهما من جليل خصال العباد المقرَّبين ، فَعَلَتْ رتبة عثمان كذلك ، فاستحيت منه خلاصة الله من خلقه ، كما أنَّ من أحبَّ الله ؛ أحبَّ أولياءه ، ومن خاف الله ؛ خاف منه كلُّ شيءٍ[٤] .

---

(١) مسلم ، رقم (٢٤١٧) .

(٢) مسلم ، رقم (٢٤٠٢) .

(٣) مسلم ، رقم (٢٤٠١) .

(٤) فيض القدير للمناوي (٤/ ٣٠٢) .

٦ـ أصدقها حياءً عثمان :

عن أنس بن مالكٍ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **أرحم أمَّتي أبو بكرٍ ، وأشدُّها في دين الله عمر ، وأصدقهاحياءً عثمان ، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأقرأها لكتاب الله أبيٌّ ، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت ، ولكلِّ أمة أمينٌ ، وأمين هذه الأمَّة أبو عبيدة بن الجراح** »[١] .

ثانياً : إخبار رسول الله عن الفتنة الّتي يُقتل فيها عثمان :

١ـ من نجا من ثلاثٍ فقد نجا :

عن عبد الله بن حوالة : أنَّ رسول الله ﷺ قال : « **من نجا من ثلاثٍ ؛ فقد نجا ـ ثلاث مرَّات ـ : موتي ، والدَّجال ، وقتل خليفة مصطبرٍ بالحقِّ ، معطيه** »[٢] .

ومعلوم : أنَّ الخليفة الّذي قتل مصطبراً بالحقِّ هو عثمان ، فالقرائن تدلُّ على أنَّ الخليفة المقصود بهذا الحديث هو عثمان بن عفَّان رضي الله عنه وفي الحديث ـ والله أعلم ـ لفتةٌ عظيمةٌ إلى أهمِّيَّة السَّلامة من الخوض في هذه الفتنة حسِّياً ، ومعنوياً ، أمَّا حسِّياً فذلك يكون في زمن الفتنة ، من تحريضٍ ، وتأليبٍ ، وقتلٍ ، وغير ذلك ، وأمَّا معنوياً فبعد الفتنة من خوض فيها بالباطل ، وكلامٍ فيها بغير حقٍّ ، وبهذا يكون الحديث عامَّاً للأمَّة ، وليس خاصَّاً بمن أدرك الفتنة[٣] .

٢ـ يقتل فيها هذا المقنَّع يومئذٍ :

عن ابن عمر قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنةً ، فمرَّ رجلٌ ، فقال : « **يقتل فيها هذا المقنَّع يومئذٍ مظلوماً** » ، قال : فنظرت ، فإذا هو عثمان بن عفَّان[٤] .

٣ـ هذا يومئذٍ على الهدى :

عن كعب بن عجرة ، قال : ذكر رسول الله فتنةً ، فقربها ، فمرَّ رجلٌ مقنِّعٌ رأسه ، فقال رسول الله ﷺ : « **هذا يومئذٍ على الهدى** » . فوثبتُ ، فأخذت بضبعي عثمان ، ثم استقبلت رسول الله ﷺ فقلت : هذا ؟ قال : « **هذا** »[٥] .

٤ـ تهيج فتنةٌ كالصَّياصي ، فهذا ومن معه على الحقِّ :

عن مرَّة البهزيِّ، قال: كنت عند رسول الله ﷺ، وقال بهز ـ من رواة الحديث ـ: قال

---

(١) فضائل الصَّحابة ، للإمام أحمد (١/ ٦٠٤) إسناده صحيحٌ .

(٢) المسند (٤/ ٤١٩) (٥/ ٣٤٦) ، تحقيق : أحمد شاكر .

(٣) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ٤٤) .

(٤) فضائل الصَّحابة (١/ ٥٥١) إسناده حسنٌ .

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٤) .

رسول الله ﷺ : « **تهيج فتنةٌ كالصَّياصي ، فهذا ومن معه على الحقِّ** » . قال : فذهبت ، فأخذت بمجامع ثوبه ، فإذا هو عثمان بن عفَّان رضي الله عنه[١] .

٥ـ هذا يومئذٍ وأصحابه على الحقِّ ، والهدى :

عن أبي الأشعث قال : قامت خطباء بإيلياء في إمارة معاوية رضي الله عنه فتكلَّموا ، وكان آخر من تكلَّم مرَّة بن كعب ، فقال : لولا حديثٌ سمعته من رسول الله ﷺ ؛ ما قمت ، سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنةً ، فقرَّبها ، فمرَّ رجلٌ مقنَّعٌ ، فقال : « **هذا يومئذٍ وأصحابه على الحقِّ ، والهدى** » . فقلت : هذا يا رسول الله ؟ ! وأقبلت بوجهه إليه ، فقال : « **هذا** » فإذا هو عثمان رضي الله عنه[٢] .

٦ـ عليكم بالأمين وأصحابه :

عن أبي حبيبة : أنَّه دخل الدَّار وعثمان محصورٌ فيها ، وأنَّه سمع أبا هريرة يستأذن عثمان في الكلام ، فأذن له ، فقام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال : إنِّي سمعت رسول الله يقول : « **إنكم تلقون بعدي فتنةً ، واختلافاً ـ أو قال ـ : اختلافاً ، وفتنة** » . فقال له قائلٌ من النَّاس : فمن لنا يا رسول الله ؟ ! قال : « **عليكم بالأمين وأصحابه** » وهو يشير إلى عثمان بذلك[٣] .

٧ـ فإن أرادك المنافقون على خلعه ؛ فلا تخلعه :

عن عبد الله بن عامرٍ ، عن النُّعمان بن بشير ، عن عائشة ، قالت : أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فلمَّا رأينا رسول الله ﷺ أقبلت إحدانا على الأخرى ، فكان من آخر كلامه كلمة أن ضرب بين منكبيه ، وقال : « **يا عثمان ! إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عسى أن يلبسك قميصاً ، فإن أرادك المنافقون على خلعه ، فلا تخلعه حتَّى تلقاني** » ثلاثاً[٤] .

٨ ـ إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً ، وإنِّي صابرٌ نفسي عليه :

عن أبي سهلة ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « **ادعوا لي بعض أصحابي** » . قلت : أبو بكر ؟ قال : « **لا** » قالت : قلت : عثمان ؟ قال : « **نعم !** » فلمَّا جاء ؛ قال : تنحَّيْ ، فجعل يُسَارُّه[٥] ، ولون عثمان يتغيَّر ، فلمَّا كان يوم الدَّار ، وحُصِرَ ؛ قلنا : يا أمير

---

(١) المسند (٥/ ٣٣) له طرقٌ تقوِّيه .

(٢) فضائل الصَّحابة (١/ ٥٥٠) إسناده صحيحٌ .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

(٤) فضائل الصَّحابة (١/ ٦٣١) إسناده صحيحٌ . .

(٥) من المسارَّة مفاعلة من السرِّ : أي : المناجاة .

المؤمنين ! ألا تقاتل ؟ قال : لا ! إنَّ رسول الله ﷺ عهد إلي عهداً ، وإنّي صابرٌ نفسي عليه[١] .

وهذا الحديث يبيِّن شدَّة محبَّة رسول الله لعثمان رضي الله عنه ، وحرصه على مصالح الأمَّة بعده ، فقد أخبره بأشياء تتعلَّق بهذه الفتنة الّتي ستنتهي بقتله ، وحرص عليه الصَّلاة والسَّلام على سرِّيَّتها ، حتَّى إنَّه لم يصل إلينا منها إلا ما صرح به عثمان رضي الله عنه أثناء الفتنة لمَّا قيل له : ألا تقاتل ؟ فقد قال : لا ، إنَّ رسول الله عهد إليَّ عهداً ، وإنّي صابرٌ عليه[٢] .

ويظهر من قوله هذا : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أرشده إلى الموقف الصَّحيح ، عند اشتعال الفتنة ، وذلك أخذاً منه ﷺ بحجز الفتنة أن تنطلق . وفي بعض الرِّوايات زيادةٌ تكشف عن بعض مكنون هذه المسارَّة ، فقد جاء فيها : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له : « **وإن سألوك أن تنخلع من قميص قمصك الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا تفعل** »[٣] . ومضمون هذا العهد الّذي ذكره عثمان رضي الله عنه يتعلَّق بالفتنة ، والوصيَّة بالصَّبر فيها وعدم الخلع ، وإن كان يفهم من هذه الأحاديث بأنَّه سيكون خليفةً يوماً ما .
ويبدو : أنَّ هناك وصايا ، وإرشادات تتعلَّق بهذه الفتنة ، انفرد بمعرفتها عثمان رضي الله عنه ، وذلك محافظةً من النَّبيِّ ﷺ على السِّرِّيَّة فيها ، وممَّا يبين ذلك : أنَّه أمر عائشة رضي الله عنها بالانصراف[٤] عندما أراد الإسرار بها لعثمان رضي الله عنه ، كما أنَّه أسرَّ إليه إسراراً ، رغم خلوِّ المكان من غيرهما ، حتَّى تغيَّر لونه ، ممَّا يدلُّ على عظم المسرِّ به ، وربط عائشة رضي الله عنها هذا الإسرار بالفتنة دليلٌ واضحٌ على أنَّ هذه المسارَّة كانت حول الفتنة الّتي قتل فيها ، كما أنَّ الإسرار تضمَّن توجيهات منه ﷺ إلى عثمان ؛ ليقف الموقف الصَّحيح عند عرض الخلع ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقتصر على الإخبار بوقوع الفتنة ، فقد أخبر بذلك علانيةً في أحاديث كثيرةٍ كما تقدَّم ، فإسراره يدلُّ على أنَّ هذا الإسرار تضمَّن أشياء أخرى زيادةً على الإخبار عن وقوعها ، ورغب عليه الصَّلاة والسَّلام بالمحافظة على سرِّيَّتها لحكمةٍ اقتضت ذلك ـ الله أعلم بها ـ .

وهذا الحديث يفسِّر لنا جليّاً سبب إصرار عثمان على رفض القتال أثناء الحصار ، كما يفسِّر أيضاً سبب رفضه للتَّنازل عن الخلافة وخلعها عندما عرض القوم عليه ذلك ، وهما موقفان طالما تساءل الباحثون والمؤرِّخون عن السَّبب الّذي أدَّى عثمان إليهما ، واستشكلوهما[٥] .

وحادث فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه من ضمن حوادث كثيرةٍ أخبر رسول الله في حياته بأنَّها ستقع بالغيب ، فإنَّ علم الغيب صفةٌ من صفات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ليست لأحدٍ من خلقه ، وإنما

---

(١) فضائل الصَّحابة (١/ ٦٠٥) إسناده صحيحٌ .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) فضائل الصَّحابة (١/ ٦١٣) إسناده صحيحٌ . والطَّبقات (٣/ ٦٦ ـ ٦٧) .

(٤) فقد قال لها النَّبيّ ﷺ : (تنحَّيْ) ومعنى التَّنحي : الانصراف ، الفيروزآبادي ، القاموس المحيط (٤/ ٣٩٦) . ولسان العرب (١٥/ ٣١١) .

(٥) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ٤٨) .

ذلك علمٌ أطلعه الله عليه ، وأمره أن يبيِّنه للنَّاس [١] ، قال تعالى : ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

* * *

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

المبحث الخامس

ذو النُّورين في عهد الصدِّيق والفاروق

أولاً : في عهد الصِّدِّيق

١ـ من أهل الشُّورى في مسائل الدَّولة العليا :

كان عثمان رضي الله عنه من الصَّحابة ، وأهل الشُّورى الّذين يؤخذ رأيهم في أمَّهات المسائل في خلافة أبي بكر ، فهو ثاني اثنين في الحظوة عند الصِّدِّيق : عمر ابن الخطَّاب للحزَامة ، والشَّدائد ، وعثمان بن عفَّان للرِّفق ، والأناة . وكان عمر وزير الخلافة الصِّدِّيقيَّة ، وكان عثمان أمينها العام ، وناموسها الأعظم ، وكاتبها الأكبر[١] ، وكان رأيه مقدَّماً عند الصِّدِّيق ، فبعد أن قضى أبو بكر على حركة الردَّة ؛ أراد أن يغزو الرُّوم ، وينطلق الجيش المجاهد إلى أطراف الأرض ، فقام في النَّاس يستشيرهم ، فقال الألبَّاء ما عندهم ، ثمَّ استزادهم أبو بكرٍ ، فقال : ما ترون ؟ فقال عثمان : إنِّي أرى أنَّك ناصحٌ لأهل هذا الدِّين ، شفيقٌ عليهم ، فإذا رأيت رأياً لعامَّتهم صلاحاً ؛ فاعزم على إمضائه ، فإنَّك غير ظنين[٢] ، فقال طلحة ، والزُّبير ، وسعدٌ ، وأبو عبيدة ، وسعيد بن زيد ، ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين ، والأنصار رضي الله عنهم : صدق عثمان ! ما رأيتَ من رأيٍ فأمْضِهِ[٣] . ولما أراد الصِّدِّيق أن يبعث والياً إلى البحرين ، استشار أصحابه ، فقال عثمان : ابعث رجلاً قد بعثه رسول الله إليهم ، فقدم عليه[٤] بإسلامهم ، وطاعتهم ، وقد عرفوه ، وعرفهم ، وعرف بلادهم ـ يعني : العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه ـ فبعث الصِّدِّيق العلاء إلى البحرين[٥] .

---

(١) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص(٥٨) .

(٢) تاريخ دمشق ، لابن عساكر (٢/ ٦٣ ـ ٦٥) . وأبو بكر الصِّدِّيق للصَّلابي ، ص(٣٦٤) .

(٣) أبو بكر الصِّديق للصَّلابي ، ص(٣٦٤) .

(٤) أي : على النَّبيِّ ﷺ .

(٥) كنز العمال (٥/ ٦٢٠) ، رقم (١٤٠٩٣) . وتاريخ الطَّبري (٤/ ١٢٢) . والقيود الواردة على سلطة الدَّولة ، عبد الله الكيلاني ، ص(١٦٩) .

ولما اشتدَّ المرض بأبي بكرٍ استشار النَّاس فيمن يحبُّون أن يقوم بالأمر من بعده ، فأشاروا بعمر ، وكان رأي عثمان في عمر : اللهمَّ علمي به : أنَّ سريرته خيرٌ من علانيته ، وأنَّه ليس فينا مثله[(١)] .

فقال أبو بكر : يرحمك الله ! والله لو تركته ما عَدَتْك[(٢)] !

٢ـ أزمةٌ اقتصاديَّةٌ في عهد الصِّدِّيق :

عن ابن عباس قال : قحط المطر على عهد أبي بكر الصِّدِّيق ، فاجتمع النَّاس إلى أبي بكرٍ ، فقالوا : السَّماء لم تمطر ، والأرض لم تُنبت ، والنَّاس في شدَّةٍ شديدة . فقال أبو بكر : انصرفوا ، واصبروا ، فإنَّكم لا تُمسون حتَّى يُفرِّجَ الله الكريم عنكم . قال : فما لبثنا أن جاء أُجَرَاء عثمان من الشَّام ، فجاءته مئة راحلةٍ بُرّاً ـ أو قال : طعاماً ـ فاجتمع النَّاس إلى باب عثمان ، فقرعوا عليه الباب ، فخرج إليهم عثمان في ملأ من الناس فقال : ما تشاؤون ؟ قالوا : الزَّمان قد قحط : السَّماء لا تمطر ، والأرض لا تُنبت ، والنَّاس في شدَّة شديدةٍ ، وقد بلغنا أنَّ عندك طعاماً ، فبعنا حتَّى نوسِّع على فقراء المسلمين . فقال عثمان : حبّاً وكرامةً ، ادخلوا فاشتروا ، فدخل التُّجار ، فإذا الطَّعام موضوع في دار عثمان ، فقال : يا معشر التُّجار كم تربحونني على شرائي من الشَّام ؟ قالوا : للعشرة اثنا عشر . قال عثمان : قد زادوني . قالوا : للعشرة خمسة عشر . قال عثمان : قد زادوني . قال التُّجار : يا أبا عمرو ما بقي بالمدينة تجارٌ غيرنا ، فمن زادك ؟ قال : زادني الله ـ تبارك وتعالى ـ بكلِّ درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ قالوا : اللهم لا ! قال : فإنِّي أُشهد الله أنِّي قد جعلت هذا الطعام صدقةً على فقراء المسلمين[(٣)] ! قال ابن عبَّاس : فرأيت من ليلتي رسول الله ﷺ في المنام ، وهو على برذونٍ أبلق[(٤)] ، عليه حُلَّة من نورٍ ، في رجليه نعلان من نورٍ ، وبيده قصبة من نورٍ ، وهو مستعجلٌ فقلت : يا رسول الله ! قد اشتدَّ شوقي إليك ، وإلى كلامك ، فأين تُبادر ؟ قال : « **يا بن عباس ! إنَّ عثمان قد تصدَّق بصدقةٍ ، وإنَّ الله قد قبلها منه ، وزوَّجه عروساً في الجنَّة ، وقد دُعينا إلى عرسه** »[(٥)] .

فهل يفتح الله تعالى آذان عبَّاد المال ، ومحتكري قوت العباد شحّاً ، وجشعاً إلى صوت هذه

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ٧٩) . الخلفاء الرَّاشدون ، لمحمود شاكر ، ص(١٠١) .

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ٧٩) .

(٣) الرِّقة والبكاء ، لابن قدامة ، ص(١٩٠) . والخلفاء الرَّاشدون لحسن أيوب ، ص(١٩١) . وشهيد الدَّار ، لأحمد الخروف ، ص(٢١) .

(٤) الَّذي فيه سوادٌ ، وبياضٌ .

(٥) الرِّقَّة والبكاء ، ص(١٩٠) .

العظمة العثمانيّة حتّى تدلف إلى قلوبهم فتهزَّها هزَّة الأريحيَّة، والعطف، وتوقظ فيها بواعث الرّحمة، والإحسان بالفقراء، والمساكين، والأرامل، واليتامى، وذوي الحاجات من أهل الفاقة، والبؤس، الّذين طحنتهم أزمة الحياة، واعتصرت دماءهم شراباً لذوي القلوب المتحجِّرة من الأثرياء؟ فما أحوج المسلمين في هذه المرحلة من حياتهم إلى نفحةٍ عثمانيَّة في إنفاق الأموال على الفقراء، والمساكين، والمحتاجين؛ تسري بينهم تعاطفاً، ومؤاساةً، وبرّاً وإحساناً[1].

هذا موقف من مواقف الكرم والبرِّ لعثمان رضي الله عنه، فقد كان رضي الله عنه من أرحم النّاس بالنّاس، فهو يقرأ قول ربِّ النّاس: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦]؛ فيصدُّه ذلك عن الطُّغيان، ويقرأ قوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]. فيجعله ذلك من أبعد النّاس عن النِّفاق والمنافقين، ويقرأ قوله تعالى: ﴿ ۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] فيحمله ذلك على أن يكون من[2] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ثانياً: في عهد الفاروق:

كان عثمان ذا مكانةٍ عند عمر، فكانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شيءٍ؛ رَمَوه بعثمان، وبعبد الرحمن بن عوف، وكان عثمان يسمَّى الرَّديف ـ والرَّديف بلسان العرب: هو الذي يكون بعد الرَّجل، والعرب تقول ذلك للرَّجل الّذي يرجونه بعد رئيس ـ وكانوا إذا لم يقدر هذان على عمل شيءٍ؛ ثلَّثوا بالعبَّاس[3].

وقد حدث ذات مرَّةٍ أن خرج عمر بالنَّاس، وعسكر بهم بما يُدعى (صِراراً) فجاء عثمان، فسأله: ما بلغك؟ ما الّذي تريد؟ فنادى عمر رضي الله عنه (الصَّلاة جامعة) ثمَّ أخبر النَّاس عن عزمه في غزو العراق[4].

ولمَّا ولِّي عمر الخلافة استشار وجوه الصَّحابة في عطائه من بيت مال المسلمين، فقال له

---

(١) عثمان بن عفان رضي الله عنه، لصادق عرجون، ص(٥٢).

(٢) شهيد الدَّار، ص(٢٢، ٢٣).

(٣) تاريخ الطَّبري (٤/ ٨٣)، المرتضى للنَّدوي، ص(١٣١).

(٤) عثمان بن عفان رضي الله عنه، الخليفة الشَّاكر الصَّابر، ص(٦٣).

عثمان : كل ، وأطعم[١] . وعندما أرسل أبو عبيدة إلى عمر أن يقدم إلى بيت المقدس ، ليفتحه ، فاستشار عمر النَّاس ، فأشار عثمان بأن لا يركب إليهم ؛ ليكون أحقر لهم ، وأرغم لأنوفهم ، وقال لعمر : فأنت إن أقمت ولم تسر إليهم رأوا أنَّك بأمرهم مستخفٌّ ، ولقتالهم مستعدٌّ ، فلم يلبثوا إلى السَّير حتى ينزلوا على الصَّغار ، ويعطوا الجزية[٢] . وأشار عليٌّ بالمسير ، فهوىٰ عمر ما قال عليٌّ ، ليكون أخف وطأةً على المسلمين في حصارهم[٣] .

لقد كانت مكانة عثمان رضي الله عنه في خلافة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه كمكانة الوزير من الخليفة ، وإن شئت ؛ فقل هي مكانة عمر من أبي بكرٍ في خلافته ، وقد صنع الله لأبي بكرٍ بوزارة عمر لخلافته مايصنعه لخير أهله ، وصنع لعمر بوزارة عثمان لخلافته ما يصنعه لخير أهله ؛ فقد كان أبو بكر أرحم النَّاس بالنَّاس ، وكان عمر أشدَّهم في الحقِّ ، فمزج الله رحمة الصِّدِّيق بشدَّة عمر ، فكانت منهما خلافة الصِّدق وسياسة العدل ، وقوة الحزم .

وكان عثمان رضي الله عنه أشبه بالصِّدِّيق في رحمته ، وكان عمر على سننه في شدَّته ، فلمَّا تولَّى بعد أبي بكر جعل الله له في وزارة عثمان لخلافته عوضاً من رحمة الصِّدِّيق ، ورفقه ؛ فكان منهما تلك الأمثال المضروبة في أنظمة الحكم ، وسياسة الأمَّة أحكم سياسة، وأعدلها، وقد عرف النَّاس هذه المكانة لعثمان في خلافة عمر، فهو الَّذي أشار على عمر بفكرة الدِّيوان، وكتابة التَّاريخ كما جاء في بعض الرِّوايات:

١ـ الدِّيوان :

لمَّا اتسعت الفتوحات ، وكثرت الأموال ؛ جمع عمر ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ ليستشيرهم في هذا المال ، فقال عثمان : أرى مالاً كثيراً يسع النَّاس وإن لم يُحصَوا حتَّى يعرف من أخذ منهم ممَّن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر ! فأقرَّ عمر رأي عثمان ، وانتهى بهم ذلك إلى تدوين الدَّواوين[٤] .

٢ـ التَّاريخ :

جاء في بعض الرِّوايات : أن الَّذي أشار على عمر بجعل السَّنة الهجرية تبدأ بالمحرم هو عثمان ؛ وذلك : أنَّهم لمَّا اتَّفقوا بعد مشاوراتٍ على جعل مبدأ التَّاريخ الإسلامي من هجرة النَّبيِّ

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، محمَّد حسين هيكل ، ص(٤٧ ـ ٤٨) نقلاً عن السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص(٢٤) .

(٣) عثمان بن عفان ، الخليفة الشاكر ، ص(٦٣) .

(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٠٣). وعثمان بن عفان رضي الله عنه، لصادق عرجون، ص(٦٠).

ﷺ ؛ لأنها فرقت بين الحقِّ ، والباطل ـ تعدَّدت الآراء في أيِّ الأشهر يُجعل بدايةً للسَّنة، فقال عثمان : أرِّخوا من المحرم أوَّل السَّنة، وهو شهرٌ حرامٌ، وأوَّل الشُّهور في العدَّة ، وهو منصرف الناس من الحجِّ ، فرضي عمر ، وَمَنْ شهده من أصحابه رأي عثمان، واستقرَّ عليه الأمر، وأصبح مبدأ تاريخ الإسلام[1] .

٣ـ أرض الخراج :

كان عثمان رضي الله عنه ممَّن أيَّدوا رأي عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في عدم تقسيم أرض الفتوح على الفاتحين ، وإبقائها فيئاً للمسلمين ، وللذُّرِّيَّة من بعدهم[2] .

٤ـ حجُّه مع أمَّهات المؤمنين :

لمَّا استُخلف عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه سنة ثلاث عشرة ؛ بعث تلك السَّنة على الحجِّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فحجَّ بالنَّاس ، وحجَّ مع عمر أيضاً آخر حَجَّةٍ حجَّها عمر سنة ثلاثٍ وعشرين ، وأذن عمر تلك السَّنة لأزواج النَّبيِّ ﷺ في الحجِّ ، فحُملن في الهوادج ، وبعث معهنَّ عثمان بن عفَّان ، وعبد الرحمن بن عوف ، فكان عثمان يسير على راحلته أمامهنَّ ، فلا يدع أحداً يدنو منهنَّ ، وينزلن مع عمر كلَّ منزلٍ ، فكان عثمان ، وعبد الرحمن ينزلان بهنَّ في الشِّعاب ، فيُقبلانهنَّ الشِّعاب ، وينزلان هما في أذلِّ الشُّعب ، فلا يتركان أحداً يمرُّ عليهنَّ[3] .

* * *

(١) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص(٦٠) .

(٢) السياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص(٢٥) .

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ١٣٤) . وأنساب الأشراف (١/ ٤٦٥ ، ٤٦٦) . ومجلَّة البحوث الإسلاميَّة ، العدد العاشر ، ص(٢٦٣) .

الفصل الثَّاني
استخلاف ذي النُّورين ، ومنهجه في الحكم ، وأهمُّ صفاته الشَّخصية

المبحث الأوَّل
استخلاف ذي النُّورين

أولاً : الفقه العمري في الاستخلاف :

استمرَّ اهتمام الفاروق رضي الله عنه بوحدة الأمَّة ، ومستقبلها حتَّى اللَّحظات الأخيرة من حياته، رغم ما كان يعانيه من آلام جراحاته البالغة، وهي بلا شكٍّ لحظاتٌ خالدةٌ ، تجلَّى فيها إيمان الفاروق العميق ، وإخلاصه ، وإيثاره[(١)] ، وقد استطاع الفاروق في تلك اللَّحظات الحرجة أن يبتكر طريقةً جديدةً لم يسبق إليها في اختيار الخليفة الجديد، وكانت دليلاً ملموساً، ومَعْلَماً واضحاً على فقهه في سياسة الدَّولة الإسلاميَّة، لقد مضى قبله الرَّسول ﷺ، ولم يستخلف بعده أحداً بنصٍّ صريح، ولقد مضى أبو بكرٍ الصِّدِّيق، واستخلف الفاروق بعد مشاورة كبار الصَّحابة، ولمَّا طُلب من الفاروق أن يستخلف وهو على فراش الموت ؛ فكَّر في الأمر مليّاً، وقرَّر أن يسلك مسلكاً آخر يتناسب مع المقام؛ فرسول الله ﷺ ترك النَّاس، وكلُّهم مقرٌّ بأفضلية أبي بكرٍ ، وأسبقيته عليهم ، فاحتمال الخلاف كان نادراً ، وخصوصاً : أنَّ النبي ﷺ وجه الأمَّة قولاً وفعلاً إلى أنَّ أبا بكر أولى بالأمر من بعده .

والصِّدِّيق لما استخلف عمر ؛ كان يعلم : أنَّ عند الصحابة أجمعين قناعة بأنَّ عمر أقوى ، وأفضل من يحمل المسؤوليَّة بعده ، فاستخلفه بعد مشاورة كبار الصَّحابة ، ولم يخالف رأيه أحدٌ منهم ، وحصل الإجماع على بيعة عمر[(٢)] . وأمَّا طريقة انتخاب الخليفة الجديد ، فتعتمد على جعل الشورى في عددٍ محصورٍ ، وقد حصر ستَّةً من صحابة رسول الله ﷺ كلُّهم يصلحون لتولِّي

---

(١) الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ، للعاني ، ص(١٦١) .

(٢) أوَّليَّات الفاروق ، ص(١٢٢) .

الأمر ، ولو أنهم يتفاوتون ، وحدَّد لهم طريقة الانتخاب ، ومدَّته ، وعدد الأصوات الكافية لانتخاب الخليفة ، وحدَّد الحكم في المجلس ، والمرجِّح إن تعادلت الأصوات ، وأمر مجموعةً من جنود الله لمراقبة سير الانتخابات في المجلس ، وعقاب من يخالف أمر الجماعة ، ومنع الفوضى بحيث لا يسمحون لأحدٍ يدخل ، أو يسمع ما يدور في مجلس أهل الحلِّ والعقد[١] .

وهذا بيانُ ما أُجمل في الفقرات السَّابقة :

١ ـ العدد الّذي حدده للشُّورى ، وأسماؤهم :

أمَّا العدد ، فهو ستَّةٌ ، وهم : عليُّ بن أبي طالبٍ ، وعثمان بن عفَّان ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقَّاص ، والزُّبير بن العوَّام ، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم جميعاً . وترك سعيد بن زيدٍ ، وهو من العشرة المبشَّرين بالجنَّة ، ولعلَّه تركه لأنَّه من قبيلته بني عديٍّ[٢] ، وكان عمر رضي الله عنه حريصاً على إبعاد الإمارة عن أقاربه ، مع أنَّ فيهم من هو أهلٌ لها ، فهو يُبعد قريبه سعيد بن زيد عن قائمة المرشَّحين للخلافة[٣] .

٢ ـ طريقة اختيار الخليفة :

أمرهم أن يجتمعوا في بيت أحدهم ، ويتشاوروا ، وفيهم عبد الله بن عمر يحضر معهم مشيراً فقط ، وليس له من الأمر شيءٌ ، ويصلِّي بالناس أثناء التَّشاور صهيب الرُّوميُّ ، وقال له : أنت أمير الصَّلاة في هذه الأيام الثَّلاثة . حتَّى لا يولِّي إمامة الصلاة أحداً من السِّتَّة ، فيصبح هذا ترشيحاً من عمر له بالخلافة[٤] ، وأمر المقداد بن الأسود ، وأبا طلحة الأنصاريَّ أن يرقبا سير الانتخابات[٥] .

٣ ـ مدَّة الانتخابات ، أو المشاورة :

حدَّدها الفاروق رضي الله عنه بثلاثة أيَّام ، وهي فترةٌ كافيةٌ ، وإن زادوا عليها ؛ فمعنى ذلك أنَّ شقَّة الخلاف ستتَّسع ، ولذلك قال لهم : لا يأتي اليوم الرَّابع إلا وعليكم أمير[٦] .

---

(١) أوليَّات الفاروق ، ص (١٢٤) .

(٢) البداية والنِّهاية (٧/ ١٤٢) .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون للخالدي ، ص(٩٨) .

(٤) الخلافة والخلفاء الراشدون للبهنساوي ، ص(٢١٣) .

(٥) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسِّياسة ، ص(٦٤٨) .

(٦) الطَّبقات ، لابن سعد (٣/ ٣٦٤) .

٤ـ عدد الأصوات الكافية لاختيار الخليفة :

أخرج ابن سعدٍ بإسنادٍ رجاله ثقاتٌ : أنَّ عمر رضي الله عنه قال لصهيبٍ : صلِّ بالنَّاس ثلاثاً ، وليخل هؤلاء الرَّهط في بيتٍ ، فإذا اجتمعوا على رجلٍ ؛ فمن خالفهم فاضربوا رأسه[١] ، فعمر رضي الله عنه أمر بقتل من يريد أن يخالف هؤلاء الرَّهط ويشقَّ عصا المسلمين ، ويفرِّق بينهم ، عملاً بقوله ﷺ : « من أتاكم وأمركم جميعٌ على رجلٍ منكم ، يريد أن يشقَّ عصاكم ، أو يفرِّق جماعتكم فاقتلوه »[٢] .

وما جاء في كتب التَّاريخ من أنَّ عمر رضي الله عنه أمرهم بالاجتماع ، والتَّشاور ، وحدَّد لهم أنَّه إذا اجتمع خمسةٌ منهم على رجلٍ ، وأبى أحدهم ، فليضرب رأسه بالسَّيف ، وإن اجتمع أربعة ، ورضوا رجلاً منهم ، وأبى اثنان ، فاضرب رؤوسهما[٣] ، فهذه من الرِّوايات الَّتي لا تصح سنداً ، فهي من الغرائب ؛ الَّتي ساقها أبو مخنف ـ الإمامي الشِّيعي ـ مخالفاً فيها النُّصوص الصَّحيحة ، وما عرف من سير الصَّحابة رضي الله عنهم ، فما ذكر أبو مخنف من قول عمر لصهيبٍ : وقم على رؤوسهم ـ أي : أهل الشُّورى ـ فإن اجتمع خمسةٌ ، ورضوا رجلاً ، وأبى واحدٌ ، فاشدخ رأسه بالسَّيف ، وإن اتَّفق أربعةٌ ، فرضوا رجلاً منهم ، وأبى اثنان ؛ فاضرب رؤوسهما[٤] : فهذا قولٌ منكرٌ ، وكيف يقول عمر رضي الله عنه هذا ، وهو يعلم : أنَّهم هم الصَّفوة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهو الَّذي اختارهم لهذا الأمر لعلمه بفضلهم ، وقدرهم[٥] ، وقد ورد عن ابن سعدٍ : أنَّ عمر قال للأنصار : أدخلوهم بيتاً ثلاثة أيَّامٍ ، فإن استقاموا وإلا فادخلوا عليهم فاضربوا أعناقهم[٦] ، وهذه الرِّواية منقطعةٌ ، وفي إسنادها (سماك بن حرب) وهو ضعيفٌ ، وقد تغير بأَخَرةٍ[٧] .

٥ـ الحكم في حال الاختلاف :

لقد أوصى بأن يحضر عبد الله بن عمر معهم في المجلس ، وأن ليس له من الأمر شيء ، ولكن قال لهم : فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم ، وثلاثة رجلاً منهم ، فحكِّموا عبد الله بن عمر ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٣/ ٣٤٢) .
(٢) مسلم (٣/ ١٤٨٠) .
(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٢٦) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطَّبري ، د . يحيى اليحيى ، ص(١٧٥) .
(٦) الطَّبقات ، لابن سعد (٣/ ٣٤٢) .
(٧) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطَّبري ، ص(١٧٦) .

فأيُّ الفريقين حكم له ؛ فليختاروا رجلاً منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فكونوا مع الّذين فيهم عبد الرَّحمن بن عوف ، ووصف عبد الرَّحمن بن عوف بأنَّه مسدَّدٌ رشيدٌ ؛ فقال عنه : ونعم ذو الرأي عبد الرَّحمن بن عوف مسدَّدٌ رشيدٌ ، له من الله حافظ ، فاسمعوا منه[١] .

٦ـ جماعةٌ من جنود الله تراقب الاختيار ، وتمنع الفوضى :

طلب عمر أبا طلحة الأنصاريَّ ، وقال له : يا أبا طلحة ! إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أعزَّ الإسلام بكم ، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار ، فاستحثَّ هؤلاء الرَّهط ، حتَّى يختاروا رجلاً منهم[٢] . وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتموني في حفرتي ، فاجمع هؤلاء الرَّهط في بيتٍ حتَّى يختاروا رجلاً منهم[٣] .

٧ـ جواز تولية المفضول مع وجود الأفضل :

ومن فوائد قصَّة الشُّورى : جواز تولية المفضول مع وجود الأفضل ؛ لأنَّ عمر جعل الشُّورى في ستَّة أنفسٍ مع علمه : أنَّ بعضهم كان أفضل من بعضٍ ، ويؤخذ هذا من سيرة عمر في أمرائه الذين كان يؤمرهم في البلاد ، حيث كان لا يراعي الفضل في الدِّين فقط ، بل يضمُّ إليه مزيد المعرفة بالسِّياسة مع اجتناب ما يخالف الشَّرع منها ، فاستخلف معاوية ، والمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن العاص مع وجود من هو أفضل من كلٍّ منهم في أمر الدِّين ، والعلم ، كأبي الدَّرداء في الشَّام ، وابن مسعود في الكوفة[٤] .

٨ـ جمع عمر بين التَّعيين ، وعدمه :

جمع عمر بين التَّعيين ، كما فعل أبو بكر ـ أي : تعيين المرشَّح ـ وبين عدم التَّعيين كما فعل الرسول ﷺ ، فعيَّن ستَّةً ، وطلب منهم التَّشاور في الأمر[٥] .

٩ـ الشُّورى ليست بين السِّتَّة فقط :

عرف عمر ، أنَّ الشُّورى لن تكون بين السِّتَّة فقط ، وإنَّما ستكون في أخذ رأي النَّاس في المدينة ، فيمن يتولَّى الخلافة ، حيث جعل لهم أمد ثلاثة أيَّام ، فيمكنهم من المشاورة ، والمناظرة لتقع ولاية مَنْ يتولى بعده عن اتِّفاقٍ من معظم الموجودين حينئذٍ ببلده الّتي هي دار

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٢٥) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، (٥/ ٢٢٥) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

(٤) المدينة النَّبويَّة فجر الإسلام والعصر الرَّاشدي (٢/ ٩٧) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه .

الهجرة ، وبها معظم الصَّحابة ، وكلُّ من كان ساكناً في بلدٍ غيرها كان تبعاً لهم فيما يتَّفقون عليه ، فما زالت المدينة حتَّى سنة ٢٣ هـ مجمع الصَّحابةِ بل لأنَّ كبار الصَّحابة فيها ، حيث استبقاهم عمر بجانبه ، ولم يأذن لهم بالهجرة إلى الأقاليم المفتوحة[١] .

١٠ـ أهل الشُّورى أعلى هيئةٍ سياسيَّةٍ :

إنَّ عمر رضي الله عنه أناط بأهل الشُّورى وحدهم اختيار الخليفة من بينهم ، ومن المهمِّ أن نشير إلى أنَّ أحداً من أهل الشُّورى لم يعارض هذا القرار الَّذي اتَّخذه عمر ، كما أنَّ أحداً من الصَّحابة الآخرين لم يثر أيَّ اعتراض عليه ، ذلك ما تدلُّ عليه النُّصوص الَّتي بين أيدينا ، فنحن لا نعلم : أنَّ اقتراحاً آخر قد صدر عن أحدٍ من النَّاس في ذلك العصر ، أو أنَّ معارضةً ثارت حول أمر عمر خلال السَّاعات الأخيرة من حياته ، أو بعد وفاته ، وإنَّما رضي النَّاس كافَّةً هذا التَّدبير ، ورأوا فيه مصلحةً لجماعة المسلمين ، وفي وسعنا أن نقول : إنَّ عمر قد أحدث هيئةً سياسيَّةً عليا ، مهمَّتها انتخاب رئيس الدَّولة ، أو الخليفة ، وهذا التَّنظيم الدُّستوري الجديد ، الَّذي أبدعته عبقريَّة عمر لا يتعارض مع المبادىء الأساسيَّة الَّتي أقرَّها الإسلام ، ولا سيَّما فيما يتعلَّق بالشُّورى ؛ لأنَّ العبرة من حيث النَّتيجة للبيعة العامَّة الَّتي تجري في المسجد الجامع . وعلى هذا لا يتوجَّه السُّؤال الَّذي قد يرد على بعض الأذهان ، وهو : من أعطى عمر هذا الحقَّ ؟ ما هو مستند عمر في هذا التَّدبير ؟ ويكفي أن نعلم أنَّ جماعة من المسلمين قد أقرَّت هذا التَّدبير ، ورضيت به ، ولم يُسمع صوت اعتراضٍ عليه ، حتَّى نتأكَّد : أنَّ الإجماع ـ وهو من مصادر التَّشريع ـ قد انعقد على صحَّته ، ونفاذه[٢] ، ولا ننسى : أنَّ عمر خليفةٌ راشدٌ ، كما ينبغي أن نؤكِّد : أنَّ أهل الشُّورى أعلى هيئة سياسيَّةٍ قد أقرَّه نظام الحكم في الإسلام في العهد الرَّاشدي ، كما : أنَّ الهيئة الَّتي سمَّاها عمر ، تمتَّعت بمزايا لم يتمتَّع بها غيرها من جماعة المسلمين ، وهذه المزايا مُنحت لها من الله ، وبلَّغها الرَّسول ؛ فلا يمكن عند المؤمنين أن يبلغ أحدٌ من المسلمين مبلغ هؤلاء العشرة ، من التَّقوى ، والأمانة[٣] .

هكذا ختم عمر رضي الله عنه حياته ، ولم يشغله ما نزل به من البلاء ، ولا سكرات الموت عن تدبير أمر المسلمين ، وأرسى نظاماً صالحاً للشُّورى لم يسبقه إليه أحدٌ ، ولا يُشكُّ : أنَّ أصل الشُّورى مقرَّرٌ في القرآن الكريم ، والسُّنَّة القوليَّة ، والفعليَّة ، وقد عمل بها رسول الله ﷺ وأبو بكرٍ ، ولم يكن عمر مبتدعاً بالنِّسبة للأصل ، ولكنَّ الَّذي عمله عمر هو تعيين الطَّريقة الَّتي

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) نظام الحكم في الشَّريعة والتَّاريخ الإسلامي ، لظافر القاسمي (١/ ٢٢٧ ، ٢٢٨) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٢٢٩) .

يُختار بها الخليفة ، وحصر عددٍ معيَّنٍ جعلها فيهم ، وهذا لم يفعله الرَّسول ﷺ ، ولا الصِّدِّيق رضي الله عنه ، بل أوَّل من فعل ذلك عمر ، ونِعمَ ما فعل ! فقد كانت أفضل الطُّرق المناسبة لحال الصَّحابة في ذلك الوقت[1] .

ثانياً : وصية عمر رضي الله عنه للخليفة الّذي بعده :

أوصى الفاروق عمر رضي الله عنه الخليفة الّذي سيخلفه في قيادة الأمَّة بوصيةٍ مهمَّةٍ ، قال فيها : أوصيك بتقوى الله وحده ، لا شريك له وأوصيك بالمهاجرين الأوَّلين خيراً ؛ أن تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنَّهم ردء العدوِّ ، وجباة الفيءِ ، لا تحمل منهم إلا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنَّهم أصل العرب ومادَّة الإسلام ، أن تأخذ من حواشي أموالهم ، فتردّها على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذمَّة خيراً ، أن تقاتل مَنْ وراءهم ، ولا تكلِّفهم فوق طاقتهم إذا أدَّوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً ، أو عن يدٍ وهم صاغرون ، وأوصيك بتقوى الله ، والحذر منه ، ومخافة مقته أن يطَّلع منك على ريبةٍ ، وأوصيك أن تخشى الله في النَّاس ، ولا تخشى النَّاس في الله ، وأوصيك بالعدل في الرَّعيَّة ، والتَّفرُّغ لحوائجهم ، وثغورهم ، ولا تؤثر غنيَّهم على فقيرهم ، فإنَّ في ذلك بإذن الله سلامة قلبك ، وحطّاً لوزرك ، وخيراً في عاقبة أمرك حتَّى تفضي في ذلك إلى من يعرف سريرتك ، ويحول بينك وبين قلبك ، وآمرك أن تشتدَّ في أمر الله ، وفي حدوده ومعاصيه على قريب النَّاس ، وبعيدهم ، ثمَّ لا تأخذك في أحدٍ الرَّأفة ؛ حتى تنتهك منه مثل جرمه ، واجعل النَّاس عندك سواءً ، لا تبال على مَنْ وجب الحقُّ ، ولا تأخذك في الله لومة لائم .

وإيَّاك والمحاباة فيما ولاك الله ممَّا أفاء على المؤمنين ، فتجور ، وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسَّعه الله عليك ، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدُّنيا والآخرة ، فإن اقترفت لدنياك عدلاً ، وعفَّةً عمَّا بسط لك ، اقترفت به إيماناً ، ورضواناً .

وإن غلبك الهوى ، اقترفت به غضب الله ، وأوصيك ألا ترخِّص لنفسك ، ولا لغيرك في ظلم أهل الذِّمة ، وقد أوصيتك ، وخصصتك ، ونصحتك ، فابتغ بذلك وجه الله ، والدَّار الآخرة ، واخترت من دلالتك ما كنت دالاًّ عليه نفسي ، وولدي ، فإن عملت بالّذي وعظتك ، وانتهيت إلى الّذي أمرتك ، أخذت منه نصيباً وافراً ، وحظّاً وافياً ، وإن لم تقبل ذلك ، ولم يهمَّك ، ولم تترك معاظم الأمور عند الّذي يرضى به الله عنك ؛ يكن ذلك بك انتقاصاً ، ورأيك فيه مدخولاً ؛ لأنَّ الأهواء مشتركةٌ .

ورأس الخطيئة إبليس ، داعٍ إلى كلِّ مهلكةٍ ، وقد أضلَّ القرون السَّالفة قبلك ، فأوردهم

---

(١) أوَّليَّات الفاروق ، ص (١٢٧) .

النَّار وبئس الورد المورود ، وبئس الثَّمن أن يكون حظُّ امرئ موالاةً لعدو الله ، الدَّاعي إلى معاصيه ، ثمَّ اركب الحقَّ ، وخض إليه الغمرات ، وكن واعظاً لنفسك، وأناشدك الله إلا ترحَّمت على جماعة المسلمين ، وأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ، ووقَّرت عالمهم ، ولا تضرَّ بهم ؛ فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفيء ؛ فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلِّها ؛ فتفقرهم ، ولا تجمِّرهم في البعوث فينقطع نسلهم ، ولا تجعل المال دولةً بين الأغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم ؛ فيأكل قويُّهم ضعيفهم . هذه وصيَّتي إليك ، وأشهد الله عليك ، وأقرأ عليك السَّلام[1] .

هذه الوصية تدلُّ على بعد نظر عمر في مسائل الحكم والإدارة ، وتفصح عن نهج ، ونظام حكم وإدارةٍ متكاملٍ ، فقد تضمَّنت الوصيَّة أموراً غايةً في الأهمية ، فحقَّ أن تكون وثيقةً نفيسةً ، لما احتوته من قواعد ومبادئ أساسيَّةٍ للحكم متكاملة الجوانب الدِّينيَّة ، والسِّياسيَّة ، والعسكريَّة ، والاقتصاديَّة ، والاجتماعية يأتي في مقدِّمتها :

١ـ الحرص على تقوى الله وخشيته :

أ ـ الوصية بالحرص الشَّديد ، على تقوى الله ، والخشية منه في السرِّ والعلن ، في القول والعمل ؛ لأنَّ من اتَّقى الله ؛ وقاه ، ومن خشيه ؛ صانه ، وحماه (أوصيك بتقوى الله وحده لا شريك له) (وأوصيك بتقوى الله والحذر منه . . وأوصيك أن تخشى الله) .

ب ـ إقامة حدود الله على القريب ، والبعيد (لا تبال على مَنْ وجب الحقُّ) (ولا تأخذك في الله لومة لائم) لأنَّ حدود الله نصَّت عليها الشَّريعة ، فهي من الدِّين ، ولأنَّ الشَّريعة حجَّةٌ على النَّاس ، وأعمالهم وأفعالهم تقاس بمقتضاها ، وأنَّ التَّغافل عنها إفسادٌ للدِّين ، والمجتمع .

ج ـ الاستقامة (استقم كما أمرت) وهي من الضَّرورات الدِّينيَّة والدنيويَّة الَّتي يجب على الحاكم التَّحلِّي بها قولاً وعملاً أوَّلاً ، ثمَّ الرَّعيَّة (كن واعظاً لنفسك) (وابتغ بذلك وجه الله ، والدَّار الآخرة) .

٢ـ النَّاحية السِّياسيَّة ، وتضمَّنت :

أ ـ الالتزام بالعدل ؛ لأنَّه أساس الحكم ، ولأنَّ إقامته بين الرَّعيَّة ، تحقِّق للحكم قوَّةً ، وهيبةً ، ومتانةً سياسيَّةً ، واجتماعيَّةً ، وتزيد من هيبة واحترام الحاكم في نفوس النَّاس (وأوصيك بالعدل) ، (واجعل النَّاس عندك سواءً) .

ب ـ العناية بالمسلمين الأوائل من المهاجرين والأنصار ؛ لسابقتهم في الإسلام ، ولأنَّ

---

(١) الطَّبقات ، لابن سعد (٣/ ٣٣٩) . والبيان والتَّبيين للجاحظ (٢/ ٤٦) . والكامل في التَّاريخ (٢/ ٢١٠). والخليفة الفاروق عمر بن الخطَّاب، للعاني، ص(١٧١ ، ١٧٢).

العقيدة وما أفرزته من نظام سياسيٍّ ، قام على أكتافهم ، فهم أهله ، وحملته ، وحماته (أوصيك بالمهاجرين الأوَّلين خيراً ، أن تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم) .

٣ـ الناحية العسكرية ، وتضمنت :

أ ـ الاهتمام بالجيش وإعداده إعداداً يتناسب وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه لضمان أمن الدَّولة ، وسلامتها ، والعناية بسدِّ حاجات المقاتلين (التفرُّغ لحوائجهم وثغورهم) .

ب ـ تجنُّب إبقاء المقاتلين لمدَّة طويلةٍ في الثُّغور بعيداً عن عوائلهم ، وتلافياً لما قد يسبِّبه ذلك من مللٍ ، وقلقٍ ، وهبوطٍ في المعنويَّات ، فمن الضَّروري منحهم إجازاتٍ معلومةً في أوقاتٍ معلومةٍ يستريحون فيها ، ويجدِّدون نشاطهم خلالها من جهةٍ ، ويعودون إلى عوائلهم لكي لا ينقطع نسلهم من جهة ثانيةٍ (ولا تجمِّرهم في البعوث ، فينقطع نسلهم) (وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنَّهم ردء العدوِّ) .

ج ـ إعطاء كلِّ مقاتلٍ ما يستحقُّه من فيءٍ ، وعطاءٍ ، وذلك لضمان موردٍ ثابتٍ له ، ولعائلته ، يدفعه إلى الجهاد ، ويصرف عنه التَّفكير في شؤونه الماليَّة (ولا تستأثر عليهم بالفيء ؛ فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلِّها ، فتفقرهم) .

٤ـ النَّاحية الاقتصاديَّة والماليَّة ، وتضمَّنت :

أ ـ العناية بتوزيع الأموال بين النَّاس بالعدل ، والقسطاس المستقيم ، وتلافي كلِّ ما من شأنه تجميع الأموال عند طبقةٍ منهم دون أخرى (ولا تجعل الأموال دُولةً بين الأغنياء منهم) .

ب ـ عدم تكليف أهل الذمَّة فوق طاقتهم ؛ إن هم أدَّوا ما عليهم من التزاماتٍ ماليَّةٍ للدَّولة (ولا تكلِّفهم فوق طاقتهم إذا أدَّوا ما عليهم للمؤمنين) .

ج ـ ضمان الحقوق الماليَّة للنَّاس ، وعدم التَّفريط بها ، وتجنُّب فرض ما لا طاقة لهم به (ولا تحمل منهم إلا عن فضلٍ منهم) (أن تأخذ حواشي أموالهم فتردَّها على فقرائهم)[1] .

٥ـ النَّاحية الاجتماعيَّة ، وتضمَّنت :

أ ـ الاهتمام بالرَّعية ، والعمل على تفقُّد أمورهم ، وسدِّ احتياجاتهم ، وإعطائهم حقوقهم من فيءٍ وعطاءٍ (ولا تحرمهم عطاياهم عند محلِّها) .

ب ـ اجتناب الأثرة ، والمحاباة ، واتِّباع الهوى ، لما فيها من أخطارٍ تقود إلى انحراف الرَّاعي ، وتؤدِّي إلى فساد المجتمع ، واضطراب علاقاته الإنسانيَّة (وإيَّاك والأثرة ، والمحاباة

---

(١) الخليفة الفاروق عمر بن الخطَّاب ، للعاني ، ص(١٧٤ ـ ١٧٥) .

فيما ولاك الله) (ولا تؤثر غنيَّهم على فقيرهم) .

ج ـ احترام الرَّعية ، وتوقيرها والتَّواضع لها ، صغيرها وكبيرها ؛ لما في ذلك من سموٍّ في العلاقات الاجتماعيَّة ، تؤدِّي إلى زيادة تلاحم الرَّعيَّة بقائدها ، وحبِّها له (وأناشدك الله إلا ترحَّمت على جماعة المسلمين ، وأجللت كبيرهم ورحمت صغيرهم ، ووقَّرت عالمهم) .

د ـ الانفتاح على الرَّعيَّة ، وذلك بسماع شكاواهم ، وإنصاف بعضهم من بعضٍ ، وبعكسه تضطرب العلاقات بينهم ، ويعمُّ الارتباك في المجتمع (ولا تغلق بابك دونهم ، فيأكل قويُّهم ضعيفهم) .

هـ ـ اتباع الحقِّ ، والحرص على تحقيقه في المجتمع وفي كلِّ الظُّروف ، والأحوال؛ لكونه ضرورةً اجتماعيَّةً لا بدَّ من تحقيقها بين النَّاس ، (ثمَّ اركب الحقَّ ، وخض إليه الغمرات) (واجعل النَّاس عندك سواءً ، لا تبال على من وجب الحقُّ) .

و ـ اجتناب الظُّلم بكلِّ صوره ، وأشكاله ، خاصَّةً مع أهل الذمَّة ؛ لأنَّ العدل مطلوبٌ إقامته بين جميع رعايا الدَّولة مسلمين ، وذمِّيين ، لينعم الجميع بعدل الإسلام (وأوصيك ألا ترخص لنفسك ، ولا لغيرك في ظلم أهل الذِّمَّة) .

ز ـ الاهتمام بأهل البادية ، ورعايتهم ، والعناية بهم (وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنَّهم أصل العرب ، ومادَّة الإسلام)[١] .

ح ـ وكان من ضمن وصية عمر لمن بعده : ألا يُقَرَّ لي عاملٌ أكثر من سنةٍ ، وأقرُّوا الأشعريَّ أربع سنين[٢] .

ثالثاً : منهج عبد الرحمن بن عوف في إدارة الشُّورى :

١ ـ اجتماع الرَّهط للمشاورة :

لم يكد يفرغ النَّاس من دفن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه حتَّى أسرع رهط الشُّورى وأعضاء مجلس الدَّولة الأعلى إلى الاجتماع في بيت عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها وقيل : إنَّهم اجتمعوا في بيت فاطمة بنت قيس الفهريَّة أختِ الضَّحاك ابن قيس ؛ ليقضوا في أعظم قضيَّةٍ عرضت في حياة المسلمين ـ بعد وفاة عمر ـ وقد تكلَّم القوم ، وبسطوا آراءهم ، واهتدوا بتوفيق الله إلى كلمةٍ سواء ، رضيها الخاصَّة ، والكافَّة من المسلمين[٣] .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(١٧٣ ـ ١٧٥) .

(٢) عصر الخلافة الرَّاشدة ، ص(١٠٢) .

(٣) عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص(٦٢ ، ٦٣) .

٢ـ عبد الرحمن يدعو إلى التنازل :

عندما اجتمع أهل الشُّورى قال لهم عبد الرَّحمن بن عوف : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم . فقال الزُّبير : جعلت أمري إلى عليٍّ . وقال طلحة : جعلت أمري إلى عثمان . وقال سعد : جعلت أمري إلى عبد الرَّحمن بن عوف . وأصبح المرشَّحون ثلاثةً ، عليَّ بن أبي طالب ، وعثمانَ بن عفان ، وعبدَ الرحمن بن عوف . فقال عبدُ الرحمن : أيكما تبرَّأ من هذا الأمر ، فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام لينظرنَّ أفضلهم في نفسه ، فأسكت الشَّيخان . فقال عبد الرحمن بن عوف : أفتجعلونه إليَّ والله عليَّ أن لا آلو عن أفضلكما ؟ قالا : نعم[١] !

٣ـ تفويض ابن عوف بإدارة عمليَّة الشُّورى :

بدأ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اتصالاته ، ومشاوراته فور انتهاء اجتماع المرشَّحين السِّتَّة صباح يوم الأحد ، واستمرَّت مشاوراته ، واتِّصالاته ثلاثة أيامٍ كاملة ، حتَّى فجر يوم الأربعاء الرَّابع من المحرم ، وهو موعد انتهاء المهلة الَّتي حدَّدها لهم عمر ، وبدأ عبد الرَّحمن بعليِّ بن أبي طالبٍ ، فقال له : إن لم أبايعك فأشر عليَّ ، فمن ترشح للخلافة ؟ قال عليٌّ : عثمان بن عفَّان ، وذهب عبد الرَّحمن إلى عثمان ، وقال له : إن لم أبايعك ، فمن ترشِّح للخلافة ؟ فقال عثمان : عليَّ بن أبي طالب . . . وذهب ابن عوف بعد ذلك إلى الصَّحابة الآخرين ، واستشارهم ، وكان يشاور كلَّ من يلقاه في المدينة من كبار الصَّحابة ، وأشرافهم ، ومن أمراء الأجناد ، ومن يأتي للمدينة ، وشملت مشاوراته النِّساء في خدورهنَّ ، وقد أبدَيْنَ رأيهن ، كما شملت الصِّبيان ، والعبيد في المدينة .

وكانت نتيجة مشاورات عبد الرَّحمن بن عوف : أنَّ معظم المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن عفَّان ، ومنهم من كان يشير بعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وفي منتصف ليلة الأربعاء ، ذهب عبد الرحمن بن عوف : إلى بيت ابن أُخته : المسور بن مخرمة ، فطرق البيت ، فوجد المسور نائماً[٢] ، فضرب الباب حتَّى استيقظ ، فقال : أراك نائماً ، فوالله ما اكتحلت هذه اللَّيلة بكبير نوم ! انطلق فادع الزُّبير ، وسعداً . فدعوتهما له : فشاورهما ثمَّ دعاني ، فقال : ادع لي عليّاً ، فدعوته ، فناجاه حتَّى ابهارَّ[٣] اللَّيل ، ثمَّ قام عليٌّ من عنده . . . ثم قال : ادع لي عثمان ، فدعوته فناجاه حتَّى فرَّق بينهما المؤذِّن بالصُّبح[٤] .

---

(١) البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، رقم (٣٧٠٠) .
(٢) الخلفاء الرَّاشدون للخالدي ، ص(١٠٦ ، ١٠٧) .
(٣) ابهارَّ : أي : انتصف .
(٤) البخاريُّ ، كتاب الأحكام ، رقم (٧٢٠٧) .

٤ـ الاتفاق على بيعة عثمان :

وبعد صلاة صبح يوم البيعة (اليوم الأخير من شهر ذي الحجة ٢٣ هـ/ ٦ نوفمبر ٦٤٤م) وكان صهيب الرُّومي الإمام ، إذ أقبل عبد الرَّحمن بن عوف ، وقد اعتمَّ بالعمامة الّتي عمَّمه بها رسول الله ﷺ ؛ وكان قد اجتمع رجال الشُّورى عند المنبر ، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين ، والأنصار ، وأمراء الأجناد ، منهم : معاوية أمير الشَّام ، وعمير بن سعد أمير حمص ، وعمرو بن العاص أمير مصر ، وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر ، وصاحبوه إلى المدينة[١] .

وجاء في رواية البخاريِّ : (. . . فلمَّا صلَّى للنَّاس الصُّبح ، واجتمع أولئك الرَّهط عند المنبر ، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين ، والأنصار ، وأرسل إلى أمراء الأجناد ، وكانوا وافوا تلك الحجَّة مع عمر ، فلمَّا اجتمعوا ؛ تشهَّد عبد الرحمن ، ثمَّ قال : أمَّا بعد : يا عليُّ ! إنِّي قد نظرت في أمر النَّاس ، فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعل على نفسك سبيلاً . فقال[٢] : أبايعك على سنَّة الله ، ورسوله ، والخليفتين من بعده . فبايعه النَّاس : المهاجرون ، والأنصار ، وأمراء الأجناد ، والمسلمون[٣] . وجاء في رواية صاحب التَّمهيد ، والبيان : أنَّ عليَّ بن أبي طالب أوَّل من بايع بعد عبد الرَّحمن بن عوف[٤] .

٥ـ حكمة عبد الرحمن بن عوف في تنفيذ خطَّة الشُّورى :

نفَّذ عبد الرحمن بن عوف خطَّة الشُّورى بما دلَّ على شرف عقله ، ونبل نفسه ، وإيثاره مصلحة المسلمين العامَّة على مصلحته الخاصَّة ، ونفعه الفردي ، وترك عن طواعيةٍ ورضاً أعظم منصبٍ يطمح إليه إنسان في الدُّنيا ، ليجمع كلمة المسلمين ، وحقَّق أوَّل مظهر من مظاهر الشُّورى المنظَّمة في اختيار مَنْ يجلس على عرش الخلافة ، ويسوس أمور المسلمين ؛ فهو قد اصطنع من الأناة ، والصَّبر ، والحزم ، وحسن التَّدبير ما كفل له النَّجاح في أداء مهمَّته العظمى ، وقد كانت الخطوات الّتي اتخذها كالآتي :

أ ـ بسط برنامجه في أوَّل جلسةٍ عقدها مجلس الشُّورى في دائرة الزَّمن الّذي حدَّده لهم عمر ؛ وبذلك أمكنه أن يحمل جميع أعضاء مجلس الشُّورى على أن يُدلوا برأيهم ؛ فعرف مذهب كلِّ واحدٍ منهم ، ومرماه ، فسار في طريقه على بيِّنةٍ من أمره .

---

(١) شهيد الدَّار ، ص(٣٧) . ولدى المقارنة مع التاريخ السابق يجد القارىء ثمة خلافاً واضحاً في تحديد تاريخ البيعة .

(٢) قوله : فقال : « أي : عبد الرحمن مخاطباً عثمان » .

(٣) البخاريُّ ، كتاب الأحكام ، رقم (٧٢٠٧) .

(٤) التَّمهيد والبيان ، ص (٢٦) .

ب ـ وخلع نفسه ، وتنازل عن حقِّه في الخلافة ؛ ليدفع الظُّنون ، ويستمسك بعروة الثِّقة الوثقى .

ج ـ أخذ في تعرُّف نهاية ما يصبو إليه كلُّ واحدٍ من أصحابه ، وشركائه في الشُّورى ، فلم يزل يقلِّب وجوه الرَّأي معهم ، حتَّى انتهى إلى شبه انتخابٍ جزئيٍّ ، فاز فيه عثمان برأي سعد بن أبي وقَّاص ، ورأي الزُّبير بن العوام ، فلاحت له أغلبية آراء الأعضاء الحاضرين معه .

د ـ عمد إلى معرفة كلِّ واحد من الإمامين : عثمان ، وعليٍّ في صاحبه بالنِّسبة إلى وزنه من سائر الرَّهط الَّذين رشَّحهم عمر ، فعرف من كلِّ واحدٍ منهما : أنَّه لا يعدل صاحبه أحداً ، إذا فاته الأمر .

و ـ أخذ في تعرُّف رأي مَنْ وراء مجلس الشُّورى من خاصَّة الأمَّة ، وذوي رأيها، ثمَّ من عامَّتها، وضعفائها، فرأى أنَّ معظم النَّاس لا يعدلون أحداً بعثمان ، فبايع له ، وبايعه عامَّة النَّاس[(١)] .

لقد تمكَّن عبد الرحمن بن عوف بكياسته ، وأمانته ، واستقامته ، ونسيانه نفسه بالتَّخلِّي عن الطَّمع في الخلافة ، والزُّهد بأعلى منصبٍ في الدَّولة أن يجتاز هذه المحنة ، وقاد ركب الشُّورى بمهارةٍ ، وتجرُّدٍ ممَّا يستحقُّ أعظم التَّقدير[(٢)] .

قال الذَّهبي : ومن أفضل أعمال عبد الرَّحمن عزلُه نفسه من الأمر وقت الشُّورى ، واختياره للأمَّة مَنْ أشار به أهل الحلِّ ، والعقد ، فنهض في ذلك أتمَّ نهوض على جمع الأمَّة على عثمان ، ولو كان محابياً فيها، لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمِّه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقَّاص[(٣)] .

وبهذا تحقَّقت صورةٌ أخرى من صور الشُّورى في عهد الخلفاء الرَّاشدين : وهي الاستخلاف عن طريق مجلس الشُّورى ؛ ليعيِّنوا أحدهم بعد أخذ المشورة العامَّة ، ثمَّ البيعة العامَّة[(٤)] .

رابعاً : أباطيل إماميَّة دُسَّت في قصَّة الشُّورى :

هناك أباطيل كثيرة ، وأكاذيب للأعداء دُسَّت في التَّاريخ الإسلاميِّ ، منها في قصَّة الشُّورى ، وتولية عثمان الخلافة ، وقد تلقَّفها المستشرقون ، وقاموا بتوسيع نشرها ، وتأثَّر بها الكثير من المؤرِّخين ، والمفكِّرين المحدثين ، ولم يمحِّصوا الرِّوايات ، ويحقِّقوا في سندها ، ومتنها ، فانتشرت بين المسلمين .

---

(١) عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ـ لصادق عرجون ، ص (٧٠ ، ٧١) .

(٢) مجلَّة البحوث الإسلامية ، العدد (١٠) ص(٢٥٥) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١ / ٨٦) .

(٤) دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، ص(٢٧٨) .

لقد وردت روايات باطلة حول قصة الشُّورى ، وتولية عثمان بن عفَّان الخلافة ودُسَّتْ فيها الأباطيل ، والأكاذيب ، وألَّف جماعةٌ كتباً خاصَّةً ، فقد ألف أبو مخنف كتاب الشُّورى ، وكذلك ابن عقدة ، وابن بابويه[(١)] ، ونقل ابن سعد تسع روايات من طريق الواقديِّ في خبر الشُّورى ، وبيعة عثمان ، وتاريخ تولِّيه للخلافة[(٢)] ، وروايةً من طريق عبيد الله بن موسى تضمَّنت مقتل عمر ، وحصره للشُّورى في السِّتَّة ووصيته لكلٍّ من عليٍّ ، وعثمان إذا تولَّى أحدهما أمر الخلافة ، ووصيته لصهيبٍ في هذا الأمر[(٣)] .

وقد نقل البلاذري خبر الشُّورى ، وبيعة عثمان عن أبي مخنف[(٤)] ، وعن هشام الكلبي ، منها ما نقله عن أبي مخنف ، ومنها ما تفرَّد به[(٥)] ، وعن الواقدي[(٦)] ، وعن عبيد الله بن موسى[(٧)] ، واعتمد الطَّبريُّ في هذه القصَّة على عدَّة روايات منها رواية أبي مخنفٍ[(٨)] ، ونقل ابن أبي الحديد بعض أحداث قصَّة الشُّورى من طريق أحمد بن عبد العزيز الجوهريِّ[(٩)] ، وأشار إلى نقله عن كتاب (الشُّورى) للواقديِّ[(١٠)] ، وقد تضمَّنت الرِّوايات الشيعيَّة عدَّة أمورٍ مدسوسةٍ ليس لها دليلٌ من الصِّحَّة ، وهي :

١ ـ اتِّهام الصَّحابة بالمحاباة في أمر المسلمين :

اتَّهمت الرِّوايات الشِّيعيَّة الصَّحابة بالمحاباة في أمر المسلمين ، وعدم رضا عليٍّ بأن يقوم عبد الرَّحمن باختيار الخليفة ، فقد ورد عند أبي مخنف ، وهشام الكلبيِّ عن أبيه ، وأحمد الجوهريِّ : أنَّ عمر جعل ترجيح الكفَّتين إذا تساوتا بعبد الرحمن بن عوف ، وأنَّ علياً أحسَّ بأن الخلافة ذهبت منه ؛ لأنَّ عبد الرحمن سيقدِّم عثمان للمصاهرة الّتي بينهما[(١١)] ، وقد نفى ابن

---

(١) الذَّريعة إلى تصانيف الشِّيعة (١٤/٢٤٦) .
(٢) الطَّبقات الكبرى (٣/ ٦٣) ، (٣/ ٦٧) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه (٣/ ٣٤٠) .
(٤) أنساب الأشراف (٥/١٨ ، ١٩) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .
(٦) المصدر السَّابق نفسه .
(٧) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٦) .
(٨) أثر التشيُّع على الرِّوايات التَّاريخية ، د . عبد العزيز نور ، ص (٣٢١) وهو العمدة في هذه الفقرة .
(٩) شرح نهج البلاغة (٩/ ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٨) .
(١٠) المصدر السَّابق نفسه (٩/ ١٥) .
(١١) أثر التشيُّع على الرِّوايات التَّاريخية ، ص (٣٢٢) .

تيميَّة أيَّ ارتباط في النَّسب القريب بين عثمان ، وعبد الرحمن فقال : فإنَّ عبد الرحمن ليس أخاً لعثمان ، ولا ابن عمّه ، ولا من قبيلته أصلاً ، بل هذا من بني زهرة وهذا من بني أميَّة ، وبنو زهرة إلى بني هاشم أكثر ميلاً منهم إلى بني أميَّة ، فإنَّ بني زهرة أخوال النَّبيِّ ﷺ ، ومنهم عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقَّاص الّذي قال له النبي ﷺ : « **هذا خالي فليرني امرؤ خاله** »[(١)] . فإنَّ النَّبيّ ﷺ لم يؤاخ بين مهاجريٍّ ، ومهاجريٍّ ، ولا بين أنصاريٍّ وأنصاريٍّ ، وإنَّما آخى بين المهاجرين ، والأنصار ، فآخى بين عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الرَّبيع الأنصاري[(٢)] ، وحديثه مشهورٌ ثابتٌ في الصِّحاح ، وغيرها ، يعرفه أهل العلم بذلك[(٣)] .

وقد بنت الرِّوايات الشِّيعيَّة محاباة عبد الرَّحمن لعثمان للمصاهرة الّتي كانت بينهما ، متناسيةً ، أنَّ قوّة النَّسب أقوى من المصاهرة من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرى تناسوا طبيعة العلاقة بين المؤمنين في الجيل الأوَّل ، وأنَّها لا تقوم على نسبٍ ولا مصاهرة ، وأمَّا كيفية المصاهرة الّتي كانت بين عبد الرحمن ، وعثمان ؛ فهي أنَّ عبد الرحمن تزوَّج أمَّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت الوليد[(٤)] .

٢ ـ حزبٌ أمويٌّ ، وحزبٌ هاشميٌّ :

أشارت رواية أبي مخنف إلى وقوع مشادَّةٍ بين بني هاشم ، وبني أميَّة أثناء المبايعة ؛ وهذا غير صحيح ، ولم يرد ذلك بروايةٍ صحيحةٍ ، ولا ضعيفةٍ[(٥)] ، وقد انساق بعض المؤرِّخين خلف الرِّوايات الشِّيعيَّة الإماميَّة ، وبنوا تحليلاتهم الخاطئة على تلك الرِّوايات ، فصوَّروا تشاور أصحاب الرَّسول ﷺ في تحديد الخليفة الجديد بصورة الخلاف العشائريِّ ، وأنَّ النَّاس قد انقسموا إلى حزبين : حزب أمويٍّ ، وحزب هاشميٍّ ، وهو تصوُّر موهومٌ ، واستنتاجٌ مردودٌ لا دليل عليه ؛ إذ إنَّه ليس نابعاً من ذلك الجوِّ الّذي كان يعيشه أصحاب رسول الله حينما كان يقف المهاجريُّ مع الأنصاريِّ ضدَّ أبيه ، وأخيه ، وابن عمّه وبني عشيرته ، وليس نابعاً من تصوُّر هؤلاء الصَّحب وهم يضحُّون بكلِّ شيءٍ من حطام الدُّنيا في سبيل أن يسلم لهم دينهم ، ولا من المعرفة الصَّحيحة لهؤلاء النُّخبة من المبشَّرين بالجنَّة ، فالأحداث الكثيرة الّتي رويت عن هؤلاء تثبت : أنَّ هؤلاء كانوا أكبر بكثيرٍ من أن ينطلقوا من هذه الزَّاوية الضَّيِّقة في معالجة أمورهم ،

---

(١) صحيح سنن التِّرمذي (٣/ ٢٢٠) رقم (٤٠١٨) .

(٢) البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار رقم (٣٧٨٠) .

(٣) منهاج السُّنَّة النَّبويَّة (٦/ ٢٧١ ـ ٢٧٢) .

(٤) الطَّبقات الكبرى (٣/ ١٢٧) .

(٥) مرويات أبي مخنفٍ في تاريخ الطَّبري ، ص(١٧٧ ، ١٧٨) .

فليست القضيَّة قضيَّة تمثيلٍ عائليٍّ ، أو عشائريٍّ ، فهم أهل شورى لمكانتهم من الإسلام[١] .

٣ـ أقوال نسبت زوراً أو بهتاناً لعليٍّ رضي الله عنه :

قال ابن كثير : وما يذكره كثيرٌ عن المؤرِّخين كابن جرير ، وغيره عن رجالٍ لا يعرفون : أنَّ علياً قال لعبد الرَّحمن : خدعتني ، وإنَّك إنَّما وليته لأنَّه صهرك ، وليشاورك كلَّ يومٍ في شأنه ، وأنَّه تلكَّأ حتَّى قال عبد الرحمن : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] ، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصِّحاح ، فهي مردودةٌ على قائليها ، وناقليها ، والله أعلم ، والمظنون من الصَّحابة خلاف ما يتوهَّم كثيرٌ من الإماميَّة ، وأغبياء القصَّاص الّذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبار ، وضعيفها ، ومستقيمها ، وسقيمها ، ومبادها ، وقويمها ، والله الموفق للصَّواب[٢] .

٤ـ اتِّهام عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة :

وقد ذكر أبو مخنفٍ في روايته في قضية الشُّورى عن عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة أنَّهما جلسا عند الباب ، وردَّ سعدٌ عليهما ، فهذا يستغرب من رعاع النَّاس فضلاً عن الصَّحابة الكرام ، وكيف يقول سعدٌ لهما : تريدان أن تقولا : حضرنا وكنا من أهل الشُّورى . وقد علم النَّاس أهل الشُّورى بأعيانهم ، واستفاض ذلك عندهم . وفي الحقيقة : أنَّ رواية أبي مخنفٍ يناقض بعضها بعضاً ، وهي واضحةٌ لمن تدبَّرها وقارنها بالأصول الصَّحيحة ، وغرائبها أشهر من ذكرها ، وقد أشار الدُّكتور يحيى اليحيى إلى نماذج ، وأمثلةٍ تكفي لإسقاط هذه الرِّواية وعدم الاعتبار بها[٣] . هذه بعض الإشارات العابرة ذكرتها للتَّنبيه والتَّحذير من تلك السُّموم المبثوثة في تراثنا التَّاريخيِّ، والموروث الثَّقافي للأمَّة، فقد أثرت في رجال الفكر، والقلم، والتاريخ.

خامساً : أحقِّيَّة خلافة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه :

لا يشكُّ مؤمنٌ في أحقِّيَّة خلافة عثمان رضي الله عنه وصحَّتها ، وأنَّه لا مطعن فيها لأحدٍ إلا ممَّن أصيب قلبه بزيغ ، فنقم على أصحاب رسول الله ﷺ بسبب ما حلَّ في قلبه من الغيظ منهم ، وهذا لم يحصل إلا من الأعداء الّذين جعلوا رأس مالهم في هذه الحياة الدُّنيا هو سبُّ الصَّحابة رضي الله عنهم ، وبغضهم ، ولا قيمة لما يوجِّهونه من المطاعن على خلافة الثَّلاثة رضي الله

---

(١) الخلفاء الرَّاشدون ، أمين القضاة ، ص(٧٨ ، ٧٩) .

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٢) .

(٣) مرويَّات أبي مخنفٍ ، ص(١٧٩) .

عنهم لظهور بطلانه ، وأنَّها افتراءاتٌ لا تصحُّ ، وقد جاء في جملةٍ من النُّصوص القطعيَّة الصَّحيحة ، والآثار الشَّهيرة التَّنبيه ، والإيماء إلى أحقيَّة خلافة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، ومن ذلك[(١)] :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] . وجه الاستدلال بهذه الآية على أحقِّيَّة خلافة عثمان رضي الله عنه أنَّه من الّذين استخلفهم الله في الأرض ، ومكَّن لهم فيها ، وسار في النَّاس أيام خلافته سيرةً حسنةً ؛ حيث حكم فيهم بالعدل ، وأقام الصَّلاة ، وآتى الزَّكاة ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، فهذه الآية تضمَّنت الإشارة إلى أحقِّيَّة خلافته رضي الله عنه[(٢)] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ١٦] . وجه الاستدلال بهذه الآية على أحقِّيَّة خلافة عثمان رضي الله عنه هو أنَّ الدَّاعي لهؤلاء الأعراب داع يدعوهم بعد نبيِّه ﷺ وهو أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، رضي الله عنهم ، فأبو بكر دعاهم إلى قتال الرُّوم ، والفرس ، والتُّرك فوجبت طاعة هؤلاء الثَّلاثة رضي الله عنهم بنصِّ القرآن ، وإذا وجبت طاعتهم ، صحَّت خلافتهم ، رضي الله عنهم ، وأرضاهم[(٣)] .

٣ ـ عن أبي موسى رضي الله عنه قال : إنَّ النَّبيّ ﷺ دخل حائطاً ، وأمرني بحفظ باب الحائط ، فجاء رجلٌ يستأذن ، فقال : « **ائذن له ، وبشِّره بالجنَّة** » فإذا هو أبو بكر ، ثمَّ جاء آخر يستأذن ، فقال : « **ائذن له ، وبشِّره بالجنَّة** » فإذا هو عمر ، ثمَّ جاء آخر يستأذن ، فقال : « **ائذن له وبشِّره بالجنَّة على بلوى تصيبه** » فإذا هو عثمان ابن عفَّان[(٤)] . هذا الحديث فيه إشارةٌ إلى ترتيب الثَّلاثة في الخلافة ، وإخبارٌ عن بلوى تصيب عثمان ، وهذه البلوى حصلت له رضي الله عنه ، وهي حصاره يوم الدَّار ، حتَّى قتل آنذاك مظلوماً ، فالحديث علمٌ من أعلام النُّبوَّة ، وفيه الإشارة إلى كونه شهيداً رضي الله عنه ، وأرضاه[(٥)] .

---

(١) عقيدة أهل السُّنَّة في الصَّحابة (٢/ ٦٥٦) .

(٢) عقيدة أهل السُّنَّة في الصَّحابة (٢/ ٦٥٦) .

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنِّحل (٤/ ١٠٩ ـ ١١٠) .

(٤) البخاريُّ ، رقم (٣٦٩٥) .

(٥) عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في الصَّحابة (٢/ ٦٥٧) .

٤ ـ روى أبو داود ـ رحمه الله ـ بإسناده إلى جابر بن عبد الله : أنَّه كان يحدِّث : أنَّ رسول الله ﷺ قال : رأى اللَّيلة رجلٌ صالحٌ : أنَّ أبا بكر نيط برسول الله ، ونيط عمر بأبي بكرٍ ، ونيط عثمان بعمر . قال جابر : فلمَّا قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا : أمَّا الرَّجل الصَّالح ؛ فرسول الله ﷺ ، وأمَّا تنوُّط بعضهم ببعض فهم ولاة هذا الأمر ؛ الَّذي بعث الله به نبيَّه ﷺ[1] .

٥ ـ وروى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إنَّها ستكون فتنةٌ ، واختلافٌ ، أو اختلافٌ ، وفتنةٌ** » قال : قلنا : يا رسول الله ! فما تأمرنا ؟ قال : « **عليكم بالأمين ، وأصحابه** » وأشار إلى عثمان[2] .

وهذا الحديث فيه معجزةٌ ظاهرةٌ للنَّبيِّ ﷺ الدَّالَّة على صدق نبوَّته ؛ حيث أخبر بالفتنة الَّتي حصلت أيام خلافة عثمان وكانت كما أخبر ، كما تضمَّن الحديث التَّنبيه على أحقيَّة خلافة عثمان ؛ إذ إنَّه ﷺ أرشد النَّاس إلى أن يلزموه ، وأخبر بأنَّه حين وقوع الفتنة والاختلاف فالحقُّ مع أمير المؤمنين ، وأمرهم بالالتفاف حوله وملازمته ، لكونه على الحقِّ ، والخارجون عليه على الباطل ، أهل زيغ ، وهوىً ، وقد شهد له الرسول ﷺ بأنَّه سيكون مستمرّاً على الهدى لا ينفكُّ عنه[3] .

٦ ـ روى أبو عيسى التِّرمذيُّ بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « **يا عثمان ! إنَّه لعلَّ الله يقمصك قميصاً ، فإن أرادوك على خلعه ؛ فلا تخلعه لهم** »[4] . ففي هذا الحديث الإشارة إلى الخلافة ، واستعارة القميص لها وذكر الخلع ترشيحٌ ، أي : سيجعلك الله خليفةً ، فإن قصد النَّاس عزلك ، فلا تعزل نفسك عنها لأجلهم لكونك على الحقِّ ، وكونهم على الباطل[5] .

٧ ـ وروى التِّرمذيُّ بإسناده إلى أبي سهلة ، قال : قال لي عثمان يوم الدَّار : إنَّ رسول الله ﷺ قد عهد إليَّ عهداً ، فأنا صابرٌ عليه[6] . فقوله : قد عهد إليَّ عهداً ، أي : أوصاني ألا أخلع بقوله : وإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم ، فأنا صابرٌ عليه ، أي : على ذلك العهد[7] .

---

(١) سنن أبي داود (٢/ ٥١٣) .

(٢) المستدرك (٣/ ٩٩) ثمَّ قال : حديثٌ صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٣) عقيدة أهل السنَّة والجماعة في الصَّحابة (٢/ ٦٦٠) .

(٤) فضائل الصَّحابة (١/ ٦١٣) إسناده صحيحٌ .

(٥) الدِّين الخالص (٣/ ٤٤٦) .

(٦) فضائل الصَّحابة (١/ ٦٠٥) إسناده صحيحٌ . والتِّرمذي (٥/ ٢٩٥) .

(٧) تحفة الأحوذيّ (١٠/ ٢٠٩) .

٨ ـ وروى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى أبي سهلة مولى عثمان عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « ادعوا لي ـ أو ليت عندي ـ رجلاً من أصحابي » . قالت : قلت : أبو بكر . قال : « لا ! » قلت : عمر . قال : « لا ! » قلت : ابن عمِّك عليٌّ . قال : « لا ! » قلت : فعثمان : قال : « نعم ! » قالت : فجاء عثمان ، فقال : « قومي ! » قال : فجعل النَّبيُّ ﷺ يسرُّ إلى عثمان ، ولون عثمان يتغيَّر . قال : فلما كان يوم الدَّار ؛ قلنا : ألا تقاتل ؟ قال : لا : إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ أمراً فأنا صابرٌ نفسي عليه[1] .

فهذا الحديث والَّذي قبله فيهما دلالةٌ على صحَّة خلافته، فمن أنكر خلافته ولم يره من أهل الجنَّة، والشُّهداء، وأساء الأدب فيه باللِّسان، أو الجنان، فهو خارجٌ عن دائرة الإيمان، وحيِّز الإسلام[2] .

٩ ـ وممَّا دل على صحَّة خلافته ، وإمامته ما رواه البخاريُّ بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنَّا في زمن النَّبيّ ﷺ لا نعدل بأبي بكرٍ أحداً ، ثمَّ عمر ، ثمَّ عثمان ، ثمَّ نترك أصحاب النَّبيّ ﷺ لا نفاضل بينهم[3] ، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الله ـ تعالى ـ ألهمهم، وألقى في رُوعهم ما كان صانعه بعد نبيِّه ﷺ من أمر ترتيب الخلافة[4] .

قال ابن تيميَّة : فهذا إخبارٌ عمَّا كان عليه الصَّحابة على عهد النَّبيّ ﷺ من تفضيل أبي بكرٍ ، ثمَّ عمر ، ثمَّ عثمان ، وقد روي : أنَّ ذلك كان يبلغ النَّبيَّ ﷺ ، فلا ينكره ، وحينئذٍ فيكون هذا التَّفضيل ثابتاً بالنَّص ، وإلا فيكون ثابتاً بما ظهر بين المهاجرين ، والأنصار على عهد النَّبيّ ﷺ من غير نكيرٍ ، وبما ظهر لمَّا توفي عمر ، فإنَّهم كلَّهم بايعوا عثمان بن عفَّان من غير رغبةٍ ، ولا رهبةٍ ، ولم ينكر هذه الولاية منكرٌ منهم[5] .

وكل ما تقدَّم ذكره من النُّصوص في هذه الفقرة أدلَّةٌ قويَّةٌ كلُّها فيها الإشارة والتَّنبيه إلى أحقِّيَّة خلافة عثمان رضي الله عنه ، وأنَّه لا مرية في ذلك ولا نزاع عند المتمسِّكين بالكتاب ، والسُّنَّة ، والَّذين هم أسعد النَّاس بالعمل بهما ، وهم أهل السُّنَّة ، والجماعة ، فيجب على كلِّ مسلمٍ أن يعتقد أحقِّيَّة عثمان رضي الله عنه، وأن يسلِّم تسليماً كاملاً للنُّصوص الدَّالَّة على ذلك[6] .

---

(١) فضائل الصَّحابة (١/ ٦٠٥) إسناده صحيحٌ . والمستدرك (٣/ ٩٩) حديثٌ صحيح الإسناد ، ولم يخرِّجاه ، ووافقه الذَّهبي .
(٢) الدِّين الخالص (٣/ ٤٤٦) .
(٣) البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النَّبيّ ﷺ ، رقم (٣٦٩٨) .
(٤) عقيدة أهل السُّنَّة (٢/ ٦٦٤) .
(٥) منهاج السُّنَّة (٣/ ١٦٥) .
(٦) عقيدة أهل السُّنة (٢/ ٦٦٤) .

سادساً : انعقاد الإجماع على خلافة عثمان :

أجمع أصحاب رسول الله ﷺ ، وكذا من جاء بعدهم ممَّنِ سلك سبيلهم من أهل السُّنَّة والجماعة على أنَّ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه أحقُّ النَّاس بخلافة النُّبوَّة بعد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، ولم يخالف ، أو يعارض في هذا أحدٌ ، بل الجميع سلَّم له بذلك ؛ لكونه أفضل خلق الله على الإطلاق بعد الشَّيخين أبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما ، وقد نقل الإجماع على أحقيَّة عثمان رضي الله عنه بالخلافة بعد عمر رضي الله عنه طائفةٌ من أهل العلم بالحديث ، وغيرهم ، ومن تلك النُّقول[1] :

١ـ ما رواه ابن أبي شيبة بإسناده إلى حارثة بن مضرب ، قال : حججت في إمارة عمر ، فلم يكونوا يشكُّون : أنَّ الخلافة من بعده لعثمان[2] .

٢ـ وروى أبو نعيم الأصبهانيُّ بإسناده إلى حذيفة رضي الله عنه قال: إنِّي لواقف مع عمر تمسُّ ركبتي ركبته، فقال: من ترى قومك يؤمِّرون؟ قال: إنَّ الناس قد أسندوا أمرهم إلى ابن عفَّان[3] .

٣ـ ونقل الحافظ الذَّهبي عن شريك بن عبد الله القاضي ، أنَّه قال : قُبض النَّبيّ ﷺ فاستخلف المسلمون أبا بكرٍ ، فلو علموا : أنَّ فيهم أحداً أفضل منه ؛ كانوا قد غَشّوا ، ثمَّ استخلف أبو بكرٍ عمر ، فقام بما قام به من الحقِّ ، والعدل ، فلمَّا احتضر جعل الأمر شورى بين ستَّةٍ ، فاجتمعوا على عثمان ، فلو علموا : أن فيهم أفضل منه كانوا قد غشّونا[4] .

فهذه النُّقول فيها بيانٌ واضح في أنَّ أصحاب النَّبيّ ﷺ قد اشتهر بينهم أولويَّة عثمان بالخلافة ، وما زال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه حيّاً ؛ لما سبق من علمهم ببعض النُّصوص المشيرة إلى أنَّ ترتيبه سيكون في خلافة النُّبوَّة بعد الفاروق رضي الله عنه ، ولعلمهم أنَّه أفضل النَّاس على الإطلاق بعد أبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما[5] .

٤ـ روى ابن سعدٍ بإسناده إلى النزَّال بن سبرة رضي الله عنه قال : قال عبد الله ابن مسعودٍ حين استُخلف عثمان : استخلفنا خير من بقي ، ولم نألُ ـ أي : لم نقصر في اختيار الأفضل ـ وفي روايةٍ أخرى قال : أمَّرنا خير من بقي ، ولم نأل[6] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٦٦٥) .

(٢) المصنَّف (١٤/٥٨٨) .

(٣) كتاب الإمامة والردّ على الرَّافضة ، ص(٣٠٦) .

(٤) ميزان الاعتدال (٢/ ٢٧٣) .

(٥) عقيدة أهل السُّنَّة (٢/ ٦٦٦) .

(٦) الطَّبقات الكبرى (٣/ ٦٣) .

٥ـ وقال الحسن بن محمَّد الزَّعفرانيُّ : سمعت الشَّافعيَّ يقول : أجمع النَّاس على خلافة أبي بكرٍ ، واستخلف أبو بكرٍ عمر ، ثمَّ جعل عمر الشُّورى إلى ستَّةٍ على أن يولّوها واحداً ، فولّوها عثمان رضي الله عنهم أجمعين(١) .

وقد نقل أبو حامد محمَّد المقدسيُّ كلاماً عزاه للإمام الشَّافعيِّ ـ رحمه الله ـ: أنَّه قال: واعلموا: أنَّ الإمام الحقَّ بعد عمر رضي الله عنه عثمان رضي الله عنه بجعل أهل الشُّورى اختيار الإمامة إلى عبد الرحمن بن عوف، واختياره لعثمان رضي الله عنه، وإجماع الصَّحابة رضي الله عنهم، وصوبوا رأيه فيما فعله ، وأقام النَّاس على محجَّة الحقِّ ، وبسط العدل إلى أن استشهد رضي الله عنه(٢) .

٦ـ وذكر ابن تيميَّة عن الإمام أحمد : أنَّه قال : لم يجتمعوا على بيعة أحدٍ ما اجتمعوا على بيعة عثمان(٣) .

٧ـ وقال أبو الحسن الأشعريُّ : وثبتت إمامة عثمان رضي الله عنه بعد عمر بعقد مَنْ عقد له الإمامة من أصحاب الشُّورى ، الّذين نصَّ عليهم عمر ، فاختاروه ورضوا بإمامته ، وأجمعوا على فضله ، وعدله(٤) .

٨ ـ وقال عثمان الصَّابوني مبيِّناً عقيدة السَّلف ، وأصحاب الحديث في ترتيب الخلافة بعد أن ذكر : أنَّهم يقولون أوَّلاً بخلافة الصِّدِّيق ، ثمَّ عمر ، قال : ثمَّ خلافة عثمان رضي الله عنه بإجماع أهل الشُّورى ، وإجماع الأصحاب كافَّةً ، ورضاهم به حتَّى جعل الأمر إليه(٥) .

٩ـ وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ رحمة الله تعالى عليه وعلى جميع العلماء المصلحين ـ : وجميع المسلمين بايعوا عثمان بن عفَّان ، لم يتخلَّف عن بيعته أحد . . فلمَّا بايعه ذوو الشَّوكة ، والقدرة صار إماماً ، وإلا فلو قُدِّر أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه عليٌّ ، ولا غيره من الصَّحابة أهل الشوكة لم يصر إماماً ، ولكن عمر لما جعلها شورى في ستَّةٍ : عثمان ، وعليٍّ ، وطلحة ، والزُّبير ، وسعدٍ ، وعبد الرحمن بن عوف ، ثمَّ إنَّه خرج طلحة ، والزُّبير ، وسعد باختيارهم ، وبقي عثمان ، وعليٌّ ، وعبد الرحمن لا يتولَّى ويولي أحد الرَّجلين ، وأقام عبد الرحمن ثلاثاً حلف أنَّه لم يغمض فيها بكبير نوم يشاور السَّابقين الأوَّلين ، والتَّابعين لهم بإحسان ، يشاور

---

(١) مناقب الشَّافعي للبيهقي (١/ ٤٣٤ ، ٤٣٥) .
(٢) الرَّدّ على الرَّافضة ، ص(٣١٩ ، ٣٢٠) .
(٣) منهاج السُّنَّة (٣/ ١٦٦) . والسُّنَّة للخلال ، ص(٣٢٠) .
(٤) الإبانة عن أصول الدِّيانة ، ص(٦٨) .
(٥) عقيدة السَّلف وأصحاب الحديث ضمن الرَّسائل المنبريَّة (١/ ١٣٩) .

أمراء الأجناد ، وكانوا قد حجُّوا مع عمر ذلك العام ، فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان ، وذكر ؛ أنَّهم كلَّهم قدَّموا عثمان ، فبايعوه لا عن رغبةٍ أعطاهم إيَّاها ، ولا عن رهبةٍ أخافهم بها ، ولهذا قال غير واحدٍ من السَّلف ، والأئمة كأيوب السَّختيانيِّ ، وأحمد بن حنبل ، والدَّارقطني ، وغيرهم : من قدَّم عليّاً على عثمان ، فقد أزرى بالمهاجرين ، والأنصار ، وهذا من الأدلَّة الدَّالَّة على أنَّ عثمان أفضل ، لأنَّهم قدَّموه باختيارهم ، واشتوارهم[(١)] .

١٠ ـ وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ حاكياً لإجماع الصَّحابة على خلافة عثمان رضي الله عنه : ويروى : أنَّ أهل الشُّورى جعلوا الأمر إلى عبد الرحمن ، ليجتهد للمسلمين في أفضلهم ، ليولِّيه ، فيذكر : أنَّه سأل من يمكنه سؤاله من أهل الشُّورى ، وغيرهم ، فلا يشير إلا بعثمان بن عفَّان ، حتَّى إنَّه قال لعليٍّ رضي الله عنه : أرأيت إن لم أولك بمن تشير به عليَّ ؟ قال : بعثمان ، وقال لعثمان رضي الله عنه : أرأيت إن لم أولِّك بمن تشير به ؟ قال : بعليِّ بن أبي طالبٍ ، والظَّاهر : أنَّ هذا كان قبل أن ينحصر الأمر في ثلاثة ، وينخلع عبد الرَّحمن منها لينظر الأفضل ، والله عليه والإسلام ليجتهد في أفضل الرَّجلين فيوليه ، ثمَّ نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير النَّاس فيهما ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس النَّاس ، وأقيادهم جميعاً وأشتاتاً ، مثنى وفرادى ومجتمعين ، سرّاً وجهراً ، حتَّى خلص إلى النِّساء المخدَّرات في حجابهنَّ ، وحتَّى سأل الولدان في المكاتب ، وحتَّى سأل من يَرِدُ من الرُّكبان ، والأعراب إلى المدينة في مدَّة ثلاثة أيَّام بلياليها ، فلم يجد اثنين يختلفان في تقدُّم عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، فسعى في ذلك عبد الرَّحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يغتمض بكثير نومٍ إلا في صلاةٍ ، ودعاءٍ ، واستخارةٍ ، وسؤالٍ من ذوي الرَّأي عنهم ، فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، فلمَّا كان اللَّيلة الَّتي يسفر صباحها عن اليوم الرَّابع من موت عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه جاء إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة ، وأمره أن ينادي له عليّاً ، وعثمان ، رضي الله عنهما ، فناداهما ، فحضرا إلى عبد الرَّحمن ، فأخبرهما : أنَّه سأل النَّاس ، فلم يجد أحداً يعدل بهما أحداً ، ثمَّ أخذ العهد على كلٍّ منهما أيضاً لئن ولاه ؛ ليعدلنَّ ، ولئن ولِّي عليه ؛ ليسمعنَّ ، وليطيعنَّ ، ثمَّ خرج إلى المسجد ، وقد لبس عبد الرَّحمن العمامة الَّتي عمَّمه بها رسول الله ﷺ ، وتقلَّد سيفاً ، وبعث إلى وجوه النَّاس من المهاجرين ، والأنصار ، ونودي في النَّاس عامَّةً : الصَّلاة جامعةً ، فامتلأ المسجد بالنَّاس حتَّى غصَّ بالنَّاس ، وتراصَّ النَّاس ، وتراصَّوا حتَّى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه إلا في أخريات النَّاس ـ وكان رجلاً حيياً رضي الله عنه ـ .

ثمَّ صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ فوقف وقوفاً طويلاً ، ودعا دعاءً طويلاً ،

---

(١) مناهج السُّنَّة (١ / ١٣٤) .

لم يسمعه النَّاس ، ثمَّ تكلَّم ، فقال : أيُّها الناس ! إنِّي سألتكم سرّاً وجهراً عن إمامكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرَّجلين إمَّا عليٍّ ، وإما عثمان ، فقم إليَّ يا عليُّ ، فقام إليه ، فوقف تحت المنبر ، فأخذ عبد الرَّحمن بيده ، فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله ، وسنَّة نبيِّه ﷺ ، وفعل أبي بكرٍ ، وعمر ؟ قال : اللَّهم لا ! ولكن على جهدي من ذلك ، وطاقتي . قال : فأرسل يده ، وقال : قم إليَّ يا عثمان ! فأخذ بيده، وقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وفعل أبي بكرٍ ، وعمر ؟ قال : اللَّهمَّ نعم ! قال : فرفع رأسه إلى سقف المسجد ؛ ويده في يد عثمان وقال : اللَّهمَّ اسمع ، واشهد ! اللهم اسمع ، واشهد ! اللَّهمَّ اسمع ، واشهد ! اللَّهُمَّ إنِّي قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان .

وقال : وازدحم النَّاس يبايعون عثمان حتَّى غشوه تحت المنبر ، قال : فقعد عبد الرَّحمن مقعد النَّبيِّ ﷺ ، وأجلس عثمان تحته على الدَّرجة الثانية ، وجاء إليه النَّاس يبايعونه ، وبايعه عليُّ بن أبي طالبٍ أولاً ، ويقال : ثانياً[١] .

فهذه النُّقول المتقدِّم ذكرها للإجماع عن هؤلاء الأئمَّة كلُّها تفيد إفادةً قطعيَّةً أنَّ البيعة بالخلافة تمَّت لعثمان رضي الله عنه بإجماع الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ولم يخالف ، أو يعارض في ذلك أحدٌ[٢] .

سابعاً : حكم تقديم عليٍّ على عثمان رضي الله عنهما :

نُذكِّر ـ هنا ـ بأنَّ الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ كلُّهم عدول ، لا يجوز الطعنُ بواحدٍ منهم ، وما حَدَث بين بعضهم، فهو اختلافٌ في وجهات النظر، ولا علاقة له بإيمان هذا الصحابي أو ذاك، أو قُرْبه من النبي ﷺ .

وكانت الخلافة قضية استطاع المسلمون أن يحلُّوا إشكالاتها، ويتغلبوا على ما اعترضهم من عقبات كَأْداء .

وقال ابن تيميَّة : استقرَّ أمر أهل السُّنَّة على تقديم عثمان ، وإن كانت هذه المسألة ـ مسألة عثمان وعليٍّ ـ ليست من الأصول الَّتي يُضلَّل المخالف فيها عند جمهور أهل السُّنَّة ، لكن المسألة الَّتي يُضلَّل المخالف فيها هي مسألة الخلافة ، وذلك : أنَّهم يؤمنون بأنَّ الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثمَّ عمر ، ثمَّ عثمان ، ثمَّ عليٌّ ، ومن طعن في خلافة أحدٍ من هؤلاء الأئمَّة ؛ فهو أضلُّ من حمار أهله[٣] .

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩ ـ ١٦١) .

(٢) عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة (٢/ ٦٧١) .

(٣) مجموعة الفتاوى (٣/ ١٠١ ، ١٠٢) .

وذكر أقوال أهل العلم في مسألة تفضيل عليٍّ على عثمان :

فقال : فيها روايتان :

إحداهما : لا يسوَّغ ذلك ، فمن قال به فقد خرج من السُّنَّة إلى البدعة ؛ لمخالفته لإجماع الصَّحابة ؛ يروى ذلك عن غير واحدٍ ، منهم أيوب السَّختياني ، وأحمد بن حنبل ، والدَّارقطنيِّ .

والثانية : لا يُبدَّع من قدَّم عليّاً ، لتقارب حال عثمان ، وعليٍّ[1] .

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٦٧) .

المبحث الثاني
منهج عثمان بن عفَّان في الحكم

عندما بويع عثمان رضي الله عنه بالخلافة قام في النَّاس خطيباً ، فأعلن عن منهجه السِّياسيِّ مبيِّناً : أنَّه سيتقيَّد بالكتاب ، والسُّنَّة ، وسيرة الشَّيخين ، كما أشار في خطبته إلى أنَّه سيسوس النَّاس بالحلم ، والحكمة إلا فيما استوجبوه من الحدود ، ثمَّ حذَّرهم من الرُّكون إلى الدُّنيا ، والافتتان بحطامها خوفاً من التَّنافس ، والتَّباغض ، والتَّحاسد بينهم ، ممَّا يفضي بالأمَّة إلى الفرقة ، والخلاف ، وكأنَّ عثمان رضي الله عنه ينظر وراء الحجب ببصيرته النَّفَّاذة إلى ما سيحدث في هذه الأمَّة من الفتن بسبب الأهواء ، وتهالك النَّاس بعدما بويع[(١)] فقال :

« أمَّا بعد : فإنِّي كلِّفت ، وقد قبلت ، ألا وإنِّي متَّبعٌ ، ولست بمبتدعٍ ، ألا وإنَّ لكم عليَّ بعد كتاب الله ، وسنَّة نبيه ﷺ ثلاثاً : اتِّباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه ، وسننتم ، وسنَّ أهل الخير فيما تسنُّوا عن ملأ ، والكفَّ عنكم إلا فيما استوجبتم العقوبة ، وإن الدُّنيا خضرةٌ وقد شهيت إلى النَّاس ومال إليها كثيرٌ منهم ، فلا تركنوا إلى الدُّنيا ولا تثقوا بها ، فإنَّها ليست بثقةٍ ، واعلموا أنَّها غير تاركةٍ إلا من تركها »[(٢)] .

وأمَّا قول بعض النَّاس بأن عثمان لمَّا خطب أوَّل خطبةٍ أرتج عليه ، فلم يدر مايقول ؛ حتَّى قال : أيُّها النَّاس ! إنَّ أوَّل مركبٍ صعبٌ ، وإن أعش ، فستأتيكم الخطبة على وجهها ، فهو شيءٌ يذكره صاحب العِقْد[(٣)] ، وغيره ممَّن يذكر طرف الفوائد ، وأنَّ إسناده غير صحيح[(٤)] .

أولاً : كُتب عثمان إلى عمَّاله ، وولاته ، وأمراء الجند ، وعامَّة النَّاس :

أقرَّ عثمان رضي الله عنه عُمَّال عمر رضي الله عنه ، فلم يعزل منهم أحداً عاماً كاملاً أخذاً بوصيَّة عمر رضي الله عنه ، والنَّاظر في الكتب الَّتي بعث بها إلى الولاة وعمَّال المال ، وأمراء

---

(١) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٣٩٢) .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/٤٤٣) .

(٣) المراد : ابن عبد ربه الأندلسي ، صاحب كتاب العقد الفريد ، وهو كتاب في طريق الأخبار والحكايات والنَّوادر ، ولا يهتم بسند الخبر ، أو صحَّته .

(٤) خلافة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، د. السَّلمي ، ص(٣٤، ٣٥)الخبر من طريق الواقدي ، وهو متروك .

الأجناد يقف على النَّهج ، الّذي أراد السَّير عليه ، وأخذ الأمَّة به[١] .

١ـ أوَّل كتابٍ كتبه عثمان إلى جميع ولاته :

أمَّا بعد : فإنَّ الله أمر الأئمَّة أن يكونوا رعاةً ، ولم يتقدَّم إليهم أن يكونوا جباةً ، وإنَّ صدر هذه الأمَّة خلقوا رعاة ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكنَّ أئمَّتكم أن يصيروا جباةً ، ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء ، والأمانة ، والوفاء . ألا وإنَّ أعدل السِّيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثمَّ تثنُّوا بالذمَّة ، فتعطوهم الّذي لهم ، وتأخذوهم بالّذي عليهم ، ثمَّ العدو الّذي تنتابون ، فاستفتحوا عليهم بالوفاء[٢] .

والملاحظ : أنَّ عثمان رضي الله عنه أكَّد في هذا الكتاب الموجَّه إلى ولاته في الأمصار واجبهم نحو الرَّعية ، وعرَّفهم : أنَّ مهمَّتهم ليست هي جمع المال ، وإنَّما تتمثَّل في رعاية مصالح النَّاس ، ولأجل ذلك بيَّن السِّياسة الّتي يسوسون بها الأمَّة ، وهي أخذ النَّاس بما عليهم من الواجبات ، وإعطاؤهم حقوقهم ، فإذا كانوا كذلك ؛ صلحت الأمَّة ، وإذا انقلبوا جباةً ليس همُّهم إلا جمع المال ، انقطع الحياء ، وفُقدت الأمانة ، والوفاء[٣] ، لقد كان في كتاب عثمان للولاة : التركيز على قيم العدل السِّياسيِّ ، والاجتماعيِّ ، والاقتصاديِّ بإعطاء ذوي الحقوق حقوقهم ، وأخذ ما عليهم ، وإعلاء شأن مبدأ الرِّعاية السِّياسيَّة ، لا الجباية ، وتكثير الأموال[٤] .

ونبَّه على ما سيكون عند تغير الولاة من رعاةٍ إلى جباةٍ ، بأنَّ ذلك سبب في تقلُّص مكارم الأخلاق ، الّتي مثَّل لها بالحياء ، والأمانة ، والوفاء ، وذلك أنَّ بين الرَّاعي والرَّعيَّة خيطاً سامياً من العلاقات المتينة ، ويؤكِّده ، ويثبِّته اتفاق الجميع على هدفٍ واحدٍ ، وهو ابتغاء وجه الله تعالى ، فالوالي يسعى لهذا الهدف بما يقدِّمه لإمامه من طاعة ، وولاءٍ ، وأمانةٍ ، ووفاءٍ ، ويبقى خُلُق الحياء الّذي أشار إليه عثمان يُظلُّ الجميع ، فيمنعهم من ارتكاب ما يُستقبح ، أو التَّعرض لجرح المشاعر ، والإيقاع في الحرج . ثمَّ يوصي عثمان ولاته بالعدل في الرَّعية ، وذلك بأخذ ما عليهم من الحقوق ، وبذل ما لهم من ذلك ، ويشير إلى نقطة مهمَّةٍ ، وهي : أنَّ الوفاء بالعهود من أهمِّ أسباب الفتح ، والنَّصر على الأعداء ، وقد بيَّن التَّاريخ أثر هذا الخلق الرَّفيع في تفوُّق المسلمين الإداريِّ والحربيِّ[٥] .

---

(١) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٩٣) .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٤٤) .

(٣) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٩٣) .

(٤) الدَّولة الإسلاميَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، لحمدي شاهين ، ص(٢٤٦) .

(٥) التَّاريخ الإسلاميُّ (١٢/ ٣٦٩) .

٢ـ كتابه إلى قادة الجنود :

وكان أوَّل كتابٍ كتبه إلى قادة الأجناد في الفروج[١] : أمَّا بعد : فإنَّكم حماة المسلمين ، وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يَغب عنَّا ، بل كان على ملأ منَّا ، ولا يبلغني عن أحدٍ منكم تغييرٌ، ولا تبديلٌ، فيغيِّر الله بكم ، ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فإنِّي أنظر فيما ألزمني الله النَّظر فيه ، والقيام عليه[٢] .

وفي هذا الكتاب لفت نظرٍ إلى أنَّ الأمور لن تتغيَّر بتغيُّر الخليفة ؛ لأنَّ الخلفاء ومن دونهم من الولاة يسيرون على خطٍّ واحدٍ ، وهو القيام بمهمَّة تطبيق الإسلام في واقع الحياة . وقوله : وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملأ منَّا . إشارةٌ إلى أنَّ حكم أولئك الخلفاء يقوم على الشُّورى، وذلك يترتَّب عليه أنَّ جميع القضايا المهمَّة تكون معلومةً بتفاصيلها عند أهل الحلِّ والعقد ، فإذا ذهب الحاكم ، وخلفه حاكمٌ آخر ، سار على المنهج نفسه ، لوضوح الهدف لدى الجميع . وقوله: (ولا تغيِّروا، فيغيِّر الله بكم) وَعْيٌ لسنن الله تعالى في هذا الكون، فمعيَّة الله ـ جلَّ وعلا ـ لأوليائه بالتَّوفيق ، والحماية ، والنَّصر مشروطةٌ بلزومهم شريعته ، واستسلامهم لأمره ، فإذا تغيَّروا في ذلك غيَّر الله ما بهم ، واستبدل بهم غيرهم في الهيمنة والتَّمكين[٣] ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] . وذكَّرهم بأنَّه على علمٍ بواجبه ، يؤدِّيه ، ويقوم عليه ليتلاقى عمل الرَّعية ، وعمل الرَّاعي في الشُّعور بالواجب ، والقيام به ، ويشعر كلُّ فردٍ أنَّه يعمل لأمَّته ، كما يعمل لنفسه[٤] .

٣ـ كتابه إلى عمَّال الخراج :

وكان أوَّل كتابٍ كتبه إلى عمَّال الخراج :

أمَّا بعد ، فإنَّ الله خلق الخلق بالحقِّ ، فلا يقبل إلا الحقَّ ، خذوا الحقَّ ، وأعطوا الحقَّ به ، والأمانةَ الأمانةَ ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أوَّل من يُسلبُها ، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاءَ الوفاءَ ، لا تظلموا اليتيم ، ولا المعاهد ، فإنَّ الله خصمٌ لمن ظلمهم[٥] .

خصَّ في هذا الكتاب وزراء المال الَّذين يجبونه من أفراد الأمَّة ؛ لينفق في مصالحها

---

(١) الفروج : يعني الأقاليم .

(٢) تاريخ الطَّبريِّ (٥/ ٢٤٤) .

(٣) التَّاريخ الإسلاميُّ (١٢/ ٣٧٠) .

(٤) عثمان بن عفَّان رضي الله عنه لصادق عرجون ، ص(١٩٩) .

(٥) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٤٤) .

العامَّة ، فبيَّن لهم : أنَّ الله لا يقبل إلا الحقَّ ، والحقُّ قائمٌ على الأمانة ، والوفاء ، ثمَّ ميَّز صنفين من الرَّعية ، هما ضعيفاها : اليتيم ، والمعاهد ، فحضَّ على التَّجافي عن ظلمهما ؛ لأنَّ الله هو المتولِّي حمايتهما[١] ، ويذكِّرهم بأنَّهم إذا ظلموهم ؛ فإنَّهم معرَّضون لنقمة الله تعالى ؛ لأنَّه خصمٌ لمن ظلم هؤلاء المستضعفين ، وفي هذا لفتةٌ إلى جانبٍ من جوانب عظمة الإسلام حيث يدعو إلى نصر المظلومين ، وإن كانوا من الكفَّار المعاهدين[٢] .

٤ ـ كتابه إلى العامَّة :

أمَّا بعد : فإنَّكم إنَّما بلغتم بالاقتداء ، والاتِّباع ، فلا تلفتنَّكم الدُّنيا عن أمركم ، فإنَّ أمر هذه الأمَّة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثٍ فيكم : تكامل النِّعم ، وبلوغ أولادكم من السَّبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله ﷺ قال : « **الكفر في العجمة ، فإذا استعجم عليهم أمرٌ ، تكلَّفوا ، وابتدعوا** »[٣] .

وفي هذا الخطاب نلاحظ : أنَّ عثمان رضي الله عنه رغَّب عامَّة الأمَّة في الاتِّباع ، وترك التكلُّف ، والابتداع ، وأنَّه حذَّرهم تغيُّر الحال إذا اجتمعت لهم ثلاث خلال : تكامل النِّعم ؛ الَّذي يبطر النُّفوس ، ويدفعها إلى التَّرف ، ويصدُّها عن الاجتهاد ، والعمل ، ويصرفها إلى الفراغ ، والكسل ، حتى تفتر حيويَّتها ، وتخور عزائمها . وبلوغ أولادها من السَّبايا ، وقد لمست الأمَّة في تاريخها أثر هؤلاء في المجتمع الإسلاميِّ من الوجهة السِّياسيَّة ، والاجتماعيَّة ، والدِّينيَّة . وقراءة الأعراب ، والأعاجم القرآن ، وإنَّما يريد عثمان بذلك ما في طبائع الأعراب من جفاءٍ ، وغلظ الأكباد ، فلا تبلغ هداية القرآن مكان الخير من أفئدتهم ؛ وكذلك يريد ما في الأعاجم من أخلاقٍ موروثةٍ ، وعقائد متأصِّلةٍ ، وعاداتٍ قديمةٍ تباعد بينهم وبين سنن القرآن في الهداية ، وقد ظهر أثر الأعراب في فرقة الخوارج الَّذين كانت كثرتهم من أولئك الجفاة ، فهم كانوا أقرأ النَّاس للقرآن ، وأبعدهم عن هدايته ، ثمَّ ظهر فيمن عداهم أثر الأعاجم فيما ابتدعوه من مذاهب ، وتكلفوه من آراء كانت شرّاً على المسلمين في عقائدهم ، ومنهم أكثر الفرق الضَّالة الَّتي لعبت في تاريخ الإسلام أخطر دورٍ[٤] .

ثانياً : المرجعيَّة العليا للدَّولة :

أعلن ذو النُّورين : أنَّ مرجعيته العليا لدولته كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، والاقتداء

---

(١) عثمان بن عفَّان رضي الله عنه لصادق عرجون ، ص(١٩٨) .

(٢) التَّاريخ الإسلامي (٢٠/ ٣٧١) .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٤٥) .

(٤) عثمان بن عفَّان رضي الله عنه لصادق عرجون ، ص(١٩٩) .

بالشَّيخين في هديهم ، فقد قال : . . . ألا وإنِّي متَّبعٌ ، ولست بمبتدعٍ ، ألا وإنَّ لكم عليَّ بعد كتاب الله ، وسنَّة نبيِّه ﷺ ثلاثاً : اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه ، وسننتم[1] .

١ـ فالمصدر الأول هو كتاب الله . قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٥] .

فكتاب الله تعالى يشتمل على جميع الأحكام الشَّرعية الّتي تتعلَّق بشؤون الحياة، كما يتضمَّن مبادىء أساسيَّةً ، وأحكاماً قاطعةً لإصلاح كلِّ شعبةٍ من شعب الحياة ، كما بيَّن القرآن الكريم للمسلمين كلَّ ما يحتاجون إليه من أسسٍ تقوم عليها دولتهم .

٢ـ المصدر الثَّاني : السنَّة المطهَّرة الّتي يستمدُّ منها الدُّستور الإسلاميُّ أصوله ، ومن خلالها يمكن معرفة الصِّيغ التَّنفيذيَّة ، والتطبيقيَّة لأحكام القرآن[2] .

٣ـ الاقتداء بالشَّيخين :

قال رسول الله ﷺ : « **اقتدوا باللَّذين من بعدي : أبي بكرٍ ، وعمر** »[3] .

إنَّ دولة ذي النُّورين خضعت للشَّريعة ، وأصبحت سيادة الشَّريعة الإسلاميَّة فيها فوق كلِّ تشريع وفوق كلِّ قانونٍ ، وأعطت لنا صورةً مضيئةً مشرِّفةً على أنَّ الدَّولة الإسلاميَّة دولة شريعةٍ ، خاضعةً بكلِّ أجهزتها لأحكام هذه الشَّريعة ، والحاكم فيها مقيَّد بأحكامها ، لا يتقدَّم ، ولا يتأخَّر عنها[4] ، ففي دولة ذي النُّورين ، وفي مجتمع الصَّحابة ، الشَّريعة فوق الجميع ، يخضع لها الحاكم ، والمحكوم ، وطاعة الخليفة مقيَّدةٌ بطاعته لله ، قال رسول الله ﷺ : « **لا طاعة في المعصية ، إنَّما الطَّاعة في المعروف** »[5] ، وهيمنة الشَّريعة على الدَّولة من خصائص الخلافة الرَّاشدة ، فحكومة الخلافة الرَّاشدة تتميَّز عن الحكومات الأخرى بعدَّة خصائص ، منها :

* أنَّ اختصاصات الحكومة (الخليفة) عامَّة ؛ أي : تقوم على التَّكامل بين الشُّؤون الدُّنيويَّة ، والدِّينيَّة .

* أنَّ حكومة الخلافة ملزمةٌ بتنفيذ أحكام الشَّريعة .

* أنَّ الخلافة تقوم على وحدة العالم الإسلاميِّ[6] .

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٤٣) .

(٢) فقه التَّمكين في القرآن الكريم للصَّلاَّبي ، ص(٤٣٢) .

(٣) صحيح سنن التِّرمذيِّ (٣/ ٢٠٠) .

(٤) نظام الحكم في الإسلام ، ص(٢٢٧) .

(٥) البخاريُّ ، رقم (٧١٤٥) .

(٦) فقه الخلافة ، للسَّنهوري ، ص(٨٠) .

ثالثاً : حقُّ الأمَّة في محاكمة الخليفة :

الأمر الّذي لا شك فيه : أنَّ سلطة الخليفة ليست مطلقةً ، وإنَّما هي مقيدةٌ بقيدين :

١ ـ ألا يخالف نصّاً صريحاً ورد في القرآن الكريم والسُّنَّة ، وأن يكون الإجراء الّذي يتَّخذه متَّفقاً ـ فضلاً عن ذلك ـ مع روح الشَّريعة ، ومقاصدها .

٢ ـ ألا يخالف ما اتَّفقت عليه الأمَّة الإسلاميَّة ، أو يخرج على إرادتها .

وأساس ذلك : أنَّ الخليفة نائبٌ عن الأمَّة ، منها يستمدُّ سلطانه ، ويرجع إليها في تحديد هذا السُّلطان ، ومداه ، فالأمَّة تستطيع في كلِّ وقت أن توسع من هذا السُّلطان ، وأن تضيِّق منه ، أو تقيِّده بقيودٍ كلَّما رأت في ذلك مصلحةً ، أو ضماناً لحسن القيام على أمر الله ، ومصلحة الأمَّة[١] ، ويكون ذلك من خلال مجلس شورى الأمَّة ، وقد أكَّد عثمان رضي الله عنه حقَّ الأمَّة في محاسبة الخليفة في قوله : إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في القيد ؛ فضعوا رجلي في القيد[٢] . وحينما أخذت طائفةٌ عليه بعض أخطاء ـ في زعمها ـ في تصريفه لشؤون الحكم ، وإسناد وظائفه ، وتظاهرت عليه جموعٌ منهم لمحاسبته على أعماله ، فأذعن رضوان الله عليه لرغبتهم ، ولم ينكر عليهم هذا الحقَّ ، وأبدى استعداداً كريماً لإصلاح ما عسى أن يكون أخطأه التَّوفيق في إبرامه[٣] .

رابعاً : الشُّورى :

إنَّ من قواعد الدَّولة الإسلاميَّة حتميَّة تشاور قادة الدَّولة وحكَّامها مع المسلمين والنُّزول على رضاهم ، ورأيهم ، وإمضاء نظام الحكم بالشُّورى ، قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨]. وقد اتَّخذ عثمان رضي الله عنه في دولته مجلساً للشُّورى يتألَّف من كبار أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار[٤] ، وقد طلب عثمان رضي الله عنه من العمَّال ، والقادة قائلاً : أمَّا بعد : فقوموا على ما فارقتم عليه عمر ، ولا تبدِّلوا ، ومهما أشكل عليكم ؛

---

(١) الدَّولة والسِّيادة ، د . فتحي عبد الكريم ، ص(٢٦٨) .

(٢) مسند الإمام أحمد ، الموسوعة الحديثيّة ، رقم (٥٢٤) .

(٣) الدَّولة والسِّيادة ، ص(٣٧٩) .

(٤) الإدارة العسكرية في الدَّولة الإسلاميَّة (١/ ٢٧٧) .

فردُّوه إلينا نجمع عليه الأمَّة ، ثم نردُّه عليكم[١] ، فأخذ قادته بذلك ، فكانوا إذا همُّوا بالغزو ، والتقدُّم في الفتوحات الإسلاميَّة؛ استأذنوه، واستشاروه، فيقوم هو بدوره بجمع الصَّحابة، واستشارتهم للإعداد، والإقرار، والتَّنفيذ، ووضع الخطط المناسبة لذلك، ومن ثمَّ يأذن لهم[٢]، فقد قام عبد الله بن أبي سرح ، بالكتابة إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه طالباً منه أن يأذن له بأن يغزو أطراف إفريقيَّة، وذلك لقرب جزر الرُّوم من المسلمين ، فأجابه الخليفة عثمان إلى ذلك بعد المشورة، وندب إليه النَّاس[٣]، كما أنَّ معاوية بن أبي سفيان حين أراد فتح جزيرة قبرص، ورودس ؛ فعل الشَّيء نفسه في استشارة القيادة العليا المركزيَّة، وطلب الإذن بالسَّماح له، ولم يأته الجواب إلا بعد انعقاد مجلس الشُّورى، وبحثه في الموضوع، ومن ثمَّ السَّماح له[٤].

وكان قادة الخليفة عثمان رضي الله عنه في إدارتهم للمعارك الحربية يتشاورون فيما بينهم[٥].

كما شاور عثمان كبار الصَّحابة في جمع القرآن ، وفي قتل عبيد الله بن عمر للهرمزان ، وحول التَّدابير الكفيلة بقطع دابر الفتنة ، وفي مقام القضاء ، وغير ذلك من المواقف ، والأحداث الَّتي سيأتي بيانها في محلِّها بإذن الله .

خامساً : العدل والمساواة :

إنَّ من أهداف الحكم الإسلاميِّ الحرص على إقامة قواعد النِّظام الإسلاميِّ الَّتي تساهم في إقامة المجتمع المسلم ، ومن أهمِّ هذه القواعد : العدلُ ، والمساواة ، فقد كتب ذو النُّورين إلى النَّاس في الأمصار ، أن ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، ولا يُذِلَّ المؤمن نفسه ، فإنِّي مع الضعيف على القويِّ ما دام مظلوماً إن شاء الله[٦] . فقد كانت سياسته تقوم على العدل بأسمى صوره ، فقد أقام الحدَّ على والي الكوفة الوليد بن عقبة (أخوه لأمِّه) ، عندما شهد عليه الشُّهود بأنَّه شرب الخمر ، وعزله عن الولاية بسبب ذلك ، وسيأتي تفصيل هذه القصَّة بإذن الله ، وقبوله بتولية أبي موسى الأشعريِّ مكانه ؛ لأنَّ أهل الكوفة لم يوافقوا على تولية سعيد بن العاص خلفاً للوليد ، وقد روي عنه أيضاً : أنَّه غضب على خادم له يوماً ، فعرك أذنه ، حتَّى أوجعه ، ولم يستطع أن ينام ليلته آنذاك إلا بعد أن دعا خادمه إلى مضجعه ، وأمره أن يقتصَّ منه ، فيعرك أذنه ،

---

(١) الإدارة العسكرية في الدَّولة الإسلاميَّة (١/ ٢٧٧) نقلاً عن تاريخ الطَّبري .
(٢) فتوح مصر ، ص(٨٣) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٨٣) .
(٤) الإدارة العسكرية (١/ ٢٧٨) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .
(٦) تاريخ الطَّبري (٤/ ٤١٤) .

وقد أبى الخادم في بادئ الأمر ، ولكن عثمان أمره ثانيةً في حزمٍ ، فأطاعه[١] .

سادساً : الحرِّيَّات :

مبدأ الحرية من المبادئ الأساسيَّة الّتي قام عليها الحكم في عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ويقضي هذا المبدأ بتأمين وكفالة الحرِّيّة العامَّة للنَّاس كافَّةً ضمن حدود الشَّريعة الإسلاميَّة ، وبما لا يتناقض معها ، فقد كانت دعوة الإسلام لحريّة النَّاس ، جميع النَّاس دعوةً واسعةً ، وعريضةً قلَّما تشتمل على مثلها دعوةٌ في التَّاريخ ، وفي عهد الخلفاء الرَّاشدين كانت الحريات العامَّة المعروفة في أيَّامنا معلومةً ، ومصونةً[٢] ، كحرية العقيدة الدِّينيَّة ، وحريّة التنقُّل ، وحقِّ الأمن ، وحرمة المسكن ، وحرِّيّة الملكيَّة ، وحرية الرَّأي .

سابعاً : الاحتساب :

اهتمَّ أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالاحتساب بنفسه كما أسنده إلى غيره ، فقد ثبت قيامه رضي الله عنه بالاحتساب في مجالاتٍ عدَّةٍ منها :

١ـ إنكاره على لبس الثَّوب المعصفر :

ومن احتسابه رضي الله عنه : أنَّه أنكر على محمَّد بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لبسه الثَّوب المعصفر ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : راح عثمان رضي الله عنه إلى مكَّة حاجّاً ، ودخلتْ على محمَّد بن جعفر بن أبي طالب امرأته ، فبات معها حتَّى أصبح غدا عليه ردع[٣] ، الطِّيب ، وملحفةٌ معصفرةٌ مفدَّمةٌ[٤] ، فأدرك النَّاس بمللٍ[٥] ، قبل أن يروحوا؛ فلمَّا رآه عثمان رضي الله عنه انتهر ، وأفَّف ، وقال : أتلبس المعصفر ، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ[٦] ؟!.

٢ـ إنكاره على قاصدات العمرة والحجِّ وهنَّ في العدَّة :

ومن احتسابه رضي الله عنه أنَّه كان يرد النِّساء اللَّواتي كنَّ يخرجن للعمرة ، أو الحجِّ ، وهنَّ في العدَّة ، فقد روى الإمام عبد الرزاق عن مجاهدٍ ، قال : كان عمر ، وعثمان رضي الله عنهما يُرجعان حواجَّ ومعتمراتٍ من الجحفة ، وذي الحليفة[٧] .

---

(١) نظام الحكم في عهد الخلفاء الرَّاشدين ، حمد محمَّد الصَّمد ، ص(١٤٩) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٥٧ ، ١٥٨) .

(٣) ردع : لطخ وأثر .

(٤) مفدَّمةٌ : مشبعةٌ حمرةً .

(٥) ملل : موضع بين مكَّة والمدينة .

(٦) المسند ، رقم (٥١٧) . قال أحمد شاكر : إسناده صحيح . انظر : تعليقات الشيخ على المسند (١/ ٣٨٤) .

(٧) المصنف ، رقم (١٢٠٧١) .

٣ـ أمره بذبح الحمام :

ومن احتسابه : أنَّه منع الناس من الانشغال في طيران الحمام[١] ، لمَّا بدؤوا فيه مع سعة العيش ، وأمرهم بذبحه ، فقد روى الإمام البخاريُّ عن الحسن ، قال : سمعت عثمان رضي الله عنه يأمر في خطبته بقتل الكلاب ، وذبح الحمام[٢] .

٤ـ احتسابه على اللَّعب بالنَّرد :

كان عثمان رضي الله عنه ينهى عن اللَّعب بالنَّرد ، وأمرهم بتحريقه ، أو كسره ممَّن كان في بيته ، فقد روى الإمام البيهقيُّ عن زبيد بن الصَّلت ، أنَّه سمع عثمان بن عفَّان رضي الله عنه وهو على المنبر يقول : يا أيُّها الناس إيَّاكم والميسر ـ يريد النَّرد ـ فإنَّها قد ذكرت لي : أنَّها في بيوت ناسٍ منكم، فمن كان في بيته؛ فليحرقها ، أو فليكسرها . وقال عثمان رضي الله عنه مرَّةً أخرى وهو على المنبر : يا أيها الناس ! إنِّي قد كلَّمتكم في هذا النَّرد ، ولم أركم أخرجتموها ، فلقد هممت أن آمر بحزمِ الحطب، ثمَّ أرسل إلى بيوت الَّذين هم في بيوتهم، فأحرقها عليهم[٣] .

٥ـ إخراجه من يراه على شرٍّ ، أو يشهر سلاحاً في المدينة :

ومن احتسابه أيضاً : أنَّه كان ينكر على من يراه على شرٍّ ، أو كان يحمل معه سلاحاً ، ويخرجه من المدينة ، فعن سالم بن عبد الله رضي الله عنه قال : وجعل عثمان لا يأخذ أحداً منهم على شرٍّ ، أو شهر سلاحٍ عصا فما فوقها إلا سيَّره[٤] .

٦ـ ضربه لمن استخف بعمِّ النَّبيِّ ﷺ :

ففي أيام خلافته ضرب رجلاً في منازعةٍ استخفَّ فيها بالعبَّاس بن عبد المطلب عمِّ الرَّسول ﷺ ، فقيل له عن مبرِّرات ضربه . فقال : نعم ! أيفخِّم رسول الله ﷺ عمَّه ، وأرخِّص في الاستخفاف به ، لقد خالف رسول الله ﷺ مَنْ فعل ذلك ومَنْ رضي به منه[٥] .

٧ـ نهيه عن الخمر ؛ لأنَّها أم الخبائث :

روى النَّسائيُّ في سننه ، والبيهقيُّ في سننه عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه أنَّه قال :

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤١٥) .

(٢) الأدب المفرد ، باب ذبح الحمام ، رقم (١٣٠٧) .

(٣) السُّنن الكبرى ، كتاب الشَّهادات (١٠/ ٢١٥) .

(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤١٦) معظم هذه الفقرة أخذتها من كتاب الحسبة في العصر النَّبوي ، والعهد الرَّاشدي للدكتور فضل إلهي .

(٥) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤١٧) .

اجتنبوا الخمر ؛ فإنَّها أمُّ الخبائث ، إنَّه كان رجلٌ ممَّن خلا قبلكم يتعبَّد ، فَعَلِقَتْه امرأة أغوته ، فأرسلت إليه جاريتها ، فقالت له : إنَّها تدعوك للشَّهادة ، فانطلق مع جاريتها ، فطفق كلَّما دخل باباً أغلقَته دونه ، حتَّى أفضى إلى امرأةٍ وضيئةٍ ، عندها غلامٌ ، وباطية خمرٍ ، فقالت : والله ما دعوتك للشَّهادة ، ولكن دعوتك لتقع عليَّ ، أو تشرب من هذه الخمرة كأساً ، أو تقتل هذا الغلام ، قال : فاسقني من هذا الخمر كأساً ، فسقته كأساً ، فقال : زيدوني ، فلم يَرِمْ حتَّى وقع عليها ، وقتل الغلام ! فاجتنبوا الخمر ، فإنَّها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ويوشك أن يخرج أحدُهما من صاحبه[١] !

٨ ـ مِنْ خطب عثمان في المجتمع وَمِنْ حِكَمِهِ :

أ ـ خطبة في الاستعداد ليوم المعاد :

يقول الحسن البصريُّ ـ رحمه الله ـ : خطب عثمان بن عفَّان ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال : أيها الناس ! اتَّقوا الله ، فإنَّ تقوى الله غُنم ، وإنَّ أكيس النَّاس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، واكتسب من نور الله نوراً لظلمة القبر ، وليخش عبدٌ أن يحشره الله أعمى ، وقد كان بصيراً ، وقد يكفي الحكيم جوامعُ الكلام ، والأصمُّ ينادَى من مكانٍ بعيدٍ ، واعلموا : أنَّ من كان الله معه لم يخف شيئاً ، ومن كان الله عليه ؛ فمن يرجو بعده[٢] ؟ !

وعن عثمان رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ قال : إنَّ الجمَّاء لتُقصُّ من القرناء يوم القيامة[٣] .

ب ـ التَّذكير بمكارم الأخلاق :

قال عثمان رضي الله عنه : إنَّا والله صحبنا رسول الله ﷺ في السَّفر ، والحضر ، فكان يعود مرضانا ، ويشيِّع جنائزنا ، ويغزو معنا ، ويواسينا بالقليل ، والكثير ، وإنَّ ناساً يعلمونني به ، عسى ألا يكون أحدُهم رآه قطُّ[٤] .

ج ـ من حكمه الَّتي سارت بين النَّاس :

* قال رضي الله عنه : لو طهرت قلوبنا ، ماشبعتم من كلام ربِّكم[٥] .

---

(١) سنن النَّسائي ، كتاب الأشربة ، موسوعة فقه عثمان ، ص(٥٢) .
(٢) صحيح التَّوثيق في سيرة وحياة ذي النُّورين ، ص(١٠٧) .
(٣) الموسوعة الحديثية في مسند أحمد ، رقم (٥٢٠) .
(٤) صحيح التَّوثيق في سيرة وحياة ذي النُّورين ، ص(١٠٧) .
(٥) جامع العلوم والحكم ، ص(٣٦٣) .

* وقال رضي الله عنه : ماأسرَّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه[١] .

* إنَّ الله ليزعُ بالسُّلطان ما لا يزع بالقرآن[٢] .

* وكان رضي الله عنه لا يقيم للدُّنيا وزناً ، فقال فيها : (هَمُّ الدُّنيا ظلمةٌ في القلب ، وَهَمُّ الآخرة نورٌ في القلب)[٣] .

* ومن حكمه البالغة : يكفيك من الحاسد أنَّه يغتمُّ وقت سرورك[٤] .

* وقال رضي الله عنه في أيام الفتنة : أستغفر الله إن كنت ظلمتُ ، وقد عفوتُ إن كنت ظُلِمتُ[٥] .

* ومن حكمه ، ومواعظه رضي الله عنه : إنَّ لكلِّ شيء آفةً ، ولكلِّ نعمةٍ عاهةً ، وإنَّ آفة هذا الدِّين ، وعاهة هذه النِّعمة عيَّابون صغَّانون ، يُرُونكم ما تحبُّون ، ويُسِرُّون ما تكرهون ، طَغَامٌ مثل النَّعام[٦] .

* ولمَّا قدم عبد الله بن الزُّبير بفتح إفريقية ، أمره عثمان بن عفَّان رضي الله عنه فقام خطيباً ، فلمَّا فرغ من كلامه ، قال عثمان : انكحوا النِّساء على آبائهنَّ ، وإخوتهنَّ ، فإنِّي لم أرَ في ولد أبي بكر الصِّدِّيق أشبه به من هذا[٧] ، وعبد الله بن الزُّبير أمه أسماء بنت أبي بكر ، ويريد أنَّ ابن الزبير كان شبيهاً بجدِّه في الشَّجاعة ، والإقدام ، والفصاحة[٨] .

* وقال رضي الله عنه : ما من عاملٍ يعمل عملاً إلا كساه الله رداء عمله[٩] .

* وقال رضي الله عنه : إنَّ المؤمن في خمسة أنواع من الخوف : أحدها من قبل الله تعالى أن يأخذ منه الإيمان ، والثَّاني من قبل الحفظة أن يكتبوا عليه ما يفتضح به يوم القيامة ، والثَّالث من قبل الشَّيطان أن يبطل عمله ، والرَّابع من قبل ملك الموت أن يأخذه في غفلةٍ بغتةً، والخامس

---

(١) فرائد الكلام للخلفاء الكرام ، ص(٢٦٩) .
(٢) الكامل في اللُّغة والأدب (١/ ١٥٧) .
(٣) الاستعداد ليوم المعاد ، ص(٩) .
(٤) مجمع الأمثال ، للميداني (٢/ ٤٥٣) .
(٥) تاريخ خليفة بن خيَّاط ، ص(١٧١) .
(٦) مجمع الأمثال ، للميداني (٢٠/ ٤٥٣) .
(٧) البيان والتبيين (٢/ ٩٥) .
(٨) فرائد الكلام ، ص(٢٧١) .
(٩) الزُّهد ، للإمام أحمد ، ص(١٨٥) .

من قبل الدُّنيا أن يغترَّ بها، وتُشغله عن الآخرة[١].

* وقال رضي الله عنه: وجدت حلاوة العبادة في أربعة أشياء: أوّلها في أداء فرائض الله، والثّاني في اجتناب محارم الله، والثّالث في الأمر بالمعروف ابتغاء ثواب الله، والرّابع في النّهي عن المنكر اتِّقاء غضب الله[٢].

٩ ـ عثمان رضي الله عنه والشّعر والشُّعراء:

لم تذكر لنا المصادر والمراجع سوى النَّزر القليل عن علاقة عثمان رضي الله عنه مع الشّعر، والشُّعراء، مع أنَّ فترة خلافته كانت طويلة نسبياً، ومن هذا القليل تبيّن لنا أنَّه كان ملتزماً المنهج العامَّ للعقيدة الإسلاميّة الّتي وضّح معالمها الرّسول ﷺ والّتي سلك طريقها سلفه أبو بكر الصِّدّيق، وعمر بن الخطّاب رضي الله عنهما، ولا شكَّ: أنَّ لكلٍّ منهم شخصيته الأدبيّة المميّزة، فقد اشتهر أبو بكر بمعرفة الأنساب، وبعلمه الوافر، وحسن مجالسته، وبروايته للشِّعر، واشتهر عمر بالحثِّ على تعلُّم الشِّعر، وأنَّه لم تكن تعرض له قضيَّةٌ إلا تمثَّل ببيت شعرٍ، أضف إلى ذلك: أنّه كان شاعراً، أمَّا عثمان بن عفَّان ـ رضوان الله عليه ـ فلم يؤثر عنه ذلك الانغماس الكبير في الشِّعر، أو تلك العلاقة الحميمة مع الشُّعراء، وإذا كنَّا نعرف: أنَّ الشعراء كانوا يتهافتون على أبواب الأمراء طمعاً برضاهم، وبأعطيتهم، فإننا نرى: أنَّ الشعراء أيّام عثمان، يتركون الحواضر، ودار الخلافة ويؤثرون العودة إلى البادية[٣]، وقد ذكرت كتب الأدب، والتّاريخ بعض الأبيات نسبتها إلى عثمان، أو كان يتمثّل بها، ومن هذه الأبيات ما يروى أنّه قال:

وَاعْلَمْ بأَنَّ الله لَيْسَ كَصُنْعِهِ صُنْعٌ وَلا يَخْفَىٰ عَلَيهِ مُلْحِدُ

وكان كثيراً ما ينشد أبياتاً قالها، ويطيل ذكرها، لا تعرف لغيره:

تَفْنَى اللَّذَائِذُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا مِنَ الحَرَامِ وَيبْقَى الإِثْمُ وَالْعَارُ
يَلْقَى عَوَاقِبَ سُوْءٍ مِنْ مَغَبَّتِهَا لا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا نَارُ[٤]

قال يوم دخل عليه الثّائرون في بيته ليقتلوه:

أَرَى الْمَوتَ لاَ يُبْقِي عَزِيْزاً وَلَمْ يَدَعْ لِعَاد مَلاَذاً فِي البِلاَدِ وَمَرْتَعا[٥]

---

(١) فرائد الكلام للخلفاء الكرام، ص(٢٧٨).
(٢) المصدر السَّابق نفسه، ص(٢٧٨).
(٣) أدب صدر الإسلام، واضح الصَّمد، ص(٩٩).
(٤) شعراء الخلفاء، نبال تيسير الخمَّاش، ص(٢٧).
(٥) البداية والنهاية (٧/ ١٩٢).

وقال لما حوصر في داره :

يُبَيَّـتُ أَهْـلُ الحِصْـنِ وَالحِصْـنُ مُغْلَـقٌ وَيَـأتِـي الجِبَـالَ الْمَـوْتُ شِمْـرَاخَـهـا العُـلاَ[١]

ويروى له أيضاً :

غِنَـى النَّفْـسِ يُغْنِـي النَّفْـسَ حَتَّـى يَكُفَّهـا وإنْ عَضَّهَـا حَتَّـى يَضُـرَّ بِهَـا الْفَقْـرُ

وَمَـا عُسْـرَةٌ فَـاصْبِـرْ لَهَـا إنْ لَقِيْتَهَـا بِكَـائِنَـةٍ إلا سَيَتْبَعُهَـا يُسْـرُ

ونلاحظ في البيت الأخير ، أنَّه يتضمَّن معنىً قرآنيّاً : ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح : ٦] وهذا ليس غريباً على الخليفة المسلم ، الّذي نشأ ، وترعرع في أحضان محمَّد ﷺ فهو يعاقب على شعر الهجاء الّذي يتعارض ، وأحكام الشريعة الإسلاميَّة ، ويثني على الشِّعر الحسن ، ويحبُّ الاستماع إليه ، وكلُّ ذلك ضمن المفاهيم الإسلاميَّة[٢] .

وإذا كان الخليفة الرَّاشد الثَّالث لم يهتمَّ بالشِّعر ، ولم يقرِّب إليه الشُّعراء ، فإنَّ مقتله من قبل الغوغاء فتح الباب على مصراعيه لازدهار الشِّعر السِّياسيِّ الّذي أصبح الأداة الصَّحافيَّة الفاعلة في العصور الإسلاميَّة المتلاحقة ، فعند مقتله بكاه كثيرٌ من شعراء الصَّحابة[٣] وسيأتي بيان ذلك بإذن الله .

* * *

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) أدب صدر الإسلام ، واضح الصَّمد ، ص(١٠٢) .

(٣) الأدب الإسلاميُّ ، د . نايف معروف ، ص(١٩٠) .

المبحث الثَّالث
أهمُّ صفاته

إنَّ شخصيَّة ذي النُّورين تعتبر شخصيَّة قياديَّةً ، وقد اتَّصف رضي الله عنه بصفات القائد الرَّبَّاني ، ونجملها في أمورٍ ، ونركِّز على بعضها بالتفصيل ، فمن أهم هذه الصِّفات : إيمانه العظيم بالله واليوم الآخر ، والعلم الشَّرعيُّ ، والثِّقةُ بالله ، والقدوة ، والصِّدق ، والكفاءة ، والشَّجاعة ، والمروءة ، والزُّهد ، وحب التَّضحية ، والتَّواضع ، وقبول النَّصيحة ، والحلم ، والصَّبر ، وعلو الهمَّة ، والحزم ، والإرادة القويَّة ، والعدل ، والقدرة على حلِّ المشكلات ، والقدرة على التَّعليم ، وإعداد القادة ، وغير ذلك من الصِّفات ، وبسبب ما أودع الله فيه من صفات القيادة الربَّانيَّة استطاع أن يحافظ على الدَّولة ، ويقمع الثَّورات الَّتي حدثت في الأراضي المفتوحة ، وينتقل بفضل الله ، وتوفيقه بالأمَّة نحو أهدافها المرسومة بخطواتٍ ثابتةٍ ، ومن أهمِّ تلك الصِّفات الَّتي نحاول تسليط الأضواء عليها في هذا المبحث هي :

أولاً : العلم ، والقدرة على التَّوجيه ، والتعليم :

يعتبر عثمان رضي الله عنه من كبار علماء الصَّحابة في القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة ، وسيأتي الحديث عن اجتهاداته الفقهيَّة في المجال القضائيِّ ، والماليِّ ، والجهاديِّ بإذن الله تعالى ، وكان رضي الله عنه حريصاً على اتِّباع هدي النَّبيِّ ﷺ وأبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما ، فعن عروة بن الزُّبير : أنَّ عبيد الله بن عديِّ بن الخيار أخبره : أنَّ المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث قالا له : ما يمنعك أن تكلِّم خالك ، يكلِّم أمير المؤمنين عثمان في الوليد بن عقبة ، وقد أكثر النَّاس فيما فعل ؟ قال : عُبَيد الله : فاعترضت لأمير المؤمنين عثمان حين خرج إلى الصَّلاة ، فقلت له : إنَّ لي إليك حاجةً ، هي نصيحةٌ . قال : قال : يا أيُّها المرء ! إنِّي أعوذ بالله منك ! قال : فانصرفت ، فلمَّا قضيت الصَّلاة جلست إلى المسور ، وابن عبد يغوث ، فحدَّثتهما بالَّذي قلت لأمير المؤمنين ، وقال لي ، فقالا : قد قضَيت الَّذي عليك ، فبينما أنا جالس معهما جاءني رسول أمير المؤمنين عثمان ، فقالا لي : قد ابتلاك الله ، فانطلقت حتَّى دخلت على عثمان ، فقال : ما نصيحتك الَّتي ذكرت لي آنفاً ؟ قال : فتشهَّدت ، ثم قلت له : إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعث محمَّداً بالحقِّ ، وأنزل عليه الكتاب ، فكنت ممَّن استجاب لله ، ولرسوله ﷺ ، ورأيت هديه ، وقد أكثر النَّاسُ في شأن الوليد ، فحقٌّ عليك أن تقيم عليه الحدَّ ، قال : فقال لي : ابن أختي ! أدركتَ رسول الله ﷺ ؟ قال : فقلت : لا ، ولكن

خَلصَ إليَّ من علمه واليقين ما يَخلُص إلى العذراء في سِتْرها . قال : فتشهَّد ، ثمَّ قال : أمَّا بعد : فإنَّ الله بعث محمَّداً بالحقِّ ، فكنتُ ممَّن استجاب لله ، ولرسوله ، وآمن بما بُعث محمَّد ﷺ ثمَّ هاجرت الهجرتين ، كما قلت ، ونلت صهر رسول الله ﷺ وبايعتُ رسول الله ﷺ فوالله ما عصيتُه ، ولا غششته ، حتَّى توفاه الله ! ثمَّ استُخلف بعده أبو بكرٍ ، فبايعناه ، فوالله ما عصيتُه ، ولاغششته ؛ حتَّى توفَّاه الله ! ثمَّ استُخلف عمر ، فوالله ما عصيته ، ولا غششته ؛ حتى توفاه الله ! ثم استخلفني الله ؛ أفليس لي عليكم مثل الّذي كان لهم عليَّ ؟ قال : فقلت : بلى ! قال : فما هذه الأحاديث الّتي تبلغني عنكم ؟ فأمَّا ما ذكرت من شأن الوليد فسنأخذ فيه إن شاء الله بالحقِّ ، قال : فجلد الوليد أربعين سوطاً ، وأمر عليّاً بجلده ، فكان هو يجلده[1] .

لقد لازم ذو النُّورين النَّبيّ ﷺ فاستفاد من علمه ، وهديه ممَّا جعله من كبار علماء الصَّحابة رضي الله عنهم جميعاً ، وكان رضي الله عنه قادراً على توجيه رعيَّته توجيهاً مفيداً ، وتعليمهم واجباتهم ، ونقل آرائه النَّابعة من علمه ، وخبرته ، وتجاربه ، وممارسته إليهم ؛ حتَّى يرتقوا في مجال الدَّعوة ، والتَّربية ، والتَّعليم ، والجهاد ، والاستعداد للقاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ومن توجيهات عثمان رضي الله عنه ما تضمَّنته خطبة خلافته الّتي قال فيها بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلَّى على النَّبيّ ﷺ : إنَّكم في دار قلعةٍ ، وفي بقيَّة أعمارٍ ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتيتم ، صُبِّحتم أو مُسِّيتم ، ألا وإنَّ الدُّنيا طويت على الغرور ، فلا تغرَّنكم الحياة الدُّنيا ، ولا يغرَّنكم بالله الغرور ، واعتبروا بمن مضى ثمَّ جدُّوا ، ولاتغفلوا ، أين أبناء الدُّنيا ، وإخوانها الّذين أثاروها ، وعمروها ، ومُتِّعوا بها طويلاً ، ألم تلفظهم ؟ ! ارموا الدُّنيا بالّذي هو خير[2] ، فقال تعالى : ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف : ٤٥ ـ ٤٦] .

ولقد كان المعنى الّذي يدور حوله توجيه الخليفة الثَّالث رضي الله عنه في هذه الخطبة هو الحضُّ على الإقبال على الله، والزُّهد في الدُّنيا، وهذا هو المناسب لخطبته في ذلك الوقت الّذي ألقى فيه الإسلام بجرانه في أقطار المعمورة ، وفُتحت البلدان ، وأقبلت الدُّنيا بنعيمها ، وبدأ النَّاس في التنافس فيها ، وبخاصةٍ غير أصحاب رسول الله ﷺ ، فكان المقال مناسباً للمقام[3] .

وقد روى عثمان رضي الله عنه أحاديث عن رسول الله ، انتفعت بها الأمَّة ، فهذا أبو عبد الرحمن السُّلميّ يحدِّثنا عن حديثٍ سمعه من عثمان ، فعمل به ، فعن سعد ابن عبيدة عن

(١) فضائل الصَّحابة (١/ ٥٩٧) ، رقم (٧٩١) إسناده صحيح .

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٣) .

(٣) الكفاءة الإدارية في السِّياسة الشَّرعية ، للقادري ، ص(٩٣) .

أبي عبد الرَّحمن السُّلميُّ عن عثمان رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: « **خيركم من تعلَّم القرآن، وعلَّمه** »[١]. قال: وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان حتَّى كان الحجَّاج، قال: وذاك الَّذي أقعدني مقعدي هذا، وفي روايةٍ عن شعبة، قال أبو عبد الرحمن: فذاك الَّذي أقعدني مقعدي هذا، وكان يعلِّم القرآن[٢]، وكان عثمان رضي الله عنه يروي أحاديث رسول الله للمسلمين كلٌّ في محلِّه ومناسبته، ومن هذه الأحاديث:

١ـ أهمِّيَّة الوضوء:

توضأ عثمان على البلاط، ثمَّ قال: لأحدِّثنَّكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، لولا آيةٌ في كتاب الله؛ ماحدَّثتكموه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من توضأ، فأحسن الوُضوء، ثمَّ دخل، فصلَّى؛ غفر له ما بينه وبينَ الصَّلاة الأخرى؛ حتَّى يصلِّيها** »[٣].

٢ـ اتباعه لرسول الله ﷺ في الوضوء:

عن حمران بن أبان عن عثمان بن عفَّان: أنَّه دعا بماءٍ، فتوضَّأ، ومضمض، واستنشق، ثمَّ غسل وجهه ثلاثاً، وذراعيه ثلاثاً ثلاثاً، ومسح برأسه، وظهر قدميه، ثمَّ ضحك، فقال لأصحابه: ألا تسألوني عمَّا أضحكني؟ فقالوا: ممَّ ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ دعا بماء قريباً من هذه البقعة، فتوضَّأ كما توضَّأت، ثم ضحك، فقال: « **ألا تسألوني ما أضحكني؟** » فقالوا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: « **إنَّ العبد إذا دعا بوضوءٍ، فغسل وجهه؛ حطَّ الله عنه كلَّ خطيئةٍ أصابها بوجهه، فإذا غسل ذراعيه؛ كان كذلك، وإن مسح برأسه؛ كان كذلك، وإن طهَّر قدميه؛ كان كذلك** »[٤].

٣ـ كفارات الوضوء:

عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: « **من أتمَّ الوضوء كما أمره الله عزَّ وجلَّ، فالصَّلوات المكتوبات كفاراتٌ لما بينهنَّ** »[٥].

٤ـ الوضوء وصلاة ركعتين ومغفرة الذنوب:

دعا عثمان بماءٍ وهو على المقاعد، فسكب على يمينه، فغسلها، ثمَّ أدخل يمينه في

---

(١) البخاريُّ، رقم (٥٠٢٨).

(٢) الخلافة الرَّاشدة، د. يحيى اليحيى، ص (٤٢٠، ٤٢١).

(٣) الموسوعة الحديثيَّة، مسند أحمد، رقم (٤٠٠) إسناده صحيحٌ.

(٤) الموسوعة الحديثية، مسند أحمد، رقم (٤١٥) صحيحٌ لغيره.

(٥) المصدر السَّابق نفسه، رقم (٤٠٦) إسناده صحيحٌ.

الإناء ، فغسل كفَّيه ثلاثاً ، ثمَّ غسل وجهه ثلاث مرارٍ ، ثمَّ مسح برأسه ، ثمَّ غسل رجليه إلى الكعبين ثلاث مرارٍ ، ثمَّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من توضَّأ نحو وضوئي هذا ، ثمَّ صلَّى ركعتين ، لا يحدِّثُ نفسه فيهما ؛ غفر الله له ما تقدم من ذنبه** »(١) .

٥ـ كلمة الإخلاص ، وكلمة التَّقوى :

قال عثمان رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إنِّي لأعلم كلمةً لا يقولها عبدٌ حقّاً من قلبه إلا حُرِّم على النَّار** » . فقال له عمر بن الخطَّاب : أنا أحدِّثك ما هي ؟ هي كلمة الإخلاص ، الّتي ألزمها الله ـ تبارك وتعالى ـ محمَّداً ﷺ ، وأصحابه ، وهي كلمة التَّقوى ؛ الّتي ألاص(٢) عليها نبيُّ الله ﷺ عمَّه أبا طالبٍ عند الموت : شهادة أن لا إله إلا الله(٣) .

٦ـ العلم بالله يدخل العبد الجنَّة :

عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال : من مات ؛ وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنَّة(٤) .

٧ـ الحسنات ، والباقيات :

عن الحارث مولى عثمان ، قال : جلس عثمان يوماً ، وجلسنا معه ، فجاءه المؤذِّن ، فدعا بماءٍ في إناءٍ ، أظنُّه سيكون فيه مُدٌّ ، فتوضَّأ ، ثمَّ قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضَّأ وضوئي هذا، ثمَّ قال: « **ومن توضأ وضوئي هذا ، ثمَّ قام فصلَّى صلاة الظُّهر ؛ غفر له ما كان بينها وبين الصُّبح ، ثمَّ صلى العصر ؛ غُفِر له ما بينها وبين صلاة الظُّهر ، ثمَّ صَلى المغرب ؛ غُفر له ما بينها وبين صلاة العصر ، ثمَّ صلى العشاء ؛ غفر له ما بينها وبين صلاة المغرب ؛ ثمَّ لعلَّه أن يبيت يتمرَّغ ليلته ، ثمَّ إن قام ، فتوضأ ، وصلَّى الصُّبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهنَّ الحسنات يُذهبن السيِّئات** ». قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات يا عثمان؟ قال: هنَّ: (لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ، ولا قوَّة إلا بالله)(٥) .

٨ ـ خطورة الكذب على رسول الله ﷺ :

عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من تعمَّد عليَّ كذباً ؛ فليتبوأ بيتاً في النَّار** »(٦) .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، رقم (٤١٨) إسناده صحيحٌ .
(٢) ألاصَ : أداره عليها ، وراوده فيها .
(٣) مسند أحمد ، رقم (٤٤٧) إسناده قويٌّ .
(٤) مسند أحمد ، رقم (٤٦٤) إسناده صحيحٌ .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، رقم (٥١٣) إسناده حسنٌ .
(٦) المصدر السَّابق نفسه ، رقم (٥٠٧) إسناده صحيحٌ .

هذه بعض الأحاديث الّتي رواها عثمان عن رسول الله ﷺ ، وتدلُّ على علم عثمان وحرصه على الاستزادة من الهدي النّبويِّ ، وفقه الشَّريعة الغرّاء .

ثانياً : الحلم :

إنَّ الحلم ركنٌ من أركان الحكمة ، وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدَّة مواضع من القرآن الكريم ، كقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٥] . وقد بلغ رضي الله عنه في حلمه ، وعفوه الغاية المثاليّة ، وكان الخليفة الرّاشد عثمان بن عفّان شديد الاقتداء في أقواله ، وأفعاله ، وأحواله برسول الله ﷺ ، وكانت له مواقف كثيرةٌ ، تدلُّ على حلمه ، وضبطه لنفسه ، ومن أوضح المواقف الّتي تدلُّ على حلمه قصّته في حصار الثائرين عليه ، حيث أمر مَنْ عنده مِنَ المهاجرين ، والأنصار أن ينصرفوا إلى منازلهم ، ويَدَعُوه ، وكانوا قادرين على منعه ، وكان حلمه مبنيّاً على شوقه إلى لقاء ربِّه ، وإرادته حقن دماء المسلمين ، ولو بقتله[(١)] .

ثالثاً : السَّماحة :

عن عطاء بن فرُّوخ مولى القرشيِّين : أنَّ عثمان رضي الله عنه اشترى من رجلٍ أرضاً ، فأبطأ عليه ، فلقيه فقال : ما منعك من قبض مالك ؟ قال : إنَّك غبنتني ، فما ألقى من النَّاس أحداً إلا وهو يلومني، فقال: أو ذلك يمنعك؟ قال: نعم، قال: فاختر بين أرضك، ومالك، ثمَّ قال : قال رسول الله ﷺ : « أدخل الله الجنَّة رجلاً كان سهلاً مشترياً ، وبائعاً ، وقاضياً ، ومقتضياً »[(٢)] . فهذا مثلٌ رفيعٌ في السَّماحة في البيع والشِّراء ، وهو يدلُّ على ما جبل عليه عثمان رضي الله عنه من الكرم، وعدم التعلُّق بالدُّنيا، فهو يستعبد الدُّنيا لخدمة مكارم الأخلاق؛ الّتي من أهمها : الإيثار ، ولا تستعبده الدنيا ، فتجعل منه أنانيّاً يؤثر مصالحه الخاصَّة ؛ وإن أضرَّ بالنَّاس[(٣)] .

رابعاً : اللين :

امتنَّ الله تعالى على رسوله ﷺ بأن رزقه صفة اللِّين رحمةً منه به ، وبعباده ، قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

أفادت الآية الكريمة : أنَّ صفة اللِّين رحمةٌ من الله يرزقها من شاء من عباده ، وأنَّ

---

(١) الكفاءة الإدارية ، ص(٦٥) .

(٢) مسند أحمد ، رقم (٤١٠) حسنٌ لغيره .

(٣) التّاريخ الإسلامي (١٧ ، ١٨/ ١٢٦) .

الرَّسول ﷺ قد رُزق هذه الصِّفة رحمةً من الله به ، وبعباده الّذين بعثه إليهم ، ويفهم من الآية : أنَّ المتَّصف باللِّين يحبُّه الناس ، ويلتفُّون حوله ، ويقبلون منه ما يأمرهم به ، أو ينهاهم عنه[(١)] ، فاللِّين من الصِّفات الطَّيبة الّتي اتَّصف بها عثمان ، رضي الله عنه ، فكان رضي الله عنه ليِّناً على رعيته ، عطوفاً على أمَّته ، يخاف أن يصاب أحدٌ دون علمه ، فلا يتمكن من تلبية حاجته ، وكان يتتبَّع أخبار النَّاس ، فينصر الضَّعيف ، ويأخذ الحقَّ من القويِّ رضي الله عنه .

خامساً : العفو :

عن عمران بن عبد الله بن طلحة : أنَّ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه خرج لصلاة الغداة، فدخل من الباب الّذي كان يدخل منه، فزحمه الباب، فقال: انظروا، فنظروا، فإذا رجلٌ معه خنجرٌ ، أو سيفٌ، فقال له عثمان رضي الله عنه: ما هذا؟ قال: أردت أن أقتلك. قال: سبحان الله! ويحك عَلَامَ تقتلني ؟ ! قال : ظلمني عاملك باليمن ، قال : أفلا رفعت ظلامتك إليَّ ، فإن لم أنصفك ـ أو أعديك ـ على عاملي ؛ أردتَ ذلك منِّي ؟ فقال لمن حوله : ما تقولون ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين ! عدوٌّ أمكنك الله منه . فقال : عبدٌ همَّ بذنبٍ ، فكفَّه الله عنِّي ، ائتني بمن يكفل بك ، لا تدخل المدينة ما وليتُ أمر المسلمين ، فأتاه برجلٍ من قومه ، فكفل به ، فخلَّى عنه[(٢)] .

فهذا تسامحٌ كبيرٌ من أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، حيث عفا عمَّن أراد قتله ، والعفو عند المقدرة صفةٌ من صفات الكمال في الرِّجال ، وهو دليلٌ على التجرُّد من حظِّ النَّفس ، وتقلُّص الأنانية ، وضعف الارتباط بالدُّنيا ، وقوَّة الارتباط بالآخرة ، وهذا الخلق إضافةً إلى أنَّه عملٌ صالحٌ يرفع من درجات صاحبه في الآخرة ؛ فإنَّه سياسةٌ حكيمةٌ في الدُّنيا ؛ إذ إنَّ هذا الرَّجل ؛ الّذي أراد الاعتداء لو أنَّه قتل ، أو عوقب عقوبةً بليغةً لربَّما أحدث فتنةً بإيغار صدور أفراد قبيلته ، واستعدادهم للانتقام إذا سنحت لهم الفرصة ، لكنَّ العفو عنه يجعل أفراد قبيلته ، وأبناء بلده يعذلونه ، ويعنِّفونه على ما حاول الإقدام عليه ، وبذلك تنطفئ الفتنة قبل تصاعدها ، ويكسب صاحب العفو قلوب النَّاس ، وولاءهم[(٣)] .

سادساً : التَّواضع :

قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

جعل المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ صفة التَّواضع أوَّل صفات عباده المؤمنين ، ولقد كان الخليفة

---

(١) الكفاءة الإداريّة ، ص(٦٩) .
(٢) التَّاريخ الإسلامي (١٧ ، ١٨/ ٢٢) نقلاً عن تاريخ المدينة المنورة ، ص (١٠٢٧ ، ١٠٢٨) .
(٣) التَّاريخ الإسلامي (١٧ ، ١٨/ ٢٢) .

الرَّاشد عثمان متَّصفاً بهذه الصِّفة ، وكانت هذه الصِّفة تنبع من إخلاصه لله سبحانه وتعالى ، فعن عبد الله الرُّوميّ ، قال : كان عثمان بن عفَّان يأخذ وضوءه لنفسه إذا قام من اللَّيل ، فقيل له : لو أمرت الخادم ؛ كفاك ! قال : لا ، اللَّيل لهم يستريحون فيه[١] . فهذا مثلٌ من اتِّصاف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالرَّحمة ، فهو مع كبر سنه وعلوِّ منزلته الاجتماعيَّة يخدم نفسه في اللَّيل ، ولا يوقظ الخدم ، وإنَّ وجود الخدم من تسخير الله تعالى للمخدومين ، وإنَّ ممَّا ينبغي للمسلم الَّذي سخَّر الله تعالى له من يخدمه أن يتذكَّر : أنَّ الخادم إنسانٌ مثله ، له طاقةٌ محدودةٌ في العمل ، وله مشاعر ، وأحاسيس ، فينبغي له أن يراعي مشاعره ، وأن ييسر له الرَّاحة كاملةً في النَّوم ، وأن لا يشقَّ عليه بعملٍ[٢] ، وكان رضي الله عنه من تواضعه واحترامه لعمِّ النَّبيّ ﷺ إذا مرَّ به وهو راكبٌ ؛ نزل حتَّى يزول العبَّاس احتراماً ، وتقديراً له[٣] .

سابعاً : الحياء ، والعفَّة :

الحياء من أشهر أخلاق عثمان رضي الله عنه ، وما أحلاها تلك الصِّفة النَّبيلة الَّتي زيَّنه الله بها ، فكانت فيه منبع الخير ، والبركة ، ومصدر العطف ، والرَّحمة ، فقد كان رضي الله عنه من أشدِّ النَّاس حياءً[٤] ، فقد ذكر الحسن البصريُّ ـ رحمه الله ـ عثمان بن عفَّان يوماً ، وشدَّة حيائه ، فقال : إنَّه ليكون في البيت ، والباب عليه مغلقٌ ، فما يضع عنه ثوبه ليفيض عليه الماء ، يمنعه الحياء أن يُقيم صلبه[٥] ، ومن حيائه رضي الله عنه : ما روته بُنانة ، وهي جاريةٌ لامرأته ، تقول : كان عثمان إذا اغتسل جئته بثيابه ، فيقول لي : لا تنظري إليَّ ، فإنَّه لا يحلُّ لك[٦] . وقد وردت الأحاديث النَّبويَّة الَّتي تحدثت عن حيائه ، وقد ذكرتها في موضعها ، وأمَّا عن عفَّته ، وبعده عن مساوئ الأخلاق ؛ فحدِّث في ذلك بما شئت ، ولا حرج ، فإنَّه رضي الله عنه لم يعرف طريق الفحشاء في الجاهليَّة ، ولا في الإسلام ، يقول عثمان رضي الله عنه : ما تغنَّيت ، ولا تمنَّيت[٧] ، ولا مسستُ ذكري بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ ، ولا شربت خمراً في جاهليةٍ ، ولا في الإسلام ، ولا زنيت في جاهلية ولا في إسلام[٨] .

---

(١) فضائل الصحابة ، رقم (٧٤٢) إسناده صحيحٌ ، وهو روايةٌ أخرى .

(٢) التَّاريخ الإسلامي (١٧ ، ١٨/ ٦٢) .

(٣) التبيين في أنساب القرشيّين ، ص(١٥٣) .

(٤) عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص(٤٨ ، ٤٩) .

(٥) صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي النُّورين ، ص (٤٣) .

(٦) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٩) خبرٌ لا بأس به .

(٧) تغنَّيت : من الغناء . تمنَّيت : من التَّمني ، والكذب ، واختلاق الباطل .

(٨) صحيح التوثيق ، ص(٤٤) .

ثامناً : كرمه :

كان عثمان رضي الله عنه من أكرم الأمَّة ، وأسخاها ، وله في ذلك مواقف ، ومآثر لا تزال غرَّةً في جبين التَّاريخ الإسلاميِّ ، فقد مرَّ معنا ما قام به في غزوة تبوك ، وشراؤه لبئر رومة ، وتصدُّقه به على المسلمين ، وتوسيعه للمسجد النَّبوي في عهد النَّبيِّ ﷺ ، وتصدُّقه بالقافلة المحمَّلة بالخيرات في عصر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وكان رضي الله عنه يعتق كلَّ جمعة رقبةً في سبيل الله منذ أسلم ، فجميع ما أعتقه ألفان ، وأربعمئة رقبةٍ تقريباً[1] ، وقد رُوي : أنَّه كان له على طلحة ابن عبيد الله ـ وكان من أجود النَّاس ـ خمسون ألفاً ، فقال له طلحة يوماً : قد تهيَّأ مالك ، فاقبضه ، فقال له عثمان : هو لك معونةٌ على مروءتك[2] .

لقد كان سخاء عثمان وجوده صفةً أصيلةً في شخصيَّته الفذَّة ، رضي الله عنه ، فقد وظَّف أمواله في خدمة دين الله ، فلم يبخل في تأسيس الدَّولة الإسلاميَّة ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، وخدمة المجتمع ابتغاء رضوان الله تعالى .

تاسعاً : شجاعته :

يعدُّ عثمان رضي الله عنه من الشُّجعان ، والدَّليل على ذلك :

١ـ خروجه للجهاد في سبيل الله ، وحضوره المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ ، وإذا اتُّهم بتخلُّفه في بدرٍ ؛ فقد سبق أن قلنا : إنَّ ذلك كان بأمرٍ من رسول الله ﷺ ، ثمَّ عدَّه رسول الله ﷺ من الّذين شهدوها ، وأعطاه سهمه منها ، ونال أجره ـ إن شاء الله ـ وليس بعد كلام رسول الله كلامٌ .

٢ـ سفارةُ رسول الله ﷺ إلى قريشٍ في الحديبية :

امتثل عثمان رضي الله عنه ـ كما مرَّ معنا ـ طلب الرَّسول ﷺ ، وذهب إلى قريش ، وهو يعرف ما أقدم عليه ، غير أنَّ رجولته ، وبطولته قد أبتا عليه إلا الامتثال ، والطَّاعة .

إنَّ مَنْ يقبل السَّفارة في مثل تلك الظُّروف لَشجاعٌ عظيمٌ ، وبطلٌ من الأبطال النَّوادر ، صحيحٌ : أنَّها أمرٌ من رسول الله ﷺ ، ولكنَّها في الوقت نفسه شجاعةٌ ، لا يمكن أن يقبل بها جبانٌ ، بل رجلٌ عاديٌّ[3] .

٣ـ الفداء بالنَّفس :

عندما حوصر رضي الله عنه في داره ؛ طلب منه المارقون التَّنازل عن الخلافة لا خيارَ

---

(١) الصواعق المحرقة ، لابن حجر الهيثمي (١/ ٣٢٧) .

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٢٢٧) .

(٣) الأمين ذو النُّورين ، ص(١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦) .

غيره ، أو القتل ، أو عزل ولاته ، وتسليم بعضهم ، فأصرَّ على موقفه ، مضحّياً بنفسه من أن تصبح الخلافة بيد ثلَّةٍ تُزيح مَنْ ترغب ، وتُعيِّن من تحبُّ ، أو تنزع الخلافة من صاحبها الّذي اختارته الأمَّة ، ويصبح ذلك قاعدةً[1] ، فأصرَّ على موقفه ، وهو يرى الموت في سيوف المحاصرين ، وإنَّ الّذي يقف هذا الموقف لَهُوَ الشُّجاع ، وإنَّه لصاحب حقٍّ ، ولن يقف هذا الموقف رجلٌ جبانٌ ، أو محبٌّ للدُّنيا أبداً ، فالحياة عند هؤلاء الجبناء أفضل من المكانة ، ومن الدُّنيا كلِّها[2] ، ولكنَّ هذا الإصرار العجيب ، والعزيمة النَّافذة ، والشَّجاعة الفائقة من عثمان رضي الله عنه ثمرة إيمانٍ قويٍّ بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ واليومِ الآخر وقر في قلبه ، وجعله يستهين بكلِّ شيءٍ في هذه الحياة حتَّى بالحياة نفسها[3] .

٤ـ المال :

إنَّ الجهاد بالنَّفس اقترن مع الجهاد بالمال ، وربما قُدِّم عليه ؛ قال تعالى : ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٩٥] .

وهناك آياتٌ كثيرةٌ تقرن المال بالنَّفس ، وإنَّ الّذي ينفق المال في سبيل الله بسخاءٍ إنَّما هو مجاهدٌ وشجاعٌ ، وقد أنفق عثمان رضي الله عنه الكثير حتَّى قال رسول الله ﷺ : « ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم » مرَّتين[4] .

لقد كان عثمان رضي الله عنه شجاعاً ، لا يهاب الموت ، جريئاً يواجه الباطل في تحدٍّ سافرٍ ، حليماً لا يُجَهِّله حمقُ الحمقى[5] .

عاشراً : الحزم :

إنَّ صفة الحزم في شخصيَّة ذي النُّورين أصيلةٌ ، ونجد الصِّدِّيق رضي الله عنه عندما عرض عليه الإسلام قال له : ويحك يا عثمان ! ! إنَّك رجلٌ حازمٌ ، ما يخفى عليك الحقُّ من الباطل ، ما هذه الأوثان الّتي يعبدها قومنا[6] ؟ ! .

وفي سنة ٢٦ هـ زاد عثمان في المسجد الحرام ، ووسَّعه ، وابتاع من قومٍ وأبى آخرون ،

---

(١) الأمين ذو النُّورين ص(١٩٧) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) جولة تاريخيَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٠٤) .
(٤) سنن التِّرمذيّ رقم (٣٧٨٥) .
(٥) جولة تاريخيَّةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٠٤).
(٦) عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لصادق عرجون ، ص(٤٧) .

فهدم عليهم ، ووضع الأثمان في بيت المال ، فصيَّحوا بعثمان ، فأمر بهم بالحبس ، وقال : أتدرون ما جرَّأكم عليَّ ؟ ما جرأكم عليَّ إلا حلمي ، قد فعل هذا بكم عمر ، فلم تصيِّحوا به ، ثمَّ كلَّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد ، فأخرجوا[1] .

ومن المواقف الّتي تدلُّ على حزمه ؛ حمايته لنظام الخلافة من الضَّياع ، فلم يجب الخارجين إلى خلع نفسه من الخلافة ، فكان بذلك يمثِّل الثَّبات ، واستمرار النِّظام ، لأنَّه لو أجاب الخارجين إلى خلع نفسه ؛ لأصبح منصب الإمامة العظمى ألعوبةً في أيدي المفتونين السَّاعين في الأرض بالفساد ، ولسادت الفوضى ، واختلَّ نظام البلاد، ولكان ذلك تسليطاً للرُّعاع ، والغوغاء على الولاة والحكَّام ، لقد كانت نظرة عثمان رضي الله عنه بعيدة الغور ، فلو أجابهم إلى ما يريدون لسنَّ بذلك سنَّةً ، وهي كلَّما كره قومٌ أميرهم ؛ خلعوه ، ولألقى بأس الأمَّة بينها ، وشغلها بنفسها عن أعدائها وذلك أقرب لضعفها ، وانهيارها ، على أنَّه لم يجد سوى نفسه يفدي بها الأمَّة ، ويحفظ كيانها ، وبنيانها من التصدُّع ، ويدعم بهذا الفداء نظامها الاجتماعيَّ ، ويحمي سلطانها ؛ الّذي تُساس به من أن تمتدَّ إليه يد العبث ، والفوضى .

وممَّا لا شكَّ فيه : أنَّ هذا الصُّنع من عثمان كان أعظم ؛ وأقوى ما يستطيع أن يفعله رجلٌ ألقت إليه الأمَّة مقاليدها ؛ إذ لجأ إلى أهون الشَّرَّين ، وأخف الضَّررين ؛ ليدعم بهذا الفداء نظام الخلافة ، وسلطانها[2] ، وسيأتي بيان ذلك في محلِّه بإذن الله .

الحادية عشرة : الصبر :

اتَّصف عثمان رضي الله عنه بصفة الصَّبر ـ ومن المواقف الدَّالة على هذه الصِّفة ثباته في الفتنة ؛ إذ كان موقفه إزاء تلك الأحداث الّتي ألمَّت به ، وبالمسلمين المثل الأعلى لما يمكن أن يقدِّمه الفرد من تضحية ، وفداءٍ في سبيل حفظ كيان الجماعة ، وصون كرامة الأمَّة ، وحقن دماء المسلمين ، فقد كان بإمكانه أن يقي نفسه ، ويخلِّصها ، لو أنَّه أراد نفسه ، ولم يرد حياة الأمَّة ، ولو كان ذاتيّاً ، ولم يكن من أهل الإيثار ؛ لدفع بمن هَبَّ للذَّود عنه من الصَّحابة ، وأبناء المهاجرين ، والأنصار إلى نحور الخارجين المنحرفين عن طاعته ، ولكنَّه أراد جمع شمل الأمَّة ، ففداها بنفسه صابراً محتسباً ، وقد أعلن عثمان رضي الله عنه أنَّه سيواجه الفتنة العارمة بالصَّبر الجميل[3] ، ممتثلاً قوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٥٠) .

(٢) تحقيق مواقف الصَّحابة من الفتنة (١/ ٤٧٤) .

(٣) سير الشُّهداء ، للسَّحيباني ، ص(٥٧ ، ٥٨) .

إنَّ عثمان رضي الله عنه كان قويَّ الإيمان بالله ، كبير النَّفس ، نفَّاذ البصيرة ، نبيل الصَّبر ، حيث فدى الأمَّة بنفسه ، فكان ذلك من أعظم فضائله عند المسلمين[١] .

قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ : ومن المعلوم بالتواتر : أنَّ عثمان كان من أكفِّ النَّاس عن الدِّماء ، وأصبر النَّاس على مَنْ نال مِنْ عرضه ، وعلى مَنْ سعى في دمه ، فحاصروه ، وسعوا في قتله ، وقد عرف إرادتهم لقتله ، وقد جاءه المسلمون ينصرونه ، ويشيرون عليه بقتالهم ، وهو يأمر النَّاس بالكفِّ عن القتال ، ويأمر مَنْ يطيعه ألا يقاتلهم . . وقيل له : تذهب إلى مكَّة ؟ فقال : لا أكون من ألحد في الحرم ، فقيل له : تذهب إلى الشَّام ؟ فقال : لا أفارق دار هجرتي ، فقيل له : فقاتلهم ، فقال : لا أكون أوَّل من خلف محمداً في أمَّته بالسَّيف ، فكان صبر عثمان حتَّى قُتل من أعظم فضائله عند المسلمين[٢] .

الثَّانية عشرة : العدل :

واتَّصف عثمان رضي الله عنه بصفة العدل ، فعن عبد الله بن عديٍّ بن الخيار : أنه دخل على عثمان رضي الله عنه وهو محصور ، فقال له : إنَّك إمام العامَّة ، وقد نزل بك ما ترى ، وهو ذا يصلِّي بنا إمام فتنةٍ ـ عبد الرَّحمن بن عُدَيْس البلوي ـ وأنا أخرج من الصَّلاة معه . فقال له عثمان : إنَّ الصلاة أحسن ما يعمل النَّاس ، فإذا أحسن النَّاس ؛ فأحسن معهم ، وإذا أساؤوا ؛ فاجتنب إساءتهم[٣] ، وروى ابن شبَّة بإسناده؛ قال : دخل عثمان بن عفَّان على غلامٍ له يعلف ناقةً ؛ فرأى في علفها ما كره ، فأخذ بأذن الغلام فعركها ، ثمَّ ندم؛ فقال لغلامه : اقتصَّ ، فأبى الغلام ، فلم يدعه؛ حتَّى أخذ بأذنه ، فجعل يعركها ، فقال له عثمان : شدَّ حتَّى ظنَّ : أنه قد بلغ منه مثل ما بلغ منه ، ثمَّ قال عثمان رضي الله عنه : واهاً لقصاصٍ قبل قصاص الآخرة[٤] .

الثالثة عشرة : عبادته :

كان عثمان رضي الله عنه من المجتهدين في العبادة ، وقد روي من غير وجهٍ : أنَّه صلَّى بالقرآن العظيم في ركعةٍ واحدةٍ عند الحجر الأسود ، أيَّام الحج ، وقد كان هذا من دأبه[٥] ، ولهذا روينا عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه قال في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا

---

(١) تحقيق مواقف الصَّحابة من الفتنة (١/ ٤٧٢) .

(٢) منهاج السُّنَّة (٣/ ٢٠٢ـ٢٠٣) .

(٣) البخاريُّ ، رقم (٦٩٥) .

(٤) أخبار المدينة (٣/ ٢٣٦) .

(٥) الطبقات الكبرى (٣/ ٧٦) . وتاريخ الإسلام في عهد الخلفاء ، الذَّهبي ، ص (٤٧٦) .

وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر : ٩] قال : هو عثمان بن عفَّان[١] . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النَّحل : ٧٦] قال : هو عثمان[٢] وكان رضي الله عنه يفتتح القرآن ليلة الجمعة ، ويختمه ليلة الخميس[٣] ، وكان رضي الله عنه يصوم الدَّهر ويقوم اللَّيل إلا هجعةً من أوَّله[٤] .

الرَّابعة عشرة : خوفه من الله ، وبكاؤه ، ومحاسبته لنفسه :

فقد جاء في إحدى خطبه : أيُّها الناس ! اتَّقوا الله ، فإنَّ تقوى الله غنمٌ ، وإنَّ أكيس الناس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، واكتسب من نور الله نوراً لقبره ، وليخش أن يحشره الله أعمى ، وقد كان بصيراً[٥] . وقد روي عنه قوله : لو أنِّي بين الجنَّة والنَّار ، لا أدري إلى أيَّتها يؤمر بي ؛ لتمنَّيت أن أصير رماداً قبل أن أعلم إلى أيَّتهما أصير . وكانت روحه ترتجف ، وعبراتُه تفيض عندما يذكر الآخرة ، وعندما يتخيَّل نفسه وقد انشقَّ قبره ، ونسل من جدثه إلى العرض ، والحساب[٦] ، فعن هانئ مولى عثمان ، قال : كان عثمان إذا وقف على قبرٍ ؛ بكى ؛ حتَّى تبتلَّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنَّة ، والنَّار ، وتبكي من هذا ؟ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « **إنَّ القبر أوَّل منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشدُّ منه** » . قال : وقال رسول الله ﷺ : « **والله ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه** » قال : وكان النَّبيُّ ﷺ إذا فرغ من دفن الميت ؛ وقف عليه ؛ ثمَّ قال : « **استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل** »[٧] ، وهذا من فقه القدوم على الله الَّذي استوعبه عثمان رضي الله عنه ، وعاش به في حياته ، وما أحوجنا إلى هذا الفقه العظيم الَّذي به تحيا النُّفوس ، وتتفجَّر الطَّاقات .

الخامسة عشرة : زهده :

اشتهر أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بأنَّه من أهل الغنى ، والثروة ، ولكن مع هذه الشُّهرة ؛ فإنَّه قد رويت عنه أخبارٌ تدلُّ على أنَّه كان من الزَّاهدين في الدُّنيا ، فعن حميد بن نعيم :

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٥٧٩) .
(٣) علوُّ الهمَّة (٣/ ٩٣) .
(٤) صفة الصَّفوة (١/ ٣٠٢) .
(٥) صحيح التوثيق ، ص(١٠٧) .
(٦) نظام الحكم في عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٢٠٥) .
(٧) فضائل الصَّحابة ، رقم (٧٧٣) إسناده حسنٌ .

أنَّ عمر ، وعثمان رضي الله عنهما دُعيا إلى طعامٍ ، فلمَّا خرجا ؛ قال عثمان لعمر : قد شهدنا طعاماً لوددنا أنَّا لم نشهده ، قال : لمَ ؟ قال : إنِّي أخاف أن يكون صنع مباهاةً[١] .

فهذا فقهٌ من عثمان رضي الله عنه بمجالات السَّخاء الإسلاميِّ ، فالسَّخاء في الإسلام لا يكون بالتَّفاخر بالكرم ، والتَّباهي بنوع الطَّعام ، أو كثرته ، وإنَّما يكون ببذل المال من غير إسرافٍ ، ولا خيلاء مع شكر المنعم ـ جلَّ وعلا ـ والتَّواضع للنَّاس ، وهذه النَّظرة من عثمان تعتبر من التَّزهيد بالجاه الدُّنيويِّ ، وهذا يدلُّ على أنَّه كان من الزَّاهدين في ذلك[٢] .

ومن زهد عثمان رضي الله عنه وتواضعه : ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ميمون بن مهران، قال: أخبرني الهمدانيُّ: أنَّه رأى عثمان بن عفَّان على بغلةٍ وخلفه غلامه نائلٌ ؛ وهو خليفة[٣] .

وكذلك ما أخرجه من حديث الهمدانيِّ ، قال : رأيت عثمان نائماً في المسجد في ملحفةٍ ليس حوله أحدٌ؛ وهو أمير المؤمنين[٤]، كما أخرج من حديث شرحبيل ابن مسلم: أنَّ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه كان يطعم النَّاس طعام الإمارة، ويدخل إلى بيته، فيأكل الخلَّ، والزَّيت[٥] .

فهذه أمثلةٌ جليلةٌ من زهد أمير المؤمنين عثمان ، رضي الله عنه ، وحينما يكون الزَّاهد متوسطاً في المعيشة ، فإنَّ زهده لا يلفت النَّظر كثيراً ، ولا يثير العجب ، ولكن حينما يكون غنيّاً ؛ فإنَّ زهده يكون مدهشاً للمتأمِّلين ، وعبرةً للمعتبرين ، ذلك لأنَّ كثرة المال تغري بالانصراف نحو الملذَّات ، والتوسُّع في النَّفقات ، فلا بدَّ ليكون الغني زاهداً من استيعابه لفقه القدوم على الله ؛ حتَّى يكون مهيمناً على نفسه ، مذكِّراً لقلبه ، فتكبر الآخرة في عينه ، وتصغر الدُّنيا في نفسه ، وهكذا كان عثمان رضي الله عنه الَّذي كان من أعظم الأثرياء في الإسلام ، قد غلبت قوَّة إيمانه شهوتَه ، وهواه ، فكان من أعظم الزَّاهدين ، وضرب من نفسه مثلاً لجميع الأغنياء بإمكان الجمع بين الغنى والزُّهد في الدُّنيا[٦] .

السَّادسة عشرة : الشُّكر :

كان عثمان رضي الله عنه كثير الشُّكر لله تعالى باللِّسان ، والجنان ، والأركان ؛ دُعي ذات

---

(١) الزُّهد للإمام أحمد ، ص(١٢٦).

(٢) التَّاريخ الإسلامي (١٧ ، ١٨/ ٤٨).

(٣) الزّهد ، ص(١٢٧).

(٤) المصدر السَّابق نفسه.

(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٢٩).

(٦) التاريخ الإسلامي (١٧ ، ١٨/ ٤٩).

يوم إلى قوم على ريبةٍ ، فانطلق ليأخذهم ، فتفرَّقوا قبل أن يبلغهم ، فأعتق رقبةً ؛ شكراً لله ألا يكون جرى على يديه خزي مسلمٍ[١] .

السَّابعة عشرة : تفقُّد أحوال النَّاس :

كان رضي الله عنه ودوداً رؤوفاً يسأل عن أحوال المسلمين ، ويتعرَّف مشكلاتهم ، ويطمئنُّ على غائبهم ، ويواسي قادمهم ، ويسأل عن مرضاهم ، فقد روى الإمام أحمد عن موسى بن طلحة ، قال : رأيت عثمان بن عفَّان وهو على المنبر ، وهو يستخبر النَّاس ، يسألهم عن أخبارهم ، وأسعارهم[٢] .

وروى ابن سعدٍ في الطَّبقات عنه أيضاً قال : رأيت عثمان بن عفَّان يخرج يوم الجمعة عليه ثوبان أصفران، فيجلس على المنبر، فيؤذِّن المؤذِّن، وهو يتحدَّث يسأل النَّاس عن أسفارهم ، وعن قادمهم ، وعن مرضاهم[٣] ، وكان رضي الله عنه يهتم بشؤون الرَّعيَّة ، ويصل ذوي الحاجة ، ويفرض العطاء للمواليد من بيت المال[٤] ، فقد رُوي عن عروة بن الزُّبير ، قال : أدركت زمن عثمان ، وما من نفسٍ مسلمةٍ إلا ولها في مال الله حقٌّ ـ يعني : بيت المال ـ[٥] .

الثامنة عشرة : تحديد الاختصاصات :

المراد بتحديد الاختصاص : تقسيم وظائف العمل على العاملين ، بحيث يكون كلُّ موظَّفٍ عالماً بالعمل الَّذي كُلِّفه؛ ليقوم به دون تقصيرٍ فيه ، ولا يتجاوزه إلى عملٍ آخر مسندٍ إلى سواه ، وتقسيم الوظائف سنَّةٌ كونيَّةٌ ربَّانيَّةٌ ، عمل بها الرَّسول ﷺ ، والخلفاء الرَّاشدون من بعده ، ففي عهد عثمان رضي الله عنه وُزِّعت الوظائف، والأعمال على المسلمين كلٌّ في ميدانه، كما سيأتي بيانه بإذن الله، ففي مؤسَّسة القضاة، والمال، والجيش، وولاية الأمصار ظهرت الصِّفة القيادية في تحديد الاختصاصات عند الخليفة الرَّاشد عثمان رضي الله عنه. فقد تمَّ تقسيم الأعمال، وحُدِّدت قواعد بين العاملين، كانت من أهمِّ عوامل النَّجاح في دولة الخلفاء الرَّاشدين، وبذلك تعامل الخليفة الرَّاشد عثمان مع السُّنَّتين الكونيَّة ، والشَّرعيَّة في تحديد الاختصاصات[٦] .

التاسعة عشرة : الاستفادة من أهل الكفاءات :

إنَّ الإشادة بالأكفاء ، وإرشاد الأمَّة إلى احترامهم ، وتكريمهم ، ووضعهم في مواضعهم ،

---

(١) علو الهمَّة (٥/ ٤٨١).

(٢) فضائل الصَّحابة ، رقم (٨١٢) إسناده صحيحٌ .

(٣) الطَّبقات (٣/ ٥٩).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٩٦).

(٥) المصنَّف في الحديث لابن أبي شيبة (٣/ ١٠٢٣).

(٦) الكفاءة الإداريَّة ، ص (١١٧) .

وعدم هضمهم حقوقهم ، والاستفادة من طاقاتهم ، واختصاصاتهم ؛ إنَّ ذلك ممَّا جعل أهل القرون المفضَّلة من سلف هذه الأمَّة ينالون العزَّ ، والمجد ، والتَّمكين في هذه المعمورة[(١)] وقد ظهرت هذه الصِّفة في شخصيَّة عثمان رضي الله عنه عندما استفاد من كفاءات زيد بن ثابت واللَّجنة الّتي عُيِّنت معه في جمع القرآن على حرفٍ واحدٍ .

هذه بعض الصِّفات الّتي لاحظتها في شخصية عثمان رضي الله عنه ، وهي محلُّ قدوةٍ ، وأسوةٍ لقادة المسلمين ، وعوامِّهم لمن يريد أن يتَّبع هدي النَّبيّ ﷺ والخلفاء الرَّاشدين في هذه الحياة .

إنَّ معرفة صفات الخلفاء الرَّاشدين ، ومحاولة الاقتداء بهم خطوةٌ صحيحةٌ لمعرفة صفات القادة الرَّبَّانيِّين ، الّذين يستطيعون أن يقودوا الأمَّة نحو أهدافها المرسومة بخطواتٍ ثابتةٍ ، فمن أسباب التَّمكين لهذا الدِّين العمل على إيجاد قادةٍ ربَّانيِّين ، جرى الإيمان في قلوبهم ، وعروقهم ، وانعكست ثماره على جوارحهم ، وتفجَّرت صفات التَّقوى في أعمالهم ، وسكناتهم ، وأحوالهم ، فالقيادة الرَّبَّانيَّة الحكيمة هي الّتي تسعى لتحكيم شرع الله ، وتفجير طاقات الأمَّة وتوجيهها وهي الّتي تحتضن الإسلام ، وتنهجه قلباً وقالباً ، جوهراً ومنظراً ، وعقيدةً وشريعةً ، وديناً ودولةً ، وهي الّتي تصبح ، وتمسي ، وهمُّها عقيدتُها وأمَّتها ، وهي الّتي تسعى بكلِّ ما تملك لحلِّ المشاكل الّتي تواجهها ، وتعمل بكلِّ جهدٍ ، وإخلاصٍ للقضاء على عوائق التَّمكين الدَّاخلية ، والخارجيَّة .

* * *

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٥٧) .

الفصل الثَّالث
المؤسسة المالية والقضائية في عهد عثمان رضي الله عنه

المبحث الأول
المؤسَّسة الماليَّة

لمَّا تولَّى عثمان رضي الله عنه الخلافة لم يغيِّر من سياسة عمر الماليَّة ، وإن كان قد سمح للمسلمين باقتناء الثَّروات ، وتشييد القصور ، وامتلاك المساحات الشَّاسعة من الأراضي، فقد زالت عن المسلمين شدَّة عمر ، والّتي كانت ترهبهم ، وتخيفهم ، والّتي كانت تحول دون الكثير ممَّا يشتهون، وكان عهده عهد رخاءٍ على المسلمين[1] .

أولاً : السِّياسة الماليَّة الّتي أعلنها عثمان عندما تولَّى الحكم :

وجَّه عثمان رضي الله عنه كتاباً إلى الولاة ، وكتاباً آخر إلى عمَّال الخراج ، وأذاع كتاباً على العامَّة ، وقد ذكرت نصوصها عند حديثي عن منهجه في الحكم ، وفي ضوء تلك النُّصوص تكون عناصر السِّياسة الماليَّة العامَّة الّتي أعلنها ثالث الخلفاء الرَّاشدين قد قامت على الأسس العامة التالية :

* تطبيق سياسةٍ ماليَّةٍ عامَّةٍ إسلاميَّةٍ .
* عدم إخلال الجباية بالرِّعاية .
* أخذ ما على المسلمين بالحقِّ لبيت مال المسلمين .
* إعطاء المسلمين ما لهم من بيت مال المسلمين .
* أخذ ما على أهل الذِّمَّة لبيت مال المسلمين بالحقِّ ، وإعطاؤهم ما لهم ، وعدم ظلمهم .
* تخلُّق عمَّال الخراج بالأمانة والوفاء .

(١) مبادىء الاقتصاد الإسلامي ، لسعاد إبراهيم صالح ، ص(٢١٧) .

* تفادي أية انحرافات ماليَّة يسفر عنها تكامل النِّعم لدى العامَّة[١] .

ونفصل فيما يلي هذه الأسس :

١ـ نيَّة عثمان بن عفَّان تطبيق سياسةٍ ماليَّةٍ عامَّةٍ :

ممَّا لا شكَّ فيه : أنَّ الخليفة الثَّالث عثمان بن عفَّان عزم على تطبيق سياسةٍ ماليَّةٍ عامَّةٍ إسلاميَّةٍ ، فقد بويع رضي الله عنه على أساس تطبيق حكم الله ، وسُنَّة رسوله ، وسياسة الخليفتين قبله ، وقد طبَّق أبو بكرٍ رضي الله عنه ما نزل به القرآن ، وما سنَّهُ رسول الله ﷺ فيما يتعلَّق بالسِّياسة الماليَّة ، وغيرها من الأحكام ، وقام عمر بتطوير المؤسَّسة الماليَّة، ونظَّم قواعدها، وأرسى مبادئها، وزاد مواردها، ورشَّد إنفاقها ، ونهج عثمان طريقهم ، واجتهد في بعض الأمور القابلة للاجتهاد ، فنفَّذ حكم الله في الأرض في قضايا الأموال، وغيرها، فأشرف على دفع الزَّكاة لبيت المال، وتوزيعها على مستحقِّيها ، وأهل الكتاب في دفعهم الجزية لبيت مال الدَّولة الإسلاميَّة يدخلون في ذمَّتها ، تحميهم وتوفِّر لهم الأمان ، وتضفي عليهم سائر خدماتها العامَّة ، والمجاهدون يغنمون الأموال ويرسلون خُمسها لبيت مال المسلمين ، ويقوم بيت المال بتوزيعها على اليتامى ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، وغيرها من وجوه الإنفاق طبقاً لقوله تعالى : ﴿ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١]، وغير ذلك من مصادر الدَّولة المعروفة .

وقد تميَّزت الماليَّة العامَّة في عهد ذي النُّورين ، والخلفاء الرَّاشدين بأنَّها مرتبطةٌ بالإسلام ، وتطبيق تعاليمه ، وتحمي إيراداته ، ويساند الإنفاق العام فيها على نشر راية الإسلام ، وخير المسلمين . وهي مرشدةٌ للإنفاق ؛ لأنَّ تعاليم الإسلام تمنع الإسراف ، وتحاربه ، والله لا يحبُّ المسرفين ، وتمنع السُّفهاء من التحكُّم في الأموال . وهي ماليَّةٌ عامَّةٌ خيِّرةٌ ؛ لأنَّ بعض مواردها العامَّة توجَّه للبنية الضَّعيفة من الرَّعية ، وهي نقيَّةٌ من الدَّنس ، ولا تتضمَّن مواردُها كسباً من حرامٍ ؛ لأنَّ الله لا يبارك الكسب الحرام .

٢ـ عدم إخلال الجباية بالرِّعاية :

ينبِّه عثمان بن عفَّان رضي الله عنه في كتابه للولاة : أنَّ جباية أموال بيت المال كادت تطغى على الواجب الأوَّل للولاة ، وهو رعاية الرَّعية ، وذلك : أنَّ الجباية أحد واجبات الرَّعيَّة المكلَّف بها رئيس الدَّولة الإسلاميَّة فلا يصحُّ أن تطغى على سائر الواجبات[٢] ، وقد استنبط

---

(١) السِّياسة الماليَّة لعثمان رضي الله عنه ، قطب إبراهيم ، ص(٦١) .

(٢) السِّياسة الماليَّة لعثمان رضي الله عنه ، ص(٦٢) .

الفقهاء من الهدي النَّبويِّ ، والعهد الرَّاشديِّ تكاليف الرِّعاية ؛ أي : واجبات الخليفة لتحقيق رعاية الأمَّة كما يلي :

قال الماورديُّ : والّذي يلزمه من الأمور العامَّة عشرة أشياء :

أحدها : حفظ الدِّين على أصوله المستقرَّة وما أجمع عليه سلف الأمَّة .

والثاني : تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بين المتنازعين ؛ حتَّى تعمَّ النَّصفة ، فلا يتعدَّى ظالمٌ ، ولا يضعف مظلوم .

والثالث : حماية البيضة ، والذَّبُّ عن الحريم ؛ ليتصرَّف النَّاس في المعاش ، وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفسٍ ، أو حالٍ .

والرَّابع : إقامة الحدود ؛ لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك ، وتُحفظ حقوق عباده عن إتلافٍ ، واستهلاك .

والخامس : تحصين الثُّغور بالعدَّة المانعة ، والقوَّة الدَّافعة ، حتَّى لا تظفر الأعداء بغرَّةٍ ينتهكون فيها محرَّماً ، أو يسفكون فيها لمسلمٍ ، أو معاهد دماً .

والسَّادس : جهاد من عاند الإسلام بعد الدَّعوة إليه ، حتَّى يسلم ، أو يدخل الذِّمَّة ؛ ليقام بحقِّ الله تعالى في إظهاره (الإسلام) على الدِّين كلِّه .

والسَّابع : جباية الفيء ، والصَّدقات على ما أوجبه نصّاً ، واجتهاداً مِنْ غير خوفٍ ، ولا عسف .

والثَّامن : تقدير العطايا وما يستحقُّ من بيت المال من غير سرفٍ ولا تقتيرٍ ، ودفعه في وقتٍ لا تقديم فيه ، ولا تأخير .

والتاسع : استكفاء الأمناء ، وتقليد النُّصحاء فيما يفوِّض إليهم من الأعمال ، ويكله إليهم من الأموال ، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطةً ، والأموال بالأمناء محفوظةً .

والعاشر : أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور ، وتصفُّح الأحوال ، لينهض بسياسة الأمَّة وحراسة الملَّة ، ولا يعوِّل على التفويض تشاغلاً بلذَّةٍ ، أو عبادةٍ[١] .

وبإيجاز فإنَّ واجبات الخليفة تتفرَّع عن شَرْطَيْ عقد البيعة ، وهما : حراسة الدِّين ، وسياسة الدُّنيا[٢] ؛ اللَّذين هما مهمَّة الرَّسول ﷺ ؛ الّذي هو خليفته ، وإن كان الماورديُّ ، والفرَّاء المتعاصران قد تطابقت تحديداتهما لواجبات الإمام ، فإنَّما ذلك اجتهادٌ منهما حسب

---

(١) الأحكام السُّلطانية ، والولايات الدِّينية ، ص(١٦ ، ١٧) .

(٢) مقدِّمة ابن خلدون ، ص(١٩١) .

حاجة الأمَّة في عصرهما ، ولا ينبغي أن تقتصر حقوق الأمَّة على ما عدَّده عالمٌ من علمائها ، أو أكثر مهما بلغ من فضلٍ ، وسعة علمٍ ، ومهما كانت نظرته للموضوع شاملةً ؛ هذا إن كان العالم معاصراً ، فكيف إن كانت آراؤه ، واجتهاده قد سبقنا بقرونٍ[١] ، ولذا فينبغي أن تحدَّد واجبات الإمام بناءً على الشَّرطين العامَّين لصحَّة عقده ، وهما : حراسة الدِّين ، وسياسة الدنيا ، وينبغي أن تقوم لجانٌ من علماء الأمَّة بتحديد ذلك لأهل زمانهم[٢] .

هذه بعض تكاليف الرِّعاية، كما أوردها الفقهاء، وهي قابلةٌ للتَّطوير بما يلائم تطوُّر الأزمان، والعصور، وبحيث لا يخالف التَّطوير نصّاً من نصوص القرآن، أو حكماً من أحكام الدِّين[٣] .

٣ـ أخذ ما على المسلمين بالحقِّ لبيت مال المسلمين :

عمَّال الخراج نوابٌ عن الدَّولة في استئداء حقوق بيت المال ، فإذا أخذوا ما على المسلمين بالحقِّ أدوا واجبهم المنوط بهم، وإذا غالوا في جباية حقوق بيت المال، ظلموا المموِّلين، وألحقوا بهم الضَّرر وحمَّلوهم فوق ما يطيقون، والرَّسول ﷺ يحذِّر من المغالاة في استئداء حقوق بيت المال، فقد نهى عن جباية كرائم الأموال في الزَّكاة ، وأمر بالتَّخفيف في استئداء زكاة الثَّمر[٤] .

٤ـ إعطاء المسلمين ما لهم من بيت المال بالحقِّ :

عطاء بيت المال للمسلمين إمَّا أن يكون مباشراً كصرف الزَّكاة للمستحقِّين لها ، وما يقضي به نظام الأعطيات من توزيع فائض الأموال على المسلمين ، أو يكون العطاء العامُّ غير مباشرٍ يتمثَّل في الخدمات العامَّة الَّتي تؤدِّيها الدَّولة للرَّعية ، وهذه ينفق عليها من بيت مال المسلمين ، وفي كلا العطاءين ينبغي أن يتَّسِم العطاء بالحقِّ ، فلا يجوز في العطاء المباشر أن تُخالف الأسس التي تحدَّدت لوضعه محاباةً لبعض الأفراد ، أو حرماناً أو نقصاناً للبعض الآخر دون مبرِّرٍ ، ولا يجوز أن يتأخَّر العطاء عن موعده بسبب تعقّد الإجراءات ، أو كثرة الحجب التي تحجبُ أرباب الظُّلامات عن الوصول لمن بيدهم أمر العطاء ؛ لبحث ظلامتهم من تأخير العطاء ، أو قلَّته ، أو عدم وصوله إليهم ، ولا يجوز في الخدمات العامة التي تؤديها الدَّولة للشَّعب أن تكون المنفعة لفردٍ معيَّنٍ ، بل يجب أن يعود نفعها على الأمَّة جمعاء[٥] .

---

(١) الخلافة بين التَّنظير والتطبيق ، محمد المرداوي ، ص(٦٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٧) .
(٣) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص(٦٣) .
(٤) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٦٤) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٦) .

٥ـ عدم ظلم أهل الذِّمَّة وأخذ ما عليهم لبيت المال بالحقِّ، وإعطاؤهم حقوقهم بالحقِّ كذلك:

لا يجوز ظلم أهل الكتاب عند أخذ الجزية منهم ؛ لأنَّ أهل الكتاب من الذمِّيِّين الّذين يقيمون في الدَّولة الإسلاميَّة ، وهم في ذمَّتها ، ورعايتها ما داموا يؤدُّون الجزية ، وقد أوصى به رسول الله ﷺ ، فقد ولَّى عبد الله بن أرقم على جزية أهل الذِّمَّة ، فلمَّا ولَّى من عنده ، ناداه ، فقال : « ألا من ظلم معاهداً ، أو كلَّفه فوق طاقته ، أو انتقصه ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة »[١] . واستناداً لذلك ؛ فقد أوصى بهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين موته : أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذِّمَّة خيراً ، أن يوفي لهم بعهدهم ، وأن يقاتل مَنْ وراءهم وألا يكلَّفوا فوق طاقتهم[٢] .

فإذا آذى عمَّال الجزيةِ الذِّمِّيِّين ، أو كلفوهم فوق طاقتهم ، أو عذَّبوهم ، أو أخذوا الجزية من الشَّيخ الكبير الّذي لا شيء له ، ولا يستطيع العمل ، أو أخذوها من الذِّمِّي الّذي أسلم ؛ كان هذا لوناً من ألوان الظُّلم الّذي نبّه الخليفة الثَّالث في كتابه عمَّال الخراج بعدم ارتكابه مستنداً في ذلك لتعاليم الرَّسول ﷺ[٣] .

هذا وعلاوةً على الجزية يؤدِّي أهل الذِّمَّة الّذين يزرعون أرض الخراج ـ وهي الّتي آلت للدَّولة الإسلاميَّة كغنيمةٍ نتيجة للفتح الإسلامي ـ ما يستحقُّ عليه من خراج لبيت مال المسلمين ، ويجب أن يراعي عمَّال الخراج الحقَّ في تحديد قيمته المستحقَّة على الأراضي الّتي يزرعها أهل الذمَّة ، وذلك بمراعاة العوامل الّتي تحكم تحديده ؛ لأنَّ إغفالها كلِّها ، أو بعضها يوقع الظُّلم بأهل الذِّمَّة ، الّذين يزرعونها ، وهذه العوامل أربع :

* ما يختصُّ بالأرض من جودةٍ ، يزكو بها زرعها ، أو رداءةٍ يقلُّ بها ريعها .

* ما يختصُّ بالزَّرع من اختلاف أنواعه من الحبوب ، والثِّمار ، فمنها ما يكثر ثمنه ، ومنها ما يقلُّ ثمنه ، فيكون الخراج بحسبه .

* ما يختصُّ بالسَّقي ، والشُّرب ؛ لأنَّ ما التزم المؤونة في سقيه النَّواضح ، والدّوالي لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقي السُّيوح ، والأمطار .

* ألا يستقصي في وضع الخراج غاية ما تحمله ليجعل فيها لأرباب الأرض بقيَّة يجبرون بها في النَّوائب ، والجوائح[٤] .

---

(١) المنتخب من السُّنَّة ، ص(٢٦١) .

(٢) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص(٦٧) .

(٣) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٦٧) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

هذا ، وإذا كانت الدَّولة الإسلاميَّة ، قد أبرمت عهداً ، أو عقدت صلحاً مع أهل الكتاب ، فواجب الدَّولة الإسلاميَّة ، وعمَّال خراجها أن يلتزموا بما ورد بها من شروطٍ ، ومنها الشُّروط الَّتي تحدّد قيمة ما يدفعونه من جزيةٍ ، أو خراجٍ ، لأنَّ المسلمين إذا أبرموا عقداً ، أو عهدوا عهداً ، التزموا بالوفاء بالعقود ، والعهود(١) .

٦ـ عدم ظلم اليتيم :

لليتيم حقٌّ في المال العامِّ بنصوص القرآن الكريم ، فهو من المستحقِّين لأموال الزَّكاة إن كان فقيراً ، قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

ولليتيم نصيبٌ في خمس الغنائم تطبيقاً لقوله جلَّ وعلا : ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

ولليتيم نصيبٌ في عطاء بيت المال ، فقد كان يفرض للأطفال عموماً ، ومنهم يتامى الأطفال ، وإذا كان اليتيم غنيّاً ، فيؤدِّي الزَّكاة المفروضة على أمواله إذا توفرت ، وواجب المُصَدِّق أن يأخذ الزَّكاة بالحقِّ ، والعدل ؛ حتَّى لا يذهب ظلمه بمال اليتيم ، أو جزءٍ منه بغير وجه حقٍّ(٢) .

٧ـ تخلق عمَّال الخراج بالأمانة والوفاء :

قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨] .

طالب الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه عمَّال الخراج أن يتحلَّوا بالأمانة ، وهي صفةٌ لازمةٌ لجميع من يشتغلون بالأموال العامَّة ، وإذا لم تتوفَّر فيهم هذه الصِّفة ؛ جاروا على حقوق بيت المال ، وجاروا على المموِّلين ، وانتكست العلاقة بين بيت المال والمموِّلين .

والقرآن الكريم والأحاديث النَّبوية الشَّريفة تنبِّه ، وتحضُّ على التزام الأمانة ؛ وطالب الخليفة عثمان كذلك عمال الخراج بأن يتحلَّوا بالوفاء ، وقد ورد الوفاء مطلقاً في كتاب الخليفة ، فيشمل : الوفاء لبيت المال بمراعاة أخذ حقوقه كاملةً من الرَّعيَّة ، والوفاء للمموِّلين

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٦٨) .

بعدم ظلمهم بالمغالاة في تحديد الفرائض الماليّة المطلوبة منهم ، والوفاء لأهل الذِّمّة بالرِّفق ، وحسن المعاملة ، وتطبيق ما تضمَّنته شروط الصُّلح معهم من جزيةٍ ، وخراجٍ دون زيادةٍ[(١)] .

٨ ـ أثر تكامل النِّعم على مسار الأمّة :

لم يرد عثمان بن عفّان رضي الله عنه أن يترك العامّة دون تبصيرهم ، فحذَّرهم من أن تجذبهم الدُّنيا إلى ملاذِّها ، ومتاعها ، وخشي : أنَّ أمر الأمة صائر إلى الابتداع بعد أن توفرت لهم ثلاثٌ ، وهي : تكامل النِّعم ، وبلوغ أولاد السَّبايا ، وقراءة الأعاجم[(٢)] ، فعثمان رضي الله عنه أدرك أنَّ تكامل النِّعم لدى البعض سيميل بأولي النِّعم عن المسار السَّليم ؛ لأنَّ تكامل النِّعمة بزيادة الأموال لدى أفراد الرَّعيَّة قد يفسدهم بسبب ما ينفقونه على التَّرف ، والفساد[(٣)] ، قال تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء : ١٦] .

٩ـ المقارنة بين السِّياسة العمريَّة والعثمانيَّة :

هذه السِّياسة الماليّة الّتي أعلنها ذو النُّورين تكاد تتَّفق مع السِّياسة العامَّة الماليَّة الّتي نفَّذها الفاروق حين ولِّي أمر المسلمين ، فقد أعلن ، ونفَّذ : أنَّ المال العامَّ لا يصلحه إلا خلالٌ ثلاث : أن يؤخذ بالحقِّ ، ويعطى في الحقِّ ، ويمنع في الباطل[(٤)] فالسِّياسة العمريّة ، والعثمانيَّة في المال تنبعان من مشكاةٍ واحدةٍ ، وهي مشكاة الإسلام ، ومبادئه ، وأصوله ، وقواعده[(٥)] .

ثانياً : توجيهاتٌ عثمانيّة توضِّح للنَّاس قواعد زكاتهم :

قال عثمان رضي الله عنه : هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دينٌ فليؤدِّه حتَّى تخرجوا زكاة أموالكم ، ومن لم تكن عنده لم تطلب منه ؛ حتَّى يأتي بها تطوُّعاً ، ومن أُخذ منه حتَّى يأتي هذا الشَّهر من قابل . قال إبراهبم بن سعد : أراه يعني : شهر رمضان[(٦)] ، وقال أبو عبيد : وقد جاءنا في بعض الأثر : أن هذا الشَّهر الّذي أراده عثمان هو المحرَّم[(٧)] . وبهذا القول أكَّد عثمان رضي الله عنه المبادئ التَّالية :

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٩) .

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٢٤٥) .

(٣) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٧٠) .

(٤) السِّياسة الماليَّة لعمر بن الخطَّاب ، قطب إبراهيم محمد ، ص(٢٣) وما بعدها .

(٥) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٧٦) .

(٦) الأموال ، لأبي عبيد ، ص(٥٣٤) .

(٧) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥٣٥) .

أ ـ مبدأ سنوية الزَّكاة ؛ إذ يشترط لأداء الزَّكاة ما عدا زكاة الزُّروع حولان الحول ، ويظهر ذلك من قول عثمان : أنَّ من أخذ منه لا يؤدِّي زكاةً من أمواله حتَّى يأتي نفس الشَّهر في السَّنة التَّالية فلا تتكرَّر عليه الزَّكاة في عامٍ واحدٍ .

ب ـ إذا أخذنا بقول أبي عبيد : أنَّ الشَّهر الَّذي قصده عثمان بن عفَّان هو شهر المحرَّم ، فكأنَّه أراد أن تكون السَّنة الماليَّة الإسلاميَّة مطابقةً للسَّنة الهجريَّة ، فعلى المسلمين بعد مرور سنةٍ هجريَّةٍ كاملةٍ على ما لديهم من أموالٍ أن يسدِّدوا ما عليها من زكاةٍ في أوَّل السَّنة الهجريَّة التَّالية وهو شهر المحرَّم ؛ إذا توفرت شروطها .

جـ ـ ويدعو عثمان بن عفَّان رضي الله عنه النَّاس إلى حساب وعاء الزَّكاة ، فيطلب منهم أداء ما عليهم من ديون حتَّى تؤخذ الزَّكاة على الباقي[١] ، ولعلَّ عثمان أراد أن يستحثَّ الناس على أداء ما عليهم من ديونٍ وفاءً منهم للدَّائنين ، وتسهيلاً لحساب المال الخاضع للزَّكاة ، وحتَّى يقطع بجدِّية الدَّين ، وعدم تطرق الصُّوريَّة إليه[٢] .

د ـ يقول عثمان رضي الله عنه : ومن لم تكن عنده لم تُطلب منه حتَّى يأتي بها تطوُّعاً . وبذلك يفتح عثمان بن عفَّان الدَّعوة إلى التَّطوُّع ، فقد يرى بعض المسلمين : أنَّه لا يستحقُّ عليهم زكاةٌ ومع ذلك يرون التَّطوُّع بأداء صدقاتٍ من أموالهم ، يؤدُّونها لبيت المال ، فيقبلها منهم ، ويضمُّها إلى موارد الزَّكاة ، وتصرف الدَّولة منها على نفس مصارف الزَّكاة[٣] .

وقد يكون قول عثمان رضي الله عنه : ومن أخذنا منه لم نأخذ منه حتَّى يأتينا بها تطوُّعاً : أنَّه يقصد أن لا يجبي بيت المال صدقة الذَّهب ، والفضَّة إلا إذا أتى بها صاحبها لبيت المال ، وأمَّا الصَّدقة الَّتي يكره النَّاس عليها ويجاهدون على منعها ؛ فهي صدقة الماشية ، والحرث ، والنَّخل ، وبذلك يكون عثمان قد ترك لأصحاب الأموال أداء الزَّكاة على ما يعرف بالأموال الباطنة ، وهي أموال الذَّهب ، والفضَّة ، والتجارة ، ولا يقبلها منهم إلا إذا أتى بها صاحبها تطوُّعاً[٤] ، يقول في ذلك أبو عبيد : ألا ترى أنَّ رسول الله ﷺ قد كان يبعث مصدِّقيه إلى الماشية ، فيأخذونها من أربابها بالكره منهم والرِّضا ، وكذلك كانت الأئمَّة بعده ، وعلى منع صدقة الماشية قاتلهم أبو بكر ، ولم يأت عن النَّبيِّ ﷺ ولا عن أحدٍ بعده : أنَّهم استكرهوا النَّاس

---

(١) السِّياسة الماليَّة لعثمان رضي الله عنه ، ص (٧٦) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٧٧) .

(٤) الأموال ، لأبي عبيد ، ص(٥٣٧) .

على صدقات الصَّامت ، إلا أن يأتوا بها غير مكرهين ، وإنَّما هي أماناتُهم ، يؤدُّونها ، فعليهم فيها أداء العين ، والدَّين ؛ لأنَّها ملك أيمانهم ، وهم مؤتمنون عليها ؛ وأمَّا الماشية فإنَّها حكمٌ يحكم بها عليهم ، وإنَّما تقع الأحكام فيما بين النَّاس على الأموال الظَّاهرة وهي فيما بينهم وبين الله على الظَّاهرة ، والباطنة جميعاً[١] .

١ـ رأيه في زكاة دين الدَّائن :

عن السَّائب بن يزيد : أنَّ عثمان كان يقول : إنَّ الصدقة تجب في الدَّين الَّذي لو شئت تقاضيته من صاحبه ، والَّذي هو مليءٌ تدعه حياءً ، أو مصانعةً ، ففيه الصَّدقة[٢] .

وعن عثمان رضي الله عنه قال : زكِّه ـ يعني الدَّين ـ إذا كان عند الملأ[٣] .

فمن هذين القولين لعثمان بن عفَّان يبيِّن : أنَّ الصَّدقة واجبةٌ على الدَّين للدَّائن على المدين المليء ، ويستطيع أن يحصِّل من المدين على دينه ، ولكن يستحي أن يذكِّر المدين به ، أو أنَّ الدَّائن يدع دينه للمدين مصانعةً له ، والمصانعة تعني : سكوت الدَّائن عن المطالبة بدينه نظير منفعةٍ يحصل عليها من المدين[٤] .

٢ـ اقتراضه من مصرف الزَّكاة ، وإنفاقه للمصالح العامَّة :

أخذ عثمان رضي الله عنه من أموال الزَّكاة ، فأنفق منها في الحرب ، وفي غير الحرب على المرافق العامَّة ، فأنفق على الجهاد على أن يردَّ ذلك إذا اتَّسع المال لردِّه ، ومن حقِّ الإمام أن يقترض من مصرفٍ لمصرفٍ ، لا يخالف بذلك الدِّين ، ولا يغيِّر سنةً موروثة ما دام مصمِّماً على أن يردَّ على أموال الصَّدقة ما أخذ منها[٥] ، وتذهب بعض الآراء إلى أن أحد مصارف الزَّكاة وهو مصرفٌ في سبيل الله يعطى للغازي في سبيل الله من أموال الزَّكاة ؛ لأنَّ انقطاعه للجهاد أقعده عن العمل ، والكسب ، وليس هذا من باب التَّشجيع على البطالة ، فهذا الصِّنف قد آثر مصلحة الإسلام على مصلحة نفسه ، وترك العمل لشخصه ، يعمل في مجالٍ أرحب ، وأوسع وهو العمل لإعلاء كلمة الله ونشر دينه في المعمورة ، ويرى بعض العلماء جواز صرف الزَّكاة في المنافع العامَّة ، وما تقتضيه حاجات الأمَّة[٦] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) المنتخب من السُّنَّة (٦/ ٣٠١) .

(٤) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٧٩) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٨٠) .

(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٨١) .

٣ـ الإنفاق من الزَّكاة على الطَّعام للفقراء ، وأبناء السَّبيل :

سنَّ عثمان رضي الله عنه سنَّةً جديدةً ، فكان يضع الطَّعام في المسجد في رمضان ، وقال : للمتعبِّد الَّذي يتخلَّف في المسجد ، وابن السَّبيل ، والمعترين[(١)] . والخليفة عثمان رضي الله عنه بذلك يكرِّم المسلمين من بيت المال ، وفي ذلك اقتداءٌ بالرَّسول ﷺ الَّذي كان أجود النَّاس ، وأجود ما يكون في رمضان ، وهذه السُّنَّة الَّتي استنَّها عثمان ترغِّب المسلمين في الاعتكاف في المساجد ، ما دام أكلهم معدّاً ، وفي ذلك تشجيعٌ على إحياء سنَّة الرَّسول الكريم ﷺ في الاعتكاف[(٢)] .

٤ـ إنشاء منازل للضِّيافة من أموال الزَّكاة :

بلغ عثمان : أنَّ أبا سمال الأسديَّ ومعه نفرٌ من أهل الكوفة ينادي منادٍ لهم إذا قدم المُيَّار[(٣)] : أنَّ من كان من القبائل ليس لقومهم بالكوفة منزلٌ ، فمنزله على أبي سمال ، فاتَّخذ عثمان بعض الدُّور كمنازل للضِّيافة ، ينزل بها الغرباء ممَّن ليس لهم منزل ، ومن هذه الدُّور منزل عبد الله بن مسعود في هذيل ، وكان الأضياف ينزلون داره في هذيل إذا ضاق عليهم ما حول المسجد[(٤)] .

٥ـ العطاء من بيت المال لكلِّ مملوكٍ :

ممَّا زاد عثمان رضي الله عنه على يده أن ردَّ على كلِّ مملوكٍ بالكوفة من فضول الأموال ثلاثةً من كلِّ شهرٍ يتَّسعون بها من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم[(٥)] ، والغالب على أنَّ مصدر هذه الأموال الَّتي وزَّعها عثمان على كلِّ مملوكٍ هو أموال الزَّكاة ، باعتبار : أنَّ لهم فيها نصيباً ؛ لأنهم أحد الثَّمانية مصارف ؛ الَّتي حدَّدتها آية الزكاة وهي مصرف ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾[(٦)] .

ثالثاً : خمس الغنائم :

بدأ الجهاد في عهد الرَّسول ﷺ واستمرَّ في عهد أبي بكرٍ ، وعمر ، وكذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفَّان ، وكانت نتيجة ذلك انتشار الإسلام ، واتِّساع رقعة الدَّولة الإسلاميَّة ، وكانت فتوحات عهد عثمان كبيرةً ، حقَّقت غنائم كثيرةً إلى بيت المال منها الخمس ، كما أنَّه آل إلى بيت المال جزيةُ مَنْ آثر البقاء على دينه من أهل الكتاب ولم يحارب ، فهناك ارتباطٌ إذاً بين بيت

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٢٤٥) . والمعتر : الفقير ، المعترض للمعروف بدون سؤال .

(٢) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٨٢ ، ٨٣) .

(٣) الميار : جمع مائر ، وهو جالب الميرة ، والميرة : الطَّعام .

(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٢٧٣) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٢٧٥) .

(٦) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٨٤) .

المال ، والفتوحات الإسلاميَّة ، فقد قام بيت المال في عهد عثمان بتمويل هذه الفتوحات سواءٌ بما كان يدفعه للجنود من مرتَّباتٍ ، أو لشراء الأسلحة ، والعتاد بجانب التَّطوُّع بالأموال ، والأنفس ، وإذا تحقَّق النَّصر ؛ فرضت الجزية على من لم يسلم من أهل الكتاب ، والخراج على الأرض الّتي أخذت عنوةً ، وإذا أسلم أهل البلاد ، سدَّدوا الزَّكاة ؛ إذا بلغت أموالهم نصاباً ، وتوفرت شروطها باعتبارها من أركان الإسلام ، ولا يكمل إسلام المسلم إلا بأدائها ، وهذه كلُّها تساهم في زيادة الإيرادات العامَّة للدَّولة الإسلاميَّة ، وأحلَّ الله للمسلمين غنائم الحرب ، ويوزَّع أربعة أخماسها بين الفاتحين ، والخمس الباقي يؤول لبيت مال المسلمين(١) .

وفيما يلي بعض المسائل الّتي أسفر عنها تطبيق السِّياسة العامَّة في عهد عثمان ابن عفَّان بشأن خمس غنائم الفتوحات :

١ـ لم يسهم للصَّبي من الغنائم في عهد عثمان بن عفَّان :

عن تميم بن المهريِّ ، قال : شهدت فتح الإسكندرية في المرَّة الثَّانية ، فلم يسهم لي حتَّى كاد أن يقع بين قومي وبين قريش منازعةٌ . فقال بعض القوم : أرسلوا إلى بصرة الغفاريِّ ، وعقبة بن عامر الجهنيِّ ، فإنَّهما من أصحاب رسول الله ﷺ ، فاسألوهما عن هذا ، فأرسلوا إليهما ، فسألوهما ، فقالا : انظروا فإن كان أنبت(٢) ، فأسهموا له ، فنظر إليَّ بعض القوم ، فوجدوني قد أنبتُّ ، فأسهموا لي(٣) .

ومعنى ذلك أنَّه لا يسهم للصَّبيِّ ، ولا للمرأة ، إنَّما يرضخ لهم ؛ أي : يعطون شيئاً قليلاً لمساعدتهم في غزوات المسلمين ، وهذا ما كان يطبَّق في عهد رسول الله ﷺ(٤) .

٢ـ السَّلَب للقاتل في عهد عثمان كما كان في عهد رسول الله ﷺ :

السَّلَب : هو ما كان على القتيل في الحرب، وما كان من سلاحٍ، وما كان تحته من فرسٍ، وقد قضى رسول الله ﷺ بالسَّلَب للقاتل ، فعن أبي قتادة : أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم حنين : « من قتل قتيلاً له بيِّنةٌ فله سَلَبُه »(٥) ومفاد هذا الحديث : أنَّه لا يستحقُّ للقاتل في السَّلب إلا بعد أن يقيم البيِّنة على أنَّه هو الّذي قتله ، حتَّى إذا تنازع اثنان ، كلٌّ منهما يدَّعي : أنه قتله ، فالسلب لمن يقيم البيِّنة منهما(٦) .

---

(١) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٨٦ ، ٨٧) .

(٢) أنبت : أي نبات شعر العانة .

(٣) فتوح مصر ، وأخبارها ، ص(١٢١) .

(٤) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٩٣) .

(٥) البخاريُّ ، كتاب المغازي ، رقم (٤٣٢٢) .

(٦) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٩٣) .

وقد حدث بعد انتقاض الإسكندرية ، وجاءت الرُّوم وعليهم منويل الخصيُّ ، وأرسوا بالإسكندرية ، وتركهم عمرو حتَّى يسيروا إليه ، فيصيبون مَنْ مرُّوا به في البلاد ، فيخزي الله بعضهم ببعض ، فخرجوا من الإسكندرية ، ومعهم مَنْ نقض من أهل القرى ، فجعلوا ينزلون القرية ، فيشربون خمورهم ، ويأكلون أطعمتها ، وينتهبون ما مرُّوا به ، فلم يعرض عمرو حتَّى بلغوا نقيوس ، فلقوهم في البرِّ ، والبحر ، فحاربوا بالنَّشاب ثمَّ خرجوا من البحر ، فاجتمعوا هم والَّذين في البرِّ ، واستمرُّوا في حرب النَّشاب ، وبرز بطْريق ممَّن جاء من أرض الروم على فرسٍ له عليه سلاحٌ مذهَّب فدعا إلى البراز ، فبرز له رجلٌ من زبيد ، يقال له : (حومل) يكنى أبا مذجح ، فاقتتلا طويلاً برمحين يتطاردان ، ثمَّ ألقى البطريق الرُّمح وأخذ السَّيف وألقى (حومل) رمحه ، وأخذ بسيفه ، وجعل عمرو يصيح : أبا مذجح ! فيجيبه : لبيك ! والنَّاس على شاطئ النِّيل في البرِّ على تعبئتهم ، وصفوفهم ، فتجاولا ساعةً بالسَّيفين ، ثم حمل عليه البطريق فاحتمله ، ثم أخذ (حومل) خنجراً كان في منطقته أو في ذراعه فضرب به نحر عدوِّه ، فأوتر قوَّته ، فأثبته ، ووقع عليه فأخذ سلبه ، ثمَّ مات (حومل) بعد ذلك بأيَّام ـ رحمة الله عليه ـ ثمَّ شدَّ المسلمون حتَّى ألحقوهم بالإسكندرية ، ففتح الله عليهم ، وقُتل منويل الخصيُّ[1] .

٣ـ قيمة الغنائم ونصيب بيت المال في أحد فتوحات عثمان :

من حديث عبد الملك بن مسلمة عن غيره ، قال : غزونا مع عبد الله بن سعد إفريقية ، فقسم بيننا الغنائم بعد إخراج الخمس ، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار : للفرس ألفا دينار ، ولفارسه ألف دينار ، وللرَّاجل ألف دينار ، فقسم لرجل من الجيش توفي بذات الحمام ، فدفع لأهله بعد موته ألف دينار[2] .

ومن حديث لعثمان بن صالح ، وغيره ، قال : فكان جيش عبد الله بن سعد ذلك عشرين ألفاً . ومن المعروف : أنَّ يؤول الخمس لبيت المال استناداً إلى قول الله تعالى : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

وقد رُفع نصيب الرَّسول ﷺ وذي القربى في عهد أبي بكر رضي الله عنه بعد وفاة الرَّسول ﷺ ووجِّه إلى السِّلاح ، والكُراع ، وسايره عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه من بعده في التَّطبيق ، وكذا عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، والأربعة أخماس الباقية من الغنائم توزَّع على الفاتحين

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ، ص(١١٩ ، ١٢٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٢٥) .

بنسبة (٣) للفارس وفرسه ، و(١) للرَّاجل ، فمن الحديثين السَّابقين يمكن حساب قيمة الخمس الَّذي آل لبيت المال ، وكذلك قيمة الغنائم كلِّها ، فبافتراض : أنَّ الفوارس عشر الجيش الَّذي بلغ عشرين ألفاً ، وأنَّ الباقين من الرَّاجلين يكون الحساب كالآتي :

٢٠٠٠ فارس × ٣٠٠٠ دينار = ٦,٠٠٠,٠٠٠ دينار

١٨٠٠٠ رجل × ١٠٠٠ دينار = ١٨,٠٠٠,٠٠٠ دينار .

مجموع ما خصَّ المحاربين = ٢٤ مليون دينار ، وهو ما يمثِّل أربعة أخماس قيمة الغنائم ، ويكون نصيب بيت المال خمس الغنائم أي = ٦ مليون دينار ، ويكون مجموع ما غنمه المسلمون = ٣٠ مليون دينار[١] .

٤ـ الإنفاق العام من خمس الغنائم :

ينفق خمس الغنائم طبقاً لنصِّ الآية للرَّسول ﷺ ولذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السَّبيل بحقِّ الخمس لكلٍّ منهم ، وأنَّه بعد موت الرَّسول ﷺ آل نصيبه ، ونصيب ذي القربى إلى بيت المال ؛ لينفق منها على الكُراع ، والسِّلاح ، وقد استنفد الخليفة الرَّاشد عثمان رضي الله عنه نصيب رسول الله ﷺ وذي القربى ؛ الَّذي آل إلى بيت المال على الإنفاق على الكُراع ، والسِّلاح لكثرة الفتوحات الَّتي تمَّت في عهده وما استلزمته من أسلحةٍ ، وخيول[٢] .

٥ـ نجاح السِّياسة الماليَّة في تمويل فتوحات الإسلام في عهد عثمان :

من ضمن التَّحدِّيات الَّتي واجهها عثمان رضي الله عنه انتكاس بعض البلاد المفتوحة ، واستطاع عثمان رضي الله عنه إجبار البلاد الَّتي نقضت العهد على الالتزام بعهودهم مع الدَّولة الإسلاميَّة ، والانصياع لحكمها ، وفي ضوء ما تمَّ من فتوحاتٍ جديدةٍ ، فإنَّه يمكن القول : إنَّ تنفيذ السِّياسة الماليَّة فيما يتعلَّق بهذه الفتوح قد أسفر عن قيام الماليَّة العامَّة في عهد عثمان بن عفَّان بالمطلوب منها ، سواءٌ من ناحية تمويلها لهذه الفتوح ، أو بما حقَّقته الانتصارات من غنائم كثيرةٍ حصل بيت المال على نصيبه منها ، أو من موارد أخرى ، وهي زكاة من أسلم من أهل الأمصار ، وجزية من أبى الإسلام من أهل الكتاب ، وخراج أراضيهم[٣] .

رابعاً : الإيرادات العامَّة من الجزية في عهد عثمان رضي الله عنه :

١ـ استقرار المسائل الفنِّيَّة للجزية في عهد عثمان رضي الله عنه :

استقرَّت أحكام الجزية ، وقواعدها ، ونظام تطبيقها ، وتحصيلها في عهد عمر بن

---

(١) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٩٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٩٧) .
(٣) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (٩٩) .

الخطَّاب ، ولذلك كان دور بيت المال في عهد عثمان أن يتلقَّى ما يتمُّ تحصيله من جزيةٍ بعد الاتِّفاق على قيمتها ، وأن تقرَّ الدَّولة ما تمَّ عقده من صلح في عهودٍ سابقةٍ ، أو إقرار صلحٍ جديدٍ ، وأن تتكفَّل الدولة لمن أدَّوا الجزية بالحقوق الَّتي تترتَّب على هذا الأداء[١] .

٢ـ نماذج ممَّا آل لبيت المال من إيرادات الجزية :

أ ـ غزا الوليد بن عقبة في إمارته على الكوفة في عهد عثمان أذربيجان ، وصالح أهلها على ثمانمئة ألف درهم حبسوها عند وفاة عمر ، فوطئهم بالجيش ، وانقادوا له ، وقبض منهم المال[٢] .

ب ـ لمَّا وجَّه عثمان عبد الله بن سعد إلى إفريقية ؛ كان الَّذي صالحهم عليه بطريق إفريقية جرجير ألفي ألف دينار وخمسمئة ألف دينار ، وعشرين ألف دينار ، وكان الَّذي صالحهم عليه عبد الله ثلاثمئة قنطار ذهبٍ (ولعلَّ ذلك يعادل المبلغ الأول)[٣] .

ج ـ صلح قبرص وقع على جزية سبعة آلاف دينارٍ يؤدُّونها إلى المسلمين[٤] .

د ـ صالح سعيد بن صالح أهل جرجان ، وكانوا يجبون أحياناً مئة ألفٍ ، ويقولون هذا صلحنا ، وأحياناً مئتي ألفٍ ، وأحياناً ثلاثمئة ألفٍ[٥] .

هـ ـ غلب عبد الله بن عامر على نيسابور ، وخرج إلى سرخس ، فأرسل إليه أهل مرو يطلبون الصُّلح ، فبعث إليهم ابن حاتم الباهليَّ ، فصالح مرزبان مرو على ألفي ألفٍ ، وقال آخر : صالحهم على ستِّين ألف درهم[٦] .

و ـ سار الأحنف بن قيس إلى بلخ ، فحاصرهم ، فصالحه أهلها على أربعمئة ألفٍ ، فرضي منهم بذلك ، واستعمل ابن عمِّه ، وهو أسيد بن المتشمِّس ؛ ليأخذ منهم ما صالحوه عليه[٧] .

٣ـ عثمان بن عفَّان ينفِّذ كتاب الرَّسول ﷺ لأهل نجران :

كان النَّبيّ ﷺ قد أقرَّ أهل نجران على شروطٍ اشترطها عليهم ، واشترطوها هم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، يوضِّح هذه الشُّروط ، ومنها دفعهم الجزية ، ومقدارها ، ثمَّ جاؤوا بعد الرَّسول

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص (١٠٣) .
(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٢٤٦) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٢٥٥) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٢٦١) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٢٦١) .
(٦) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٣١٨) .
(٧) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٣٠٧) .

ﷺ فكتب لهم أبو بكر رضي الله عنه كتاباً بهذه الشُّروط ، ثمَّ جاؤوا من بعد أن استُخلف عمر رضي الله عنه إليه ، وكان عمر قد أجلاهم عن نجران اليمن ، وأسكنهم بنجران العراق ؛ لأنَّه خافهم على المسلمين ، وكتب لهم كتاباً[١] .

فلمَّا قُبض عمر رضي الله عنه واستخلف عثمان بن عفَّان رضي الله عنه أتوه إلى المدينة ، فكتب لهم إلى الوليد بن عقبة وهو عامله الكتاب التَّالي : (بسم الله الرَّحمن الرحيم . من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى الوليد بن عقبة ، سلام الله عليك ، فإنِّي أحمد الله الَّذي لا إلٰه إلا هو ، أمَّا بعد ؛ فإنَّ الأسقف ، والعاقب ، وسراة أهل نجران الَّذين بالعراق ، أتوني ، فشكوا إليَّ ، وأروني شرط عمر لهم ، وقد علمت ما أصابهم من المسلمين ، وإنِّي قد خفَّفت عنهم ثلاثين حلَّةً من جزيتهم ، وتركتها لوجه الله تعالى جلَّ ثناؤه ، وإنِّي وفَّيت لهم بكلِّ أرضهم الَّتي تصدَّق عليهم عمر عقبى مكان أرضهم باليمن ، فاستوصِ بهم خيراً . فإنَّهم أقوام لهم ذمَّةٌ ، وكانت بيني وبينهم معرفةٌ ، وانظر صحيفةً كان عمر كتبها له ، فأوفهم ما فيها ، وإذا قرأت صحيفتهم ؛ فارددها عليهم والسَّلام)[٢] . وكان ذلك في النِّصف من شعبان سنة سبعٍ وعشرين[٣] .

وممَّا سبق يتَّضح :

أ ـ أنَّ عثمان رضي الله عنه أوفى بعهد الرَّسول ﷺ وعهد صاحبيه رضي الله عنهما من بعده وأنَّ ذلك ينبع من مبدأ عامٍّ في الإسلام ، وهو أنَّ من عقد عقداً ، أو عهد عهداً ، أو وعد وعداً ؛ أوفى به .

ب ـ خفف عثمان عنهم الجزية ، ووفَّى لهم بكلِّ أرضهم ، وطلب من عامله الوليد بن عقبة أن يوفِّي لهم بما ورد في كتاب عمر رضي الله عنه وأن يستوصي بهم خيراً؛ لأنَّهم أقوامٌ لهم ذمَّةٌ[٤] .

٤ـ أهل الكتاب في ذمَّة المسلمين ما داموا يؤدُّون الجزية :

بعد انتصار عمرو بن العاص في الإسكندرية ، وكان قد جمع من القرى أثناء الحرب ما أصاب أهل القرى ، فجاءه أهل تلك القرى ممَّن لم يكن نقض ، فقالوا : قد كنَّا على صلحنا ، وقد مرَّ علينا هؤلاء اللُّصوص (أي : الرُّوم) وأخذوا متاعنا ، ودوابَّنا ، وهو قائم بين يديك ، فردَّ عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه ، وأقاموا عليه البيِّنة . وقال بعضهم لعمرو : ما حلَّ لك ما صنعت بنا ، كان لنا أن تقاتل عنَّا لأنَّا في ذمَّتك ؛ ولم ننقض فأمَّا من نقض ، فأبعده

(١) الخراج ، لأبي يوسف ، ص(٧٤) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١٠٥) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٠٥) .

الله[١] ! فانظر كيف كان نظام الجزية يرتِّب حقوقاً تمسَّكوا بها ، وهي حمايتهم نظير ما يدفعون ، بالرَّغم من أنَّهم لا يشتركون في الدِّفاع عن البلاد مع المسلمين ، وإنَّما يدفعونها نظير حقوقٍ يحصلون عليها من الدَّولة الإسلاميَّة ، ومن هذه الحقوق حقُّ الحماية ، وحقُّ الرِّعاية ، وقد أقرَّهم عمرو بن العاص على هذه الحقوق ، وردَّ إليهم أموالهم[٢] .

٥ـ مشاركة أهل الذِّمَّة في الأعباء العامَّة في عهد عثمان :

وممَّا يذكر بشأن فتح الإسكندريّة الثَّاني في خلافة عثمان بن عفَّان ممَّا يتَّصل بالجزية : أنَّ صاحب إخنا ، وكان اسمه (طلما) قدم على عمرو بن العاص ، فقال : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية ، فيصبر لها ؟

فقال عمرو ، وهو يشير إلى ركن كنيسةٍ : إنَّما أنتم خزانةٌ لنا إنْ كثر علينا ، كثَّرنا عليكم ، وإن خُفِّف عنَّا خففنا عنكم ، فغضب صاحب إخنا ، فخرج إلى الرُّوم ، فقدم بهم ، فهزمهم الله وأسر ، فأتي به إلى عمرو ، فقال له النَّاس : اقتله . فقال : لا ! وقيل : إنَّ عمراً لمَّا أتي به سوَّره ، وتوَّجه ، وكساه برنس أرجوان ، وقال له : ائتنا بمثل هؤلاء . فرضي بأداء الجزية . فقيل لطلما : لو أتيت ملك الرُّوم . فقال : لو أتيته لقتلني ، وقال : قتلت أصحابي[٣] .

وعندما نحلِّل قول عمرو بن العاص : إنَّما أنتم خزانةٌ لنا ، إن كثر علينا ؛ كثَّرنا عليكم ، وإن خُفِّف عنَّا ، خفَّفنا عنكم ، نستنتج بعض المبادئ للسِّياسة الماليَّة في عهد عثمان بالنِّسبة لغير المسلمين ، منها :

أ ـ أهل الذمَّة يساهمون في بيت مال المسلمين بما يؤدُّونه من جزية ، فهم خزانة لبيت المال ، يحصل منها بيت المال على نصيبه في أموالهم على هيئة جزيةٍ .

ب ـ أنَّ هذا النَّصيب في أموال أهل الذِّمَّة يتحدَّد في ظلِّ الأعباء الملقاة على الدَّولة ، فإن كبر هذا العبء ؛ ارتفعت قيمة الجزية ، وإن خفَّ هذا العبء ، خفَّت قيمة الجزية .

ج ـ هذا التحوُّل في قيمة الجزية ارتفاعاً ، وانخفاضاً مع أعباء الحكم ينبثق من مبدأ المشاركة الماليَّة من مواطني الدَّولة في الأعباء ، بحيث يساهم كلٌّ على قدر طاقته وبما يحقِّق العدالة في توزيع الأعباء ، وفي ظلِّ الوصايا الَّتي أوصى بها الرَّسول الكريم ﷺ بحسن معاملة أهل الذِّمَّة عامَّة[٤] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٠٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٠٦) .
(٣) فتوح مصر وأخبارها ، ص (١٠٢) .
(٤) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١٠٧) .

خامساً : الإيرادات العامَّة من الخراج والعشور في عهد عثمان :

١ـ الخراج :

امتدَّت فتوحات الإسلام في عهد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، ونتج عن هذه الفتوحات أن دخلت الأرض الزِّراعيَّة للبلاد المفتوحة في حوزة الدَّولة الإسلاميَّة ، وكان عمر رضي الله عنه قد اعتبرها فيئاً للمسلمين ، وأبقىٰ عليها أهلها من أهل الكتاب الّذين آثروا الإبقاء على دينهم ، يزرعونها ، ويؤدُّون عنها خراج الأرض لبيت مال المسلمين ، وقد ساهم خراج هذه الأراضي في زيادة إيرادات بيت المال في عهد عثمان رضي الله عنه بسبب امتداد الفتوحات الإسلاميَّة في عصره[١] .

٢ـ عشور التِّجارة :

استقر نظام العشور في عهد الفاروق على الأسس والقواعد الّتي وضعها عمر ، رضي الله عنه ، وفي عهد عثمان بن عفَّان يبدو بصفةٍ عامَّةٍ : أن إيرادات بيت المال زادت من عشور التِّجارة ؛ ونتيجة لزيادة رقعة الدَّولة الإسلاميَّة بسبب الفتوحات الّتي تمَّت في عهده ، ونتيجةً لزيادة الثَّروات لدى البعض ، ممَّا زاد القوَّة الشِّرائيَّة بصفةٍ عامَّةٍ خصوصاً في السَّنوات الأولى في عهد عثمان بن عفَّان ؛ الّتي اتَّسمت بالاستقرار ، وزيادة القوَّة الشِّرائية تزيد الطَّلب على السِّلع ، وزيادة الطَّلب على السِّلع تدعو إلى تنشيط استيرادها ، وخضوعها لعشور التِّجارة متى توفَّرت شروط الإخضاع ، ومن العوامل الّتي أدَّت إلى زيادة حصيلة عشور التِّجارة في عهد عثمان ابن عفَّان ارتفاع الأسعار ، وارتفاع أسعار السِّلع يؤدِّي بالتالي إلى زيادة حصيلة عشور التِّجارة منها ؛ لأنَّها ضريبةٌ قيميَّةٌ ، تؤخذ بنسبةٍ معيَّنة على قيمة السِّلعة ، وليست نوعيَّةً تؤخذ من نوع السِّلعة[٢] .

سادساً : سياسة عثمان بن عفَّان في إقطاع الأرض :

مضى أبو بكرٍ رضي الله عنه في تطبيق السِّياسة النَّبويَّة في إقطاع الأراضي للنَّاس طلباً لاستصلاحها ، فقد أقطع الزُّبير بن العوَّام أرضاً مواتاً ما بين الجرف ، وقناة[٣] ، وأقطع مُجَّاعة بن مرارة الحنفيَّ الخضرمة (قرية كانت باليمامة)[٤] ، وأرادا إقطاع الزِّبرقان بن بدر ، ثمَّ عدل

---

(١) المصدر السابق نفسه ص (١١٣) .

(٢) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١٢٣) .

(٣) الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٣/ ١٠٤) .

(٤) عصر الخلافة الرَّاشدة ، للعمري ، ص(٢٢٠) .

عن ذلك لاعتراض عمر رضي الله عنه ، كما أراد إقطاع عيينة بن حصن الفزاري ، والأقرع بن حابس التَّميمي أرضاً سبخةً (ليس فيها كلأ ، ولا منفعةٌ) أراد استصلاحها ، ثمَّ عدل عن ذلك أخذاً برأي عمر رضي الله عنه في عدم الحاجة لتأليفهما على الإسلام : (إن رسول الله ﷺ كان يتألَّفكُما ، والإسلام يومئذ ذليلٌ ، وإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أعزَّ الإسلام ، فاذهبا ، فاجهدا جهدكما ، ومن الواضح : أنَّ اعتراض عمر ليس على مبدأ الإقطاع لاستصلاح الأراضي ، بل على أشخاصٍ بعينهم ، لا يرى تأليفهم على الإسلام ، وقد توسَّع عمر رضي الله عنه في إقطاع الأرض لغرض استصلاحها جرياً على السِّياسة النَّبوية فقد أعلن : (يا أيُّها الناس ! من أحيا أرضاً

مضى أبو بكرٍ رضي الله عنه في تطبيق السِّياسة النَّبويّة في إقطاع الأراضي للنَّاس طلباً لاستصلاحها ، فقد أقطع الزُّبير بن العوَّام أرضاً مواتاً ما بين الجرف ، وقناة[1] ، وأقطع مُجَّاعة بن مرارة الحنفيَّ الخضرمة (قرية كانت باليمامة)[2] ، وأرادا إقطاع الزِّبرقان بن بدر ، ثمَّ عدل عن ذلك لاعتراض عمر رضي الله عنه ، كما أراد إقطاع عيينة بن حصن الفزاري ، والأقرع بن حابس التَّميمي أرضاً سبخةً (ليس فيها كلأ ، ولا منفعةٌ) أراد استصلاحها ، ثمَّ عدل عن ذلك أخذاً برأي عمر رضي الله عنه في عدم الحاجة لتأليفهما على الإسلام : (إن رسول الله ﷺ كان يتألَّفكُما ، والإسلام يومئذ ذليلٌ ، وإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أعزَّ الإسلام ، فاذهبا ، فاجهدا جهدكما ، ومن الواضح : أنَّ اعتراض عمر ليس على مبدأ الإقطاع لاستصلاح الأراضي ، بل على أشخاصٍ بعينهم ، لا يرى تأليفهم على الإسلام ، وقد توسَّع عمر رضي الله عنه في إقطاع الأرض لغرض استصلاحها جرياً على السِّياسة النَّبوية فقد أعلن : (يا أيُّها الناس ! من أحيا أرضاً ميتاً فهي له)[3] . وهناك آثارٌ ضعيفةٌ تؤكِّد انتزاع عمر رضي الله عنه ملكية الأرض المقطعة إذا لم يتمَّ استصلاحها[4] ، وتحدِّد روايةٌ ضعيفةٌ لذلك ثلاث سنوات من تاريخ الإقطاع ، وقد ثبت إقطاع عمر رضي الله عنه لخوات بن جبير أرضاً مواتاً ، وللزُّبير بن العوَّام أرض العقيق جميعها ، ولعليِّ بن أبي طالبٍ أرض ينبع ، فتدفَّق فيها الماء الغزير ، فأوقفها عليٌّ رضي الله عنه صدقةً على الفقراء[5] ، ولما تولَّى عثمان رضي الله عنه الخلافة ؛ توسَّع في الإقطاع ، وخاصَّةً في المناطق المفتوحة ، حيث ترك عددٌ من الملاك أراضيهم فارِّين ، فصارت صوافي تقوم الدَّولة باستثمارها ، فأقطع عثمان رضي الله عنه منها خوفاً من بوارها[6] ، ولكن الإمام أحمد يرى : أنَّه

---

(١) الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٣/ ١٠٤) .

(٢) عصر الخلافة الرَّاشدة ، للعمري ، ص(٢٢٠) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٢١) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

(٥) عصر الخلافة الرَّاشدة ، للعمري ، ص(٢٢٢) .

(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٢٣) .

أقطع من السَّواد أيضاً ، وممَّا لا شكَّ فيه : أنَّ الصَّوافي قد يقع كثيرٌ منها في أرض السَّواد . وعلى أيّة حال فإنَّ الإقطاع من الصَّوافي رفع غلَّتها من تسعة آلاف درهم (٩٠٠٠ درهم) سنوياً في خلافة عمر رضي الله عنه إلى خمسين مليون درهم (٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم) في خلافة عثمان رضي الله عنه ، ممَّا يدلُّ على نجاح سياسته في إدارة الصَّوافي .

وتذكر المصادر قائمةً بأسماء الّذين أقطعهم عثمان ، رضي الله عنه ، ومعظمهم ليسوا من قريشٍ ، ومعظم الرِّوايات في إقطاع عثمان رضي الله عنه ضعيفةٌ ، وهي بالجملة تثبت توسُّعه في الإقطاع ، ومن المفيد ذكر أسماء المقطَعين ، وهم :

* عبد الله بن مسعود الهذليُّ (أرض بين نهري بيل وبين السَّواد) .
* عمَّار بن ياسر العنسيُّ (أستينيا) .
* خبَّاب بن الأرت التَّميميُّ (صعنبى ـ قرية بالسَّواد) .
* عديُّ بن حاتم الطَّائيُّ (الرَّوحاء ـ قريةٌ من قرى بغداد على نهر عبس) .
* سعدُ بن أبي وقاص الزُّهريُّ القرشيُّ (قرية هرمز ببرِّ فارس) .
* الزُّبير بن العوَّام .
* أسامة بن زيد الكلبي .
* سعيد بن زيد العدويُّ القرشيُّ .
* جرير بن عبد الله البجليُّ (أرض على شاطئ الفرات) .
* ابن هبَّار .
* طلحة بن عبيد الله التَّميمي القرشيُّ (النشاستبج) ضيعة بالكوفة .
* وائل بن حجر الحضرميُّ (أرض توالي قرية زرارة بالكوفة) .
* خالد بن عرفطة القضاعيُّ (أرض عند حمَّام أعين بالكوفة) .
* الأشعث بن قيس الكنديُّ (طيزناباذ ـ موضع بين الكوفة والقادسيَّة) .
* أبو مربد الحنفيُّ (أرض بالأهواز على نهر تيري) .
* نافع بن الحارث بن كلدة الثَّقفي (قطيعة بشطٍّ عثمان بالبصرة) .
* أبو موسى الأشعريُّ (قطيعة بحمَّام عمرة) .
* عثمان بن أبي العاص الثَّقفيُّ (شط عثمان بالبصرة) .

ويبدو أنَّ جلاء أهل هذه الأراضي عنها صيَّرها مواتاً ، وأقطعها عثمان رضي الله عنه

لإحيائها ، ويبدو أنَّ معاوية بن أبي سفيان أقطع قطائع في سواحل الشَّام ، لتعميرها، وإعدادها لمواجهة هجمات الرُّوم ، وكذلك أقطع قطائع بأنطاكية بأمر عثمان ، وأخرى بقاليقلا[١] ، وأمَّا إقطاعه فدك لمروان بن الحكم فلم يعرف من طريقٍ صحيحةٍ ، وقيل : إنَّ الَّذي أقطع فدك لمروان هو معاوية بن أبي سفيان[٢] .

إن سياسة عثمان في إقطاع الأراضي ساهم في زيادة موارد بيت مال المسلمين بما يؤدِّيه الجميع من زكاةٍ على أموالهم إذا توافرت شروطها ، وقد نجح مشروع عثمان في إقطاع الأرض ؛ بدليل زيادة إيراد الدَّولة من أملاكها الخاصَّة في العراق إذْ بلغت خمسين ألف ألف درهمٍ بعد أن كانت ٩٠٠,٠٠٠ درهمٍ في عهد الفاروق[٣] .

سابعاً : سياسة عثمان في حمى الأرض :

وهي أراضٍ خصِّصت لرعي الإبل ، والخيل الَّتي تملكها الدَّولة ، وقد استمرَّت حماية وادي النَّقيع في خلافة أبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما حيث كان النَّبيّ ﷺ قد حماه للخيل[٤] ، وطوله ثمانون كيلو متراً ، ويبدأ جنوب المدينة بـ ٤٠ كيلو متراً[٥] ، وقد كثرت المناطق المحميَّة في خلافة عمر رضي الله عنه لكثرة ما تملكه الدَّولة من الإبل ، والخيل المعدَّة للجهاد ، ومن ذلك حمى الرَّبذة لنعَم الزَّكاة ، وعيَّن عليه مولاه هنيَّ ، وأوصاه بالسَّماح لأصحاب الإبل القليلة بالرَّعي فيه دون الأغنياء ، وحمى أرضاً في ديار بني ثعلبة رغم احتجاجهم على ذلك ، فقد أجابهم : البلادُ بلاد الله تحمى لنَعَم مال الله[٦] .

ونهج عثمان نهج من سبقه في الحمى بسبب اتِّساع الدَّولة ، وازدياد الفتوحات في عهده ، وقد اقتصر في الحمى على صدقات المسلمين لحمايتها ، وعلى هذا فإنَّ عثمان رضي الله عنه زاد في الحمى لمَّا زادت الرَّعيَّة ، وإذا جاز أصله للحاجة إليه ؛ جازت الزِّيادة لزيادة الحاجة[٧] .

ولما كان أبو بكر وعمر قد حميا دون أن ينكر عليهم أحدٌ ذلك ، فإنَّ عثمان وسَّع الحمى لكثرة إبل الصَّدقة ، وماشيتها ، وكثرة الخصومات بين رعاة ماشية الصَّدقة ، فلا اعتراض ع

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٢٤) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٢٥) .

(٣) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١١٨) .

(٤) صحيح سنن أبي داود للألباني (٢/ ٥٩٥) .

(٥) عصر الخلافة الرَّاشدة ، ص(٢٢٥ ، ٢٢٦) .

(٦) الطَّبقات (٣/ ٣٢٦) والأثر صحيحٌ .

(٧) نظام الخلافة في الفكر الإسلاميِّ ، د . مصطفى حلمي ، ص(٧٨) .

فعله[١] ، بل ما فعله أبو بكر ، وعمر ، وعثمان في الحمى قد اشتُهر بين الصَّحابة ، فلم ينكر عليهم منكرٌ ، ويعتبر ذلك إجماعاً[٢] ، وقد حكى الإجماع ابن قدامة[٣] .

ثامناً : أنواع النفقات العامَّة في عهد عثمان :

١ـ نفقات الخليفة :

كان عثمان رضي الله عنه لا يأخذ من بيت مال المسلمين شيئاً ، فقد كان أكثر قريش مالاً وأجدَّهم في التِّجارة ، فكان ينفق على أهله ، وَمَنْ حوله من ماله الخاصِّ .

٢ـ صرف مرتبات الولاة من بيت المال :

في عهد عثمان رضي الله عنه كانت الدَّولة الإسلاميَّة مقسَّمةً إلى ولايات ، وكان على كلِّ ولاية والٍ يعيِّنه الخليفة ، يأخذ مرتَّبه من بيت المال ، ويدير شؤون الولاية طبقاً لأحكام الشَّريعة الإسلاميَّة ، وإذا لم يعيِّن الخليفة ممثِّلاً له على بيت مال الولاية ، فإنَّه يدخل في اختصاص الوالي الإشراف على جباية موارد الولاية ، وهي : الجزية ، والخراج ، وعشور التِّجارة ، ينفق منها على شؤون الولاية ، والفائض يرسله إلى بيت مال المسلمين في المدينة ، أمَّا الزَّكاة الَّتي تحصل من أغنياء الولاية ، فكانت تصرف على فقرائهم[٤] .

٣ـ الإنفاق من بيت المال على مرتبات الجند :

كان بيت المال يدفع مرتبات للجند علاوة على ما يحصلون عليه من نصيب في الغنائم ، وكان جند كل ولاية يحصلون على مرتباتهم من بيت مال الولاية ، فمثلاً بالنسبة لجند مصر كتب عثمان بن عفَّان إلى عبد الله بن سعد والي مصر الكتاب التالي لصرف مرتبات الجند المرابطين في الإسكندرية : قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية وقد نقضت الروم مرتين ، فألزم الإسكندرية رابطتها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم في كل ستة أشهر[٥] .

٤ـ الإنفاق العام على الحجِّ من بيت المال :

كان الإنفاق العامُّ على الحجِّ في عهد عثمان رضي الله عنه من بيت المال ، وكانت كسوة الكعبة من القباطيِّ وهي ثيابٌ من كتَّان من نسيج مصر[٦] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .
(٢) نظام الأراضي في صدر الدَّولة الإسلاميَّة ، ص(١٦٩) .
(٣) المغني (٥/ ٥٨١) .
(٤) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١٣٠) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٤٠) .
(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٤٠ ، ١٤١) .

٥ـ تمويل إعادة بناء المسجد النَّبويِّ من بيت المال :

كلَّم النَّاسُ عثمان بن عفَّان أوَّل ما تولى الخلافة أن يزيد في مسجد الرَّسول ﷺ ؛ إذْ كان يضيق بالنَّاس في صلاة الجمعة بسبب امتداد الفتح ، وزيادة سكَّان المدينة زيادةً عظيمة ، فاستشار عثمان أهل الرَّأي ، فأجمعوا على هدم المسجد ، وبنائه ، وتوسيعه ، فصلَّى عثمان الظُّهر بالنَّاس ، ثمَّ صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال : أيُّها النَّاس ! إنِّي قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله ﷺ ، وأزيد فيه ، وأشهد أنِّي سمعت رسول الله يقول : « من بنى مسجداً ، بنى الله له بيتاً في الجنَّة »[1] وكان لي فيه سلفٌ ، وإمامٌ سبقني ، وتقدَّمني عمر بن الخطَّاب ، كان قد زاد فيه ، وبناه ، وقد شاورت أهل الرَّأي من أصحاب رسول الله ، فأجمعوا على هدمه ، وبنائه ، وتوسيعه ، فحسن النَّاس يومئذٍ ذلك ، ودعوا له ، فأصبح ، فدعا العمَّال ، وباشر ذلك بنفسه[2] .

٦ـ تمويل توسعة المسجد الحرام من بيت المال :

كانت الكعبة أيَّام الرَّسول ﷺ قائمة ، وليس حولها إلا فناء ضيِّقٌ يصلِّي النَّاس فيه ، وظلَّ كذلك في خلافة أبي بكرٍ ، وفي عهد عمر وسَّع المسجد ، فاشترى دوراً حول الكعبة ، وهدمها ، وأدخلها في بيت الله الحرام ، وأحاطها بجدارٍ قصيرٍ ، وأدخل إنارة المسجد ليلاً ، وذلك لأنَّ المسجد كان قد ضاق بالحجَّاج الَّذين يأتون لأداء فريضة الحجِّ بعد أن امتدَّت فتوحات الإسلام ، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً ، فلمَّا ضاق المسجد ثانيةً في عهد عثمان ؛ احتذى بمثل عمر ، وأضاف إلى الكعبة دوراً اشتراها ، وأحاطها بجدارٍ قصيرٍ لا يرتفع إلى قامة الرَّجل كما فعل عمر من قبل[3] .

كما كان الولاة يبنون المساجد في ولايتهم ، وينفقون عليها من بيت مال الولاية ، كما حدث عند بناء مسجد الرَّحمة بالإسكندرية ، ومسجد في إصطخر في فتوحات المشرق[4] .

٧ ـ الإنفاق على إنشاء أوَّل أسطولٍ بحريٍّ :

ساهم بيت مال المسلمين في إنشاء أوَّل أسطول بحريٍّ في الإسلام في عهد عثمان ، وسيأتي دور هذا الأسطول في الفتوحات الإسلاميَّة بإذن الله تعالى عند حديثنا عن الفتوحات[5] .

---

(١) المسند رقم (٤٣٤) إسناده صحيحٌ .

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٦٠) . وتاريخ الطبري (٥/ ٢٦٧) .

(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٢٥٠) . وذو النُّورين ، محمَّد رضا ، ص(٢٥) .

(٤) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١٤٧ ، ١٤٨) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٤٨) .

٨ ـ الإنفاق على تحويل السَّاحل من الشُّعيبة إلى جدَّة :

في سنة ستٍّ وعشرين هجريَّةٍ كلَّم أهل مكَّة عثمان رضي الله عنه أن يحوِّل السَّاحل من الشُّعيبة ، وهي ساحل مكَّة قديماً في الجاهليَّة ، إلى ساحلها اليوم وهي جدَّة لقربها من مكَّة ، فخرج عثمان إلى جدَّة ، ورأى موضعها ، وأمر بتحويل السَّاحل إليها ، ودخل البحر ، واغتسل فيه ، وقال : إنَّه مباركٌ ، وقال لمن معه : ادخلوا البحر للاغتسال ، ولا يدخل أحد إلا بمئزرٍ ، ثمَّ خرج من جدَّة من طريق عسفان إلى المدينة ، وترك النَّاس ساحل الشُّعيبة في ذلك الزَّمان ، واستمرَّت جدة بندراً إلى الآن لمكَّة المشرَّفة[١] .

٩ـ تمويل حفر الآبار من بيت مال المسلمين :

ومن الأعمال الّتي موَّلها بيت مال المسلمين في عهد عثمان حفر بئرٍ للشُّرب بالمدينة ، وتسمى بئر أريس ، وهي على ميلين من المدينة وكان ذلك في سنة ثلاثين هجريّة ، وحدث أن قعد عثمان على رأس البئر ، وكان بأصبعه خاتم رسول الله فانسلَّ الخاتم من أصبعه ، فوقع في البئر ، فطلبوه في البئر ، ونزحوا ما فيها من الماء فلم يقدروا عليه ، فجعل فيه مالاً عظيماً لمن جاء به ، واغتمَّ لذلك غمّاً شديداً ، فلمَّا يئس من العثور على الخاتم صنع خاتماً آخر مثله من فضَّةٍ على مثاله ، وشبهه ونقش عليه (محمَّد رسول الله) فجعله في أصبعه حتَّى قتل ، فلمَّا قتل ذهب الخاتم من يده ، فلم يُدْرَ من أخذه[٢] .

١٠ ـ الإنفاق على المؤذِّنين من بيت المال :

كان عثمان رضي الله عنه أوَّل من رزق المؤذنين من بيت المال ، قال الإمام الشَّافعيُّ : (قد أرزق المؤذِّنين إمام هدى عثمان بن عفَّان)[٣] ، وقد جعل عثمان رضي الله عنه على الأذان جعالةً ، ولا يستأجر استئجاراً[٤] .

١١ـ تمويل أهداف الإسلام العليا :

يتَّضح من دراسة النَّفقات العامَّة السَّابقة من بيت المال : أنَّها ساهمت في تمويل الأهداف العليا للدَّولة الإسلاميَّة ، فضلاً عن الإنفاق العامِّ على إدارة الدَّولة ، ومصالح الرَّعية ، ثمَّ الإنفاق على نشر الإسلام كي تكون كلمة الله هي العليا . وتمَّ تمويل إنشاء أوَّل أسطولٍ بحريٍّ للدولة الإسلاميَّة ، كما تمَّ تعمير بيوت الله بالإنفاق على إقامة المساجد ، وتجديدها ، ورزق

---

(١) ذو النُّورين عثمان بن عفّان ، محمَّد رضا ، ص (٢٦) .

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٦١) . وتاريخ الطبري (٥/ ٢٨٤) .

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١٤) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

المؤذِّنين ، والولاة ، والقضاة ، والجند ، وعمَّال الدَّولة ، كما تمَّ الصَّرف على رحلات الحجّ إلى بيت الله الحرام، وكسوة الكعبة، وهي قبلة الإسلام والمسلمين، كما أنَّ بيت مال المسلمين قدَّم أمواله لحفر الآبار ؛ ليشرب منها الغادي ، والرَّائح من مواطني الدَّولة الإسلاميَّة .

ومن مصادر الدَّولة كالزَّكاة ، وخمس الغنائم ، تمَّ تمويل شرائح المجتمع الضَّعيفة في الدَّولة الإسلاميَّة ، وهم الفقراء ، والمساكين ، واليتامى ، ومساندة الغرباء ، وأبناء السَّبيل ، وفكِّ الرِّقاب[١] .

تاسعاً : استمرار نظام الأعطيات في عهد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه :

استمرَّ نظام الأعطيات في عهد عثمان رضي الله عنه كما كان في عهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، فقد اعتمد السَّابقة في الدِّين أساساً للعطاء ، وكتب بذلك لواليه على الكوفة بقوله : أمَّا بعد : ففضِّل أهل السَّابقة ، والقدمة ممَّن فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحقِّ ، وتركوا القيام به ، وقام به هؤلاء ، واحفظ لكلٍّ منزلته ، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحقِّ ، فإنَّ المعرفة بالنَّاس بها يصاب العدل[٢] .

وحين اتَّسعت الفتوحات الإسلاميَّة في عهده ، كثرت موارد الدَّولة الماليَّة ممَّا أدى بالخليفة عثمان رضي الله عنه أن يتَّخذ له الخزائن[٣] ، فانعكس ذلك بدوره على العطاء ، فزاد في أرزاق الجند بمقدار مئة درهم لكلٍّ منهم ، فهو أوَّل خليفة زاد النَّاس في العطاء ، واستنَّ به الخلفاء من بعده في الزِّيادة[٤] .

قال الحسن : وشهدت منادي عثمان ينادي : يا أيُّها الناس ! اغدوا على كسوتكم ، فيأخذون الحلل ، واغدوا على السَّمن والعسل ، قال الحسن : أرزاقٌ دارَّةٌ ، وخيرٌ كثيرٌ ، وذاتُ بينٍ حسنة ، ما على الأرض مؤمنٌ يخاف مؤمناً إلا يودُّه ، وينصره ، ويألفه[٥] .

واهتمَّ الخليفة عثمان بأمر الثغور والمرابطة فيها فكان يأمر قادته بإجراء الأرزاق ، والعطاء ، ومضاعفته للجند المرابطين[٦] .

---

(١) السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، ص (١٥٠) .

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٢٨٠) .

(٣) الإدارة العسكرية في الدَّولة الإسلاميَّة (٢/ ٣٦ ـ ٦٨) . والنُّجوم الزَّاهرة (١/ ٨٧) .

(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٢٤٥) .

(٥) مجمع الزَّوائد (٩/ ٩٣ ، ٩٤) . وفصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص(٥٢) .

(٦) فتوح مصر ، ص(١٩٢) . وفتوح البلدان للبلاذري (١/ ١٥٢ ، ١٥٧) .

عاشراً : تدفُّق الأموال على الحياة الاجتماعيّة ، والاقتصادية :

في عهد عثمان كثر الخراج ، وأتاه المال من كلِّ وجه ، فاتَّخذ له الخزائن ، وأثَّر ذلك بدوره في الأثر الاقتصاديِّ ، والاجتماعيِّ ، فعن أبي إسحاق ، أنَّ جدَّه مرَّ على عثمان ، فقال له : كم معك من عيالك يا شيخ ؟ ! قال : معي كذا ، قال : قد فرضنا لك في خمس عشرة ـ يعني : ألفاً وخمسمئةٍ ـ وفرضنا لعيالك مئة ، مئة[١] ، وعن محمَّد بن هلال المديني ، قال : حدَّثني أبي عن جدَّتي : أنها كانت تدخل على عثمان ، فافتقدها يوماً ، فقال لأهله : ما لي لا أرى فلانة ؟ فقالت امرأته : يا أمير المؤمنين ! ولدت اللَّيلة غلاماً ، فقالت : فأرسل إليَّ بخمسين درهماً ، وشقيقة سنبلانيَّة ، ثمَّ قال : هذا عطاء ابنك ، وهذه كسوته ، فإذا مرَّت به سنةٌ ، رفعناه إلى مئة[٢] ، كما وسَّع رضي الله عنه على عيال أهل العوالي بالمدينة المنوَّرة في القوت ، والكسوة[٣] ، وحين قام القائد قطن بن عمرو الهلالي بإعطاء الجيش الّذي برفقته وعدده أربعة آلاف جندي أربعة آلاف درهم كتشجيع لهم ، استكثر ذلك والي البصرة عبد الله بن عامر ، وكتب بالخبر إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه فأجازها ، وقال : ما كان معونةً في سبيل الله ، فجائز . فصارت الجائزة اسماً للعطيَّة[٤] .

وقام عثمان بتوريث عطاء الجنديِّ الإسلاميِّ لورثته من بناته ، وزوجاته ، فقد قال الزُّبير بن العوَّام للخليفة عثمان بعدما مات عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أعطني عطاء عبد الله ، فعيال عبد الله أحقُّ به من بيت المال ، فأعطاه خمسة عشر ألفاً[٥] .

هذا ونشطت الحركة الزِّراعيَّة ، والصِّناعيَّة ، والتِّجاريّة في عهد الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفَّان ، وبسبب ما منَّ الله به على المسلمين من فتوحٍ ؛ أصبح أهل المدينة خاصَّةً ، والمسلمون عامَّةً في نعمةٍ ، ويسارٍ ، وكان يقترن بهذا الثَّراء ضروبٌ واسعةٌ من الحضارة لم تعرفها الجزيرة العربيَّة قبل الفتوحات الكبيرة ، لقد اطَّلع المسلمون على ما عند الأمم الأجنبيَّة ، واقتبسوا منهم ، وبدأ هذا الاقتباس يتَّسع في خلافة عثمان ، فبنى بعض الصَّحابة الدُّور ، والمنازل الكبيرة ، وساهم الأجانب الّذين سُبُوا في الفتوح في تطوير الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة[٦] .

---

(١) الإدارة العسكرية (٢/ ٧٦٨) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٧٦٩) .

(٣) الطَّبقات (٣/ ٢٩٨) .

(٤) الأوائل ، للعسكري (٢/ ٢٦ ، ٢٧) .

(٥) الإدارة العسكريَّة (٢/ ٧٧٠) .

(٦) الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، د . وضاح الصَّمد ، ص(١١٤) .

الحادية عشرة : عثمان ، وأقاربه ، والعطاء من بيت المال :

اتُّهم عثمان رضي الله عنه من قبل الغوغاء ، والخوارج بإسرافه في بيت المال ، وإعطائه أكثره لأقاربه ، وقد ساند هذا الاتِّهام حملةٌ دعائيَّةٌ باطلةٌ قادها أعداء الإسلام ضدَّه ، وتسرَّبت في كتب التَّاريخ ، وتعامل معها بعض المفكِّرين ، والمؤرِّخين على كونها حقائق ، وهي باطلةٌ ، لم تثبت ؛ لأنَّها مختلقةٌ ، والَّذي ثبت من إعطائه أقاربه أمورٌ تعدُّ من مناقبه ، لا من المثالب فيه :

١ ـ إنَّ عثمان رضي الله عنه كان ذا ثروةٍ عظيمةٍ ، وكان وصولاً للرَّحم[١] يصلهم بصلاتٍ وفيرةٍ ، فنقم عليه أولئك الأشرار ، وقالوا بأنَّه إنَّما كان يصلهم من بيت المال ، وعثمان قد أجاب عن موقفه هذا بقوله : وقالوا : إنِّي أحبُّ أهل بيتي ، وأعطيهم . . فأمَّا حبِّي لهم ؛ فإنَّه لم يمل معهم إلى جورٍ ، بل أحمل الحقوق عليهم . . . وأمَّا إعطاؤهم ؛ فإنِّي إنَّما أعطيهم من مالي ، ولا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحدٍ من النَّاس ، وقد كنت أعطي العطيَّة الكبيرة الرَّعية من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ ، وأبي بكرٍ ، وعمر ، وأنا يومئذٍ شحيحٌ حريصٌ ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي[٢] ، وفني عمري ، وودَّعت الَّذي لي في أهلي ؛ قال الملحدون ما قالوا ؟ ![٣] .

وكان عثمان قد قسم ماله ، وأرضه في بني أميَّة ، وجعل ولده كبعض مَنْ يعطي ، فبدأ ببني أبي العاص ، فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف ، فأخذوا مئة ألف ، وأعطى بني عثمان مثل ذلك ، وقسم في بني العاص ، وفي بني العيص ، وفي بني حرب[٤] ، فهذه النُّصوص ، وغيرها ممَّا اشتُهر عنه ، وما صحَّ من الأحاديث في فضائله الجمَّة تدلُّ على أنَّ كلَّ ما قيل فيه من إسرافه في بيت المال ، وإنفاق أكثره على نفسه ، وأقاربه ، وقصوره حكاياتٌ بدون زمامٍ ، ولا خطامٍ . ومع براءة عثمان ممَّا نُسب إليه ، إلا أنَّ بعض العلماء ذهبوا إلى أنَّ سهم ذوي القربى هو لقرابة الإمام[٥] .

قال تقيُّ الدِّين ابن تيميَّة : إنَّ سهم ذوي القربى ذهب بعض الفقهاء إلى أنَّه لقرابة الإمام ، كما قال الحسن ، وأبو ثور ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يعطي أقاربه بحكم الولاية ، فذوي القربى في حياة النَّبيِّ ﷺ ذوي قرباه ، وبعد موته هم ذوي قربى مَنْ يتولى الأمر بعده ، وذلك لأنَّ نصر وليِّ

---

(١) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص(٨٢) .

(٢) جاوزت أعمارهم .

(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٣٥٦) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

(٥) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص(٨٣) .

الأمر ، والذَّبَّ عنه متعيِّن ، وأقاربه ينصرونه ، ويذبُّون عنه ما لا يفعله غيرهم ، وقال : وبالجملة ؛ فعامَّة مَنْ تولَّى الأمر بعد عمر كان يخصُّ بعض أقاربه إمَّا بالولاية ، أو بمالٍ[١] .

وقال : إنَّ ما فعله عثمان في المال له ثلاثة مآخذ : أحدها : أنَّه عاملٌ عليه ، والعامل يستحقُّ مع الغنى ، والثَّاني : أنَّ ذوي القربى هم ذوو قربى الإمام ، والثَّالث : أنَّ قرابة عثمان كانوا قبيلة كبيرةً كثيرةً ليسوا مثل قبيلة أبي بكرٍ ، وعمر ، فكان يحتاج إلى إعطائهم ، وولايتهم أكثر من حاجة أبي بكرٍ ، وعمر إلى تولية أقاربهما ، وإعطائهم . . . وهذا ممَّا نقل عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه الاحتجاج به[٢] .

٢ـ جاء في تاريخ الطَّبري : أنَّ عثمان لمَّا أمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالزَّحف من مصر على تونس لفتحها ؛ قال له : إن فتح الله عليك بإفريقية ؛ فلك ممَّا أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً ، فخرج بجيشه حتَّى قطعوا أرض مصر ، وأوغلوا في أرض إفريقية ، وفتحوها ، وسهلها ، وجبالها ، وقسَّم عبد الله على الجند ما أفاء الله عليهم ، وأخذ خمس الخمس ، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان مع ابن وثيمة النَّضري ، فشكا وفدٌ ممَّن كان معه إلى عثمان ما أخذه عبد الله ، فقال لهم عثمان : إنَّما أمرت له بذلك ، فإن سخطتم ؛ فهو ردٌّ . قالوا : إنَّا نسخطه . فأمر عثمان عبد الله أن يردَّه ، فردَّه[٣] . وقد ثبت في السُّنَّة تنفيل أهل الغناء ، والبأس في الجهاد[٤] .

٣ـ وكان قد بقي من الأخماس والحيوان ـ في فتح إفريقية ـ ما يشقُّ حمله إلى المدينة ، فاشتراه مروان بمئة ألف درهمٍ ، ونقد أكثرها ، وبقيت منه بقيَّة ، وسبق إلى عثمان مبشِّراً بالفتح ، وكانت قلوب المسلمين في غاية القلق خائفةً من أن يصيب المسلمين نكبةٌ من أمر إفريقية ، فوهب له عثمان ما بقي جزاء بشارته ، وللإمام أن يعطي البشير ما يراه لائقاً بتعبه ، وخطر بشارته ، هذا هو الثَّابت في عطيَّة عثمان لمروان ، وما ذكروه من إعطائه خمس إفريقية ، فكذبٌ[٥] ، لقد كان عثمان رضي الله عنه شديد الحبِّ لأقاربه ، ولكن ذلك لم يمل به إلى غشيان محرَّم ، أو إساءة السِّيرة ، والسِّياسة في أمور المال ، أو غيرها ، وإنَّما دُسَّت في كتب التاريخ أكاذيبُ باطلةٌ ، كان خلفها الدِّعاية السَّبئيَّة والشِّيعيَّة الإماميَّة الظَّالمة ضدَّ عثمان ، رضي الله عنه .

---

(١) منهاج السُّنَّة (٣/ ١٨٧ ، ١٨٨) .

(٢) منهاج السُّنَّة (٣/ ٢٣٧) . والدَّولة الأمويَّة ، لحمدي شاهين ، ص(١٦٣) .

(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٢٥٣) .

(٤) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص(٨٤) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

إنَّ سيرة عثمان رضي الله عنه في أقاربه تمثِّل جانباً من جوانب الإسلام الكريمة الرَّحيمة ؛ لقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى : ٢٣] ، وقوله جلَّ ثناؤه : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٦] .

كما أنَّها تمثِّل جانباً عمليّاً من سيرة المصطفى ﷺ فقد رأى من رسول الله ﷺ وعلم من حاله ما لم ير ، أو يعلم غيره من منتقديه ، وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة النَّاس ، وكان ممَّا رأى شدَّة حبِّ رسول الله ﷺ لأقاربه وبرِّه بهم ، وإحسانه إليهم ، وقد أعطى عمَّه العبَّاس ما لم يعط أحداً عندما ورد عليه مال البحرين[١] ، وولَّى عليّاً ، وهو ابن عمِّه ، وصهره ، ولعثمان ، وسائر المؤمنين في رسول الله ﷺ أعظم القدوة[٢] .

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ : وقد كان عثمان رضي الله عنه كريم الأخلاق ذا حياءٍ كثيرٍ ، وكرمٍ غزير ، يؤثر أهله ، وأقاربه في الله ، تأليفاً لقلوبهم من متاع الدُّنيا الفاني لعلَّه يرغِّبهم في إيثار ما يبقى على ما يفنى ، كما كان النَّبيُّ ﷺ يعطي أقواماً ، ويدع آخرين إلى ما جُعل في قلوبهم من الهدى ، والإيمان ، وقد تعنَّت عليه بسبب هذه الخصلة أقوامٌ كما تعنَّت بعض الخوارج على رسول الله ﷺ في الإيثار[٣] ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : بينما رسول الله ﷺ يقسم غنيمة بالجعرانة[٤] ؛ إذ قال له رجلٌ : اعدل . قال : « شقيت إن لم أعدل »[٥] .

ويحتجُّ عثمان رضي الله عنه لبرِّه أهلِ بيته ، وقرابته مخاطباً مجلس الشُّورى بقوله : أنا أخبركم عنِّي وعمَّا ولِّيت ، إنَّ صاحبيَّ اللَّذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ، ومن كان منهما سبيل احتساباً ، وإنَّ رسول الله ﷺ كان يعطي قرابته ، وأنا في رهط أهل عيلةٍ وقلَّة معاشٍ ، فبسطت يدي في شيءٍ من ذلك لما أقوم به فيه ، فإن رأيتم ذلك خطأً ، فردُّوه[٦] .

وقد ردَّ ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ على من اتَّهم عثمان بتفضيله أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال ، فقال : وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتَّى إنَّه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوَّجهم بناته أربعمئة ألف دينار ، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار ـ مليون دينار ـ فالجواب يقال : أين النَّقل الثابت بهذا ؟

---

(١) البخاريُّ ، كتاب الجزية .

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٢٠١) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) ماءٌ بين الطَّائف ومكَّة . وهي إلى مكَّة أقرب .

(٥) البخاريُّ ، كتاب فرض الخمس .

(٦) الطَّبقات الكبرى (٣/ ١٩٠) .

نعم كان يعطي أقاربه ، ويعطي غير أقاربه أيضاً ، وكان يحسن إلى جميع المسلمين ، وأمَّا هذا القدر الكثير فيحتاج إلى نقلٍ ثابتٍ ، ثمَّ يقال ثانياً : هذا من الكذب البيِّن ، فإنَّه لا عثمان ، ولا غيره من الخلفاء الرَّاشدين أعطوا أحداً ما يقارب هذا المبلغ[١] .

* * *

(١) منهاج السُّنَّة (٣/ ١٩٠) .

المبحث الثَّاني

المؤسَّسة القضائيَّة وبعض الاجتهادات الفقهيَّة

يعتبر عهد ذي النُّورين امتداداً للعهد الرَّاشدي الّذي تتجلَّى أهميَّته بصلته بالعهد النَّبويِّ ، وقربه منه ، فكان العهد الرَّاشديُّ عامَّةً ، والجانب القضائيُّ فيه خاصَّة امتداداً للقضاء في العهد النَّبويِّ ، مع المحافظة الكاملة ، والتَّامة على جميع ما ثبت في العهد النَّبويِّ ، وتطبيقه بحذافيره ، وتنفيذه بنصِّه ومعناه ، وتظهر أهمِّيَّة العهد الرَّاشديِّ في القضاء بأمرين أساسيين :

* المحافظة على نصوص العهد النَّبويِّ في القضاء ، والتَّقيد بما جاء فيه ، والسَّير في ركابه ، والاستمرار في الالتزام به .

* وضع التنظيمات القضائيَّة الجديدة لترسيخ دعائم الدَّولة الإسلاميَّة الواسعة ، ومواجهة المستجدَّات المتنوِّعة[1] .

استطاع الفاروق بتوفيق الله ، ثمَّ عبقريته الفذَّة أن يطوِّر مؤسَّسة القضاء للدَّولة الإسلاميَّة ، وأصبحت لها قواعد ، ونظم ، استفاد منها الخليفة الرَّاشد عثمان رضي الله عنه في تعيين القضاة ، وأرزاقهم ، واختصاصهم القضائيِّ ، ومعرفة صفات القاضي ، وما يجب عليه ، ومصادر الأحكام القضائيَّة ، والأدلَّة الّتي يعتمد عليها القضاة ، كما أنَّه أصبحت هناك سوابق قضائيَّة من الصِّدِّيق ، والفاروق استفاد منها القضاة في عهد عثمان رضي الله عنه .

عندما تولَّى عثمان رضي الله عنه الخلافة كان على قضاء المدينة يومئذٍ : عليُّ ابن أبي طالبٍ ، وزيد بن ثابتٍ ، والسَّائب بن يزيد ، رضي الله عنهم . ويذكر بعض الباحثين : أنَّ عثمان لم يترك لأحدٍ من هؤلاء القضاة الاستقلال بالفصل في قضيَّةٍ من القضايا ، كما كان الحال في عهد عمر ، رضي الله عنه ، بل كان ينظر في الخصومات بنفسه ، ويستشير هؤلاء ، وغيرهم من الصَّحابة فيما يحكم به ، فإن وافق رأيهم رأيه ؛ أمضاه ، وإن لم يوافق رأيهم رأيه ؛ نظر في الأمر بعد ذلك ، وهذا يعني : أن عثمان رضي الله عنه قد أعفى القضاة الثلاثة في المدينة من ولاية القضاء ، وأبقاهم مستشارين له في كلِّ شجارٍ يرفع إليه مع استشارة آخرين . ويرى بعضهم : أنَّه لم يثبت نصٌّ صريحٌ يفيد الإعفاء ، وغاية ما ورد في ذلك يدلُّ على أنَّ عثمان

(١) تاريخ القضاء في الإسلام ، للزُّحيلي ، ص(٨٣ ، ٨٤) .

رضي الله عنه قد أقرَّ قضاة عمر بالمدينة ، ولكنَّه تحمَّل عنهم النظر في كثير من القضايا الكبيرة مع استشارتهم فيها . ومنشأ هذا الخلاف تعارض الرِّوايات الواردة في ذلك :

* روى البيهقيُّ في سننه ، ووكيعٌ في أخبار القضاة ـ واللفظ له ـ عن عبد الرَّحمن بن سعيدٍ ، قال : أخبرني جدِّي ، قال : رأيت عثمان بن عفَّان في المسجد إذا جاءه الخصمان ؛ قال لهذا : اذهب فادع عليّاً ، وللآخر : اذهب فادع طلحة بن عبيد الله ، والزُّبير ، وعبد الرَّحمن ، فجاؤوا ، فجلسوا ، فقال لهما : تكلَّما ، ثمَّ يقبل عليهم ، فيقول : أشيروا عليَّ ، فإن قالوا ما يوافق رأيه ؛ أمضاه عليهما ، وإلا نظر ، فيقومون مسلِّمين ، ولا يعلم : أنَّ عثمان بن عفَّان استعمل قاضياً بالمدينة ، إلى أن قتل ، رضي الله عنه .

* جاء في تاريخ الطَّبري عند الحديث على أعمال عثمان : وكان على قضاء عثمان يومئذٍ زيد بن ثابت ، وهذا يشعر بأنَّ عثمان أبقى زيداً على ولاية القضاء ، ويستلزم الإذن له بالفصل في الخصومات. وما دام الجمع بين النَّصين ممكناً؛ فإنَّ الأخذ به أولى من الأخذ بأحد النَّصَّين في غير المرجَّح، ويجمع بين النَّصين بأنَّ عثمان أبقى قضاة المدينة للفصل في بعض الخصومات، ولكن بعضها الآخر من معضلات القضايا جعله خاصّاً به، مع استشارة أصحابه فيها، ومنهم قضاته[(١)] .

وكان عثمان رضي الله عنه يعيِّن القضاة على الأقاليم حيناً ، مثل تعيينه كعب بن سور على قضاء البصرة ، ويترك القضاء للوالي حيناً آخر مثل طلبه من واليه على البصرة أن يقوم بالقضاء بين النَّاس إضافةً إلى عمل الولاية ، وذلك بعد عزل كعب ابن سور ، وكذلك كان يعلى بن أميَّة والياً وقاضياً على صنعاء[(٢)] ، ويلاحظ : أنَّ بعض الولاة كانوا يختارون قضاة بلدانهم بأنفسهم ، ويكونون مسؤولين أمامهم ، ممَّا يشير إلى ازدياد نفوذ الولاة في خلافته من القضاة[(٣)] .

والمأثور عن عثمان كتبه ورسائله إلى أمراء الأمصار ، وإلى أمراء الأجناد بالثُّغور ، وإلى عامَّة المسلمين ، وهذا يدعو إلى غلبة الظَّنِّ بأنَّه جعل القضاء من اختصاص الولاة ، يتولونه بأنفسهم ، أو يعيِّنون له من يستطيع القيام به[(٤)] ، ففي الوقت الَّذي نجد فيه مراسلاتٍ كثيرةً بين عمر وقضاة الأمصار ، نجد ندرةً في المراسلات في عهد عثمان بينه وبين أولئك القضاة[(٥)] .

● ابن عمر يعتذر عن القضاء :

قال عثمان لابن عمر : اقضِ بين النَّاس . فقال : لا أقضي بين اثنين ، ولا أؤُمُّ رجلين ، أما

---

(١) النظم الإسلاميَّة (١/ ٣٧٨) وقائع ندوة أبو ظبي (١٤٠٥) هـ .
(٢) عصر الخلافة الرَّاشدة ، ص(١٤٣) .
(٣) النُّظم الإسلاميَّة (١/ ٣٧٨) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) الولاية على البلدان (٢/ ٩٢) .

سمعت النَّبيّ ﷺ يقول : « من عاذ بالله ، فقد عاذ بمعاذ ؟ » قال عثمان : بلى ! قال : فإنِّي أعوذ بالله أن تستعملني ! فأعفاه ، وقال : لا تُخبر بهذا أحداً[١] .

● دار القضاء :

تذكر بعض كتب التاريخ : أنَّ من مآثر ذي النُّورين اتِّخاذه داراً للقضاء ، كما يظهر ذلك من روايةٍ رواها ابن عساكر عن أبي صالح مولى العبَّاس ، قال : أرسلني العبَّاس إلى عثمان أدعوه ، فأتيته في دار القضاء . . . إلى آخر الحديث ، فإذا صحَّ ؛ فيكون عثمان هو أوَّل من اتَّخذ في الإسلام داراً للقضاء ، وقد كان الخليفتان قبله يجلسان للقضاء في المسجد ، كما هو مشهور[٢] .

● أشهر القضاة في خلافة عثمان :

١ ـ زيد بن ثابت (المدينة) .

٢ ـ أبو الدَّرداء (دمشق) .

٣ ـ كعب بن سور (البصرة) .

٤ ـ أبو موسى الأشعريُّ (البصرة بالإضافة إلى ولايته) .

٥ ـ شريح (الكوفة) .

٦ ـ يعلى بن أميَّة (اليمن) .

٧ ـ ثمامة (صنعاء) .

٨ ـ عثمان بن قيس بن أبي العاص (مصر)[٣] .

هذا وقد ترك الخليفة الرَّاشد أحكاماً فقهيَّةً في مجال القصاص ، والجنايات ، والحدود ، والتَّعزير ، والعبادات ، والمعاملات كان لها الأثر الواضح في المدارس الفقهيَّة الإسلاميَّة ، وهذه بعض الأحكام الَّتي أصدرها عثمان ، أو أفتى بها :

أولاً : فيما يتعلَّق بالقصاص ، والحدود ، والتَّعزير :

١ ـ أوَّل قضيةٍ واجهت عثمان رضي الله عنه قضية قتلٍ :

أوَّل قضيَّةٍ حكم فيها عثمان رضي الله عنه قضية عبيد الله بن عمر ، وذلك أنَّه غدا على ابنة أبي لؤلؤة قاتلِ عمر ، فقتلها ، وضرب رجلاً نصرانيّاً يقال له : جفينة بالسَّيف ، فقتله ، وضرب

---

(١) مسند الإمام أحمد ، رقم (٤٧٥) حسن لغيره .

(٢) أشهر مشاهير الإسلام (٤/ ٧٤٠) .

(٣) عصر الخلافة الرَّاشدة ، ص(١٥٩ ، ١٦٠) .

الهرمزان الّذي كان صاحب تستر ، فقتله ، وكان قد قيل : إنّهما مالأا أبا لؤلؤة على قتل عمر ، فالله أعلم[١] ، وكان عمر قد أمر بسجنه ليحكم فيه الخليفة من بعده ، فلمّا ولّي عثمان ، وجلس للناس كان أوّل ما تحوكم إليه في شأن عبيد الله ، فقال عليٌّ : ما من العدل تركه ، وأمر بقتله ، وقال بعض المهاجرين : أيقتل أبوه بالأمس ، ويقتل هو اليوم ؟ ! فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين ! قد برَّأك الله من ذلك ، قضيةٌ لم تكن في أيّامك ، فدعها عنك ! فودى[٢] عثمان رضي الله عنه أولئك القتلى من ماله ؛ لأنَّ أمرهم إليه ؛ إذ لا وارث لهم إلا بيت المال ، والإمام يرى الأصلح في ذلك ، وخلّى سبيل عبيد الله[٣] .

وقد جاءت روايةٌ في الطَّبريِّ تفيد بأنَّ القماذبان بن الهرمزان قد عفا عن عبيد الله ، فعن أبي منصورٍ ، قال : سمعت القماذبان يحدِّث عن قتل أبيه ، قال : كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعضٍ ، فمرَّ فيروز بأبي ، ومعه خنجر له رأسان ، فتناوله منه ، وقال : ما تصنع بهذا في هذه البلاد ؟ فقال : آنس به ، فرآه رجلٌ ، فلمّا أصيب عمر ، قال : رأيت هذا مع الهرمزان ، دفعه إلى فيروز ، فأقبل عبيد الله ، فقتله ، فلمّا ولّي عثمان دعاني ، فأمكنني منه ، ثمَّ قال : يا بني ! هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به منّا ، فاذهب ، فاقتله ، فخرجت به ، وما في الأرض أحدٌ إلا معي ، إلا أنهم يطلبون إليَّ فيه . فقلت لهم : ألي قتلُه ؟ قالوا : نعم ! وسبُّوا عبيد الله . فقلت : أفلكم أن تمنعوه ؟ قالوا : لا ! وسبُّوه . فتركته لله ، ولهم . فاحتملوني ، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرِّجال ، وأكفِّهم[٤] .

ولا يوجد تعارض بين هذه الرِّواية والرِّواية الأخرى الّتي تذكر : أنَّ الخليفة عثمان عفا عن عبيد الله بن عمر وتحمَّل هو الدِّية الشَّرعيَّة لورثة الهرمزان ؛ لأنَّه يوجد في فهم جميع الصَّحابة حقٌّ لابن الهرمزان في القصاص ، وقد استجاب لرجائهم له في العفو على النَّحو السَّالف ذكره ، كما أنَّ عفو الخليفة يرجع إلى سلطة التَّحقيق في الجريمة ، والحكم فيها هو للخليفة ، وليس لابن المقتول ، فيكون عبيد الله قد اعتدى على حقِّ الخليفة ، ومن ثمَّ فرواية العفو منه تنصرف إلى العفو بسبب هذا الحقِّ ، وهذه المخالفة من عبيد الله ، حيث أضاع على الدَّولة أمراً مهمّاً هو معرفة الخلايا الّتي تتَّصل بالجريمة من الجناة ، والأشخاص ، والجهات الّتي كانت خلف هذه المؤامرة ، كما ينصرف العفو من الخليفة إلى مَنْ ليس لهم وليٌّ ، وهم جفينة ، وابنة المجوسيِّ القاتل ، ولا يوجد خلاف في الرِّوايات ، والمصادر التَّاريخيَّة على أنَّ الخنجر الّذي قتل به عمر

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٥٤) .

(٢) ودى : دفع دية القتلى .

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٥٤) .

(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٢٤٣) إسناده لا يصحُّ .

ابن الخطَّاب كان بيد الهرمزان ، وجفينة قبل الحادث ، وقد شاهد ذلك اثنان من الصَّحابة وهما عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، ورواية عبد الرَّحمن بن أبي بكر تفيد : أنَّ القاتل أبا لؤلؤة كان مع هذين الشَّريكين يتناجون ثلاثتهم ، فلمَّا باغتهم ؛ سقط الخنجر من بينهم ، وبعد قتل عمر وجدوا : أنَّه نفس الخنجر الَّذي وصفه الشَّاهدان[١] ، وبالتَّالي فالهرمزان ، وجفينة يستحقان القتل ، أمَّا ابنة أبي لؤلؤة الَّذي قتل نفسه ؛ ليخفي المشتركين معه ، فهذه قتلت خطأ ، ولا يقتل فيها أحدٌ ، وقد رأى عبيد الله : أنَّها من المشاركين في القتل حيث كانت تخفي السِّلاح لأبيها[٢] .

٢ـ قتل اللُّصوص :

إنَّ شباباً من شباب أهل الكوفة ـ في ولاية الوليد بن عقبة ـ نقبوا على ابن الحيْسُمان الخزاعيِّ ، وكاثروه ، فنذر بهم ، فخرج عليهم بالسَّيف ، فلمَّا رأى كثرتهم ؛ استصرخ ، قالوا له : اسكت ! فإنَّما هي ضربةٌ حتَّى نريحك من روعة هذه اللَّيلة ـ وأبو شُريح الخزاعي مشرفٌ عليهم ـ فصاح بهم ، وضربوه ، فقتلوه ، وأحاط النَّاس بهم فأخذوهم ، وفيهم زهير بن جُندب الأزديُّ ، ومورِّع بن أبي مورِّع الأسديُّ ، وشُبيل بن أبي الأزديُّ في عدَّةٍ ، فشهد عليهم أبو شريح ، وابنه : أنَّهم دخلوا عليه ، فمنع بعضهم بعضاً من النَّاس ، فقتله بعضهم ، فكتب فيهم إلى عثمان ، فكتب إليه في قتلهم ، فقتلهم على باب القصر في الرَّحبَة . وقال في ذلك عمر بن عاصم التَّميمي :

لاَ تَـأْكُلُـوا أَبَـداً جِيْـرَانكُـمْ سَـرَفـاً ... أَهْـلَ الـزَّعَـارَةِ فِـي مُلْـكِ ابْـنِ عفَّـانِ

وقال أيضاً :

إنَّ ابْـنَ عفَّـانَ الَّـذي جَـرَّبْتُـمُ ... فَطَـمَ اللُّصُـوصَ بِمُحْكَـمِ الفُـرْقَـانِ
مَـازَالَ يَعْمَـلُ بِـالْكِتَـابِ مُهَيْمِنـاً ... فِـي كُـلِّ عُنُـقٍ مِنْهُـمُ وَبَنَـانِ[٣]

٣ـ رجل قتل تاجراً لماله :

كان ذلك في خلافة عثمان ، وكانت العقوبة : القتل قصاصاً[٤] .

٤ـ عقوبة السَّاحر :

حدث في عهد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه أنَّ جاريةً لحفصة سحرتها ، فاعترفت الجارية

---

(١) الطَّبقات الكبرى (٣/ ٣٥٠ـ٣٥٥) .
(٢) الخلافة والخلفاء الرَّاشدون ، ص(٢١٨ ، ٢١٩) .
(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٢٧٢) .
(٤) عصر الخلافة الرَّاشدة ، ص(١٥٣) .

بذلك ، فأمرت حفصة بها عبد الرَّحمن بن زيدٍ فقتلها ، فأنكر ذلك عليها عثمان ، فقال ابن عمر : ما تنكر على أمِّ المؤمنين من امرأة سحرتها ، واعترفت ؟ فسكت عثمان ، وعثمان لم ينكر على حفصة القتل ، ولكنَّه أنكر عليها الافتئات على حقِّ الإمام في إقامة الحدود ، فإنَّ أمر الحدود إلى الإمام ، وهذا ما يدلُّ عليه قول ابن عمر : ما تنكر على أمِّ المؤمنين من امرأة سحرتها ، واعترفت ؟ يعني : أن القضاء فيها واضحٌ ، وأنَّ استحقاقها القتل لا تدفعه شبهةٌ[١] .

٥ـ جناية الأعمى :

الأعمى قائده كالآلة ، يتحرَّك بأمره ، وهو مع مُجالسه غفلٌ ، يتحرَّك وهو قد يتردَّى في حركته ، أو يتضرَّر ، فلا يتوقع : أنَّه يتحاشىٰ إضرار غيره بحركته ، وهو لا يراه ، ولذلك فإنَّه إذا ما جنى على قائده ، أو مَنْ جالسه دُون قصدٍ ، فجنايته هدرٌ ، قال عثمان بن عفَّان : أيُّما رجلٍ جالس أعمى ، فأصابه الأعمى بشيءٍ ؛ فهو هدرٌ[٢] .

٦ـ جناية المقتتلين على بعضهما :

قد يقع شجار بين الأشخاص ، فيجني كلُّ واحدٍ من المتشاجرين على صاحبه ، فإن حصل شيءٌ من هذا ؛ فالواجب القصاص ؛ لأنَّ هذه الجناية جناية عمدٍ ؛ إذ الظَّاهر : أن كلَّ واحدٍ منهما حريصٌ على أن ينال من صاحبه . قال عثمان بن عفَّان رضي الله عنه : إذا اقتتل المقتتلان ، فما كان بينهما من جراحٍ ، فهو قصاصٌ[٣] .

٧ـ الجناية على الحيوان :

إذا وقعت الجناية على الحيوان ؛ فالواجب بها الضَّمان بالقيمة ، فعن عقبة بن عامرٍ ، قال : قتل رجلٌ في خلافة عثمان بن عفَّان كلباً لصيدٍ لا يعرف مثله في الكلاب ، فقوِّم بثمانمئة درهم ، فألزمه عثمان تلك القيمة ، وأغرم رجلاً ثمن كلبٍ قتله عشرين بعيراً[٤] .

٨ ـ الجناية على الصَّائل :

إذا صال شخصٌ على مال شخصٍ آخر ، أو على نفسه ، أو على عرضه ، فقتله المصول عليه أثناء اعتدائه ، فدمه هدرٌ ، فقد روى ابن حزم في المحلَّى : أنَّ رجلاً رأى مع امرأته رجلاً ، فقتله ، فارتفعوا إلى عثمان ، فأبطل دمه[٥] .

---

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١٦٩ ، ١٧٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٩٩) .
(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص (١٠٠) .
(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص (١٠٢) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٠٣) .

٩ ـ استتابة المرتدِّ وحدُّه :

لا يقام الحدُّ على المرتدِّ حتى يستتاب ثلاثاً ، فإن أصرَّ على ردَّته ؛ قُتِل ، وحدث أنْ أخذ عبد الله بن مسعودٍ بالكوفة رجالاً ارتدُّوا عن الإسلام ، وأخذوا يُنعِشون حديث مسيلمة الكذَّاب ، فكتب فيهم إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان ، فكتب عثمان إليه : أن اعرض عليهم دين الحقِّ ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمَّداً رسول الله ، فمن قبلها وبرئ من مسيلمة ؛ فلا تقتله ، ومن لزم دين مسيلمة ، فاقتله ، فقبله رجالٌ منهم ، فتركوا ، ولزم دين مسيلمة رجالٌ ، فقتلوا[١] .

١٠ ـ إنِّي قتلتُ ، فهل لي من توبةٍ ؟ :

قال رجل لعثمان : يا أمير المؤمنين ! إنِّي قتلت ، فهل لي من توبةٍ ؟ فقرأ عليه عثمان من أوَّل سورة غافر : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [غافر : ١ ـ ٣] ، ثمَّ قال له : اعمل ، ولا تيأس[٢] .

والجدير بالذِّكر ، أنَّ التَّوبة من الآثام إذا ارتكبت في حقِّ العباد لا بدَّ فيها من أداء الحقوق لأصحابها ، أو تنازلهم عنها[٣] .

١١ ـ حد الخمر :

المعروف : أنَّ رسول الله ﷺ قد عاقب الحرَّ إذا شرب الخمر بأربعين جلدةً ، ضربه القوم بالنِّعال ، وأطراف الثِّياب امتهاناً له ، وكذلك أبو بكر ، وكذلك عمر في أوَّل خلافته ، ثمَّ لم يلبث أن زاد العقوبة بمشورةٍ من الصَّحابة إلى ثمانين جلدةً ، لمَّا رأى النَّاس يتحاقرون هذه العقوبة ، ولا يرتدعون بها ، أمَّا عثمان بن عفَّان فقد ثبت عنه : أنَّه جلد الحرَّ أربعين جلدةً ، وثبت عنه : أنَّه جلده ثمانين جلدةً ، ولم يكن ذلك منه عن تشهٍّ ، أو هوى ، ولكنَّه فرَّق بين الشَّاربين ، فلم يعاقب من كان شربه زَلَّةً منه عقوبة مَنْ أدمن شربها ، فجعل عقوبة من كان شربه لها أوَّل مرَّةٍ ، وكانت منه زَلَّةً أربعين جلدةً ، وجعل عقوبة من اعتاد شربها ، ومن أدمن عليها ثمانين جلدةً ، وكأنَّه كان يجعل الأربعين الأولى حدّاً ، والأربعين الثَّانية تعزيراً[٤] .

١٢ ـ إقامة الحد على أخيه من أمِّه : الوليد بن عقبة :

عن حصين بن المنذر ، قال : شهدت عثمان بن عفَّان ، وأتى بالوليد ، فشهد عليه رجلان ، أحدهما حمران : أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنَّه رآه يتقيَّأ ، فقال عثمان : إنَّه لم

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٥٠) .

(٢) سنن البيهقي (٨/ ١٧) .

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص (٩٣) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

يتقيأ حتَّى شربها ، فقال : يا عليُّ ! قُمْ فاجلده ، فقال عليٌّ : قم يا حسن ! فاجلده ، فقال الحسن : ولِّ حارَّها من تولَّى قارَّها[١] ، فكأنَّه وجد عليه ، فقال : يا عبد الله بن جعفر ! قم فاجلده ، فجلده ، وعليٌّ يعدُّ ، حتَّى بلغ أربعين ، قال : أمسك ، ثمَّ قال : جلد النَّبيّ ﷺ أربعين ، وأبو بكرٍ أربعين ، وعمر ثمانين ، وكلٌّ سنَّةٌ ، وهذا أحبُّ إليَّ[٢] . ويؤخذ من هذا الحديث بأنَّ سلف عثمان رضي الله عنه نفذوا هذا الحدَّ ، وبأنَّ للمنفِّذ أو المأمور أن ينيب عنه غيره ، ويؤخذ منه ـ أيضاً ـ قوَّة عثمان في الحقِّ ، وأنَّه لا تأخذه في الله لومة لائم ، فالوليد بن عقبة ابن أبي معيط أخوه لأمِّه[٣] ، وتنفيذ الأحكام الشَّرعية هو أحبُّ أعمال الشُّرْطة[٤] .

١٣ـ سرقة الغلام :

لا يقام حد السَّرقة إلا إذا كان السَّارق بالغاً ، عاقلاً ، مختاراً ، عالماً بالتَّحريم ، وقد أُتِيَ لعثمان بغلامٍ سرق ، فقال : انظروا إلى مؤتزره ، فنظروا ، فلم يجدوه أنبت ، فلم يقطعه[٥] .

١٤ـ الحبس تعزيراً :

استعار ضابي بن الحارث البرجمي في زمان الوليد بن عقبة من قومٍ من الأنصار كلباً يدعى قَرْحان ، يصيد الظِّباء ، فحبسه عنهم ، فنافره الأنصاريُّون ، واستغاثوا عليه بقومه ، فكاثروه ، فانتزعوه منه ، وردُّوه على الأنصار ، فهاجمهم ، وقال في ذلك :

تَجَشَّم دُونِي وَفْدُ قرحان خطَّةً ... تَضِلُّ لَهَا الوَجْنَاءُ وَهِيَ حَسِيْرُ

فَبَاتُوا شِبَاعاً نَاعِمِيْنَ كَأَنَّما ... حَبَاهُمْ بِبَيْتِ المَرْزُبَانِ أَمِيْرُ

فَكَلْبُكُمُ لا تَتْرُكُوا فَهُوَ أُمُّكُمْ ... فَإِنَّ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ كَبِيْرُ

فاستَعدوا عليه عثمان ، فأرسل إليه ، فعزَّره ، وحبسه كما كان يصنع بالمسلمين ، فاستثقل ذلك ، فما زال في الحبس حتَّى مات فيه[٦] .

١٥ ـ حدُّ القذف بالتَّعريض :

كان عثمان رضي الله عنه يقيم حدَّ القذف بالتَّعريض به ، فقد قال رجلٌ لآخر : « يا بن شامَّة

---

(١) أي : ولِّ شدَّتها ، وأوساخها من تولَّى هنيئها ، ولذَّاتها .
(٢) شرح النَّوويِّ على صحيح مسلم ، كتاب الحدود (١١/ ٢١٦) .
(٣) ولاية الشّرطة في الإسلام ، د . نمر الحميداني ، ص (١٠٥) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٠٤) .
(٥) صحيح التَّوثيق ، ص (٧٧) . وموسوعة فقه عثمان ، ص (١٧١) .
(٦) تاريخ الطبري (٥/ ٤٢٠) .

الوَذْر »ـ يعرض له بزنى أمِّه ـ فاستعدى عليه عثمان بن عفَّان ، فقال الرَّجل : إنَّما عنيت كذا ، وكذا ، فأمر به عثمان فجلد الحدَّ ـ أي : حدَّ القذف ـ ولم يلتفت إلى تفسير مراده ممَّا قال[١] .

١٦ ـ عقوبة الزِّنى :

إذا ثبت الزِّنى على رجلٍ ، أو امرأةٍ ، وكان حرّاً محصناً ؛ فإنَّه يعاقب بالرَّجم بالحجارة حتَّى الموت ، وقد زنت امرأةٌ محصنةٌ في عهد عثمان بن عفَّان ، فقضى عثمان برجمها ، ولم يحضر رجمها[٢] .

١٧ـ التَّعزير بالنَّفي ، والطَّرد :

بلغ عثمان : أنَّ ابن الحبكة النَّهديَّ يعالج نيرنجاً ـ قال محمَّد بن سلمة : إنَّما هو ينرنج ، أخذٌ كالسِّحر وليس به ـ فأرسل إلى الوليد بن عقبة ليسأله عن ذلك ، فإن أقرَّ به ، فأوجِعْه ، فدعا به ، فسأله ، فقال : إنَّما هو رفق ، وأمر يعجب منه ، فأمر به ، فعزِّر ، وأخبر النَّاس خبره ، وقرأ عليهم كتابِ عثمان : إنَّه قد جُدَّ بكم ، فعليكم بالجدِّ ، وإيَّاكم والهُزَّال ، فكان النَّاس عليه ، وتعجَّبوا من وقوف عثمان على مثل خبره ، فغضب ، فنفر في الَّذين نفروا ، فضُرب معهم ، فكتب إلى عثمان فيه ، فلمَّا سيَّر إلى الشَّام مَنْ سيَّر ، سيَّر كعب بن ذي الحبكة ، ومالك بن عبد الله ـ وكان دينه على دينه ـ إلى دُنباوَند ، فقال في ذلك كعب بن ذي الحبكة للوليد :

لعَمْـرِي لَئِـنْ طَـرَدْتَنِـي مَـا إلـى الَّتـي	طَمِعْــتَ بِهَــا مِــنْ سَقْطَتِــي لَسَبِيْــلُ
رَجَـوْتُ رُجُـوْعِـي يَـا بـنَ أَرْوَى وَرَجْعَتِـي	إلَــى الحَــقِّ دَهْــراً غَــالَ ذلِــكَ غُــوْلُ
وَإنَّ اغْتِـرَابِـي فِـي البِـلَادِ وَجَفْـوَتِـي	وَشَتْمِــي فِــي ذَاتِ الإلــهِ قَلِيْــلُ
وَإِنَّ دُعَــائِــي كــلَّ يــومٍ وليلــةٍ	عَلَيْــكَ بِــدُنْبَــاوَنْــدِكُــمْ لَطَــوِيْــلُ[٣]

١٨ـ دفع النَّاس عن جنازة العبَّاس :

عن عبد الرَّحمن بن يزيد : أنَّه قال : لما أتي بجنازة العبَّاس بن عبد المطلب إلى موضع الجنائز تضايق النَّاس ، فتقدَّموا به إلى البقيع ، ولقد رأيتنا يوم صلَّينا عليه بالبقيع ، وما رأيت مثل ذلك الخروج على أحدٍ من النَّاس قطُّ ، وما يستطيع أحدٌ أن يدنو من سريره ، وغلب عليه بنو هاشم ، فلمَّا انتهوا إلى اللَّحد ؛ ازدحموا عليه ، فأرى عثمان اعتزل ، وبعث الشُّرْطَة يضربون النَّاس عن بني هاشم ، حتَّى خلص بنو هاشم ، فكانوا هم الَّذين نزلوا في حفرته ، ودلَّوه في

---

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص (٢٤٧) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٦٤) .

(٣) تاريخ الطبري (٥/٤١٩) .

اللَّحد[١] ، وهذا يدلُّ على كثرة رجال الشُّرْطَة آنذاك ، ويعتبر عثمان رضي الله عنه لدى بعض المؤرِّخين[٢] ، أول من اتَّخذ صاحب شُرْطَةٍ من الخلفاء ، وقد أسند هذه المهمَّة في المدينة إلى الصَّحابيِّ الجليل المهاجر بن قنفذ بن عمير القرشيِّ[٣] .

وهذا يدلُّ على عنايته بها ، وأنَّ صيتها قد ذاع في عهده ، وفي الكوفة كان عبد الرَّحمن الأسديُّ على شرطة سعيد بن العاص (واليها لعثمان) ، كما كان نصير بن عبد الرَّحمن على شرطة معاوية بن أبي سفيان (والي عثمان على الشَّام)[٤] .

وفي الحقيقة لا يُعلم خليفةٌ في الإسلام بعد أبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما يقيم الحدود على القريب ، والبعيد ، والشَّريف ، والوضيع ، والغنيّ ، والفقير ، ولا يبالي ، ويعطي كلَّ ما يُطلب منه من إصلاحٍ ، أو حقوقٍ كعثمان رضي الله عنه ، وكفاه فخراً أن ينتمي لحكم الخلافة الرَّاشدة[٥] .

ثانياً : في العبادات والمعاملات :

١ ـ إتمام عثمان الصَّلاة بمنى ، وعرفات :

في حجٍّ عام ٢٩ هـ ، صلَّى عثمان رضي الله عنه بالنَّاس بمنى أربعاً ، فأتى آتٍ عبد الرَّحمن بن عوف ، فقال : هل لك في أخيك : قد صلَّى بالناس أربعاً ، فصلَّى عبد الرَّحمن بأصحابه ركعتين ، ثمَّ خرج حتَّى دخل على عثمان ، فقال له : ألم تصل في هذا المكان مع رسول الله ﷺ ركعتين ؟ قال : بلى ! قال : أفلم تصلِّ مع أبي بكر ركعتين ؟ قال : بلى ! قال : أفلم تصل مع عمر ركعتين ؟ قال : بلى ! قال : ألم تصل صدراً من خلافتك ركعتين ؟ قال : بلى ! قال : فاسمع منِّي يا أبا محمد[٦] ! إنِّي أُخبرت : أنَّ بعض من حجَّ من أهل اليمن ، وجفاة النَّاس قد قالوا في عامنا الماضي : إنَّ الصَّلاة للمقيم ركعتان ، هذا إمامكم عثمان يصلِّي ركعتين ، وقد اتَّخذت بمكَّة أهلاً ، فرأيت أن أصلِّي أربعاً لخوف ما أخاف على النَّاس ، وأخرى قد اتَّخذت بها زوجةً ، ولي بالطائف مالٌ ، فربَّما اطلعته ، فأقمت فيه بعد الصَّدَر ، فقال عبد الرحمن بن عوف : ما من هذا شيءٌ لك فيه عذرٌ .

---

(١) الطَّبقات (٤/ ٣٢) .

(٢) تاريخ خليفة بن خيَّاط ، ص(١٧٩) .

(٣) ولاية الشُّرْطة في الإسلام ، ص(١٠٥) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٠٦) .

(٥) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٤٠٩) .

(٦) أبو محمد : كنية عبد الرَّحمن بن عوفٍ ، ص(٢٦٨) .

أمَّا قولك : اتَّخذت أهلاً ، فزوجتك بالمدينة تخرج بها إذا شئت ، وتقدم بها إذا شئت ، إنَّما تسكن بسكناك ، وأمَّا قولك : ولي مالٌ بالطائف ، فإن بينك وبين الطَّائف مسيرة ثلاث ليال ، وأنت لست من أهل الطَّائف .

وأمَّا قولك : يرجع من حجَّ من أهل اليمن ، وغيرهم فيقولون : هذا إمامكم عثمان يصلِّي ركعتين وهو مقيمٌ ، فقد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي والنَّاس يومئذٍ الإسلام فيهم قليل ، ثمَّ أبو بكر مثل ذلك ، ثمَّ عمر ، فضرب الإسلام بجرانه ، فصلَّى لهم عمر حتَّى مات ركعتين . فقال عثمان : هذا رأيٌ رأيتُه .

فخرج عبد الرَّحمن ، فلقي ابن مسعودٍ ، فقال : أبا محمَّد ، غيِّر ما يعلم ؟ قال : لا ، قال : فما أصنع ؟ قال : اعمل أنت بما تعلم ، فقال ابن مسعود : الخلاف شرٌّ ، قد بلغني : أنَّه صلَّى أربعاً ، فصلَّيت بأصحابي أربعاً ، فقال عبد الرَّحمن بن عوفٍ ، قد بلغني : أنَّه صلَّى أربعاً ، فصلَّيت بأصحابي ركعتين ، وأمَّا الآن فسوف يكون الَّذي تقول ؛ يعني : نصلِّي معه أربعاً[(١)] .

إنَّ عثمان صنع ما صنع من إتمام الصَّلاة في منى ، وعرفات ، شفقةً على ضعفاء المسلمين أن يفتنوا في دينهم ، فقد أبدى لفعله سبباً معقولاً حينما سأله عبد الرَّحمن ابن عوف ـ رضي الله عنه ـ عنه وعمَّا دعاه إليه ، فلمَّا أطلعه عثمان رضي الله عنه على وجهة نظره ، أخذ عبد الرحمن بقوله وأتمَّ الصَّلاة بأصحابه ، وكذلك صنع عبد الله ابن مسعود ، وغيره من جمهور الصَّحابة ، فتابعوه ، ولم يخالفوه ؛ لأنَّه إمامٌ راشدٌ تجب متابعته فيما لم يخرج عن حدود الشَّريعة المطهَّرة ، ولو كان فيما جاء به عثمان أدنى شبهةٍ لمخالفة نصٍّ شرعيٍّ ما أمكن مطلقاً جمهور الصَّحابة أن يتابعوه[(٢)] ، والَّذي أبداه عثمان في تحاوره مع عبد الرَّحمن بن عوفٍ ، واحتج به لرأيه معقول المعنى ، ولو تأمَّل فيه نظَّار في أسرار الدِّين ، وحكم الشريعة ؛ لرأى : أنَّ إتمام الصَّلاة الَّذي انتهى إليه رأي عثمان أرجح حينئذٍ من قصرها ، وقد حدث من الأمور ما لم يكن على عهد النَّبيّ ﷺ ، وأبي بكر ، وعمر ، فخاف عثمان أن يفتن النَّاس في صلاتهم ، ولا سيما جفاة الأعراب في مضاربهم ، ومن بعدت بلادهم في أطراف الأرض ، وقد لا يتَّصل بهم من أهل العلم من يعلِّمهم ، ويرشدهم ، فأراد عثمان بما صنع حسم هذا الشرِّ المخوف على كثيرٍ من ضعفاء المسلمين .

وقد بالغ عثمان رضي الله عنه في إبعاد الشُّبهة عن نفسه ، فقال : إنَّه اتَّخذ بمكَّة أهلاً ، وله بالطَّائف مالٌ ربما نظر إليه ، وأقام فيه بعد انتهاء الموسم ، فيكون حينئذ مقيماً ، ففرضه

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/٢٦٨) .

(٢) عثمان بن عفَّان ، لصادق عرجون ، ص(١٩٢) .

الإتمام ، وذلك منه رضي الله عنه من دقيق النَّظر في الدِّين ، وفهم أسراره ، وحكمه[١] .

وقد رأى جماعةٌ من الصَّحابة إتمام الصَّلاة في السَّفر منهم : عائشة ، وعثمان ، وسلمان ، وأربعة عشر من أصحاب رسول الله ﷺ[٢] ، فعثمان رضي الله عنه لم يوجب القصر في السَّفر ، وإنَّما كان يتَّجه كما رآه فقهاء المدينة ، ومالكٌ ، والشَّافعيُّ ، وغيرهما . ثمَّ إنها مسألةٌ اجتهاديَّة ، ولذلك اختلف فيها العلماء ، فقوله فيها لا يوجب تكفيراً ، ولا تفسيقاً[٣] . وأمَّا قول ابن مسعود رضي الله عنه : الخلاف شرٌّ[٤] ، وفي روايةٍ : إنِّي أكره الخلاف[٥] ، ففيه ترشيدٌ لنا ، وتذكيرٌ على استحباب الخروج من الخلاف في مسائل الاجتهاد ، ويحسن بالمسلم أن يستحضرها ، ويحاول أن يقلِّل الخوض ، والجدال في الفروع المختلف فيها[٦] ؛ إذ الظُّروف المحيطة بنا . . لا تساعدنا على إضاعة مزيدٍ من الوقت الثَّمين في الجدل والخلاف عمَّا يجب أن نفعله لمواجهة التَّحدِّيات الخطيرة[٧] ، كما أنَّ في فعل ابن مسعودٍ ، وابن عوفٍ رضي الله عنهما من الصَّلاة خلف عثمان بياناً لحرص الصَّحابة على الاجتماع والوحدة ، وهذا خُلُقٌ عظيمٌ من أخلاق جيل النَّصر .

٢ـ زاد الأذان الثَّاني يوم الجمعة :

قال رسول الله ﷺ : « **عليكم بسنَّتي ، وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين من بعدي** »[٨] ، وهذه الزِّيادة من سنَّة الخلفاء الرَّاشدين ، ولا شكَّ : أنَّ عثمان من الخلفاء الرَّاشدين ورأى مصلحة أن يزاد هذا الأذان ؛ لتنبيه النَّاس عن قرب وقت صلاة الجمعة بعد أن اتَّسعت رقعة المدينة ، فاجتهد في هذا ، ووافقه جميع الصَّحابة ، واستمرَّ العمل به لم يخالفه أحدٌ حتَّى في زمن عليٍّ ، وزمن معاوية ، وزمني بني أميَّة وبني العباس إلى يومنا هذا ، فهي سنَّةٌ بإجماع المسلمين[٩] .

ثمَّ هو له أصلٌ في الشَّرع ؛ وهو الأذان الأوَّل في الفجر ، فقاس عثمان هذا الأذان عليه[١٠] . لقد سنَّ عثمان ذلك أخذاً من سنَّة الرَّسول ﷺ وأذانه الَّذي شرعه في الفجر قبل دخول

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، (١٩٤) .
(٢) كتاب الإمامة والردُّ على الرَّافضة للأصبهاني ، ص(٣١٢) .
(٣) الرِّياض النَّضرة ، ص(٥٦٦) .
(٤) تاريخ الطَّبري (٥/٢٦٨) .
(٥) القواعد الفقهيَّة للنَّدوي ، ص(٣٣٦) .
(٦) فقه الأولويات ، لمحمد الوكيلي ، ص(١٦٩) .
(٧) الفكر الإسلاميُّ بين المثاليَّة والتَّطبيق ، كامل الشَّريف ، ص(٢٩) .
(٨) سنن أبي داود ، كتاب السُّنة رقم (٤٦٠٧) . وسنن التِّرمذيِّ ، كتاب العلم ، رقم (٢٦٧٦) .
(٩) حقبةٌ من التَّاريخ ، عثمان الخميس ، ص(٨٨) .
(١٠) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨٩) .

الوقت لينبِّه النَّائم ، ويستعدَّ اليقظان ، ومريد الصِّيام ، فهو مستنٌّ بسنَّة الرَّسول ﷺ وآخذٌ من طريقته ، وقد اختلف أهل العلم : هل أوقعه قبيل دخول الوقت كما هو الحال في الأذان الأوَّل من الفجر أم أوقعه في الوقت ؟ ويميل الحافظ إلى أنَّ وقوعه كان إعلاماً بالوقت ، قال في فتح الباري : وتبيَّن : أنَّ عثمان أحدثه لإعلام النَّاس بدخول وقت الصَّلاة قياساً على بقيَّة الصَّلوات ، فألحق الجمعة بها ، وأبقى خصوصيَّتها بالأذان بين يدي الخطيب .

وفيه استنباط معنىً من الأصل لا يبطله، وأمَّا ما أحدث النَّاس قبل وقت الجمعة من الدُّعاء إليها، والذِّكر والصَّلاة على النَّبيّ ﷺ فهو في بعض البلاد دون بعضٍ، واتِّباع السَّلف الصَّالح أولى[(١)] .

وأمَّا الّذين قالوا : إنَّه أحدث قبيل دخول الوقت ، قالوا : لأنَّ الغرض منه الإعلام بالجمعة ، والسَّعي إليها على غرار الأذان الأوَّل في الفجر ، فلو كان بعد دخول الوقت لمَا أدى المعنى المطلوب إلا بتأخير الجمعة بعض الشيء ، وهو خلاف السُّنَّة . وبه يُستغنى عمَّا أحدثه النَّاس في التَّذكير ، والذِّكر ، وغيرهما ممَّا أشار إليه الحافظ ، ولم ينكره إلا بقوله : « واتباع السَّلف الصَّالح أولى »[(٢)] .

٣ـ اغتساله كلَّ يوم منذ أسلم :

كان عثمان بن عفَّان يغتسل كلَّ يوم منذ أسلم[(٣)] ، وقد صلَّى ذات يوم الصُّبح بالنَّاس وهو جنبٌ دون أن يدري ، فلمَّا أصبح رأى في ثوبه احتلاماً ، فقال : كبِرْتُ والله ! إنِّي لأُراني أجنبُ ، ولا أعلم ، ثمَّ أعاد الصَّلاة[(٤)] ، ولم يُعد مَنْصلَّى خلفه[(٥)] .

٤ـ سجود التِّلاوة :

كان عثمان بن عفَّان رضي الله عنه يرى : أنَّ سجود التِّلاوة يجب على المكلَّف التَّالي للقرآن، وعلى الجالس لسماع القرآن ، أمَّا من سمعه من غير قصدٍ ، فليس عليه سجود التِّلاوة ، فقد مرَّ رضي الله عنه بقاصٍّ ، فقرأ القاصُّ سجدةً ليسجد معه عثمان ، فقال عثمان : إنَّما السُّجود على من استمع ، ثمَّ مضى ، ولم يسجد[(٦)] ، وقوله : على من استمع ؛ يعني : على من قصد

---

(١) فتح الباري (٤/ ٣٤٥) .

(٢) السُّنَّة والبدعة ، لعبد الله باعلوي الحضرمي ، ص(١٣٢ ، ١٣٣) .

(٣) فضائل الصَّحابة ، رقم (٧٥٦) إسناده حسنٌ .

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١٩٠) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه ، (١٩٢) .

(٦) الخلافة الرَّاشدة والدَّولة الأمويَّة ، د . يحيى اليحيى ، ص(٤٤٤) .

السَّماع ، وقال رضي الله عنه : إنَّما السَّجدة على مَنْ جلس لها[١] ، وروي عن عثمان : أنَّ الحائض إذا استمعت السَّجدة تومئ بها إيماءً ، ولا تتركها ، ولا تسجد لها سجود الصَّلاة[٢] .

٥ـ صلاة الجمعة في السَّواحل :

قال اللَّيث بن سعد : كلُّ مدينةٍ ، أو قريةٍ فيها جماعةٌ أمروا بالجمعة ، فإنَّ أهل مصر ، وسواحلها كانوا يجمِّعون الجمعة على عهد عمر ، وعثمان بأمرهما ، وفيهما رجالٌ من الصَّحابة[٣] .

٦ـ استراحة عثمان في الخطبة :

عن قتادة : أنَّ النَّبيّ ﷺ وأبا بكرٍ ، وعمر ، وعثمان كانوا يخطبون يوم الجمعة ، حتَّى شقَّ القيام على عثمان ، فكان يخطب قائماً ثمَّ يجلس ، فلمَّا كان معاوية خطب الأولى جالساً ، والأخرى قائماً[٤] .

٧ـ جعل القنوت قبل الرُّكوع :

قال أنس : إنَّ أوَّل من جعل القنوت قبل الرُّكوع ـ أي : دائماً ـ عثمان ؛ لكي يدرك النَّاس الرَّكعة[٥] .

٨ ـ أعلم النَّاس بأحكام الحجِّ :

يقول محمَّد بن سيرين : كانوا يرون : أنَّ أعلم النَّاس بالمناسك عثمان بن عفَّان ، ثمَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما[٦] .

٩ـ النَّهي عن الإحرام قبل الميقات :

لمَّا فتح عبد الله بن عامر خراسان ؛ قال : إنَّ هذا نصرٌ من الله لا بدَّ لي من أن أشكره عليه ، ولأجعلنَّ شكري لله أن أخرج من موضعي هذا ـ خراسان ـ محرماً ، فأحرم من نيسابور ، وخلَّف على خراسان الأحنف بن قيس ، فلمَّا قضى عمرته ؛ أتى عثمان بن عفَّان ، وذلك في السَّنة الَّتي قُتل فيها ، فقال له عثمان : لقد غرَّرت بعمرتك حين أحرمت من نيسابور[٧] .

---

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١٦٨) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) فتح الباري (٢/ ٤٤١) .
(٤) الخلافة الراشدة ، ليحيى اليحيى ، ص(٤٤٤) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، وفتح الباري (٢/ ٥٦٩) .
(٦) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١١٢) .
(٧) سنن البيهقي (٥/ ٣١) . وموسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١٧) .

١٠ـ سفر المعتدَّة للحجِّ ، والعمرة :

المعروف : أنَّ المعتدَّة لا تبيت إلا في بيتها ، ولا تسافر إلا بعد انتهاء عدَّتها ؛ لأنَّ سفرها يقتضي مبيتها في غير بيتها ، والحجُّ لا يخلو من سفرٍ ، ولذلك فإنَّ عثمان كان يرى : أنَّ المعتدة لا يلزمها الحجُّ ما دامت في العدَّة ، وكان رضي الله عنه يُرجع المعتدَّة حاجَّةً ، أو معتمرةً من الجحفة ، وذي الحليفة[(١)] .

١١ـ النَّهي عن متعة الحجِّ :

نهى عثمان رضي الله عنه عن المتعة ، أو الجمع بينهما ليعمل بالأفضل ، لا ليُبطِلَ المتعة . ولا يخفى على عثمان ومن دونه : أنَّ من أراد الإحرام ، فهو مخيَّر بين الإفراد ، والقِران ، والتَّمتُّع ، ولكنَّه رضي الله عنه رأى الإفراد أفضل من الاثنين ، فعن مروان بن الحكم ، قال : شهدت عثمان ، وعليّاً رضي الله عنهما وعثمان ينهى عن المتعة ، وأن يُجمع بينهما ، فلمَّا رأى عليٌّ ذلك ؛ أهَلَّ بهما : لبيك بعمرةٍ ، وحَجَّةٍ ، وقال : ما كُنتُ لأدع سنَّة النَّبيِّ ﷺ لقول أحدٍ[(٢)] ؛ ولم ينكر عثمان على عليٍّ ذلك منه ؛ لأنَّ عليّاً رضي الله عنه كان يخشى أن يحمل غيره النَّهي على الإبطال ، والتَّحريم ، وإنما قال : ما كنت لأدع سنَّة رسول الله ﷺ لقول أحدٍ ؛ ليظهر جواز ذلك ، وأنَّها سنَّةٌ ماضيةٌ ، وكلاهما مجتهدٌ مأجورٌ[(٣)] .

وفي الحديث من الفوائد الظَّاهرة : مناظرة العلماء ولاة الأمر بقصد إشاعة العلم ، ومناصحة المسلمين ، وسعة صدر الولاة ، لاجتهاد العلماء في المسائل الَّتي يتَّسع معها الاجتهاد ، وأنَّ المجتهد لا يجبر مجتهداً آخر باتِّباعه لسكوت عثمان عن عليٍّ ، وفيه : أنَّ العلم يسبق القول ، والعمل[(٤)] .

١٢ـ أكل لحم الصَّيد :

لا يجوز للمحرم أن يأكل من الصَّيد الَّذي صاده هو ، أو صاده له غيره من الحلال[(٥)] ، فعن عبد الرحمن بن حاطب : أنَّه اعتمر مع عثمان بن عفَّان في ركبٍ ، فلمَّا كان بالرَّوحاء ؛ قدم لهم لحم طير ـ يعاقيب ـ فقال عثمان : كلوا ، وكره أن يأكل منه ، فقال عمرو بن العاص : أنأكل ممَّا لست منه آكلاً ؟ ! قال عثمان : لست في ذلك مثلكم ، إنَّما صيدت لي ، وأميتت باسمي ،

---

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١١٢) .
(٢) البخاريُّ ، كتاب الحجِّ ، رقم (١٥٦٣) .
(٣) شهيد الدَّار عثمان بن عفَّان ، ص(٨٦) .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(٢٠) .

أو قال : من أجلي[١] . وقد تكرَّر ذلك من عثمان مرَّة أخرى ، كما روى عبد الله بن عامر بن ربيعة ، قال : رأيت عثمان بن عفَّان بالعرج ، وهو محرمٌ في يومٍ صائفٍ قد غطَّى وجهه بقطيفة أرجوانٍ ، ثم أُتِيَ بلحم صيدٍ ، فقال لأصحابه : كلوا ، فقالوا : ألَا تأكل أنت ؟ قال : إنِّي لست كهيئتكم ؛ إنَّما صيد من أجلي[٢] .

١٣ـ كراهية الجمع بين القرابة في الزَّواج :

أخرج الخلال من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن أبي بكرٍ ، وعمر ، وعثمان : أنَّهم كانوا يكرهون الجمع بين القرابة مخافة الضَّغائن[٣] .

١٤ـ في الرَّضاعة :

روى عبد الرزاق عن ابن جريجٍ عن ابن شهابٍ ، قال : فرَّق عثمان بين ناس تناكحوا بقول امرأة سوداء أرضعتهم[٤] .

١٥ـ في الخُلع :

عن الرُّبيِّع بنت معوِّذ ، قالت : كان بيني وبين ابن عمِّي كلامٌ ، وكان زوجها ، قالت : فقلت له : لك كل شيءٍ وفارقني . قال : قد فعلت . فأخذ والله كلَّ شيءٍ حتَّى فراشي ، فجئت عثمان وهو محصورٌ ، فقال : الشَّرط أملك ، خذ كلَّ شيءٍ حتى عقاص رأسها[٥] ، وفي روايةٍ : اختلعت من زوجي بما دون عقاص رأسي ، فأجاز ذلك عثمان[٦] .

١٦ـ يجب الإحداد على المعتدَّة لوفاة زوجها :

ومن الإحداد ترك الزِّينة ، وترك المبيت في غير البيت الّذي توفي فيه زوجها إلا لضرورةٍ ، ويجوز لها أن تخرج نهاراً لقضاء حاجتها ، ولكنَّها لا تبيت في المساء إلا في بيتها[٧] ، فعن فُريعة بنت مالك بن سنان أخت أبي سعيدٍ الخدري أنَّها جاءت إلى رسول الله ﷺ ، فأخبرته : أنَّ زوجها خرج في طلب أعبُدٍ له ، فقتلوه بطرف القُدوم ، فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي ، فإنَّ

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) سنن البيهقي (٥/ ١٩١) . وموسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(٢٠) .

(٣) الخلافة الراشدة ، د . يحيى اليحيى ، ص(٤٤٩) .

(٤) الفتح (٥/ ١٨) .

(٥) الطَّبقات (٨/ ٤٤٨) .

(٦) الخلافة الرَّاشدة ، د . يحيى اليحيى ، ص(٤٤٩) .

(٧) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(٢٤٤) .

زوجي لم يتركني في مسكنٍ يملكه ، ولا نفقةٍ ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : « **نعم !** » قالت : فانصرفت ، حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ، أو أمر بي ، فنوديتُ ، فقال : « **كيف قلت** » ؟ فرددت عليه القصَّة الّتي ذكرت له من شأن زوجي ، فقال : امكثي في بيتك حتَّى يبلغ الكتابُ أجله ، قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر ، وعشراً ، قالت : فلمَّا كان عثمان بن عفَّان أرسل إليَّ ، فسألني عن ذلك ؟ فأخبرته ، فاتَّبعه ، وقضى به[١] ، ولذلك كان عثمان يتشدَّد في أمر مبيت المرأة المعتدَّة خارج بيتها ، فقد حدث : أنَّ امرأةً توفي عنها زوجها زارت أهلها في عدَّتها ، فضربها الطَّلق ، فأتوا عثمان ، فسألوه ، فقال : احملوها إلى بيتها ، وهي تطلق[٢] .

١٧ـ لا تنكحها إلا نكاح رغبةٍ :

جاء رجلٌ إلى عثمان في خلافته وقد ركب ، فسأله ، فقال : إنَّ لي إليك حاجةً يا أمير المؤمنين ! فقال له عثمان : إنِّي الآن مستعجلٌ ، فإن أردت أن تركب خلفي حتَّى تقضي حاجتك ، فركب خلفه ، فقال : إنَّ لي جاراً طلَّق امرأته في غضبه ، ولقي شدَّةً ، فأردت أن أحتسب بنفسي ، ومالي ، فأتزوجها ثمَّ أبتني بها ، ثمَّ أطلِّقها ، فترجع إلى زوجها الأوَّل ، فقال له عثمان : لا تنكحها إلا نكاح رغبةٍ[٣] .

١٨ـ طلاق السَّكران :

كان عثمان بن عفَّان رضي الله عنه يرى : أنَّ كلَّ ما يتكلم به السَّكران فهو هدرٌ ، فلا تصحُّ عقوده ، ولا فسوخه ، ولا إقراره ، ولا يقع طلاقه ؛ لأنَّه لا يعي ما يقول ، ولا يريد ما يقول ، ولا إلزام لغير إرادة[٤] ، قال عثمان رضي الله عنه : ليس لسكران ، ولا مجنونٍ طلاقٌ[٥] .

١٩ـ هبة الوالد لولده :

إذا نحل الأب ولده نحلةً ؛ كان عليه أن يُشهد على هذه الهبة ، فإذا أشهد عليها ؛ اعتبر هذا الإشهاد قبضاً لها ، وصحَّ أن تبقى بعد ذلك في يد الأب ، فقد ورد عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه قوله : من نحل ولداً له صغيراً لم يبلغ أن يجوز نحلةً ، فأعلن ذلك ، وأشهد عليه ؛ فهي جائزةٌ وإن وليَّها أبوه[٦] . وأمَّا إذا لم يشهد ، ولم يسلِّمها للولد ؛ فهي هبة غير لازمةٍ ، قال عثمان رضي الله عنه : ما بال أقوام يعطي أحدهم ولده العطيَّة ، فإن مات ولده ، قال : مالي ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، (٢٢٤) ، والموطَّأ (٢/ ٥٩١) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٢٥) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨١) .

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(٥٣) . والفتاوى (١٤/ ٧٢) .

(٥) الفتاوى (٣٣/ ٦١) . وموسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(٥٣) .

(٦) سنن البيهقيِّ (٦/ ١٧٠) . وموسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(٢٨٨) .

وفي يدي ، وإن مات هو قال : وهبته ، لا يثبت من الهبة إلا ما حازه الولد من مال أبيه[(١)] .

٢٠ـ الحجر على السَّفيه :

كان عثمان بن عفَّان رضي الله عنه يرى الحجر على السَّفيه ، فقد حدث أن اشترى عبدُ الله بن جعفر أرضاً بمبلغ ستِّين ألف دينارٍ، فبلغ ذلك عليَّ بن أبي طالبٍ، فقرَّر عليٌّ: أنَّ الأرض لا تساوي هذا المبلغ من المال ، وأنَّ عبد الله بن جعفر قد غُبن فيها غبناً فاحشاً ، بل إنَّه قد تصرَّف تصرُّفاً أخرق ، وأعرب : أنَّه سيتوجه نحو أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان ليطلب منه الحجر على عبد الله بن جعفر لسفهه ، وإساءته التَّصرُّف في ماله ، فأسرع عبد الله بن جعفر إلى الزُّبير ـ وكان تاجراً حاذقاً ـ وقال له : إنِّي ابتعت بيعاً بكذا ، وكذا ، وإنَّ عليّاً يريد أن يأتي عثمان ، فيسأله أن يحجر عليَّ ، فقال له الزبير : فأنا شريكُك في البيع ، وأتى عليٌّ عثمان بن عفَّان ، فقال له : إنَّ ابن أخي اشترى سبخةً بستين ألفاً ما يسرُّني : أنَّها لي بنعليَّ ، فاحجر عليه! وقال الزُّبير لعثمان : أنا شريكه في هذا البيع ، فقال عثمان ابن عفَّان لعليِّ بن أبي طالب : كيف أحجر على رجلٍ في بيعٍ شريكه فيه الزُّبير[(٢)] ؟ يعني : أننا لا نستطيع أن نحكم على جعفر بالسَّفه لتصرفٍ تصرَّفه شريكه فيه الزُّبير ؛ لأنَّ الزُّبير لا يمكن أن يشارك في تصرُّفٍ تجاريٍّ أخرق لحذقه بالتِّجارة[(٣)] .

٢١ـ الحجر على المفلس :

كان عثمان بن عفَّان رضي الله عنه يرى الحجر على المفلس ، وإذا حُجر على مفلس اقتسم الدَّائنون ماله بنسبة ديونهم ، لكن إن وجد بعض دائنيه سلعته الّتي باعه إيَّاها بعينها عنده؛ جاز له أن يفسخ البيع ، ويأخذ سلعته[(٤)] ، فهو أحقُّ بها من غيره[(٥)] .

٢٢ـ تحريم الاحتكار :

كان عثمان بن عفَّان رضي الله عنه يمنع الاحتكار ، وينهى عنه[(٦)] ، ويظهر : أنَّ عثمان بن عفَّان كان كسَلفِهِ عمر بن الخطَّاب لا يفرِّق في تحريم الاحتكار بين الطَّعام ، وغيره ، لأنَّ نهيه عن الاحتكار كان عامّاً ، خاصّةً : أنَّ ما ورد عن رسول الله في تحريم الاحتكار منه ما هو مطلقٌ

---

(١) الفتاوى (٣١/ ١٥٤) .

(٢) سنن البيهقيِّ (٦/ ٦٦١) . وموسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١١٩) .

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١١٩) .

(٤) سنن البيهقيِّ (٦/ ٤٦) .

(٥) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١١٩) .

(٦) موطأ مالك (٢/ ٦٥١) .

في كلِّ شيءٍ ، ومنه ما هو مقيَّدٌ ـ عند الجمهور ـ لعدم التَّعارض بينهما ؛ بل يبقى المطلق على إطلاقه[١] .

٢٣ـ ضوالُّ الإبل :

روى مالك : أنَّه سمع ابن شهابٍ يقول : كانت ضوالُّ الإبل في زمن عمر بن الخطَّاب إبلاً مرسلةً تناتج لا يمسُّها أحدٌ ، حتَّى إذا كان زمان عثمان بن عفَّان أمر بتعريفها ، ثمَّ تباع ، فإذا جاء صاحبها أعطي ثمنها[٢] ، وقد كان فعل عمر تبعاً لحديث الصَّحيحين عن زيد بن خالد الجهنيِّ رضي الله عنه قال : جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ ، فسأله عمَّا يلتقطه ، فقال : « **اعرف عفاصها ، ووكاءها**[٣] **، ثمَّ عرِّفها سنةً ، فإن جاء صاحبها ، وإلا ؛ فشأنك بها** » قال : فضالَّة الغنم يا رسول الله ؟ ! قال : « **هي لك ، أو لأخيك ، أو للذئب** » قال : فضالَّة الإبل ؟ قال : « **مالك ولها ، معها سقاؤها ، وحذاؤها ترد الماء ، وتأكل الشَّجر حتَّى يلقاها ربها** »[٤] .

وقد رأى الأستاذ الحجوي : أنَّ هذا الاجتهاد من عثمان بن عفَّان رضي الله عنه مبنيٌّ على المصلحة المرسلة ؛ لأنَّه رأى النَّاس مدُّوا أيديهم إلى ضوالِّ الإبل ، فجعل راعياً يجمعها ، ثمَّ تباع قياماً بالمصلحة العامَّة[٥] . غير أنَّ الأستاذ عبد السَّلام السُّليماني ردَّ على هذا القول بقوله : غير أنَّه من الصَّعب التسليم بمقالة الأستاذ الحجوي على إطلاقها ؛ لأنَّ المصلحة المرسلة هي الَّتي لم ينصَّ الشَّارع لا على اعتبارها ، ولا على إلغائها ، في حين : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد نصَّ على حكم ضوالِّ الإبل في الحديث المذكور أعلاه ، فهي إذاً مصلحةٌ معتبرةٌ نصَّ عليها النَّبيُّ بنفسه ، فلا يصحُّ أن يقال : إنَّ ما فعله عثمان من بيع ضوالِّ الإبل يعدُّ مصلحةً مرسلةً ، فالمصلحة المرسلة لا تكون في مقابلة النَّص .

والَّذي يظهر لنا : أنَّ اجتهاد عثمان في هذه القضيَّة بُني على المصلحة العامَّة ، فعلاً ، لكنَّها ليست مصلحةً مرسلةً ، وأنَّ هذه القضيَّة من القضايا القابلة للاجتهاد ، والَّتي يمكن أن يتغيَّر حكمها بتغيُّر الأزمنة ، والأحوال ، وبالنَّظر إلى ما يحقِّق مصلحة أصحاب ضوالِّ الإبل ؛ لأنَّ علَّة الحكم فيها ـ على ما يظهر ـ هي المحافظة على هذه الإبل إمَّا بأعيانها ، أو في شكل ثمنها ، وكلا الأمرين مصلحةٌ ، ولا شكَّ : أنَّ سيدنا عثمان بصنيعه هذا كان هدفه تحقيق المصلحة

---

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(١٥) .

(٢) موطَّأ مالك ، ص(٦٤٨ ـ ٦٤٩) طبعة دار الآفاق الجديدة .

(٣) العفاص : الوعاء الذي تحفظ فيه النَّفقة . والوكاء : الخيط الذي يربط به .

(٤) البخاريُّ ، كتاب اللقطة رقم (٢٤٢٧ ، ٢٤٢٨ ، ٢٤٢٩) .

(٥) الفكر السَّامي (١/ ٢٤٥) .

العامَّة ؛ لأنَّه رأى : أنَّ ترك الإبل على حالها ، كما كان الأمر في عهد النَّبيِّ ﷺ وإلى زمن عمر ، يعرِّضها للضَّياع بعد أن تغيَّرت أخلاق النَّاس ، وأصبحوا يمدُّون أيديهم لضوالِّ الإبل ، فرأى أن يقطع الطَّريق عليهم بما فعل ، وهو اجتهادٌ سليمٌ ، وحكمٌ (سديدٌ) بلا ريب[١] .

٢٤ـ توريث المرأة المطلقة في مرض الموت :

طلَّق عبد الرحمن بن عوف زوجته وهو مريضٌ ، فورَّثها عثمان منه بعد انقضاء مدَّة عدَّتها ، وقد روي : أنَّ شريحاً كتب إلى عمر بن الخطَّاب في رجلٍ طلَّق امرأته ثلاثاً ، وهو مريضٌ ، فأجاب عمر : أنْ ورِّثها ما دامت في عدَّتها ، فإن انقضت عدَّتها فلا ميراث لها ، فبعد أن اتَّفقا على أنَّ طلاق المريض مرض الموت لا يزيل الزَّوجية كسببٍ موجب للإرث ، جعل عمر حدّاً لذلك وهو العدَّة ، بينما لم يجعل عثمان حدّاً لذلك ، وقال : ترث مطلِّقها سواءٌ مات في العدَّة أو بعدها ، وليس في المسألة نصٌّ يرجع إليه ، والباعث على الحكم هو معاملة الزَّوج بنقيض قصده ؛ لأنَّ الزوج بطلاقه في مرض الموت يعتبر فارّاً من توريث زوجته[٢] .

٢٥ـ توريث المطلَّقة ما لم تنقضِ عدَّتها :

قال عثمان بن عفَّان : إذا مات أحد الزَّوجين قبل الحيضة الثَّالثة للمطلَّقة ؛ ورث الحيُّ منهما الميت[٣] ، ولا يمنع التَّوارث بينهما طول فترة العدَّة كما إذا حاضت المعتدة حيضةً ، أو حيضتين ثمَّ ارتفعت حيضتها ، فقد طلَّق حبَّان بن منقذ امرأته وهو صحيحٌ ، وهي ترضع ابنته ، فمكثت سبعة عشر شهراً لا تحيض ، يمنعها الرَّضاع أن تحيض ، ثمَّ مرض حبَّان بعد أن طلقها سبعة أشهر ، أو ثمانية ، فقيل له : إن امرأتك ترث ، فقال : احملوني إلى عثمان ، فحملوه إليه ، فذكر له شأن امرأته ، وعنده عليُّ بن أبي طالبٍ ، وزيد بن ثابت ، فقال لهما عثمان : ما تريان ؟ فقالا : نرى أنَّها ترثه إن مات ، ويرثها إن ماتت ، فإنَّها ليست من القواعد من النِّساء اللائي يئسن من المحيض ، وليست من الأبكار اللاتي لم يحضن ، ثمَّ هي على عدَّة حيضها ما كان من قليل أو كثيرٍ ، فرجع حبَّان إلى أهله ، فأخذ ابنته ، فلمَّا فقدت الرَّضاع حاضت حيضةً ، ثمَّ حاضت أخرى ، ثمَّ توفي حبَّان قبل أن تحيض الثَّالثة ، فاعتدَّت عدَّة الوفاة ، وورثت زوجها حبَّان بن منقذ[٤] .

---

(١) الاجتهاد في الفقه الإسلامي ، ص(١٤٣ ، ١٤٤) .

(٢) تاريخ التَّشريع الإسلامي ، للخضري ، ص(١١٨) . ونشأة الفقه الاجتهادي ، محمَّد السَّايس ، ص(٢٧) . والاجتهاد في الفقه الإسلامي ، ص(١٤٢) .

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(٢٨) .

(٤) سنن البيهقي (٧/ ٤١٩) . وموسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(٢٩) .

٢٦ـ توريث الحميل :

إذا سبيت امرأةٌ من الكفَّار ومعها طفلٌ تحمله مدَّعيةً : أنَّه ولدها ـ وهو ما يسمَّى بـ(الحميل) ـ فإنَّا لا تصدَّق بدعواها ، ولا يجري التَّوارث بينها وبينه إلا إذا أقامت البيِّنة على أنَّه ابنها ، وقد استشار عثمان في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، فأبدى كلٌّ منهم رأيه ، وقال عثمان آنئذٍ : ما نرى أن نورِّث مال الله إلا بالبيِّنات . وقال : لا يُورَّث الحَميل إلا ببينةٍ[١] .

هذه بعض اجتهادات ذي النُّورين أثْرَت في المؤسَّسة القضائيَّة في مجال القصاص والحدود ، والجنايات ، والتَّعزير ، كما أنَّه ساهم في تطوير المدارس الفقهيَّة الإسلاميَّة باجتهاداته الدَّالة على سعة اطِّلاعه ، وغزارة علمه ، وعمق فهمه ، واستيعابه لمقاصد الشَّريعة الغرَّاء ، فهو خليفةٌ راشدٌ ، أعماله تسترشد بها الأمَّة في مسيرتها الطَّويلة لنصرة دين الله تعالى ، وإعزازه .

* * *

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، ص(٢٨) .

الفصل الرَّابع
الفتوحات في عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه

● تمهيـد :

شجَّع خبر مقتل عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أعداء الإسلام ، وخصوصاً في بلاد الفرس ، والرُّوم على الطَّمع في استرداد ملكهم ، فبدأ يزدجرد ملك الفرس يخطِّط في العاصمة الّتي يقيم فيها وهي مدينة (فرغنة) عاصمة سمرقند ، وأمَّا زعماء الرُّوم ؛ فقد تركوا بلاد الشام وانتقلوا إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطيَّة ، وبدؤوا في عهد عثمان في البحث عن الوسائل الّتي تمكِّنهم من استرداد ملكهم ، وكانت بقايا جيوش الرُّوم في مصر قد تحصَّنوا بالإسكندرية في عهد عمر بن الخطَّاب ، فطلب عمرو بن العاص منه أن يأذن بفتحها ، وكانت معزَّزة بتحصيناتٍ كثيرةٍ ، وكانت المجانيق فوق أسوارها ، وكان هرقل قد عزم أن يباشر القتال بنفسه ولا يتخلَّف أحدٌ من الرُّوم ؛ لأن الإسكندرية هي معقلهم الأخير[١] .

وفي عصر عثمان تجمَّع الرُّوم في الإسكندرية وبدؤوا يبحثون عن وسيلةٍ لاسترداد ملكهم فيها ، حتَّى وصل بهم الأمر إلى نقض الصُّلح ، واستعانوا بقوَّة الرُّوم البحريَّة[٢] ، فأمدُّوهم بثلاثمئة سفينةٍ بحريَّةٍ تحمل الرِّجال ، والسِّلاح ، ولقد واجه عثمان ذلك كلَّه بسياسة تتَّسم بالحسم ، والعزم ، وتمثَّلت في الخطَّة الآتية :

١ـ إخضاع المتمرِّدين من الفرس ، والرُّوم ، وإعادة سلطان الإسلام إلى هذه البلاد .

٢ـ استمرار الجهاد والفتوحات فيما وراء هذه البلاد لقطع المدد عنهم .

٣ـ إقامة قواعد ثابتةٍ يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلاميَّة .

٤ـ إنشاء قوَّةٍ بحريَّةٍ عسكريَّةٍ لافتقار الجيش الإسلامي إلى ذلك[٣] .

كانت معسكرات الإسلام ومسالحه في عهد عثمان هي عواصم أقطاره الكبرى ؛ فمعسكر

---

(١) الخلافة والخلفاء الرَّاشدون ، ص(٢٢١) .
(٢) جولةٌ تاريخيَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٢٤) .
(٣) الخلافة والخلفاء الرَّاشدون ، ص(٢٢٢) .

العراق : الكوفة ، والبصرة ، ومعسكر الشَّام في دمشق بعد أن خلص الشَّام كلُّه لمعاوية بن أبي سفيان ، ومعسكر مصر كان مركزه الفسطاط ، وكانت هذه المعسكرات تقوم بحماية دولة الإسلام ، ومواصلة الفتوحات ، ونشر الإسلام[١] .

* * *

(١) عثمان بن عفَّان ، لصادق عرجون ، ص(١٩٩ ، ٢٠٠) .

المبحث الأوَّل

فتوحات عثمان في المشرق

أولاً : فتوحات أهل الكوفة : أذربيجان ٢٤ هـ :

كانت مغازي أهل الكوفة الرَّيَّ ، وأذربيجان ، وكان يرابط بهما عشرة آلاف مقاتل : ستة آلاف بأذربيجان ، وأربعة آلاف بالرَّيِّ ، وكان جيش الكوفة العامل أربعين ألف مقاتل ، يغزو كلَّ عام منهم عشرة آلاف ، فيصيب الرَّجل غزوةً كلَّ أربعة أعوام ، ولما أخلص عثمان رضي الله عنه الكوفة للوليد بن عقبة انتفض أهل أذربيجان ، فمنعوا ما كانوا قد صالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيَّام عمر ، وثاروا على واليهم عقبة بن فرقد ، فأمر عثمان الوليد أن يغزوهم ، فجهَّز لهم قائده سلمان بن ربيعة الباهليَّ ، وبعثه مقدِّمةً أمامه في طائفة من الجند ، ثمَّ سار الوليد بعده في جماعةٍ من النَّاس ، فأسرع إليه أهل أذربيجان طالبين الصُّلح على ما كانوا صالحوا عليه حذيفة ، فأجابهم الوليد ، وأخذ طاعتهم ، وبثَّ فيمن حولهم السَّرايا وشنَّ عليهم الغارات ، فبعث عبد الله بن شُبيل الأحمسيَّ في أربعة آلافٍ إلى أهل موقان ، والببر ، والطيلسان ، فأصاب من أموالهم ، وغنم ، وسبى ، ولكنَّهم تحرَّروا منه ، فلم يفلَّ حدُّهم، ثمَّ جهز سلمان الباهليَّ في اثني عشر ألفاً إلى أرمينية ، فأخضعها ، وعاد منها مليء اليدين بالغنائم ، وانصرف الوليد بعد ذلك عائداً إلى الكوفة[١] .

ولكنَّ أهل أذربيجان تمرَّدوا أكثر من مرَّةٍ ، فكتب الأشعث بن قيس والي أذربيجان إلى الوليد بن عقبة ، فأمدَّه بجيشٍ من أهل الكوفة وتتبَّع الأشعث الثَّائرين ، وهزمهم هزيمةً منكرةً ، فطلبوا الصُّلح فصالحهم على صلحهم الأوَّل ، وخاف الأشعث أن يعيدوا الكرَّة ، فوضع حامية من العرب ، وجعل لهم عطايا وسجَّلهم في الدِّيوان ، وأمرهم بدعوة النَّاس إلى الإسلام ، ولمَّا تولَّى أمرها سعيد بن العاص عاد أهل أذربيجان وتمرَّدوا على الوالي الجديد ، فبعث إليهم جرير ابن عبد الله البجليَّ ، فهزمهم ، وقتل رئيسهم ، ثمَّ استقرَّت الأمور بعد أن أسلم أكثر شعبها ، وتعلَّموا القرآن الكريم ، وأمَّا الرَّيُّ ، فقد صدر أمر الخليفة عثمان إلى أبي موسى الأشعريِّ في

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/٢٤٦) .

وقت ولايته على الكوفة ، وأمره بتوجيه جيشٍ إليها لتمرُّدها ، فأرسل إليها قريظة بن كعب الأنصاريَّ ، فأعاد فتحها[١] .

ثانياً : مشاركة أهل الكوفة في إحباط تحرُّكات الرُّوم :

عندما انتهى الوليد بن عقبة من مهمَّته في أذربيجان وعاد إلى الموصل ، جاءه أمر من الخليفة عثمان نصُّه : « أمَّا بعد : فإنَّ معاوية بن أبي سفيان كتب إليَّ يخبرني : أنَّ الروم قد أجلبت[٢] على المسلمين بجموعٍ عظيمةٍ ، وقد رأيت أن يمدَّهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فابعث رجلاً ممَّن ترضى نجدته ، وبأسه ، وشجاعته ، وإسلامه في ثمانية آلاف ، أو تسعة آلافٍ ، أو عشرة آلاف إليهم من المكان الّذي يأتيك فيه رسولي[٣] ، والسَّلام » فقام الوليد في النَّاس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال : أمَّا بعد أيُّها الناس ، فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاءً حسناً ، وردَّ عليهم بلادهم الّتي كفرت ، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت ، وردَّهم سالمين غانمين مأجورين ، فالحمد لله ربِّ العالمين ! وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف ، تمدُّون إخوانكم من أهل الشَّام ، فإنَّهم قد جاشت عليهم الرُّوم ، وفي ذلك الأجر العظيم ، والفضل المبين ، فانتدبوا ـ رحمكم الله ـ مع سلمان بن ربيعة الباهليِّ !

فانتدب النَّاس ، فلم يمض ثالثةٌ حتَّى خرج ثمانية آلاف رجلٍ من أهل الكوفة ، فمضوا ؛ حتى دخلوا أهل الشَّام إلى أرض الروم ، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهريُّ ، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهليُّ ، فشنُّوا الغارات على أرض الرُّوم ، فأصاب الناس ما شاؤوا من سبي ، وملؤوا أيديهم من المغنم ، وافتتحوا بها حصوناً كثيرةً[٤] .

وفي جهاد الوليد ، وغزوه يقول بعض الرُّواة : رأيت الشَّعبيَّ جلس إلى محمَّد ابن عمرو بن الوليد بن عقبة ، فذكر محمَّد غزوة مسلمة بن عبد الملك ، فقال الشَّعبي : كيف لو أدركتم الوليد ، وغزوه ، وإمارته ، إن كان ليغزو ، فينتهي إلى كذا ، وكذا ، ما قصَّر ولا انتقض عليه أحدٌ حتَّى عُزِل من عمله[٥] .

ثالثاً : غزو سعيد بن العاص طبرستان : ٣٠ هـ :

غزا سعيد بن العاص من الكوفة سنة ثلاثين يريد خراسان ، ومعه حذيفة بن اليمان ، وناسٌ

---

(١) الخلافة والخلفاء الرَّاشدون ، ص(٢٢٤) .

(٢) أجلبت : تجمَّعت للحرب .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/٢٤٧) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) عثمان بن عفَّان ، لصادق عرجون ، ص(٢٠١) .

من أصحاب رسول الله ﷺ ، ومعه الحسن ، والحسين ، وعبد الله ابن عبَّاس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزُّبير ، وخرج عبد الله بن عامر من البصرة يريد خراسان ، فسبق سعيداً ، ونزل أبرشهر ، وبلغ نزوله أبرشهر سعيداً ، فنزل سعيد قوميس ، وهي صلحٌ ، صالحهم حذيفة بعد نهاوند ، فأتى جرجان ، فصالحوه على مئتي ألفٍ ؛ ثمَّ أتى طَمِيسة ، وهي كلُّها من طبرستان جرجان ، وهي مدينةٌ على ساحل البحر ، وهي في تخوم جرجان ، فقاتله أهلها حتَّى صلَّى صلاة الخوف ، فقال لحذيفة : كيف صلَّى رسول الله ﷺ ؟ فأخبره ، فصلَّى بها سعيد صلاة الخوف ، وهم يقتتلون ، وضرب يومئذٍ سعيدٌ رجلاً من المشركين على حبل عاتقه ، فخرج السَّيف من تحت مرفقه ، وحاصرهم ، فسألوا الأمان ، فأعطاهم على ألا يقتل منهم رجلاً واحداً ، ففتحوا الحصن ، فقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً ، وحوى ما كان في الحصن ، فأصاب رجلٌ من بني نهد سفطاً عليه قفلٌ ، فظنَّ فيه جواهر ، وبلغ سعيداً ، فبعث إلى النَّهديِّ ، فأتاه بالسَّفط ، فكسروا قفله ، فوجدوا فيه سفطاً ، ففتحوه ، فإذا فيه خرقةٌ صفراء ، وفيها أيران : كُميتٌ ، وورد[1] ، وعندما قفل سعيد إلى الكوفة ، مدحه كعب بن جُعيلٍ ، فقال :

فَنِعْـمَ الْفَتَـى إذْ جَـالَ جيـلان دُوْنَـهُ ... وَإِذَ هَبَطُـوا مِـنْ دَسْتَبَـى ثُـمَّ أَبْهَـرا
تَعَلَّـمْ سَعِيـدَ الخَيْـرِ أنَّ مَطِيَّتِـي ... إِذَا هَبَطَـتْ أَشْفَقْـتُ مِـنْ أَنْ تُعَقَّـرا
كَـأَنَّـكَ يَـوْمَ الشِّعْـبِ لَيْـثُ خفيَّـة ... تَحَـرَّدَ مِـنْ لَيْـثِ العَـرِيْـنِ وَأَصْحَـرَا
تَسُـوْسُ الّـذي مَـا سَـاسَ قَبْلَـكَ واحِـدٌ ... ثَمَـانِيْـنَ أَلْفـاً دَارِعِيْـنَ وَحُسَّـرا[2]

رابعاً : هروب ملك الفرس (يزدجرد) إلى خراسان :

قدم ابن عامر البصرة ، ثمَّ خرج إلى فارس ، فافتتحها ، وهرب يزدجرد من وجُوز ـ وهي أردشير خُرَّة ـ في سنة ثلاثين ، فوجَّه ابن عامر في أثره مجاشع بن مسعود السُّلميَّ ، فاتبعه إلى كِرْمان ، فنزل مجاشعٌ السَّيرجان بالعسكر ، وهرب يزدجرد إلى خراسان[3] .

خامساً : مقتل (يزدجرد) ملك الفرس ٣١ هـ :

اختلف في سبب ذكر قتله كيف كان ، قال ابن إسحاق : هرب يزدجرد من كِرمان في جماعةٍ يسيرةٍ إلى مرو ، فسأل من بعض أهلها مالاً ، فمنعوه ، وخافوه على أنفسهم ، فبعثوا إلى التُّرك

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٧٠) .
(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٧١) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، (٥/ ٢٨٨) .

يستفزُّونهم عليه ، فأتوه فقتلوا أصحابه ، وهرب هو حتَّى أتى منزل رجلٍ ينقِّر الأرحاء[١] ، على شطِّ المَرْغاب[٢] ، فأوى إليه ليلاً ، فلمَّا نام قتله[٣] ، وجاء في روايةٍ عند الطَّبريِّ : . . . بل سار يزدجرد من كِرْمان قبل ورود العرب إيَّاها ، فأخذ على طريق الطَّبسَين وقُهِستان ، حتَّى شارف مرو في زهاء أربعة آلاف رجلٍ ، ليجمع من أهل خراسان جموعاً ، ويكرَّ إلى العرب ، ويقاتلهم ، فتلقَّاه قائدان متباغضان متحاسدان كانا بمروٍ ، يقال لأحدهما : براز ، والآخر : سنجان ، ومنحاه الطَّاعة ، وأقام بمروٍ ، وخصَّ براز ، فحسده على ذلك سنجان ، وجعل براز يبغي سنجان الغوائل ، ويوغل صدر يزدجرد عليه ، وسعى سنجان حتَّى عزم على قتله ، وأفشى ما كان عزم عليه من ذلك إلى امرأةٍ من نسائه كان براز واطأها ، فأرسلت إلى براز بنسوةٍ زعمت بإجماع يزدجرد على قتل سنجان ، وفشا ما كان عزم عليه يزدجرد من ذلك ، فنذِر[٤] سنجان ، وأخذ حِذْرَه ، وجمع جمعاً كنحو أصحاب براز ، ومن كان مع يزدجرد من الجند ، وتوجَّه نحو القصر الَّذي كان يزدجرد نازله ، وبلغ ذلك براز ، فنكص عن سنجان لكثرة جموعه ورعَّب جمع سنجان يزدجرد ، وأخافه ، فخرج من قصره متنكراً ، ومضى على وجهه راجلاً لينجو بنفسه ، فمشى نحواً من فرسخين حتَّى وقع إلى رحاً ، فدخل بيت الرَّحا ، فجلس فيه كالاً[٥] لَغِباً[٦] ، فرآه صاحب الرَّحا ذا هيئة ، وطرَّة وبزَّةٍ كريمةٍ ، ففرش له ، فجلس ، وأتاه بطعامٍ ، فطعم ، ومكث عنده يوماً وليلةً ، فسأله صاحب الرَّحا أن يأمر له بشيءٍ ، فبذل له منطقةً مكلَّلةً بجوهر كانت عليه ، فأبى صاحب الرَّحا أن يقبلها ، وقال : إنَّما كان يرضيني من هذه المنطقة أربعة دراهم كنت أطعم بها ، وأشرب ، فأخبره أنَّه لا ورق معه ، فتملَّقه صاحب الرَّحا ، حتى إذا غفا قام إليه بفأسٍ له ، فضرب بها هامته ، فقتله ، واحتزَّ رأسه ، وأخذ ما كان عليه من ثيابٍ ، ومنطقةٍ ، وألقى جيفته في النَّهر الَّذي كان تدور بمائه رحاه ، وبقر بطنه ، وأدخل فيه أصولاً من أصول طرفاء[٧] ، كانت نابتة في ذلك النَّهر لتجسَّ جثته في الموضع الَّذي ألقاه فيه ، فلا يسفل ، فيعرف ، ويطلب قاتله ، وما أخذ من سلبه ، وهرب على وجهه[٨] ، وجاء في رواية : . . . وجاءت التُّرك في طلبه فوجدوه قد قتله ، وأخذ حاصله ، فقتلوا ذلك الرَّجل وأهل بيته ،

---

(١) الأرحاء : جمع رحا ، وهي الطَّاحون .

(٢) المرغاب : نهرٌ بمروٍ .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٩٥) .

(٤) نذر : علم .

(٥) كالاً : متعباً .

(٦) لغباً : متعباً أشدَّ التعب .

(٧) طرفاء : شجر .

(٨) خلافة عثمان ، للسَّلمي ، ص(٥٧) .

وأخذوا ما كان مع كسرى ، ووضعوا كسرى في تابوتٍ ، وحملوه إلى إصطخر[١] .

وقد ذكر الطَّبريُّ حديثين مطوَّلين ، وأحدهما أطول من الآخر يتضمَّن ضروباً من الاضطرابات تقلَّب فيها ، وأنواعاً من الدَّوائر دارت عليه حتَّى كانت منيته آخرها[٢] ، وقد قال يزدجرد لمن أراد قتله في بعض الرِّوايات : ألا يقتلوه ، وقال لهم : ويحكم ! إنَّا نجد في كتبنا : أنَّ من اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في الدُّنيا ، مع ما هو قادم عليه ، فلا تقتلوني وائتوا بي إلى الدِّهقان ، أو سرِّحوني إلى العرب ، فإنَّهم يستحيون مثلي من الملوك[٣] .

وكان مُلْك يزدجرد عشرين سنة ، منها أربع سنين في دَعَة ، وباقي ذلك هارباً من بلدٍ إلى آخر ، خوفاً من الإسلام ، وأهله ، وهو آخر ملوك الفرس في الدُّنيا على الإطلاق[٤] ، فسبحان ذي العظمة والملكوت ، الملك الحقُّ الحيُّ الدَّائم الَّذي لا يموت ، لا إلٰه إلا هو ، كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون[٥] .

وقد قال رسول الله ﷺ في ملوك الفرس ، والرُّوم : « إذا هلك قَيصر ؛ فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى ؛ فلا كسرى بعده ، والَّذي نفسي بيده لتُنْفَقَنَّ كنوزُهما في سبيل الله »[٦] .

سادساً : تعاطف النَّصارى مع (يزدجرد) بعد مقتله :

بلغ قتل يزدجرد رجلاً من أهل الأهواز كان مُطراناً على مرو ، يقال له : إيلياء ، فجمع مَنْ كان قبله من النَّصارى ، وقال لهم : إنَّ ملك الفرس قد قُتل ، وهو ابن شهريار بن كسرى ، وإنَّما شهريار ولد شيرين المؤمنة الَّتي قد عرفتم حقَّها ، وإحسانها إلى أهل ملَّتها من غير وجهٍ ، ولهذا الملك عنصرٌ في النَّصرانية مع ما نال النَّصارى في ملك جدِّه كسرى من الشَّرف ، وقبل ذلك في مملكة ملوكٍ من أسلافه من الخير ، حتَّى بنى لهم بعض البِيَع ، وسدَّد لهم بعض ملَّتهم ، فينبغي لنا أن نحزن لقتل هذا الملك من كرامته بقدر إحسان أسلافه ، وجدَّته شيرين إلى النَّصارى ، وقد رأيت أن أبني له ناووساً[٧] ، وأحمل جثَّته في كرامةٍ ؛ حتَّى أواريها فيه . فقال النَّصارى : أمرنا لأمرك أيُّها المطران تبعٌ ، ونحن لك على رأيك هذا مواطئون . فأمر المطران فبنى في جوف بستان المطارنة بمرو ناووساً ، ومضى بنفسه ومعه نصارى مرو حتَّى استخرج جثة يزدجرد من

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٩٧) .

(٢) الاكتفاء ، للكلاعي (٤/ ٤١٧) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، (٤/ ٤١٨) . وتاريخ الطَّبري (٥/ ٣٠٢) .

(٤) خلافة عثمان ، د . محمَّد السَّلمي ، ص(٥٧) .

(٥) الاكتفاء للكلاعي (٤/ ٤١٩) .

(٦) مسلم في الفتن ، رقم (٢٩١٨ـ٢٩١٩) .

(٧) النَّاووس : حجرٌ منقورٌ تجعل فيه جثَّة الميت .

النّهر ، وكفَّنها ، وجعلها في تابوتٍ ، وحمله من كان معه من النَّصارى على عواتقهم حتَّى أتوا به النَّاووس الّذي أمر ببنائه له ، وواروه فيه ، وردموا بابه[(١)] .

سابعاً : فتوحات عبد الله بن عامر ٣١ هـ :

في هذه السَّنة ٣١ هـ شخص عبد الله بن عامر إلى خراسان ، ففتح أبرشهر ، وطوس ، وبيورد ، ونسا ؛ حتَّى بلغ سَرخَس ، وصالح فيها أهل مرو ، وقد جاء في روايةٍ عن السَّكن بن قتادة العُرَيْنيِّ قال : فتح ابن عامر فارس ، ورجع إلى البصرة ، واستعمل على إصطخر شريك بن الأعور الحارثيَّ ، فبنى شريكٌ مسجد إصطخر ، فدخل على ابن عامر رجلٌ من بني تميم كنا نقول : إنَّه الأحنف ـ ويقال : أوس بن جابر الجُشمَيُّ جُشَم تميم ـ فقال له : إنَّ عدوك منك هاربٌ ، وهو لك هائبٌ ، والبلاد واسعةٌ ، فسر ؛ فإنَّ الله ناصرك ، ومعزٌّ دينه ، فتجهَّز ابن عامر ، وأمر النَّاس بالجهاز للمسير ، واستخلف على البصرة زياداً ، وسار إلى كرمان ، ثمَّ أخذ إلى خراسان ، فقومٌ يقولون : أخذ طريق أصبهان ، ثمَّ سار إلى خراسان ، واستعمل على كرمان مجاشعَ بن مسعودٍ السُّلميَّ ، وأخذ ابن عامر على مفازة وابَر ، وهي ثمانون فرسخاً ، ثمَّ سار إلى الطَّبَسَين يريد أبْرَشهر ، وهي مدينة نيسابور ، وعلى مقدِّمته الأحنف بن قيس ، فأخذ إلى قُهستان ، وخرج إلى أبرشهر ، فلقيه الهياطلة ، وهم أهل هَراة ، فقاتلهم الأحنف ، فهزمهم ، ثمَّ أتى ابن عامر نيسابور[(٢)] .

وجاء في روايةٍ : نزل ابن عامر على أبرشهر ، فغلب على نصفها عَنْوَةً ، وكان النِّصف الآخر في يد كنارَى ، ونصف نسا ، وطوس ، فلم يقدر ابن عامر أن يجوز إلى مرو ، فصالح كنارَى ، فأعطاه ابنه أبا الصَّلت بن كنارى ، وابن أخيه سليماً رهناً ، ووجَّه عبد الله بن خازم إلى هراة ، وحاتم بن النُّعمان إلى مرو ، وأخذ ابن عامر ابني كنارى ، فصارا إلى النَّعمان بن الأفقم النصري ، فأعتقهما[(٣)] ، وفتح ابن عامر ما حول مدينة أبرشهر ، كطوس ، وبيوَرْد ، ونَسا ، وحُمران ، حتَّى انتهى إلى سَرخَس ، وسرَّح ابن عامر الأسود بن كلثوم العدويَّ ـ عديَّ الرَّباب ـ إلى بَيْهق ، وهو من أبرشهر ، بينهما وبين أبرشهر ستة عشر فرسخاً ، ففتحها وقُتل الأسود بن كلثوم ؛ وكان فاضلاً في دينه ، وكان من أصحاب عبد الله بن عامر العنبريِّ ، وكان ابن عامر يقول بعدما أخرج من البصرة : ما آسى من العراق على شيءٍ إلا على ظمأ الهواجر ، وتجاوب المؤذِّنين ، وإخوان مثل الأسود بن كلثوم[(٤)] .

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٠٤) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٣٠٥) .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٠٦) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، (٥/ ٣٠٧) .

واستطاع ابن عامر أن يتغلَّب على نيسابور ، وخرج إلى سرخس ، فأرسل إليه أهل مرو يطلبون الصُّلح ، فبعث إليهم ابن عامر حاتم بن النُّعمان الباهليَّ ، فصالح براز مرزبان مرو على ألفي ألفٍ ومئتي ألفٍ[١] .

ثامناً : غزو الباب وبَلَنْجَر سنة اثنتين وثلاثين :

كتب عثمان بن عفَّان رضي الله عنه إلى سعيد بن العاص : أن أغزِ سلمان الباب ، وكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب : إنَّ الرَّعية قد أبطر كثيراً منهم البطنةُ ، فقصِّر ، ولاتقتحم بالمسلمين ، فإنِّي خاشٍ أن يُبتلوا ، فلم يزجر ذلك عبد الرَّحمن عن غايته ، وكان لا يقصِّر عن بلنجر ، فغزا سنة تسع من إمارة عثمان حتَّى إذا بلغ بلنجر ، حصروها ، ونصبوا عليها المجانيق ، والعرَّادات[٢] ، فجعل لا يدنو منه أحد إلا أعنتوه ، أو قتلوه ، فأسرعوا في النَّاس[٣] .

ثمَّ إنَّ التُّرك اتَّعدوا يوماً ، فخرج أهل بلنجر ، وتوافت إليهم التُّرك ، فاقتتلوا ، فأصيب عبد الرَّحمن بن ربيعة ـ وكان يقال له : ذو النُّور ـ وانهزم المسلمون ، فتفرَّقوا ، فأما من أخذ طريق سلمان بن ربيعة ، فحماه حتَّى خرج من الباب ، وأمَّا من أخذ طريق الخزر ، وبلادها ، فإنَّه خرج على جيلان ، وجُرجان ، وفيهم سلمان الفارسيُّ ، وأبو هريرة ، وأخذ القوم جسد عبد الرَّحمن فجعلوه في سَفَط ، فبقي في أيديهم ، فهم يستسقون به إلى اليوم ، ويستنصرون به[٤] .

١ـ مقتل يزيد بن معاوية :

غزا أهل الكوفة بلنجر سنين من إمارة عثمان لم تئِم[٥] فيهنَّ امرأةٌ ، ولم ييتم فيهنَّ صبيٌّ من قتلٍ ، حتَّى كان سنة تسع ـ من خلافة عثمان ـ قبل المزاحفة بيومين رأى يزيد بن معاوية : أنَّ غزالاً جيء به إلى خبائه ، لم ير غزالاً أحسن منه ، حتَّى لُفَّ في ملحفته ، ثمَّ أتي به قبرٌ عليه أربعة نفرٍ ، لم ير قبراً أشدَّ استواءً منه ، ولا أحسن منه حتَّى دُفن فيه ، فلمَّا تفادى النَّاس على الترك ، رمي يزيد بحجرٍ ، فهشم رأسه ، فكأنما زيِّن ثوبه بالدِّماء زينةً ، وليس بتلطُّخٍ ، فكان ذلك الغزال الَّذي رأى[٦] ، وكان يزيد رقيقاً جميلاً ـ رحمه الله ـ ، وبلغ ذلك عثمان ، فقال : إنَّا لله

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) العرَّادة : آلة حربيَّة كالمنجنيق ترمي بالحجارة المرمى البعيد لدكِّ الحصون .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٠٨) .

(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٠٩) .

(٥) لم تئم امرأةٌ : لم تفقد زوجها .

(٦) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣١٠) أي : في نومه .

وإنا إليه راجعون ! انتكث أهل الكوفة ، اللّهمَّ تب عليهم ، وأقْبل بهم[١] !

٢ـ ما أحسن حمرة الدِّماء في بياضك !

كان عمرو بن عتبة يقول لقباءٍ عليه أبيضَ : ما أحسن حمرة الدِّماء في بياضك ! فأصيب عند الالتحام مع العدوِّ بجراحةٍ ، فرأى قباءه كما اشتهى ، وقتل[٢] .

٣ـ ما أحسن لمع الدِّماء على الثياب !

كان القرَّشَع يقول : ما أحسن لمع الدِّماء على الثياب ! فلمَّا كان يوم المزاحفة ؛ قاتل القرَّشَع حتَّى خُرِّق بالحراب ، فكأنَّما كان قباؤه ثوباً أرضه بيضاء ، ووشيه أحمر ، وما زال النَّاس ثبوتاً حتَّى أصيب ، وكانت هزيمة النَّاس مع مقتله[٣] .

٤ـ إنَّ هؤلاء يموتون كما تموتون :

كان التُّرك ـ في تلك المعركة ـ قد اختفوا في الغياض[٤] ، وكانوا قد خافوا المسلمين ، واعتقدوا أنَّ السلاح لا يعمل فيهم ! واتَّفق : أنَّ تركيّاً اختفى في غيضةٍ ، ورشق مسلماً بسهم فقتله ، فنادى في قومه : إنَّ هؤلاء يموتون كما تموتون ، فلِمَ تخافوهم ؟ فاجترأ التُّرك على المسلمين ، وخرجوا عليهم من مكامنهم ، وأوقعوا بهم ، واشتدَّ القتال ، فثبت عبد الرحمن حتَّى استشهد[٥] .

٥ـ صبراً آل سلمان !

جاء في روايةٍ أخرى : حين استشهد عبد الرَّحمن ؛ أخذ الرَّاية أخوه سلمان بن ربيعة الباهليُّ ، وقتل بها ، ونادى منادٍ : (صبراً آل سلمان !) فقال سلمان : أو ترى جَزَعاً ! ! وخرج سلمان ، ومعه أبو هريرة الدَّوسيُّ على جيْلان[٦] ، فقطعوها إلى جُرجان[٧] منسحباً من معركة خاسرة[٨] ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، (٥/ ٣١١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، (٥/ ٣١٠) .
(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣١٠) .
(٤) الغياض : جمع غيضة ، وهي المواضع الَّتي يكثر فيها الشَّجر ، ويلتفُّ .
(٥) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، محمود شيت خطَّاب ، ص(١٥١) .
(٦) جيلان : اسم لبلادٍ كثيرةٍ من وراء بلاد طبرستان .
(٧) جرجان : مدينةٌ مشهورةٌ عظيمةٌ بين طبرستان ، وخراسان .
(٨) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٠٩) . وقادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص(١٥١) .

بعد أن دفن أخاه عبد الرَّحمن بنواحي بلنجر[١] ، وبهذا الانسحاب أنقذ سلمان بقيَّةً باقيةً من جيش أخيه[٢] .

وقد رجَّح هذه الرِّواية محمود شيت خطَّاب ، وقال : إنَّ الانسحاب أشبه بقتال المسلمين يومئذٍ ، وذلك في حالة اشتداد الضَّغط عليهم من العدوِّ ، وتكبُّدهم خسائر فادحةً بالأرواح ، والانسحاب هو من أجل الانحياز إلى فئةٍ من المسلمين ، ليعيدوا الكرَّة ثانيةً ، على عدوِّهم ، وقد جاء سلمان بن ربيعة مدداً لعبد الرَّحمن بأمر عثمان بن عفَّان ، فليس من المعقول أن يبقى ومدده في (الباب) ، وليس من المعقول أن يتركه أخوه عبد الرَّحمن هناك ، وهو يخوض معركةً قاسية شرسةً ، يكون فيها القائد بأمسِّ الحاجة إلى الجنديِّ الواحد ، فكيف يترك عبد الرَّحمن جيشاً كاملاً على رأسه أخوه دون أن يستفيد منه في المعركة ؟

إنَّ المؤرِّخين القُدامى كانوا يستعملون تعبير : (الهزيمة) وهم يريدون بها تعبير الانسحاب ؛ ذلك لأنَّ أكثرهم مدنيُّون لا يفرِّقون بين هذين التَّعبيرين : (الهزيمة) ترك ساحة القتال بدون نظامٍ ، ولا قيادةٍ ، فهي كارثةٌ ، و(الانسحاب) ترك ساحة القتال وفق خُطةٍ مرسومةٍ بقيادةٍ واحدةٍ ، فهو ـ أي : الانسحاب ـ صفحةٌ من صفحات القتال ، الهدف منه إعادة الكرَّة على العدوِّ بعد إكمال متطلبات المعركة عدداً ، وعُدداً ، وعسى ألا يقع المؤرخون المحدثون في مثل هذا الخطأ في التَّعبير ، فلا يفرِّقون بين (الهزيمة) و(الانسحاب) ؛ لأنَّ الفرق بين التَّعبيرين شاسعٌ بعيد[٣] .

تاسعاً : أوَّل اختلاف وقع بين أهل الكوفة ، وأهل الشام ٣٢ هـ :

لما قتل عبد الرَّحمن بن ربيعة ، استعمل سعيدُ بن العاص على ذلك الفرع سلمان بن ربيعة ، وأمدَّهم عثمان بأهل الشَّام : عليهم حبيب بن مسلمة ، فتنازع حبيب وسلمان على الإمرة ، وقال أهل الشَّام : لقد هممنا بضرب سلمان ، فقال في ذلك النَّاس : إذاً والله نضرب حبيباً ، ونحبسه ، وإن أبيتم ؛ كثرت القتلى فيكم ، وفينا ، حتَّى قال في ذلك رجلٌ من أهل الكوفة ، وهو أوس بن مغراء :

إنْ تَضْرِبُوا سَلْمَانَ نَضْرِبْ حَبِيْبَكُمْ ... وَإِنْ تَرْحَلُوا نَحْوَ ابْنِ عفَّانَ نَرْحَلُ

وَإِنْ تُقْسِطُوا فَالثَّغْرُ ثَغْرُ أَمِيْرِنَا ... وَهٰذَا أَمِيْرٌ فِي الكَتَائِبِ مُقْبِلُ

---

(١) معجم البلدان (٢/ ٢٧٨) .

(٢) قادة الفتح الإسلاميِّ في أرمينية ، ص(١٥١) .

(٣) قادة الفتح الإسلاميِّ في أرمينية ، ص(١٥٢ ، ١٥٣) .

وَنَحْــنُ وُلاَةُ الثَّغْــرِ كُنَّــا حُمَــاتَــهُ لَيَــالِــيَ نَــرْمِــي كُــلَّ ثَغْــرٍ ونُنْكِــلُ[١]

وتغلَّب المسلمون على الفتنة بتوفيق الله ، ثمَّ بوجود أمثال حذيفة بن اليمان ؛ الَّذي كان على الغزو بأهل الكوفة ، فقد غزا ذلك الثَّغر ثلاث غزواتٍ ، فقُتل عثمان رضي الله عنه في الثَّالثة[٢] .

عاشراً : فتوحات ابن عامرٍ سنة اثنتين وثلاثين :

وفيها فتح ابن عامر مرو الرُّوذ ، والطَّالقان ، والفارياب ، والجُوزجان ، وطُخارستان ، فقد بعث ابن عامرٍ الأحنف بن قيس إلى مرو روذ ، فحصر أهلها ، فخرجوا إليهم ، فقاتلوهم ، فهزمهم المسلمون حتَّى اضطروهم إلى حصنهم ، فأشرفوا عليه ، وقالوا : يا معشر العرب ! ما كنتم عندنا كما نرى ، ولو علمنا أنَّكم كما نرى لكانت لنا ، ولكم حالٌ غير هذه ، فأمهلونا ننظر يومنا ، وارجعوا إلى عسكركم ، فرجع الأحنف ، فلمَّا أصبح غاداهم ، وقد أعدُّوا له الحرب ، فخرج رجلٌ من العجم معه كتاب من المدينة ، فقال : إنِّي رسول فأمِّنوني ! فأمَّنوه ، فإذا رسول من مرزبان مرو ابن أخيه ، وترجمانه ، وإذا كتاب المرزبان إلى الأحنف ، فقرأ الكتاب ، قال : فإذا هو إلى أمير الجيش ، إنَّا نحمد الله الَّذي بيده الدُّول ، يغيِّر ما شاء من الملك ، ويرفع من شاء بعد الذِّلَّة ، ويضع من شاء بعد الرِّفعة : إنَّه دعاني إلى مصالحتك ، وموادعتك ما كان من إسلام جدِّي ، وما كان رأى من صاحبكم من الكرامة ، والمنزلة ، فمرحباً بكم ، وأبشروا ، وأنا أدعوكم إلى الصُّلح فيما بينكم ، وبيننا ، على أن أؤدِّي إليكم خراجاً ستين ألف درهم ، وأن تُقِرُّوا بيدي ما كان ملك الملوك كسرى أقطع جدَّ أبي حيث قتل الحية التي أكلت النَّاس ، وقطعت السَّبيل من الأرضين والقرى بما فيها من الرِّجال ، ولا تأخذوا من أحدٍ من أهل بيتي شيئاً من الخراج ، ولا تخرج المرزبة[٣] من أهل بيتي إلى غيركم ، فإن جعلتَ ذلك لي ؛ خرجتُ إليك ، وقد بعثت إليك ابن أخي ماهَك ؛ ليستوثق منك . فكتب إليه الأحنف :

بسم الله الرحمن الرَّحيم ، من صخر بن قيس أمير الجيش إلى باذان مرزبان مرو روذ ومن معه من الأساورة ، والأعاجم . سلامٌ على من اتَّبع الهدى ، وآمن ، واتَّقى . أما بعد : فإنَّ ابن أخيك ماهك قدم عليَّ ، فنصح لك جهده ، وأبلغ عنك ، وقد عرضت ذلك على من معي من المسلمين ، وأنا وهم فيما عليك سواءٌ ، وقد أجبناك إلى ما سألت ، وعرضت على أن تؤدِّي عن

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣١١) . والبداية والنِّهاية (٧/ ١٦٦) .
(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣١١) .
(٣) المرزبة : الرِّئاسة عند العجم . والمرزبان : الرَّئيس المقدَّم فيهم .

أكرتك[١] ، وفلاحيك ، والأرضين الّتي ذكرت : أن كسرى الظالم لنفسه أقطع جدَّ أبيك لما كان من قتله الحيَّة ؛ الّتي أفسدت الأرض ، وقطعت السبيل ، والأرض لله ولرسوله يورثها من يشاء من عباده ، وإنَّ عليك نصرة المسلمين ، وقتال عدوِّهم بمن معك من الأساورة ، إن أحبَّ المسلمون ذلك ، وأرادوه ، وإنَّ لك على ذلك نصرة المسلمين على من يقاتل مَنْ وراءك من أهل ملَّتك ، جارٍ لك بذلك منِّي كتابٌ يكون لك بعدي ، ولا خراج عليك ، ولا على أحد من أهل بيتك من ذوي الأرحام ، وإن أنت أسلمت ، واتَّبعت الرَّسول ؛ كان لك من المسلمين العطاء ، والمنزلة ، والرِّزق ، وأنت أخوهم ، ولك بذلك ذمَّتي ، وذمَّة أبي ، وذمم المسلمين وذمم آبائهم .

شهد على ما في هذا الكتاب جَزْءُ بن معاوية ـ أو معاوية بن جَزْءٍ السَّعديُّ ـ وحمزة بن الهرماس ، وحُميد بن الخيار المازنيَّان ، وعياض بن ورقاء الأسيديُّ . وكتبه كيسان مولىٰ بني ثعلبة يوم الأحد من شهر المحرّم ، وختم أمير الجيش الأحنف بن قيس ، ونقش خاتم الأحنف : نعبد الله[٢] .

الحادية عشرة : القتال بين جيش الأحنف وأهل طخارستان والجوزجان ، والطَّالقان ، والفاريان :

صالح ابن عامر أهل مرو ، وبعث الأحنف في أربعة آلاف إلى طخارستان ، فأقبل ؛ حتَّى نزل موضع قصر الأحنف من مرو روذ ، وجمع له أهل طُخارستان ، وأهل الجوزجان ، والطالقان ، والفاريان ، فكانوا ثلاثة زحوفٍ ثلاثين ألفاً ، وأتى الأحنف خبرهم ، وما جمعوا له ، فاستشار النَّاس ، فاختلفوا ، فبين قائلٍ : نرجع إلى مرو ، وقائل : نرجع إلى أبْرشهر ، وقائل : نقيم نستمدُّ ، وقائل : نلقاهم فنناجزهم ؛ فلمَّا أمسى الأحنف ؛ خرج يمشي في العسكر ، ويستمع حديث النَّاس ، فمرَّ بأهل خباءٍ ، ورجلٍ يوقد تحت خزيرةٍ[٣] ، أو يعجن ، وهم يتحدَّثون ، ويذكرون العدوَّ ، فقال بعضهم : الرأي للأمير أن يسير إذا أصبح ، حتَّى يلقى القوم حيث لقيهم ـ فإنَّه أرعب لهم ـ فيناجزهم . فقال صاحب الخزيرة ، أو العجين : إن فعل ذلك ؛ فقد أخطأ ، وأخطأتم ؛ أتأمرونه أن يلقي حدَّ العدو مصحِّراً في بلادهم ، فيلقى جمعاً كثيراً بعددٍ قليل ، فإن جالوا جولةً اصطلمونا[٤] ؛ ولكنَّ الرأي له أن ينزل بين المرغاب ، والجبل ، فيجعل المرغاب عن يمينه ، والجبل عن يساره ، فلا يلقاه من عدوِّه وإن كثروا إلا عدد أصحابه .

---

(١) الأكرة : جمع أكَّار : الحرَّاث .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/٣١٦) .

(٣) الخزيرة : الحساء من الدَّسم ، والدَّقيق .

(٤) اصطلم : اقتلعه من أصله .

فرجع الأحنف وقد اعتقد ما قال ، فضرب عسكره ، وأقام فأرسل إليه أهل مرو يعرضون عليه أن يقاتلوا معه ، فقال : إني أكره أن أستنصر بالمشركين ، فأقيموا على ما أعطيناكم ، وجعلنا بيننا ، وبينكم ، فإن ظفرنا ؛ فنحن على ما جعلنا لكم ، وإن ظفروا بنا ، وقاتلوكم ، فقاتلوا عن أنفسكم ؛ فوافق المسلمين صلاة العصر ، فعاجلهم المشركون فناهضوهم ، فقاتلوهم وصبر الفريقان حتَّى أمسوا ، والأحنف يتمثَّل بشعر ابن جُؤيَّة الأعرجي :

أَحَقُّ مَنْ لَمْ يَكْرَهِ المَنِيَّة حَزَوَّرٌ[1] لَيْسَ لَهُ ذُرِّيَّة[2]

وجاء في رواية : . . . فقاتلهم حتَّى ذهب عامَّة اللَّيل ، ثمَّ هزمهم الله ، فقتلهم المسلمون حتَّى انتهوا إلى رَسْكن ـ وهي على اثني عشر فرسخاً من قصر الأحنف ـ وكان مرزبان مرو روذ قد تربَّص بحمل ما كانوا صالحوه عليه ، لينظر ما يكون من أمرهم ، فلمَّا ظفِر الأحنف ؛ سرَّح رجلين إلى المرزبان ، وأمرهما ألا يكلماه حتَّى يقبضاه ، ففعلا ؛ فعلم أنَّهم لم يصنعوا ذاك به إلا وقد ظفروا ، فحمل ما كان عليه[3] ، وبعث الأحنف الأقرع بن حابس في جريدة خيلٍ[4] ، إلى الجوزجان حيث بقيَّةٌ كانت بقيت من الزُّحوف الّذين هزمهم الأحنف ، فقاتلهم ، فجال المسلمون جولةً ، فقُتل فرسان من فرسانهم ، ثمَّ أظفر الله المسلمين بهم ، فهزموهم ، وقتلوهم ، فقال كُثيِّر النَّهشليُّ :

سَقَى مُزْنُ السَّحَاب إذَا استهلَّت[5] مَصَارِعَ فِتْيَةٍ بِالجُوزَجَانِ
إلَى القَصْرَيْنِ مِنْ رُسْتَاقِ خُوْطٍ أَقَادَهُمُ هُنَاكَ الأَقْرَعَانِ[6]

الثانية عشرة : صلح الأحنف مع أهل بلخ ٣٢ هـ :

سار الأحنف من مرو الرُّوذ إلى بلخ ، فحاصرهم ، فصالحه أهلها على أربعمئة ألفٍ ، فرضي منهم بذلك ، واستعمل ابن عمِّه ، وهو أسيد بن المتشمِّس ؛ ليأخذ منهم ما صالحوه عليه ، ومضى إلى خوارِزْم ، فأقام حتَّى هجم عليه الشِّتاء ، فقال لأصحابه : ما تشاؤون ؟ فقالوا : قد قال عمرو بن معد يكرب :

---

(١) الحزوَّر : الغلام القوي .
(٢) تاريخ الطَّبري (٥/٣١٧) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) جريدة الخيل : كتيبة الخيل ؛ الَّتي لا رجَّالة فيها .
(٥) استهلت السَّحابة : أمطرت ، واشتدَّ مطرها .
(٦) تاريخ الطَّبري (٥/٣١٨) .

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَمْراً فَدَعْهُ وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيْعُ

فأمر الأحنف بالرَّحيل ، ثمَّ انصرف إلى بلخ ، وقد قبض ابن عمِّه ما صالحهم عليه ، وكان وافق وهو يجيبهم المهرجان ، فأهدوا إليه هدايا من آنية الذَّهب ، والفضَّة ، ودنانير ، ودراهم ، ومتاع ، وثياب ، فقال ابن عمِّ الأحنف : هذا ما صالحناكم عليه ؟ قالوا : لا ، ولكن هذا شيءٌ نصنعه في هذا اليوم بمن وَلِينا ، نستعطفه به ، قال : وما هذا اليوم ؟ قالوا : المهرجان ، قال : ما أدري ما هذا ؟ وإنِّي لأكره أن أردَّه ، ولعلَّه من حقِّي ، ولكن أقبضه وأعزله حتَّى أنظر فيه ، فقبضه ، وقدم الأحنف ، فأخبره ، فسألهم عنه ، فقالوا له مثل ما قالوا لابن عمِّه ، فقال : آتي به الأمير ، فحمله إلى ابن عامر ، فأخبره عنه ، فقال : اقبضه يا أبا بحر ! فهو لك . قال : لا حاجة لي فيه ، فقال ابن عامر : ضمَّه إليك يا مسمار ! فضمَّه القرشيُّ ، وكان مضمّاً[١] .

الثالثة عشرة : لأجعلنَّ شكري لله على ذلك أن أخرج مُحْرِماً معتمراً من موقفي هذا :

لما رجع الأحنف إلى ابن عامرٍ ؛ قال النَّاس لابن عامر : ما فُتح على أحدٍ ما قد فُتح عليك : فارس ، وكرمان ، وسجستان ، وعامة خراسان ! قال : لا جرم ، لأجعلنَّ شكري لله على ذلك أن أخرج مُحرماً معتمراً من موقفي هذا ! فأحرم بعمرةٍ من نيسابور ، فلمَّا قدم على عثمان لامه على إحرامه من خراسان ، وقال : ليتك تضبط ذلك من الوقت الَّذي يحرم منه النَّاس[٢] !

الرَّابعة عشرة : هزيمة (قارِنْ) في خراسان :

لمَّا رجع ابن عامر من الغزو ؛ استخلف قيس بن الهيثم على خراسان ، فأقبل قارن في جمع من التُّرك أربعين ألفاً ، فالتقاه عبد الله بن خازم السُّلمي في أربعة آلاف ، وجعل له مقدِّمةً ستَّمئة رجلٍ ، وأمر كُلاًّ منهم أن يجعل رأس رُمحه ناراً ، وأقبلوا إليهم في وسط اللَّيل فبيَّتوهم ، فثاروا إليهم ، فناوشتهم المقدِّمة ، فاشتغلوا بهم ، وأقبل عبد الله بن خازم بمن معه من المسلمين ، فأحاطوا بهم ، فولَّى المشركون مدبرين ، واتَّبعهم المسلمون يقتلون من شاؤوا ، وقُتلَ قارن فيمن قُتل ، وغنموا سبياً كثيراً ، وأموالاً جزيلةً ، ثمَّ بعث عبد الله بن خازم بالفتح إلى ابن عامر ، فرضي عنه ، وأقرَّه على خراسان ، وذلك : أنَّه كان قد احتال على الوالي السَّابق قيس بن الهيثم السُّلميِّ حتَّى أخرجه من خراسان ، ثمَّ تولَّى حرب قارن ، فلمَّا هزمه ، وغنم عسكره ؛ رضي عليه ابن عامر ، وأقرَّه على ولاية خراسان[٣] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٣١٩) .

(٢) البداية والنِّهاية (٧/ ١٦٧) . وتاريخ الطَّبري (٥/ ٣١٩) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، (٧/ ١٦٧) .

وهكذا تصدَّى الخليفة الرَّاشد عثمان لحركات التمرُّد في المشرق وواصل فتوحاته ، ولم تفتَّ تلك الثَّورات في عضد المسلمين ، ولم تنل من عزم الخليفة الّذي كان كفؤاً لها ، حيث واجهها بالعزم ، والرَّأي ، والسُّرعة في تصريف الأمور ، وتسيير النَّجدات ، وإسناد كلِّ عملٍ إلى من يحسنه ، كما يظهر من تتبُّع الأحداث في تاريخ الطَّبري ، وابن كثير ، والكلاعي ، بما لا يدع شكّاً في أنَّ اختيار عثمان للقادة الّذين قاموا بهذه الانتصارات ، وتطويق هذه القلاقل كان اختياراً موفَّقاً ، مع العلم بأن أعباء الجهاد كانت أشقَّ ، وأكبر ، وأحوج إلى التَّوجيه النَّاجز ، لامتداد خطوط القتال ، وتعدُّد الفتن ، وتباعد المسافات بين البلدان ، إنَّ علاج تلك المعضلات الّتي فاجأت عثمان رضي الله عنه بعد ولايته ، وتصدَّى لها بالعزم ، والسَّداد ، والسُّرعة ، والحيطة ، والأناة لَدليلٌ على قوَّة شخصيته ، ونفاذ بصيرته ، وكان له بعد ذلك أكبر الفضل ـ بعد الله ـ في تثبيت مهابة الدَّولة بعدما أصابها من الوهن ، والتَّخلخل عند مقتل عمر رضي الله عنه ، وكانت ثمرات تلك الوقفات الرَّائعة :

أ ـ إخضاع المتمرِّدين ، وإعادة سلطة المسلمين عليهم .

ب ـ ازدياد الفتوحات الإسلاميَّة إلى ما وراء البلاد المتمرِّدة ؛ منعاً لارتداد الهاربين إليها ، وانبعاث الفتن ، والدَّسائس من قِبَلها .

ج ـ اتِّخاذ المسلمين قواعد ثابتةً يرابط بها المسلمون لحماية البلاد ؛ الّتي خضعت للمسلمين .

فهل كانت تلك الفتوحات العظيمة ، والسِّياسة الحكيمة ، والضَّبط للأقاليم يمكن أن تتحقَّق لو كان عثمان رضي الله عنه ضعيفاً ، غير قادر على اتِّخاذ القرار ؟ ![1] كما يزعم مَنْ وقع ، وتورَّط في روايات الإمامية ، والتَّشيُّع ، والاستشراق ، ومن سار على نهجهم السَّقيم .

الخامسة عشرة : من قادة فتح بلاد المشرق في عهد عثمان : الأحنف بن قيس :

كانت الفتوحات في عهد عثمان رضي الله عنه عظيمة ، فرأيت من المناسب أن نسلط الأضواء على بعض قادة الفتوح في عهد عثمان ، وبما أنني تحدثت عن فتوح المشرق ، فلا بد إذن من إعطاء صورة مشرقة عن أحد قادة تلك الفتوح ، فاخترت :

الأحنف بن قيس :

١ ـ نسبه وأهله :

هو أبو بحر الأحنف بن قيس بن معاوية بن حُصَين بن حَفص بن عبادة التَّميمي[2] ، واسمه :

---

(١) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/٤٠٨ ، ٤٠٩) .

(٢) جمهرة أنساب العرب ، ص(٢١٧) . وطبقات ابن سعد (٧/ ٩٥) .

الضَّحاك. وقيل: صخر[١]، وأمُّه: حبَّة بنت عمرو بن قُرْط الباهليَّة[٢]، كان أخوها الأخطل بن قُرط من الشُّجعان، وقد قال الأحنف مفاخراً بخاله هذا: وَمَنْ له خالٌ مثل خالي؟![٣].

٢ـ حياته:

كان من سادات التَّابعين، وأكابرهم، وسيِّداً مطاعاً في قومه[٤]، وسيِّد أهل البصرة[٥]، وكان موضع ثقة النَّاس جميعاً بمختلف طبقاتهم، وأهوائهم، وميولهم، وكان أحد الحكماء الدُّهاة العقلاء[٦]، ذا دينٍ، وذكاءٍ، وفصاحةٍ[٧]، وكان سيِّد قومه موصوفاً بالعقل، والدَّهاء، والعلم، والحلم، يضرب بحلمه المثل، وقد قال فيه الشَّاعر:

إِذَا الأَبْصَارُ أَبْصَرَتِ ابْنَ قَيْسٍ ظَلَلْنَ مَهَابَةً مِنْهُ خُشُوعَا[٨]

وقال عنه خالد بن صفوان: كان الأحنف يفرُّ من الشَّرف، والشَّرف يتبعه[٩]، وإليك بعض صفاته الّتي أثرت فيمن حوله:

أ ـ حلمه:

كان الأحنف حليماً، يضرب بحلمه المثل، سئل عن الحلم: ما هو؟ فقال: الذُّلُّ مع الصَّبر. وكان يقول إذا عجب النَّاس من حلمه: إنِّي لأجد ما تجدون، ولكنِّي صبورٌ، ما تعلَّمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المِنقَريِّ[١٠]؛ لأنَّه قتل ابن أخٍ له بعضَ بنيه، فأتى القاتل مكتوفاً يُقاد إليه، فقال: ذعرتم الفتى! ثمَّ أقبل على الفتى، فقال: بئس ما فعلت! نقصت عددك، وأوهنت عضدك، وأشمتَّ عدوَّك، وأسأت لقومك. خلُّوا سبيله، واحملوا إلى أمِّ المقتول ديته، فإنَّها غريبةٌ! ثمَّ انصرف القاتل وما حلَّ قيسٌ حبوته، ولا تغيَّر وجهه[١١]. وقال

---

(١) قادة فتح السند، وأفغانستان، محمود خطَّاب، ص(٢٨٥).
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) جمهرة أنساب العرب، ص(٢١٢).
(٤) قادة فتح السِّند، وأفغانستان، ص(٣٠٤).
(٥) الإصابة (١/١٠٣). وأسد الغابة (١/٥٥).
(٦) قادة فتح السِّند، وأفغانستان، ص(٣٠٤).
(٧) المصدر السَّابق نفسه.
(٨) المصدر السَّابق نفسه.
(٩) تهذيب ابن عساكر (٧/١٣).
(١٠) الاستيعاب (٣/١٢٩٤).
(١١) وفيات الأعيان (٢/١٨٨).

رجلٌ للأحنف : علِّمني الحلم يا أبا بحر ! فقال : هو الذُّلُّ يا بن أخي ! أفتصبر عليه ؟ ! وقال : لست حليماً ، ولكنَّني أتحالم[١] .

ومن أخبار حلمه : أنَّ رجلاً شتمه ، فسكت عنه ، وأعاد الرَّجل ، فسكت عنه ، وأعاد ، فسكت عنه ، فقال الرَّجل : والهفاه ! ما يمنعه من أن يردَّ عليَّ إلا هوني عنده[٢] .

وكان يقول : من لم يصبر على كلمة سمع كلماتٍ ، وربَّ غيظٍ قد تجرَّعتُه مخافة ما هو أشدُّ منه[٣] .

ولكن حلمه كان حلم القويِّ القدير ، لا حلم العاجز الضَّعيف ، فقد قاتل في بعض المواطن قتالاً شديداً ، فقال له رجل : يا أبا بحر ! أين الحلم ؟ فقال : عند الحيِّ[٤] .

ب ـ عقله :

كان الأحنف عاقلاً راجح العقل ، قال مرَّةً : من كان فيه أربع خصال ساد قومه غير مدافعٍ : من كان له دينٌ يحجزه ، وحسبٌ يصونه ، وعقلٌ يرشده ، وحياءٌ يمنعه[٥] .

وقال : العقل خير قرين ، والأدب خير ميراثٍ ، والتَّوفيق خير رفيقٍ[٦] .

وقال : ما ذكرت أحداً بسوء بعد أن يقوم من عندي ، وكان يقول إذا ذكر عنده رجلٌ : دعوه يأكل رزقه ، ويأتي عليه أجله[٧] .

وشكا ابن أخيه وجع الضِّرس ، فقال : ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة ما ذكرتها لأحد[٨] .

وقال : ما نازعني أحدٌ فوقي إلا عرفت له قدره ، ولا كان دوني إلا رفعت قدري عنه ، ولا كان مثلي إلا تفضَّلت عليه[٩] .

ج ـ علمه :

كان عالماً ثقةً مأموناً قليل الحديث ، وقد روى عن عمر بن الخطَّاب ، وعثمان ابن عفَّان ،

---

(١) قادة فتح السِّند ، وأفغانستان ، ص(٣٠٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) قادة فتح السِّند ، وأفغانستان ، ص(٣٠٦) يعني بها : تركته في الدَّار .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .
(٦) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٩) .
(٧) المصدر السَّابق نفسه ، (٧/ ٢١) .
(٨) المصدر السَّابق نفسه ، (٧/ ١٦) .
(٩) قادة فتح السِّند ، وأفغانستان ، ص(٣٠٧) .

وعليٍّ بن أبي طالب ، وأبي ذرٍّ الغفاري[١] ، وروى عنه الحسن البصريُّ، وعُروة بن الزُّبير، وغيرهما[٢] ، وقد كان من الفقهاء البارزين أيَّام معاوية .

د ـ حكمته :

كان حكيماً ينطق بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، سئل عن المروءة ، فقال : التُّقى ، والاحتمال ، ثمَّ أطرق ساعةً ، وقال :

وَإِذَا جَمِيْـلُ الْـوَجْـهِ لَـمْ يَـأْتِ الجَمِيْـلَ فَمَـا جَمَـالُـه ؟ !
مَـا خَيْـرُ أَخْـلاَقِ الْفَتَـى إلا تُقَـاهُ وَاحْتِمَـالُـه

وسئل عن المروءة ، فقال : العفَّة في الدِّين ، والصَّبر على النَّوائب ، وبرُّ الوالدين ، والحلم عند الغضب ، والعفو عند المقدرة[٣] .

وقال : رأس الأدب آلة المنطق ، ولا خير في قولٍ إلا بفعلٍ ، ولا منظر إلا بمَخبر ، ولا في مالٍ إلا بجودٍ ، ولا في صديق إلا بوفاء ، ولا في فقه إلا بورعٍ ، ولا في صدقةٍ إلا بنيَّة[٤] .

وقال : أَحْيِ المعروف بإماتة ذكره[٥] ، وقال : كثرة الضَّحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئاً عُرف به[٦] ، وقال : جنِّبوا مجلسنا الطَّعام ، والنِّساء ، فإنِّي لأبغض الرَّجل يكون وصافاً لفرجه ، وبطنه ، وإنَّ المروءة أن يترك الرَّجل الطَّعام وهو يشتهيه[٧] .

وقال : السُّؤدد مع السَّواد . يريد : مَنْ لم يَطِرْ له اسمٌ على ألسنة العامَّة بالسُّؤدد ؛ لم ينفعه ما طار له في الخاصَّة[٨] .

هـ ـ بلاغته :

كان فصيحاً مفوَّهاً[٩] . خطب مرَّةً ، فقال : بعد حمد الله والثناء عليه : يا معشر الأزد ،

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٣) .
(٢) قادة فتح السِّند ، وأفغانستان ، ص(٣٠٨) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٩ـ٢٠) .
(٥) البداية والنِّهاية (٧/ ٣٣١) .
(٦) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٧) .
(٧) المصدر السَّابق نفسه ، (٢/ ١٨٨) .
(٨) قادة فتح السِّند ، وأفغانستان ، ص(٣٠٩) .
(٩) المصدر السَّابق نفسه

وربيعة ! أنتم إخواننا في الدِّين ، وشركاؤنا في الصِّهر ، وأشقَّاؤنا في النَّسب ، وجيراننا في الدَّار ، ويدنا على العدوِّ ، والله لأزد البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة ، ولأزد الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشَّام ، فإن استشرف شنآن حسد صدوركم ؛ ففي أحلامنا ، وأموالنا سَعَةٌ لنا ولكم[١] .

لقد كان حاضر البديهة ، قويَّ الحجَّة ، منطقيّاً . جاء الأحنف إلى قومٍ يتكلَّمون في دمٍ ، فقال : احكموا ! فقالوا : نحكم بديتين ! فقال : ذلك لكم . فلمَّا سكتوا ؛ قال : أنا أعطيكم ما سألتم ، غير أنِّي قائلٌ لكم شيئاً : إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قضى بديةٍ واحدةٍ ، وإن النَّبيّ ﷺ قضى بديةٍ واحدةٍ ، وأنتم اليوم طالبون ، وأخشى أن تكونوا غداً مطلوبين ، فلا يرضى النَّاس منكم إلا بمثل ما سننتم لأنفسكم ! ، فقالوا : نردَّها ديةً واحدةً[٢] .

وسمع الأحنف رجلاً يقول : ما أبالي : أمدحتُ ، أم ذُممت ، فقال له : لقد استرحت من حيث تعب الكرام[٣] .

و ـ إيثاره :

كان الأحنف يحبُّ لغيره ما يحبُّه لنفسه ، بل كان يؤثر غيره على نفسه بالخير ، والمعروف ، ويرضي نفسه الرَّضيَّة المطمئنة إلى ما أصاب غيره بجهده من خيرٍ ، فعندما جاء الأحنف إلى عمر في المدينة ، عرض أمير المؤمنين عليه جائزةً ، فقال : يا أمير المؤمنين ! والله ما قطعنا الفلوات ، ودأبنا الرَّوحات ، والعشيَّات للجوائز ، وما حاجتي إلا حاجة من خلفي ، فزاده ذلك عند عمر خيراً[٤] .

ز ـ أمانته :

كان الأحنف أميناً غاية الأمانة ، وقد مرَّ بنا عندما استعمل ابن عمِّه على أهل بلخ ، وقد قبض ابن عمِّه ما صالحوه عليه من آنية الذَّهب ، والفضَّة ، ودنانير ، ودراهم ، ومتاعٍ ، وثيابٍ ، فقال ابن عمِّه لهم : هذا ما صالحناكم عليه ؟ فقالوا : لا ! ولكن هذا شيءٌ نضعه في هذا اليوم بمن ولينا نستعطف به ، قال : وما هذا اليوم؟ فقالوا : المهرجان[٥] ، فقال : ما أدري ما هذا ! وإنِّي لأكره أن أردَّه ، ولعلَّه من حقِّي ، ولكن أقبضه ، وأعزله حتَّى أنظر ، فقبضه ، وقدم الأحنف ، فأخبره ، فسألهم عنه ، فقالوا مثل ما قالوا لابن عمِّه ، فقال : آتي به الأمير ، فحمله

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٨) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٢) .

(٥) المهرجان : أحد أعياد الفرس .

إلى عبد الله بن عامر، فأخبره عنه، فقال: اقبضه يا أبا بحر! فهو لك، فقال الأحنف: لا حاجة لي فيه[١]. لقد كان يتحرَّج من الهدايا، وكان يكتفي بسهمه من الغنائم[٢].

ح ـ أناته:

كان الأحنف شديد الأناة، لا يقدم على عملٍ إلا بعد أن يحسب له ألف حساب. قيل له: يا أبا بحر! إنَّ فيك أناة شديدة! فقال: قد عرفت من نفسي عجلةً في أمورٍ ثلاثة: في صلاتي إذا حضرت حتَّى أصلِّيها، وجنازتي إذا حضرت حتَّى أغيِّبها في حفرتها، وابنتي إذا خطبها كفيئها حتَّى أزوِّجه[٣].

ط ـ ورعه:

كان الأحنف مؤمناً ورعاً قويَّ الإيمان، فقد سارع إلى اعتناق الإسلام أوَّل ما بلغته الدَّعوة الإسلاميَّة، وأسلم قومه بإشارته[٤]، وبسط حمايته القويَّة الأمينة على الدُّعاة الأوَّلين[٥]، وثبت على عقيدته عندما ارتدَّ أكثر قومه، وأكثر العرب بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ، وجاهد للدِّفاع عنها، ونشرها حقَّ الجهاد، وأبلى في ذلك أعظم البلاء. قال الحسن البصريُّ عنه: ما رأيت شريف قوم أفضل منه[٦].

قال الأحنف: حبسني عمر بن الخطَّاب عنده بالمدينة سنةً، يأتيني كلَّ يوم وليلةٍ، فلا يأتيه عنِّي إلا ما يحبُّ[٧]، فكتب عمر بعد نجاح الأحنف في الاختبار العمريِّ ـ وما أصعبه، وأدقَّه من اختبار! ـ معه كتباً إلى الأمير على البصرة يقول: الأحنف سيِّد أهل البصرة[٨].

وكتب إلى أبي موسى الأشعريِّ أن يشاور الأحنف، ويسمع منه[٩].

وقال له عمر بعد أن حبسه حولاً عنده: يا أحنف! قد بلوتك، وخبرتك، فلم أرَ إلا خيراً،

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/٣١٩).

(٢) قادة فتح السِّند، وأفغانستان، ص(٣١٣).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/٩٦).

(٤) شذرات الذَّهب (١/٧٨).

(٥) قادة فتح السِّند، وأفغانستان، ص(٣١٤).

(٦) البداية والنِّهاية (٧/٣٣١).

(٧) قادة فتح السِّند، وأفغانستان، ص(٣١٤).

(٨) المصدر السَّابق نفسه.

(٩) تهذيب ابن عساكر (٧/١٢).

ورأيت علانيتك حسنةً ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك[١] .

لقد كان الأحنف رجلاً صالحاً كثير الصَّلاة باللَّيل ، وكان يسرج المصباح ، ويصلِّي ، ويبكي حتَّى الصَّباح ، وكان يضع أصبعه في المصباح ويقول لنفسه : إذا لم تصبر على المصباح ، فكيف تصبر على النَّار الكبرى[٢] . وقيل له : إنَّك تكثر الصَّوم ، وإنَّ ذلك يرقُّ المعدة . فقال : إنِّي أعدُّه لسفرٍ طويل[٣] . واستُعمل الأحنف على (خراسان) ، فلمَّا أتى فارس ؛ أصابته جنابةٌ في ليلة باردةٍ ، فلم يوقظ أحداً من غلمانه ، ولا جنده ، وانطلق يطلب الماء ، فأتى على شوكٍ ، وشجرٍ حتَّى سالت قدماه دماً ، فوجد الثَّلج ، فكسره ، واغتسل[٤] ، وكان قلَّ ما خلا إلا دعا بالمصحف ، وكان النَّظر في المصاحف خُلُقاً في الأوَّلين[٥] .

وكان من دعائه : اللَّهُمَّ إن تغفر لي ؛ فأنت أهل ذاك ! وإن تعذِّبني ؛ فأنا أهل ذاك[٦] .

ومن دعائه : اللَّهُمَّ هبْ لي يقيناً تهوِّن به عليَّ مصيبات الدُّنيا[٧] ! ومرَّت به جنازة ، فقال : رحم الله من أجهد نفسه لمثل هذا اليوم[٨] .

وكان يقول : عجبت لمن يجري في مجرى البول مرَّتين كيف يتكبر[٩] ؟ !

هذه بعض صفات شخصيَّة الأحنف ، استحوذ بها على ثقة النَّاس به ، وحبِّهم ، وتقديرهم له ، وهذه الصِّفات تجعل من يتحلَّى بها شخصيَّةً قويَّةً ، نافذةً ، يندر وجودها بين النَّاس في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، وقلَّما يجود بها الدَّهر إلا نادراً[١٠] . لقد كان الأحنف من قادة الفتوحات في عهد عثمان رضي الله عنه وقد تميَّز في قيادته لجيوش الفتح لبلاد المشرق بقدرته على إعداد الخطط الصَّحيحة النَّاجحة ، وإعطاء القرارات السَّريعة الصَّائبة ، كما كان لشجاعته الشَّخصية ، وإقدامه أثرٌ كبيرٌ في وضع تلك الخطط ، والقرارات في حيِّز التَّنفيذ ، لقد كان يبذل قصارى

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٤) .

(٢) البداية والنِّهاية (٧/ ٣٣١) .

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٤) . وقادة فتح السِّند ، وأفغانستان ، ص(٣١٥) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، (٧/ ٩٤) .

(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٥) .

(٦) قادة فتح السِّند ، وأفغانستان ، ص(٣١٥) ترجمة الأحنف لخَّصتها من هذا الكتاب القيِّم مع الرُّجوع لبعض المصادر .

(٧) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦) .

(٨) المصدر السَّابق نفسه .

(٩) البداية والنِّهاية (٧/ ٣٣١) .

(١٠) قادة فتح السِّند ، وأفغانستان ، ص(٣١٦) .

جهده في إعداد خططه العسكريّة ، وإعطاء ذوي الرَّأي ، بل يتجوَّل سرّاً في اللَّيل بين عامَّة رجاله يتسمَّع أحاديثهم ، فإذا وجد رأياً سديداً يبدونه فيما بينهم ؛ سارع إلى العمل به ، لا يهمُّه أن يأخذ الحكمة من أيِّ وعاءٍ .

وقد كان هذا القائد الميدانيُّ في عهد عثمان يقاتل عدوَّه بسيفه ، وعقله معاً ، فقد كان على جانبٍ عظيمٍ من الشَّجاعة ، والإقدام ، حتَّى إنَّه كان يستأثر بالخطر دون رجاله ، ويؤثرهم بالرَّاحة ، والأمن ؛ كما كان على جانبٍ عظيمٍ من الدَّهاء ، فيوفِّر بدهائه على قواته كثيراً من الجهود والمشقَّات(١) .

لقد كان الأحنف رجلاً في أمَّةٍ ، وأمَّةً في رجلٍ . . . إنَّه سيِّد أهل المشرق المسمَّى بغير اسمه ، كما كان يقول عنه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه(٢) .

* * *

(١) قادة فتح السِّند ، وأفغانستان ، ص(٣٢٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه (٣٢٢) .

المبحث الثَّاني
الفتوحات في الشَّام

أولاً : فتوحات حبيب بن مسلمة الفهري :

مرَّ بنا : أنَّ الرُّوم أجلبت على المسلمين بالشَّام بجموع عظيمةٍ أوَّل خلافة عثمان ، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة بالكوفة أن يمدَّ إخوانه بالشَّام ، فأمدَّهم بثمانية آلاف ، عليهم سلمان بن ربيعة الباهليُّ ، فظفر المسلمون بعدوِّهم بعد أن غزوهم في أرض الرُّوم ، فأسروا منهم ، وغنموا ، وكان تحالف الرُّوم والتُّرك قد تجمَّع لملاقاة المسلمين الّذين غزوا أرمينية من الشَّام ، وكان على المسلمين حبيب ابن مسلمة ، وكان صاحب كيدٍ لعدوه ، فأجمع أن يُبيِّت قائدهم الموريان ـ أي : يباغته ليلاً ـ فسمعته امرأته أمُّ عبد الله بنت يزيد الكلبيَّة يذكر ذلك ، فقالت : فأين موعدك ؟ قال : سرادق الموريان أو الجنَّة . . . ثمَّ بيَّتهم ، فغلبهم ، وأتى سرادق الموريان ، فوجد امرأته قد سبقته إليه[1] ، وواصل حبيب جهاده ، وانتصاراته المتوالية في أراضي أرمينية ، وأذربيجان ، ففتحها إمَّا صلحاً ، أو عَنْوَةً[2] .

لقد كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز القادة الّذين حاربوا في أرمينية البيزنطيَّة ، فقد أباد جيوشاً بأكملها للعدوِّ ، وفتح حصوناً ، ومدناً كثيرةً[3] ، كما غزا ما يلي ثغور الجزيرة العراقيَّة من أرض الرُّوم فافتتح عدَّة حصونٍ هناك ، مثل شمشاط ، وملطية ، وغيرها ، وفي سنة ٢٥ هـ غزا معاوية الرُّوم فبلغ عمُّورية ، فوجد الحصون الّتي بين أنطاكية ، وطرسوس خاليةً فجعل عندها جماعةً كثيرةً من أهل الشَّام ، والجزيرة ، وواصل قائده قيس بن الحرِّ العبسيُّ الغزو في الصَّيف التَّالي ، ولمَّا فرغ هدم بعض الحصون القريبة من أنطاكية كي لا يفيد منها الرُّوم[4] .

ثانياً : أوَّل من أجاز الغزو البحريَّ : عثمان بن عفَّان :

كان معاوية بن أبي سفيان ـ وهو أمير الشَّام ـ يلحُّ على عمر بن الخطَّاب في غزو البحر ،

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/٢٤٨) .

(٢) الدَّولة الإسلاميَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، لحمدي شاهين ، ص(٢٥٢) .

(٣) حروب الإسلام في الشَّام في عهود الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٥٧٧) .

(٤) الدَّولة الإسلاميَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٢٥٣) .

ويصف له قرب الرُّوم من حمص ، ويقول : إن قريةً من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم ، وصياح دجاجهم ، حتَّى كان ذلك يأخذ بقلب عمر ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص : صف لي البحر ، وراكبه ، فإنَّ نفسي تنازعني إليه ، فكتب إليه عمرو : إنِّي رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلقٌ صغير ، إنَّ ركن خرَّق القلب ، وإن تحرَّك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلَّةً ، والشَّكُّ كثرةً ، هم كدود على عودٍ ؛ إن مال ؛ غرق ، وإن نجا ؛ برق . فلمَّا قرأ عمر بن الخطَّاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية : أنْ لا ، والذي بعث محمَّداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، وتالله لمسلمٌ أحبُّ إليَّ ممَّا حوت الرُّوم ، فإيَّاك أن تعرض لي ، وقد تقدَّمت إليك ، وقد علمت ما لقي العلاء منِّي ، ولم أتقدَّم إليه في ذلك[١] ، ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية ، وقد رأى في الرُّوم ما رأى ، فطمع في بلادهم ، وفي فتحها ، فلمَّا تولَّى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث ، وألحَّ به على عثمان ، فردَّ عليه عثمان رضي الله عنه قائلاً : (أن قد شهدت ما ردَّ عليك عمر ـ رحمه الله ـ حين استأذنته في غزو البحر) ثمَّ كتب إليه معاوية مرَّةً أخرى يهوِّن عليه ركوب البحر إلى قبرص ، فكتب إليه : (فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذوناً ، وإلا ، فلا)[٢] .

كما اشترط عليه الخليفة عثمان رضي الله عنه أيضاً بقوله : (لا تنتخب النَّاس ، ولا تقرع بينهم ، خيِّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً ؛ فاحمله ، وأعنه)[٣] ، فلمَّا قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى قبرص ، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب ، وتقريبها إلى ساحل حصن عكَّا ، فقد رمَّه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص[٤] .

ثالثاً : غزوة قبرص :

أعدَّ معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازي ، واتَّخذ ميناء عكَّا مكاناً للإقلاع ، وكانت المراكب كثيرةً ، وحمل معه زوجه فاختة بنت قرظة ، كذلك حمل عبادة بن الصَّامت امرأته أمَّ حرام بنت ملحان معه في تلك الغزوة[٥] .

وأمُّ حرام هذه هي صاحبة القصَّة المشهورة : عن أنسٍ بن مالكٍ رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ كان يدخل على أمِّ حرام بنت ملحان ، فتطعمه ، وكانت أمُّ حرام تحت عبادة بن الصَّامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً ، فأطعمته ، ثمَّ جلست تفلي من رأسه ، فنام

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٥٨) .

(٢) الإدارة العسكريَّة في الدَّولة الإسلاميَّة (٢/ ٥٣٨) .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٦٠) .

(٤) الإدارة العسكريَّة في الدَّولة الإسلاميَّة (٢/ ٥٣٨) .

(٥) البداية والنِّهاية (٧/ ١٥٩) .

رسول الله ﷺ ، ثمَّ استيقظ وهو يضحك . فقالت : فقلت : ما يضحككَ يا رسول الله ؟ !

قال : « **ناسٌ من أمتي عُرضوا عليَّ غزاةً في سبيل الله ، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة ، أو مثل الملوك على الأسرَّة** » قالت : فقلت : يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلني منهم ! فدعا لها ، ثمَّ وضع رأسه فنام ، ثمَّ استيقظ ؛ وهو يضحك ، قالت : فقلت : ما يضحكك يا رسول الله ؟ !

قال : « **ناس من أمَّتي عُرضوا عليَّ في سبيل الله . . .** » ـ كما قال في الرواية الأولى ـ . قال : أنت من الأوَّلين . فركبت أمُّ حرام بنت ملحان البحر في زمن معاوية ، فصرعت عن دابَّتها حين خرجت من البحر ، فهلكت[١] .

ورغم أنَّ معاوية رضي الله عنه لم يجبر النَّاس على الخروج ، فقد خرج معه جيشٌ عظيمٌ من المسلمين[٢] ، ممَّا يدلُّ على أنَّ المسلمين قد هانت في أعينهم الدُّنيا بما فيها ، فأصبحوا لا يعبؤون بها بالرَّغم من أنَّها قد فتحت عليهم أبوابها ، فصاروا يرفلون في نعيمها .

إنَّ المسلمين قد تربَّوا على أنَّ ما عند الله خيرٌ ، وأبقى ، وأنَّ الله اصطفاهم لنصرة دينه ، وإقامة العدل ، ونشر الفضيلة ، والعمل على إظهار دين الله على كلِّ ما عداه ، وهم يعتقدون : أنَّ هذه المهمَّة هي رسالتهم الحقيقية ، وأنَّ الجهاد في سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله ، فإن هم قصَّروا في مهمَّتهم ، وقعدوا عن أداء واجبهم ؛ فسيمسك الله عنهم نصره في الدُّنيا ، ويحرمهم مرضاته في الآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، من أجل هذا هُرعوا مع معاوية ، وتسابقوا إلى السُّفن يركبونها ، ولعلَّ حديث أمِّ حرامٍ قد ألمَّ بخواطرهم ، فدفعهم إلى الخروج للغزو في سبيل الله تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ ، وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشِّتاء في سنة ثمانٍ وعشرين من الهجرة (٦٤٩م)[٣] .

وسار المسلمون من الشَّام وركبوا من ميناء عكَّا متوجِّهين إلى قبرص ، ونزل المسلمون إلى السَّاحل ، وتقدَّمت أمُّ حرام لتركب دابَّتها ، فنفرت الدَّابة ، وألقت أمَّ حرام على الأرض ، فاندقت عنقها ، فماتت[٤] ، وترك المسلمون أمَّ حرام بعد دفنها في أرض الجزيرة عنواناً على مدى التَّضحيات الَّتي قدَّمها المسلمون في سبيل نشر دينهم ، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصَّالحة[٥] .

---

(١) البخاريُّ ، رقم (٢٨٧٧) .

(٢) جولةٌ تاريخيَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٥٦) .

(٣) جولةٌ تاريخيَّةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٥٦) .

(٤) البداية والنِّهاية (٧/ ١٥٩) .

(٥) جولةٌ تاريخيَّةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٥٧) .

واجتمع معاوية بأصحابه ، وكان فيهم : أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاريُّ ، وأبو الدَّرداء ، وأبو ذرٍّ الغفاريُّ، وعبادة بن الصَّامت، وواثلة بن الأسقع، وعبد الله بن بشر المازنيُّ، وشدَّاد بن أوس بن ثابتٍ، والمقداد بن الأسود، وكعب الحبر بن ماتعٍ ، وجبير بن نفير الحضرميُّ[١] .

وتشاوروا فيما بينهم ، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم : أنَّهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم[٢] ، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله ، ثمَّ تأمين حدود الدَّولة الإسلاميَّة بالشَّام ، وذلك لأنَّ البيزنطيِّين كانوا يتَّخذون من قبرص محطَّةً يستريحون فيها ؛ إذا غزوا ، ويتموَّنون منها ، إذا قلَّ زادهم ، وهي بهذه المثابة تهدِّد بلاد الشَّام الواقعة تحت رحمتها ، فإذا لم يطمئنَّ المسلمون على مسالمة هذه الجزيرة لهم ، وخضوعها لإرادتهم ، فإنَّ وجودها كذلك سيظلُّ شوكةً في ظهورهم ، وسهماً مسدَّداً في صدورهم ، ولكنَّ سكَّان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة ، ولم يفتحوا لهم بلادهم ، بل تحصَّنوا في العاصمة ، ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين ، وكان أهل الجزيرة ينتظرون تقدُّم الروم للدِّفاع عنهم ، وصدِّ هجوم المسلمين عليها[٣] .

رابعاً : الاستسلام ، وطلب الصُّلح :

تقدَّم المسلمون إلى عاصمة قبرص (قسطنطينا) وحاصروها وما هي إلا ساعات حتَّى طلب النَّاس الصُّلح ، وأجابهم المسلمون إلى الصُّلح ، وقدَّموا للمسلمين شروطاً ، واشترط عليهم المسلمون شروطاً ، وأمَّا شرط أهل قبرص ؛ فكان في طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطاً تورِّطهم مع الرُّوم ؛ لأنَّهم لا قبل لهم بهم ، ولا قدرة لهم على قتالهم ، وأمَّا شروط المسلمين ؛ فهي :

١ـ ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة ؛ إذا هاجم سكانها محاربون .

٢ـ أن يدلَّ سكان الجزيرة المسلمين على تحرُّكات عدوِّهم من الرُّوم .

٣ـ أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومئتي دينارٍ في كلِّ عامٍ .

٤ـ أن يكون طريق المسلمين إلى عدوِّهم عليهم .

٥ـ ألا يساعدوا الرُّوم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين ، ولا يُطلعوهم على أسرارهم[٤] .

وعاد المسلمون إلى بلاد الشَّام ، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحريَّة بجدارةٍ ، وأعطت المسلمين فرصة المران على الدُّخول في معارك من هذا النَّوع

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) جولةٌ تاريخيَّةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٥٧) .

(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٦١) .

مع العدوّ المتربّص بهم سواءً بالهجوم على بلاد الشّام ، أو على الإسكندرية[١] .

خامساً : عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامي في الشّام :

استعمل معاوية بن أبي سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسيَّ حليف بني فزارة ، فغزا خمسين غزاةً ما بين شاتيةٍ ، وصائفةٍ في البحر ، ولم يغرق فيه أحدٌ ، ولم ينكب ، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده ، وألا يبتليه بمصاب أحدٍ منهم ، ففعل ، حتّى إذا أراد أن يصيبه وحده ، خرج في قاربه طليعةً ، فانتهى إلى المرفأ من أرض الرُّوم ، وعليه سُؤّال يعترُّون[٢] بذلك المكان ، فتصدق عليهم ، فرجعت امرأة من السُّؤّال إلى قريتها، فقالت للرِّجال: هل لكم في عبد الله بن قيس ؟ قالوا : وأين هو ؟ قالت : في المرفأ ، قالوا : أي عدوّة الله ، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس ؟ فوبّختهم ، وقالت : أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحدٍ ! فساروا إليه ، فهجموا عليه ، فقاتلوه ، وقاتلهم ، فأصيب وحده ، وأفلت الملاح حتّى أتى أصحابه ، فجاؤوا حتّى أرقوا ، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزديُّ ، فخرج فقاتلهم ، فضجر وجعل يعبث بأصحابه ، ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله : واعبد الله ! ما هكذا كان يقول حين يقاتل ! فقال سفيان : وكيف كان يقول ؟ قالت : الغمرات ثمَّ ينجلينا ، فترك ما كان يقول ، ولزم : الغمرات ثمَّ ينجلينا .

وأصيب في المسلمين يومئذٍ ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسيِّ[٣] . وقيل لتلك المرأة الّتي استثارت الرُّوم على عبد الله بن قيس : كيف عرفته ؟ قالت : كان كالتّاجر ، فلمّا سألته ؛ أعطاني كالملك ، فعرفت أنّه عبد الله بن قيس[٤] .

وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمنَّ بالشّهادة على هذا القائد العظيم أتيحت له وهو في وضع لا يضرُّ بسمعة المسلمين البحريّة ، حيث كان وحده يتطلّع ، ويراقب الأعداء ، فكانت تلك الكائنة الغريبة الّتي أبصرت غورها تلك المرأة الذّكيّة من نساء تلك البلاد ، حيث رأت ذلك الرَّجل يظهر في مظاهره الخارجيّة بمظهر التُّجار العاديين ، ولكنّه يعطي عطاء الملوك ، فلقد رأت فيه أمارات السِّيادة مع بساطة مظهره ، فعرفت : أنّه قائد المسلمين ، الّذي دوّخ المحاربين في تلك البلاد ، وهكذا كانت سماحة ذلك القائد وسخاؤه البارز حتّى مع غير المسلمين سبباً في كشف أمره ، ومعرفة مركزه ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فيتمَّ بذلك الهجوم عليه ، وظفره

(١) جولةٌ تاريخيّةٌ في عصر الخلفاء الرّاشدين ، ص(٣٥٨ ، ٣٥٩) .

(٢) يعترُّون : يتعرضون للنّاس دون أن يسألوهم .

(٣) تاريخ الطّبري (٥/ ٢٦٠) .

(٤) المصدر السّابق نفسه .

بالشَّهادة ، وهكذا يضرب قادة المسلمين المُثُل العليا بأنفسهم ، لتتمَّ الإنجازات الكبرى على أيديهم ، وليكونوا قدوةً صالحة لمن يخلفهم ، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمَّة الاستطلاع بنفسه ، ولم يكل الأمر إلى جنوده ، وفي انفراده بهذه المهمَّة مظنَّةٌ للتورُّط مع الأعداء ، والهلاك على أيديهم ، ولكنَّه مع ذلك يغامر بنفسه ، فيتولَّى هذه المهمَّة ، ثمَّ نجده يتخلَّق بأخلاق الإسلام العليا حتَّى مع نساء الأعداء ، وضَعَفَتهم فيمدُّ إليهم يد الحنان ، والعطف ، ويسخُو لهم بالمال الَّذي هو من أعزِّ ما يملك النَّاس ، ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقاً صبوراً ، لا معنِّفاً ، ولا مستكبراً ، وإذا ادلهمَّت الخطوب ، تفاءل بانكشاف الغمَّة ، ولم يلجأ إلى لوم أصحابه ، وتعنيفهم ، ولم يهيمن عليه الارتباك الَّذي يفسد العمل ، ويعجِّل بالخلل ، والفوضى ، وأمَّا خليفته سفيان الأزديُّ ، فلعلَّه وقع فيما وقع فيه من الارتباك ، والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة ، ولكن ممَّا يُحفظ له : أنَّه لما نبَّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الَّذي كان أميره ينتهجه في القيادة سارع في التأسِّي به في ذلك ، ولم يحمله التكبُّر على عدم سماع كلمة الحقِّ ، وإن صدرت من جارية مغمورة .

وهذا مثلٌ من أمثلة التَّجرُّد من هوى النَّفس ، هذا الخلق العظيم الَّذي كان غالباً في الجيل الأوَّل ، وبه تمَّ إنجاز الفتوحات العظيمة ، ونجاح الولاة ، والقادة في إدارة أمور الأمَّة ، فَلِلَّهِ درُّ أبناء ذلك الجيل : ما أبلغ ذكرهم ! وما أبعد غورهم ! وما أعظم وطأتهم في الأرض على الجبارين ! وما أعذب لمساتهم في الأرض على المستضعفين ، والمساكين[١] !

سادساً : القبارصة ينقضون الصلح :

في سنة اثنتين وثلاثين هجريَّة ، وقع سكان قبرص تحت ضغطٍ روميٍّ عنيفٍ أجبرهم على إمداد جيش الرُّوم بالسُّفن ، ليغزوا بها بلاد المسلمين ، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلُّوا بشروط الصُّلح ، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص ، فعزم على الاستيلاء على الجزيرة ، ووضعها تحت سلطان المسلمين ، فقد هاجم المسلمون الجزيرة هجوماً عنيفاً ، فقتلوا ، وأسروا ، وسلبوا ، هجم عليها جيش معاوية من جهةٍ ، وعبد الله بن سعد من الجانب الآخر ، فقتلوا خلقاً كثيراً ، وسبوا سبياً كثيراً ، وغنموا مالاً جزيلاً[٢] ، وتحت ضغط القوَّات الإسلاميَّة اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصُّلح ، فأقرَّهم معاوية على صلحهم الأوَّل[٣] ، وخشي معاوية أن يتركهم هذه المرَّة بغير جيشٍ يرابط في الجزيرة ، فيحميها من

---

(١) التَّاريخ الإسلاميُّ (١٢/ ٤٠٢) .

(٢) جولةٌ تاريخيَّةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٥٩ ، ٣٦٠) .

(٣) البلاذري ، ص(١٥٨) .

غارات الأعداء ، ويضبط الأمن فيها حتَّى لا تتمرَّد على المسلمين ؛ فبعث إليهم اثني عشر ألفاً من الجنود ، ونقل إليهم جماعةً من بعلبك ، وبنى هناك مدينة ، وأقام فيها مسجداً ، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم ، وظلَّ الحال على ذلك ، الجزيرة هادئةٌ ، والمسلمون آمنون من هجمات الرُّوم المفاجئة ، ولاحظ المسلمون : أنَّ أهل قبرص ليس فيهم قدراتٌ عسكريَّة ، وهم مستضعفون أمام من يغزوهم ، وأحسَّ المسلمون : أنَّ الرُّوم يغلبونهم على أمرهم ، ويسخِّرونهم لمصالحهم فرأوا أنَّ من حقِّهم عليهم أن يحموهم من ظلم الرُّوم ، وأن يمنعوهم من تسلُّط البيزنطيِّين .

وقال إسماعيل بن عيَّاش : أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الرُّوم على أنفسهم ، ونسائهم ، فقد يحقُّ علينا أن نمنعهم ، ونحميهم[١] .

سابعاً : ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه :

وقد جاء في سياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدَّرداء رضي الله عنه حينما نظر إلى سبي الأعداء ، فبكى ، ثمَّ قال : ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه ، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم، فلمَّا تركوا أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعصوه؛ صاروا إلى ما ترى[٢] .

وجاء في روايةٍ : فقال له جبير بن نفير : أتبكي وهذا يومٌ أعزَّ الله فيه الإسلام ، وأهله ؟ فقال : ويحك ! إنَّ هذه كانت أمَّةً قاهرةً لهم مُلْكٌ ، فلمَّا ضيَّعوا أمر الله ، صيَّرهم إلى ما ترى ، سلَّط الله عليهم السَّبي ، وإذا سلط على قوم السَّبي ، فليس لله فيهم حاجةٌ ، وقال : ما أهون العباد على الله تعالى ؛ إذا تركوا أمره[٣] .

إنَّ ما تفوَّه به أبو الدَّرداء ، يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة ، والفقه في أمر الله تعالى ، فهذا الصَّحابيُّ الجليل يبكي حسرةً على هؤلاء الَّذين أعمى الله بصائرهم ، فلم ينقادوا لدعوة الحقِّ ، فباؤوا بهذا المصير المؤلم ، حيث تحوَّلوا من الملك ، والعزَّة إلى الاستسلام والذلَّة ؛ لإصرارهم على لزوم الباطل ، والتكبُّر على الخضوع لدعوة الحقِّ ، ولو أنَّهم عقلوا ، وتدبَّروا لكان في دخولهم في الإسلام بقاء ملكهم ، وعمران ديارهم ، والظَّفر بحماية دولة الإسلام ، وإنَّ هذا التَّفكير العميق من أبي الدَّرداء مظهرٌ من مظاهر الرَّحمة ، والعطف ، تفتَّحت عنه نفسه الزَّكيَّة ، فتشكَّل ذلك في الظَّاهر على هيئة دموع تتحدَّر من عيني هذا الرَّجل العظيم ، ليعبِّر عمَّا يجول في نفسه من نظرات الحنان ، والرَّحمة ، والأسى على مصير تلك الأمَّة الَّتي اجتمع لها

---

(١) جولةٌ تاريخيَّةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٦١) .

(٢) التَّاريخ الإسلاميُّ (١٢/ ٣٩٦) .

(٣) البداية والنِّهاية (٧/ ١٥٩) .

البقاء على الضَّلال ، والمآل السَّيئ بزوال الملك ، والوقوع في الذلِّ والهوان ، وإنَّه بقدر ما يفرح المسلم بدخول النَّاس في الإسلام ، فإنَّه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون في ضلالٍ مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الأليم المؤبَّد في الآخرة ، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم في الأسر ، والتشرُّد ، وتعرضهم للقتل في الحياة الدُّنيا[١] ؟ !

ثامناً : عبادة بن الصَّامت يقسِّم غنائم قبرص :

قال عبادة بن الصَّامت لمعاوية رضي الله عنهما : شهدت رسول الله ﷺ في غزوة حنين والنَّاس يكلِّمونه في الغنائم ، فأخذ وبرةً من بعيرٍ ، وقال : « **ما لي ممَّا أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا الخمس ، والخمس مردودٌ عليكم** » . فاتَّق الله يا معاوية ! واقسم الغنائم على وجهها ، ولا تعط منها أحداً أكثر من حقِّه ! فقال له معاوية : قد ولَّيتك قسمة الغنائم ، ليس أحدٌ بالشَّام أفضل منك ، ولا أعلم ، فاقسمها بين أهلها ، واتَّق الله فيها ! فقسمها عبادة بين أهلها ، وأعانه أبو الدَّرداء ، وأبو أمامة[٢] .

* * *

(١) التَّاريخ الإسلاميُّ (١٢/٣٩٧) .

(٢) الرِّياض النَّضرة ، ص(٥٦١) .

المبحث الثَّالث
فتوحات الجبهة المصريَّة

أولاً : ردع المتمرِّدين في الإسكندريَّة :

كبُر على الرُّوم خروج الإسكندريَّة من أيديهم ، وظلُّوا يتحيَّنون الفرص لإعادتها إلى حوزتهم ، فراحوا يحرِّضون مَنْ بالإسكندريَّة من الرُّوم على التمرُّد ، والخروج على سلطان المسلمين ، ذلك لأنَّ الرُّوم كانوا يعتقدون : أنَّهم لا يستطيعون الاستقرار في بلادهم بعد خروج الإسكندرية من ملكهم(١) ، وصادف تحريض الرُّوم لأهل الإسكندرية هوىً في نفوس سكَّانها ، فاستجابوا للدَّعوة ، وكتبوا إلى قسطنطين بن هرقل يخبرونه بقلَّة عدد المسلمين ، ويصفون له ما يعيش فيه الرُّوم بالإسكندريَّة من الذُّلِّ والهوان(٢) ، وكان عثمان رضي الله عنه قد عزل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن مصر ، وولَّى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح ، وفي أثناء ذلك وصل منويل الخصيُّ قائد قوات الرُّوم إلى الإسكندرية لإعادتها ، وتخليصها من يد المسلمين ، ومعه قوَّاتٌ هائلةٌ يحملهم في ثلاثمئة مركبٍ مشحونةٍ بكلِّ ما يلزم هذه القوَّات من السِّلاح والعتاد(٣) .

علم أهل مصر بأنَّ قوات الرُّوم قد وصلت إلى الإسكندريَّة ، فكتبوا إلى عثمان يلتمسون إعادة عمرو بن العاص ليواجه القوَّات الغازية ، فإنه أعرف بحربهم ، وله هيبةٌ في نفوسهم ، فاستجاب الخليفة لطلب المصريِّين ، وأبقى ابن العاص أميراً على مصر(٤) ، ونهب منويل وجيشه الإسكندرية ، وغادروها بعد أن تركوها قاعاً صفصفاً ليعيثوا فيما حولها من القرى ظلماً وفساداً ، وأمهلهم عمرو بن العاص ليمعنوا في الإفساد ، وليشعر المصريُّون بالفرق الهائل بين حكَّامهم من المسلمين ، وحكَّامهم من الرُّوم ، ولتمتلئ قلوب المصريِّين على الرُّوم حقداً ، وغضباً ، فلا يكون لهم من حبِّهم والعطف عليهم أدنى حظٍّ ، وخرج منويل بجيشه من

---

(١) الكامل لابن الأثير .

(٢) جولةٌ تاريخيَّةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٣٥) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

الإسكندريَّة ، يقصد مصر السُّفلى دون أن يخرج إليهم عمرو أو يقاومهم أحدٌ ، وتخوَّف بعض أصحابه ، وعمرو كان له رأيٌ آخر ، فقد كان يرى أن يتركهم يقصدونه ، ولا شكَّ أنَّهم سينهبون أموال المصريين ، وسيرتكبون من الحماقات في حقِّهم ما يملأ قلوبهم حقداً عليهم ، وغضباً منهم ، فإذا نهض المسلمون لمواجهتهم عاونهم المصريُّون على التخلُّص منهم ، وحدَّد عمرو سياسته هذه بقوله : دعهم يسيروا إليَّ ، فإنَّهم يصيبون مَنْ مرُّوا به ، فيُخزي بعضهم ببعضٍ[(١)] .

وقد صدق حدس عمرو ، وأمعن الرُّوم في إفسادهم ، ونهبهم وسلبهم ، وضجَّ المصريُّون من فعلهم ، وأخذوا يتطلَّعون إلى مَنْ يخلِّصهم من شرِّ هؤلاء الغزاة المفسدين[(٢)] .

وصل منويل إلى نقيوس ، واستعدَّ عمرو للقائه ، وعبَّأ جنده ، وسار بهم نحو عدوِّه الشَّرس ، وتقابل الجيشان عند حصن نقيوس على شاطئ نهر النِّيل ، واستبسل الفريقان أيَّما استبسالٍ ، وصبر كلُّ فريق صبراً أمام خصمه ممَّا زاد الحرب ضراوةً ، واشتعالاً ، ودفع بالقائد عمرو إلى أن يمعن في صفوف العدوِّ ، ويقدِّم فرسه بين فرسانهم ، ويشهر سيفه بين سيوفهم ، ويقطع به هامات الرِّجال ، وأعناق الأبطال ، وأصاب فرسه سهمٌ فقتله ، فترجَّل عمرو ، وانضم إلى صفوف المشاة ، ورآه المسلمون فأقبلوا على الحرب بقلوبٍ كقلوب الأسود ، لا يهابون ، ولا يخافون قعقعة السُّيوف[(٣)] ، وأمام ضربات المسلمين وهنت عزائم الرُّوم وخارت قواهم ، فانهزموا أمام الأبطال الّذين يريدون إحدى الحسنيين ، وقصد الرُّوم في فرارهم الإسكندريَّة لعلَّهم يجدون في حصونها المنيعة وأسوارها الشَّاهقة ما يواري عنهم شبح الموت الّذي يلاحقهم[(٤)] .

وخرج المصريُّون بعد أن رأوا هزيمة الرُّوم يصلحون للمسلمين ما أفسده العدو الهارب من الطُّرق ، ويقيمون لهم ما دمَّره من الجسور ، وأظهر المصريُّون فرحتهم بانتصار المسلمين على العدوِّ الّذي انتهك حرماتهم ، واعتدى على أموالهم ، وممتلكاتهم ، وقدَّموا للمسلمين ما ينقصهم من السِّلاح والمؤونة[(٥)] .

ولما وصل عمرو إلى الإسكندريَّة ضرب عليها الحصار ، ونصب عليها المجانيق وظلَّ يضرب أسوار الإسكندريَّة حتى أوهنها ، وألحَّ عليها بالضَّرب ، حتى ضعف أهلها ، وتصدَّعت

---

(١) جولةٌ تاريخيَّةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين، ص(٣٣٦). وعثمان بن عفَّان، هيكل، ص(٦٧).

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٣٦) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٣٨) .

(٤) البلاذري ، ص(٦٩) .

(٥) جولةٌ تاريخيَّةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٣٨) .

أسوارها ، وفتحت المدينة الحصينة أبوابها ، ودخل المسلمون الإسكندريّة ، وأعملوا سيوفهم في الرُّوم يقتلون المقاتلين ، ويأسرون النِّساء والذُّرِّية ، وهرب من نجا من الموت لاجئين إلى السُّفن ليفرُّوا بها عائدين من حيث أتوا ، وكان منويل في عداد القتلى ، ولم يكفَّ المسلمون عن القتل ، والسَّبي حتَّى أمر عمرو بذلك لما توسَّط المسلمون المدينة ، ولمَّا لم يكن هناك من يقاوم أو يتصدَّى لهم[١] ، ولمَّا فرغ المسلمون أمر عمرو ببناء مسجدٍ في المكان الّذي أوقف فيه القتال ، وسمَّاه مسجد الرَّحمة[٢] ، وعادت إلى العاصمة العتيدة طمأنينتها ، وعادت السَّكينة إلى قلوب المصريِّين فيها ، فرجع إليها من كان قد فرَّ منها أمام الزَّحف الرُّوميِّ الرَّهيب ، وعاد بنيامين بطريق القبط إلى الإسكندريّة بعد أن فرَّ مع الفارِّين ، وأخذ يرجو عمراً ألا يسيء معاملة القبط ؛ لأنَّهم لم ينقضوا عهدهم ، ولم يتخلَّوا عن واجبهم ، ورجاه كذلك ألا يعقد صلحاً مع الرُّوم ، وأن يدفنه إذا مات في كنيسة يحنس[٣] .

وجاء المصريُّون من كلِّ حدبٍ وَصَوْبٍ ، إلى عمرو يشكرونه على تخليصهم من ظلم الرُّوم ، ويطلبون منه إعادة ما نهبوا من أموالهم ، ودوابِّهم معلنين ولاءهم ، وطاعتهم ، فقالوا : إنَّ الروم قد أخذوا دوابَّنا ، وأموالنا ، ولم نخالف نحن عليكم ، وكنَّا على الطَّاعة ، فطلب منهم عمرو أن يقيموا البيِّنة على ما ادَّعوا ، وَمَنْ أقام بيِّنة ، وعرف ماله بعينه ؛ ردَّه[٤] عليه ، وهدم عمرو سور الإسكندرية وكان ذلك سنة ٢٥ هـ ، وأصبحت الإسكندرية آمنةً من جهاتها كلِّها رغم هدم سورها ، فقد كان شرقيُّها في قبضة المسلمين ، وكذلك جنوبها ، وأما غربيها فقد أمَّنه عمرو بن العاص بفتح برقة ، وزويلة ، وطرابلس الغرب وصالح أهل هذه البلاد على الجزية ، فكانوا يدفعونها طائعين ، وأمَّا شمالها فكان في قبضة الرُّوم ، وقد تلقَّنوا درساً على يد المسلمين لم يترك لهم فرصةً للتَّفكير في العودة ، وحتَّى لو فكَّروا في العودة ، فهيهات أن يدخلوها وليس لهم فيها نصيرٌ ، ولا معينٌ ! وقوَّات المسلمين تراقب البحر بكلِّ يقظةٍ ، واهتمامٍ[٥] .

ثانياً : فتح بلاد النُّوبة :

كان عمرو بن العاص قد شرع في فتح بلاد النُّوبة بإذنٍ من الخليفة عمر ، فوجد حرباً لم

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٤٠) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٤٠) .

(٥) جولةٌ تاريخيَّةٌ في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٤١) .

يتدرَّب عليها المسلمون، وهي الرَّمي بالنِّبال في أعين المحاربين، حتَّى فقدوا مئةً وخمسين عيناً في أوَّل معركةٍ، ولهذا قبل الجيش الصُّلح، ولكن عمرو ابن العاص رفض ذلك للوصول إلى شروطٍ أفضل[١]، وعندما تولَّى ابن سعد ولاية مصر غزا النُّوبة في عام إحدى وثلاثين هجريَّة، فقاتله الأساود من أهل النُّوبة قتالاً شديداً، فأصيبت يومئذٍ عيونٌ كثيرةٌ من المسلمين، فقال شاعرهم:

لَـمْ تَـرَ عَيْـنٌ مِثْـلَ يَـوْمِ دُمْقُلَـة وَالْخَيْـلُ تَعْـدُو بِـالـدُّرُوعِ مُثْقَلَـة[٢]

فسأل أهل النُّوبة عبد الله بن سعدٍ المهادنة، فهادنهم الهدنة، وبقيت إلى ستة قرونٍ[٣]، وعقد لهم عقداً يضمن لهم استقلال بلادهم ويحقِّق للمسلمين الاطمئنان إلى حدودهم الجنوبيَّة، ويفتح النُّوبة للتِّجارة والحصول على عدد من الرَّقيق في خدمة الدَّولة الإسلاميَّة، وقد اختلط المسلمون بالنُّوبة، والبجَّة، واعتنق كثيرٌ منهم الإسلام[٤].

ثالثاً: فتح إفريقية:

كان من مقاصد عمرو بن العاص رضي الله عنه لبرقة، وطرابلس، وبقيَّة مناطق ليبيا، فتح البلاد، وإزالة الطَّاغوت الرُّوماني عن قلوب العباد، حتَّى تتَّضح لهم السُّبل، وتفترق لهم الطُّرق، وتصبح حرية الاختيار في متناول تلك الشُّعوب، وبعد تلك الحملة المباركة الَّتي كانت سبباً في دخول ذلك النُّور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام، والتقرُّب إليها بالقرابين، واتِّخاذ الأنداد، والأرباب من البشر من دونه سبحانه وتعالى، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد. وعن حملة عبد الله بن سعد على إفريقية[٥]، يقول الدَّكتور صالح مصطفى: «وفي سنة ٢٦هـ/ ٦٤٦م عُزل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن ولاية مصر، واستعمل عليها عبد الله ابن سعدٍ رضي الله عنه وكان عبد الله بن سعدٍ يبعث جرائد الخيل كما كانوا يفعلون أيَّام عمرو بن العاص، فيصيبون من أطراف إفريقية، ويغنمون»[٦]، وكانت جرائد الخيل تقصد إفريقية ـ تونس ـ تمهيداً لفتحها، ومعرفة وضعها، فكان حال هذه الجرائد أشبه ما يكون بكتائب الاستطلاع الَّتي تعتبر مقدِّمة الجيش، وعيونه.

---

(١) الخلافة والخلفاء الرَّاشدون، ص(٢٢٩).

(٢) قادة الفتح لبلاد المغرب (١/ ٦١، ٦٢، ٦٣).

(٣) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص(٢٢٩).

(٤) قادة الفتح لبلاد المغرب (١/ ٦١، ٦٢، ٦٣).

(٥) الشَّرف والتَّسامي بحركة الفتح الإسلامي، للصَّلابي، ص(١٨٩).

(٦) ليبيا من الفتح العربي حتَّى انتقال الخلافة الفاطميَّة، ص(٤٩).

فلمَّا اجتمعت عند عبد الله بن سعدٍ معلوماتٌ كافيةٌ عن إفريقية من ناحية مداخلها ، ومخارجها ، وقوَّتها ، وعتادها ، وموقعها الجغرافيِّ الاستراتيجيِّ ؛ كتب حينئذ إلى الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفَّان يخبره بهذه المعلومات المهمَّة عن إفريقية ، يستأذن بناء على تلك المعلومات بفتحها ، فكان له ما طلب .

يقول الدُّكتور صالح مصطفى : « ولمَّا استأذن عبد الله بن سعدٍ الخليفة عثمان ابن عفَّان في غزو إفريقية ؛ جمع الصَّحابة ، واستشارهم في ذلك ، فأشاروا عليه بفتحها ؛ إلا أبا الأعور سعيد بن زيدٍ، الَّذي خالفه متمسِّكاً برأي عمر بن الخطَّاب في ألا يغزو إفريقية أحدٌ من المسلمين، ولمَّا أجمع الصَّحابة على ذلك ؛ دعا عثمان للجهاد ، واستعدَّت المدينة عاصمة الخلافة الإسلاميَّة لجمع المتطوِّعين ، وتجهيزهم ، وترحيلهم إلى مصر ، لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعدٍ ، وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جليّاً ، فهذا يتَّضح من الَّذين خرجوا إليها من كبار الصَّحابة، ومن خيار شباب آل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل، وكذلك الأنصار، فقد خرج في تلك الغزوة: الحسن، والحسين، وابن عباسٍ، وابن جعفرٍ، وغيرهم.

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة وحدها في غزوة عبد الله بن سعدٍ ستُّمئة رجلٍ ، وَمِنْ غنث سبعمئة رجلٍ ، ومن ميدعان سبعمئة رجل ، وعندما بات الاستعداد تامّاً ؛ خطب عثمان فيهم ، ورغَّبهم في الجهاد ، وقال لهم : لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعدٍ ، فيكون الأمر إليه ، وأستودعكم الله .

ويقال : إن عثمان رضي الله عنه قد أعان في هذه الغزوة بألف بعيرٍ يحمل عليها ضعفاء النَّاس ، وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر ، انضمَّ إلى جيش عبد الله بن سعدٍ ، وتقدَّم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الَّذي يقدَّر بعشرين ألفاً ، يخترق الحدود المصريَّة اللِّيبية ، وعندما وصلوا إلى برقة ، انضمَّ إليهم عقبة ابن نافع الفهريُّ ، ومن معه من المسلمين ، ولم يواجه الجيش الإسلاميُّ أيَّة صعوبةٍ أثناء سيرهم في برقة ، وذلك لأنَّها ظلَّت وفيَّةً لما عاهدت المسلمين عليه من الشُّروط زمن عمرو بن العاص ، حتَّى إنَّه لم يكن يدخلها جابي الخراج ، وإنَّما كانت تبعث بخراجها إلى مصر في الوقت المناسب ، وممَّا يؤكد بقاء برقة على عهدها لعمرو بن العاص ما ذكر : أنَّه سُمِعَ يقول : قعدت مقعدي هذا ، وما لأحدٍ من قبط مصر عليَّ عهدٌ إلا أهل أنطابلس[١] ، فإنَّ لهم عهداً يوفَّى لهم به ، كما أنَّ عبد الله بن عمرو بن العاص كان يقول : ولولا مالي بالحجاز ؛ لنزلت برقة ، فما أعلم منزلاً أسلم ، ولا أعزل منها[٢] .

---

(١) أنطابلس : برقة .

(٢) ليبيا من الفتح العربيِّ حتَّى انتقال الخلافة الفاطميَّة ، ص(٣٩) .

وهكذا انطلقت هذه الحملة المباركة نحو إفريقية ، وكان ذلك بعد انضمام قوَّات عقبة بن نافع إليها ، إلا أنَّ عبد الله بن سعدٍ قائد الحملة ما فتئ يرسل الطَّلائع ، والعيون في جميع الاتجاهات لاستكشاف الطُّرق ، وتأمينها ، ورصد تحرُّكات العدوّ وضبطها ، تحسباً لأيِّ كمينٍ ، أو مباغتةٍ تطرأ على حين غفلةٍ ، فكان من نتائج تلك الطَّلائع الاستطلاعية أن تمَّ رصد مجموعات من السُّفن الحربيَّة تابعة للإمبراطورية الرُّومانية ، حيث كانت هذه السُّفن الحربيَّة قد رست في ساحل ليبيا البحري بالقرب من مدينة طرابلس ، فما هي إلا برهةٌ من الزَّمن حتى كان ما تحمله هذه السُّفن غنيمةً للمسلمين ، وقد أسروا أكثر من مئة من أصحابها ، وتعتبر هذه أوَّل غنيمةٍ ذات قيمةٍ أصابها المسلمون في طريقهم لفتح إفريقية[١] . وواصل عبد الله ابن سعدٍ السَّير إلى إفريقية ، وبثَّ طلائعه ، وعيونه في كلِّ ناحيةٍ ، حتَّى وصل جيشه إلى مدينة سبيطلة بأمانٍ ، وهناك التقى الجمعان ، جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعدٍ ، وجيش جرجير حاكم إفريقية ، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالي مئة وعشرين ألفاً .

وكان بين القائدَين اتِّصالاتٌ مستمرةٌ ، ورسائل متبادلةٌ ، فحواها عرض الدَّعوة الإسلامية على جرجير، ودعوته للدُّخول في الإسلام، ويستسلم لأمر الله سبحانه، أو أن يدفع الجزية، ويبقى على دينه خاضعاً لسيادة الإسلام، ولكنَّ كلَّ تلك العروض رفضها، وأصَّر، واستكبر هو وجنوده؛ وضاق الأمر بالمسلمين فنشبت المعركة بين الجمعين ، وحمي الوطيس بينهما لعدَّة أيَّام، حتَّى وصل مددٌ بقيادة عبد الله بن الزُّبير، وكانت نهاية هذا المستكبر الطَّاغي جرجير على يديه[٢] .

ولمَّا رأى الرُّوم الَّذين بالسَّاحل ما حل بجرجير ، وأهل سبيطلة ؛ غارت أنفسهم ، وتجمَّعوا ، وكاتب بعضهم بعضاً في حرب عبد الله بن سعدٍ إيَّاهم ، فخافوه ، وراسلوه ، وجعلوا له جعلاً على أن يرتحل بجيشه ، وألا يعترضوه بشيءٍ ، ووجَّهوا إليه ثلاثمئة قنطارٍ من الذَّهب في بعض الرِّوايات ، وفي البعض الآخر مئة قنطارٍ ، جزيةً في كلِّ سنةٍ على أن يكفَّ عنهم ، ويخرج من بلادهم ، فقبل ذلك منهم ، وقبض المال ، وكان في شرط صلحهم أنَّ ما أصاب المسلمون قبل الصُّلح فهو لهم ، وما أصابوه بعد الصُّلح ردَّه عليهم ، وانصرف راجعاً إلى مصر بعد أن أقام بإفريقية سنةً وثلاثة أشهر ، أو سنةً وشهراً في روايةٍ أخرى[٣] .

وعندما وصل عبد الله بن سعدٍ إلى طرابلس ؛ وافته المراكب ، فحمل فيها أثقال جيشه ، وقصد هو وأصحابه مصر سالمين ، ووجَّه إلى عثمان بن عفَّان رضي الله عنه الأموال الَّتي معه من

---

(١) الشَّرف والتَّسامي بحركة الفتح الإسلامي ، ص(١٩١) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٩٣) ، البداية والنِّهاية (٧/ ١٥٨) .

(٣) الشَّرف والتَّسامي بحركة الفتح الإسلامي ، ص(١٩٤) .

الخمس وغيره ، ومن المرجَّح أن تكون السُّفن الّتي وافته في طرابلس من السُّفن الّتي غنمها المسلمون في سورية، والإسكندريّة، إذ يذكر إرشيبالد: أنَّه قد سهَّل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصِّناعة البيزنطية في الإسكندرية وسورية سليمةً أن تكون لديهم سفنٌ حربيَّةٌ، إما حاضرةٌ، وإمَّا سهلة الإنشاء[١] ، بيد أنَّ هناك رواياتٍ تنصُّ على عودة عبد الله بن سعدٍ لإفريقية بعد وصوله إلى مصر، وذلك حين نقض أهلها العهد، وكان ذلك في سنة ثلاثٍ وثلاثين، فانتصر عليهم وقام بتثبيت دعائم النِّظام الإسلاميِّ هناك ، وأقرَّ أهلها على الإسلام ، أو الجزية[٢] .

رابعاً : بطولة عبد الله بن الزُّبير في فتح إفريقية :

انقطع خبر المسلمين في إفريقية عن عثمان رضي الله عنه فسيَّر إليهم عبد الله بن الزُّبير في جماعةٍ ليأتيه بأخبارهم ، فسار مُجِدّاً ، ووصل إليهم ، وأقام معهم ، ولمَّا وصل ؛ كثُر الصِّياح ، والتَّكبير في المسلمين ، فسأل جرجير عن الخبر ، فقيل : قد أتاهم عسكرٌ ، ففتَّ ذلك في عضده ، ورأى عبد الله بن الزُّبير قتال المسلمين كلَّ يوم من بكرةٍ إلى الظُّهر فإذا أُذِّن بالظُّهر عاد كلُّ فريق إلى خيامه ، وشهد القتال من الغد فلم يَرَ ابن سعد معهم ، فسأل عنه فقيل : إنَّه سمع منادي جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعدٍ ، فله مئة ألف دينار ، وأزوِّجه ابنتي ! وهو يخاف ، فحضر عنده، وقال له: تأمر منادياً ينادي: من أتاني برأس جرجير؛ نفَّلته مئة ألفٍ، وزوَّجته ابنته، واستعملته على بلاده! ففعل ذلك، فصار جرجير يخاف أشدَّ من عبد الله[٣] .

ثمَّ إن عبد الله بن الزُّبير قال لعبد الله بن سعدٍ : إنَّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متَّصلةٍ ، وبلادٍ هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين ، وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعةً صالحةً من أبطال المسلمين في خيامهم متأهِّبين ، ونقاتل نحن الرُّوم في باطن العسكر إلى أن يضجروا ويملُّوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ؛ ركب من كان في الخيام من المسلمين ، ولم يشهدوا القتال ، وهم مستريحون ، ونقصدهم على غرَّةٍ فلعلَّ الله ينصرنا عليهم ! فأحضر جماعةً من أعيان الصَّحابة ، واستشارهم ، فوافقوه على ذلك ، فلمَّا كان الغد ؛ فعل عبد الله ما اتَّفقوا عليه ، وأقام جميع شُجعان المسلمين في خيامهم ، وخيولهم عندهم مُسَرَّجةٌ ، مضى الباقون ، فقاتلوا الرُّوم إلى الظُّهر قتالاً شديداً ، فلمَّا أذَّن بالظُّهر همَّ الرُّوم بالانصراف على العادة ، فلم يمكِّنهم ابن الزُّبير ، وألح عليهم بالقتال ، حتَّى أتعبهم ، ثمَّ عاد عنهم ، والمسلمون ، فكلُّ الطائفتين ألقى سلاحه ، ووقع تعباً ، فعند ذلك أخذ عبد الله بن

(١) ليبيا من الفتح العربيِّ حتَّى انتقال الخلافة الفاطميَّة ، ص(٤٦) .
(٢) الشَّرف والتَّسامي بحركة الفتح الإسلامي ، ص(١٩٤) .
(٣) التَّاريخ الإسلاميُّ (١٢/ ٣٨٨) .

الزُّبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الرُّوم فلم يشعروا بهم حتَّى خالطهم، وحملوا حملة رجلٍ واحدٍ، وكبَّروا، فلم يتمكَّن الرُّوم من لبس سلاحهم حتَّى غشيهم المسلمون، وقُتل جرجير قتله ابن الزُّبير، وانهزم الرُّوم، وقُتل منهم مقتلةٌ عظيمةٌ، وأُخذت ابنة الملك جرجير سبيةً، ونزل عبد الله بن سعدٍ المدينة، وحاصرها حتَّى فتحها، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينارٍ، وسهم الرَّاجل ألف دينارٍ.

ولمَّا فتح عبد الله مدينة سبيطلة، بثَّ جيوشه في البلاد، فبلغت قفصة، فسبوا، وغنموا وسيَّر عسكراً إلى حصن الأجم، وقد احتمى به أهل تلك البلاد، فحصره، وفتحه بالأمان، فصالحه أهل إفريقية ـ كما مرَّ معنا ـ ونفَّل عبد الله بن الزُّبير ابنة الملك، وأرسله ابن سعدٍ إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية[1].

هذا ولقد كان لعبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما موقفٌ عظيم في البطولة، والشَّجاعة، وقد ذكره الحافظ ابن كثير، حيث قال: لمَّا قصد المسلمون وهم عشرون ألفاً إفريقية، وعليهم عبد الله بن سعدٍ بن أبي سرح، وفي جيشه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزُّبير؛ صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومئة ألفٍ، وقيل: في مئتي ألفٍ، فلمَّا تراءى الجمعان، أمر جيشه، فأحاطوا بالمسلمين هالةً، فوقف المسلمون في موقفٍ لم يُرَ أشنع منه، ولا أخوف عليهم منه.

قال عبد الله بن الزُّبير: نظرت إلى الملك جرجير من وراء الصُّفوف وهو راكبٌ على برذون، وجاريتان تظلانه بريش الطَّواويس، فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرحٍ، فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري، وأقصد الملك، فجهَّز معي جماعةً من الشجعان، فأمر بهم فَحَموا ظهري، وذهبت حتَّى خرقت الصُّفوف إليه، وهم يظنُّون أنِّي في رسالة إلى الملك، فلمَّا اقتربت منه أحسَّ منِّي الشَّرَّ، ففرَّ على برذونه فلحقته، فصفعته برمحي، وذففت ـ يعني: أجهزت ـ عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرُّمح، وكبَّرت، فلمَّا رأى ذلك البربر، فَرِقُوا، وفرُّوا كَفِرار القطا، واتَّبعهم المسلمون يقتلون، ويأسرون، فغنموا غنائم جمَّةً، وأموالاً عظيمةً، وسبياً عظيماً، وذلك ببلد يقال له: (سبيطلة) على يومين من القيروان.

قال ابن كثير: فكان هذا أوَّل موقف اشتهر فيه أمرُ عبد الله بن الزُّبير، رضي الله عنه وعن أبيه، وأصحابهما أجمعين[2].

إنَّ ما قام به ابن الزُّبير نوعٌ من الطُّموح نحو المعالي المحفوفة بالأهوال، بدون تدرُّج سابق، لقد كان عمره آنذاك سبعاً وعشرين سنةً، ولم يُذكر له قبل ذلك مواقف بطوليَّة من نوع

---

(١) الكامل لابن الأثير (٣/ ٤٥ ـ ٤٦).

(٢) البداية والنِّهاية (٧/ ١٥٨).

المغامرات ، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة الّتي يغلب على الظّنّ ، أو يكاد يقرب من اليقين في عرف النّاس العاديين أنّ فيها الهلاك ؟ !

إنّ الاحتمالات الّتي يمكن أن ترد في مثل هذه المغامرة أن يدور في خَلَد المغامر أمران :

١ـ أن ينجح في هجومه فيقضي على ملك البربر ، ويتفرّق جنده ، كما هي عادة الكفار ، وفي ذلك نصرٌ مؤزّر للمسلمين ، وكفايةٌ لهم عن خوض معركةٍ شرسةٍ ، قد تخوف منها المسلمون .

٢ـ أن يتقبّله الله شهيداً ، وفي ذلك الوصول إلى أسمى الأماني ، وأبلغ الدّرجات الّتي يطمح إليها الصّالحون ويتنافسون على بلوغها ، كما أنّ في ذلك من إرهاب الكفّار ، وإثارة الرُّعب فيهم الشّيءَ الكثير ، حيث سيتوقّع الكفار : أنّ المسلمين الّذين سيقاتلونهم كلُّهم من هذا النّوع الجريء الفتّاك ؛ إذ إنّه يكفي المغامر شجاعةً أن يقذف بنفسه في أتون المعركة الملتهب ، إنّه لا يُقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الّذين يتصوّرون الجنّة من وراء تلك الوثبة ويشتاقون للعيش فيها ، ولقد كان ابن الزُّبير عندما وثب تلك الوثبة متجرّداً من علائق الدُّنيا ، وأثقالها المثبّطة ، طامحاً إلى ما أعدّه الله تعالى للمجاهدين في سبيله على قدر طاقتهم سواءٌ انتصروا على أعدائهم ، أو نالوا الشهادة[1] .

وقد جاء في هذا الخبر : أنّ البربر بعدما قُتل ملكهم فرُّوا من جيش المسلمين كفرار القطا ، وأنّ المسلمين تبعوهم يقتلون ، ويأسرون منهم من غير مقاومةٍ ، وإنّ هذا الخبر دليلٌ على أنّ الله تعالى مع أوليائه المؤمنين ، وأنّه يقيّض لهم إذا صدقوا ما يخلّصهم من الشّدائد ، وينقذهم من المآزق ، فإنّ المسلمين قد وقعوا في معضلةٍ كبرى ، حيث أحاط بهم أعداؤهم الّذين يفوقونهم ستّ مرات في العدد ، أو أكثر ، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم من كل جانبٍ ، وهو أمر عسيرٌ على جيش صغيرٍ بالنّسبة لكثرة عدوّه ، كما جاء في قول الرّاوي : فوقف المسلمون في موقفٍ لم يُر أشنع منه ، ولا أخوف عليهم منه ، فقيّض الله لهم هذا البطل المغوار الّذي أقدم على مغامرةٍ نادرة المثال ، فأنقذ الله به ذلك الجيش الإسلاميّ من عسرةٍ كان يعاني منها[2] .

ولا ننسى موقف الأبطال الّذين كانوا مع عبد الله بن الزُّبير يحمون ظهره ، فإنّهم قد شاركوه في تلك المخاطرة ، ولئن لم يَذكر التّاريخ أسماءهم ، فإنّ عملهم الفدائيّ قد بقي مخلّداً في

---

(١) التّاريخ الإسلاميّ (١٢/ ٣٩٠) .
(٢) المصدر السّابق نفسه ، ص(١٢/ ٣٩٠) .

الدُّنيا برفع ذكر هذه الأمَّة حينما تفاخر بأبطالها ، وفي الآخرة بما ينتظرون من وعد الله للمجاهدين الصَّادقين[١] .

هذا وقد قدَّم المسلمون الغالي ، والرَّخيص في فتوحات إفريقية ، واستشهد منهم الكثير ، وممَّن توفي منهم غازياً بإفريقية في خلافة عثمان أبو ذُؤَيبٍ الهُذَليُّ ، وكان شاعراً مشهوراً ، وهو الّذي قال :

وَإِذَا الْمَنِيَّــةُ أَنْشَبَــتْ أَظْفَــارَهَــا ... أَلْفَيْــتَ كُــلَّ تَمِيْمَــةٍ لا تَنْفَــعُ
وَتَجَلُّــدي لِلشَّــامِتيْــنَ أُرِيْهُــمُ ... أَنِّــي لِــرَيْــبِ الــدَّهــر لا أَتَضَعْضَــعُ[٢]

خامساً : معركة ذات الصَّواري :

أصيب الرُّوم بضربةٍ حاسمةٍ في إفريقية ، وتعرَّضت سواحلهم للخطر بعد سيطرة الأسطول الإسلاميِّ على سواحل المتوسط من رودس حتَّى برقة ، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولاً بناه الرُّوم من قبل ، فخرج بألف سفينةٍ ، لضرب المسلمين ضربةً يثأر بها لخسارته المتوالية في البرِّ ، فأذن عثمان رضي الله عنه لصدِّ العدوان ، فأرسل معاوية مراكب الشَّام بقيادة بُسْر بن أرطاة ، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح في مراكب مصر ، وكانت كلُّها تحت إمرته ، ومجموعها مئتا سفينةٍ فقط ، وسار هذا الجيش الإسلاميُّ ، وفيه أشجع المجاهدين المسلمين ممَّن أبلوا في المعارك السَّابقة ، فقد انتصر هؤلاء على الرُّوم من قبل في معارك عديدةٍ ، فشوكة عدوِّهم في أنفسهم محطَّمةٌ ، لا يخشونه ، ولا يهابونه ، على الرَّغم من قلَّة عدد سفنهم إذا قيست بعدد سفن عدوِّهم ، خرج المسلمون إلى البحر ، وفي أذهانهم وقلوبهم إعزاز دين الله ، وكسر شوكة الرُّوم ، ولقد كان لهذه المعركة التَّاريخية أسبابٌ ، منها :

١ـ الضَّربات القويَّة الّتي وجَّهها المسلمون إلى الرُّوم في إفريقية .

٢ـ إصابة الرُّوم في سواحلهم الشَّرقيَّة ، والجنوبيَّة بعد أن سيطر المسلمون بأسطولهم عليها .

٣ـ خشية الرُّوم أن يقوى أسطول المسلمين ، فيفكروا في غزو القسطنطينية .

٤ـ أراد قسطنطين بن هرقل استرداد هيبة ملكه بعد الخسائر المتتالية برّاً ، وعلى شواطئه في بلاد الشَّام ، ومصر ، وساحل برقة .

٥ـ كما أراد الرُّوم خوض معركةٍ ظنُّوا : أنَّها مضمونة النَّتائج ، كي تبقى لهم السَّيطرة في

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) تاريخ الإسلام للذَّهبيِّ ، عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٥٩) .

المتوسِّط ، فيحافظوا على جزره ، فينطلقوا منها للإغارة على شواطئ بلاد العرب .

٦ـ محاولة استرجاع الإسكندريّة بسبب مكانتها عند الرُّوم ، وقد ثبت تاريخيّاً مكاتبة سكانها لقسطنطين بن هرقل ملك الرُّوم .

هذه بعض أسباب معركة ذات الصَّواري[١] .

● أين وقعت هذه المعركة ؟

وهذا السُّؤال لم يجد المؤرِّخون جواباً موحَّداً ، فالمراجع العربيَّة لم تحدِّد مكانها ، باستثناء مرجعٍ واحدٍ ـ على ما نعلم ـ صرَّح بالمكان بدقَّةٍ ، وآخر قال : اتَّجه الروم إليه .

* في (فتح مصر وأخبارها)[٢] ، ذكر الكتاب خطبة عبد الله بن سعد بن أبي سرحٍ ، وقال : قد بلغني : أنَّ هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركبٍ . . . ولم يحدِّد مكان المعركة .

* (الطَّبري)[٣] ، في أخبار سنة ٣١ هـ ، ربط حدوث ذات الصَّواري بما أصاب المسلمون من الرُّوم في إفريقية ، وقال : فخرجوا في جمعٍ لم يجتمع للرُّوم مثله قطُّ .

* ولم يذكر (الكامل في التاريخ)[٤] ، مكان الموقعة أيضاً ، ولكنَّه ربط سبب وقوعها بما أحرزه المسلمون من نصرٍ في إفريقية بالذَّات .

* وفي (البداية والنِّهاية)[٥] ؛ فلمَّا أصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح مَنْ أصاب من الفرنج ، والبربر ببلاد إفريقية ، حميت الرُّوم ، واجتمعت على قسطنطين ابن هرقل ، وساروا إلى المسلمين في جمع لهم لم يُرَ مثلهُ منذ كان الإسلام ، خرجوا في خمسمئة مركبٍ وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبي سرحٍ في أصحابه من المسلمين ببلاد المغرب .

* (تاريخ الأمم الإسلاميَّة)[٦] ، لم يذكر مكان الموقعة أيضاً[٧] ، ورجَّح الدكتور شوقي أبو خليل : أنَّ المعركة كانت على شواطئ الإسكندرية ، وذلك للأسباب التالية :

---

(١) ذات الصَّواري ، شوقي أبو خليل ، ص(٦٠ ، ٦١) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦١) .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٩٠) .

(٤) الكامل في التاريخ (٣/ ٥٨) طبعة البابي الحلبي القاهرة) .

(٥) البداية والنِّهاية (٧/ ١٦٣) .

(٦) تاريخ الأمم الإسلاميَّة (٢/ ٢٩) ، للشَّيخ الخضري .

(٧) ذات الصَّواري ، ص(٦٢) .

- كتاب (النُّجوم الزَّاهرة في ملوك مصر والقاهرة) يذكر صراحةً : غزوة ذات الصَّواري في البحر من ناحية الإسكندريَّة[١] .

- تاريخ ابن خلدون يذكر[٢] : ثمَّ بعث - ابن أبي سرح - السَّرايا ، ودوَّخ البلاد ، فأطاعوا ، وعاد إلى مصر ، ولمَّا أصاب ابن أبي السَّرح من إفريقية ما أصاب ، ورجع إلى مصر خرج قسطنطين بن هرقل غازياً إلى الإسكندرية في ستِّمئة مركبٍ .

- ربطت المراجع العربيَّة الَّتي لم تحدِّد موقع المعركة بين حدوث المعركة ، وبين ما خسره الرُّوم في شمال إفريقية بالذَّات .

- الأسطول الرُّومي صاحب ماضٍ عريقٍ ، فهو سيِّد المتوسط قبل ذات الصَّواري ، فهو أجرأ على مهاجمة السَّواحل الإسلاميَّة ، ولذلك رجح الدُّكتور شوقي أبو خليل مجيء الأسطول الرُّومي إلى شواطئ الإسكندريَّة ؛ لاستعادتها بسبب مكانتها عند الرُّوم ومكاتبة أهلها لملكهم السَّابق ، وهو بذلك يقضي أيضاً على الأسطول الفتي في مهده ، الَّذي شرع العرب في بنائه بمصر ، فتبقى للرُّوم السَّيطرة والسَّطوة في مياه المتوسط ، وجزره .

- المراجع الأجنبيَّة تعرِّف ذات الصَّواري بموقعة (فونيكة) ، وفونيكة : هو ثغرٌ يقع غرب مدينة الإسكندرية ، بالقرب من مدينة مرسى مطروح ، فهي تحدِّد الموقع تماماً[٣] .

● **أحداث المعركة :**

قال مالك بن أوس بن الحدثان : كنت معهم - في ذات الصَّواري - فالتقينا في البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قطُّ ، وكانت الرِّيح علينا - أي : لصالح مراكب الروم - فأرسينا ساعةً ، وأرسوا قريباً منَّا ، وسكتت الرِّيح عنا ، قلنا للرُّوم : الأمن بيننا وبينكم . قالوا : ذلك لكم ، ولنا منكم[٤] ، كما طلب المسلمون من الرُّوم : إن أحببتم ننزل إلى السَّاحل فنقتتل ، حتى يُكتب لأحدنا النَّصر ، وإن شئتم فالبحر . قال مالك بن أوس : فنخروا نخرةً واحدةً ، وقالوا : بل الماء ، الماء ، الماء ! وهذا يظهر لنا ثقة الرُّوم بخبرتهم البحريَّة ، وأملهم في النَّصر لممارستهم أحواله ، وفنونه ، وقد مرنوا عليه ، فأحكموا الدِّراية بثقافته ، وأنوائه ، فطمعوا بالنَّصر فيه ، خصوصاً وأنَّهم يعلمون حداثة عهد المسلمين به[٥] .

---

(١) النُّجوم الزَّاهرة (١/ ٨٠) .

(٢) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٦٨) .

(٣) ذات الصَّواري ، ص(٦٤) .

(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٩٢) .

(٥) ذات الصَّواري ، ص(٦٦) .

بات الفريقان تلك اللَّيلة في عرض البحر ، وموقف المسلمين حَرِجٌ ، فقال القائد المسلم لصحبه : أشيروا عليَّ ؟ فقالوا : انتظر اللَّيلة بنا لنرتِّب أمرنا ، ونختبر عدوَّنا ، فبات المسلمون يصلُّون ، ويدعون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويذكرونه ، ويتهجَّدون ، فكان لهم دويٌّ كدويِّ النَّحل ، على نغمات تلاطم الأمواج بالمراكب ، أمَّا الرُّوم ؛ فباتوا يضربون النَّواقيس في سفنهم ، وأصبح القوم ، وأراد قسطنطين أن يسرع في القتال ، ولكنَّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح لمَّا فرغ من صلاته إماماً بالمسلمين للصُّبح ، استشار رجال الرأي ، والمشورة عنده ، فاتفق معهم على خطَّةٍ رائعة : فقد اتفقوا على أن يجعلوا المعركة برِّيَّة على الرَّغم من أنَّهم في عرض البحر ، فكيف تمَّ للمسلمين ذلك ؟ أمر عبد الله جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم فاقتربوا حتى لامست سفنهم سفن العدوِّ ، فنزل الفدائيون ، أو ـ رجال الضَّفادع البشريَّة في عرفنا الحالي ـ إلى الماء ، وربطوا السُّفن الإسلاميَّة بسفن الرُّوم ، ربطوها بحبالٍ متينةٍ ، فصار (١٢٠٠) سفينة في عرض البحر ، كلُّ عشرةٍ أو عشرين منها متَّصلةٌ مع بعضها ، فكأنها قطعةُ أرض ستجري عليها المعركة ، وصَفَّ عبد الله بن سعدٍ المسلمين على نواحي السُّفن يعظهم ، ويأمرهم بتلاوة القرآن الكريم ، خصوصاً سورة الأنفال ، لما فيها من معاني الوحدة ، والثَّبات ، والصَّبر[١] .

وبدأ الرُّوم القتال ، فهم في رأيهم قد ضمنوا النَّصر عندما قالوا : بل الماء ، الماء ، الماء ! وانقضُّوا على سفن المسلمين بدافع الأمل بالنَّصر ، مستهدفين توجيه ضربةٍ أولى حاسمةٍ يحطِّمون بها شوكة الأسطول الإسلاميِّ ، فنقض الرُّوم صفوف المسلمين المحاذية لسفنهم ، وصار القتال كيفما اتَّفق وكان قاسياً على الطَّرفين ، وسالت الدِّماء غزيرة ، فاصطبغت بها صفحة الماء ، فصار أحمر . وترامت الجثث في الماء وتساقطت فيه ، وضربت الأمواج السُّفن حتَّى ألجأتها إلى السَّاحل ، وقتل من المسلمين الكثير ، وقتل من الرُّوم ما لا يحصى ، حتَّى وصف المؤرخ البيزنطيُّ (ثيوفانس) هذه المعركة بأنَّها كانت يرموكاً ثانيةً على الرُّوم[٢] ، ووصفها الطَّبريُّ بقوله : إنَّ الدَّم كان غالباً على الماء في هذه المعركة[٣] . حاول الرُّوم أن يغرقوا سفينة القائد المسلم عبد الله بن أبي سرح ؛ كي يبقى جند المسلمين دون قائد ، فتقدَّمت من سفينته سفينةٌ روميَّة ، ألقت إلى سفينة عبد الله السَّلاسل لتسحبها ، وتنفرد بها ، ولكنَّ علقمة بن يزيد الغطيفي أنقذ السَّفينة ، والقائد ، بأن ألقى بنفسه على السَّلاسل وقطعها بسيفه[٤] .

---

(١) ذات الصَّواري ، ص(٦٧) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٩٣) .

(٤) ذات الصَّواري ، ص(٦٨) .

وصمد المسلمون رغم كلِّ شيءٍ ، وصبروا كعادتهم في معاركهم ، فكتب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لهم النَّصر بما صبروا ، واندحر ما تبقى من الأسطول الرُّومي ، وكاد الأمير قسطنطين أن يقع أسيراً في أيدي المسلمين ، كما ذكر ابن عبد الحكم ، لكنَّه تمكَّن من الفرار لمَّا رأى قوته تنهار ، وجثث جنده على سطح الماء تلقي بها الأمواج إلى السَّاحل ، لقد رأى أسطوله ـ الَّذي تأمَّل فيه خيراً ، ونصراً ، وإعادة كرامة ـ يغرق قطعةً بعد قطعةٍ ، ففرَّ مدبراً ، والجراحات في جسمه ، والحسرة تأكل فؤاده ، يجرُّ خيبةً ، وفشلاً ، فوصل جزيرة صقلية[١] . . . وألقت الرِّيح هناك ، فسأله أهلها عن أمره ، فأخبرهم ، فقالوا : شمت النَّصرانيَّة ، وأفنيت رجالها ، لو دخل المسلمون لم نجد من يردُّهم[٢] فقتلوه ، وخلَّوا من كان معه في المراكب[٣] .

● نتائج ذات الصواري :

١ـ كانت ذات الصَّواري أوَّل معركةٍ حاسمةٍ في البحر خاضها المسلمون ، أظهر فيها الأسطول الفتيُّ الصَّبر ، والإيمان ، والجلد ، والفكر السَّليم ، بما تفتَّق عنه الذِّهن الإسلاميُّ من خطَّةٍ جعلت المعركة صعبةً على أعدائهم ، فاستحال عليهم اختراق صفوف المسلمين بسهولةٍ ، كما استخدم المسلمون خطاطيف طويلة يجرُّون بها صواريَ ، وشُرُعَ الأعداء ، الأمر الَّذي انتهى بكارثةٍ بالنِّسبة للرُّوم .

٢ـ كانت ذات الصَّواري حدّاً فاصلاً في سياسة الرُّوم إزاء المسلمين ، فأدركوا فشل خططهم في استرداد هيبتهم ، أو استرجاع مصر ، أو الشَّام ، وانطلق المسلمون في عرض هذا البحر ، الَّذي كان بحيرة روميَّة ، وانتهى اسم (بحر الرُّوم) إلى الأبد ، واستطاع المسلمون فتح قبرص ، وكريت ، وكورسيكا ، وسردينيا ، وصقلِّية ، وجزر البليار ، ووصلوا إلى جنوة ، ومرسيليا .

٣ـ قُتِلَ قسطنطين ، فتولَّى ابن قسطنطين الرَّابع من بعده ، وكان حدثاً صغير السِّنِّ ، ممَّا جعل الظُّروف مواتيةً لقيام حملةٍ بحريَّةٍ ، وبرِّيَّةٍ إسلاميَّةٍ تستهدف روما (القسطنطينية) فيما بعد .

٤ـ الإعداد الرُّوحي قبل المعركة ، أو مايسمَّى بالتَّوجيه المعنويِّ في أيَّامنا هذه ، له قيمته في تحقيق النَّصر ، حيث تتَّجه القلوب إلى الله بصدقٍ ، فهذا المؤمن الَّذي بات ليله في تهجُّدٍ ، وذكرٍ ، يستمدُّ العون من الله ، من عظمته ، وعزَّته ، بعد أن هيَّأ الأسباب، يلقى الأعداء بروحٍ

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٦٨) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) ذات الصَّواري ، ص(٦٨) .

عاليةٍ لا يهاب الموت، فالله أكبر من كلِّ شيءٍ ، وهذه المعارك الَّتي نَصِفُ أحداثها التَّاريخيَّة، هي وصفةٌ طبيَّةٌ نعرضها للتَّطبيق، والنَّهج، لنستفيد منها في حياتنا، فحياة الصَّحابة ما هي إلا للقدوة، وسيرةٌ للاتِّباع(١).

٥ـ أصبح البحر المتوسط بحيرةً إسلاميَّة ، وصار الأسطول الإسلاميُّ سيِّد مياه البحر المتوسط ، وهذا الأسطول ليس للتسلُّط ، والقرصنة ، بل للدَّعوة إلى الله ، وكسر شوكة المشركين ، ونشر الحضارة المنبثقة عن كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ .

٦ـ عكف المسلمون على دراسة علوم البحريَّة ، وصناعة السُّفن ، وكيفيَّة تسليحها ، وأسلوب القتال من فوقها ، وعلوم الفلك المتَّصلة بتسييرها في البحار ومعرفة مواقعهم على المصوَّرات البحريَّة المختلفة ـ فيما بعد ـ فعرفوا الأسْطُرْلاب (البوصلة الفلكية) وطوَّروها إلى المدى الَّذي استفاد منه بعد ذلك البحَّارة الغربيُّون أمثال : كرستوف كولومبس ، وأمريكو فيسبوشي في اكتشافاتهم(٢) .

٧ـ لقد كانت هذه المعركة مظهراً من مظاهر تفوُّق العقيدة الصَّحيحة الصُّلبة على الخبرة العسكريَّة ، والتفوُّق في العَدد ، والعُدد ، فلقد كان الرُّوم هم أهل البحر منذ القدم ، وقد مرُّوا بتجارب طويلةٍ في الحروب البحريَّة ، بينما كان المسلمون حديثي عهدٍ بركوب البحر ، والقتال البحريِّ ، ولكن الله ـ تعالى ـ أعلى المسلمين عليهم برغم التفوُّق المذكور ؛ لأنَّه سبحانه قد سخَّر أولئك المؤمنين لنشر دينه ، وإعلاء كلمته في الأرض ، وإنَّ ممَّا يُشاد به في هذه المعركة قوة قائدها عبد الله بن سعد بن أبي سرحٍ ، ورباطة جأشه ، ومقدرته الجيِّدة على إدارة الحروب ، وهي بعد ذلك لونٌ من ألوان بسالة المسلمين ، واستقتالهم في الحروب في سبيل إعزاز دينهم ، ورفع شأن دولتهم(٣) .

سادساً : أهمُّ الدُّروس ، والعبر ، والفوائد في فتوحات عثمان رضي الله عنه :

١ـ تحقيق وعد الله للمؤمنين :

قال ابن كثير في حديثه عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه : . . . ففتح الله على يديه كثيراً من الأقاليم ، والأمصار ، وتوسَّعت المملكة الإسلاميَّة ، وامتدت الدَّولة المحمديَّة ، وبلغت الرِّسالة المصطفويَّة في مشارق الأرض ومغاربها ، وظهر للنَّاس مصداق قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ

---

(١) ذات الصَّواري ، ص(٧١ ، ٧٢) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٧٦) .
(٣) التَّاريخ الإسلاميُّ (١٢/٤٠٧) .

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. وقوله ﷺ: **« إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والَّذي نفسي بيده! لَتُنْفَقَنَّ كنوزُهما في سبيل الله »**[١].

وهذا كلُّه تحقَّق وقوعه، وتأكَّد وتوطَّد في زمان عثمان رضي الله عنه[٢].

٢ـ التَّطور في فنون الحرب والسِّياسة:

كانت الحروب تنشأ بين الشُّعوب من أجل قطعةٍ من الأرض، يراد تملُّكها، أو بسبب اعتداءٍ يقع على بلدٍ، أو قبيلة، ولكنَّها في عهد النُّبوة والعهد الرَّاشديِّ أصبحت بسبب المبادئ، فالمسلمون يريدون أن تكون عقيدتهم هي السَّائدة والمهيمنة في الأرض، فاصطدمت بعقائد فاسدةٍ، ومنحرفةٍ، كعقائد المشركين، والمجوس، على أنَّ هذا لم يكن كلُّ شيء في التطوُّر الحربيِّ، بل نجد لوناً جديداً آخر، وهو ما كان يعرضه المجاهدون المسلمون على أعدائهم من: الإسلام، أو الجزية، أو المناجزة، ونتج عن تلك الفتوح سياسةٌ فذةٌ أرضت جميع الشُّعوب، إلا من كان في قلبه حقدٌ على العدل، والمساواة ممَّن كانت تحدِّثهم نفوسهم بالفتن، والعصيان، وهؤلاء اضطرُّوا المسلمين أحياناً إلى الشِّدَّة معهم، والتَّنكيل بهم[٣].

٣ـ بدء التَّجنيد الإلزامي في عهد عمر رضي الله عنه، واستمراره في عهد عثمان رضي الله عنه:

كانت معركة القادسيَّة من أسباب اتِّخاذ الفاروق لقرار التَّجنيد الإلزاميِّ، فقد أمر عمَّاله على الأقاليم بإحضار كلِّ فارسٍ ذي نجدةٍ، أو رأيٍ، أو فرسٍ، أو سلاحٍ، فإن جاء طائعاً، وإلا حشروه حشراً، وقادوه مقاداً، واستعجلهم في ذلك بحزمه المشهور قائلاً: لا تدعوا أحداً إلا وجهتموه إليَّ، والعَجَل، العَجَل[٤]! وكان عمر يفكِّر في التَّجنيد الإلزاميِّ الموقوف للجهاد، فلمَّا دوَّن الدِّيوان، ورتَّب للمسلمين أرزاقهم السَّنويَّة؛ خرجت فكرته إلى حيِّز الوجود،

---

(١) مسلم، كتاب الفتن، رقم (٢٩١٨ ـ ٢٩١٩).

(٢) البداية والنِّهاية (٧/٢١٦).

(٣) عصر الخلفاء الرَّاشدين، د. عبد الحميد بخيت، ص(٢١٦).

(٤) إتمام الوفاء، ص(٧٠).

واقترنت نشأة الدِّيوان بنشأة التَّجنيد النظاميِّ الرَّسميِّ ، وحُدِّدت للجنود النِّظاميين عطاياهم ، ورواتبهم من بيت مال المسلمين ، وعندما أذن عثمان لمعاوية بالغزو بحراً ؛ أمره أن يخيِّر النَّاس ، ولا يكرههم ، حتَّى لا يذهب أحد إلى هذا الضَّرب من الغزو إلا طائعاً مختاراً ، أمَّا التَّجنيد برّاً لإتمام حركة الفتوح فقد ظلَّ في عهده إلزاميّاً على أصحاب الرَّواتب ، والأرزاق من الجنود النِّظاميين(١) .

٤ـ اهتمام عثمان بحدود الدَّولة الإسلاميَّة :

ترتَّب على توسُّع الدَّولة الإسلاميَّة في عهد عثمان رضي الله عنه الاستمرار في سياسة تحصين الثُّغور للحفاظ على حدود الدَّولة الإسلاميَّة من مهاجمة الأعداء سواءٌ كان ذلك بشحنها بالجند المرابطين ، أو بناء الحاميات الدِّفاعية المختلفة بها ، فكان أوَّل كتابٍ كتبه عثمان بن عفَّان رضي الله عنه في خلافته لأمراء الأجناد في الثُّغور لحماية حدود الدَّولة الإسلاميَّة قوله : أمَّا بعد : فإنَّكم حماة المسلمين ، وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنَّا ، بل كان على ملأ منَّا ، ولا يبلغني عن أحدٍ منكم تغييرٌ ، ولا تبديلٌ فيغيِّر الله ما بكم ، ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فإنِّي أنظر فيما أكرمني الله النَّظر فيه ، والقيام عليه(٢) .

وتسهيلاً ، وتيسيراً للعمليَّة الإداريَّة جمع الخليفة عثمان رضي الله عنه لمعاوية ابن أبي سفيان الشَّام ، والجزيرة ، وولاية ثغورهما في إدارة موحَّدةٍ ، وكلَّفه بغزو ثغر شمشاط بنفسه ، أو أن يولِّي ذلك من يرتضيه من كبار قواده من أصحاب الخبرة ، والشَّجاعة الرَّاغبين في الجهاد ، والحرب مع الرُّوم(٣) ، كما كتب أيضاً لمعاوية بن أبي سفيان أن يُلزم ثغر أنطاكية قوماً ، وأن يقطعهم القطائع به ، ففعل ذلك(٤) .

وكان رضي الله عنه يهتمُّ بأمر الثُّغور ، ويبعث مَنْ يستعلم له عن بعضها(٥) ، وعندما غزا معاوية بن أبي سفيان عمُّورية ، وجد الحصون الّتي فيها بين ثغر أنطاكية ، وثغر طرسوس خاليةً من مقاتلة الرُّوم ، فجعل بها جماعةً من جند الشَّام ، والجزيرة ، وقنَّسرين ، وأمرهم بالوقوف عندها لتحمي ظهره أثناء انسحابه وانصرافه من غزواته ، ثمَّ أغزى بعد ذلك بسنةٍ ، أو سنتين يزيد بن الحرِّ العبسيَّ(٦) الصَّائفة ، وأمره بفعل الشيء نفسه ، وكانت ولاة الصَّوائف ، والشَّواتي إذا

---

(١) النُّظم الإسلاميَّة ، لصبحي الصالح ، ص(٤٨٩) .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٤٤) .

(٣) الإدارة العسكريَّة في الدَّولة الإسلاميَّة (٢/ ٤٦٦) .

(٤) فتوح البلدان (١/ ١٧٥) .

(٥) الخراج لابن قدامة ، ص(٤١٣) .

(٦) الإدارة العسكريَّة في الدَّولة الإسلاميَّة (٢/ ٤٦٧) .

دخلوا بلاد الرُّوم ، فعلوا ذلك حيث يخلِّفون بها جنداً كثيفاً إلى خروجهم من أرض العدوِّ[١] ، وقد أبلى معاوية بن أبي سفيان في أثناء إدارته للسَّواحل الشَّامية ، وفي تحصينها بلاءً حسناً[٢] .

وكتب عثمان رضي الله عنه لعبد الله بن سعد بن أبي السَّرح يأمره بالحفاظ على ثغر الإسكندرية بإلزام الجند المرابطة به ، وأن يجري عليهم أرزاقهم ، وأن يعقِّب بين المرابطين من أجل : أنَّه لا يضرُّ بهم التَّجمير ، فقال له : قد علمت كيف كان همُّ أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب بالإسكندرية ، وقد نقضت الرُّوم مرَّتين ، فألْزم الإسكندرية مرابطيها ، ثمَّ أجر عليهم أرزاقهم ، وأعقب بينهم في كلِّ ستَّة أشهر[٣] .

وكان من عادة قادة الخليفة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه إذا تقدَّموا في الفتوح ، واستولوا على حصون العدوِّ ؛ قاموا بترميمها كمن سبقهم من القادة ، ثمَّ إسكانها جند المسلمين من المرابطين بالإضافة إلى استحداثهم لتحصيناتٍ دفاعيَّةٍ جديدةٍ ، فمن تلك الحصون الَّتي قام بترميمها معاوية بن أبي سفيان حصون الفرات ، وهي : سميساط[٤] ، وملطية[٥] ، وشمشاط ، وكمخ[٦] ، وقاليقلا[٧] ، وهي حصونٌ استولى عليها المسلمون عند فتحهم لأرمينية في عهد عثمان رضي الله عنه وقاموا بترميمها ، وإسكانها الجند[٨] .

ففي قاليقلا قام القائد حبيب بن مسلمة الفهريُّ بإسكان ألفي رجلٍ ، وأقطعهم بها القطائع ، وجعلهم مرابطين بها[٩] ، وقد كلَّف الخليفة عثمان رضي الله عنه القائد حبيب بن مسلمة بأن يقيم بثغور الشَّام ، والجزيرة لإدارتها ، وحمايتها[١٠] ، وعندما فتح البراء بن عازبٍ رضي الله عنه ثغر قزوين ؛ رتَّب فيهم خمسمئة رجلٍ من جند المسلمين ، وعيَّن عليهم قائداً ، وأقطعهم أرضاً ، وضياعاً لاحقَّ فيها لأحد ، فعمَّروا ، وأجروا أنهارها ، وحفروا آبارها[١١] ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) فتوح مصر ، ص(١٩٢) .

(٤) سميساط : مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الرُّوم على غربي الفرات .

(٥) ملطية : من بلاد الرُّوم مشهورةٌ مذكورةٌ تتاخم الشَّام ، وهي للمسلمين .

(٦) كمخ : مدينة بالرُّوم بينها وبين أرزنجان يومٌ واحد . معجم البلدان (٤/ ٤٧٩) .

(٧) قاليقلا : بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ، ثمَّ من نواحي مازجرد .

(٨) من تاريخ التحصينات ، لمحمد عبد الهادي ، ص(٤٣٤) .

(٩) فتوح البلدان (١/ ٢٣٤) .

(١٠) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١/ ٢٤١) .

(١١) الإدارة العسكريَّة في الدَّولة الإسلاميَّة (٢/ ٤٦٩) .

وحين فتح سعيد بن العاص طميسة[١] ؛ جعل بها مرابطةً من ألفي رجلٍ ، وعيَّن عليهم قائداً[٢] ، إلى غير ذلك من التَّحصينات الّتي أنشئت بالثُّغور في إدارة الخليفة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه والّتي كانت تشحن بالجند لحماية حدود الدَّولة الإسلامية[٣] .

وعُني الخليفة عثمان رضي الله عنه في إدارته بأمر الصَّوائف ، والشَّواتي ، حيث عمل على تسييرها ، وتسهيل أمرها في كلِّ عام ، وكان يتولاها كبار قادته ، وولاته ، أمثال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه الّذي بنى جسراً بمنبج[٤] ، لمرور الصَّوائف عليه ، فلم يكن قبل إذ . وقد فوَّض عثمان رضي الله عنه واليه معاوية في غزو الرُّوم ، وتولِّي قيادة الصَّائفة من يختاره ، فولَّى معاوية سفيان بن عوف الّذي لم يزل على الصَّوائف في عهد عثمان رضي الله عنه . ولم تقتصر حملات الصَّوائف ، والشَّواتي على الحدود البريّة ، بل شملت كذلك البحر في عهد عثمان رضي الله عنه[٥] .

٥ـ قسمة الغنائم بين أهل الشَّام والعراق :

استطاع حبيب بن مسلمة أن يهزم الرُّوم في أرمينية قبل وصول مدد الوليد بن عقبة من الكوفة ، وغنم أهل الشَّام غنائم كثيرةً ، وبعد وصول مدد أهل الكوفة اختلفوا في أمر الغنائم ممَّا جعل حبيباً يكتب بذلك إلى معاوية ، فكتب معاوية إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه يخبره بذلك ، فحكم عثمان بن عفَّان رضي الله عنه على أهل الشَّام أن يقاسموا أهل العراق ما غنموا من تلك الغنائم، فلمَّا ورد كتاب الخليفة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه على حبيب بن مسلمة قرأه على جند أهل الشَّام، فقالوا: السَّمع، والطَّاعة لأمير المؤمنين، ثمَّ إنَّهم قاسموا أهل العراق ، وغنموا[٦] .

٦ـ الحرص على وحدة الكلمة في مواجهة العدو :

في عهد عثمان رضي الله عنه استخلف عبد الله بن عامر على خراسان قيس بن الهيثم السُّلميَّ ، حيث خرج منها فجمع (قارن) جمعاً كثيراً من ناحية الطبسين ، وأهل بادغيس ، وهراة ، وقهستان ، فأقبل في أربعين ألفاً ، فاستشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم قائلاً له : ما

---

(١) طميسة : بلدة من سهول طبرستان .
(٢) الإدارة العسكريّة في الدَّولة الإسلاميَّة (٢/ ٤٦٩) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٤٧٠) .
(٤) منبج : بلدٌ قديم .
(٥) الإدارة العسكريّة في الدَّولة الإسلاميَّة (٢/ ٤٧٠) .
(٦) الفتوح ، ابن أعثم (١/ ٣٤١ ، ٣٤٢) .

ترى ؟ قال : أرى أن تخلي البلاد ، فإنِّي أميرها ، ومعي عهد من ابن عامر : إذا كانت حرب بخراسان ؛ فأنا أميرها ـ وأخرج كتاباً قد افتعله عمداً ـ فكره قيس مشاغبته ، وخلاه والبلاد[١] .

أحبَّ قيس بن الهيثم بفعله هذا أن يجمع الكلمة بدلاً من تفريقها حتَّى لا يحدث الفشل ، والوهن للجنود ، فتكون الهزيمة ، وقد تمَّ النَّصر للمسلمين على الأعداء بحمد الله[٢] .

٧ـ شرط ما يحتاج إليه الجنود في بنود الصُّلح :

في عهد عثمان رضي الله عنه زادت الفتوحات الإسلاميَّة اتساعاً ممَّا جعل قادته يشترطون في بعض عهودهم للصُّلح بأن تكون من المواشي ، والطَّعام ، والشَّراب لإعداد ما يحتاج إليه الجيش من زادٍ ، وتموينٍ ، وميرةٍ حتَّى تساعدهم في فتوحاتهم ، فلا يتكلَّفون عناء حمل الميرة من القيادة المركزيَّة ، ويستغنون عن طلبها ؛ ليكونوا على الحرب أوفر ، وعلى منازلة العدوِّ أقدر[٣] .

٨ ـ جمع المعلومات عن الأعداء :

استمرَّت الفتوحات الإسلاميَّة في عهد الخليفة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، وكان رضي الله عنه يهتمُّ بالأخبار ، ويتقصَّاها بنفسه[٤] ، وسار قادته على منوال من سبقهم من القادة بالاعتناء بأمر العيون ، وتقصِّي أخبار العدوِّ[٥] ، كما أنَّهم جعلوها شرطاً من شروط المعاهدات بينهم وبين المعاهدين ، حيث طلبوا منهم بأن ينصحوا ، وينذروا المسلمين بسير عدوِّهم إليهم ، ومعاونتهم بأن يكونوا عليهم جواسيس ، وإبلاغ المسلمين بتحرُّكاتهم[٦] .

٩ـ عبد الرَّحمن بن ربيعة الباهليُّ من قادة الفتوح في عهد عثمان :

كان عبد الرحمن قائداً عَقَديّاً من الطِّراز الرَّفيع ، وكان لتمسُّكه الشَّديد بعقيدته موضع ثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حدٍّ سوء ، بالإضافة إلى شجاعته ، وإقدامه ، وعلمه بأمور الدِّين ؛ لذلك بقي قائداً لمنطقة (باب الأبواب) وواليـاً عليها منذ وفاة سُراقة بن عمرو حتَّى استُشهد ، ولم يعزل من منصبه على الرَّغم من تبدُّل الخلفاء ، وتغيُّر الولاة ، والقادة في الكوفة مرجع عبد الرَّحمن المباشر ، وكان عبد الرَّحمن يؤمن بوسائل حرب الفروسيَّة الشَّريفة ، فلا يخون ، ولا

---

(١) الإدارة العسكريَّة في الدَّولة الإسلاميَّة (١/ ١٨٩) نقلاً عن تاريخ الطَّبري .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) تاريخ اليعقوبي (٢/ ١٦٦ ، ١٦٧) .
(٤) الطَّبقات (٣/ ٥٩) .
(٥) الإدارة العسكريَّة في الدَّولة الإسلاميَّة (١/ ٤٠٣) .
(٦) المصدر السابق نفسه .

يغدر ، ولا يضرب من الخلف[١] ، وكان لسيرته الحسنة في منطقة (باب الأبواب) وجنوب بحر الخزر ، وغربه أثرٌ أيُّ أثرٍ في استقرار الأمور ، واستتباب الأمن ، والنِّظام في تلك الرُّبوع ، فأصبحت تلك المناطق قاعدةً أماميَّةً لنشر الإسلام ، والفتح شمالاً ، فثبت الإسلام في تلك الأصقاع النائية في وجه مختلف المحن ، والتيَّارات منذ أربعة عشر قرناً حتَّى اليوم[٢] .

ومن مواقفه الخالدة الّتي سطَّرها على صفحات التَّاريخ ، عندما خرج بالنَّاس حتَّى قطع (الباب) فقال له الملك شهريار : ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أريد (بَلَنْجَر) والتُّرك . قال : إنَّا لنرضى منهم أن يدعونا من دون (الباب) ، قال عبد الرَّحمن : لكنَّا لا نرضى منهم ذلك حتَّى نأتيهم في ديارهم . وتالله إنَّ معنا لأقواماً لو يأذن أميرنا في الإمعان ؛ لبلغت فيهم (الرَّدْم)[٣] ، قال الملك : وما هو ؟ فأجابه عبد الرَّحمن : أقوامٌ صحبوا رسول الله ﷺ ، ودخلوا في هذا الأمر بنيَّةٍ ، كانوا أصحاب حياءٍ ، وتكرُّمٍ في الجاهليَّة ، فازداد حياؤهم ، وتكرُّمهم ، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم ، ولا يزال النَّصر معهم حتَّى يغيِّرهم مَنْ يغلبهم ، وحتَّى يلفتوا عن حالهم[٤] ، وقد غزا عبد الرَّحمن (بلنجر) غزاةً في زمن عمر بن الخطَّاب ، فقال التُّرك : ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت ، فهرب منه التُّرك ، وتحصَّنوا ، فرجع بالغنيمة ، والظَّفر ، بعد أن بلغ بخيله (البيضاء) على رأس مئتي فرسخٍ من (بلنجر)، وعادوا ولم يقتل منهم أحد[٥] .

ومن الواضح : أنَّ معنويات المسلمين كانت عاليةً جداً ، لتتابع انتصاراتهم ، ولتمسُّكهم بدينهم ، كما أنَّ معنويات الأمم الّتي حاربوها كانت منهارةً ؛ لأنَّ المسلمين غلبوا الأمم الّتي قاتلوها ، لذلك هرب الأتراك من المسلمين ، وتحصَّنوا ، فلم يحدث قتالٌ فعليٌّ في هذه الغزوة ، فلم يسقط من المسلمين شهيدٌ[٦] ، لقد كان عبد الرَّحمن بن ربيعة الباهليُّ على جانبٍ عظيمٍ من التَّقوى ، والخُلق الكريم ، وكان تصرُّفه مع المغلوبين له الأثر في استتباب الأمن ، واستقرار النِّظام ، وانتشار الإسلام ، فقد كان وفيّاً غاية الوفاء ، أميناً غاية الأمانة ، فقد أرسل ملك (الباب) رسولاً إلى ملك (الصِّين) مع هدايا ـ وذلك قبل أن يفتح المسلمون بلاده ـ فعاد رسوله من رحلته بعد فتح المسلمين لتلك البلاد ، وكان مع الرَّسول العائد هدايا من ملك الصِّين ، بينها ياقوتةٌ حمراء ثمينةٌ ، وكان ملك (الباب) حين عودة رسوله في مجلس عبد

---

(١) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص(١٥٥) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٥٦) .

(٣) الرَّدم : قيل : سد الصِّين .

(٤) الكامل لابن الأثير (٣/٢٩ـ٣٠) . وتاريخ الطَّبري (٥/١٤٦) .

(٥) تاريخ الطَّبري (٥/١٤٦) .

(٦) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص(١٥٠) .

الرَّحمن ، فتناول الملك من رسوله تلك الياقوتة ثمَّ ناولها عبد الرَّحمن ، ولكن عبد الرَّحمن ردَّها فوراً إلى الملك بعد أن نظر إليها ، فهتف الملك متأثراً ، وقال : « لهذه ـ يعني الياقوتة ـ خيرٌ من هذا البلد ـ أي باب الأبواب ـ وايم الله ! لأنتم أحبُّ إليَّ حكَّاماً من آل كسرى ، فلو كنتُ في سلطانهم ، ثمَّ بلغهم خبرها ، لانتزعوها منِّي ! وايم الله ! لا يقوم لكم شيء ما وفيتم ، وَوَفى ملككم الأكبر »[١] .

كان من حق ملك مدينة (الباب) وما حولها أن يعجب أشدَّ العجب ، ويدهش أشدَّ الدهشة بأمانة القائد المسلم ، ووفائه ، فقد عاش هذا الملك عمره كلَّه في دوَّامة عنيفةٍ من الخيانة ، وفي جوٍّ مشحونٍ بالغدر ، فلمَّا رأى أمانة المسلمين المثاليَّة ، ووفاءهم المطلق ، لم يتمالك نفسه أن نسي ملكه المضاع ، وملوكه الغابرين ، فعبَّر عن شعوره بكلماتٍ خارجة من أعماق قلبه إعجاباً بما يرى ، ويسمع من أمانةٍ ، ووفاء[٢] .

كان عبد الرَّحمن يعلم : أنَّ الاستيلاء على الياقوتة الَّتي لا تقدَّر بثمنٍ ليس من حقِّه شخصيّاً ولا من حقِّ بيت مال المسلمين ، فكانت تلك الياقوتة والتُّراب عنده سيَّان ؛ فقد كان عبد الرَّحمن كريماً ، مضيافاً ، شهماً ، غيوراً ، ورعاً ، تقيّاً ، متفقِّهاً في الدِّين ؛ لا يملك شيئاً من حطام الدُّنيا على الرَّغم من أنَّه قضى أكثر عمره غازياً ، ووالياً ، وقد استشهد في عام اثنتين وثلاثين للهجرة في منطقة (بلنجر)[٣] ، ويعتبر عبد الرَّحمن بن ربيعة الباهليُّ من قادة الفتح في عهد عثمان رضي الله عنه وقد كانت له صحبةٌ وقد أسلم متأخِّراً .

١٠ـ سلمان بن ربيعة الباهليُّ من قادة الفتوح في عهد عثمان :

كان هذا الصَّحابي الجليل أوَّل من قضى بالكوفة ، فقد بعثه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قاضياً بالكوفة قبل شُرَيح ، فلمَّا ولِّي سعد بن أبي وقاص الكوفة الولاية الثانية في أيَّام عثمان بن عفَّان ؛ استقضى سلمان أيضاً ، وقد شهد القادسيَّة ، فقضى بها ، ثم قضى بـ(المدائن) ، وليس كلُّ إنسان يصلح للقضاء خاصَّة أيَّام عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، أو يصلح لأهل الكوفة الَّتي كانت حينذاك تعجُّ برجالات العرب ، وكبار الصَّحابة من جهةٍ ، وبأخلاطٍ شتَّى من أممٍ ، وأقوامٍ ، وقبائل مختلفةٍ من جهةٍ أخرى ، وهذا دليلٌ على غزارة علم سلمان بالدِّين الحنيف ، واستقامته ، وعدله ، وتديُّنه ، وتمتُّعه بعقليَّةٍ راجحةٍ متَّزنةٍ ، وشخصيَّةٍ قويَّةٍ نافذةٍ ، ممَّا جعله موضع ثقة النَّاس جميعاً ، كما أنَّهُ تولَّىٰ المقاسم في فتح (المدائن) وفي غزوة (الباب) أيضاً ،

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/١٤٨) .
(٢) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص(١٥٤) .
(٣) المصدر السابق نفسه .

ممَّا يدلُّ على تمتُّعه بالنَّزاهة المطلقة ، كان رجلاً صالحاً ، يحجُّ كل سنةٍ ، روى عنه بعض كبار التَّابعين ، وكان مثالاً نادراً للخُلق القويم : كريماً ، مضيافاً ، شهماً ، غيوراً ، وفيّاً صادقاً ، محبّاً للخير ، يحبُّ للناس ما يحبُّه لنفسه ، ولم يترك حين استشهاده ديناراً ، ولا داراً ، بعد أن عاش كلَّ حياته مجاهداً ، وقاضياً ، وأميراً .

وكان متفوِّقاً على زملائه في الصِّفات القياديَّة ، فعندما بعث عثمان بن عفَّان رضي الله عنه كتاباً إلى الوليد بن عقبة عامله على الكوفة ، يأمره به أن يرسل نجدةً من أهل الكوفة إلى أهل الشَّام بقيادة رجلٍ ممَّن ترضى نجدته ، وبأسه ، وشجاعته ، وإسلامه ، لم يتردَّد الوليد لحظةً في اختيار سلمان لهذا الواجب البالغ الخطورة ، فاختاره من بين عددٍ كبيرٍ من القادة أصحاب الفتوح ، والأيَّام الّذين كانوا معه ، أو كانوا في الكوفة ، ذلك لأنَّ سلمان كان حقّاً مثالاً رائعاً من أمثلة النَّجدة ، والبأس ، والشَّجاعة بالإضافة إلى ورعه وتقواه ، لقد كان شجاعاً مقداماً سريعاً إلى النَّجدة ، خبيراً بفنون الحرب ؛ لممارسته الطَّويلة لها ، وله تجارب طويلةٌ في قيادة الرِّجال ، وكان أبصر بالمضارب من الجازر بمفاصل الجزور[1] ، ممَّا يدلُّ على أنَّه كان من الرُّماة الماهرين ، وكان ماهراً في الفروسيَّة ، خبيراً بالخيل ، وكان يلي الخيل لعمر ابن الخطَّاب رضي الله عنه ، وكان عمر قد أعدَّ في كلِّ مصرٍ من أمصار المسلمين خيلاً كثيرةً معدَّةً للجهاد ، وكان في الكوفة أربعة آلاف فرس ، فإذا داهم العدو الثُّغور الإسلاميَّة ؛ ركبها المسلمون المجاهدون ، وساروا مجدِّين لقتاله[2] ، وكان سلمان يتولَّى الخيل بالكوفة[3] .

وكان شجاعاً في فروسيَّةٍ ، قال سلمان : « قتلت بسيفي هذا مئة مستلئمٍ[4] ، كلُّهم يعبد غير الله ، ما قتلت رجلاً منهم صبراً » .

إنَّه لا يقتل حتَّى عدوَّه الكافر بالله ـ الّذي يعبد غير الله ـ لا يقتله في ساحة القتال صبراً ، بل يُنذره ، ثمَّ يصاوله مصاولة الأنداد ، ويقتله عندما يجد فرصة لقتله ، فلا يكون هذا القتل غدراً ، ولا يكون صبراً[5] ، لقد كان مثالاً للمجاهد الصَّادق ، المحتسب ؛ الّذي يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا ، لا يبالي على أيِّ جنب كان في الله مصرعه ، وأخيراً سقط مضرجاً بدمائه ولم

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢١٠) . وتاريخ الطَّبري (٥/ ٣٠٩) .
(٢) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص(١٦٩) .
(٣) أسد الغابة (٢/ ٣٢٧) .
(٤) المستلئم : الجندي الّذي لبس عدَّته وأصبح جاهزاً للقتال .
(٥) الاستيعاب (٢/ ٦٣٣) .

يسقط السَّيف من يده ، إنَّه قدوةٌ حسنةٌ لكلِّ جنديٍّ ، ولكلِّ قائدٍ في ماضيه المشرِّف المجيد ، وفي أعماله الفذَّة الخالدة[١] .

هذا ؛ وقد استشهد سنة اثنتين وثلاثين هجريّة ، أو سنة ثلاثٍ وثلاثين هجريّة[٢] ، « الفقيه المحدِّث ، القاضي العادل ، الأمين النزيه ، الإداريُّ الحازم ، الفارس المغوار ، البطل الشَّهيد ، القائد الفاتح سلمان بن ربيعة الباهليُّ »[٣] .

١١ـ حبيب بن مَسلمة الفهريُّ من قادة الفتوح في عهد عثمان :

كان حبيب على صغر سنِّه يتنقل من ساحة عملياتٍ إلى ساحة عملياتٍ أخرى ، فاتحاً مرَّةً ، ومدداً مرَّةً أخرى ، وكان النَّصر حليفه في كلِّ معركة خاضها ، قدم على النَّبيِّ ﷺ وهو بالمدينة غازياً ، وكان يومئذ صغيراً ، وشهد غزوة تبوك تحت لواء الرَّسول ـ عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام ـ وبهذه الغزوة بدأ جهاده ، وهو يناهز العشرين من عمره القصير[٤] ، وحين رآه عمر بن الخطَّاب صلب العود ، وقويَّ البدن ، جرَّبه تجربةً عمليَّةً ليرى أيَّ نوعٍ من الرجال هو ، فعرض عليه خزائن المال ، وخزائن السِّلاح ، فاختار السِّلاح ، وعفَّ عن المال ، وتفضيل السِّلاح على المال من مزايا القائد الَّذي يتغلغل حبُّ الجنديّة في أعماق نفسه ، وقد تولَّى قيادة كردوس في معركة (اليرموك) الحاسمة وهو ابن أربع وعشرين سنةً ، ممَّا يدلُّ على ظهور سماته القيادية مبكِّراً ، وهو في ريعان الشَّباب ، وولاه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه عجم (الجزيرة) إداريّاً ، وقائداً ، وليس من السَّهل أن يولِّي عمر كلَّ إنسان مثل هذا المنصب الرَّفيع ؛ لأنَّ عمر كان يلتزم بصفاتٍ معيَّنةٍ في القائد قلَّ أن تتوفَّر في الرِّجال ، وأخيراً ولاه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه (أرمينية) و(أذربيجان) ، وهي مناطق شاسعةٌ ، وقيادة مهمَّةٌ للغاية ؛ نظراً لشدَّة شكيمة أهلها ، ولبعدها عن قواعد المسلمين الرَّئيسية ، والمتقدِّمة[٥] ، ومارس القيادة والإدارة في عهد عثمان رضي الله عنه ، ولقد كان شجاعاً غاية الشَّجاعة ، مقداماً غاية الإقدام : لمَّا توجه لقتال (الموريان) كان في ستَّة آلافٍ ، وكان (الموريان) في سبعين ألفاً ، فقال حبيب لمن معه : إن يصبروا ، وتصبروا فأنتم أولى بالله منهم ، وإن يصبروا وتجزعوا فإنَّ الله مع

---

(١) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص(١٧٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٧١).
(٣) قادة الفتح الإسلاميِّ في أرمينية ، ص(١٧٢) .
(٤) كان عمره يوم تولَّى منصب قيادة منطقة الجزيرة وإدارتها (٢٨) سنة .
(٥) تولى (أرمينية) و(أذربيجان) وعمره ثلاثٌ وثلاثون سنة .

الصَّابرين ، ولقيهم ليلاً ، فقال : اللّٰهمَّ جَلِّ لنا قمرها ، واحبس عنَّا مطرها ، واحقن دماء أصحابي ، واكتبهم شهداء ! ففتح الله له[١] .

فكان من أسباب انتصاره على عدوِّه بالإضافة إلى عامل الإيمان هو الهجوم اللَّيلي ؛ الّذي باغت به العدوَّ ، وجعل معنوياته تنهار ، ثمَّ يولِّي الأدبار[٢] ، وكان مثالاً شخصيّاً حيّاً لرجاله من الشَّجاعة ، والإقدام ، فقد كان يقود رجاله من الأمام . يقول لهم : اتَّبعوني ، ولا يبقى في الخطوط الخلفيَّة مؤثراً السَّلامة ، والعافية ، وحين عزم أن يُبيِّت (الموريان) سمعته امرأته يذكر ذلك ، فقالت له : وأين الموعد ؟ فقال : سرادق موريان ، أو الجنَّة . وَبيَّت حبيب عدوَّه ، وقتل من صادفه في طريقه ؛ فلمَّا أتى السُّرادق ؛ وجد امرأته قد سبقته إليها[٣] ، فلم يكن وحده بطلاً يضرب لرجاله بأعماله البطوليَّة أروع الأمثال ، بل كانت امرأته بطلةً يقتفي الأبطال آثارها في التَّضحية ، والفداء[٤] .

وكان يستشير رجاله ، ويتقبَّل مشورتهم ، وكان لا يستأثر بالرَّأي دونهم ، بل كان يتنصَّت ، ليتلقَّف آراء رجاله ، ويطبِّق ما رآه حسناً ، وينفِّذ ما يجده صواباً ، بالإضافة إلى عقد مؤتمرات الشُّورى قبل المعارك ، وفي أثنائها ، وبعدها ، فقد سمع يوماً أحد رجاله يقول : لو كنت ممَّن يسمع حبيبٌ مشورته ؛ لأشرت عليه بأمرٍ يجعل الله فيه لنا ، وله نصراً ، وفرجاً إن شاء الله، واستمع حبيب لقوله، فقال أصحابه: وما مشورتك؟ فقال: أشير عليه أن ينادي بالخيول ، فيقدِّمها، ثمَّ يرتحل بعسكره فيتبع خيله، وتوافيه الخيل في جوف الليل وينشب القتال، ويأتيهم حبيب بسواد عسكره مع الفجر، فيظنُّون أنَّ المدد قد جاءهم، فيرعبهم الله، فيهزمهم بالرُّعب[٥]، ونادى حبيب بالخيول، فوجَّهها بليلة مقمرةٍ مطيرةٍ، ثمَّ ارتحل وراء خيوله، ولكنَّه عاد إلى عدوِّه في السَّحر ، فحمل ، وحمل أصحابه ، فانهزم العدوُّ ، وأصابوا غنائم كثيرةً[٦] .

كان حبيب صاحب كيد، يفكِّر، ويُقدِّر، ثمَّ يستشير رجاله، ويستطلع ساحة القتال، ويحصل على المعلومات المستفيضة عن العدوِّ ، ثمَّ يبني بعد ذلك خطَّته العسكريَّة على هدىً وبصيرةٍ .

إنَّ أعمال حبيب الجهادية خططٌ مدبَّرةٌ ، ولم تكن خططاً ارتجاليَّة ، لذلك رافق النَّصرُ أعلامَه في أخطر ساحات القتال في الفتح ، وبالإضافة إلى تلك المزايا ، أو قبلها كان حبيب

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٧) .

(٢) قادة الفتح الإسلاميِّ في أرمينية ، ص(١٨٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٧) .

(٦) قادة الفتح الإسلاميِّ في أرمينية ، ص(١٩٠) .

مؤمناً حقّاً صادق الإيمان ، وكان إذا لقي عدوّاً ، أو ناهض حصناً يحبُّ أن يقول : لا حول ولا قوّة إلا بالله العليِّ العظيم[١] .

لقد كان حبيب قائداً فذّاً ، جمع مزايا القائد الفذِّ : الطَّبع الموهب ، والعلم المكتسب ، والتَّجربة العمليَّة[٢] ، والثِّقة بالله القويِّ العزيز .

إنَّ حبيب بن مسلمة أسدى للفتح الإسلاميِّ خدماتٍ لا تُنسى ، فهو بدون شكٍّ من ألمع قادة الفتوح في عهد عثمان رضي الله عنه وقد توفِّي هذا القائد الفذُّ سنة اثنتين وأربعين هجريَّة ، فكان عمره يوم توفي أربعاً وخمسين سنة قمريَّة ، وكانت حياته قليلة في تعداد السَّنوات ، كثيرةً في تعداد جلائل الأعمال ، قصيرةً في عمر الزَّمن ، باقيةً آثارها على مرِّ الدُّهور وتوالي السِّنين والقرون ، رضي الله عن الصَّحابيِّ الجليل ، الإداريِّ الحازم ، السِّياسيِّ ، المحنَّك القائد الفاتح حبيب بن مسلمة الفِهريِّ[٣] .

* * *

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٧) .

(٢) قادة الفتح الإسلاميِّ في أرمينية ، ص(١٩٢) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٨٧) .

المبحث الرَّابع

أعظم مفاخر عثمان جمعُ الأمَّة على مصحفٍ واحدٍ

أولاً: المراحل الّتي مرَّت بها كتابة القرآن الكريم:

١ـ المرحلة الأولى: في العهد النَّبويّ:

ثبت بالدَّليل القاطع: أنَّ رسول الله ﷺ كان يأمر بكتابة القرآن؛ الّذي ينزل عليه، وثبت: أنَّه كان له كاتبٌ، أو كُتَّاب يكتبون الوحي، حتَّى شُهر زيد بن ثابتٍ بلقب (كاتب النَّبيّ ﷺ لاختصاصه بكتابة الوحي). وبوَّب البخاريُّ في كتاب (فضائل القرآن) (باب كتَّاب النَّبيّ ﷺ) وذكر فيه حديثين:

الأوَّل: أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه قال لزيد: إنَّك كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ[1].

والثاني: عن البراء، قال: لمَّا نزلت ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ [النساء: ٩٥] قال النَّبيّ ﷺ: «**ادعُ لي زيداً، وليجئْ باللَّوح، والدَّواة، والكتف، أو الكتف، والدَّواة**»[2] وكان النَّبيّ ﷺ يكتب القرآن في مكَّة أيضاً قبل الهجرة، وممَّن كتب له عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح، ثمَّ ارتدَّ، ثمَّ أسلم عام الفتح، وله في ذلك قصَّة مشهورةٌ ـ قد ذكرتها ـ والمعروف أنَّ الخلفاء الرَّاشدين الأربعة كانوا كتبةً، فلعلَّهم كانوا يكتبون القرآن في مكَّة، وممَّا يدلُّ على أنَّ القرآن كان مكتوباً في مكَّة قصَّة إسلام عمر بن الخطَّاب، ودخوله على أخته، وبيدها صحيفةٌ فيها سورة طه، وقد أعلم الله تعالى في القرآن الكريم بأنَّه ـ أي: القرآن ـ مجموعٌ في الصُّحف في قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢].

وقد توفِّي رسول الله ﷺ، والقرآن كلُّه مكتوبٌ، لكنَّه غير مجموعٍ في موضعٍ واحدٍ. وكان مكتوباً على العُسُب، واللِّخاف، ومحفوظاً في صدور الرِّجال، ومع حفظه في الصُّحف، وفي الصُّدور كان جبريل يعرض القرآن على النَّبيّ ﷺ كلَّ عام مرَّةً، فعرض عليه مرَّتين في العام الّذي قُبض فيه[3]. ويحتمل: أنَّ النَّبيّ ﷺ لم يجمع القرآن في مصحفٍ؛ لما كان يترقَّبه من

---

(١) البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، رقم (٤٩٨٦).

(٢) المصدر السابق نفسه، كتاب تفسير القرآن، رقم (٤٥٩٣).

(٣) المصدر السابق نفسه، كتاب فضائل القرآن، رقم (٤٩٩٨).

ورود ناسخ لبعض أحكامه ، أو تلاوته ، فلمَّا انقضى نزوله بوفاته ﷺ ؛ ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاءً لوعده الصَّادق بضمان حفظه على هذه الأمَّة المحمَّدية[١] .

٢ـ المرحلة الثَّانية : في عهد أبي بكر رضي الله عنه :

كان من ضمن شهداء المسلمين في حرب اليمامة كثيرٌ من حفظة القرآن ، وقد نتج عن ذلك أن قام أبو بكر رضي الله عنه بمشورة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بجمع القرآن ؛ حيث جُمع من الرِّقاع ، والعظام ، والسَّعف ، ومن صدور الرِّجال[٢] ، وأسند الصِّدِّيق هذا العمل العظيم إلى الصَّحابيِّ الجليل زيد بن ثابت الأنصاريِّ رضي الله عنه ، يروي زيدُ بن ثابتٍ رضي الله عنه فيقول : بعث إليَّ أبو بكرٍ رضي الله عنه لمقتل أهل اليمامة[٣] ، فإذا عمر بن الخطَّاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إنَّ عمر أتاني ، فقال : إنَّ القتل قد استحرَّ[٤] يوم اليمامة بقرَّاء القرآن ، وإنِّي أخشى أن يستحرَّ القتل بالقرَّاء في المواطن[٥] كلِّها ، فيذهب كثيرٌ من القرآن ، وإنِّي أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ[٦] ؟ ! ! فقال عمر : هذا والله خير ! فلم يزل عمر يراجعني حتَّى شرح الله صدري لِلَّذي شرح له صدر عمر ، ورأيت في ذلك الَّذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : وإنَّك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ ، ولا نتَّهمك[٧] ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبَّع القرآن ، فاجمعه[٨] .

قال زيد : فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليَّ ممَّا كلَّفني به من جمع القرآن! فتتبَّعت القرآن من العُسُبِ[٩] ، واللِّخاف[١٠] ، وصدور الرِّجال ، والرِّقاع ، والأكتاف[١١] . قال : حتَّى وجدت آخر سورة التَّوبة مع أبي خزيمة الأنصاريِّ ، لم أجدها مع أحدٍ غيره . ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم

---

(١) المدينة النبويَّة فجر الإسلام ، والعصر الرَّاشدي ، ص(٢٤٠) نقلاً عن فتح الباري (٩/ ١٢) .
(٢) حروب الرِّدَّة وبناء الدَّولة الإسلاميَّة ، لأحمد سعيد ، ص(١٤٥) .
(٣) يعني : وقعة يوم اليمامة ضد مسيلمة الكذَّاب ، وأعوانه .
(٤) استحرَّ : كثر واشتدَّ .
(٥) أي : في الأماكن الَّتي يقع فيها القتال مع الكفَّار .
(٦) يحتمل أن يكون إنَّما لم يجمع القرآن في المصحف .
(٧) هذه الصِّفات الَّتي جعلت زيداً يتقدَّم على غيره في هذا العمل .
(٨) أي : من الأشياء الَّتي عندك ، وعند غيرك .
(٩) العُسُب : هو جريد النَّخيل .
(١٠) اللِّخاف : جمع لخفة ، وهي صفائح الحجارة .
(١١) الرِّقاع : جمع رقعة ، وهي قطع الجلود ، الأكتاف : جمع كتف ، وهو العظم الذي للبعير ، أو الشَّاة .

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] حتَّى خاتمة براءة ، وكانت الصُّحف عند أبي بكر في حياته حتَّى توفَّاه الله ، ثمَّ عمر في حياته حتَّى توفَّاه الله ، ثمَّ عند حفصة بنت عمر ، رضي الله عنهم[1] .

● **ونستخلص من المرحلة الثانية في جمع القرآن بعض النتائج :**

ـ أنَّ جمع القرآن الكريم جاء نتيجة الخوف على ضياعه ؛ نظراً لموت العديد من القرَّاء في حروب الردَّة ، وهذا يدلُّ على أنَّ القرَّاء ، والعلماء كانوا وقتئذٍ أسرع النَّاس إلى العمل ، والجهاد لرفع شأن الإسلام ، والمسلمين بأفكارهم ، وسلوكهم ، وسيوفهم ، فكانوا خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس ينبغي الاقتداء بهم لكلِّ مَنْ جاء بعدهم .

ـ أنَّ جمع القرآن تمَّ بناءً على المصلحة المرسلة ، ولا أدلَّ على ذلك من قول عمر لأبي بكر حين سأله : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ : إنَّه خير ، وفي بعض الرِّوايات : أنه قال له : إنَّه والله خيرٌ ، ومصلحةٌ للمسلمين ، وهو نفس ما أجاب به أبو بكرٍ زيدَ بن ثابتٍ حين سأل نفس السُّؤال . وسواءٌ صحَّت الرِّواية الَّتي جاء فيها لفظ المصلحة ، أو لم تصحَّ ؛ فإنَّ التَّعبير بكلمة « خير » يفيد نفس المعنى ، وهو مصلحة المسلمين في جمع القرآن ، مبنياً على المصلحة المرسلة أوَّل الأمر ، ثمَّ انعقد الإجماع على ذلك بعد أن وافق الجميع بالإقرار الصَّريح ، أو الضمنيِّ ، وهذا يدلُّ على أنَّ المصلحة المرسلة يصحُّ أن تكون سنداً للإجماع بالنِّسبة إلى مَنْ يقول بحجِّيتها كما هو مقرَّرٌ في كتب أصول الفقه .

ـ وقد اتَّضح لنا من هذه الواقعة كذلك كيف كان الصَّحابة يجتهدون في جوٍّ من الهدوء يسوده الودُّ ، والاحترام ، هدفهم الوصول إلى ما يحقِّق الصَّالح العامّ لجماعة المسلمين ، وأنَّهم كانوا ينقادون إلى الرَّأي الصَّحيح ، وتنشرح قلوبهم له بعد الإقناع ، والاقتناع ، فإذا اقتنعوا بالرَّأي دافعوا عنه كما لو كان رأيهم منذ البداية ، وبهذه الرُّوح أمكن انعقاد إجماعهم حول العديد من الأحكام الاجتهاديَّة[2] .

● **ما المقوِّمات الأساسيَّة لزيد بن ثابتٍ للقيام بهذه المهمَّة ؟**

اختار أبو بكر رضي الله عنه زيد بن ثابتٍ لهذه المهمَّة العظيمة ، وذلك لأنَّه رأى فيه المقوِّمات الأساسيَّة للقيام بها ، وهي :

أ ـ كونه شابّاً ، حيث كان عمره ٢١ سنةً ، فيكون أنشط ، لما يُطلب منه .

ب ـ كونه أكثر تأهيلاً ، فيكون أوعى له ؛ إذ مَنْ وهبه الله عقلاً راجحاً ، فقد يسَّر له سبيل الخير .

---

(١) البخاريُّ ، رقم (٤٩٨٦) .

(٢) الاجتهاد في الفقه الإسلاميِّ ، عبد السَّلام السُّليمانيُّ ، ص(١٢٧) .

ج ـ كونه ثقةً ، فليس هو موضعاً للتُّهمة ، فيكون عمله مقبولاً ، وتركن إليه النَّفس ، ويطمئن إليه القلب .

د ـ كونه كاتباً للوحي ، فهو بذلك ذو خبرةٍ سابقةٍ في هذا الأمر ، وممارسةٍ عمليَّةٍ له ، فليس غريباً عن هذا العمل ، ولا دخيلاً عليه[1] .

هـ ـ ويضاف لذلك أنَّه أحد الأربعة الَّذين جمعوا القرآن على عهد النَّبيّ ﷺ ، فعن قتادة ، قال : سألت أنس بن مالك رضي الله عنه : مَنْ جمع القرآن على عهد النَّبيّ ﷺ ؟ قال : أربعةٌ كلُّهم من الأنصار : أبيُّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيدُ بن ثابتٍ ، وأبو زيد[2] ، وأمَّا الطَّريقة الَّتي اتَّبعها زيدٌ في جمع القرآن ، فكان لا يُثْبِتُ شيئاً من القرآن إلا إذا كان مكتوباً بين يدي النَّبيّ ﷺ ، ومحفوظاً من الصَّحابة ، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة ، خشية أن يكون في الحفظ خطأٌ ، أو وهمٌ ، وأيضاً لم يقبل من أحدٍ شيئاً جاء به إلا إذا أتى معه شاهدان يشهدان : أنَّ ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ ، وأنَّه من الوجوه الَّتي نزل بها القرآن[3] ، وعلى هذا المنهج استمرَّ زيدٌ رضي الله عنه في جمع القرآن حَذِراً ، متثبِّتاً ، مبالغاً في الدِّقَّة والتَّحرِّي[4] .

● **الفرق بين المكتوب في العهد النبوي ، وعهد الصدِّيق :**

الفرق بين المكتوب في العهد النَّبويِّ ، وما كتب في عهد أبي بكرٍ : أنَّ القرآن كان مكتوباً في العهد النَّبويِّ ، مفرَّقاً في الصُّحف ، والألواح ، والعُسُب ، والكرانيف ، والقصب ، وأدواتٍ أخرى ، ولم تكن مجموعةُ سوره في خيطٍ واحدٍ . وأمَّا الَّذي تمَّ في أيام أبي بكرٍ ، فهو كتابة القرآن في صحفٍ ، كلُّ سورةٍ ، أو سورٍ في صحيفةٍ مرتَّبةٍ آياتُه على ما حفظوه عن رسول الله ﷺ ، فكانت مهمَّة زيد بن ثابت ، أن يكتب ما كان مكتوباً في العهد النَّبويِّ في صحفٍ ، كلُّ سورةٍ في صحيفةٍ مرتَّبةٌ فيها الآيات ترتيباً توقيفيّاً[5] .

٣ـ المرحلة الثَّالثة في جمع القرآن : في عهد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه :

● **الباعث على جمع القرآن في عهد عثمان :**

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أنَّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضي الله عنه وكان يُغازي أهل الشَّام في فتح أرمينية ، وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في

---

(١) التفوُّق والنَّجابة على نهج الصَّحابة ، حمد العجمي ، ص(٧٣) .
(٢) سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٤٣١) .
(٣) التفوُّق والنَّجابة على نهج الصَّحابة ، حمد العجمي ، ص(٧٤) .
(٤) الانشراح ورفع الضِّيق بسيرة أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، ص(٣٠٦) .
(٥) المدينة فجر الإسلام والعصر الرَّاشدي (٢/ ٢٤١) .

القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمَّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنَّصارى! فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصُّحف ننسخُها في المصاحف ثمَّ نردُّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزُّبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرَّحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنهم فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرَّهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن؛ فاكتبوه بلسان قريش، فإنَّما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتَّى إذا نسخوا الصُّحف في المصاحف؛ ردَّ عثمان رضي الله عنه الصُّحف إلى حفصة، فأرسل إلى كُلِّ أفقٍ بمصحفٍ ممَّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلِّ صحيفةٍ، أو مصحف أن يُحرق[1].

ويؤخذ من هذا الحديث الصَّحيح أمورٌ منها:

أ ـ أنَّ السَّبب الحامل لعثمان رضي الله عنه على جمع القرآن مع أنَّه كان مجموعاً، مرتَّباً في صحف أبي بكر الصِّدِّيق، إنَّما هو اختلاف قرَّاء المسلمين في القراءة اختلافاً أوشك أن يؤدِّي بهم إلى أخطر فتنةٍ في كتاب الله تعالى، وهو أصل الشَّريعة، ودعامة الدِّين، وأساس بناء الأمَّة الاجتماعيِّ، والسِّياسيِّ، والخُلُقيِّ، حتَّى إنَّ بعضهم كان يقول لبعضٍ: إن قراءتي خيرٌ من قراءتك، فأفزع ذلك حذيفةَ، ففزع فيه إلى خليفة المسلمين، وإمامهم، وطلب إليه أن يدرك الأمَّة قبل أن تختلف، فيستشري بينهم الاختلاف، ويتفاقم أمره، ويعظم خطبه، فيُمَسَّ نصُّ القرآن، وتُحرَّف عن مواضعها كلماتُه، وآياتُه، كالَّذي وقع بين اليهود، والنَّصارى من اختلاف كلِّ أمةٍ على نفسها في كتابها.

ب ـ أنَّ هذا الحديث الصَّحيح قاطعٌ بأنَّ القرآن الكريم كان مجموعاً في صحفٍ ومضموماً في خيط، وقد اتَّفقت كلمة الأمَّة اتِّفاقاً تامّاً على أنَّ ما في تلك الصُّحف هو القرآن كما تلقَّته عن النَّبيِّ ﷺ في آخر عرضةٍ على أمين الوحي جبريل عليه السَّلام؛ وأنَّ تلك الصُّحف ظلَّت في رعاية الخليفة الأوَّل أبي بكرٍ الصدِّيق، ثمَّ انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثَّاني عمر بن الخطَّاب، ثمَّ لما عرف عمر حضور أجله ولم يولِّ عهده أحداً معيناً في خلافة المسلمين، وإنَّما جعل الأمر شورى في الرَّهط المصطفين بالرِّضا من رسول الله ﷺ؛ أوصى بحفظ الصُّحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأنَّ عثمان اعتمد في جمعه على تلك الصُّحف، وعنها نقل مصحفه (الرَّسمي) وأنَّه أمر أربعةً من أشهر قرَّاء الصَّحابة إتقاناً لحفظ القرآن، ووعياً لحروفه، وأداءً

---

(١) البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، رقم (٤٩٨٧).

لقراءاته ، وفهماً لإعرابه ولغته : ثلاثة قرشيين ، وواحداً أنصارياً ، وهو زيد بن ثابت صاحب الجمع الأوَّل في عهد الصِّدِّيق بإشارة الفاروق .

وفي بعض الرِّوايات : أنَّ الَّذين أمرهم عثمان أن يكتبوا من الصُّحف اثنا عشر رجلاً ، فيهم أبيُّ بن كعب ، وآخرون من قريشٍ ، والأنصار[١] .

ج ـ ونأخذ من هذا : أنَّ الفتوحات في عهد عثمان كانت بإذنٍ ، وأمر من الخليفة ، وأنَّ القرار العسكريَّ يصدر من المدينة ، وأنَّ الولايات الإسلاميَّة كلَّها كانت خاضعةً لأمر الخليفة عثمان في عهده ، بل يدلُّ على أنَّ هناك إجماعاً من الصَّحابة ، والتَّابعين في جميع الأقاليم على خلافة عثمان ، وقدوم حذيفة بن اليمان إلى المدينة ، لرفع اختلاف النَّاس في قراءة القرآن ، يدلُّ على : أنَّ القضايا الشَّرعيَّة الكبرى كان يُستشار فيها الخليفة في المدينة ، وأنَّ المدينة ما زالت دار السُّنَّة ، ومجمع فقهاء الصَّحابة[٢] .

ثانياً : استشارة جمهور الصَّحابة في جمع عثمان :

جمع عثمان رضي الله عنه المهاجرين ، والأنصار ، وشاورهم في الأمر ، وفيهم أعيان الأمَّة ، وأعلام الأئمَّة ، وعلماء الصَّحابة ، وفي طليعتهم عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، وعرض عثمان رضي الله عنه هذه المعضلة على صفوة الأمَّة ، وقادتها الهادين المهديِّين ، ودارسهم أمرها ، ودارسوه ، وناقشهم فيها ، وناقشوه ، حتَّى عرف رأيهم ، وعرفوا رأيه ؛ فأجابوه إلى رأيه في صراحةٍ لا تجعل للرِّيب إلى قلوب المؤمنين سبيلاً ، وظهر للنَّاس في أرجاء الأرض ما انعقد عليه إجماعهم ، فلم يُعرف قطُّ يومئذٍ لهم مخالفٌ ، ولا عرف عند أحدٍ نكيرٌ ، وليس شأن القرآن الَّذي يخفى على آحاد الأمَّة فضلاً عن علمائها ، وأئمَّتها البارزين[٣] .

إنَّ عثمان رضي الله عنه لم يبتدع في جمعه المصحف ، بل سبقه إلى ذلك أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، كما أنَّه لم يصنع ذلك من قبل نفسه ، إنَّما فعله عن مشورةٍ للصَّحابة رضي الله عنهم ، وأعجبهم هذا الفعل ، وقالوا : نِعمَ ما رأيت ! وقالوا : أيضاً : قد أحسن ـ أي : في فعله في المصاحف[٤] .

وقد أدرك مصعب بن سعدٍ صحابة النَّبيِّ ﷺ حين مشق[٥] عثمان رضي الله عنه المصاحف ،

---

(١) عثمان بن عفَّان لصادق عرجون ، ص(١٧١) .

(٢) المدينة النَّبويَّة فجر الإسلام والعصر الرَّاشدي (٢/ ٢٤٤) .

(٣) عثمان بن عفَّان ، لصادق عرجون ، ص(١٧٥) .

(٤) فتنة مقتل عثمان بن عفَّان (١/ ٧٨) .

(٥) مشق : يقال : مَشَقَ في الكتابة ؛ أي : مدَّ حروفها ، وجوَّدها ، فالخطُّ مَشْقٌ ، ومَمْشوقٌ .

فرآهم قد أعجبوا بهذا الفعل منه[١] ، وكان عليٌّ رضي الله عنه ينهى من يعيب على عثمان رضي الله عنه بذلك ، ويقول : يا أيُّها الناس ! لا تغلوا في عثمان ، ولا تقولوا له إلا خيراً ـ أو قولوا خيراً ـ فوالله ما فعل الّذي فعل ـ أي في المصاحف ـ إلا عن ملأ منَّا جميعاً ؛ أي : الصَّحابة . . . والله لو ولِّيت ؛ لفعلت مثل الّذي فعل[٢] .

وبعد اتِّفاق هذا الجمع الفاضل من خيرة الخلق على هذا الأمر المبارك ؛ يتبيَّن لكلِّ متجرِّدٍ عن الهوى : أنَّ الواجب على المسلم الرِّضا بهذا الصَّنيع الّذي صنعه عثمان رضي الله عنه وحفظ به القرآن الكريم[٣] .

قال القرطبيُّ في التَّفسير : وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار ، وجلَّة أهل الإسلام ، وشاورهم في ذلك ، فاتَّفقوا على جمعه بما صحَّ ، وثبت من القراءة المشهورة عن النَّبيّ ﷺ ، واطِّراح ما سواها ، واستصوبوا رأيه ، وكان رأياً سديداً موفَّقاً[٤] .

ثالثاً : الفرق بين جمع الصِّديق ، وجمع عثمان رضي الله عنهما :

قال ابن التِّين : الفرق بين جمع أبي بكر ، وجمع عثمان : أنَّ جمع أبي بكر كان لخشيته أن يذهب شيءٌ من القرآن بذهاب حملته ؛ لأنَّه لم يكن مجموعاً في موضعٍ واحدٍ ، فجمعه في صحائف مرتِّباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النَّبيُّ ﷺ ، وجمع عثمان كان لمَّا كثر الاختلاف في وجوه القراءة ، حتَّى قرؤوه بلغاتهم على اتِّساع اللُّغات ، فأدَّى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعضٍ ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك ، فنسخ تلك الصُّحف في مصحفٍ واحدٍ مرتِّباً لسوره ، واقتصر من سائر اللُّغات على لغة قريش محتجّاً بأنَّه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسَّع في قراءته بلغة غيرهم دفعاً للحرج والمشقَّة في ابتداء الأمر ، فرأى : أنَّ الحاجة قد انتهت ، فاقتصر على لغةٍ واحدةٍ .

وقال القاضي أبو بكر الباقلانيُّ : لم يقصد أبو بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين ، إنَّما قصد جمعهم على القراءات الثَّابتة المعروفة عن النَّبيّ ﷺ ، وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخْذِهم بمصحفٍ لا تقديم فيه ، ولا تأخير ، ولا تأويلَ أُثْبتَ مع تنزيلٍ ، ولا منسوخ تلاوته كُتِب مع مُثْبَتٍ رَسْمُه ومفروضٍ قراءته ، وحفظه ؛ خشية دخول الفساد والشُّبهة على مَنْ يأتي بَعْدُ .

وقال الحارث المحاسبيُّ : المشهور عند النَّاس : أن جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك

---

(١) التَّاريخ الصغير للبخاريّ (١/ ٩٤) إسناده حسنٌ لغيره .

(٢) فتح الباري (٩/ ١٨) إسناده صحيحٌ .

(٣) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/ ٧٨) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٨٨) .

إنَّما حمل عثمان النَّاس على القراءة بوجهٍ واحدٍ على اختيارٍ وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين ، والأنصار ؛ لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق ، والشَّام في حروف القراءات ، فأمَّا قبل ذلك ، فقد كانت المصاحف بوجوه القراءات المطلقات على الحروف السَّبعة الّتي أنزل بها القرآن ، فأمَّا السَّابق إلى جمع الجملة ، فهو الصِّدِّيق ، وقد قال عليٌّ رضي الله عنه : لو ولِّيت ؛ لعملت بالمصاحف الّتي عمل بها عثمان[١] .

وقال القرطبيُّ : فإن قيل : فما وجه جمع عثمان النَّاس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك ، وفرغ منه ؟ قيل له : إنَّ عثمان رضي الله عنه لم يقصد بما صنع جمع النَّاس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة : أن أرسلي إلينا بالصُّحف ننسخها في المصاحف ثم نردُّها إليك ؟ وإنَّما فعل ذلك عثمان ، لأنَّ الناس اختلفوا في القراءة ، لتفرُّق الصَّحابة في البلدان ، واشتدَّ الأمر في ذلك ، وعظم اختلافهم ، وتشبُّثهم ، ووقع بين أهل الشَّام ، والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه[٢] .

رابعاً : هل المصاحف العثمانية مشتملةٌ على جميع الأحرف السَّبعة ؟

ذهب الشَّيخ المحقِّق صادق عرجون ـ رحمه الله ـ إلى أنَّ : صحف الصِّدِّيق الّتي كانت أصلاً للمصحف الإمام بإجماع المسلمين لم تكن جامعةً للأحرف السَّبعة ؛ الّتي وردت صحاح الأحاديث بإنزال القرآن عليها، بل كانت على حرفٍ منها؛ هو الّذي وقعت به العرضة الأخيرة ، واستقرَّ عليها الأمر في آخر حياة رسول الله ﷺ ، وإنَّما كانت الأحرف السَّبعة أوَّلاً من باب التَّيسير على الأمَّة ، ثمَّ ارتفع حكمها لمَّا استفاض القرآن ، وتمازج النَّاس ، وتوحَّدت لغاتهم ، قال الإمام الطَّحاويُّ: إنَّما كانت السَّعة للنَّاس في الحروف؛ لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم؛ لأنَّهم كانوا أمِّيين، لا يكتب إلا القليل منهم، فلمَّا كان يشقُّ على كل ذي لغةٍ أن يتحوَّل إلى غيرها من اللُّغات ، ولو رام ذلك لم يتهيَّأ له إلا بمشقَّةٍ عظيمةٍ ـ وُسِّع لهم في اختلاف الألفاظ ؛ إذا كان المعنى متَّفقاً، فكانوا كذلك حتَّى كثر منهم مَنْ يكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ ، فقدروا بذلك على تحفُّظ ألفاظه ، فلم يسعهم حينئذٍ أن يقرؤوا بخلافها . قال ابن عبد البرِّ : فبان بهذا : أن تلك السَّبعة الأحرف إنَّما كانت في وقتٍ خاصٍّ لضرورةٍ دعت إلى ذلك ، ثمَّ ارتفعت تلك الضَّرورة ، فارتفع حكم هذه السَّبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرفٍ واحد[٣] .

وقال الطَّبريُّ : إنَّ القراءة على الأحرف السَّبعة لم تكن واجبةً على الأمَّة ، وإنَّما كان جائزاً

---

(١) عثمان بن عفَّان لصادق عرجون ، ص(١٧٨) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٨٧) .

(٣) عثمان بن عفَّان لصادق عرجون ، ص(١٨٠) .

لهم ، ومرخَّصاً لهم فيه ، فلمَّا رأى الصَّحابة : أنَّ الأمَّة تفترق ، وتختلف إذا لم يجتمعوا على حرفٍ واحدٍ ـ أجمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً ، وهم معصومون من الضَّلالة[١] .

وهذا الحرف الَّذي كتبت به صحف الإجماع القاطع ، ونقل عنها المصحف الإمام ـ جامعٌ لقراءات القرَّاء السَّبعة ، وغيرها ، ممَّا يقرأ به النَّاس ، ونُقل متواتراً عن رسول الله ﷺ ؛ لأنَّ الأحرف الواردة في الحديث غير هذه القراءات[٢] .

قال القرطبيُّ : قال كثير من علمائنا كالدَّاووديِّ ، وابن أبي صفرة ، وغيرهما : هذه القراءات السَّبع الَّتي تنسب لهؤلاء القرَّاء السَّبعة ليست هي الأحرف السَّبعة الَّتي اتَّسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنَّما هي راجعةٌ إلى حرفٍ واحد من تلك السَّبعة ، وهو الَّذي جمع عليه المصحف[٣] ، وأقرب الآراء إلى الفهم ـ عند ظنِّنا ـ في معنى الأحرف إنَّما هو الرَّأي القائل بأنَّها هي أفصح لغات العرب ، وأشهرها ، وهي مبثوثةٌ في القرآن كلِّه ، وإليه ذهب القاسم بن سلام ، وابن عطيَّة في جماعةٍ من الأجلاء ، وإليه يرجع نحو سبعة أقوال ممَّا ذكره السُّيوطيُّ في الإتقان في معنى الأحرف[٤] .

خامساً : عدد المصاحف الَّتي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار :

لمَّا فرغ عثمان رضي الله عنه من جمع المصاحف ، أرسل إلى كلِّ أفقٍ بمصحفٍ ، وأمرهم أن يحرقوا كلَّ مصحف يخالف المصحف الَّذي أرسله إلى الآفاق ، وقد اختلفوا في عدد المصاحف الَّتي فرَّقها في الأمصار ، فقيل : إنَّها أربعة ؛ وهو الَّذي اتَّفق عليه أكثر العلماء ، وقيل : إنَّها خمسة ، وقيل : إنَّها ستَّةٌ ، وقيل : إنَّها سبعةٌ ، وقيل : ثمانية ، أما كونها أربعةً ؛ فقيل : إنَّه أبقى مصحفاً بالمدينة ، وأرسل مصحفاً إلى الشَّام ، ومصحفاً إلى الكوفة ، ومصحفاً إلى البصرة ، وأمَّا كونها خمسةً ؛ فالأربعة المتقدِّم ذكرها ومصحفاً لأهل مكة ، وأما كونها ستة فالخمسة المتقدمة ، والسَّادس اختلف فيه ، فقيل : جعله خاصّاً لنفسه ، وقيل : أرسله إلى البحرين .

وأمَّا كونها سبعة ؛ فالستَّة المتقدِّم ذكرها ، والسَّابع أرسله إلى اليمن ، وأمَّا كونها ثمانيةً ؛ فالسَّبعة المتقدِّم ذكرها ، والثَّامن كان لعثمان يقرأ فيه ، وهو الَّذي قتل ، وهو بين يديه[٥] ، وبعث رضي الله عنه مع كلِّ مصحفٍ من يرشد النَّاس إلى قراءته بما يحتمله رسمه من القراءات ممَّا صح ، وتواتر ، فكان عبد الله بن السَّائب مع المصحف المكِّيِّ ، والمغيرة بن شهاب مع

---

(١) عثمان بن عفَّان لصادق عرجون ، ص(١٨٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٧٩) .

(٤) الإتقان للسُّيوطي (١/ ١٤٤ إلى ١٤٨) .

(٥) أضواء البيان في تاريخ القرآن ، ص(٧٧) .

المصحف الشَّامي ، وأبو عبد الرحمن السُّلمي مع المصحف الكوفيِّ ، وعامر بن قيس مع المصحف البصريِّ ، وأمر زيد بن ثابت أن يقرئ النَّاس بالمدنيِّ[١] .

سادساً : موقف عبد الله بن مسعود من مصحف عثمان :

لم يثبت أنَّ ابن مسعود رضي الله عنه خالف عثمان في ذلك ، وكلُّ ما روي في ذلك ضعيف الإسناد ، كما أنَّ هذه الروايات الضَّعيفة الَّتي تتضمَّن ذلك تثبت : أنَّ ابن مسعود رضي الله عنه رجع إلى ما اتَّفق عليه الصَّحابة في جمع القرآن ، وأنَّه قام في النَّاس ، وأعلن ذلك ، وأمرهم بالرُّجوع إلى جماعة المسلمين في ذلك[٢] . وقال : إنَّ الله لا ينتزع العلم انتزاعاً ، ولكن ينتزعه بذهاب العلماء ، وإنَّ الله لا يجمع أمَّة محمَّدٍ ﷺ على ضلالة ، فجامعوهم على ما اجتمعوا عليه ، فإنَّ الحقَّ فيما اجتمعوا عليه . . وكتب بذلك إلى عثمان[٣] ، وقد ورد عن ابن كثير رجوع ابن مسعود إلى الوفاق[٤] ، وأكَّد الذَّهبيُّ ذلك ، فقال : وقد ورد أنَّ ابن مسعود رضي وتابع عثمان ، ولله الحمد[٥] .

ولا يلتفت إلى ما كتبه طه حسين في قضيَّة المصحف ، وعلاقة عثمان مع ابن مسعود ، وما ساقه بأسلوبٍ مسموم ، فيه أفكارٌ أخذها من أساتذته المستشرقين[٦] والَّذين اعتمدوا على رواياتٍ ضعيفةٍ ، وإماميَّة في تشويه علاقة الصَّحابة ببعضهم ، رضي الله عنهم جميعاً .

إنَّ ابن مسعود رضي الله عنه الَّذي ترك صلاة القصر في منى خشيةً من الخلاف ، والفتنة ، ومتابعةً للخليفة ، هل يتوقَّع منه أن يصعد المنبر ، ويحرِّض النَّاس على الخلاف ، وهو القائل : إنَّ الخلاف شرٌّ[٧] .

إنَّ مؤرِّخي إمامية زوَّروا روايات ، ونسبوها لابن مسعودٍ ، وموقفه من عثمان ، رضي الله عنهم ، وأظهروا ـ في تلك الأكاذيب ـ الصَّحابة قوماً متنازعين ، متباغضين ، متعنِّتين ، متفاحشين في القول ، وهي رواياتٌ ساقطةٌ لا تثبت أمام النَّقد الهادئ الموضوعيِّ ، ويرفضها

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٧٨) .
(٢) فتنة مقتل عثمان بن عفَّان (١/ ٧٨) .
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٧٩) .
(٤) البداية والنِّهاية (٧/ ٢٢٨) .
(٥) سير أعلام النُّبلاء (١/ ٣٤٩) .
(٦) الفتنة الكبرى (١/ ١٥٩) .
(٧) فتنة مقتل عثمان بن عفَّان (١/ ٨٠) .

الذَّوق المؤمن ، والعقل الفطن[١] ، وقد زعم بعضهُم كذباً ، وزوراً ؛ بأنَّ ابن مسعودٍ كان يطعن على عثمان ، ويكفِّره ، ولمَّا حكم عثمان ، ضربه حتَّى مات ، وهذا كذب بيِّنٌ على ابن مسعودٍ ، فإنَّ علماء النقل يعلمون أنَّ ابن مسعود ما كان يكفِّر عثمانَ ، بل لمَّا بويع عثمان بالخلافة سار عبد الله بن مسعود من المدينة إلى الكوفة ، ولمَّا وصل إليها ؛ حمد الله ، وأثنى عليه ثمَّ قال : أمَّا بعد فإنَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب مات ـ فلم نرَ يوماً أكثر نشيجاً من يومئذٍ ـ وإنَّا اجتمعنا أصحاب محمد ، فلم نألُ عن خيرنا ذي فُوقٍ ، فبايعنا أمير المؤمنين عثمان ، فبايعوه[٢] .

وهذه الكلمات الواضحات أكبر دليل على تلك المكانة الرَّفيعة لعثمان بن عفَّان في قلب ابن مسعودٍ ، وعند جميع الصَّحابة ، أولئك الَّذين مدحهم الله تعالى ، ورضي عنهم ، وهم خَيْرُ مَنْ فَقِه قوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠] .

فقول عبد الله بن مسعود صدقٌ لا يعدو الحقيقة ، كما أنَّه نابع عن قناعته ، وصادرٌ عن محض إرادته ، ما قاله خوفاً ، ولا خشيةً ، ولم يقذف به هكذا رخيصاً للاستهلاك ، والتغرير ، أو ليحوز مكانةً ، ومنصباً من الخلافة الجديدة ، وإذاً فمن بدهيَّات الأمور ، وأوَّليَّاتها أن ليس ثمَّة حقدٌ ، أو بغضاء في قلب أحدهما على الآخر ، وإذا حدث شيءٌ فإنَّما هو من أجل الحقِّ ، وصالح المسلمين[٣] ، ويندرج تحت فقه النَّصيحة ، وآدابها وتأديب الخليفة لرعيَّته ، وأمَّا ما زعم الإماميَّة ، ومن سار على نهجهم من أنَّ عثمان ضرب ابن مسعود حتَّى مات ، فهذا كذبٌ باتِّفاق أهل العلم ، قال أبو بكر بن العربيِّ : وأمَّا ضربه لابن مسعود ، ومنعه عطاءه ؛ فزورٌ[٤] .

فلا وجهة للرَّافضة بالطَّعن على عثمان بقصَّة ابن مسعودٍ هذه ، فإنه لم يضربه عثمان ، ولم يمنعه عطاءه ، وإنَّما كان يعرف له قدره ، ومكانته ، كما كان ابن مسعود شديد الالتزام بطاعة إمامه ؛ الَّذي بايع له ، وهو يعتقد : أنَّه خير المسلمين وقت البيعة[٥] .

سابعاً : فَهْمُ الصحابة لآيات النَّهي عن الاختلاف :

قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] فالصِّراط المستقيم هو : القرآن ، والإسلام ،

---

(١) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عبد السَّتار الشيخ ، ص(٣٣٥) .
(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٦٣) .
(٣) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عبد السَّتَّار الشَّيخ ، ص(٣٢٤) .
(٤) العواصم من القواصم ، ص(٦٣) .
(٥) عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في الصَّحابة الكرام (٣/ ١٠٦٦) .

والفطرة الّتي فطر الله النّاس عليها ، والسُّبل هي : الأهواء ، والفرق ، والبدع ، والمحدثات ، قال مجاهد : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ ، يعني : البدع ، والشُّبهات ، والضلالات[١] .

ونهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الأمَّة عمَّا وقعت فيه الأمم السَّابقة من الاختلاف ، والتَّفرُّق من بعد ما جاءتهم البيِّنات ، وأنزل الله إليهم الكتب ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

ونهى الأمَّة أن تكون من المشركين ، الّذين فرَّقوا دينهم ، وكانوا شيعاً ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠ـ٣٢] .

وأخبر سبحانه وتعالى : أنَّ الرَّسول ﷺ بريءٌ من الّذين يفرِّقون دينهم ، ويكونون شيعاً ، وأحزاباً[٢] ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

ويظهر من قصَّة جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه مدى فهم الصَّحابة رضي الله عنهم لآيات النَّهي عن الاختلاف ، حيث إنَّ الله نهى عن الاختلاف وحذَّر منه ، فلعمق فهمهم لهذه الآيات ارتعد حذيفة رضي الله عنه عندما سمع بوادر الاختلاف في قراءة القرآن ، فرحل فوراً إلى المدينة النَّبويَّة ، وأخبر عثمان رضي الله عنه بما رأى ، وبما سمع ، فسرعان ما قام عثمان يخطب النَّاس ؛ يحذِّرهم من مغبَّة هذا الخلاف ، ويشاور الصَّحابة رضي الله عنهم في الحلِّ لهذه المحنة الّتي بدأت بالظُّهور ، وفي مدَّةٍ قصيرةٍ يحسم الأمر ، ويغلق باب الخلاف الّذي كاد أن ينفتح بجمع الصُّحف ، ونسخها في مصحفٍ واحدٍ من المصادر الموثوقة جدّاً ، وبإغلاق باب الفتنة هذا فرح المسلمون ، بينما اغتاظ المنافقون الّذين كانوا قد استبشروا ببوادر الخلاف الّتي كانوا ينتظرونها بفارغ الصَّبر ، ويسعون إلى تحقيقها ، ولمَّا حسم الخلاف ، ولم يجد أولئك طريقاً إلى استنهاضه ، ازداد حقدهم على عثمان رضي الله عنه ، وسعوا في التَّشنيع عليه وتصوير حسنته هذه سيئةً ، وتلمَّسوا في سبيل إثبات ذلك خيوط العنكبوت الواهية ؛ ليطعنوا فيه ويسوِّغوا خروجهم عليه بها ، مظهرين للنَّاس : أنَّ هذه الحسنة سيئةٌ ، تستوجب الخروج عليه[٣] .

إن الصَّحابة رضي الله عنهم لم يتركوا كل قارئ على قراءته الصحيحة ، بل جمعوهم على

(١) تفسير مجاهد ، ص(٢٢٧) .

(٢) دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، ناصر العقل ، ص(٤٩) .

(٣) فتنة مقتل عثمان بن عفَّان (١ / ٨٢) .

قراءة واحدة ، فاجتمع شملهم وتوحد صفهم ، وهذا درس عظيم نستلهمه من دراستنا لتاريخ عهد الخلفاء الراشدين ، الحافل بالعبر والدروس ومواطن القدوة(١) .

قال رسول الله ﷺ : « **إنَّ الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم** »(٢) .

إنَّ طريق الاعتصام بحبل الله أن نلتزم بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ، وهذا الأصل من آكد الأصول في هذا الدِّين العظيم ، يقول ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ : وهذا الأصل العظيم : وهو الإسلام ممَّا عظمت وصيَّة الله تعالى به في كتابه ، وممَّا عظم ذمُّه لمن تركه من أهل الكتاب ، وغيرهم ، وممَّا عظمت به وصيَّة النَّبيِّ ﷺ في مواطن عامَّةٍ ، وخاصَّةٍ(٣) .

ولذلك أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بكلِّ ما يحفظ على المسلمين جماعتهم ، وألفتهم ، ونهيا عن كلِّ ما يعكِّر صفو هذا الأمر العظيم .

إنَّ ما حصل من فرقة بين المسلمين ، وتدابرٍ ، وتقاطع ، وتناحرٍ ، بسبب عدم مراعاة هذا الأصل وضوابطه ، ممَّا ترتب عليه تفرُّقٌ في الصُّفوف ، وضعفٌ في الاتحاد ، وأصبحوا شيعاً ، وأحزاباً ، كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون(٤) .

إنَّ وحدة المسلمين ، واجتماعهم مطلبٌ شرعيٌّ ، ومقصدٌ عظيمٌ من مقاصد الشَّريعة ؛ بل من أهم أسباب التَّمكين لدين الله تعالى ، ونحن مأمورون بالتَّواصي بالحقِّ ، والتَّواصي بالصَّبر ، فلابدَّ من تضافر الجهود بين الدُّعاة ، وقادة الحركات الإسلاميَّة ، وبين علماء المسلمين ، وطلبة العلم لإصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقيّاً لا تلفيقيّاً ، لأنَّ أنصاف الحلول تفسد أكثر ممَّا تصلح . قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعديُّ ـ رحمه الله ـ: الجهاد نوعان : جهاد يقصد به صلاح المسلمين ، وإصلاحهم في عقائدهم ، وأخلاقهم ، وآدابهم ، وجميع شؤونهم الدِّينيَّة ، والدُّنيويَّة ، وفي تربيتهم العلميَّة ، وهذا النَّوع هو الجهاد ، وقوامه ، وعليه يتأسَّس النَّوع الثَّاني ، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين : من الكفَّار ، والمنافقين ، والملحدين ، وجميع أعداء الدِّين ، ومقاومتهم . وهذا نوعان : جهاد بالحجَّة ، والبرهان ، واللِّسان ، وجهادٌ بالسِّلاح المناسب في كلِّ وقتٍ ، وزمانٍ(٥) .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١/ ٨٣) .

(٢) مسند أحمد (١/ ٢ ، ٢٦) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٥٩) .

(٤) تبصير المؤمنين بفقه النَّصر والتَّمكين ، للصَّلابي ، ص(٣٠٧) .

(٥) وجوب التعاون بين المسلمين ، ص(٥).

ثمَّ أفرد فصلاً بعنوان: الجهاد المتعلِّق بالمسلمين بقيام الألفة، واتِّفاق الكلمة[١]. وبعد أن ذكر الآيات، والأحاديث الدَّالَّة على وجوب تعاون المسلمين، ووحدتهم قال: فإنَّ من أعظم الجهاد السَّعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم، ومصالحهم الدِّينيَّة، والدُّنيويَّة[٢].

ولذلك نرى: أنَّ الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين، وتوحيد صفِّهم من أعظم الجهاد؛ لأنَّ هذه الخطوة مهمةٌ جدّاً في إعزاز المسلمين، وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربِّهم، وهذا من فقه الخلفاء الرَّاشدين، ويتجلَّى في أبهى صورة في جمع عثمان رضي الله عنه للأمَّة على مصحفٍ واحدٍ.

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الفصل الخامس
مؤسَّسة الولاة في عهد عثمان رضي الله عنه

المبحث الأوَّل
أقاليم الدَّولة في عهد عثمان وسياسته مع الولاة

أولاً : مكَّة المكرَّمة :

توفي عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وواليه على مكَّة خالد بن العاص بن هشام ابن المغيرة المخزوميُّ[(١)] ، وقد أبقاه عثمان رضي الله عنه فترةً من الوقت يصعب تحديدها ، ثمَّ قام بعزله ، ولم ترد أخبار عن سبب ذلك إضافةً إلى صعوبة تحديد أهمِّ أعماله ، وقد قام عثمان رضي الله عنه بعد عزله بتولية عليِّ بن ربيعة بن عبد العزَّى ، ثمَّ قام عثمان رضي الله عنه بعد ذلك بتولية مجموعةٍ من الأمراء على مكَّة يصعب تحديد فترات ولايتهم ، منهم عبد الله بن عمرو الحضرميُّ ، الَّذي كان أحد عمَّال عثمان على مكَّة ، كما أنَّ النُّصوص تثبت : أنَّ عثمان رضي الله عنه قد أعاد خالد بن العاص بن هشام على مكَّة مرَّة أخرى ، وتؤكِّد بعض المصادر : أنَّ عثمان توفي وخالدٌ على مكة ، فقام عليٌّ رضي الله عنه بعزله ، وتولية غيره[(٢)] .

وهذه الرِّواية على مايبدو أثبت من الرِّوايات الَّتي تذكر : أنَّ عبد الله بن الحضرميِّ هو الوالي على مكَّة حين قتل عثمان[(٣)] .

وقد تميَّزت مكَّة في عهد عثمان بالهدوء المستمرِّ رغم ما وقع في بعض الأمصار من فتنةٍ في أواخر عهد عثمان[(٤)] .

---

(١) تجريد أسماء الصَّحابة ، ص(١٥١) .

(٢) الولاية على البلدان (١/ ١٦٦) .

(٣) نهاية الأرب للنُّويري (٢/ ٢٧) .

(٤) الولاية على البلدان (١/ ١٦٧) .

ثانياً : المدينة النَّبويَّة :

تعدُّ المدينة المنوَّرة من أهمِّ المدن الإسلاميَّة في عهد عثمان ، وبها مركز الخلافة ، وإليها تفد الوفود من مختلف الأمصار ، والأجناد الإسلاميَّة ، ويقيم بها كثيرٌ من شيوخ الصَّحابة من المهاجرين ، والأنصار ، وبذلك تكتسب أهميَّة خاصَّةً ، وقد كان عثمان بحكم خلافته مقيماً بها ، ويتفقَّد أحوالها حتَّى إنَّه كان يسأل عن أسعار المواد الغذائيَّة ، وعن أخبار النَّاس(١) ، وكان عثمان رضي الله عنه إذا سافر إلى الحجِّ يستخلف أحد الصَّحابة على المدينة حتَّى يرجع ، وكثيراً ما كان يستخلف زيد بن ثابت رضي الله عنه(٢) .

وكان في المدينة بيت مالٍ ، وديوانٌ للأعطيات كغيرها من الأمصار ، وتعتبر المدينة من أكثر الأمصار الإسلاميَّة هدوءاً خلال عصر عثمان سوى ما حدث في أيَّامه الأخيرة من اضطراب الأحوال فيها بعد وصول جيوش الفتنة ، وحصار عثمان ، وخروج بعض كبار الصَّحابة منها(٣) .

ثالثاً : البحرين ، واليمامة(٤) :

توفي عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وعلى البحرين عثمان بن أبي العاص الثَّقفيُّ ، فأقرَّه عثمان عليها فترةً من الوقت ، وتدلُّ الرِّوايات على أَنَّ عثمان بن أبي العاص كان على ولاية البحرين بعد مبايعة عثمان بثلاث سنين ؛ أي : سنة ٢٧ هـ بدليل مشاركته بجيشه مع جيش البصرة في بعض الفتوح(٥) ، ويبدو : أنَّ التعاون الَّذي بدأ بين ولاية البحرين وولاية البصرة في عهد عمر أخذ يشتدُّ ، ويقوى في عهد عثمان ، خصوصاً بعد تولية (عبد الله بن عامر بن كريز)(٦) على البصرة ، حيث أصبح عامل البحرين أحد القواد التَّابعين لعبد الله بن عامر والي البصرة ، كما أنَّ النُّصوص التَّاريخيَّة تفيد تبعية ولاية البحرين للبصرة ـ إلى حدٍّ ما ـ واندماجها معها بحيث أصبح ابن عامر يعيِّن العمَّال عليها من قبله(٧) .

ويؤكِّد أحد الباحثين هذا التَّعاون في قوله : وفي زمن الخليفة عثمان بن عفَّان ألحقت

---

(١) تاريخ المدينة (٣/ ٩٦١ ، ٩٦٢) .

(٢) الولاية على البلدان (١/ ١٦٨ ، ١٦٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) البحرين : كانت تطلق على المناطق الَّتي تشمل إمارات الخليج العربي ، والجزء الشَّرقي من المملكة العربية السُّعودية عدا الكويت . أمَّا اليمامة ، فكانت في بلاد نجد .

(٥) تاريخ خليفة بن خيَّاط ، ص(١٥٩) . والولاية على البلدان (١/ ١٦٩) .

(٦) الطَّبقات لابن سعد (٥/ ٤٤) .

(٧) الولاية على البلدان (١/ ١٦٩) .

البحرين بالبصرة عندما أصبحت الأخيرة قاعدةً لفتوح فارس ، وجنوب إيران ، فصار ولاتها تابعين لأمير البصرة ، وقد عزَّز هذا صلة البصرة بالبحرين ، ووثَّقها[١] ، وقد ذُكِر من ولاة عثمان على البحرين : مروان بن الحكم ، وعبد الله بن سوار العبديُّ ، وقد توفِّي عثمان وعبد الله على البحرين[٢] ، وقد كان للبحرين في أيام عثمان دورٌ كبيرٌ في بعث الأجناد لفتوح شرق فارس ، كما كان لواليها عثمان بن أبي العاص دورٌ كبيرٌ في تلك الفتوح[٣] .

وقد كانت الأوضاع داخل البحرين مستقرةً حتَّى وفاة عثمان ، وأمَّا اليمامة فقد كانت في عهد عمر رضي الله عنه تابعةً لولاية البحرين ، وعمان إلى حدٍّ كبير ، بل إنَّ والي البحرين هو الّذي كان يبعث عليها الأمراء أحياناً ، أمَّا في عهد عثمان رضي الله عنه فالّذي يبدو أنَّ اليمامة كان عليها والٍ من قبل عثمان مباشرةً ، وقد ورد ذكره في أحداث الفتنة بعد مقتل عثمان مباشرة ؛ إذ وصلته بعض الكتب في تلك الفترة ممَّن غضبوا لمقتل عثمان[٤] .

رابعاً : اليمن ، وحضرموت :

توفي عمر رضي الله عنه وعامله على اليمن (يعلى بن مُنْيَة) وكان في طريقه إلى المدينة بناءً على طلب عمر ؛ إذ جاءه كتاب من عثمان يخبره بوفاة عمر ، وبيعة النَّاس لعثمان ، واستعماله من قِبَل عثمان على صنعاء ، فاستمرَّ على صنعاء إلى وفاة عثمان ، رضي الله عنه[٥] ، وكان على مدينة الجند عبد الله بن ربيعة الّذي استمرَّ والياً عليها طيلة عهد عثمان رضي الله عنه[٦] .

ويبدو : أنَّ هناك ولاةً آخرين كانوا على بقيَّة مدن اليمن ، ولكنَّ المصادر الرَّئيسية ركزت على هذين الواليين في الغالب ، كما أنَّ المصادر لم تفصِّل القول في أحداث اليمن خلال عصر عثمان ، كما يقلُّ إيرادها للمراسلات بين عثمان وولاته في اليمن سوى ما ذكره من أوامر عامَّة مرسلةٍ لكافة الولاة[٧] ، وقد اشتهر عن أهل اليمن خلال عصر عثمان طاعتهم ، وانقيادهم لولاتهم ؛ يدلُّ على ذلك ما روي من أنَّ عثمان رضي الله عنه بعث رجلاً ثقفياً إلى اليمن ، فلمَّا عاد سأله عثمان عن أهلها ، فقال : رأيت قوماً ما سئلوا أعطوا حقّاً كان ، أو باطلاً[٨] ، ومن

---

(١) البحرين في صدر الإسلام ، عبد الرحمن بن النَّجم ، ص(١٤١) .
(٢) الولاية على البلدان (١/ ١٧٠) .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٤٢) .
(٦) تاريخ خليفة بن خيَّاط ، ص(١٧٩) .
(٧) الولاية على البلدان (١/ ١٧١) .
(٨) تاريخ اليمن السِّياسي في العصر الإسلاميِّ ، لحسن سليمان ، ص(٧٩) .

المعروف: أنَّ العديد من القبائل اليمنيَّة هاجرت خلال الفتوح في أيَّام عمر بن الخطاب إلى الأمصار الإسلاميَّة الجديدة سواءٌ في العراق، أو مصر، أو الشام، وبالتَّالي فإنَّ صلات اليمن، وأهلها بهذه الأمصار كانت مستمرة، كما أنَّ الهجرات ـ ولو بشكل فرديٍّ من اليمن إلى بقيَّة الأمصار ـ لم تتوقَّف طيلة عهد عثمان، حيث نجد لأناسٍ من يهود اليمن دوراً خطيراً في أحداث الفتنة الَّتي قامت أواخر عهد عثمان، واستشهد فيها عثمان رضي الله عنه، وعلى رأس هؤلاء الوالغين في الفتنة (عبد الله بن سبأ)، وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه ترك اليمن عددٌ من ولاتها، وقدموا إلى الحجاز للمشاركة فيما يجري من أحداث، ومنهم يعلى بن مُنْيَة، وعبد الله بن ربيعة[١].

خامساً: ولاية الشَّام:

حينما جاء عثمان إلى الخلافة كان معاوية رضي الله عنه والياً على معظم الشَّام، فأقرَّه عثمان عليها[٢]، كما أقرَّ بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم، كاليمن، والبحرين، ومصر، وغيرها من الولايات، وقد تطوَّرت الأحداث، وضُمَّت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتَّى أصبح معاوية هو الوالي المطلق لبلاد الشَّام، بل أصبح أقوى ولاة عثمان، وأشدَّهم نفوذاً، وقد كان في بداية خلافة عثمان ولاةٌ آخرون؛ منهم: عمير بن سعدٍ الأنصاريُّ، وكان على حمص، وينافس معاوية بن أبي سفيان في المكانة لدى عثمان رضي الله عنه إلا أن عميراً مرض مرضاً أعياه عن القيام بأعباء الولاية، فطلب من الخليفة عثمان أن يعفيه، فأعفاه، وضم ولايته إلى معاوية بن أبي سفيان، وبذلك زاد نفوذ معاوية، فامتدَّ إلى حمص الَّتي ولي عليها من قبله عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[٣]، كما توفي علقمة بن محرز، وكان على فلسطين، فضمَّ عثمان ولايته إلى ولاية معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فاجتمعت الشَّام لمعاوية بعد سنتين من خلافة عثمان رضي الله عنه، وأصبح الوالي المطلق فيها طيلة السَّنوات الباقية من خلافة عثمان حتَّى توفي عثمان وهو عليها كما هو معروفٌ[٤].

وقد كانت فترة ولاية معاوية على الشَّام مليئةً بالأحداث، كانت الشَّام من أهم مناطق الجهاد، ومع أنَّ الشَّام في داخلها قد استقرَّت أوضاعها، وسادها الإسلام، وقلَّت محاولات الرُّوم إثارة القلاقل فيها، إلا أنَّ الشام كانت متاخمةً لأرض الرُّوم، وبالتَّالي كان المجال مفتوحاً أمام معاوية للجهاد في تلك النَّواحي، وقد تحدَّثنا عنها فيما مضى.

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٤٢).

(٢) تاريخ خليفة بن خيَّاط، ص(١٥٥).

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٤٢).

(٤) المصدر السابق نفسه (٥/ ٤٤٣).

وقد كان لمعاوية ثقله السِّياسيُّ في الدَّولة الإسلاميَّة أواخر خلافة عثمان ، رضي الله عنه ؛ إذ كان ضمن الولاة الَّذين جمعهم عثمان ليستشيرهم ، حين بدأت ملامح الفتنة تلوح في الأفق ، كما ظهرت له آراءٌ خاصَّةٌ في هذا الاجتماع ، وجَّهها إلى عثمان[١] ، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى .

سادساً : أرمينية :

بدأت الجيوش الإسلاميَّة بالتوجُّه إلى أرمينية لأوَّل مرَّة في عهد عثمان ، رضي الله عنه ، حيث توجَّه أوَّل جيش إسلاميٍّ إلى تلك المنطقة من بلاد الشَّام ـ وهي من أقرب الولايات إليها ـ يقوده حبيب بن مسلمة الفهريُّ ، وقوامه حوالي ثمانية آلاف مقاتل ، واستطاع هذا الجيش أن يفتح العديد من المواقع في أرمينية ، إلا أنَّه أحسَّ بالخطر نتيجة تجمُّع حشود من الرُّوم لمساعدة الأرمن في حروبهم ضدَّ المسلمين ، فطلب المساعدة من الخليفة الَّذي أمر بتسيير جيشٍ من الكوفة قوامه ستة آلاف رجلٍ تقريباً ، ويقوده سلمان بن ربيعة الباهليُّ[٢] ، وقد حدث نزاعٌ بعد ذلك بين حبيب بن مسلمة ، وسلمان بن ربيعة ، وقف الخليفة عثمان عليه ، فقام بالكتابة إلى القوم ، وحلَّ المشكلة الَّتي بينهما[٣] ، ويبدو : أنَّ سلمان بن ربيعة تولَّىٰ قيادة الجيوش الإسلاميَّة حيث كتب إليه عثمان بإمرته على أرمينية[٤] ، ثمَّ توغَّل سلمان بن ربيعة في أرمينية ثمَّ بلاد (الخزر)[٥] فاتحاً ، ومنتصراً ، حتَّى وقعت معركةٌ حاميةٌ بين جيشه ، وقوامه عشرة آلاف رجلٍ ، وجيش ملك الخزر ، وقوامه ثلاثمئة ألف رجلٍ ـ كما تقول الرِّوايات ـ فقتل سلمان ، وجميع جنوده .

وقد كتب عثمان رضي الله عنه إلى حبيب بن مسلمة أن يسير مرَّة أخرى إلى بلاد أرمينية فاتَّجه بجيشه ، وقام بفتح المواقع مرَّة بعد أخرى ، وثبَّت أقدام المسلمين فيها ، وعقد بعض المعاهدات مع أهل البلاد[٦] ، ثمَّ رأى عثمان رضي الله عنه أن يوجِّهه إلى ثغور الجزيرة ؛ لخبرته بها ، وقدرته عليها ، وعيَّن مكانه على أرمينية حذيفة بن اليمان بالإضافة لولايته على أذربيجان ، حيث قام بعدَّة غزوات نحو بلاد الخزر من أرمينية[٧] ، وبعدما يقرب من سنة عزله

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٧٦) .
(٢) الطَّبقات (٦/ ١٣١) .
(٣) الخراج وصناعة الكتابة ، قدامة بن جعفر ، ص(٣٢٦) .
(٤) الفتوح ، ابن أعثم (٢/ ١١٢) .
(٥) الخزر : بلاد التُّرك في آسيا الوسطى ، وهي الآن في جنوب روسية .
(٦) الولاية على البلدان (١/ ١٧٧) .
(٧) المصدر السابق نفسه .

عثمان، وولَّى على أرمينية المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، حتَّى توفي عثمان وهو عليها، وعلى أذربيجان في الوقت نفسه(١)، وتعدُّ هذه الولاية إضافةً جديدةً أضافها عثمان إلى الدَّولة الإسلاميَّة، ولم تكن فتحت قبله، وقد لقي المسلمون عناءً شديداً في فتحها، وتنظيمها، وضبط أمورها(٢).

سابعاً : ولاية مصر :

كان والي مصر في خلافة عمر بن الخطَّاب هو عمرو بن العاص الَّذي حكمها ما يقرب من أربع سنوات(٣) ، وتوفي عمر وهو والٍ عليها ، وقد أقرَّه عثمان بن عفَّان في بداية خلافته لفترة من الوقت ، وكان يساعده في عمله في بعض نواحي مصر عبد الله بن أبي السَّرح(٤) ، الَّذي كان مصاحباً لعمرو بن العاص منذ أيام فتوحه في فلسطين حيث كان من ضمن قوَّاده ، واشترك معه في فتوح مصر(٥) ، وقد عيَّنه عمر على بعض صعيد مصر بعد فتحها(٦) ، ويبدو : أنَّ عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي السَّرح حدث بينهما خلافٌ في وجهات النَّظر ، فوفد عمرو بن العاص على عثمان بعد مبايعته بالخلافة ، وطلب منه عزل عبد الله بن سعد عن ولاية الصَّعيد ، فرفض عثمان ذلك ، وذكر له : أنَّ عمر هو الَّذي ولَّى ابن أبي السَّرح ، وأنه لم يأت بما يوجب العزل ، فأصرَّ عمرٌو على عزله ، وأصرَّ عثمان على عدم موافقته ، ونتيجة لإصرار كلٍّ من الطَّرفين على رأيه ـ رأى عثمان أنَّ من الأصلح عزل عمرو عن مصر وتولية عبد الله بن أبي السَّرح مكانه ، وهذا ما حدث بالفعل(٧) ، وفي هذه الظُّروف قام الرُّوم بالإغارة على الإسكندرية ، والاستيلاء عليها ، وقتلوا جميع من فيها من المسلمين ، فرأى أمير المؤمنين تعيين عمرو على جيوش مصر لفتح الإسكندرية من جديدٍ ، والقضاء على جيش الرُّوم ، وتمَّ ذلك فعلاً(٨) وقد فصَّلت أحداثه في حديثي عن الفتوحات .

ثمَّ إن عثمان أراد أن يعيد عمراً على ولاية أجناد مصر ، وحربها ، وأن يجعل عبد الله بن سعد على الخراج ، إلا أنَّ عمراً رفض ذلك ، وتكاد الأخبار تندر عن ولاية عمرو في مصر خلال

---

(١) تاريخ اليعقوبي (٢/ ١٦٨) . والولاية على البلدان (١/ ١٧٧) .
(٢) الولاية على البلدان (١/ ١٧٧) .
(٣) النُّجوم الزَّاهرة (١/ ٧٧) .
(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٣) .
(٥) المصدر السابق نفسه .
(٦) ولاة مصر للكندي ، ص(٣٣) . وفتوح مصر وأخبارها ، ص(١٧٣) .
(٧) الولاية على البلدان (١/ ١٧٨) .
(٨) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١/ ١٧٨ ، ١٧٩) .

عهد عثمان رضي الله عنه سوى ما ورد من دوره في الجهاد ، سواءٌ في ردِّ الرُّوم ، وطردهم عن الإسكندريَّة وتثبيت الأمن في أنحاء مصر ، أو في قضايا الخراج الّتي دارت فيها بين عثمان وبين عَمْرٍو خلافاتٌ في الرَّأي[١] ، وبعد عزل عمرو بن العاص عن مصر مرَّةً أخرى ، أو عن ولاية الإسكندريَّة على أرجح الآراء ، وبعد رفضه ما اقترحه عثمان رضي الله عنه من ولايته على الأجناد وولاية ابن أبي السَّرح على الخراج ، أقرَّ عثمان عبد الله بن أبي السَّرح مرَّة أخرى على مصر ، وأصبح هو الوالي الرَّسمي لمصر ، والمدير الفعلي لولاية مصر بأجنادها ، وخراجها ، ومختلف شؤونها[٢] .

وقد كانت ولاية مصر في أول أمرها هادئةً مستقرَّةً ، إلى أن تمكَّن مثيرو الفتنة من أمثال عبد الله بن سبأ من الوصول إليها ، وإثارة النَّاس فيها ، فكان لهم وللمتأثِّرين بهم دورٌ كبيرٌ في مقتل عثمان رضي الله عنه[٣] ، وسيأتي بإذن الله تعالى تفصيل ذلك .

ثامناً : ولاية البصرة :

استشهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وواليه على البصرة أبو موسى الأشعريُّ ، وكان المجتمع البصري في تلك الفترة قد بدأ يشهد تغيرات أساسية في بنيته السُّكَّانيَّة والاجتماعيَّة ، حيث أصبحت البصرة من أكبر المعسكرات الإسلاميَّة، إذ هاجر إليها العديد من القبائل ، وقام جندها بفتح الكثير من المواقع ، وبالتَّالي اكتسبت أهمِّيَّةً خاصَّةً في بداية عهد عثمان[٤] ، وقد انشغل النَّاس بأمورهم الخاصَّة إضافةً إلى الأمور العامَّة من جهادٍ ، وغيره ، وبالتَّالي فإنَّ الولاية على مثل هذه المنطقة، وكذلك ما يتَّبعها من أقاليم أخرى تعتبر مهمَّة ليست باليسيرة، وتتطلَّب درايةً خاصَّةً بإدارة أحوال تلك الولاية، ولعلَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه كان يحسُّ بمقدرة أبي موسى الخاصَّة على إدارة تلك الولاية ، حيث أوصى الخليفة بعده أن يترك أبا موسى في الولاية من بعده أربع سنوات بعد وفاته[٥] .

وقد كانت فترة ولاية أبي موسى للبصرة فترة جهادٍ ، وكفاح برز فيها دور أهل البصرة ، كما برز فيها أبو موسى رضي الله عنه بفتح العديد من المواقع في بلاد فارس ، إضافة إلى تثبيته لأقدام المسلمين في المواقع المفتوحة سابقاً ، والّتي حاول أهلها الانتقاض بعد وفاة عمر بن الخطَّاب

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٧٩) . وفتوح البلدان ، ص(٢١٧) .

(٢) الولاية على البلدان (١/ ١٧٩) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١/ ١٨٦) .

(٤) التَّنظيمات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في البصرة ، صالح العلي ، ص(١٤١) .

(٥) سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٣٩١) . والولاية على البلدان (١٨٦) .

رضي الله عنه ، فقام أبو موسى بغزوهم ، وتثبيت الإسلام في تلك الرُّبوع[(١)] ، وبالإضافة إلى دور أبي موسى في الفتوح فإنَّه قام بدورٍ مهمٍّ في تنظيم الرَّيِّ ، وحفر القنوات ، والأنهار في البصرة أثناء ولايته زمن الخليفة عثمان ، وقد قام بحفر قناةٍ لجلب مياه الشرب إلى البصرة اعتمد عليها النَّاس بعد ذلك في شربهم ، كما بدأ في مشاريع لحفر قنواتٍ أخرى ، إلا أنَّ عزله عن الولاية حال دون إتمامها[(٢)] ، فقام خليفته عبد الله بن عامر بإتمامها[(٣)] ، ولم تستمرَّ ولاية أبي موسى على البصرة طويلاً ، إذ قام عثمان بعزله سنة ٢٩هـ ـ كما ترجِّح معظم الرِّوايات ـ وعيَّن مكانه عبد الله بن عامر بن كريز[(٤)] .

ويورد المؤرِّخون عدَّة رواياتٍ حول عزل أبي موسى ، نستخلص منها : أنَّ هناك مشكلةً قامت بين أبي موسى وبين جند البصرة ، اختُلف في سببها ، وقد قدِمت مجموعةٌ من أهل البصرة إلى عثمان تحرِّضه على عزل أبي موسى قائلين له : ما كل ما نعلم نحبُّ أن تسألنا عنه فأبدلنا سواه ، قال عثمان : من تحبُّون ؟ فقالوا في كلِّ أحد عوضٌ عنه ، وطلب قومٌ من عثمان أن يولِّي عليهم قرشيّاً[(٥)] ، فعزل عثمان أبا موسى ، وولَّى مكانه عبد الله بن عامر ، وهنا تتجلَّى لنا حكمة أبي موسى ، وسعة صدره ، وطاعته لأمر الخليفة ، وأنَّه لم يكن يحرص على الولاية كما يظنُّ البعض ، فحينما بلغه عزله ، وتولية عبد الله بن عامر مكانه ، صعد المنبر ، وأثنى على عبد الله بن عامر ـ وكان شابّاً صغيراً عمره ٢٥ سنة ـ وكان ممَّا مدحه به أبو موسى قوله : قد جاءكم غلامٌ كريمُ العمَّات ، والخالات ، والجدَّات في قريشٍ ، يفيض عليكم المال فيضاً[(٦)] .

لقد استطاع عثمان رضي الله عنه في تلك الظُّروف الصَّعبة الّتي تمرُّ بها ولاية البصرة أن يعيِّن قائداً جديداً يستجيب له الأجناد ، وبالتَّالي توحَّدت صفوفهم أمام الأعداء ، فضلاً عن أنَّ هذا العزل تكريمٌ لأبي موسى من أن يهان من قبل بعض العوامِّ ممَّن تأثَّروا بالغوغاء ، وأفكار المتمرِّدين المنحرفة ممَّن حملوا في نفوسهم كراهيته ، والتَّشهير به ، والتفُّوا عليه[(٧)] ، وقد كانت ولاية البصرة تمرُّ بظروفٍ صعبةٍ حينما تولَّى ابن عامر ، ممَّا دفع عثمان رضي الله عنه إلى إجراء تغيير أساسيٍّ في إدارة الولاية ؛ إذ إنَّه ضمَّ أجناد البحرين وعمان إلى ابن عامر في البصرة

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٨٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٦٤) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥/ ٢٦٦) . وسير أعلام النُّبلاء (٣/ ١٩) .

(٧) الولاية على البلدان (١/ ١٨٩) .

حتَّى يعطيه سلطةً أقوى للوقوف أمام التَّحدِّيات الَّتي تواجهه في تلك الفترة .

وقد كان لهذا الدَّمج أثره الكبير على قوَّة ابن عامرٍ ، ونفوذه ، كما أنَّه أثَّر من ناحيةٍ أخرى على البصرة نفسها ، حيث أصبحت إحدى العواصم الإسلاميَّة المستقرَّة ، وزادت هجرة القبائل إليها أكثر من ذي قبل[١] ، وبالتَّالي زادت أعباء الولاية سواءٌ في الدِّيوان ، أو في تنظيم مختلف شؤون الولاية : الإداريَّة ، والماليَّة ، والأمنيَّة ، وغيرها .

وقد كانت لولاية البصرة ، وأجنادها ، ولابن عامرٍ نفسه فتوحٌ عظيمةٌ بدأت بعد ولايته مباشرةً ، وانتهت قبيل مقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه[٢] . وقد تمَّ بيانها عند حديثنا عن فتوحات عثمان رضي الله عنه ، وقد اكتسبت البصرة أيَّام ابن عامر مكانةً خاصةً بين الولايات الإسلاميَّة لفتت نظر الخليفة عثمان رضي الله عنه نتيجة فتوحها ، وتوسعها في مختلف المجالات ، فأصبحت مركزاً إدارياً مرموقاً[٣] ، وتدار منها العديد من المناطق الإسلاميَّة ، وكان ابن عامر مسؤولاً عن توزيع الأمراء في مختلف المناطق التَّابعة لولايته باتِّفاقٍ مسبقٍ مع الخليفة عثمان ، رضي الله عنه ، وبالتَّالي كانت مسؤوليَّاته عظيمةً ، وقد قام ابن عامر بتوزيع الأمراء على المناطق التَّابعة له بمجرَّد أن تولَّى الإمارة حيث اختار بعض القوَّاد ، والأمراء ، وعيَّنهم على تلك المناطق ، ومن أهمِّها : عُمان ، والبحرين ، وسجستان ، وخراسان ، وفارس ، والأهواز ، بما في هذه المناطق من مدنٍ مختلفةً ، ومناطق شاسعةٍ[٤] ، وكان يُجري تنقُّلاتٍ بين هؤلاء الأمراء ، والعمَّال من وقتٍ لآخر تبعاً للمصلحة في ذلك ، كما اشتهرت البصرة في أيَّامه ببيت مالها ؛ الَّذي زاد دخله في أيَّامه ، وكثرت مصروفاته ، وكان المسؤول عن بيت المال في أيَّام عمر زياد بن أبي سفيان ، وقد كان يلي بعض المشاريع من حفرٍ للأنهار ، وغيرها نيابةً عن ابن عامر[٥] ، وفي ولاية ابن عامر ضربت الدَّراهم في أنحاء فارس التَّابعة لولايته ، وعليها ألفاظ عربيَّةٌ في الفترة من سنة ٣٠ هـ حتى ٣٥ هـ[٦] .

وقد كان ابن عامر محبوباً لأهل البصرة عموماً منذ قدومه إليها ، ورغم ما أثير حوله من أنَّ

---

(١) التنظيمات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في البصرة ، ص(١٤١) .

(٢) الولاية على البلدان (١/ ١٨٩) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١/ ١٩٣) .

(٤) نهاية الأرب (١٩/ ٤٣٣) .

(٥) الولاية على البلدان (١/ ١٩٤) .

(٦) الدَّراهم الإسلامية ، وداد علي القزاز ، ص(١٤) .

عثمان ولاه ، لأنَّه قريبٌ له ، إلا أنَّ أهل البصرة تمسَّكوا به[١] .

ومن خلال هذا العرض تبيَّن : أن ولاية البصرة في عهد عثمان انحصرت بين رجلين هما أبو موسى الأشعريُّ ، وعبد الله بن عامر ، ولقد كان لكلا الواليين دوره الرَّئيسيُّ في ضبط أمور البصرة ، وما يتبعها[٢] .

تاسعاً : ولاية الكوفة :

كان على ولاية الكوفة حين بويع عثمان بالخلافة المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، وكان قد تولَّى في أواخر عهد عمر رضي الله عنه[٣] ، وقد قام عثمان رضي الله عنه بعزل المغيرة عن الكوفة وتعيين سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه مكانه ، وقد ذكر في سبب العزل : أنَّه كان بوصية من عمر رضي الله عنه ، حيث أوصى الخليفة من بعده أن يستعمل سعداً ؛ نظراً لأنَّ عمر عزله عن الكوفة في أواخر خلافته ، وقال : إنِّي لم أعزله عن سوءٍ ، ولا خيانةٍ ، وأوصي الخليفة بعدي أن يستعمله[٤] ، تولَّى سعد بن أبي وقاص على الكوفة ، وكان قرار التَّعيين مشتركاً بين سعد بن أبي وقَّاص ، وعبد الله بن مسعود ، سعدٌ على الصَّلاة والجند ، وابن مسعود على بيت المال[٥] ، وقد كان سعد بن أبي وقَّاص صاحب خبرةٍ في ولاية الكوفة ، وله معرفةٌ تامَّةٌ بأمورها وسكَّانها ، وثغورها ، وأجنادها ؛ نظراً لأنَّه كان مؤسِّسها في عهد عمر ، كما أنَّه وليها عدَّة سنوات ، فكان أخبر النَّاس بها ، وأعلمهم بأحوالها[٦] .

ومن الأعمال الّتي قام بها سعدٌ أثناء ولايته في عهد عثمان على الكوفة قيامه بزيارة بعض الثُّغور التَّابعة للكوفة ، ومنها (الرَّيُّ) وترتيب أمورها ، وضبطها سنة ٢٥هـ[٧] ، وكذلك قيامه بتعيين بعض الأمراء ، والعمَّال الجدد في (همذان) وما حولها ، ولم تطل فترة ولاية سعد بن أبي وقَّاص على الكوفة ؛ إذ حدث بينه وبين عبد الله بن مسعود خلافٌ ، وكان ابن مسعود على بيت المال ، فاقترض منه سعد شيئاً من الأموال إلى أجلٍ ، فجاء الأجل ، ولم يكن عند سعدٍ ما يسدُّ به ذلك القرض ، فجاءه ابن مسعود يطالبه بتسديد ذلك القرض ، فاشتدَّا في الكلام ،

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٩٤) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه (١/ ١٩٥) .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٣٩) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٥٠) . والولاية على البلدان (١/١٩٦) .

(٦) عثمان بن عفَّان لصادق عرجون ، ص(١٠٥) . والولاية على البلدان (١/١٩٦) .

(٧) الولاية على البلدان (١/١٩٧) .

واجتمع حولهما الناس ، فقرَّر عثمان عزل سعد ، وإبقاء ابن مسعودٍ ، فكانت عقوبة سعد العزل ، وعقوبة ابن مسعود الإقرار في العمل كما يقول الطَّبري[(١)] .

وهذه القصَّة تدلُّنا على تورُّع كلا الصَّحابيين ، وتدلُّ على حاجة سعدٍ إلى المال ، وعدم وجود ما يكفيه ، وأنَّه ـ لذلك ـ اضطر إلى الاقتراض من بيت المال ، كما تدلُّ على اجتهاد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في حفظ أموال المسلمين ، وإصراره على استرداد القرض من سعدٍ والي الكوفة ، وحاكمها ، وكانت ولاية سعدٍ على الكوفة سنةً ، وشهراً[(٢)] ، وبعد عزل سعد ولَّى عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط الَّذي كان قبل تعيينه على الكوفة قد عمل قائداً لجيش من جيوش أبي بكر في الأردن ، ثمَّ عمل لعمر على عرب الجزيرة[(٣)] .

وفي أواخر خلافة عمر، وأوائل خلافة عثمان كان الوليد أحد قوَّاد أجناد الكوفة، وقام بالجهاد في العديد من المواقع قائداً لتلك الأجناد[(٤)] ، فكان قبل تعيينه على ولاية الكوفة صاحب خبرةٍ بالكوفة ، وأجنادها ، وثغورها ومختلف شؤونها ، وكعادة الخلفاء الراشدين في تفضيل أصحاب الخبرة في المنطقة على غيرهم عند الحاجة إلى تعيين ولاةٍ جدد ، فقد وقع اختيار عثمان رضي الله عنه على الوليد بن عقبة لولاية الكوفة ، وكثيرٌ ممَّن كتبوا عن تعيين عثمان رضي الله عنه للوليد سواءٌ من المتقدِّمين ، أو من المتأخِّرين حاولوا اتِّهام عثمان في هذا التعيين ، فهم يقولون : إنَّ عثمان استعمل على الكوفة أخاه لأمِّه الوليد بن عقبة[(٥)] ، وهذا فيه غمزٌ مباشرٌ لعثمان رضي الله عنه[(٦)] ، وفي بداية ولاية الوليد كان يشترك معه عبد الله ابن مسعودٍ ، حيث كان والياً على بيت المال ؛ إلا أنَّ خلافاً حدث بين الوليد ، وعبد الله بن مسعودٍ ، على أمرٍ يتعلَّق بأموال الدَّولة ، ورفع النِّزاع إلى عثمان ليفصل فيما يراهُ ، فرأى عثمان رضي الله عنه أنَّ من المصلحة توحيد الولاية ، وبيت المال في يد الوليد ، وعزل عبد الله بن مسعودٍ ، وقد اعتقد : أنَّ المصلحة العامَّة تقتضي ذلك الضَّمَّ[(٧)] .

وقد بقي الوليد بن عقبة في الكوفة محبوباً من أهلها ، ليس على داره بابٌ[(٨)] ، يستقبل

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٥١) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٥/ ٢٥٠) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥/ ٢٥١) .
(٤) الولاية على البلدان (١/ ١٩٨) .
(٥) المصدر السابق نفسه .
(٦) انظر الاتهامات الَّتي ألقاها طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى (١/ ٩٤) .
(٧) عثمان بن عفَّان ، لصادق عرجون ، ص(١٠٨) .
(٨) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٥١) .

الناس في مختلف الأوقات ؛ ليحلَّ مشكلاتهم ، ويقوم بالواجبات الملقاة عليه ، إلى أن وقعت بعض الحوادث في الكوفة أوجدت بعض الحاقدين عليه بسبب موقفه الحازم في قضيَّة ابن الحيسمان الخزاعيِّ ؛ الَّذي قتله مجموعةٌ من شباب الكوفة ، فأقام الوليد بن عقبة بأمرٍ من عثمان رضي الله عنه حدَّ القصاص على هؤلاء الشباب المعتدين ، ومنذ تلك الحادثة : أخذ أولياء هؤلاء المجرمين ، وأقاربهم يروِّجون الشَّائعات على الوليد بن عقبة ، ويحاولون جاهدين أن يتصيَّدوا أخطاء الوليد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، واستطاع أولئك الموتورون تلفيق قضيَّةٍ ضدَّ الوليد ، وهي دعوى شربه الخمر ، الَّتي سبَّبت إقامة الحد عليه ، وعزله عن ولاية الكوفة ، وهذا ما أراده المتآمرون[1] ، وسيأتي تفصيل قضيَّة شرب الوليد بن عقبة للخمر عند حديثنا عن ولاة عثمان رضي الله عنه بإذن الله تعالى .

وبعد عزل الوليد أرسل عثمان إلى أهل الكوفة كتاباً جاء فيه : من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، سلامٌ ، أمَّا بعد : فإنِّي استعملت عليكم الوليد بن عقبة حتَّى تولت منعته، واستقامت طريقته، وكان من صالحي أهله، وأوصيته بكم ، ولم أوصكم به ، فلمَّا بدا لكم خيرهُ ، وكف عنكم شرَّه ، وغلبتكم علانيته ؛ طعنتم به في سريرته ، والله أعلم بكم ، وبه ، وقد بعثت عليكم سعيد بن العاص أميراً[2] .

وكانت شكاية أهل الكوفة للوليد وعزله حلقةً في سلسلةٍ طويلة من الشكايات ، والعزل من قِبَلِ بعض أهل الكوفة لأمرائهم[3] ، وقد غضب الكثير من أهل الكوفة لعزل الوليد ، وبعد عزل عثمان رضي الله عنه للوليد عن ولاية الكوفة عيَّن بعده سعيد بن العاص سنة ٣٠ هـ الَّذي كان مقيماً في المدينة ، فاتَّجه إلى الكوفة ، ورافقه وفدٌ من أهل الكوفة الَّذين قدموا على عثمان في شكاية الوليد ، وكان فيهم الأشتر النَّخعيُّ ، وغيره[4] ، فلمَّا وصل سعيد الكوفة ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : والله لقد بعثت إليكم ، وإنِّي لكارهٌ ! ولكنِّي لم أجد بُدّاً ؛ إذ أمرت أن أأتمر ، ألا إنَّ الفتنة قد أطلعت خطمها ، وعينيها ، والله لأضربنَّ وجهها حتَّى أقمعها ، أو تعييني ، وإنِّي الرَّائد نفسي اليوم . ثمَّ نزل عن المنبر[5] .

ومن خلال هذه الخطبة يتبيَّن لنا معرفة سعيد ببدايات الفتنة ، وإرهاصاتها الَّتي بدأت تظهر

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ٢٠١) .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٨٠) .

(٣) الولاية على البلدان (١/ ٢٠٦) .

(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٨٠) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥/ ٢٨٠) .

في الكوفة قبل ولايته ، وتهديده لأصحاب الفتنة ، وعزمه على القضاء على الفتنة الّتي استشعر بدايتها في الكوفة[١] ، واستطاع سعيد بن العاص أن ينظِّم أمور ولايته ، ويعيِّن الأمراء ، والولاة في مختلف الثُّغور التَّابعة للكوفة ويضبط أمورها[٢] ، وقام بغزوات ناجحةٍ تمَّ ذكرها عند حديثنا عن الفتوحات في عهد عثمان ، ثمَّ بدأت الفتنة تطلُّ برأسها في الكوفة سنة ٣٣ هـ ، وسيأتي الحديث عنها ـ بإذن الله تعالى ـ بالتفصيل ، ودبَّر الأشتر النَّخعيُّ مؤامرةً ضدَّ سعيد بن العاص ، وانخدع بها بعض عوامِّ الكوفة ، فقاموا مع الأشتر في رفض ولاية سعيدٍ ، والطَّلب من عثمان إبداله بغيره ، ولم يكن سعيد سوى والٍ من الولاة الّذين سبق لأهل الكوفة أن اعترضوا عليهم ، وطلبوا عزلهم قبل ذلك كسعد بن أبي وقاص ، والوليد بن عقبة ، وغيرهم ، وكان طلب خلعه مقروناً بثورةٍ حمل الغوغاء فيها السِّلاح ، وهي سابقةٌ خطيرةٌ في تاريخ الكوفة ، بل وفي تاريخ الدَّولة الإسلاميَّة كلِّها ، وليس فيها سببٌ حقيقي ، وإنَّما السَّبب الحقيقيُّ هو تطور الأوضاع ، والتَّغيُّر الّذي طرأ على نفوس الناس بتأثير دعاة الفتنة ، والخروج على عثمان ، وقد أصدر الخليفة عثمان رضي الله عنه أمراً بتولية أبي موسى الأشعريِّ على الكوفة ، وعزل سعيد بن العاص بناءً على طلب بعض أهل الكوفة ، وقد استهلَّ أبو موسى ولايته بخطبةٍ أمام أهل الكوفة ، قال فيها : أيُّها النَّاس ! لا تنفروا في مثل هذا ، ولا تعودوا لمثله ، الزموا جماعتكم ، والطَّاعة ، وإيَّاكم والعجلة ! اصبروا ، فكأنَّكم[٣] بأميرٍ . قالوا : فَصَلِّ بنا . قال : لا إلا على السَّمع والطَّاعة لعثمان بن عفَّان ، قالوا : على السَّمع ، والطَّاعة لعثمان[٤] .

وقد كتب عثمان إلى أهل الكوفة : بسم الله الرحمن الرَّحيم : أما بعد فقد أمَّرت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم من سعيدٍ ، ووالله لأفرشنَّكم عرضي ، ولأبذلن لكم صبري ، ولأستصلحنكم بجهدي ! فلا تدعوا شيئاً أحببتموه ، لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه ، لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ، أنزل فيه عندما أحببتم ؛ حتَّى لا يكون لكم عليَّ حجَّةٌ[٥] .

وقد استمرَّ أبو موسى رضي الله عنه والياً على الكوفة حتَّى قتل عثمان رضي الله عنه[٦] ، وهكذا نجد أنَّ ولاية الكوفة في خلافة عثمان رضي الله عنه قد تولَّى عليها خمسةُ ولاةٍ ابتداءً

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ٢٠٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٠٨) .
(٣) المراد : اصبروا فإنَّ معكم أميراً الآن إن سمعتم ، وأطعتم .
(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٣٩) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥/ ٣٤٣) .
(٦) المصدر السَّابق نفسه .

بالمغيرة بن شعبة ، وانتهاءً بأبي موسى الأشعريِّ ، وقد حفلت فترة الولاية لكلٍّ من هؤلاء الخمسة بالعديد من الحوادث الّتي برزت على ساحة الأحداث ، وكان لها تأثيرٌ مباشرٌ على مسيرة الدَّولة الإسلاميَّة ، وقد نمت الفتنة في الكوفة ، واشتهر عن أهلها تسلُّطهم على ولاتهم ، ورفضهم لهم في كثير من الأحيان مهما استرضوهم ، فقد شكوا سعد بن أبي وقَّاص ، وشكوا الوليد بن عقبة ، وطردوا سعيد بن العاص ، ولعلَّنا نتذكَّر هنا : أنَّهم أتعبوا عمر قبل عثمان ؛ حتَّى قال فيهم : من عذيري من أهل الكوفة ؟!

وقد كان لبعض أهل الكوفة دورٌ مباشرٌ ، ورئيسيٌّ في مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه . وجديرٌ بالذِّكر : أنَّه كانت هناك بعض الولايات المتفرِّعة من ولاية الكوفة كطبرستان ، وأذربيجان ، وبعض المناطق الأخرى شمالي بلادفارس[1] ، وممَّا يؤيِّد ارتباطها بالكوفة : أنَّ ولاة الكوفة ، ومنهم سعيد بن العاص هم الّذين كانوا يتولَّون الفتوح في نواحيها ، كما كانوا يؤدِّبون أهلها في حال عصيانهم ، وقد لعبت هذه الولايات الفرعيَّة دوراً مرتبطاً بدور الكوفة أيضاً إلى حدٍّ كبير[2] .

ومن خلال العرض السَّابق للولايات الإسلاميَّة في عهد عثمان يتبيَّن لنا أنَّ هناك ولاياتٍ تمتَّعت بالاستقرار طيلة عهد عثمان رضي الله عنه ، ومنها الولايات الواقعة في بلاد العرب ، كالبحرين ، واليمن ، ومكَّة ، والطَّائف ، وغيرها ، كما تمتَّعت الشَّام بالاستقرار أيضاً طيلة خلافة عثمان رضي الله عنه ، وأمَّا البصرة فقد شغل أهلها بالفتوح مع واليهم عبد الله بن عامرٍ ، وأمَّا مصر ، والكوفة فقد حدث فيهما الاضطراب في أواخر خلافة عثمان وبالتَّالي ولدت فيهما الفتنة ، وأقدم أناسٌ من أهلها على غزو المدينة ، وعلى قتل الخليفة عثمان رضي الله عنه بدلاً من غزو أعداء الإسلام[3] .

* * *

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ٢١٣) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٢١٤) .

المبحث الثَّاني

سياسة عثمان مع الولاة وحقوقهم وواجباتهم

أوّلاً : سياسة عثمان مع الولاة :

تولَّى عثمان رضي الله عنه الخلافة في بداية سنة ٢٤هـ ، وكان ولاة عمر رضي الله عنه ، ينتشرون في الأمصار الإسلامية ، وقد أقَرَّهم عثمان في ولاياتهم عاماً كاملاً ، ثمَّ باشر بعد ذلك العزل ، والتَّعيين في هذه الأمصار بمقتضى سلطته ، وحسب ما يراه في مصلحة المسلمين ، ولعلَّ عثمان في ذلك قد اتَّبع وصيَّة عمر رضي الله عنه الّتي أوصى فيها : ألا يُقَرَّ لي عاملٌ أكثر من سنةٍ ، وأقرُّوا الأشعريَّ أربع سنين[١] .

وكان عثمان رضي الله عنه في سياسته مع الولاة يعتمد على مشورة الصَّحابة في كثير من تصرُّفاته ، كما أنَّه قام بضمِّ بعض الولايات إلى بعضها ؛ لما يراه في مصلحة المسلمين ، ولذلك قد حدَّد الولاة إلى حدٍّ ما في بعض المناطق ، فقد ضمَّ البحرين إلى البصرة ، كما ضمَّ بعض ولايات الشَّام إلى بعضها الآخر نتيجةً لوفاة بعض الولاة ، أو طلبهم الإعفاء من العمل ، وقد كان عثمان رضي الله عنه دائم النُّصح لولاته بالعدل ، والرَّحمة بين النَّاس ، فكان أوَّل كتبه إلى ولاته بعد مبايعته خليفة للمسلمين : أمَّا بعد : فإنَّ الله أمر الأئمَّة أن يكونوا رعاةً ، ولم يتقدَّم إليهم أن يكونوا جباةً ، وإنَّ صدر هذه الأمَّة خُلقوا رعاةً ، ولم يُخلقوا جباةً ، وليوشكنَّ أئمتكم أن يصيروا جباةً ، ولا يكونوا رعاةً ، فإذا عادوا كذلك ؛ انقطع الحياء ، والأمانة ، والوفاء ، ألا وإنَّ أعدل السِّيرة أن تنظروا في أمور المسلمين ، وفيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثمَّ تثنُّوا بالذِّمَّة فتعطوهم الّذي لهم ، وتأخذوا بالّذي عليهم ، ثمَّ العدو الّذي تنتابون ، فاستفتحوا بالوفاء[٢] .

ونحن نرى من هذا : أنَّ عثمان حدَّد لولاته معالم السِّياسة ، الّتي يجب أن يسيروا عليها ، من إعطاء الحقوق للمسلمين ، ومطالبتهم بما عليهم من واجباتٍ ، وإعطاء أهل الذِّمَّة حقوقهم ، ومطالبتهم بما عليهم من واجباتٍ ، وبالوفاء حتَّى مع الأعداء ، وبالعدل في ذلك

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩١) .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٤٤) .

كلِّه ، وألا يكون همُّهم جباية المال[١] ، كما كان عثمان رضي الله عنه يكتب إلى عمَّاله ببعض التَّعليمات الخاصَّة في الأمور المستجدَّة ؛ الّتي تتعلَّق بإداراتهم للولايات ، إضافةً إلى كتبه العامَّة والّتي كان يصدر فيها تعليماتٌ محدَّدةٌ يلتزم بها الجميع ، ومن ذلك إلزامه النَّاس في الولايات بالمصاحف الّتي كُتبت في المدينة على ملأ من الصَّحابة، حيث أرسل مصاحف إلى كلٍّ من الكوفة، والبصرة، ومكَّة، ومصر، والشَّام، والبحرين، واليمن، والجزيرة ـ بالإضافة ـ إلى مصحف المدينة[٢] ، وقد أمر عثمان بجمع المصاحف الأخرى ، وإحراقها ، وذلك بموافقة الصَّحابة في المدينة ، كما ورد ذلك عن عليٍّ رضي الله عنه[٣] ، كما كان عثمان رضي الله عنه حريصاً على أن يتنافس الأمراء فيما بينهم في الجهاد ، وفتح بلدانٍ جديدةٍ ، فقد كتب إلى عبد الله بن عامر في البصرة ، وإلى سعيد بن العاص في الكوفة يقول : أيُّكما سبق إلى خراسان فهو أميرٌ عليها ، ممَّا دفع ابن عامر إلى فتح خراسان ، وسعيد بن العاص إلى فتح طبرستان[٤] .

وقد كان عثمان يشترط بعض الشُّروط على الولاة أحياناً ليضمن أن يكون تصرُّفهم في صالح المسلمين ، ومثال ذلك : أنَّ معاوية بن أبي سفيان كتب إلى عثمان يهوِّن عليه ركوب البحر إلى قبرص ، فكتب إليه عثمان : فإن ركبت البحر ، ومعك امرأتك ، فاركبه مأذوناً لك ، وإلا ؛ فلا . فركب البحر ، وحمل امرأته[٥] .

ثانياً: أساليب عثمان رضي الله عنه لمراقبة عمَّاله، والاطِّلاع على أخبارهم :

اتَّبع عثمان رضي الله عنه عدَّة أساليب لمراقبة عمَّاله، والاطلاع على أخبارهم؛ من ذلك:

١ـ حضوره لموسم الحجِّ :

كان عثمان يحرص على الحجِّ بنفسه ، ويلتقي بالحجَّاج ، ويسمع شكاياتهم ، وتظلُّمهم من ولاتهم ، كما أنَّه طلب من العمَّال أن يوافوه في كلِّ موسمٍ ، وكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمَّال في كلِّ موسمٍ ومن يشكوهم[٦] ، وكان ذلك استمراراً لما كان عليه الحال أيَّام عمر من لقاءٍ سنويٍّ بين الخليفة ، والولاة ، والرَّعية[٧] .

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ٢١٥) .

(٢) تاريخ المدينة (٣/ ٩٩٧) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣/ ٩٩٥ ، ٩٩٦) .

(٤) تاريخ اليعقوبيّ (٢/ ١٦٦) .

(٥) الولاية على البلدان (١/ ٢١٦) . والخراج وصناعة الكتابة ، ص(٣٠٦) .

(٦) الولاية على البلدان (١/ ٢١٦) نقلاً عن تاريخ الطَّبري .

(٧) المصدر السابق نفسه .

٢ـ سؤال القادمين من الأمصار والولايات :

وتعتبر هذه الطَّريقة من أيسر الطُّرق حيث إنَّها لا تكلِّف الخلفاء كثيراً ، كما أنَّها تأتي في كثيرٍ من الأحيان دون ترتيبٍ مسبقٍ ، وقد اشتهر عن الخلفاء الرَّاشدين الأربعة عملهم بهذه الطَّريقة ، وكان وجود الخليفة في المدينة المنوَّرة خلال عصور الخلفاء الثَّلاثة الأُوَل ممَّا يساعد الخليفة نظراً لكثرة الوافدين إلى المدينة للزِّيارة ، وخصوصاً أثناء موسم الحجِّ[١] .

٣ـ وجود أناس من أهل البلاد يكتبون إلى الخليفة :

فقد استقبل عثمان رضي الله عنه الكتب الَّتي أرسلها بعض الرَّعية من الأمصار إلى المدينة بما فيها من شكاوى ، فقد استقبل كتاباً أرسله أهل الكوفة إليه ، وكذلك كتاباً أرسله أهل مصر إليه ، كما استقبل كتباً أخرى أرسلها أناسٌ من الشَّام ، وقد اطَّلع عثمان على ما في هذه الكتب ، وعالج ما فيها[٢] .

٤ـ إرسال المفتِّشين إلى الولايات :

بعث عثمان رضي الله عنه العديد من المفتِّشين إلى بعض الولايات للاطِّلاع على أحوالها ، ومعرفة ما يشاع عن ولاته من ظلمٍ للرَّعية ، وقد جاء أولئك المفتِّشون بتقارير وافيةٍ عن أحوال أولئك الولاة[٣] ، فقد أرسل عمَّار بن ياسر إلى مصر ، ومحمَّد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، بالإضافة إلى إرساله رجالاً آخرين إلى أماكن أخرى[٤] .

٥ـ السَّفر إلى الولايات والاطلاع على أحوالها مباشرةً :

كان عثمان رضي الله عنه يزور مكَّة في موسم الحجِّ ، ويطَّلع على أحوالها ، ويقابل الولاة بها ، وحجَّاج الأمصار ، ويسأل عن أخبارهم ، وأحوالهم .

٦ـ طلب الموفدين من الولايات لسؤالهم عن أمرائهم ، وولاتهم :

كان الخلفاء الرَّاشدون في كثيرٍ من الأحيان يطلبون من الولاة أن يبعثوا إليهم بأناسٍ من أهل البلاد ؛ ليسألوهم ، وقد تكرَّر ذلك من عمر ، وعثمان ، وعليٍّ ، رضي الله عنهم ، أمَّا أبو بكرٍ فكان مشغولاً بأمورٍ جهاديةٍ منعته من ذلك ، كما كان لقصر مدَّة خلافته دورٌ في قلَّة هذه الحوادث[٥] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ١٢٢) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٢١٧) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٢٢) .

٧ـ استقدام الولاة وسؤالهم عن أحوال بلادهم :

وقد اشتهرت هذه الطَّريقة خلال عصر الخلفاء الرَّاشدين الأربعة ، وقد كانت الاتِّصالات المستمرة قائمة بين الخليفة عثمان ، وبين ولاته لبحث مختلف شؤون الدَّولة ، ومن أهمِّ هذه الاتصالات الاجتماع الّذي عقده عثمان مع ولاته في المدينة ، حيث دعا ولاة البصرة ، والكوفة ، والشَّام ، ومصر ، وغيرهم ، ودعا كبار الصَّحابة ، وعقد معهم اجتماعاً بحث فيه بوادر الفتنة التي بدأت تظهر ، وتعرَّف على آراء أولئك الولاة في الفتنة ، وكيفية علاجها ؛ فقد أدلى كلُّ والٍ من هؤلاء برأيه في علاج تلك الظَّاهرة[١] .

٨ ـ المراسلة مع الولاة :

وطلب التَّقارير منهم عن أحوال رعيَّتهم ، وأحوال بلادهم ، وقد اشتهرت هذه الطَّريقة خلال عصور الخلفاء الرَّاشدين الأربعة ، وكانت بالأحرى أهمَّ الطُّرق خلال عصر أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعليٍّ بن أبي طالب ، رضي الله عنهما[٢] .

هذه أهمُّ الأساليب الّتي اتبعها عثمان في متابعة ، ومراقبة ولاته ، وقد كان رضي الله عنه حريصاً على قيام الولاة بواجباتهم ، وفي حالة وقوع أيِّ مخالفةٍ منهم ، فإنَّه يؤدِّبهم على ذلك الخطأ إذا وصل إلى علمه ، وإذا ثبت عليه ارتكابه ؛ شرع في عقوبته دون النَّظر إلى حسن ظنِّه في العامل ، ومن ذلك جلده للوليد بن عقبة حدَّ الخمر بعد اكتمال شروطه ، وبغضِّ النظر عن صدق الشُّهود من عدمه[٣] ، وقام بعد جلده بعزله عن ولاية الكوفة[٤] ، وقد درج عثمان رضي الله عنه أن يكتب إلى أهل الأمصار عن تعيين والٍ جديدٍ عليهم ، ليوصيهم به ، كما أوصاه بهم ، وكذلك كان يكتب في كثيرٍ من الأحيان إلى العامَّة في الأمصار ناصحاً ، حتَّى يساعدوا الولاة في تسيير أمور الرَّعية ، ومن ذلك الكتاب الّذي أرسله عثمان إلى الأمصار ، يقول فيه : أمَّا بعد : فإنِّي آخذ العمال بموافاتي في كلِّ موسمٍ ، وقد سلَّطت الأمَّة منذ ولِّيت على الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، فلا يرفع عليَّ شيءٌ ، ولا على أحدٍ من عمَّالي إلا أعطيته ، وليس لي ، ولا لعيالي حقٌّ قِبَلَ الرَّعية إلا متروكٌ لهم ، فيا من ضُربَ سرّاً ، وشُتِم سرّاً . . . من ادَّعى شيئاً من ذلك ؛ فليوافِ الموسم ، فيأخذ بحقِّه حيث كان منِّي ، أو من عمَّالي . . . أو تصدَّقوا فإنَّ الله يجزي المتصدِّقين . فلمَّا قرئ في الأمصار أبكى النَّاس ، ودعوا لعثمان[٥] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ١٢٣) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٢٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٢٦) .

(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٢١٧) .

(٥) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٤٩) .

ثالثاً : حقوق الولاة :

استقرَّ في عهد الخلفاء الرَّاشدين بأنَّ للولاة حقوقاً مختلفةً ، يتَّصل بعضها بالرَّعية ، وبعضها بالخليفة ، بالإضافة إلى حقوقٍ أخرى متعلقةٍ ببيت المال ، وكلُّ هذه الحقوق الأدبيَّة ، أو الماديَّة تهدف بالدَّرجة الأولى إلى إعانة الولاة على القيام بواجباتهم ، وخدمة المصلحة العامَّة ، ومن أهمِّ هذه الحقوق :

١ـ الطَّاعة في غير معصية الله :

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

قال القرطبيُّ : لمَّا تقدَّم إلى الولاة في الآية المتقدِّمة ، وبدأ بهم ، فأمرهم بأداء الأمانات ، وأن يحكموا بين النَّاس بالعدل ، تقدَّم في هذه الآية ، فأمر الرَّعية بطاعته جلَّ وعلا أوَّلاً وهي امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ثمَّ بطاعة رسوله ثانياً فيما أمر به ، ونهى عنه ، ثمَّ بطاعة الأمراء ثالثاً على قول الجمهور ، وأبي هريرة ، وابن عباسٍ ، وغيرهم[١] ، وفي العهد الرَّاشديِّ خصوصاً ، والمجتمع الإسلاميِّ عموماً الشَّريعة فوق الجميع ، يخضع لها الحاكم ، والمحكوم ، ولهذا فإنَّ طاعة الحكام مقيَّدةٌ دائماً بطاعة الله ، ورسوله ، كما قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة في المعصية ، إنَّما الطَّاعة في المعروف »[٢] .

٢ـ بذل النَّصيحة للولاة :

من منطلق الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وهو الأساس الَّذي تقرُّه الأمَّة بأكملها ، والَّذي وردت الأوامر به من خلال الآيات القرآنيَّة والأحاديث النَّبويَّة الَّتي تحدَّثت عن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر على وجه العموم ، ومنها ما خصَّ الولاة به ، حيث أمرت الأحاديث النَّبويَّة ببذل النَّصيحة لهم ، وقد دأب الخلفاء الرَّاشدون الأربعة على الكتابة لولاتهم باستمرارٍ يبذلون لهم النَّصيحة ، والنُّصوص الواردة في هذه كثيرةٌ ، يصعب حصرها[٣] .

٣ـ يجب على الرَّعية للوالي إيصال الأخبار الصَّحيحة إليه :

والصِّدق في ذلك سواءٌ ما يخصُّ أحوال العامَّة ، أو ما يخصُّ أخبار الأعداء ، أو ما كان متعلقاً بعمَّال الوالي ، وموظفيه ، والعجلة في ذلك قدر المستطاع خصوصاً ما كان متعلقاً

---

(١) تفسير القرطبيِّ (٥/٢٥٩) .

(٢) البخاريُّ ، كتاب الأحكام رقم (٧١٤٥) .

(٣) الولاية على البلدان (٢/٥٦) .

بالأمور الحربيَّة ، وأخبار الأعداء ، وما يتعلَّق بخيانات العمَّال ، وغير ذلك ، من منطلق الاشتراك في المسؤوليَّة مع الوالي في مراعاة المصلحة العامَّة للأمَّة[١] .

٤ـ مؤازرة الوالي في موقفه :

وعندما اندلعت الفتنة ، وطالب أصحابها من عثمان عزل بعض ولاته ؛ رفض عثمان ذلك ، وكان هذا التَّعضيد يخدم الهدف العامَّ للدَّولة الإسلاميَّة ، ويمنع الاضطراب ، ولا يعني ذلك عدم الالتفات إلى الشَّكاوى ، ومؤازرة الولاة بدون تحقُّق ، بل إنَّ هذا التَّعضيد من الخلفاء إنَّما يأتي بعد تحقُّق وتثبُّت من تلك الشِّكايات ، وبعد محاسبةٍ دقيقةٍ قد تتطلَّب إرسال لجانٍ خاصَّةٍ من بعض الصَّحابة للتَّحقيق في تلك القضايا ، وكما أنَّ المؤازرة للوالي واجبةٌ من قبل الخليفة ، فهي كذلك واجبةٌ من قبل الرَّعية ، وأنَّ على النَّاس احترامهم ، وتقديرهم[٢] . وإن كان عثمان رضي الله عنه قد عزل بعض الولاة ، فذلك لما رآه في مصلحة الرَّعية .

٥ـ احترامهم بعد عزلهم :

ومن ذلك مافعله عثمان مع أبي موسى الأشعريِّ ، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما بل نلاحظ : أنَّ عثمان استشار عمرو بن العاص في مسائل الدَّولة الكبرى بعد عزله ، وهذا احترامٌ فائقٌ من عثمان رضي الله عنه لمن عزلهم من الولاة .

٦ـ مرتَّبات الولاة :

ومن حقوق الولاة مرتَّباتهم ، الَّتي يعيشون عليها ، ومبدأ الأرزاق ، والرَّواتب للعمَّال متَّفق عليه بين الخلفاء الرَّاشدين اقتداءً بما فعله الرَّسول ﷺ ، ولئن كانت الرِّوايات قد اقتصرت على ذكر مرتَّبات بعض العمَّال فقط ، فإنَّ المفهوم : أنَّ جميع العمال كانت لهم مرتَّباتٌ خلال عصور الرَّاشدين ، ومعظم الرِّوايات الَّتي وردت في هذا الموضوع كانت تركِّز بالدَّرجة الأولى على عصر عمر بن الخطَّاب ، حيث ورد ذكر مقدار أرزاق بعض الولاة في عصره ، وقد مضى عثمان وعليٌّ رضي الله عنهما على سيرة من سبقهما من الخلفاء في فرض الأرزاق للعمَّال ، والولاة ، إلا أن عصر عثمان رضي الله عنه كان على ما يبدو أكثر توسعاً في بذل الأعطيات للنَّاس عموماً ، ومن ضمنهم الولاة ، نظراً لزيادة الدَّخل في بيت المال نتيجة الفتوح الواسعة الَّتي قام بها ولاة عثمان في المشرق وفي أرمينية ، وإفريقية ، وغيرها ، بل إنَّ عثمان رضي الله عنه كان يعطي مكافآتٍ مقطوعةً للعمَّال خاصَّةً ، وبارزةً ، فقد أعطى لعبد الله بن سعد بن أبي السَّرح خمس الخمس من الغنيمة جزاء فتوحه في شمال إفريقية ، حيث قال له : إن فتح الله عليك غداً

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٨) .

إفريقية ؛ فلك ما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً[١] .

وعلى كلِّ حال فإنَّ إعطاء الأرزاق للعمَّال ، وإغناءهم عن النَّاس كان مبدأً إسلاميّاً فرضه رسول الله ﷺ ، وسار عليه الخلفاء الرَّاشدون من بعده ، حتَّى أغنوا العمَّال عن أموال النَّاس ، وفرَّغوهم للعمل ، ولمصلحة الدَّولة[٢] .

رابعاً : واجبات الولاة :

١ ـ إقامة أمور الدِّين ، ومن أبرز تلك الواجبات :

أ ـ نشر الدِّين الإسلاميِّ بين النَّاس :

حيث اختصَّ ذلك العصر بفتوحاتٍ عظيمةٍ ، اقتضت من الولاة العمل على نشر الدِّين في البلاد المفتوحة مستعينين بمن معهم من الصَّحابة ، وقد كان الولاة يقومون بهذه المهمَّة مع وجود مَنْ يساعدهم في بداية الفتوح في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، ثمَّ بدأت الأمصار تعتمد على معلِّمين ، وفقهاء قدموا لهذه المهمَّة بعد التوسُّع ، وبناء الأمصار في عهد عمر ، وقد تأكَّد وجود المعلِّمين بعد ذلك خلال الفترة الأخيرة من خلافة عمر ، وخلال فترة خلافة عثمان ، وعليٍّ ، وذلك لكثرة السُّكان في الأمصار وكثرة طلاب العلم وانشغال الولاة بأمورٍ مختلفةٍ ، وتوسُّع الولايات حيث كانت تتبع الولاية الواحدة العديد من الأمصار التي كان النَّاس فيها بحاجةٍ إلى فقهاء ، ومعلِّمين[٣] .

ب ـ إقامة الصَّلاة :

كان الخليفة نفسه طيلة عصر الخلفاء الرَّاشدين الأربعة هو الّذي يقيم صلاة الجمعة ، والجماعة ، والأعياد في البلد الّذي يقيم فيه ، ويخطب في النَّاس الجمعة ، والأعياد ، والمناسبات الأخرى ، وكذلك نوَّابه يقومون بهذه المهمَّة في أمصارهم ، وطيلة عهد الخلفاء الرَّاشدين كان الولاة يخطبون في النَّاس بأنفسهم ، ويؤمُّونهم في الصَّلاة[٤] .

ج ـ حفظ الدِّين وأصوله :

كان الخلفاء الرَّاشدون بعد وفاة الرَّسول ﷺ يشعرون بعظم الواجب الملقى عليهم في حفظ الدِّين على أصوله الصَّحيحة الّتي نزلت على رسول الله ﷺ ، وكانوا يعملون جاهدين في إحياء سنَّة الرَّسول ، والقضاء على البدع ، والعمل على احترام دين الله ، واحترام رسوله ﷺ ، وردّ

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٥٢) .

(٢) الولاية على البلدان (٢/ ٦٤) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢/ ٦٦) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢/ ٦٧) .

كيد مَنْ يحاولون الدَّسَّ على هذا الدِّين ، وقد عمل عثمان رضي الله عنه على كتابة المصحف الشَّريف وإرسال نسخ منه إلى الأمصار ، وأمر ولاته بإحراق ما لدى النَّاس من مصاحف أخرى من قبيل المحافظة على أهمِّ أصول الدِّين ، وهو القرآن الكريم[(١)] ، وقد بذل ولاة عثمان جهوداً كبيرةً في محاربة السَّبئيَّة ؛ الّذين جاؤوا بآراء غريبةٍ على الإسلام ، وضيَّقوا عليهم ، وطاردوهم[(٢)] . وعلى العموم فإنَّ المحافظة على الدِّين ، واحترامه كان من أهمِّ الواجبات الموكلة إلى الولاة[(٣)] .

د ـ تخطيط وبناء المساجد :

حينما وصل الرَّسول ﷺ إلى قُباء ؛ قام ببناء أوَّل المساجد في الإسلام ، وبعد وصوله إلى المدينة بدأ الرَّسول بناء مسجده فيها ، وحينما كان الرَّسول يبعث بالولاة إلى البلدان كان هؤلاء الولاة يقومون ببناء المساجد فيها ، واستمرَّ الخلفاء الرَّاشدون بعد ذلك في بناء المساجد في البلدان ، والأمصار الّتي فتحها المسلمون ، وإن كان الولاة لم يقوموا بتأسيس جميع هذه المساجد ، فإنَّ لهم دوراً في إنشاء المساجد الرَّئيسيَّة في معظم البلدان التَّابعة لولاياتهم ، وخصوصاً الجوامع منها[(٤)] .

هـ ـ تيسير أمور الحجِّ :

كان الولاة على البلدان في صدر الإسلام مسؤولين عن تيسير أمور الحجِّ في ولاياتهم ، وتأمين سلامة الحجَّاج منها ، فقد كان الولاة يعيِّنون الأمراء على قوافل الحجِّ ، ويحدِّدون لهم أوقات السَّفر ، حيث لا يغادر الحُجَّاج بلدانهم إلا بإذن الوالي ، ولم يكتف بعض الأمراء بأمور التَّرتيب بل نجد منهم مَنْ عمل على تأمين المياه في الأماكن الّتي يسلكها الحجَّاج من ولايته ، فهذا عبد الله بن عامر بن كريز أجرى المياه في طريق حجَّاج البصرة حينما كان عاملاً عليها لعثمان بن عفَّان ، حيث أوجد المياه في الطَّريق من البصرة إلى مكَّة[(٥)] ، وأكَّد الفقهاء بعد ذلك أن تسيير الحُجَّاج عملٌ من مهام الوالي من بلده . يقول الماورديُّ : أمَّا تسيير الحجيج ؛ فداخلةٌ في أحكام إمارته ؛ لأنَّه من جملة المعونات الّتي تنسب إليه[(٦)] .

---

(١) تاريخ المدينة (٣/ ٩٩٦ ـ ٩٩٩) .

(٢) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة ، ص(٢١٤) .

(٣) الولاية على البلدان (٢/ ٦٩) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه (١/ ١٩٢) .

(٦) الأحكام السلطانيَّة ، ص(٣٣) .

و ـ إقامة الحدود الشرعية :

إنَّ إقامة الحدود على المخالفين لأوامر الله ، وسنَّة رسوله ﷺ واجبٌ دينيٌّ ملقى على الولاة ، وهو من أهم الأمور الموكلة إليهم ، سواءٌ منها الحدود المتعلِّقة بمن يتعرَّض لمنافع المسلمين العامَّة ، أو من يتعرَّض بالضَّرر لأقوامٍ معيَّنين[١] ، وقد قام عثمان وولاته بإقامة الحدود الشَّرعية في عهده ، رضي الله عنه .

٢ ـ تأمين النَّاس في بلادهم :

المحافظة على الأمن في الولاية من أعظم الأمور الموكلة إلى الوالي ، وفي سبيل تحقيق ذلك فإنَّه يقوم بالعديد من الأمور ، أهمُّها : إقامة الحدود على العصاة ، والفسَّاق[٢] ، ممَّا يحدُّ من الجرائم الَّتي تهدِّد حياة النَّاس ، وممتلكاتهم ، وبالتَّالي تقل الحوادث الأمنيَّة من القتل ، أو السَّرقة ، أو قطع الطَّريق ، وما إلى ذلك ، بل الأمر أيضاً يشمل ما يلقيه النَّاس من أقوالٍ ضدَّ بعضهم البعض من قذفٍ، وغيره، فإنَّ إقامة الحدِّ فيها يمنع من الاعتداء الأدبيِّ على النَّاس في أعراضهم ، ومحارمهم، ولم يقتصر الأمر على تأمين النَّاس بعضهم من بعضٍ، بل إنَّ العمَّال وبأمرٍ من الخلفاء يعملون على تأمين رعاياهم من الحشرات ، والهوامِّ ، كالعقارب ، وغيرها ، يقول البلاذريُّ : كتب عامل نصيبين إلى معاوية ؛ وهو عامل عثمان على الشَّام ، والجزيرة يشكو إليه : أنَّ جماعةً من المسلمين ممَّن معه أصيبوا بالعقارب ، فكتب إليه يأمره أن يوظِّف على أهل كلِّ حيِّزٍ من المدينة عدَّةً من العقارب مسمَّاةً في كلِّ ليلةٍ ، ففعل ، وكانوا يأتونه بها ، فيأمر بقتلها[٣] .

٣ـ الجهاد في سبيل الله :

إنَّ السِّمة العامَّة لعهد الخلفاء الرَّاشدين : أنَّ الولاة هم قادة الجهاد في تلك البلدان ، كما أنَّ الولاة في عهد عثمان رضي الله عنه كان لهم دورٌ كبيرٌ في الفتوح ، ومنهم عبد الله بن عامر بن كريز ، والمغيرة بن شعبة ، وأبو موسى الأشعريُّ ؛ الَّذين واصلوا الفتوح في المشرق ، ومثل عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح الَّذي واصل الفتوح في شمال إفريقية ، ومعاوية بن أبي سفيان الَّذي واصل الفتوح في نواحي أرمينية ، وبلاد الرُّوم .

وهكذا فإنَّنا نرى : أنَّ الأمراء في عهد الخلفاء الرَّاشدين كانوا مع إدارتهم لبلادهم مجاهدين لنواحي العدوِّ ، ولم يمنعهم ذلك من القيام بأعمالهم الموكلة إليهم ، ولا شكَّ : أنَّ الجهاد كان

---

(١) السِّياسة الشَّرعية ، لابن تيمية ، ص(٦٦) .

(٢) الولاية على البلدان (٢/ ٧١) .

(٣) فتوح البلدان ، ص(١٨٣) .

مصحوباً بعمليَّات معيَّنةٍ ، تخدم الشُّؤون العامَّة له ، وقد تحدَّثت المصادر التَّاريخيَّة عن أهم هذه الأعمال الَّتي جرت من قبل الأمراء ، منها :

أ ـ إرسال المتطوعين إلى الجهاد :

فقد كان ولاة اليمن ، والبحرين ، ومكَّة ، وعُمَان يبعثون بالمجاهدين خلال عهد أبي بكرٍ ، وعمر ، وعثمان رضي الله عنهم[(١)] .

ب ـ الدِّفاع عن الولاية ضدَّ الأعداء :

كان ولاة الشَّام يدافعون الرُّوم طيلة عهد الخلفاء الرَّاشدين ، وكذلك الحال عند ولاة العراق ؛ الَّذين دافعوا الفرس حتَّى تمكَّنوا من قتل آخر ملوكهم في عصر الخليفة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه .

جـ ـ تحصين البلاد :

كان عثمان رضي الله عنه يأمر بتحصين السَّواحل ، وشحنها ، وإقطاع القطائع لمن ينزلها من المسلمين للمساعدة في شحنها بالرِّجال[(٢)] .

د ـ تتبع أخبار الأعداء :

فقد قام الولاة بتتبُّع أخبار الأعداء وتوجيه الضَّربات الموجعة إليهم ، واستطاعوا أن يخترقوا صفوفهم ، ويزرعوا عيوناً تابعةً لهم .

هـ ـ إمداد الأمصار بالخيل :

كانت الخيل ذات أهمِّيةٍ خاصَّةٍ في الجهاد ، وقد اهتمَّ المسلمون بتربيتها منذ أيَّام الرسول ﷺ واعتنوا بها عنايةً خاصَّةً ، وقد وضع عمر سياسةً عامَّة في الدَّولة لتوفير الخيل اللازمة للجهاد في الأمصار الإسلاميَّة حسب حاجتها[(٣)] ، وسار عثمان رضي الله عنه على نفس السِّياسة العمريَّة في اهتمامه بالخيل ، فقد كانت هذه الخيول مجهَّزةً للدِّفاع الفوريِّ عن الدَّولة الإسلاميَّة .

و ـ تعليم الغلمان ، وإعدادهم للجهاد :

اهتمَّ الخلفاء الرَّاشدون بتربية الأولاد ، وتعليمهم ما يفيدهم في حياتهم الجهاديَّة مستقبلاً .

ز ـ متابعة دواوين الجند :

سار عثمان رضي الله عنه على نهج السِّياسة العمريَّة في اهتمامه بدواوين الجند ، وقد اهتمَّ

---

(١) الولاية على البلدان (٢/ ٧٢) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٧٤) .

رضي الله عنه اهتماماً خاصّاً بدواوين الأمصار ؛ لاعتقاده بأنّ أهل الأمصار أحوج النّاس للضّبط ، خصوصاً القريبة من الأعداء ، وهي الأمصار الّتي تحتاج إلى الجنود باستمرار ، وقد كان الولاة على البلدان مسؤولين مباشرة عن دواوين الجند رغم وجود بعض الموظّفين الآخرين ؛ الّذين يتولّون مهمّتها ، ولكن باعتبار أنّ هؤلاء الولاة هم أمراء الحرب ؛ فقد كانت مسؤوليّتهم عن الدّواوين في بلدانهم كمسؤوليّة الخليفة باعتبارهم نواباً[١] .

ح ـ تنفيذ المعاهدات :

إنّ الفتوح الإسلاميّة في عهد الخلفاء الرّاشدين صاحبتها مراسلاتٌ مع الأعداء ، ومعاهداتٌ ، ومصالحاتٌ كثيرةٌ بين المسلمين وأهل البلاد المفتوحة ، وقد كان الأمراء على البلدان بصفتهم قادة الجند مسؤولين مباشرةً عن عقد مثل هذه المصالحات ، وعن تنفيذها[٢] .

٤ ـ بذل الجهد في تأمين الأرزاق للنّاس :

اتّبع الخلفاء الرّاشدون منذ عصر أبي بكرٍ الصّدّيق رضي الله عنه طريقةً جديدةً لتوزيع الأعطيات على المسلمين من موارد بيت المال المختلفة ، وقد كانت في البداية غير محدودةٍ بأوقاتٍ معيّنةٍ ، ولكن في عهد عمر رضي الله عنه تغيّرت بعد وضعه للدّواوين في الأمصار المختلفة ، حيث بدأ توزيع الأعطيات يأخذ شكلاً دوريّاً منتظماً ، سار عليه عثمان رضي الله عنه ، ولم يكتف الخلفاء وولاتهم في العهد الرّاشدي بتأمين الطّعام ، ومراقبة الأسواق فقط ، بل إنّ السّكن ، وتوزيعه كان من المهامّ الموكلة لأمراء البلدان ، كما كان الأمراء يشرفون على تقسيم البيوت في المدن المفتوحة[٣] .

٥ ـ تعيين العمال والموظّفين :

كان تعيين العمال ، والموظّفين في الوظائف التّابعة للولاية في كثير من الأحايين من مهامّ الوالي ؛ حيث إنّ الولاية في الغالب تتكوّن من بلد رئيسيٍّ إضافة إلى بلدان ، وأقاليم أخرى تابعةٍ للولاية ، وهي بحاجةٍ إلى تنظيم أمورها ، فكان الولاة يعيّنون من قبلهم عمالاً وموظّفين في تلك المناطق ، وفي عصر عثمان رضي الله عنه أصبح هؤلاء العمّال التّابعون للولاة يحكمون مناطق كبيرة ، نظراً لتوسّع الولايات نتيجة الفتوح ، وانضمام أقاليم كبيرةٍ بأكملها إلى ولاياتٍ كانت

---

(١) المصدر السّابق نفسه (٢/ ٧٥) .

(٢) المصدر السّابق نفسه (٢/ ٧٧) .

(٣) المصدر السّابق نفسه (٢/ ٧٩) .

محدَّدةً في السَّابق ، كالبصرة ، والكوفة ، والشَّام ، وغيرها ، وبالتَّالي فإنَّ توزُّع العمَّال ، وإداراتهم ، وتنظيمهم كان مهمَّةً كبيرةً ، من المهامِّ الّتي يقوم بها ولاة البلدان .

٦ـ رعاية أهل الذِّمَّة :

كانت رعاية أهل الذِّمَّة ، واحترام عهودهم ، والقيام بحقوقهم الشَّرعيَّة ، ومطالبتهم بما عليهم للمسلمين من واجباتٍ ، وتتبُّع أحوالهم ، وأخذ حقوقهم ممَّن يظلمهم انطلاقاً من الأوامر الشَّرعيَّة في هذا الجانب من واجبات الوالي(١) .

٧ـ مشاورة أهل الرَّأي في ولايته :

سار الخلفاء على نهج الرَّسول ﷺ في مشاورة أهل الرَّأي من الصَّحابة ؛ حيث كانوا يعقدون مجالس لكبار الصَّحابة ، يستشيرونهم في مختلف الأمور(٢) ، كما كانوا يأمرون ولاتهم باستشارة أهل الرَّأي في بلادهم ، وكان الولاة يطبِّقون ذلك ويعقدون مجالس للنَّاس لأخذ آرائهم(٣) .

٨ ـ النظر في حاجة الولاية العمرانيَّة :

اشتهر عن الخلفاء الرَّاشدين وولاتهم عنايتهم بحاجة السُّكان في النَّواحي العمرانيَّة والزِّراعيَّة ، وفي عهد عثمان رضي الله عنه قام عبد الله بن عامر واليه على البصرة بحفر الآبار ، والعيون ليس في ولاية البصرة فحسب ، بل في أماكن أخرى عديدةٍ(٤) .

٩ ـ مراعاة الأحوال الاجتماعيَّة لسكَّان الولاية :

كان الولاة من منطلق تعاليم الإسلام الشَّاملة يراعون هذا الجانب بكلِّ ما فيه من تعليمات ، إلا أنَّ ولاة ذلك العصر ، وبتوجيهٍ من الخلفاء الرَّاشدين ، قاموا ببعض الأعمال الاجتماعيَّة الّتي يصعب أن يقوم بها مَنْ هُمْ في مثل منصبهم ، كما حرص الخلفاء على أن يُنزلوا النَّاس على منازلهم ، وأن يحترم الولاة أهل الشَّرف ، والسَّابقة في الإسلام ، ومن ذلك ، أنَّ عامل عثمان على الكوفة كتب إليه يشكو من غلبة الأعراب ، والرَّوادف على أهل الشَّرف ، والبلاء ، والسَّابقة في الإسلام(٥) ، فكتب إليه عثمان : أمَّا بعد : ففضِّل أهل السَّابقة ، والقدمة ممَّن فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحقِّ ، وتركوا

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٨٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٨٢) . وتاريخ الطَّبري (٥/ ٢٨٠) .

القيام به ، وقام به هؤلاء ، واحفظ لكلٍّ منزلته ، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحقِّ ، فإنَّ المعرفة بالنَّاس بها يصاب العدل[١] .

١٠ـ أوقات عمل الوالي :

اشتُهر عن الوليد بن عقبة والي عثمان على الكوفة : أنَّه لم يكن لداره بابٌ ، وأنَّه كان يستقبل النَّاس في جميع الأوقات ، وهذا يدلُّ على تمتُّع النَّاس بحرِّيَّة مراجعة الأمير من غير حرج متى ما أرادوا ذلك لحاجةٍ[٢] ، فقد كان للوالي قسمٌ تابعٌ لبيته مفتوحٌ للناس متى أرادوا المجيء إليه ، مفصولٌ عن أهله ، وأولاده .

* * *

---

(١) الولاية على البلدان (٢/ ٨٢) .
(٢) المصدر السابق نفسه .

المبحث الثَّالث

حقيقة ولاة عثمان رضي الله عنه

يكثر المؤرِّخون من الحديث عن محاباة عثمان أقاربه، وسيطرتهم على أزمَّة الحكم في عهده، حتَّى أثاروا عليه نقمة كثيرٍ من النَّاس، فثاروا ناقمين عليه إطلاقه يد ذوي قرباه في شؤون الدَّولة[١]، وأقارب عثمان الّذين ولاهم رضي الله عنه أوَّلهم معاوية، والثَّاني عبد الله بن أبي السرح، والثَّالث الوليد بن عقبة، والرَّابع سعيد بن العاص، والخامس عبد الله بن عامر، هؤلاء خمسة ولاهم عثمان، وهم من أقاربه، وهذا في زعمهم مطعنٌ عليه، فلننظر أوَّلاً من هم ولاة عثمان رضي الله عنه، هم: أبو موسى الأشعريُّ، والقعقاع بن عمرو، وجابر المزنيُّ، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد، وأبو الأعور السُّلميُّ، وحكيم بن سلامة، والأشعث بن قيس، وجرير بن عبد الله البجلي، وعيينة بن النَّهاس، ومالك بن حبيب، والنُّسير العجلي، والسَّائب بن الأقرع، وسعيد بن قيس، وسلمان بن ربيعة، وخنيس بن حبيش، والأحنف بن قيس، وعبد الرَّحمن بن ربيعة، ويعلى بن مُنْيَة، وعبد الله بن عمرو الحضرمي، وعليُّ بن ربيعة بن عبد العزَّى، هؤلاء هم ولاة عثمان رضي الله عنه.

فلو أخذنا إحصائية لوجدنا: أنَّ عدد الولاة ستة وعشرون والياً، ألا يصح أن يكون خمسة من بني أميَّة يستحقُّون الولاية وبخاصَّةٍ إذا علمنا: أنَّ النَّبيّ ﷺ كان يولِّي بني أميَّة أكثر من غيرهم؟ ثمَّ يقال بعد ذلك: إنَّ هؤلاء الولاة لم يكونوا كلُّهم في وقتٍ واحدٍ، بل كان عثمان رضي الله عنه قد ولَّى الوليد بن عقبة، ثمَّ عزله، فولَّى مكانه سعيد بن العاص، فلم يكونوا خمسةً في وقتٍ واحدٍ، وأيضاً لم يُتوفَّ عثمان إلا وقد عزل أيضاً سعيد بن العاص، فعندما تُوفي عثمان لم يكن من بني أميَّة من الولاة إلا ثلاثة وهم: معاوية، وعبد الله بن سعد بن أبي السَّرح، وعبد الله بن عامر بن كريز فقط، عزل عثمان الوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص، ولكنَّه عزلهما من أين؟ من الكوفة الّتي عزل منها عمر سعد بن أبي وقاص، الكوفة الّتي لم ترض بوالٍ أبداً، إذاً عَزْلُ عثمان رضي الله عنه لأولئك الولاة لا يعتبر مطعناً فيهم؛ بل مطعن في المدينة الّتي وُلُّوا عليها[٢].

---

(١) الدَّولة الأمويَّة المُفترى عليها، ص(١٥٩).

(٢) حقبةٌ من التاريخ، ص(٧٥).

إنَّ بني أميَّة كان رسول الله ﷺ يستعملهم في حياته ، واستعملهم بعده من لا يُتَّهم بقرابةٍ فيهم : أبو بكرٍ ، وعمر ، رضي الله عنهما ، ولا نعرف قبيلةً من قبائل قريش فيها عمَّالٌ لرسول الله ﷺ أكثر من بني عبد شمس ؛ لأنَّهم كانوا كثيرين ، وكان فيهم شرفٌ وسؤددٌ ، فاستعمل النَّبيّ ﷺ عتَّاب بن أسيد بن أبي العاص على مكَّة ، وأبا سفيان بن حرب على نجران ، وخالد بن سعيد على صدقات بني مذحج ، وأبان بن سعيد على بعض السَّرايا ثمَّ على البحرين ، فعثمان رضي الله عنه لم يستعمل إلا من استعمله النَّبيّ ﷺ ، ومن جنسهم ، وقبيلتهم ، وكذلك أبو بكر ، وعمر بعده ، فقد ولَّى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان في فتوح الشَّام ، وأقرَّه عمر ، ثمَّ ولَّى عمر بعده أخاه معاوية[(١)] .

وسؤال الَّذي يطرح نفسه أأثبت هؤلاء كفاءتهم أم لا ؟ وستأتي شهادات أهل العلم في أولئك الولاة الَّذين ولاهم عثمان رضي الله عنه بإذن الله تعالى .

إنَّ عثمان خليفةٌ راشدٌ ، يُقتدى به ، وأفعاله تشكِّل سوابق دستوريَّة في هذه الأمَّة فكما أنَّ عمر سنَّ لمن بعده التحرُّج عن تقريب الأقربين ، فإنَّ عثمان سنَّ لمن بعده تقريب الأقربين إذا كانوا أهل كفاءةٍ ، ومن تتبع سيرة عثمان لا يشكُّ في كفاءتهم الإداريَّة ، وكلُّ ما أُنكر على عثمان لا يخرج عن دائرة المباح[(٢)] .

إنَّ الولاة الَّذين ولاهم عثمان رضي الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة في إدارة شؤون ولاياتهم ، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان ، وساروا في الرَّعيَّة سيرة العدل ، والإحسان ، ومنهم من تقلَّد مهامَّ الولاية قبل ذلك في عهد الصِّدِّيق والفاروق رضي الله عنهما[(٣)] ، ولننظر إلى أقوال أهل العلم في أولئك الولاة :

أولاً : معاوية بن أبي سفيان بن حرب الأمويُّ :

ذكر المترجمون لهذا الصَّحابيِّ الكريم فضائل جمَّةً ، وإليك شيئاً منها :

١ ـ من القرآن الكريم :

اشترك معاوية رضي الله عنه في غزوة حنين، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٦].

---

(١) منهاج السُّنَّة (٣/ ١٧٥ ، ١٧٦) .

(٢) الأساس في السُّنَّة (٤/ ١٦٧٥) .

(٣) تحقيق مواقف الصَّحابة من الفتنة (١/ ٤١٧) .

ومعاوية رضي الله عنه من الّذين شهدوا غزوة حنين ، وكان من المؤمنين الّذين أنزل الله سكينته عليهم مع النّبيّ ﷺ[١] .

٢ـ من السُّنَّة :

دعاء الرّسول ﷺ لمعاوية رضي الله عنه ، ومن ذلك قوله ﷺ : « **اللهُمَّ اجعله هادياً[٢] مهديّاً[٣] ، واهد به** »[٤] . وقوله ﷺ : « **اللهُمَّ علِّم معاوية الكتاب ، والحساب ، وقه العذاب** »[٥] . وقال رسول الله ﷺ : « **أوّل جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا** »[٦] . قالت أمّ حرام : قلت : يا رسول الله ! أنا فيهم ؟ قال : « **أنت فيهم** » . ثمّ قال النّبيّ ﷺ : « **أوّل جيش من أمّتي يغزون مدينة قيصر[٧] مغفور لهم** » . فقلت ـ أي أمّ حرام ـ: أنا فيهم يا رسول الله ؟ قال : « **لا** »[٨] . قال المهلب[٩] : « في هذا الحديث منقبة لمعاوية ؛ لأنّه أوّل من غزا البحر »[١٠] .

٣ـ ثناء أهل العلم على معاوية رضي الله عنه :

أـ ثناء عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما عليه :

قيل لابن عباس رضي الله عنهما : هل لك في أمير المؤمنين معاوية ، فإنّه ما أوتر إلا بواحدةٍ ، قال : إنّه فقيه[١١] . وممّا يناسب المقام ذكر بعض المسائل الفقهيّة الّتي أُثِرت عن معاوية رضي الله عنه ، ومن تلك المسائل ما يلي :

ـ أثر عنه رضي الله عنه أنه أوتر بركعةٍ .

---

(١) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطّبري ، خالد الغيث ، ص(٢٣) .
(٢) هادياً : للنّاس ، أو دالاً على الخير .
(٣) مهدياً : أي مهتدياً في نفسه .
(٤) صحيح سنن التّرمذيّ للألباني (٣/ ٢٣٦) .
(٥) موارد الظمآن (٧/ ٢٤٩) إسناده حسن .
(٦) أوجبوا : أي : فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنّة . فتح الباري (٦/ ١٢١) .
(٧) مدينة قيصر : يعني القسطنطينية .
(٨) البخاريُّ ، رقم (٢٩٢٤) .
(٩) المهلب بن أحمد الأندلسي ، مصنِّف شرح صحيح البخاريِّ توفي ٤٣٥هـ .
(١٠) فتح الباري (٦/ ١٢٠) .
(١١) المصدر السابق نفسه (٧/ ١٣٠) .

- أثر عنه رضي الله عنه الاستسقاء بمن ظهر صلاحه[١] .
- أنَّه يجزئ إخراج نصف صاعٍ من البرِّ في زكاة الفطر[٢] .
- استحباب تطييب البدن لمن أراد الإحرام[٣] .
- جواز بيع وشراء دور مكَّة[٤] .
- التفريق بين الزَّوجين بسبب[٥] العُنَّة[٦] .
- وقوع طلاق السَّكران .
- عدم قتل المسلم بالكافر قصاصاً .
- حبس القاتل حتَّى يبلغ ابن القتيل[٧] .

ب ـ ثناء عبد الله بن المبارك على معاوية رضي الله عنه :

قال عبد الله بن المبارك : معاوية عندنا محنةٌ ، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً ؛ اتَّهمناه على القوم ، يعني : الصَّحابة[٨] .

جـ ـ ثناء أحمد بن حنبل :

سئل الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : ما تقول رحمك الله فيمن قال : لا أقول : إن معاوية كاتب الوحي ، ولا أقول : إنَّه خال المؤمنين ، فإنَّه أخذها بالسَّيف غصباً ؟[٩] قال أبو عبد الله : هذا قول سوءٍ رديءٍ ، تجانبون هؤلاء القوم ، ولا يجالسون ، ونبيِّن أمرهم للناسِّ[١٠] .

د ـ ثناء القاضي ابن العربيِّ على معاوية رضي الله عنه :

تحدَّث ابن العربيِّ عن الخصال الَّتي اجتمعت في معاوية رضي الله عنه ، فذكر منها : . . .

---

(١) المغني لابن قدامة (٣/ ٣٤٦) .

(٢) زاد المعاد (٢/ ١٩) .

(٣) المغني (٥/ ٧٧) .

(٤) المصدر السَّابق السابق (٦/ ٣٦٦) .

(٥) العُنَّةُ : هي عجز الرَّجل عن إتيان زوجته ، القاموس المحيط (١٥٧٠) .

(٦) مرويات خلافة معاوية ، ص(٢٨) .

(٧) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٩) .

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) مرويات خلافة معاوية ، ص(٢٨) .

(١٠) السُّنَّة للخلَّال ، تحقيق عطيَّة الزَّهراني (٢/ ٤٣٤) .

قيامه بحماية البيضة ، وسدِّ الثُّغور ، وإصلاح الجند ، والظُّهور على العدوِّ ، وسياسة الخلق[١] . وقد علَّق محب الدِّين الخطيب على هذا النصِّ بقوله : وقد بلغ من همَّته ـ يعني : معاوية ـ وعظيم عنايته بذلك أن أرسل يهدِّد ملك الرُّوم وهو في معمعة القتال مع عليٍّ في صفِّين ، وقد بلغه : أنَّ ملك الرُّوم اقترب من الحدود في جنودٍ عظيمةٍ[٢] ، وفي ذلك يقول ابن كثير : وطمع في معاوية ملك الرُّوم بعد أن كان قد أخشاه ، وأذله ، وقهر جنده ، ودحاهم ، فلمَّا رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب عليٍّ تدانى إلى بعض البلاد في جنودٍ عظيمةٍ ، وطمع فيه ، فكتب معاوية إليه : والله لئن لم تنته ، وترجع إلى بلادك يا لعين ! لأصطلحنَّ أنا وابن عمِّي عليك ، ولأخرجنَّك من جميع بلادك ، ولأضيِّقنَّ عليك الأرض بما رحبت ! فعند ذلك خاف ملك الرُّوم ، وبعث يطلب الهدنة[٣] .

هـ ـ ثناء ابن تيميَّة على معاوية رضي الله عنه :

قال عنه ابن تيميَّة : . . . فإنَّ معاوية ثبت عنه بالتَّواتر : أنَّه أمَّرَهُ النَّبيّ ﷺ ، كما أمَّر غيرهُ ، وجاهد معه ، وكان أميناً يكتب له الوحي ، وما اتَّهمه النَّبيّ ﷺ في كتابة الوحي ، وولاه عمر بن الخطَّاب ، الّذي كان من أخبر النَّاس بالرجال ، وقد ضرب الله الحقَّ على لسانه ، وقلبه ، ولم يتَّهمه في ولايته[٤] .

و ـ ثناء ابن كثير عليه :

قال عنه ابن كثير : وأجمعت الرَّعايا على بيعته في سنة إحدى وأربعين . . . فلم يزل مستقلاًّ بالأمر في هذه المدَّة إلى هذه السَّنة الّتي كانت فيها وفاته ، والجهاد في بلاد العدو قائمٌ ، وكلمة الله عاليةٌ ، والغنائم تَرِد إليه من أطراف الأرض ، والمسلمون معه في راحةٍ ، وعدل ، وصفح ، وعفوٍ ، وقال أيضاً: كان حليماً[٥] ، وقوراً، رئيساً، سيِّداً في النَّاس، كريماً، عادلاً، شهماً[٦] . وقال عنه أيضاً: كان جيِّد السِّيرة، حسن التَّجاوز، جميل العفو، كثير السِّتر، رحمه الله تعالى[٧] .

---

(١) العواصم من القواصم ، ص(٢١٠ ، ٢١١) .

(٢) مرويات خلافة معاوية ، ص(٣١) .

(٣) البداية والنِّهاية (٨/ ١١٩) .

(٤) الفتاوى (٤/ ٤٧٢). والبداية والنِّهاية (٨/ ١٢٢) . وسير أعلام النُّبلاء (٣/ ١٢٩) .

(٥) أفرد ابن أبي الدُّنيا ، وأبو بكر بن أبي عاصم تصنيفاً في حلم معاوية .

(٦) البداية والنِّهاية (٨/ ١١٨) .

(٧) المصدر السَّابق نفسه (٨/ ١٢٦) .

٤ـ روايته للحديث :

يعدُّ معاوية رضي الله عنه من الّذين نالوا شرف الرِّواية عن رسول الله ﷺ ، ومردُّ ذلك إلى ملازمته لرسول الله ﷺ بعد فتح مكّة ، لكونه صهره ، وكاتبه ، رضي الله عنه ، هذا وقد روى معاوية رضي الله عنه مئة وثلاثة وستين حديثاً عن رسول الله ﷺ ، اتّفق له البخاريُّ ، ومسلمٌ على أربعة أحاديث ، وانفرد البخاريُّ بأربعة ، ومسلمٌ بخمسةٍ[١] . وكانت سيرة معاوية رضي الله عنه مع الرّعية في ولايته من خير سير الولاة ممّا جعل النّاس يحبُّونه ، وقد ثبت في الصّحيح عن النّبيّ ﷺ قال : « خيار أئمتكم ـ حكامكم ـ الّذين تحبُّونهم ، ويحبُّونكم ، وتصلُّون عليهم ـ تدعون لهم ـ ويصلُّون عليكم، وشرار أئمّتكم الّذين تبغضونهم، ويبغضونكم، وتلعنونهم، ويلعنونكم»[٢] .
وأختم حديثي عن معاوية رضي الله عنه بما قاله القاضي أبو بكر ابن العربيِّ : فعُمر ولاه ، وجمع له الشّامات كلَّها ، وأقرّه عثمان ، بل إنّما ولاه أبو بكرٍ الصّدِّيق ؛ لأنّه ولى أخاه يزيد ، واستخلفه يزيد ، فأقرّه عمر ، لتعلُّقه بولاية أبي بكرٍ لأجل استخلاف واليه له ، فتعلّق عثمان بعمر وأقرّه ، فانظر إلى هذه السِّلسلة ما أوثق عُراها[٣] ! وثبت : أنَّ رسول الله ﷺ استكتبه . . . فيكون سند ولايته الأعمال في الدّولة الإسلاميّة لم يكن لأحد قبله ، ولم يكن لأحدٍ بعده ، حيث اجتمع على توليته : رسول الله ﷺ ، ومن بعده خلفاؤه الثّلاثة ، ثمّ صالحه وأقرّ له بالخلافة الحسن بن عليٍّ سبط رسول الله ﷺ[٤] .

ثانياً : عبد الله بن عامر بن كريز :

هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيٍّ القرشيُّ العبشميُّ[٥] .

ولد في عهد رسول الله ﷺ وذلك في السّنة الرّابعة للهجرة[٦] ، وعندما اعتمر الرّسول الكريم رضي الله عنه في السّنة السّابعة للهجرة عُمرة القضاء ، ودخل مكة ؛ حُمِلَ إليه عبد الله بن عامر ، قال ابن حجر : . . . فتلمّظ ، وتثاءب ، فتفل رسول الله في فيه ، وقال : « هذا ابن السُّلميّة ؟ » : قالوا : نعم ، فقال : « هذا أشبهنا » ، وجعل يتفل في فيه ، ويعوِّذه فجعل يبتلع

(١) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطّبري ، ص(٣٣) .
(٢) مسلم ، كتاب الإمارة ، رقم (٦٥) .
(٣) العواصم من القواصم ، ص(٨٢) .
(٤) المدينة المنورة ، فجر الإسلام والعصر الرّاشدي (٢/٢١٦) .
(٥) البداية والنِّهاية (٨/ ٩١) .
(٦) تهذيب التّهذيب (٥/ ٢٧٢) .

ريق النَّبيّ ﷺ ، فقال : « إنَّه لمسقيٌّ » ، فكان لا يعالج أرضاً إلا ظهر له الماء[١] .

لم يتولَّ عبد الله بن عامر منصباً إداريّاً ، أو عسكريّاً إلى أن أصبح والياً على البصرة سنة ٢٩ هـ/ ٦٤٩م ، وهو ابن خال الخليفة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ؛ لأنَّ أمَّ عثمان هي أروى بنت كريز بن ربيعة ، وكانت أم عبد الله بن عامر من بني سُليم[٢] .

ولمَّا عيِّن لولاية البصرة ؛ كان عمره أربعاً ، أو خمساً وعشرين[٣] ، وظلَّ والياً على البصرة حتَّى مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه عندما تجهَّز بجيش كبير ، وحمل ما عنده من الأموال ، فسار إلى مكَّة حيث وافى الزُّبير ، ورجع منها إلى البصرة ، فشهد موقعة الجمل ، ولم يحضر موقعة صفِّين ، على الرَّغم من أنَّ القلقشندي ذكر : أنَّه كان في التَّحكيم مع معاوية بصفِّين[٤] ، وفي خلافة معاوية تولَّى إمارة البصرة لمدَّة ثلاث سنوات ، ثمَّ عزله عنها ، فأقام بالمدينة ، ومات بها سنة سبع وخمسين للهجرة[٥] ، وفي رواية ابن قتيبة : أنَّه توفى بمكَّة ، ودفن بعرفات عام تسع وخمسين[٦] . وأشاد ابن سعد به قائلاً : كان عبد الله شريفاً ، سخيّاً ، كريماً ، كثير المال ، والولد ، محبّاً للعمران[٧] ، وقال عنه ابن حجر : كان جواداً ، كريماً ، ميموناً . . . جريئاً ، شجاعاً[٨] ، وكان يعتبر من أجود أهل البصرة[٩] . ومن أجود أهل الإسلام[١٠] .

وكان لعبد الله بن عامرٍ أثرٌ حميدٌ في الفتوحات، فقد تمكَّن من القضاء على آمال الفرس بشكلٍ تامٍّ عندما قضى على آخر رمقٍ من الأمل الفارسيِّ القديم، وذلك بقضائه على آخر ملوكهم يزدجرد ابن شهريار بن كسرى، وخرزاد مهر أخي رستم اللَّذين تزعَّما المعارضة الفارسيَّة ضد المسلمين.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩)، تهذيب التهذيب (٥/ ٢٧٣)، وأسد الغابة (٣/ ٢٩٣) رقم (٣٠٣١).
(٢) الطَّبقات (٥/ ٣١) . وتهذيب التَّهذيب (٥/ ٢٧٢) .
(٣) البداية والنِّهاية (٨/ ٩١) .
(٤) مجلة المؤرِّخ العربي ، رقم (٢١) ، ص(١٢٨) .
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١) .
(٦) المعارف ، ص(٣٢١) .
(٧) مجلَّة المؤرِّخ العربيِّ ، رقم (٢١) ، ص(١٢٩) .
(٨) تهذيب التَّهذيب (٥/ ٢٧٢) .
(٩) العقد الفريد (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤) .
(١٠) صبح الأعشى (١/ ٤٥٠ـ٤٥١) .

وإضافة إلى براعة عبد الله بن عامر في الشؤون الإداريّة ، والعسكريّة ، فإنّه كان مهتمّاً بالمعارف الإسلاميّة ، ويروى : أنّه روى حديثاً عن النّبيّ ﷺ ، وقال ابن قتيبة : لم يرو عن رسول الله إلا حديثاً واحداً[١] ، غير أنّه لم يكن له روايةٌ في الكتب السّتّة[٢] ، أمّا الحديث النّبويّ ، الّذي رواه ، فقد أورد ابن قانع ، وابن منده عن طريق مصعب الزّبيري : حدّثني أبي عن جدّي مصعب بن ثابت ، عن حنظلة بن قيس ، عن عبد الله بن الزُّبير ، وعبد الله بن عامرٍ : أن رسول الله ﷺ قال : « من قُتل دون ماله فهو شهيدٌ »[٣] .

إصلاحاته الاقتصاديّة في البصرة :

يقترن باسم عبد الله بن عامر عددٌ من الإصلاحات في البصرة ، لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن إنجازاته العسكريّة الفذّة المتمثّلة في انتصاراته العديدة على المجوس ، وتتبُّعه لفلولهم المنهزمة ، وقضائه على آمال يزدجرد ، فقد كانت إصلاحاته الاقتصاديّة ممثّلةً في عنايته بسوق البصرة ، فقد اشترى هذا السُّوق من ماله، ووهبه لأهلها[٤] ، وكان السُّوق يتوسَّط البصرة ، بدليل ما ذكره خليفة بن خيّاط من أنَّ السُّوق قائمٌ على ضفاف النّهر الّذي يتوسط البصرة، وهذا اختيارٌ جيِّدٌ؛ لأنّه يجعل السُّوق مركزاً مهمّاً في وسط المدينة ، ولعلَّ من أبرز أعماله الإصلاحيّة في البصرة في ميدان الرّي ، وقد اهتمَّ ابن عامرٍ بهذه المسألة اهتماماً كبيراً ، وذكر ابن قتيبة : أنَّ ابن عامرٍ احتفر بالبصرة نهرين أحدهما في الشّرق ، والآخر يعرف بأمِّ عبد الله ، وهو منسوب إلى أمِّ عبد الله بن عامرٍ[٥] ، وأمر عبد الله بن عامرٍ زياد بن أبي سفيان بحفر الأبلّة ، وكان زياد والياً على الدِّيوان ، وبيت المال من قِبَل عبد الله بن عامر ، وكان يستخلفه في مكانه عند توجُّهه للفتوح[٦] ، وذكر خليفة بن خيّاط : أنَّ زياداً احتفر نهر الأبلّة حتّى انتهى إلى موضع الجبل ، والّذي تولّى حفره لزياد عبد الرّحمن بن أبي بكرة[٧] ، فلمّا فتح عبد الرّحمن الماء جعل يركض فرسه ، والماء يكاد يسبقه[٨] .

---

(١) المعارف ، ص(٣٢١) .

(٢) المصدر السّابق نفسه .

(٣) الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٣٩) إسناده ضعيف وله ما يقوّيه في الباب .

(٤) الطّبقات الكبرى (٥/ ٧٣) . ومجلّة المؤرّخ العربيّ هي العمدة في ترجمتي لعبد الله بن عامر ، حيث استفدت من الأستاذ محمد حمادي جزاه الله خيراً .

(٥) مجلة المؤرّخ العربي رقم (٢١) ، محمّد حمادي ، ص(١٣٤) .

(٦) فتوح البلدان للبلاذري ، ص(٣٥١) .

(٧) تاريخ خليفة بن خيّاط (١/ ١٤٢) .

(٨) فتوح البلدان ، ص(٣٥١) .

وحفر عبد الله بن عامر حوضاً نسب إلى أمّه ، وهو حوض أمّ عبد الله بن عامر بالبصرة منسوبٌ إليها[(١)] ، وذكر البلاذريُّ : أنَّ عبد الله بن عامرٍ حفر نهراً ، تولَّى أمر حفره له نافذ مولاه ، فغلب عليه ، فقيل نهر نافذ[(٢)] ، وهناك نهر مُرَّة لابن عامر تولَّى حفره له مرَّة مولى أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فغلب على ذكره[(٣)] ، وهناك نهر الأساورة الّذي حفره لهم عبد الله بن عامرٍ[(٤)] .

ويذكر البلاذري قنطرة قرَّة بالبصرة ، فيقول : قنطرة قرَّة نسبة إلى قرَّة بن حيان الباهليِّ ، وكان عندها نهرٌ قديمٌ ثمَّ اشترته أمُّ عبد الله بن عامرٍ ، فتصدَّقت به مغيثاً لأهل البصرة[(٥)] .

ممَّا تقدَّم ، يتبيَّن لنا : أن عبد الله بن عامرٍ كان مهتمّاً بحفر الأنهار من أجل ازدهار الزِّراعة ؛ الّتي هي عماد الحياة الاقتصاديّة ، إضافةً إلى موقع البصرة الاستراتيجي بالنِّسبة إلى طرق التِّجارة ، وأهمِّيتها العسكرية كقاعدةٍ للفتوحات الإسلاميَّة في المشرق ، ويمكن أن نلاحظ مدىٰ رغبة عبد الله بن عمر في الإصلاح من خلال قوله : لو تُركت ؛ لخرجت المرأة في حاجتها على دابَّتها ، ترد كلَّ يوم على ماءٍ ، وسوقٍ ، حتَّى توافي مكَّة[(٦)] .

وفي الحقيقة : أنَّ إصلاحاته هذه لا تقلُّ أهمِّيَّة عن الفتوحات في المشرق الّتي قام بها ، فقد كانت البصرة هي القاعدة العسكريّة للخلافة في فتوحاتها ببلاد المشرق ، وأشار الدكتور صالح العلي إلى : أنَّ الفتوح الواسعة أدَّت إلى ازدياد دخل البصرة وانتشار الرَّخاء الاقتصاديِّ فيها ، ممَّا شجع التُّجار ، ورجال الأعمال على التَّقاطر إليها ، وبذلك بدأت الحياة المدنيَّة تنمو سريعاً في البصرة[(٧)] ، لقد كانت الحالة الماليَّة لإمارة البصرة جيدةً جدّاً ، نتيجةً للفتوح الواسعة في المشرق ، والنَّشاط الاقتصاديِّ التِّجاريِّ للبصرة ، واستقرار الأمن فيها ، وكان عبد الله بن عامرٍ رجلاً متواضعاً ، فاتحاً بابه لجميع النَّاس حتَّى إنَّه عاقب الحاجب ، وأمره ألا يغلق بابه ليلاً ، ولا نهاراً[(٨)] ، وفي الحقيقة أصبح ابن عامر ذا شهرةٍ واسعةٍ بالبصرة ، قال ابن سعد : كان النَّاس

(١) مجلَّة المؤرِّخ العربيِّ رقم (٢١) ، عبد الله بن عامر ، ص(١٣٤) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٣٥) . وفتوح البلدان ، ص(٣٥٤) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٣٦) . وفتوح البلدان ، ص(٣٥٤) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٣٦) .
(٥) فتوح البلدان ، ص(٣٥٣ ـ ٣٥٤) .
(٦) المعارف لابن قتيبة ، ص(٣٢١) .
(٧) التَّنظيمات الاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة ، ص(٣٠ـ٣١) .
(٨) مجلة المؤرِّخ العربيِّ العدد (٢١) عبد الله بن عامر ، محمَّد حمادي ، ص(١٣٨) .

يقولون : قال ابن عامر ، وفعل ابن عامر[١] ، ونتيجة لأعماله الإصلاحيَّة ، وسيرته الحميدة ، فقد ازداد حب الأمَّة له[٢] .

وظلَّ ابن عامرٍ عليها إلى أن قتل الخليفة عثمان رضي الله عنه[٣] .

فهذا عبد الله بن عامرٍ أحد ولاة عثمان ، فهو الّذي شقَّ نهر البصرة ، وأوّل من اتَّخذ الحياض بعرفات ، وأجرى إليها العين[٤] ، وهو الرَّجل الّذي له من الحسنات ، والمحبَّة في قلوب النَّاس ما لا يُنكر ، كما يقول ابن تيميَّة[٥] . وقال فيه الذهبيُّ : وكان من كبار أمراء العرب ، وشجعانهم ، وأجوادهم ، وكان فيه رفقٌ ، وحلمٌ[٦] .

ثالثاً : الوليد بن عقبة :

هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف ، الأمير أبو وهب الأمويُّ ، له صحبةٌ قليلةٌ[٧] ، وهو أخو عثمان لأمِّه .

كان الوليد بن عقبة من رجال الدَّولة الإسلاميَّة على عهد أبي بكرٍ ، وعمر اللَّذين كانا يتخيَّران للأعمال ذوي الكفاءة ، والأمانة من الرِّجال ، وكان ذلك من أعظم أسباب ذلك الانتشار السَّريع على أوسع نطاقٍ للإسلام على عهدهما ؛ وأنَّه كان محلَّ ثقة ، واعتماد الخليفتين ، وممَّن وسد إليه الأمور المهمَّة ؛ لما كانا يريان فيه من الكفاءة ، وصدق الإيمان[٨] ، وأوّل عملٍ له في خلافة الصِّدِّيق : أنَّه كان موضع السِّرِّ في الرَّسائل الحربيَّة الّتي دارت بين الخليفة ، وقائده خالد بن الوليد في وقعة المذار مع الفرس ١٢ هـ[٩] ، ثمَّ وجَّهه مدداً إلى قائده عياض بن غنم الفهري[١٠] ، وفي سنة ١٣ هـ كان الوليد يلي لأبي بكرٍ صدقات قضاعة ، ثمَّ لمَّا عزم الصِّدِّيق على فتح الشَّام كان الوليد عنده بمنزلة عمرو بن العاص في

---

(١) الطَّبقات (٥/ ٣٣) .
(٢) مجلة المؤرِّخ العربي ، عبد الله بن عامر ، العدد (٢١) ، محمد جاسم حمادي ، ص(١٣٨) .
(٣) البداية والنِّهاية (٨/ ٩١) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) منهاج السُّنَّة (٣/ ١٨٩ ، ١٩٠) .
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١) .
(٧) المصدر السَّابق نفسه ، (٣/ ٤١٢ ، ٤١٣) .
(٨) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص(٧٨) .
(٩) تاريخ الطَّبري (٤/ ١٦٨) .
(١٠) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤/ ١٩٤) .

الحرمة ، والثِّقة ، والكرامة ، فكتب إلى عمرو بن العاص ، وإلى الوليد بن عقبة يدعوهما لقيادة فيالق الجهاد ، فسار ابن العاص بلواء الإسلام نحو فلسطين ، وسار الوليد بن عقبة قائداً إلى شرق الأردن[1] ، ثمَّ رأينا الوليد في سنة ١٥ هـ على عهد عمر أميراً على بلاد بني تغلب ، وعرب الجزيرة[2] .

وكان في ولايته هذه يحمي ظهور المجاهدين في بلاد الشَّام ؛ لئلا يؤتوا من خلفهم، وانتهز الوليد فرصة ولايته على هذه الجهة الَّتي كانت لا تزال مليئةً بالنَّصارى، فكان من جهاده الحربيِّ، وعمله الإداريِّ داعياً إلى الله، يستعمل أساليب الحكمة، والموعظة الحسنة لحمل نصارى إياد، وتغلب على الدُّخول في الإسلام[3] .

وبهذا الماضي المجيد جاء الوليد في خلافة عثمان ، فتولَّى الكوفة له ، وكان من خير ولاتها عدلاً ، ورفقاً ، وإحساناً ، وكانت جيوشه مدَّة ولايته على الكوفة تسير في آفاق الشرق فاتحةً ظافرةً موفَّقةً ، كما شهد له بذلك بظهر الغيب قاضٍ من أعظم قضاة الإسلام في التَّاريخ علماً ، وفضلاً ، وإنصافاً وهو التَّابعي الجليل الإمام الشَّعبيُّ[4]، فقد أثنى على غزوه وإمارته بقوله حين ذُكر له غزو مسلمة بن عبد الملك[5] : كيف لو أدركتم الوليد ، وغزوه ، وإمارته ، إنَّه كان ليغزو ، فينتهي إلى كذا ، وكذا ، ما نقض ، ولا انتقض عليه أحدٌ حتَّى عُزل عن عمله .

وقد كان الوليد رضي الله عنه أحبَّ النَّاس إلى النَّاس وأرفقهم بهم ، وقد أمضى خمس سنين ، وليس في داره باب[6] ، وقد قال عثمان رضي الله عنه : ما وليت الوليد لأنَّه أخي ، وإنَّما ولَّيته لأنَّه ابن أم حكيم البيضاء عمَّة رسول الله ﷺ ، وتوءمة أبيه . والولاية اجتهادٌ وقد عزل عمر سعد بن أبي وقَّاص وقدَّم أقلَّ منه درجةً[7] .

والمستعرض لسيرة هذا الصَّحابي الجليل ، والبطل الإسلاميِّ العظيم ؛ الَّذي كان محلَّ ثقة الخلفاء الرَّاشدين الثَّلاثة لا يرتاب ، فإنَّه أهلٌ للولاية ، وإنَّما تساوره الشُّكوك في ثبوت ما قيل

---

(١) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص(٧٨) .
(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٨ ، ٢٩) .
(٣) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص(٧٨) .
(٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان أحد القادة الفاتحين توفي (١٢٠هـ) .
(٥) التَّمهيد والبيان ، ص(٤٠) .
(٦) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٥١) .
(٧) العواصم من القواصم ، ص(٨٦) .

فيه من نزول الآية فيه ، وتسميته فاسقاً ، وشربه للخمر ، والأمر يحتاج إلى تحقيقٍ ، وإليك بحث هذين الأمرين[١] .

هل ثبت بأن الوليد نزلت فيه الآية ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ ﴾ [الحجرات : ٦] ؟ .

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] .

يتناقل الرُّواة في ذلك قصَّةً تقول : إنَّ رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق مصدِّقاً ، فأخبر عنهم أنَّهم ارتدُّوا ، وأبوا في أداء الصَّدقة ، وذلك أنَّهم خرجوا إليه ، فهابهم ، ولم يعرف ما عندهم ، فانصرف عنهم ، وأخبر بارتدادهم ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ، وأمره أن يتثبَّت فيهم ، فأخبروه : أنَّهم متمسِّكون بالإسلام ، ونزلت الآية[٢] . وقد جاءت رواياتٌ عديدةٌ ، وليس للقصَّة سندٌ موصولٌ صحيحٌ[٣] ، وأقلُّ ما يوصف به سند القصَّة : أنَّه ضعيف ، وإذا قبلوا الأسانيد الضَّعيفة في فضائل الأعمال الَّتي لا تحلُّ حراماً ، ولا تحرِّم حلالاً ، فإنَّنا لا نقبل السَّند الضَّعيف في قصَّة الوليد ؛ لأنَّه يحلُّ حراماً ، وهو وصف رجلٍ صحب الرَّسول ﷺ ـ ولو يوماً ـ بأنَّه فاسق . . وكيف نقبل السَّند الضَّعيف والآية نفسها تحث على التثبُّت في قول الأخبار ، فهذه الآية وضعت أصل علم الرِّواية . .[٤] .

إنَّ قصَّة الوليد بن عقبة ، فيما نسبوه إليه ، لا تُقْبَلُ فيها إلا الأخبار الصَّحيحة السَّند والمتن ؛ لأنَّها تصفه بالفسق ، وهذا مطعنٌ لا يتساهل في قبوله إذا وُصف به رجلٌ مِنْ عرض النَّاس في العصر الحديث بعد خمسة عشر قرناً من عصر الدَّعوة ، فكيف نتساهل في نسبتها إلى رجلٍ عاش في العهد النَّبويِّ ، وفي عهد الخلفاء الرَّاشدين ، وأوكلوا إليه أعمالاً ذات خطر ؟

والقصَّة تمثل جزءاً من تاريخ صدر الإسلام ، وتتَّصل أجزاء القصَّة ، وحوادثها بالعقيدة الإسلاميَّة ، وأخبار هذا الجانب من التَّاريخ الإسلاميِّ ، لا يتساهل في قبولها ، كما يُتساهل في قبول الأخبار الَّتي تتَّصل بالعمران المدنيِّ ، ثمَّ إن الوليد بن عقبة من مسلمة الفتح . . . وكثيراً ما تُوجَّه المطاعن إلى إسلام هذه الفئة من النَّاس ، ويزعم بعض المؤرِّخين : أنَّهم أسلموا مكرهين ، ولم يدخل الإيمان إلى قلوبهم ، وهو زعمٌ باطلٌ بلا ريب[٥] ، وأخبار الوليد بن

---

(١) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب . ص(٧٩) .

(٢) المدينة النَّبويَّة فجر الإسلام (٢/ ١٧٦) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢/ ١٨٢) .

(٥) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ١٧٣) .

عقبة ، تزيد الرُّواة فيها ، ولعبت بها الأهواء المذهبيَّة ، والسياسيَّة ، ودخلها الوضع ، وكانت ميداناً لتسابق أهل القصَّة في اختبار القدرة على الوضع ، وإثبات عبقريَّتهم الأدبيَّة المُجَنَّحة[١] .

ومَّما يعكِّر على رواية إرسال الوليد بن عقبة لجمع صدقات بني المصطلق ، ويعارضها حديثٌ موصولُ السَّند إلى رجالٍ ثقاتٍ : أنَّ الوليد بن عقبة كان يوم الفتح صغيراً ، ومن كان في سنِّه لا يرسله النَّبيّ ﷺ عاملاً ، فعن فيَّاض بن محمَّد الرقِّي ، عن جعفر بن برقان ، عن ثابت بن الحجَّاج الكلابيِّ ، عن عبد الله الهمدانيِّ (أبي موسى) عن الوليد بن عقبة ، قال : لمَّا فتح رسول الله ﷺ مكَّة ، جعل أهل مكَّة يأتونه بصبيانهم ، فيمسح على رؤوسهم ، ويدعو لهم ، فجيء بي إليه ، وإنِّي مطيَّب بالخلوق ، ولم يمسح على رأسي ، ولم يمنعه من ذلك إلا أنَّ أمي خلقتني بالخلوق ، فلم يمسَّني من أجل الخلوق[٢] .

إن القصَّة لعبت بها الأهواء المذهبيَّة ، فالوليد أمويٌّ عثمانيٌّ ، والَّذي أقحم اسم الوليد في قصَّة سبب نزول الآية : شيعيٌّ رافضيٌّ (محمد بن السَّائب الكلبي) قال عنه ابن حجر : كان يُعَدُّ من شيعة أهل الكوفة . وقال ابن حجر : كان بالكوفة كذَّابان ، أحدهما : الكلبيُّ ، والآخر : السُّدِّيُّ[٣] . واختاره لهذه القصَّة ؛ لأنها تتَّصل بجمع الصَّدقات ، والوليد عمل على صدقات قضاعة في عهد أبي بكر ، وعمل على صدقات تغلب في الجزيرة في زمن عمر ، وكُتب الشِّيعة تعيب عثمان بن عفَّان بسبب قصَّة الوليد[٤] ، ونحن لا ننكر أن تكون الآية نزلت في سياق قصَّة بني المصطلق ، ولكن الَّذي ننكره أن يكون الوليد هو الموصوف بالفاسق في الآية ، ذلك أنَّ منطوق الآية : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ ﴾ [الحجرات : ٦] بصيغة التَّنكير ، يدلُّ على الشُّمول ، لأنَّ النَّكرة إذا وقعت في سياق الشَّرط ، عمَّت ، كما تعمُّ إذا وقعت في سياق النَّفي[٥] .

حدُّ الوليد بن عقبة في الخمر :

وأمَّا حد الوليد في الخمر ، فقد ثبت في الصَّحيحين : أنَّ عثمان حدَّه بعدما شهدت عليه الشُّهود ، فهو ليس مأخذاً على عثمان ، بل كان من مناقب عثمان رضي الله عنه أن أقام عليه الحدَّ ، وعزله عن الكوفة ، حيث ذكر البخاريُّ هذه الحادثة في (باب مناقب عثمان)[٦] ، وكان

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .
(٢) مسند أحمد (٤/ ٣٢) .
(٣) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ١٧٩) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ١٨٠) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .
(٦) البخاريُّ ، كتاب مناقب عثمان .

عليٌّ رضي الله عنه يقول : إنَّكم وما تعيِّرون به عثمان كالطاعن نفسه ؛ ليقتل رِدَاءه[١] ، ما ذنب عثمان في رجلٍ قد ضربه بفعله ، وعزله عن عمله ، وما ذنب عثمان فيما صنع عن أمرنا[٢] . ثمَّ إنَّ تلك الحادثة لم تطرد في عهد عثمان فحسب ، بل لها سابقة في عهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه حيث ذكر ، أنَّ قدامة بن مظعون ـ له صحبةٌ ـ شرب الخمر ، وهو أميرٌ على البحرين من قبل عمر فحدَّه ، وعزله[٣] .

وقد ذكر بعض المؤرِّخين : أنَّه لم يثبت على الوليد شربه للخمر ، قال الحافظ في الإصابة : ويقال : إنَّ بعض أهل الكوفة تعصَّبوا عليه ، فشهدوا عليه بغير الحقِّ[٤] ، وقد أشار إلى هذا ابن خلدون ، فقال : وما زالت الشَّائعات ـ أي على عمَّال عثمان من قبل المشاغبين ـ تنمو ، ورمي الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر ، وشهد عليه جماعةٌ منهم ، وحدَّه عثمان ، وعزله[٥] .

وما حكاه الطَّبريُّ ببعض تفصيل : إنَّ أبناءً لأبي زينب ، وأبي مورع ، وجندب بن زهير نقبوا على ابن الحيسمان داره ، وقتلوه ، فشهد عليهم بذلك أبو شريح الخزاعيُّ الصَّحابيُّ، وابنه ـ وكان جاراً لابن الحيسمان ـ فاقتصَّ منهم الوليد ، فأخذ الآباء على أنفسهم أن يكيدوا للوليد ، وأخذوا يترقَّبون حركاته، فنزل به أبو زبيد الشَّاعر، وكان نصرانيّاً من أخواله بني تغلب، وأسلم على يد الوليد ، وكان الضيف متَّهماً بشرب الخمر ، فأخذ بعض السُّفهاء يتحدَّثون بذلك في الوليد لملازمته أبا زبيد ، ووجد أبو زينب ، وأبو مورِّع خير فرصة يغتنمونها ، فسافرا إلى المدينة ، وتقدَّما إلى عثمان شاهدين على الوليد بشرب الخمر ، وأنَّهما وجداه يقيء الخمر . فقال عثمان : ما يقيء الخمر إلا شاربها . فجيء بالوليد من الكوفة ، فحلف لعثمان ، وأخبره خبرهم ، فقال عثمان : نقيم حدود الله ، ويبوء شاهد الزُّور بالنَّار ، فاصبر يا أخي[٦] !

قال محبُّ الدِّين الخطيب : وأمَّا الزيادة الَّتي وردت في رواية مسلم من : أنَّه أتى بالوليد وقد صلَّى الصبح ركعتين ، ثمَّ قال : أزيدكم ، وفي بعض طرق أحمد : أنَّه صلَّى أربعاً ، فلم تثبت في شيءٍ من شهادة الشُّهود ، فهي من كلام حضين الرَّاوي للقصَّة ، ولم يكن حضين من

---

(١) الرِّداء : هو العون . تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٧٨) .

(٢) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٤٢١) .

(٣) العواصم من القواصم ، ص(٩٣) .

(٤) الإصابة (٣/ ٦٣٨) .

(٥) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٧٣) . وفصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص(٨١) .

(٦) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٧٧) .

الشُّهود ، ولم يرْوِها عن شاهدٍ ، ولا عن إنسانٍ معروف ، ولا كان في الكوفة في وقت الحادث المزعوم ، فلا اعتداد بهذا الجزء من كلامه[(١)] .

هذا هو والي عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة ، المجاهد الفاتح ، العادل المظلوم الّذي كان منه لأمَّته كلُّ ما استطاعه من عملٍ طيِّبٍ ، ثمَّ رأى بعينه كيف يبغي المبطلون على الصَّالحين ، وينفذ باطلهم فيهم ، فاعتزل النَّاس بعد مقتل عثمان في ضيعةٍ له منقطعةٍ عن صخب المجتمع ، وهي تبعد خمسة عشر ميلاً عن بلدة الرَّقَّة من أرض الجزيرة الّتي كان يجاهد فيها ، ويدعو النَّاس للإسلام في خلافة عمر[(٢)] ، واعتزل جميع الحروب الّتي كانت أيَّام عليٍّ ، ومعاوية رضي الله عنهما إلى أن توفي بضيعته ، ودفن بها في عام ٦١ هـ ، وقيل : إنَّه توفي في أيَّام معاوية[(٣)] .

رابعاً : سعيد بن العاص :

هو سعيد بن العاص بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف ، القرشيُّ ، الأمويُّ[(٤)] . وقال أبو حاتم : له صحبةٌ . ولي الكوفة بعد الوليد بن عقبة ، كان من فصحاء قريش ؛ ولهذا ندبه عثمان فيمن ندب لكتابة القرآن ، فعن أنس بن مالك قال : . . . فأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزُّبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرَّحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها (أي : الصحف) في المصاحف ، وقال عثمان للرَّهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابتٍ في شيءٍ من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش[(٥)] ، وقد أقيمت عربيَّة القرآن على لسان سعيد بن العاص ؛ لأنَّه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ ، أدرك من الحياة النَّبويَّة تسع سنين ، وقتل أبوه يوم بدرٍ مشركاً ، قتله عليُّ بن أبي طالب[(٦)] ، واقرأ معي هذا الخبر الّذي يدلُّ على قوَّة إيمانه : حيث روي أنَّ عمر بن الخطَّاب قال لسعيد بن العاص : لم أقتل أباك ، وإنما قتلتُ خالي العاص بن هشام . فقال سعيد : لو قتلته لكنت على الحقِّ ، وكان على الباطل ، فأعجب عمر بجوابه .

وفي أيَّام ولايته الكوفة غزا طبرستان ، ففتحها ، وغزا جرجان ، وكان في عسكره حذيفة

---

(١) العواصم من القواصم ، ص(٩٦ ، ٩٧) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٩٤) .

(٣) البداية والنِّهاية (٨/ ٢١٦) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه (٨/ ٨٧) .

(٥) البخاريُّ ، كتاب فضائل القرآن ، رقم (٤٩٨٧) .

(٦) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ٢١١) .

وغيره من الصَّحابة[١] ، وكان مشهوراً بالكر ، والبرِّ ، حتَّى إذا سأله السائل ، وليس عنده ما يعطيه ؛ كتب له بما يريد أن يعطيه مسطوراً[٢] ، وكان رحمه الله يحبُّ جمع شمل المسلمين ، ويكره الفتنة ، ويفرُّ منها ، ولاه عثمان الكوفة بعد الوليد بن عقبة ، ووفد إلى المدينة مرَّةً ، وعندما عاد إلى الكوفة جنَّد أهل الشَّغب جنودهم ، ومنعوه من دخولها ، فعاد ، ولزم المدينة . . وهؤلاء الَّذين منعوه من العودة إلى الإمارة كان منهم قتلة عثمان ، ومع ذلك اعتزل الجمل ، وصفِّين ، وحثَّ أهل الجمل على القعود عن الخروج[٣] ، هذه هي سيرته : كرمٌ ، وشجاعةٌ ، وبرٌّ ، وجهادٌ ، وفصاحةٌ أشبه ما تكون بفصاحة النَّبيِّ ﷺ ، وكان قد أملى على زيد ابن ثابت هذا المصحف الَّذي نقرؤه اليوم .

فتأمَّل هذه المناقب الثَّابتة له بالرِّواية الصَّحيحة ، وقارنها بما يذكرون من مثالبه الَّتي لا سند لها ، وتأمَّل فيمن أشاعها ، فتظنُّ أنَّها ملفقةٌ ؛ لأنَّها تجمع في الرَّجل النقيضين : الكرم والبخل ، والبرَّ والتَّوحُّش ، والفهم والجهل ، والجهاد والنكوص ، وهذا لا يعقلُ اجتماعه في رجلٍ سويٍّ[٤] . يزعم الرُّواة ـ بلا إسنادٍ ـ أنَّه عندما ولي سعيد الكوفة بعد الوليد كان بعض الموالي يقول رجزاً :

يَـــا وَيْلَنَـــا قَـــدْ عُـــزِلَ الْـــوَلِيْـــدُ
وَجَـــاءَنَـــا مُجَـــوِّعَـــاً سَعِيْـــدُ
يُنْقِـــصُ فـــي الصَّـــاعِ وَلا يَـــزِيْـــدُ[٥]

وهذا رجزٌ مصنوعٌ ، وقصَّةٌ موضوعةٌ بلا شكٍّ[٦] ؛ لأنَّ الموالي في سنة ٣٠ هـ ـ أي : العبيد ، من أسرى الحروب ـ لم يكونوا يحسنون العربيَّة ، بَلْه قول الشِّعر ، ولأنَّ سعيد بن العاص المشهور بالكرم ، والبرِّ لا يمكن أن يوصف بأنَّه (مجوِّع) وإذا مدح النَّاس ، والشُّعراء الوليد لكرمه ، فإنَّ سعيداً ضرب المثل بكرمه[٧] ، فكان يقال له : عُكَّةُ العسل ، وقال فيه الفرزدق يذكر كرمه :

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) الإصابة ، ترجمة رقم (٣٢٦٨) .

(٣) الطَّبقات (٥/ ٣٤) .

(٤) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ٢١٢) .

(٥) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٧٩) .

(٦) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ٢١٢) .

(٧) المصدر السَّابق نفسه .

تَــرَى الغُــرَّ الجَحَـاجِـحَ مِـنْ قُـرَيْـشٍ إِذَا مَــا الأَمْــرُ فِــي الْحِــدْثَــانِ عَــالا
قِيَــامَــاً يَنْظُــرُوْنَ إِلَــى سَعِيْــدٍ كَــأَنَّهُــمُ يَــرَوْنَ بِــهِ هِــلالا[١]

وإذا قال الموالي هذا الرَّجز في أول مجيء سعيدٍ إلى الكوفة ، فكيف عرف الموالي سياسة سعيد ، وهل جاء مجوّعاً ، أم جاء مشبعاً ؟ ! والغريب أنَّ الرُّواة يسوقون هذا الخبر في سياق ينقض بعضه بعضاً ، حيث يقولون : فولَّى عثمان سعيد ابن العاص الكوفة ، فسار فيهم سيرةً عادلةً ، فكان بعض الموالي ، يقول الرَّجز[٢] ، فكيف تكون السِّيرة عادلةً ، ويوصف بأنَّه جوَّع الموالي ؟ ! فقد كان الخير كثيراً يسع الجميع ، ويفيض ، والسِّيرة العادلة تجعل الخير يعمُّ[٣] ، ورحم الله المؤرِّخين القدماء ، فقد كانوا حسني الظَّنِّ بالقرَّاء ، فجمعوا في كتبهم الرِّوايات المتناقضة ، وحسبوا : أنَّ القرَّاء في جميع العصور يستطيعون تمييز الغثِّ من السَّمين ، وعذرُهم بأنَّهم كانوا يؤلِّفون لأهل عصرهم ، وما عرفوا : أنَّ القرون التَّالية ستحل بمن يحتطب بليلٍ[٤] ، فقد روى ابن سعد في ترجمة سعيد ـ بلا إسنادٍ ـ يقول : قالوا : فلمَّا قدم سعيدٌ الكوفة ـ والياً ـ قدمها شابّاً ، مُترفاً ، ليست له سابقةٌ ، فقال : لا أصعد المنبر حتَّى يطَّهَّر ، فأُمر به فغسل . . وقال على المنبر : إنَّما هذا السَّواد بستانٌ لأُغَيْلمةٍ من قريش . شكوه إلى عثمان[٥] ! وهذا كلامٌ لا يصحُّ ؛ لأنَّه غير مسندٍ ، ولأنَّ سعيد بن العاص الّذي قاد جيوش الجهاد ، وفتح الفتوح لا يكون كما وصف القائلون .

ثمَّ إنَّ ابن سعدٍ يروي قولة سعيد هذه على لسان الأشتر مالك بن الحارث عندما منع سعيد بن العاص من دخول الكوفة ، بعد سنوات من ولايته حيث قال الأشتر : هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم : أنَّ هذا السواد بستانٌ لأغيلمة من قريش ، والسَّواد مساقط رؤوسكم ، ومراكز رماحكم ، وفيئُكم وفيء آبائكم[٦] .

ومالك بن الحارث الملقَّب بـ(الأشتر) صاحب فتنةٍ ، كان من رؤساء الخوارج الّذين حاصروا عثمان ، وقتلوه ، ولا يستغرب من هؤلاء أن يختلقوا الأقوال لإثارة كره النَّاس . . . وإذا كانت هذه الجملة قد قيلت ؛ فإنَّ الّذين قالوها هم الخارجون على الخلافة ؛ لأنَّهم فهموا

---

(١) البداية والنِّهاية (٨/ ٨٨) .
(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٧٩) .
(٣) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ٢١٣) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٢١٣) . والطَّبقات (٥/ ٣٢) .
(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢/ ٢١٤) .

هذا الفهم السَّقيم بسبب تتابع الأمراء على العراق ـ وبخاصَّةٍ الكوفة ـ من قريش ، ولأن العصبية القبلية واضحةٌ في هذه المقولة[١] ، وقد قال الإمام الذَّهبيُّ فيه : وكان أميراً شريفاً ، جواداً ، ممدَّحاً ، حليماً ، وقوراً ، ذا حزمٍ ، وعقلٍ ، يصلح للخلافة ـ الولاية ـ[٢] .

وأمَّا قول المخالفين ، والّذين طعنوا في عثمان رضي الله عنه بأنَّه استعمل سعيد ابن العاص على الكوفة ، وظهر منه ما أدَّى إلى أن أخرجه أهل الكوفة[٣] ، فمجرَّد إخراج أهل الكوفة له لا يدلُّ على ذنبٍ يوجب ذلك ، فمن عرف الكوفة ، وسبر أحوالها ، عرف كثرة تشكِّي أهلها من ولاتهم بلا مبررٍ شرعيٍّ ، ولأتفه الأسباب ، حتَّى قال فيهم عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه : أعياني ، وأعضل بي أهل الكوفة ، ما يرضون أحداً ، ولا يرضى بهم ، ولا يصلحون ، ولا يصلح عليهم[٤] .

وفي رواية : أعياني أهل الكوفة ، فإن استعملت عليهم ليِّناً ؛ استضعفوه ، وإن استعملت عليهم شديداً ؛ شكوه[٥] ، بل إنَّه دعا عليهم ، فقال : اللَّهُمَّ إنَّهم قد لبَّسوا عليَّ ، فلبِّس عليهم[٦] .

وقد كان سعيد بن العاص رجلاً حكيماً ، فقد قال : لجليسي عليَّ ثلاثٌ : إذا دنا ؛ رحَّبت به ، وإذا جلس ؛ أوسعت له ، وإذا حدَّث ؛ أقبلت عليه . وقال لابنه : يا بنيَّ ! أجر الله المعروف إذا لم يكن ابتداءً من غير مسألةٍ ، فأمَّا إذا أتاك الرَّجل تكاد ترى دمه في وجهه ، أو جاءك مخاطراً لا يدري أتعطيه ، أم تمنعه ، فوالله لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته ! وقال أيضاً : يا بنيَّ ! لا تمازح الشَّريف ، فيحقد عليك ، ولا الدَّنيء فتهون عليه . ودخلتْ عليه ذات يوم امرأةٌ من العابدات ، وهو أمير الكوفة ، فأكرمها ، وأحسن إليها ، فقالت : لا جعل الله لك إلى لئيم حاجةً ! ولا زالت المنَّة في أعناق الكرام ، وإذا أزال عن كريم نعمة جعلك سبباً لردِّها عليه .

ولما حضرت سعيداً الوفاة جمع بنيه ، وقال لهم : لا يفقدنَّ أصحابي غير وجهي ، وصلوهم بما كنت أصلهم به ، وأجْرُوا عليهم ما كنت أجري عليهم ، واكفوهم مؤنة الطَّلب ، فإنَّ الرَّجل إذا طلب الحاجة ؛ اضطربت أركانه ، وارتعدت فرائصه مخافة أن يردَّ ، فوالله لرجلٌ

---

(١) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ٢١٤) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤٧) .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٧٩) .

(٤) المعرفة والتاريخ ، للفسوي (٢/ ٧٥٤) .

(٥) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/ ٤٢٣) .

(٦) المنهاج ، لابن تيمية (٣/ ١٨٨) .

يتململ على فراشه يراكم موضعاً لحاجته أعظم منَّةً عليكم ممَّا تعطونه ! ثم أوصاهم بوصايا كثيرةٍ ، وكانت وفاته ٥٨ هـ ، وقيل : ٥٧ هـ ، وقيل : ٥٩ هـ[١] .

خامساً : عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح :

درج المؤرِّخون ـ في الغالب ـ إذا ذكروا اسم عبد الله بن أبي السَّرح ، وتولية عثمان له على ولاية مصر على أن يقولوا : لقد ولَّى عثمان على مصر عبد الله بن أبي السَّرح أخاه من الرَّضاعة[٢] ، وإيراد عبارة (أخاه من الرَّضاعة) مقرونةً بالتَّولية تعتبر إيحاءً من بعض المؤرِّخين باتِّهام عثمان رضي الله عنه ، وأنَّه لهذه الأخوَّة من الرَّضاعة ولاه على مصر . وهذا الَّذي يراه المؤرِّخ غير صحيحٍ ، ولكي نردَّ على هؤلاء ، وعلى ما يغمزون به أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان رضي الله عنه نستعرض جهود فارس بني عامر بن لؤيٍّ[٣] ـ عبد الله بن سعدٍ ـ فقد كان على خبرةٍ ، ودرايةٍ تامَّةٍ بأحوال مصر ، ونواحيها نتيجة اشتراكه مع جيش عمرو في فتحها ، ونتيجة ولايته على بعض النَّواحي أثناء خلافة عمر ، فقد كان على صعيد مصر[٤] ، وكذلك أوَّل خلافة عثمان ، ممَّا أهَّلَه لأن يصبح والياً عامّاً على مصر ، فكان أقوى المرشَّحين لتلك الولاية بعد عمرو بن العاص نتيجة لتلك الخبرات ، ويبدو : أنَّ عبد الله بن سعدٍ تمكَّن من ضبط خراج مصر ؛ حتَّى زاد ما كان يجمعه من الخراج على ما كان يجمعه عمرو بن العاص قبله ، ولعلَّ مردَّ ذلك إلى اتِّباع عبد الله بن سعدٍ لسياسةٍ جديدةٍ في المصروفات ، اختلفت عن سياسة عمرو ، وبالتَّالي زادت أموال الخراج المتوفِّرة في مصر[٥] .

وقد قام عبد الله بن سعدٍ أثناء ولايته بالجهاد في عدَّة مواقع ، فكانت له فتوحٌ مختلفةٌ لها شأنٌ عظيمٌ ، فكان من غزواته غزو إفريقية سنة ٢٧ هـ وفتوحه فيها ، وقتله ملكها جرجير ، وكان يصاحبه في تلك الغزوات مجموعةٌ من الصَّحابة ، منهم عبد الله بن الزُّبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وغيرهم ، وانتهت الغزوة بصلحٍ مع بطريق إفريقية على تأدية الجزية للمسلمين[٦] ، وقد عاد ابن أبي السَّرح إلى إفريقية مرَّةً أخرى ، ووطَّد فيها الإسلام ،

---

(١) البداية والنِّهاية (٨/ ٩٠) .

(٢) انظر : الكامل ، لابن الأثير (٣/ ٨٨) .

(٣) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص(٧٧) .

(٤) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة ، ص(٤١٨) .

(٥) الولاية على البلدان (١/ ١٨٠) .

(٦) فتوح مصر وأخبارها ، ص(١٨٣) . والولاية على البلدان (١/ ١٨٠) .

وذلك في سنة ٣٣ هـ[١] ، كما كان من أهمِّ أعمال عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح غزوه لبلاد النُّوبة ، وتسمى غزوة الأساودة ، أو غزوة الحبشة عند بعض المؤرِّخين ، وقد وقعت هذه الغزوة سنة إحدى وثلاثين للهجرة ، وقد دار قتالٌ شديدٌ بين أجناد المسلمين وجنود النُّوبة ، وأصيب مجموعةٌ من المسلمين نظراً لإجادة أهالي النُّوبة للرَّمي ، وقد انتهت تلك الغزوة بصلح وقَّعه عبد الله بن سعدٍ مع أهالي النُّوبة بوضع جزية محدَّدة عليهم[٢] .

ويعتبر عبد الله بن سعدٍ بحقٍّ أوَّل قائدٍ مسلمٍ تمكَّن من اقتحام النُّوبة ، وقاتل أهلها، وفرض عليهم الجزية ، واستقرَّت الحال على ذلك في أيَّامه بين أهل النُّوبة ، والمسلمين ، كذلك من أهمِّ أعمال عبد الله بن سعدٍ العسكريَّة غزوة ذات الصَّواري وقد انتصر فيها المسلمون على الرُّوم، وقد كانت ولاية عبد الله بن سعدٍ على مصر محمودةً على العموم لدى المصريين ، ولم يروا منه ما يكرهون ، يقول عنه المقريزي : ومكث أميراً مدَّة ولاية عثمان رضي الله عنه كلَّها محموداً في ولايته[٣] .

وقال فيه الذَّهبي : ولم يتعدَّ ، ولا فعل ما ينقم عليه ، وكان أحد عقلاء الرِّجال ، وأجوادهم[٤] .

وقد كانت ولاية مصر في أوَّل أمرها هادئةً مستقرَّةً إلى أن تمكَّن مثيرو الفتنة من أمثال عبد الله بن سبأ من الوصول إليها ، وإثارة النَّاس فيها ، فكان لهم وللمتأثِّرين بهم دورٌ كبير في مقتل عثمان رضي الله عنه . كما أنَّ الأحوال في مصر نفسها اضطربت نتيجة طرد الوالي الشَّرعي لها ، واستيلاء أقوامٍ آخرين على الأمور بطريقة غير شرعيَّة ، وقد تمكَّنوا خلال تلك الفترة من بثِّ الكراهيَّة في قلوب النَّاس لخليفتهم عثمان نتيجة مكايد قاموا بها ، وأكاذيب لفَّقوها ، ونشروها[٥] ، سيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى .

ولما وقعت الفتنة بمقتل عثمان رضي الله عنه اعتزلها عبد الله بن سعدٍ وسكن عسقلان ، أو الرَّملة في فلسطين . وروى البغويُّ بإسنادٍ صحيح ، عن يزيد بن أبي حبيبٍ ، قال : خرج ابن أبي السَّرح إلى الرَّملة ـ بفلسطين ـ فلمَّا كان عند الصُّبح قال : اللَّهمَّ اجعل آخر عملي الصُّبح !

---

(١) النُّجوم الزَّاهرة (١/ ٨٠) .

(٢) الولاية على البلدان (١/ ١٨١) . وفتوح مصر وأخبارها ، ص(١٨٨) .

(٣) الخطط (١/ ٢٩٩) .

(٤) سير أعلام النُّبلاء (٣/ ٣٤) .

(٥) الولاية على البلدان (١/ ١٨٦) .

فتوضَّأ ، ثمَّ صلَّى ، فسلم عن يمينه ، ثمَّ ذهب يسلم عن يساره ، فقبض الله روحه[١] .

سادساً : مروان بن الحكم ، ووالده :

كان مروان بن الحكم من أخصِّ أقرباء عثمان به ، وأوثقهم صلةً بمركز الخلافة ، وألصقهم بالأحداث الَّتي عصفت بالوحدة الإسلاميَّة في عهد عثمان ، رضي الله عنه ، فكان منه بمنزلة كاتم سرِّ الدَّولة ، أو حامل ختم الملك[٢] ، ولم يكن مروان بالتأكيد المستشار الأوحد للخليفة الَّذي كان يستشير كبار الصَّحابة ، وصغارهم ، ولم يكن بمعزلٍ عن قادة الرَّأي في مجتمع الإسلام ، وكذلك لم يكن مروان الوزير الَّذي تجمَّعت تحت يده سلطات الدَّولة ، إنَّما كان كاتباً للخليفة ، وهي وظيفةٌ تستمدُّ أهمِّيتها من قرب صاحبها من أذن الخليفة ، وخاتمه ، أمَّا ادِّعاء توريطه عثمان ، وإثارة النَّاس عليه لتنقل الخلافة بعد ذلك إلى بني أميَّة ، فافتراضٌ لا دليل عليه ، ولم تنتقل الخلافة إلى بني أميَّة إلا بعد أهوالٍ جسام لم يكن لمروان فيها دورٌ خطيرٌ ، ثمَّ إنَّ عثمان لم يكن ضعيف الشَّخصيَّة حتى يتمكَّن منه كاتبه إلى الحدِّ الَّذي يتصوَّره الرُّواة[٣] ، ولا ذنب لمروان بن الحكم إن كان في حياة الرسول ﷺ لم يبلغ الحلم باتِّفاق أهل العلم ، بل غايته أن يكون له عشر سنين ، أو قريبٌ منها ، وكان مسلماً ، يقرأ القرآن ويتفقَّه في الدِّين ، ولم يكن قبل الفتنة معروفاً بشيءٍ يعاب فيه ، فلا ذنب لعثمان في استكتابه ، وأمَّا الفتنة ، فأصابت من هو أفضل من مروان[٤] ، بل إنَّ خبر طرد النَّبيّ ﷺ لأبيه ضعيفٌ سنداً ومتناً ، وتعقَّبه شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، فأوضح تهافته ، وضعفه[٥] ، وعرف عن مروان بن الحكم العلم ، والفقه ، والعدل ، فقد كان سيِّداً من سادات شباب قريش لمَّا علا نجمه أيَّام عثمان بن عفَّان ، وقد شهد له الإمام مالك بالفقه ، واحتجَّ بقضائه ، وفتاواه في مواطن عديدةٍ من كتاب الموطَّأ ، كما وردت في غيره من كتب السُّنَّة المتداولة في أيدي الأئمَّة المسلمين يعملون بها[٦] ، وكان الإمام أحمد يقول : يقال : كان عند مروان قضاء ، وكان يتتبَّع قضايا عمر بن الخطَّاب[٧] ، وكان مروان من أقرأ النَّاس للقرآن ، كما كان له روايةٌ للحديث الشَّريف ، حيث روى عن بعض مشاهير

---

(١) الإصابة ، ترجمة (٤٧١١) . وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥) .

(٢) عثمان بن عفان ، لصادق عرجون ، ص(١١٧) .

(٣) الدَّولة الأموية المفترى عليها ، لحمدي شاهين ، ص(١٦٠) .

(٤) منهاج السُّنَّة (٣/ ١٩٧) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه (٣/ ١٩٥ ، ١٩٦) .

(٦) الدولة الأموية المفترى عليها ، ص(١٦٩) .

(٧) البداية والنِّهاية (٨/ ٢٦٠) .

الصَّحابة ، وروى عنه بعضهم ، كما روى عنه بعض التَّابعين[١] ، وكان حريصاً على تحرِّي السُّنَّة ، والعمل بها .

روى اللَّيث بن سعد ـ فقيه مصر ـ بسنده ، قال : شهد مروان جنازةً ، فلمَّا صلَّى عليها ؛ انصرف ، فقال أبو هريرة رضي الله عنه : أصاب قيراطاً ، وحُرِم قيراطاً (أي : الأجر ، والثَّواب ، كما ورد في حديثٍ شريفٍ)[٢] فأخبر بذلك مروان ، فأقبل يجري ؛ حتَّى بدت ركبتاه ، فقعد حتَّى أُذن له[٣] .

وجاء في مقدِّمة (فتح الباري) : مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميَّة ابن عمِّ عثمان بن عفَّان ، يقال : له رؤية ـ يعني رؤية الرَّسول ﷺ ـ فإن ثبتت ، فلا يعرج على من تكلَّم فيه[٤] .

وكان يقول ابن كثيرٍ : وهو صحابيٌّ عند طائفةٍ كثيرةٍ ؛ لأنَّه ولد في حياة النَّبيِّ ﷺ[٥] ، وقد ولي مروان المدينة لمعاوية بن أبي سفيان ، فكان شديداً على أهل الفسوق بها ، حرباً على مظاهر التَّرف ، والتَّخنُّث[٦] ، عادلاً مع رعيته ، حذراً من مجاملة ذوي قرباه ، أو من يحاول منهم استغلال نفوذه ، فقد لطم أخوه عبد الرَّحمن بن الحكم مولىً لأهل المدينة يعمل حنّاطاً ـ أثناء فترة ولاية مروان على المدينة ـ فشكا الحنَّاط إلى مروان ، فأتى بأخيه عبد الرَّحمن ، وأجلسه بين يدي الحنَّاط ، وقال له : الطمه ، فقال الحناط : والله ما أردت هذا ! وإنَّما أردت أن أعلمه ؛ أنَّ فوقه سلطاناً ينصرني عليه ، وقد وهبتها لك . فقال : لست أقبلها منك ، فخذ حقَّك ، فقال : والله لا ألطمه ، ولكن أهبها لك ! ولست والله لاطمه ! فقال مروان : لست والله قابلها ! فإن وهبتها ؛ فهبها لمن لطمك ، أو لله عزَّ وعلا ، قال : قد وهبتها لله تعالى . فقال عبد الرَّحمن شعراً يهجو أخاه مروان لذلك[٧] .

إنَّ هذه الصُّورة المشرقة عن علم مروان ، وعدله ، وفقهه ، وتديُّنه تكاد تختلف تماماً عن تلك الصُّورة الكريهة الَّتي يقدِّمها عنه معظم المؤرِّخين والرُّواة ، الَّذين اجتهدوا لتشويه حياة الرَّجل ، فلمَّا حانت وفاته ، اجتهدوا أيضاً لتشويهها ، فزعموا أنَّ امرأته ـ أمَّ خالد بن يزيد بن

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) المصدر السَّابق نفسه (٨/ ٢٦٠) . والمسند ، رقم (٤٤٥٣ ، ٤٦٥٠) .

(٣) الدَّولة الأموية المفترى عليها ، ص(٢٠٠) ، والبداية والنِّهاية (٨/ ٢٦٠) .

(٤) فتح الباري (٢/ ١٦٤) . وأباطيل يجب أن تمحى من التَّاريخ ، ص(٢٥٤) .

(٥) البداية والنِّهاية (٨/ ٢٥٩) .

(٦) الدَّولة الأمويَّة المفترى عليها ، ص(٢٠٠) .

(٧) المصدر السَّابق نفسه .

معاوية ـ خنقته بوسادتها ، أو دسَّت له السمَّ ، لمَّا سبَّ ابنها ـ بزعمهم ـ أمامَ جماعةٍ من النَّاس ، وهذه القصَّة مع ما تحتويه من عناصر متناقضةٍ تبدو لأوَّل وهلة وكأنَّها أسطورةٌ اخترعتها مخيِّلات عجائز القوم ، ثمَّ ردَّدتها الألسن ، إمَّا حبّاً في الثَّرثرة ، أو لتنال من سمعة هذه الأسرة الرَّفيعة المكانة ؛ حسداً لما وصلت إليه من مجدٍ[١] ، فهل كان موته طبيعيّاً ، أم مات بإصابة الطَّاعون ، أم خنقته زوجته ؟ إنَّ تناقض الرِّوايات دليلٌ على أنَّ الحقيقة غير معروفةٍ ، والرِّوايات الَّتي تزعم : أنَّ زوجته هي الَّتي اغتالته مباشرةً ، أو بالواسطة (عن طريق بعض جواريها) غير مقبولةٍ ، أو معقولة ، فهذه الزَّوجة سيِّدةٌ شريفةٌ من بيت عبد شمس ، وزوجها قريبها ، وهو خليفةٌ ، وهي كانت زوجة خليفةٍ ، وأمُّ خليفةٍ (وهو معاوية بن يزيد بن معاوية) وهو عملٌ لا تُقْدِم النِّساء الشَّريفات عليه ، ثمَّ إنَّنا لم نَرَ أيَّ أثرٍ لهذا الاغتيال ، فلم يحدث في الأسرة أيُّ خلاف ، ولا مطالبة بالثَّأر ، وظلَّ خالدٌ على مكانته عند عبد الملك ، كما أنَّ الدَّافع لا يكفي بحالٍ لارتكاب جريمة القتل[٢] ، وذكر عن بعض أهل العلم : أنَّه قال : كان آخر كلامٍ تكلَّم به مروان : وجبت الجنة لمن خاف النَّار ، وكان نقش خاتمه : العزَّة لله ، وقيل : آمنت بالعزيز الرَّحيم[٣] ، وقال ابن القيِّم : أحاديث ذمِّ الوليد ، وذمِّ مروان بن الحكم كذبٌ[٤] .

سابعاً : هل جامل عثمان أحداً من أقاربه على حساب المسلمين ؟

لو كان عثمان رضي الله عنه أراد أن يجامل أحداً من أقاربه على حساب المسلمين، لكان ربيبه محمَّد بن أبي حذيفة أولى النَّاس بهذه المجاملة ، ولكنَّ الخليفة أبى أن يولِّيه شيئاً ليس كفؤاً له بقوله: يا بنيَّ ! لو كنت رضاً ثمَّ سألتني العمل ؛ لاستعملتك ، ولكن لست هناك[٥] . ولم يكن ذلك كراهيةً له ، ولا نفوراً منه ، وإلا لما جهَّزه من عنده ، وحمله ، وأعطاه حين استأذن في الخروج إلى مصر[٦] .

وأمَّا استعمال الأحداث فكان لعثمان رضي الله عنه في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ ، فقد جهَّز جيشاً لغزو الرُّوم في آخر حياته واستعمل عليه أسامة بن زيد ، رضي الله عنهما[٧] .

---

(١) عبد الملك بن مروان ، د . الريس ، ص(١١٢) .
(٢) الدَّولة الأموية المفترى عليها ، ص(٢٠١) .
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٦٢) .
(٤) المنار المنيف ، ص(١١٧) . وفصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، ص(٧٧) .
(٥) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٢٤٧) .
(٦) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٢٤٧) . وتاريخ الطَّبري (٥/ ٤١٦) .
(٧) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٤٢٧) . وتاريخ الطَّبري (٥/ ٤١٦) .

وعندما توفّي الرّسول ﷺ تمسّك الصّدّيق رضي الله عنه بإنفاذ هذا الجيش ، لكنَّ بعض الصحابة رغبوا في تغيير أسامة بقائدٍ أحسن منه ، فكلّموا عمر في ذلك ليكلّم أبا بكر ، فغضب أبو بكر لمّا سمع هذه المقالة ، وقال لعمر : يا عمر ! استعمله رسول الله ﷺ ، وتأمرني أن أعزله[١] . ويجيب عثمان بنفسه على هذه المآخذ أمام الملأ من الصّحابة بقوله : ولم أستعمل إلا مجتمعاً ، محتلماً ، مرضيّاً ، وهؤلاء أهل عملهم ، فسلوهم عنهم ، وهؤلاء أهل بلدهم وقد ولّى من قبلي أحدث منهم ، وقيل لرسول الله ﷺ ممّا قيل لي في استعماله لأسامة ، أكذلك ؟ قالوا : نعم يعيبون للنّاس ما لا يفسرون[٢] . ويقول عليٌّ رضي الله عنه : ولم يولِّ ـ أي : عثمان ـ إلا رجلاً سويّاً ، عدلاً ، وقد ولّى رسول الله ﷺ عتّاب بن أسيد على مكّة وهو ابن عشرين سنة[٣] .

لم يكن ولاة الأمصار في عهد عثمان رضي الله عنه جاهلين بأمور الشّرع ، ولم يكونوا من المفرّطين في الدِّين ، وإذا كانت لهم ذنوبٌ ، فلهم حسناتٌ كثيرةٌ ، ومع ذلك فإن سيئات وذنوب هؤلاء تعود عليهم ، ولم يكن لها تأثيرٌ في المجتمع المسلم ، وقد تتبعنا آثار هؤلاء الولاة أيّام ولايتهم ، ووجدناها عظيمة الفائدة للإسلام والمسلمين ، وقد اهتدى على يدي ولاة عثمان مئات الألوف إلى الإسلام ، وبسبب فتوحاتهم انضمَّ إلى ديار الإسلام أقاليمُ واسعةٌ ، ولو لم يكن عند هؤلاء من الشّجاعة ، والدِّين ما يحثُّهم على الجهاد ، ما قادوا الجيوش إلى الجهاد ، وفيه مظنّة الهلاك ، وفيه ترك الرّاحة ، ومتاع الدُّنيا ، وقد تتبّعنا سيرة هؤلاء الولاة ، فوجدنا لكلِّ واحدٍ منهم فتحاً ، أو فتوحاً في الجهات الّتي تجاور ولايته ، مع مناقب ، وصفاتٍ حسنةٍ تؤهّله للقيادة[٤] .

إن الّذي يرجع إلى الصّحيح الممحّص من وقائع التّاريخ ، ويتتبّع سيرة الرّجال الّذين استعان بهم أمير المؤمنين ذو النُّورين ـ رضوان الله عليهم ـ وما كان لجهادهم من جميل الأثر في تاريخ الدّعوة الإسلاميّة ، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج في هناء الأمّة ، وسعادتها ، فإنّه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الجهر بالإعجاب، والفخر كلّما أمعن في دراسة ذلك الدّور من أدوار التّاريخ الإسلاميِّ[٥] .

---

(١) تاريخ الطّبري (٥/ ٤١٦) .

(٢) المصدر السّابق نفسه (٥/ ٣٥٥) .

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٧٨) .

(٤) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١١) .

(٥) حاشية المنتقى من منهاج الاعتدال ، ص(٣٩٠) .

إنَّ عثمان وولاته انشغلوا بمدافعة الأعداء ، وجهادهم ، وردِّهم ، ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدَّولة الإسلاميَّة ، ومدِّ نفوذها في مناطق جديدةٍ ، وقد كان للولاة تأثيرٌ مباشرٌ في أحداث الفتنة حيث كانت التُّهمة موجَّهةً إليهم ، وأنَّهم اعتدوا على النَّاس، ولكنَّنا لم نلمس حوادث معيَّنةً يتَّضح فيها هذا الاعتداء المزعوم، والمشاع، كما اتُّهم عثمان بتولية أقاربه ، وقد دحضنا تلك الفرية ، وهكذا نرى : أنَّ عثمان لم يألُ جهداً في نصح الأمَّة ، وفي تولية من يراه أهلاً للولاية ، ومع هذا فلم يسلم عثمان ، وولاته من اتِّهامات وجِّهت إليهم من قبل أصحاب الفتنة في حينها .

كما أنَّ عثمان رضي الله عنه لم يسلم من كثيرٍ من الباحثين في كتاباتهم غير المنصفة ، وغير المحقَّقة عن عهد عثمان وخصوصاً الباحثين المُحدَثين الَّذين يطلقون أحكاماً لا تعتمد على التَّحقيق ، أو على وقائع محدَّدةٍ ، يعتمدون فيها على مصادر موثوقةٍ ، فقد تورَّط الكثير منهم في الرِّوايات الضَّعيفة ، والإماميَّة ، وبنوا أحكاماً باطلةً وجائرةً في حقِّ الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفَّان ، مثل طه حسين في كتابه : الفتنة الكبرى ، وراضي عبد الرَّحيم في كتابه : النِّظام الإداريِّ ، والحربيِّ ، وصبحي الصَّالح في كتابه : النُّظم الإسلاميَّة ، ومولوي حسين في كتابه : الإدارة العربيَّة ، وصبحي محمصاني في كتابه : تراث الخلفاء الرَّاشدين في الفقه ، والقضاء ، وتوفيق اليوزبكي في كتابه : دراسات في النُّظم العربيَّة والإسلاميَّة ، ومحمد الملحم في كتابه : تاريخ البحرين في القرن الأول الهجري ، وبدوي عبد اللطيف في كتابه : الأحزاب السِّياسية في فجر الإسلام ، وأنور الرِّفاعي في كتابه : النظم الإسلاميَّة ، ومحمد الرَّيِّس في كتابه : النَّظريات السياسيَّة ، وعلي حسني الخربوطلي في كتابه : الإسلام والخلافة ، وأبي الأعلى المودودي في كتابه : الملك والخلافة ، وسيد قطب في كتابه : العدالة الاجتماعية ، وغيرهم .

لقد كان عثمان رضي الله عنه بحقٍّ الخليفة المظلوم الَّذي افترى عليه خصومه الأوَّلون ، ولم ينصفه المتأخِّرون[1] .

* * *

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ٢٢٢ إلى ٢٣٢) .

المبحث الرَّابع
حقيقة العلاقة بين أبي ذرٍّ الغفاري وعثمان بن عفَّان رضي الله عنهما

أولاً : مجمل القصَّة :

إن مبغضي عثمان بن عفَّان رضي الله عنه كانوا يشنِّعون عليه أنَّه نفى أبا ذرٍّ رضي الله عنه إلى الرَّبَذَة ، وزعم بعض المؤرِّخين : أنَّ ابن السَّوداء (عبد الله بن سبأ) لقي أبا ذرٍّ في الشَّام ، وأوحى إليه بمذهب القناعة ، والزُّهد ، ومواساة الفقراء ، ووجوب إنفاق المال الزَّائد عن الحاجة ، وجعله يعيب معاوية ، فأخذه عبادة بن الصَّامت إلى معاوية ، وقال له : هذا والله الَّذي بعث إليك أبا ذرٍّ. فأخرج معاوية أبا ذرٍّ من الشَّام[١] ، وقد حاول أحمد أمين أن يوجد شبهاً بين رأي أبي ذرٍّ ، ورأي مَزْدك الفارسيِّ ، وقال بأنَّ وجه الشَّبه جاء من أن ابن سبأ كان في اليمن وطوَّف في العراق ، وكان الفرس في اليمن ، والعراق قبل الإسلام ، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقَّى هذه الفكرة من مزدكيَّة العراق ، واعتنقها أبو ذرٍّ حسن النِّيَّة في اعتقادها[٢] .

وكلُّ ما قيل في قصَّة أبي ذرٍّ ، ممَّا يُشنَّع به على عثمان بن عفَّان باطلٌ لا يُبنى على روايةٍ صحيحةٍ ، وكلُّ ما قيل حول اتِّصال أبي ذرٍّ رضي الله عنه بابن السَّوداء باطلٌ لا محالة[٣] .

والصَّحيح : أنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه نزل في الرَّبذة باختياره ، وأنَّ ذلك كان بسبب اجتهاد أبي ذرٍّ في فهم آيةٍ خالف فيه الصَّحابة ، وأصرَّ على رأيه ، فلم يوافقه أحدٌ عليه ، فطلب أن ينزل بالرَّبذَة[٤] الَّتي كان يغدو إليها زمن النَّبيِّ ﷺ ، ولم يكن نزوله بها نفياً قسريّاً ، أو إقامةً جبريَّة ، ولم يأمره الخليفة بالرُّجوع عن رأيه ؛ لأن له وجهاً مقبولاً ، لكنَّه لا يجب على المسلمين الأخذ به[٥] ، وأصحُّ ما روي في قصَّة أبي ذرٍّ رضي الله عنه ما رواه البخاريُّ في صحيحه عن زيد بن

---

(١) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ٢١٦ ، ٢١٧) .

(٢) فجر الإسلام ، ص(١١٠) .

(٣) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ٢١٧) .

(٤) كانت منزلاً في الطَّريق بين العراق ومكَّة .

(٥) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ٢١٧) .

وهبٍ ، قال : مررت بالرَّبذة ، فإذا أنا بأبي ذرٍّ رضي الله عنه فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشَّام ، فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

قال معاوية : نزلت في أهل الكتاب ، فقلت : نزلت فينا ، وفيهم ، فكان بيني وبينه في ذاك ، وكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إليَّ عثمان أن أقدم المدينة ، فقدمتها ، فكثر عليَّ النَّاس حتَّى كأنَّهم لم يروني قبل ذلك ، فذكرت ذلك لعثمان ، فقال لي : إن شئت فكنت قريباً . فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ، ولو أمَّروا عليَّ حبشيّاً ؛ لسمعت ، وأطعت[1] . وقد أشار هذا الأثر إلى أمورٍ مهمَّةٍ منها :

١ـ سأله زيد بن وهب ، ليتحقَّق ممَّا أشاعه مُبْغِضُو عثمان : هل نفاه عثمان ، أو اختار أبو ذرٍّ المكان ؟ فجاء سياق الكلام : أنَّه خرج بعد أن كثر النَّاس عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشَّام ، وليس في نصِّ الحديث : أنَّ عثمان أمره بالذَّهاب إلى الرَّبَذَة ، بل اختارها بنفسه ، ويؤيِّد هذا ما ذكره ابن حجر عن عبد الله ابن الصَّامت قال : دخلت مع أبي ذرٍّ على عثمان ، فحسر رأسه ، فقال : والله ما أنا منهم ـ يعني : الخوارج ـ فقال : إنَّما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، ائذن لي بالرَّبَذَة . قال : نعم[2] .

٢ـ قوله : (كنت بالشَّام) : بيَّن السَّبب في سكناه الشَّام ما أخرجه أبو يعلى عن طريق زيد بن وهب : حدَّثني أبو ذرٍّ ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **إذا بلغ البناء ـ أي : المدينة ـ سَلْعاً ، فارتحل إلى الشَّام** » . فلمَّا بلغ البناء سلعاً ؛ قدمت الشَّام ، فسكنت بها[3] ، وفي روايةٍ : قالت أمُّ ذرٍّ : والله ما سيَّر عثمان أبا ذرٍّ ـ تعني : إلى الرَّبذة ـ ولكن رسول الله ﷺ قال : إذا بلغ البناء سلعاً ، فاخرج منها[4] .

٣ـ إنَّ قصَّة أبي ذرٍّ في المال جاء من اجتهاده في فهم الآية الكريمة : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ

---

(١) البخاريُّ ، كتاب الزَّكاة ، باب ما أُدِّي زكاته فَليس بكنز ، رقم (١٤٠٦) .

(٢) فتح الباري (٣/ ٢٧٤) .

(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٩) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٧٢) صحيح الإسناد .

عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة : ٣٤ـ٣٥] . وروى البخاريُّ عن أبي ذرٍّ ما يدلُّ على أنَّه فسَّر الوعيد ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ الآية ، وكان يخوِّف النَّاس به ، فعن الأحنف بن قيس ، قال : جلستُ إلى ملأٍ من قريشٍ في مسجد المدينة ، فجاء رجلٌ خَشِنُ الشَّعر ، والثِّياب ، والهيئة ، حتَّى قام عليهم ، فسلَّم ، ثمَّ قال : بشِّر الكانزين برَضْفٍ[١] يُحمى عليه في نار جهنَّم ، ثمَّ يوضَعُ على حَلَمة ثَدْيِ أحدهم ، حتَّى يخرج من نُغْضِي[٢] كتفه ، ويوضع على نُغض كتفه حتَّى يخرج من حَلَمة ثديه ، يتزلزل[٣] . ثمَّ ولَّى فجلس إلى ساريةٍ ، وتبعتُه ، وجلست إليه ، وأنا لا أدري من هو ، فقلت له : لا أرى القوم إلا قد كرهوا الَّذي قلت . قال : إنَّهم لا يعقلون شيئاً . واستدلَّ أبو ذرٍّ رضي الله عنه بقول رسول الله ﷺ : « **ما أحبُّ أنَّ لي مثل أحدٍ ذهباً ، أنفقه كُلَّه ، إلا ثلاثة دنانير** »[٤] .

٤ـ وقد خالف جمهور الصَّحابة أبا ذرٍّ ، وحملوا الوعيد على مانعي الزَّكاة واستدلوا على ذلك بالحديث ، الَّذي رواه أبو سعيد الخدريُّ ، قال : قال النَّبيّ ﷺ : « **ليس فيما دون خمس أواقٍ صدقةٌ ، وليس فيما دون خمس ذَوْدٍ صدقةٌ ، وليس فيما دون خمسة أوسقٍ صدقةٌ** »[٥] . وقال الحافظ ابن حجر : ومفهوم الحديث : أنَّ ما زاد على الخمس ففيه صدقةٌ ، ومقتضاه : أنَّ كلَّ مال أخرجت منه الصَّدقة ، فلا وعيد على صاحبه ، فلا يسمَّى ما يَفْضُل بعد إخراجه الصَّدقة كنزاً[٦] . وقال ابن رشد : فإنَّ ما دون الخمس لا تجب فيه الزَّكاة ، وقد عفي عن الحقِّ فيه ، فليس بكنز قطعاً ، والله قد أثنى على فاعل الزَّكاة ، ومن أثني عليه في واجب حقِّ المال لم يلحقه ذمٌّ من جهة ما أثني عليه فيه ، وهو المال[٧]، قال الحافظ : ويتلخَّص أن يقال : ما لم تجب فيه الصَّدقة لا يسمَّى كنزاً ؛ لأنَّه معفوٌّ عنه ، فليكن ما أخرجت منه الزَّكاة كذلك ؛ لأنَّه عفي عنه بإخراج ما وجب منه ، فلا يسمَّى كنزاً[٨] .

وقال ابن عبد البرِّ : والجمهور على أنَّ الكنز المذموم ما لم تؤدَّ زكاته ، ويشهد له حديث

---

(١) الرَّضْفُ : الحجارة المحمَّاة ، واحدها : رَضْفَةٌ .

(٢) نغض : العظم الدَّقيق الَّذي على طرف الكتف أو على أعلى الكتف .

(٣) يتزلزل : يضطرب ، ويتحرَّك .

(٤) البخاري ، كتاب الزَّكاة ، رقم (١٤٠٧) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، رقم (١٤٠٥) .

(٦) فتح الباري (٣/ ٢٧٢) .

(٧) فتنة مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ (١/ ١٠٧) .

(٨) المصدر السابق نفسه .

أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « **إذا أدَّيت زكاة مالك ؛ فقد قضيت ما عليك** » . ولم يخالف في ذلك إلا طائفةٌ من أهل الزُّهد كأبي ذرٍّ[١] .

٥ ـ ولعلَّ ممَّا يفسر مذهب أبي ذرٍّ في الإنفاق ، ما رواه الإمام أحمد عن شدَّاد ابن أوسٍ ، قال : كان أبو ذرٍّ يسمع الحديث من رسول الله ﷺ فيه الشِّدَّة ، ثمَّ يخرج إلى قومه ، يسلِّم لعلَّه يشدِّد عليهم ، ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ يرخِّص فيه بعد ، فلم يسمعه أبو ذرٍّ ، فيتعلَّق أبو ذرٍّ بالأمر الشَّديد[٢] .

٦ ـ قوله : إن شئت ؛ تنحَّيت ، فكنت قريباً ؛ يدلُّ على أنَّ عثمان طلب من أبي ذر أن يتنحَّى عن المدينة ، برفقٍ ، ولم يأمره ، ولم يحدِّد له المكان الّذي يخرج إليه ، ولو رفض أبو ذرٍّ الخروج ما أجبره عثمان على ذلك ، ولكنَّ أبا ذر كان مطيعاً للخليفة؛ لأنَّه قال في نهاية الحديث : لو أمَّروا عليَّ حبشيّاً؛ لسمعت، وأطعت[٣] .

وممَّا يدلُّ على أنَّه يمقت الفتنة ، والخروج على الإمام المبايع ما رواه ابن سعدٍ في أنَّ ناساً من أهل الكوفة قالوا لأبي ذرٍّ وهو بالرَّبَذَة : إنَّ هذا الرَّجل فعل بك ، وفعل ، هل أنت ناصبٌ له رايةً ـ يعني : مقاتله ـ ؟ فقال : لا ! لو أنَّ عثمان سيَّرني من المشرق إلى المغرب ؛ لسمعت وأطعت[٤] .

٧ ـ والسَّبب في تنحِّي أبي ذرٍّ عن المدينة ، أو طلب عثمان منه ذلك : أنَّ الفتنة بدأت تطلُّ برأسها في الأقاليم ، وأشاع المبغضون الأقاويل الملفَّقة ، وأرادوا أن يستفيدوا من إنكار أبي ذرٍّ متعلِّقاً برأيه ، ومذهبه ، ولا يريد أن يفارقه ، فرأى عثمان رضي الله عنه تقديم دفع المفسدة على جلب المصلحة ؛ لأنَّ في بقاء أبي ذرٍّ بالمدينة مصلحةً كبيرة من بثِّ علمه في طلاب العلم ، ومع ذلك فرجح عند عثمان دفع ما يتوقَّع من المفسدة من الأخذ بمذهبه الشَّديد في هذه المسألة .

٨ ـ قال أبو بكر بن العربيِّ : كان أبو ذرٍّ زاهداً ، ويرى النَّاس يتَّسعون في المراكب ، والملابس حين وجدوا ، فينكر ذلك عليهم ، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم ؛ وهو غير لازمٍ ، فوقع بين أبي ذرٍّ ومعاوية كلامٌ بالشَّام ، فخرج إلى المدينة ، فاجتمع إليه النَّاس ، فجعل يسلك تلك الطُّرق ، فقال له عثمان : لو اعتزلت . معناه : أنَّك على مذهبٍ لا يصلح لمخالطة النَّاس .

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢٧٣) .

(٢) المسند (٥/ ١٢٥) .

(٣) البخاريُّ ، رقم (١٤٠٦) .

(٤) الطَّبقات (٤/ ٢٢٧) .

ومن كان على طريقة أبي ذرٍّ فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه ، أو يخالط النَّاس ، ويسلم لكلِّ أحدٍ حاله ممَّا ليس بحرامٍ في الشَّريعة ، فخرج زاهداً فاضلاً ، وترك جلَّةً فضلاء ، وكلٌّ على خيرٍ ، وبركةٍ ، وفضلٍ ، وحال أبي ذرٍّ أفضل ، ولا تمكن لجميع الخلق ، فلو كانوا عليها ، لهلكوا ؛ فسبحان مرتِّب المنازل[١] !

وقال ابن العربيِّ : ووقع بين أبي الدَّرداء ومعاوية كلامٌ ، وكان أبو الدَّرداء زاهداً ، فاضلاً ، قاضياً لهم (في الشَّام) ، فلمَّا اشتدَّ في الحقِّ ، وأخرج طريقة عمر بن الخطَّاب في قومٍ لم يحتملوها ؛ عزلوه ، فخرج إلى المدينة ، وهذه كلُّها مصالح لا تقدح في الدِّين ، ولا تؤثِّر في منزلة أحدٍ من المسلمين بحالٍ ، وأبو الدَّرداء ، وأبو ذرٍّ بريئان من كلِّ عيبٍ ، وعثمان بريءٌ أعظم براءةٍ ، وأكثر نزاهةٍ ، فمن روى أنَّه نفى ، وروى سبباً فهو كلُّه باطلٌ[٢] .

٩ ـ ولم يقل أحدٌ من الصَّحابة لأبي ذرٍّ : إنه أخطأ في رأيه ؛ لأنَّه مذهب محمودٌ لمن يقدر عليه ، ولم يأمر عثمان أبا ذرٍّ بالرُّجوع عن مذهبه ، وإنَّما طلب منه أن يكفَّ عن الإنكار على النَّاس ما هم فيه من المتاع الحلال . . . ، ومن روى : أنَّ عثمان نهى أبا ذرٍّ عن الفتيا مطلقاً ، لم تصل روايته إلى درجة الخبر الصَّحيح[٣] . والَّذي صحَّ عند البخاريِّ : أن أبا ذرٍّ قال : لو وضعتم الصَّمصامة على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ ثم ظننت أنِّي أُنفذُ كلمةً سمعتها من النَّبيِّ ﷺ قبل أن تجيزوا عليَّ ؛ لأنفذتها[٤] .

وفي البخاريِّ : لم يرو : أنَّ عثمان نهى أبا ذرٍّ عن الفتيا ؛ لأنَّ نهي الصَّحابيِّ عن الفتيا دون تحديد الموضوع أمرٌ ليس بالهيِّن[٥] .

١٠ ـ ولو كان عثمان نهاه عن الفتيا مطلقاً ؛ لاختار له مكاناً لا يرى فيه النَّاس أو حبسه في المدينة ، أو منعه دخول المدينة ، ولكن أذن له بالنُّزول في منزلٍ يكثر مرور النَّاس به ؛ لأنَّ الرَّبذة كانت منزلاً من منازل الحاجِّ العراقيِّ ، وكان أبو ذرٍّ يتعاهد المدينة ، يصلِّي في مسجد رسول الله ﷺ . وقال له عثمان : لو تنحَّيت فكنت قريباً .

والرَّبذة ليست بعيدةً عن المدينة ، وكان يجاورها حِمَى الرَّبذة ؛ الَّذي ترعى به إبل الصَّدقة ، ولذلك يروى : أنَّ عثمان أقطعه صرمةً من إبل الصَّدقة ، وأعطاه مملوكين ، وأجرى

---

(١) العواصم من القواصم ، ص(٧٧) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٧٩) .

(٣) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ٢٢٣) .

(٤) البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب العلم قبل القول والعمل (١/ ٢٩) .

(٥) المدينة المنوَّرة فجر الإسلام (٢/ ٢٢٤) .

عليه رزقاً . وكانت الرَّبذة أحسن المنازل في طريق مكَّة[١] .

وبعد أن ذكر الإمام الطَّبريُّ الأخبار الّتي تفيد اعتزال أبي ذرٍّ من تلقاء نفسه ، قال : وأمَّا الآخرون ؛ فإنَّهم رووا في سبب ذلك أشياء كثيرةً ، وأموراً شنيعةً ، كرهت ذكرها[٢] .

إنَّ الحقيقة التَّاريخية تقول : إنَّ عثمان رضي الله عنه لم ينف أبا ذرٍّ رضي الله عنه ، إنَّما استأذنه ، فأذن له ، ولكنَّ أعداء عثمان رضي الله عنه كانوا يشيعون عليه بأنَّه نفاه ، ولذلك لمَّا سأل غالب القطَّان ، الحسن البصريَّ : عثمان أخرج أبا ذرٍّ ؟ قال الحسن : لا ، معاذ الله[٣] ! وكلُّ ما روي في أنَّ عثمان نفاه إلى الرَّبذة فإنَّه ضعيفُ الإسناد ، لا يخلو من علَّةٍ قادحةٍ ، مع ما في متنه من نكارةٍ لمخالفته للمرويَّات الصَّحيحة ، والحسنة ، الّتي تبيِّن أنَّ أبا ذرٍّ استأذن للخروج إلى الرَّبَذَة ، وأنَّ عثمان أذن له[٤] ، بل إنَّ عثمان أرسل يطلبه من الشَّام ، ليجاوره بالمدينة ، فقد قال له عندما قدم من الشَّام : إنا أرسلنا إليك لخيرٍ ، لتجاورنا بالمدينة[٥] . وقال له أيضاً : كن عندي ، تغدو عليك ، وتروح اللِّقاح[٦] . أفمن يقول ذلك له ينفيه[٧] ؟ ! .

ولم تنصَّ على نفيه إلا روايةٌ رواها ابن سعد ، وفيها بريدة بن سفيان الأسلميُّ ، الّذي قال عنه الحافظ ابن حجر : ليس بالقويِّ ، وفيه رفضٌ . فهل تقبل رواية رافضيٍّ تتعارض مع الرِّوايات الصَّحيحة ، والحسنة ؟ ![٨] ، واستغلَّ الإماميَّة هذه الحادثة أبشع استغلالٍ ، فأشاعوا : أنَّ عثمان رضي الله عنه نفى أبا ذرٍّ إلى الرَّبذة ، وأنَّ ذلك ممَّا عيب عليه من قبل الخارجين عليه ، أو أنَّهم سوَّغوا الخروج عليه[٩] ، وعاب عثمان رضي الله عنه بذلك ابن المطهَّر الحلِّي الإماميَّة المتوفى سنة ٧٢٦ هـ ، بل زاد : أنَّ عثمان رضي الله عنه ضرب أبا ذرٍّ ضرباً وجيعاً[١٠] ، وردَّ عليه شيخ الإسلام ابن تيميَّة ردّاً جامعاً قويّاً[١١] ، وكان سلف هذه الأمَّة يعلمون هذه الحقيقة ،

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٨٦) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٢٨٨) .

(٣) تاريخ المدينة ، ابن شبَّة ، ص(١٠٣٧) إسناده صحيحٌ .

(٤) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١١٠) .

(٥) تاريخ المدينة ، ص(١٠٣٦ ـ ١٠٣٧) إسناده حسنٌ .

(٦) الطَّبقات ، لابن سعد (٤/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧) .

(٧) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١١١) .

(٨) المصدر السَّابق نفسه .

(٩) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١١١) .

(١٠) منهاج السُّنَّة لابن تيميَّة (٦/ ١٨٣) .

(١١) المصدر السَّابق نفسه (٦/ ٢٧١ ، ٣٥٥) .

فإنَّه لما قيل للحسن البصريِّ : عثمان أخرج أبا ذرٍّ ؟ قال : لا ، معاذ الله[1] !

وكان ابن سيرين إذا ذُكر له : أنَّ عثمان رضي الله عنه سيَّر أبا ذرٍّ ؛ أخذه أمرٌ عظيم ، ويقول : هو خرج من نفسه ، ولم يسيِّره عثمان[2] ، وكما تقدَّم في الرِّواية الصَّحيحة الإسناد : أنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه لمَّا رأى كثرة النَّاس عليه خشي الفتنة ، فذكر ذلك لعثمان كأنَّه يستأذنه في الخروج ، فقال له عثمان رضي الله عنه : إن شئت ؛ تنحيت ، فكنت قريباً[3] .

ثانياً : بطلان تأثير ابن سبأ على أبي ذرٍّ رضي الله عنه :

كتب سعيد الأفغانيُّ في كتابه : عائشة والسِّياسة ، فعظَّم دور ابن سبأ في الفتنة ، ونسب إليه كلَّ المؤامرات ، والفتن والملاحم الواقعة بين الصَّحابة ، ويرى : أنَّ هذه المؤامرة المحكمة سهر عليها أبالسة خبيرون ، وسدَّدوا خطاها ، وتعهَّدوها ، حتَّى آتت ثمارها في جميع الأقطار ، ولهذا كتب هذا العنوان (ابن سبأ البطل الخفيُّ المخيف)[4] ، ويبدو التَّهويل من شأن ابن سبأ عند الأفغاني حينما يصفه بأنَّه رجل على غايةٍ من الذَّكاء وصدق الفراسة ، والنَّظر البعيد ، والحيلة الواسعة ، والنَّفاذ إلى نفسية الجماهير[5] ، ويقطع بأنَّه أحد أبطال جمعية تلموديَّة سرِّيَّة غايتها تقويض الدَّولة الإسلاميَّة[6] . ويكاد يقرِّر بأنَّه يعمل لصالح دولة الرُّوم الَّتي انتزع المسلمون منها لفترةٍ قريبةٍ قطرين مهمَّين هما : مصر ، والشَّام ، عدا ما سواهما من بلادٍ أخرى على البحر المتوسِّط ، ويستغرب نشاط ابن سبأ إلى شتَّى المجالات الدِّينيَّة ، والسياسيَّة ، والحربيَّة[7] .

وهو يرى : أنَّ ابن سبأ كان موفَّقاً كل التَّوفيق في لقائه مع أبي ذرٍّ ، وفي تفصيل هذه المقالة الَّتي ركبها على مزاج أبي ذرٍّ ، وأنَّ الَّذي ساعده على ذلك فهمه الجيِّد لأمزجة النَّاس ، واستخباراته الصَّادقة المنظَّمة[8] ، وهذا الزَّعم ـ أي : في تأثير ابن سبأ على أبي ذرٍّ رضي الله عنه لا أساس له من الصَّحة من عدَّة وجوهٍ :

---

(١) تاريخ المدينة (١٠٣٧) إسناده صحيحٌ .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) البخاريُّ ، كتاب الزَّكاة ، رقم (١٤٠٦) .
(٤) عائشة والسِّياسة ، ص(٦٠) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .
(٦) المصدر السَّابق نفسه .
(٧) المصدر السَّابق نفسه .
(٨) المصدر السَّابق نفسه .

أ - حينما أرسل معاوية إلى عثمان رضي الله عنه يشكو إليه أمر أبي ذرٍّ لم تكن منه إشارة إلى تأثير ابن سبأ عليه، واكتفى أن قال: إنَّ أبا ذرٍّ قد أعضل بي، وقد كان من أمره كيت، وكيت[١].

ب - ذكر ابن كثير الخلاف الواقع بين أبي ذرٍّ ومعاوية بالشَّام في أكثر من موضعٍ في كتابه، ولم يرد ابن سبأ في واحدٍ منها[٢].

جـ - وفي صحيح البخاريِّ ورد الحديث الّذي يشير إلى أصل الخلاف بين أبي ذرٍّ ومعاوية، وليس فيه الإشارة من قريب أو بعيدٍ إلى ابن سبأ[٣].

د - وفي أشهر الكتب الّتي ترجمت للصَّحابة ترد محاورة معاوية لأبي ذرٍّ، ثمَّ نزوله الرَّبذة، ولكن شيئاً من تأثير ابن سبأ على أبي ذرٍّ لا يذكر[٤].

هـ - بل ورد الخبر في الطَّبريِّ هكذا: فأمَّا العاذرون معاوية في ذلك - يعني: إشخاص معاوية أبا ذرٍّ إلى المدينة - فذكروا في ذلك قصَّة ورود ابن السَّوداء الشَّام ولقياه أبا ذرٍّ... إلخ[٥]. وهذا الخبر الّذي أورده الطَّبريُّ، ساقطٌ، وكاذبٌ، تكذِّبه وقائع التَّاريخ الزمنيَّة، وإليك البيان:

* يذكرون أنَّ ابن سبأ أسلم في عهد عثمان، وكان يهوديّاً من اليمن، وبدأ نشاطه المخرِّب في الحجاز، ولكنَّهم لم يذكروا أنَّه التقى أحداً، أو التقاه أحدٌ في الحجاز.

* كان أول ظهوره في البصرة، بعد أن تولَّى عبد الله بن عامر عليها بثلاث سنوات، وعبد الله بن عامرٍ جاء بعد أبي موسى الأشعريِّ سنة ٢٩ هـ وبهذا يكون ظهوره في البصرة ٣٢ هـ، وقد طرده ابن عامر من البصرة يوم عرفة.

* قالوا: إنَّه توجَّه إلى الكوفة، فباض، وفرَّخ، وحرَّض على معاوية، ولا بدَّ: أنَّه مكث زمناً في الشَّام ليتعرَّف على أحوال الرِّجال، ويضع خططه ليبث دعوته فيهم، ولنفترض جدلاً، أنَّه عرف أمره في الشَّام في أواخر سنة ٣٣ هـ، فماذا تقول أيُّها القارئ إذا عرفت أنَّ الرِّوايات الصَّحيحة تقول: إنَّ أبا ذرٍّ كانت مناظرته لمعاوية سنة ٣٠ هـ، وأنَّه رجع إلى المدينة، وتوفي بالرَّبذة سنة ٣١ هـ، أو سنة ٣٢ هـ، ومعنى هذا أنَّ ابن سبأ ظهر في البصرة في

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٨٥).
(٢) البداية والنِّهاية (٧/ ١٧٠، ١٨٠).
(٣) البخاري، رقم (١٤٠٦).
(٤) عبد الله بن سبأ، وأثره في أحداث الفتنة، ص(٥١).
(٥) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٨٥).

وقتٍ كان فيه أبو ذرٍّ ميتاً ، فكيف ، وأين التقاه ؟[١] .

إنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه لم يتأثَّر لا من قريبٍ ، ولا من بعيدٍ بآراء عبد الله بن سبأ اليهوديِّ ، وقد أقام بالرَّبذة حتَّى توفِّي ، ولم يحضر شيئاً ممَّا وقع في الفتن[٢] ، ثمَّ هو قد روى حديثاً من أحاديث النَّهي عن الدُّخول في الفتنة[٣] .

ثالثاً : وفاة أبي ذرٍّ رضي الله عنه وضمُّ عثمان عياله إلى عياله :

في غزوة تبوك قيل لرسول الله ﷺ : قد تخلَّف أبو ذرٍّ ، وأبطأ به بعيره . فقال : دعوه ، فإن يك فيه خيرٌ فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه ، وتلوَّم[٤] أبو ذرٍّ على بعيره ، فلمَّا أبطأ عليه ، أخذ متاعه ، فحمله على ظهره ، ثمَّ خرج يتَّبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله ، فنظر ناظرٌ من المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذرٍّ[٥] . فلمَّا تأمَّله القوم قالوا : يا رسول الله ! هو والله أبو ذرٍّ ! فقال رسول الله ﷺ : « **رحم الله أبا ذرٍّ ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده** »[٦] .

ومضى الزَّمان وجاء عهد عثمان ، وأقام أبو ذرٍّ في الرَّبذة ، فلمَّا حضرته الوفاة أوصى امرأته ، وغلامه : إذا متُّ ؛ فاغسلاني وكفِّناني ، ثمَّ احملاني فضعاني على قارعة الطَّريق ، فأوَّل ركبٍ يمرُّون بكم ، فقولوا : هذا أبو ذرٍّ . فلمَّا مات ؛ فعلوا به كذلك ، فطلع ركبٌ فما علموا به حتَّى كادت ركائبهم تطأ سريره ، فإذا ابن مسعودٍ في رهطٍ من أهل الكوفة ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : جنازة أبي ذرٍّ ، فاستهلَّ ابن مسعود يبكي ، فقال : صدق رسول الله ﷺ : « **يرحم الله أبا ذرٍّ ! يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده** »[٧] . فغسَّلوه وكفَّنوه وصلَّوا عليه ، ودفنوه ، فلمَّا أرادوا أن يرتحلوا قالت لهم ابنته : إنَّ أبا ذر يقرأ عليكم السَّلام ، وأقسم ألا تركبوا حتى تأكلوا ، ففعلوا ، وحملوهم حتَّى أقدموهم إلى مكَّة ، ونعوه إلى عثمان رضي الله عنه ، فضم ابنته إلى عياله[٨] .

---

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢٢٥) .
(٢) أحداث الفتنة الأولى بين الصَّحابة في ضوء قواعد الجرح والتعديل ، د . عبد العزيز دخان ، ص(١٧٤) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) تلوَّم على بعيره : تمهَّل .
(٥) كن أبا ذر : لفظة لفظ الأمر ، ومعناه : الدُّعاء : أرجو الله أن تكون أبا ذرٍّ .
(٦) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ١٧٨) .
(٧) المصدر السَّابق نفسه (٤/ ٤٧٨) .
(٨) التمهيد والبيان في مقتل الشَّهيد عثمان ، ص(٨٧ ، ٨٨) .

وجاء في روايةٍ . . . فلمَّا دفنَّاه ؛ دعتنا إلى الطَّعام ، وأردنا احتمالها ، فقال ابن مسعود : أمير المؤمنين قريبٌ ، نستأمره ، فقدمنا مكَّة ، فأخبرناه الخبر ، فقال : يرحم الله أبا ذر ! ويغفر له نزوله الرَّبَذَة ، ولمَّا صدر ؛ خرج ، فأخذ طريق الرَّبَذة ، فضمَّ عياله إلى عياله ، وتوجَّه نحو المدينة ، وتوجَّهنا نحو العراق[1] .

* * *

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣١٤) .

الفصل السَّادس
أسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه

المبحث الأوَّل
أهميَّة دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان وما ترتَّب عليها من أحداث ، والحكمة من إخباره ﷺ بوقوعها

أولاً : أهميَّة دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ، وما ترتَّب عليها من أحداثٍ في الجمل ، وصفِّين ، وغيرهما :

ورد عن كثيرٍ من السَّلف والعلماء الأمر بالتوقُّف عن الخوض في تفاصيل ما وقع بين الصَّحابة ، وإيكال أمرهم إلى الله الحكم العدل ، مع الترضِّي عنهم ، واعتقاد : أنَّهم مجتهدون ، مأجورون إن شاء الله ، والحذر من الطَّعن فيهم ، والوقوع في أعراضهم ، لما يجرُّ ذلك من الطَّعن في الشَّريعة ؛ إذ هم حملتها ، وحاملوها إلينا ، ومن ذلك ما روي عن عمر بن عبد العزيز : أنَّه سئل عن أهل صفِّين ، فقال : تلك دماء طهَّر الله منها يدي ، فلا أحبُّ أن أخضِّب لساني فيها[1] ، وسئل أحدهم عن ذلك ، فقال : متمثِّلاً قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٤] .

وهذا النَّهي معلَّل ، علَّته الخوف ممَّا ذكرناه من الطَّعن فيهم ، والوقوع في أعراضهم ، وما يستوجب ذلك من غضب الله ، ومقته ، فإذا انتفت هذه العلَّة ، فالظَّاهر : أنَّه لا حرج من ذلك ؛ إذا كان الكلام والبحث في تفاصيل ما وقع بينهم لا يؤدِّي إلى الطَّعن فيهم مطلقاً ، فلا بأس من دراسة ذلك ، والتعمُّق في أسبابه ، ودوافعه ، وتفصيلاته الدَّقيقة ، ونتائجه وتداعياته على مجتمع الصَّحابة ، ثمَّ على مَنْ بعدهم ، وقد كتب بعض العلماء عن الفتنة ، أمثال ابن كثيرٍ ،

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ١١٤) ، وعون المعبود (١٢/ ٢٧٤) .

والطَّبريِّ ، وغيرهم أحداث تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام ، وفَصَّلوا ، وفَصَلُوا في قضايا كثيرةٍ تتعلَّق بتلك الفتنة ، ومنهم من ذهب إلى حدِّ تخطئة أحد الطَّرفين ، أو كليهما ، اعتماداً على رواياتٍ ، ونصوص كثيرة اختلط فيها الصَّحيح بغيره[١] .

وهناك أسبابٌ تدعو علماء أهل السُّنَّة وطلاب العلم منهم للغوص في أعماق فتنة الهرج الّتي وقعت في صدر الإسلام ، والبحث عن تفاصيلها ، ومن هذه الأسباب :

١ ـ أنَّ المؤلفات المعاصرة الّتي تناولت أحداث الفتنة بين الصَّحابة ، والتَّابعين انقسمت إلى ثلاثة أنواعٍ :

أ ـ مصنفاتٌ تربَّى أصحابها على موائد الفكر الغربيِّ ، الحاقد على التَّاريخ الإسلاميِّ ، أو الجاهل بالتَّاريخ الإسلاميِّ ، فلم يروا فيه شيئاً جميلاً ، فراحوا يطعنون في الصَّحابة والتَّابعين بطريقةٍ تخدم أهداف أعداء الإسلام ، وخصومه ؛ الّذين قاموا لدراسة أحداث تلك الفتنة وتفاصيلها ، وإعطائها تفسيراتٍ تطعن في جموع الصَّحابة ، وتضرب الإسلام في أصوله ، وتجعل من هذه الأحداث صراعاً سياسيّاً ، على مناصب وكراس ، تخلَّى فيه الصَّحابة عن إيمانهم ، وتقواهم ، وصدقهم مع الله ، وانقلبوا إلى طلاب دنيا ، وعشَّاق زعامةٍ ، لا يهمُّهم أن تراق الدِّماء ، وتُزهق الأرواح ، وتسلب الأموال ، وتستباح الحرمات إذا كان في ذلك ما يحقِّق لهم ما يريدون من الرِّياسة والزَّعامة .

وممَّن تولَّى كبر هذه الفرية ، طه حسين في (الفتنة الكبرى)[٢] الّذي هو بحقٍّ فتنةٌ كبرى على عقول النَّاشئة من أبناء المسلمين ، فقد راح طه حسين يشنِّع على الصَّحابة ، ويشكِّك في نيَّاتهم ، ويتَّهمهم باتهاماتٍ مغرضة خدمة لأهداف أعداء الإسلام ، والمسلمين[٣] ، وقد تأثَّر الكثير بمنهجه ، ويبدو أنَّ أمثال هؤلاء اعتمدوا على الرِّوايات التَّاريخيَّة ؛ الّتي أوردها المؤرِّخون كالطَّبري ، وابن عساكر ، وغيرهما ، والّتي اختلط فيها الغثُّ بالسَّمين ، والكذب بالصِّدق ، وأخذوها دون مراعاةٍ لمنهج هؤلاء في مصنَّفاتهم ، وهذا خطأٌ كبيرٌ[٤] ، وقد تأثَّرت هذه الكتابات بالفكر المنحرف ، والكتابات غير الصحيحة للتَّاريخ الإسلاميِّ[٥] ، فقد تعمَّد

---

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، د . عبد العزيز دخان ، ص(٧٩) .

(٢) انظر : الفتنة الكبرى (عثمان) ، عليٌّ وبنوه .

(٣) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٨٠) .

(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٨١) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه .

الأعداءُ الإساءة في كتاباتهم للتَّاريخ الإسلاميِّ ، كما في روايات ، وأخبار الكلبيِّ[١] ، وأبي مخنف[٢] ، ونصر بن مزاحم المنقريِّ[٣] ، والَّتي توجد حتَّى عند الطبريِّ في تاريخه ، لكنَّ الطَّبريَّ يذكرها مسندةً لهؤلاء ، فيعرف أهل العلم حالها[٤] ، وكما في كتابات المسعوديِّ في مروج الذَّهب ، واليعقوبيِّ في تاريخه .

وقد أشار الأستاذ محبُّ الدِّين الخطيب في حاشية (العواصم) إلى أنَّ التَّدوين التَّاريخيَّ إنَّما بدأ بعد الدَّولة الأمويَّة ، وكان للأصابع المعوجَّة ، والشُّعوبيَّة المتلفِّعة برداء الضلال دورٌ في طمس معالم الخير فيه ، وتسويد صفحاته النَّاصعة[٥] .

ويظهر هذا الكيد لمن تدبَّر كتاب العواصم من القواصم لابن العربيِّ مع الحاشية الممتازة الَّتي وضعها العلامة محبُّ الدِّين الخطيب ، لقد سوَّد بعضُ الكُتَّاب آلاف الصَّفحات بسبِّ أفضل قرنٍ عرفته البشريَّة ، وصرفوا أوقاتهم ، وجهودهم لتشويه تاريخ المسلمين[٦] ، وكانت هذه المادَّة التاريخيَّة الكبيرة ، والَّتي تجدها في كتب التَّاريخ ، الَّتي وضعها أولئك ، أو شاركوا في بعض أخبارها ، وتراها في كتب الحديث عندهم وهي كثيرة واسعة ، وفي ما كتبه شيوخهم في القديم من ضلالات ، وفي الحديث من تقوُّل ؛ هذه المادَّة السوداء المظلمة الكريهة الشَّائهة هي المرجع لما كتبه أعداء المسلمين من المستشرقين ، وغيرهم ، وجاء ذلك الجيل المهزوم روحيّاً ، والَّذي يرى في الغرب قدوته ، وأمثولته من المستغربين فتلقَّف ما كتبته الأقلام الاستشراقيَّة ، وجعلها مصدره ، ومنهله ، وتبنَّى أفكارهم ، ونشر شبهاتهم في ديار المسلمين ، وكان لذلك أثره الخطير في أفكار المسلمين وثقافتهم ، وكان العدول عن الحق هو الأصل في هذا الشَّرِّ كلِّه ، وإنَّ دراسة آراء المستشرقين ، وصلتها بالانحراف لهي موضوعٌ مهمٌّ يستحقُّ الدِّراسة ، والتتبُّع . لقد بدأت استفادة العدوِّ الكافر من شبهات الأعداء ، وأكاذيبهم ،

---

(١) محمَّد بن السَّائب الكلبي ، قال ابن حبَّان : كان سبئيّاً من أولئك الَّذين يقولون : إنَّ عليّاً لم يمت ، وإنه راجعٌ إلى الدُّنيا . توفي سنة ١٤٦هـ . ميزان الاعتدال (٣/ ٥٥٨) . وابن أبي حاتم ، الجرح والتَّعديل (٧/ ٢٧٠ ـ ٢٧١) .

(٢) لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي من أهل الكوفة ، قال ابنٍ عديٍّ : شيعيٌّ محترقٌ صاحب أخبارهم ، توفي سنة ١٥٧هـ له تصانيف كثيرةٌ منها الردَّة ، الجمل ، صفِّين ، وغيرها .

(٣) نصر بن مزاحم بن سيَّار المنقريُّ الكوفيُّ ، قال الذهبي : رافضيٌّ ، جلد ، وتركوه ، توفي سنة ٢١٢هـ ، ومن كتبه : وقعة صفِّين ، وهو مطبوعٌ ، والجمل ، ومقتل الحسين . ميزان الاعتدال (٤/ ٢٥٣) .

(٤) أصول مذهب الشِّيعة الإماميَّة ، لناصر القفاري (٣/ ١٤٥٧) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه (٣/ ١٤٥٨) .

(٦) المصدر السَّابق نفسه (٣/ ١٤٥٩) .

ومفترياتهم على الإسلام والمسلمين منذ عهد الإمام ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ)[١] .

ب ـ مصنَّفات لبعض علماء هذه الأمَّة من المعاصرين ، وهي مفيدة إجمالاً ، ولكن طريقة عرضهم للأحداث ، وتفسيرهم لمواقف بعض الصَّحابة ، والتَّابعين فيها كثيرٌ من عدم الإنصاف ، مثل ما كتبه أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ في كتابه : (الخلافة والملك) ، وما دوَّنه الشَّيخ محمد أبو زهرة ـ رحمه الله ـ في كتابيه : (تاريخ الأمم الإسلاميَّة) و(الإمام زيد بن عليٍّ) فالكتابان مشحونان بكثيرٍ من التَّحامل على مقام بعض الصَّحابة ، والطَّعن على خلفاء بني أميَّة ، وتنقُّصهم ، وتجريدهم من أيَّة خصلةٍ حميدةٍ ، أو عملٍ صالحٍ[٢] ، ويبدو : أنَّ أمثال هؤلاء العلماء لم يحقِّقوا في الرِّوايات التَّاريخيَّة ، فتورَّطوا في الرِّوايات الإماميَّة الشِّيعيَّة وبنوا عليها تحليلاتهم ، واستنتاجاتهم ، غفر الله لنا ، ولهم .

ج ـ ـ مصنَّفاتٌ حاول أصحابها أن يسلكوا فيها منهج علماء الجرح والتَّعديل في نقد الرِّوايات التاريخيَّة ، وعرضها على أصول منهج المحدِّثين من حيث السَّند ، والمتن ، من أجل تمييز صحيحها من سقيمها ، وسليمها من عليلها .

وفي هذه المؤلفات محاولةٌ جيِّدةٌ ، وجهدٌ مشكورٌ للوقوف في وجه هذا الزَّيف ، وتفسير الأحداث التَّفسير الصَّحيح الَّذي لا يتعارض مع فضل الصَّحابة ، وإيمانهم ، وجهادهم[٣] ، ومن هذه المؤلَّفات الجيِّدة ، ما كتبه الدُّكتور يوسف العش ، في تاريخ الدَّولة الأمويَّة ، وما كتبه محبُّ الدِّين الخطيب ، تعليقاً على كتاب : العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي ، وما كتبه صادق عرجون في كتابه : عثمان بن عفَّان ، وما سطَّره الدُّكتور سليمان بن حمد العودة في كتابه : عبد الله بن سبأ ، وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام ، وما كتبه محمد أمحزون في كتابه : تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة ، وما كتبه الدكتور أكرم العمري في كتابه : الخلافة الرَّاشدة[٤] ، وما كتبه عثمان الخميس في كتابه : حقبةٌ من التَّاريخ ، وما كتبه الدُّكتور محمد حسن شرَّاب في كتابه : المدينة النَّبويَّة فجر الإسلام ، والعصر الرَّاشدي ، وما قام به محبُّ الدين من تحقيقات نافعةٍ ، وتعليقاتٍ صائبةٍ على كتاب العواصم من القواصم ، والمنتقى ، وغيرها من الكتب والبحوث والرَّسائل ؛ الَّتي سارت على نفس المنهج ، فقد ظهر من هذا البيان شدَّة الحاجة إلى وجود مؤلَّفات ، ومصنَّفات تردُّ على هذه المزاعم ، والأخطاء .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) أحداث وأحاديث فتنة المهرج ، ص(٨١) .

(٣) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٨١) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨٢) .

ولا يتمُّ الردُّ على هؤلاء المزيّفين للتَّاريخ الإسلاميِّ ، ومقام الصَّحابة إلا بمحاولة دراسة تفاصيل تلك الأحداث، وغربلة الأخبار والرِّوايات الواردة بميزان الجرح، والتَّعديل، والتَّصحيح، والتَّضعيف[(١)]، وقد جاء عن ابن تيميَّة قوله: لكن إذا ظهر مبتدعٌ، يقدح فيهم بالباطل، فلا بدَّ من الذَّبِّ عنهم، وذكر ما يُبطِل حجَّته بعلمٍ، وعدلٍ[(٢)]. وقد ذهب الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ في هذا مذهباً آخر، فهو يدعو إلى إحراق هذه الكتب الّتي فيها هذا الكذب، والتَّشويه لمقام الصَّحابة، قال رحمه الله: كما تقرَّر الكفُّ عن كثيرٍ ممَّا وقع بين الصَّحابة، وقتالهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وما زال يمرُّ بنا ذلك في الدَّواوين ، والكتب ، والأجزاء ، ولكنَّ أكثر ذلك منقطعٌ ، وضعيفٌ ، وبعضه كذبٌ ، وهذا فيما بأيدينا ، وبين علمائنا ، فينبغي طيُّه ، وإخفاؤه ، بل إعدامه لتصفو القلوب ، وتتوفَّر على حبِّ الصَّحابة ، والترضِّي عنهم[(٣)] .

وقد أفادنا الذَّهبيُّ في كلامه فائدةً كبيرةً ، وهو تصريحه بكون أكثر ما يُنقل من ذلك في الكتب والدَّواوين كذباً ، وزوراً ، وافتراءً على مقام الصَّحابة رضي الله عنهم إلا أن اقتراح الذَّهبيِّ بحرق تلك المؤلَّفات لم يعد ممكناً ، فقد انتشرت هذه الكتب ، وتولَّت طباعتها كثيرٌ من دور النَّشر ، وكثيرٌ من ذوي النِّيَّات السَّيِّئة ، فلم يبقَ إلا وضعها موضع الدِّراسة وبيان ما فيها من عوارٍ ، وخطأٍ ، وكذبٍ حفظاً لأجيال المسلمين من انحراف السُّلوك ، والعقيدة[(٤)] .

٢ ـ تظهر أهمِّيَّـة دراسة فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ، وما ترتَّب عليها من أحداثٍ لمعرفة أسباب الفتنة الحقيقيَّة ، سواءٌ كانت هذه الأسباب داخليةً ، أو خارجيَّةً ، ومعرفة نصيب كلِّ سببٍ من هذه الأسباب فيما حدث ، وهل هناك أسبابٌ يمكن إدراجها في هذا السَّبيل ؟

إنَّ الَّذي يقرأ طرفاً ممَّا كتب عن هذه الفتنة يحسُّ : أنَّ مؤامرةً كبرى ، جرى التَّخطيط لها، وتعاون ذوو الفكر المنحرف ، والمنافقون على تنفيذها ، فقضية تآمر الأعداء ترافق الأمَّة الإسلاميَّة في كلِّ مراحل تاريخها الطَّويل[(٥)] .

إلا أنَّ هذه المؤامرة ما كانت لتنجح لولا وجود عوامل ضعفٍ داخليَّةٍ ساهمت في التَّمكين لنجاح هذه المؤامرة ، ألا تضحي دراسة عهد الصَّحابة ـ والحالة هذه ـ واجباً من الواجبات في سبيل معرفة أسباب ضعف الأمَّة الإسلاميَّة ، وتحديد مكامن الدَّاء الّتي أوتيت منها ، والاستفادة

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨٣) .

(٢) منهاج السُّنَّة (٣/ ١٩٢) .

(٣) سير أعلام النُّبلاء ، (١٠/ ٩٢) .

(٤) أحداث ، وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٨٤) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨٣) .

من ذلك في إصلاح حاضر هذه الأمَّة ، وتجنيبها هذه المزالق في مستقبل حياتها ؟ أم كتب عليها أن تظلَّ ترزأ تحت ثقل أدوائها من الدَّاخل ، وكيد أعدائها من الخارج[١] ؟ !

إنَّ ما وقع من أحداثٍ جسامٍ في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ، وما ترتَّب عليها من أحداثٍ تحتاج لدراسةٍ عميقةٍ ، ومتأنيَّةٍ ، لكي نستخرج من تلك الحقبة التاريخيَّة دروساً وعبراً نستضيء بها في حاضرنا ولكي نسترشد بها في سعينا الجَّادِّ لإعادة الخلافة الرَّاشدة على منهاج النُّبوَّة حتَّى تسعد البشرية بدين الله ، وشرعه ، وتخرج من شقاوتها ، وتعاستها ، وضنكها بسبب بعدها عن شرع الله تعالى .

ثانياً : الحكمة من إخباره ﷺ بوقوعها :

لقد أخبر النَّبيّ ﷺ في كثيرٍ من أحاديثه بأنَّ هذه الأمَّة ستختلف ، وستتقاتل ، وتعدَّدت الأحاديث الَّتي تشير إلى ذلك بإجمالٍ ، أو بتفصيلٍ ، وتنوَّعت أساليب الإخبار عن ذلك من ذكرٍ لأسباب الفتن ، أو لنتائجها ، أو لبعض أحداثها ، ووقائعها ، أو لمن يثيرونها ، وغير ذلك ، وكان كثيرٌ من هذا البيان والتَّوضيح منه ﷺ جواباً لأسئلة الصَّحابة الكرام ؛ الَّذين كانوا يطرحونها عليه ، وهم يشاهدون ويتذوَّقون النِّعمة العظيمة الَّتي أفاءها الله عليهم ، وهي نعمة الأخوَّة ووحدة الصفِّ واجتماع الكلمة ، فراحوا يسألون فيما إذا كانت هذه النِّعمة ستدوم ، أم تزول ، ولمَّا كان رسول الله ﷺ يعلم بالوحي : أنَّها لن تدوم كما هي ؛ أحبَّ أن يربِّيهم على الاستعداد لهذه المحن ، والفتن ؛ حتَّى يحسنوا التصرُّف يوم يقدِّر الله لهذه الفتنة أن تقع ، فيسعوا إلى علاجها في وقتها ، ومن خلال النَّظر في جملة الأحاديث الواردة في ذكر الفتن نلمح الحكم التَّالية[٢] :

١ ـ أنَّ النَّبيّ ﷺ وهو يذكر هذه الفتن ، والوقائع يريد أن يربِّي الأمَّة على الاستعداد لها ، حتَّى تحسن التَّصرف يوم تقع هذه الفتن ، فتَسْعَى إلى علاجها في وقتها .

٢ ـ أنَّ في هذه الأحاديث إشاراتٍ إلى من يثيرونها ، وأنَّها أحياناً تكون من قومٍ ظاهري الإيمان ، والتَّشدُّد ، ولكن عقولهم منحرفةٌ ، وقلوبهم ملتويةٌ ، وهم في جملة حالهم غير مدركين ، ولا فاقهين[٣] .

٣ ـ أنَّ هذه الفتنة تكشف المنافقين ، وتصقل قلوب المؤمنين ، فيزدادون إيماناً ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨٥) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٨) .

(٣) الوحدة الإسلاميَّة ، لمحمد أبو زهرة ، ص(١٣٧) .

ويتحفَّزون للأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وهو نوعٌ من الابتلاء ، تُصقل به النُّفوس ، وتتعود المجاهدة ، وتتعرَّف الخير ، فتأمر به ، والشَّرَّ ، فتنهى عنه[١] .

٤ ـ أنَّ الإخبار عن هذه الفتن يحمل في مضمونه تحذيراً شديداً من الوقوع فيها ، أو ملابسة شيءٍ منها ، ذلك : أنَّ المؤمنين من هذه الأمَّة ـ من الصَّحابة وغيرهم ـ حين يسمعون خبر النَّبيِّ ﷺ بأنَّ منهم من سيحدث منه القتل ، ومنهم من سيتعلَّق بالدُّنيا ، ومنهم من سيترك الجهاد ، ومنهم ، ومنهم . . . تتحرَّك في نفوسهم مشاعر المواجهة لهذه الفتن ، ويقول كلُّ واحدٍ منهم : لعلِّي أنجو ! ويصبح الموقف منها الخوف على الدَّوام أن يقع في تلك المهالك على غفلةٍ ، والخوف ـ في هذا الباب ـ من أعظم سبل النَّجاة[٢] .

قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ بعد أن أورد عدَّة أحاديث مرفوعةٍ في وقوع هذا الخلاف ، والاختلاف في هذه الأمَّة : وهذا المعنى محفوظٌ عن النَّبيِّ ﷺ ، من غير وجهٍ ، يشير إلى أنَّ التَّفرقة ، والاختلاف لا بدَّ من وقوعها في الأمَّة ، وكان يحذِّر أمَّته ، لينجو من شاء الله له السَّلامة[٣] .

٥ ـ أنَّ الإخبار عن هذه الفتن أدقُّ في تحديد سبل النَّجاة منها ، فإنَّ الإنسان مهما بالغتَ في تحذيره من خطرٍ يهدِّده ـ دون أن تحدِّدَ له هذا الخطر ، أوتبيِّن له كيفيَّة الوقوع فيه ـ قد لا يتصوَّر الطَّريقة الَّتي سيحدث بها ، ولا يستبين طبيعة المشكلة الَّتي سيواجهها ، وقد يقع في المحذور دون أن يعرف أنَّه المقصود بالتَّحذير[٤] .

٦ ـ أنَّ الإخبار عن تلك الفتن اقترن في بعض الأحاديث بذكر أسبابها ، أو بيان نتائجها ، أو موقف المسلم منها ، وهذا ينفع المسلم ـ أو الأمَّة كلَّها ـ في نبذ أسباب الفتن ، أو الحكم على وقائع معينةٍ من خلال النَّظرِ في نتائجها ، أو اتِّخاذ الموقف السَّليم منها ابتداءً .

٧ ـ ثمَّ إنَّ فيها دليلاً واضحاً على صدق رسالة محمَّد ﷺ ، ونبوَّته ، يزداد به إيمان الصَّحابة الَّذين سمعوا الحديث ، ثمَّ رأوا تأويله في مواقفهم بعد مدَّةٍ ، ويزداد به إيمان المؤمن ـ كلُّ مؤمنٍ ـ في كلِّ عصرٍ ، ومصرٍ ، وهو يعيش وقائع الفتن ، والاختلافات الَّتي أخبر النَّبيِّ ﷺ بوقوعها[٥] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٣٦ ـ ١٣٧) .

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٦٩) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٧٠) . واقتضاء الصِّراط (١/١٢٧) .

(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٧٠) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه .

وقد جمع الدَّكتور عبد العزيز صغير دخان أحاديث الفتنة ، وقام بدراستها ، وبيان صحيحها من ضعيفها في كتابه : أحداث ، وأحاديث فتنة الهرج ، ثمَّ استخرج من الأحاديث الصَّحيحة معاني دلَّت عليها تلك الأحاديث ، منها :

١ ـ أنَّ الفتنة سنَّة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الأمم ، وفي هذه الأمَّة إلى قيام السَّاعة ، وهي فتنٌ كقطع اللَّيل المظلم ، عمياء ، صمَّاء ، بكماء ، من سعى فيها ؛ هلك في الدُّنيا ، والآخرة ، ومن كفَّ يده ؛ أفلح ، لا يكاد يبصر فيها أحدٌ موقفه إلا من أحياه الله بالعلم ؛ وزوَّده بالتَّقوى ، وهداه إلى ما اختُلف فيه من الحقِّ بإذنه[١] .

٢ ـ وفي هذه الأحاديث : أنَّ فتنة القتال بين المسلمين أمرٌ واقعٌ لا محالة ، ولا سبيل لإنكاره واستغرابه بدءاً بما وقع بين الصَّحابة ، والتَّابعين ، ومروراً بالعصور الإسلاميَّة إلى اليوم ، ولكنَّ الواجب هو معرفة أسباب هذا القتال لتلافيها ، أو السَّعي في إطفاء نار الفتنة حينما تشبُّ في ديار المسلمين ، وألا ينبغي أن يقف المسلم منها موقف المتفرِّج .

٣ ـ ومن رحمة الله بهذه الأمَّة أن يكفِّر عنها ذنوبها في الدُّنيا ، وليس القتل ، والفتن الَّتي تنزل ساحتها ، والزَّلازل الَّتي تصيبها إلا كفارةً لهذه الذُّنوب .

٤ ـ وفي بعض هذه الأحاديث إشارةٌ واضحةٌ ، وصريحةٌ إلى أنَّ منبت معظم هذه الفتن من قبل المشرق ، وكذلك كان الواقع ، فإنَّ الفتنة الأولى بدأ تحريكها في الكوفة ، والبصرة ، وفتنة الجمل كانت هناك .

٥ ـ وفي الفتنة يبيع قومٌ دينهم بعرضٍ من الدُّنيا يسير ، وتتحكَّم فيهم الشَّهوات ، والشُّبهات ، ويصير أهل الإسلام الصَّحيح غرباء في سلوكهم ، وتصرُّفاتهم ، ويصبح المتمسِّك بدينه أشبه ما يكون بالَّذي يقبض على الجمر ، أو على الشَّوك ، صابراً محتسباً ما يصيبه من الألم ، والأذى في سبيل دينه ، وما يعتقد : أنَّه حقٌّ .

٦ ـ وفي الفتنة ، يحفظ الله طائفةً من النَّاس ، فلا تلتبس بالفتنة ، ولا تتلطَّخ أيديهم من دماء المسلمين ، يسعون في إصلاح ذات البين ، والدَّعوة إلى مبادىء الإسلام الصَّحيحة من رحمةٍ ، وأخوَّةٍ ، وسيكون موقفهم غريباً بدون شكٍّ وسط الجموع الهائجة ، والأهواء المستحكمة[٢] .

٧ـ وفي الفتنة يلعب اللِّسان دوراً أخطر من السَّيف ، بل إنَّ اللِّسان يكون غالباً منشأ الفتن والبلايا ، فربَّ كلمة شرٍّ مسمومةٍ انطلقت ، فأشعلت النَّار في القلوب ، وهيَّجت ما كان مستكنّاً

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٤٥) .

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨) .

في النُّفوس، وشحذت العواطف، وكانت سبباً في فتنٍ ضاريةٍ[١].

٨ـ وفي الفتنة ينقص العلم، إمَّا بموت العلماء، أو بسكوتهم، واعتزالهم إيثاراً للسَّلامة، أو لانصراف النَّاس عنهم لسببٍ من الأسباب، ويسود عندها الجهل، ويتَّخذ النَّاس رؤساء جهَّالاً، فيفتوا بغير علمٍ، فيُضِلُّوا ويَضِلُّوا، ويسود الرُّويبضة، وهو التافه من النَّاس، ويستعلي السُّفهاء منهم[٢].

٩ ـ وفي هذه الأحاديث: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ضمن لرسوله ﷺ ألا يهلك هذه الأمَّة بالسِّنين، والمجاعات، وألا يسلِّط عليها عدوّاً، فيتمكَّن منها دائماً، مهما كانت قوَّة هذا العدو، وإمكانيَّاته، وجبروته، ولكن الأمر الَّذي لم يضمنه الله لرسوله ﷺ هو ألا تختلف هذه الأمَّة، وسيكون هذا هو الباب الَّذي يدخل منه العدوُّ الخارجيُّ؛ إذ إنَّ الأمَّة إذا اختلفت فيما بينها، وقتل بعضها بعضاً؛ ضعفت عوامل القوَّة فيها، وتمكَّن منها عدوُّها، فعبث بخيراتها، ومقدَّراتها، ولن يرفع عنها حتَّى تعود إلى تحقيق القوَّة في نفسها بالوحدة، وجمع الكلمة، والاحتكام إلى شرع الله[٣].

١٠ ـ وفي الأحاديث: أنَّ وقوع الفتنة، واستمرارها مظنَّةُ ظهور فرق المنحرفين عن هدي الإسلام، وتمكُّن أهل الباطل، وظهورهم.

١١ ـ وفي الفتنة تتغيَّر أخلاق النَّاس، وتتبدَّل، ويزهد النَّاس في العمل الصَّالح، ومشاريع الخير، ويُلقى بين النَّاس العداوة، والبغضاء، والحقد، ويختلط الأمر على النَّاس.

١٢ ـ وفي الأحاديث: أنَّ هذه الفتن يسبقها أمنٌ، واستقرارٌ، وصلاح أحوال النَّاس الماديَّة، والأمنيَّة، حتَّى يسير الرَّاكب بين العراق، ومكَّة لا يخاف إلا ضلال الطَّريق، ويظهر هذا في عهد عثمان رضي الله عنه، فقد كان عهد أمنٍ واستقرارٍ، وتدفُّق الأموال، والخيرات، ثمَّ حدثت فتنة الهرج، فقوَّض ذلك كلُّه، حتَّى تبدَّل الحال من الأمن إلى الخوف.

١٣ ـ وفي الفتنة يقتل خيار النَّاس وذوو العقول، والرَّأي فيهم، ويبقى رجرجةٌ من النَّاس لا تعرف معروفاً، ولا تنكر منكراً[٤]. هذه بعض المعاني من أحاديث الفتن.

* * *

---

(١) المصدر السَّابق نفسه، ص(٣٤٨).

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

(٣) المصدر السَّابق نفسه.

(٤) المصدر السَّابق نفسه، ص(٣٤٩، ٤٥٠).

المبحث الثّاني

أسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه

قال الإمام الزُّهريُّ : ولي عثمان اثنتي عشرة سنة أميراً للمؤمنين ، أوّل ستٍّ سنين منها لم ينقم النَّاس عليه شيئاً ، وإنَّه لأحبُّ إلى قريشٍ من عمر بن الخطَّاب ؛ لأنَّ عمر كان شديداً عليهم ، أمَّا عثمان ؛ فقد لانَ لهم ، وَوَصَلَهم ، ثمَّ حدثت الفتنة بعد ذلك ، وقد سمَّى المؤرِّخون المسلمون الأحداث في النِّصف الثاني من ولاية عثمان ٣٠ـ٣٥ هـ (الفتنة) الّتي أدّت إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه[١] . كان المسلمون في خلافة أبي بكرٍ ، وعمر ، وصدراً من خلافة عثمان ، متّفقين ، لا تنازع بينهم ، ثمَّ حدثت في أواخر خلافة عثمان أمورٌ ، أوجبت نوعاً من التَّفرُّق ، وقام قومٌ من أهل الفتنة ، والظُّلم ، فقتلوا عثمان ، فتفرَّق المسلمون بعد مقتل عثمان[٢] .

وقد كان المجتمع الإسلامي في خلافة الصِّدِّيق ، والفاروق ، والنِّصف الأوّل من خلافة عثمان يتّصف بالسِّمات الآتية :

١ ـ أنّه ـ في عمومه ـ مجتمعٌ مسلمٌ بكامل معنى الإسلام ، عميق الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، مطبِّقٌ لتعاليم الإسلام بجدِّيةٍ واضحةٍ ، والتزامٍ ظاهر ، وبأقلَّ قدرٍ من المعاصي وقع في أيِّ مجتمعٍ في التَّاريخ ، فالدِّين بالنِّسبة إليه هو الحياة ، وليس شيئاً هامشيّاً يفيء النَّاس إليه بين الحين ، والحين ، إنَّما هو حياة النَّاس ، وروحهم ، ليس فقط فيما يؤدُّونه من شعائر تعبُّديَّةٍ ، يحرصون على أدائها على وجهها الصَّحيح ، وإنَّما من أخلاقياتهم ، وتصوُّراتهم ، واهتماماتهم ، وقيمهم ، وروابطهم الاجتماعيَّة ، وعلاقات الأسرة ، وعلاقات الجوار ، والبيع ، والشِّراء ، والضَّرب في مناكب الأرض ، والسَّعي وراء الأرزاق ، وأمانة التَّعامل ، وكفالة القادرين لغير القادرين ، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، والرَّقابة على أعمال الحكام والولاة ، ولا يعني هذا بطبيعة الحال : أنَّ كلَّ أفراد المجتمع هم على هذا الوصف ، فهذا لا يتحقَّق في الحياة الدُّنيا ، ولا في أيِّ مجتمعٍ من البشر ، وقد كان في مجتمع الرَّسول ﷺ

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٣٩ ـ ٤٧) . والبداية والنِّهاية (٧/ ١٤٤ ـ ١٤٩) . والخلفاء الرَّاشدون للخالدي ، ص(١١٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠) .

ـ كما ورد في كتاب الله ـ منافقون يتظاهرون بالإسلام ، وهم في دخيلة أنفسهم من الأعداء ، وكان فيه ضعاف الإيمان ، والمعوِّقون ، والمتثاقلون ، والمبطِّئون ، والخائنون ، ولكن هؤلاء جميعاً لم يكن لهم وزنٌ في ذلك المجتمع ، ولا قدرةٌ على تحويل مجراه ؛ لأنَّ التَّيَّار الدَّافق هو تيَّار أولئك المؤمنين الصَّادقي الإيمان المجاهدين في سبيل الله بأموالهم ، وأنفسهم ، الملتزمين بتعاليم هذا الدِّين (١) .

٢ ـ أنَّه المجتمع الَّذي تحقَّق فيه أعلى مستوى للمعنى الحقيقيِّ (للأمَّة) ؛ فليست الأمَّة مجرد مجموعة من البشر جمعتهم وحدة اللُّغة ، ووحدة الأرض ، ووحدة المصالح ، فتلك هي الرَّوابط الَّتي تربط البشر في الجاهليَّة ، فإن تكوَّنت منهم أمَّةٌ ، فهي أمَّةٌ جاهليَّة ، أمَّا الأمَّة بمعناها الرَّبانيِّ ؛ فهي الأمَّة الَّتي تربط بينها رابطة العقيدة ، بصرف النَّظر عن اللُّغة ، والجنس ، واللَّون ، ومصالح الأرض القريبة ، وهذه لم تتحقَّق في التَّاريخ كما تحقَّقت في الأمَّة الإسلاميَّة ، فالأمَّة الإسلاميَّة هي أمَّةٌ لا تقوم على عصبية الأرض ، ولا الجنس ، ولا اللَّون ، ولا المصالح الأرضيَّة ، إنَّما هو رباط العقيدة ، يربط بين العربيِّ ، والحبشيِّ ، والرُّوميِّ ، والفارسيِّ ، يربط بين أهل البلاد المفتوحة والأمَّة الفاتحة على أساس الأخوَّة الكاملة في الدِّين .

ولئن كان معنى الأمَّة قد حقَّقته هذه الأمَّة أطول فترةٍ عرفتها الأرض ، فقد كانت فترة صدر الإسلام أزهى فترةٍ تحقَّقت فيها معاني الإسلام كلُّها، بما فيها معنى الأمَّة، على نحوٍ غير مسبوقٍ (٢) .

٣ ـ أنَّه مجتمعٌ أخلاقيٌّ ، يقوم على قاعدة أخلاقيَّةٍ واضحةٍ مستمدَّةٍ من أوامر الدِّين ، وتوجيهاته ، وهي قاعدةٌ لا تشمل علاقات الجنسين وحدها ، وإن كانت هذه من أبرز سمات هذا المجتمع ، فهو خالٍ من التَّبرُّج ، ومن فوضى الاختلاط ، وخالٍ من كلِّ ما يخدش الحياء من فعلٍ ، أو قولٍ ، أو إشارةٍ ، وخالٍ من الفاحشة إلا القليل الَّذي لا يخلو منه مجتمعٌ على الإطلاق ، ولكن القاعدة الأخلاقيَّة أوسع بكثيرٍ من علاقات الجنسين ، فهي تشمل السِّياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والفكر ، والتَّعبير ، فالحكم قائم على أخلاقيَّات الإسلام ، وعلاقات النَّاس في المجتمع قائمةٌ على الصِّدق ، والأمانة ، والإخلاص ، والتَّعاون ، والحبِّ ، لا غمز ولا لمز ، ولا نميمة ، ولا قذف للأعراض (٣) .

٤ـ أنَّه مجتمعٌ جادٌّ ، مشغولٌ بمعالي الأمور لا بسفسافها ، وليس الجدُّ بالضَّرورة عبوساً ،

---

(١) كيف نكتب التَّاريخ الإسلامي ، ص(١٠٠) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٠١) .

(٣) كيف نكتب التَّاريخ الإسلامي ، ص(١٠٢) .

وصرامةً ، ولكنَّه روحٌ تبعث الهمَّة في النَّاس ، وتحثُّ على النَّشاط ، والعمل ، والحركة ، كما أنَّ اهتماماته أعلى ، وأبعد من واقع الحسِّ القريب ، وليست فيه سمات المجتمع الفارغة المترهِّلة ، الَّتي تتسكَّع في البيوت ، وفي الطُّرقات ، تبحث عن وسيلةٍ لقتل الوقت من شدَّة الفراغ(١) .

٥ ـ أنَّه مجتمعٌ مجنَّدٌ للعمل ، في كلِّ اتِّجاهٍ تلمس فيه روح الجنديَّة واضحةً لا في القتال في سبيل الله ، فحسب ، وإذا كان القتال في سبيل الله قد شغل حيِّزاً كبيراً من حياة هذا المجتمع ، ولكن في جميع الاتِّجاهات ، فالكلُّ متأهِّبٌ للعمل في اللَّحظة الَّتي يطلب منه فيها العمل ، ومن ثمَّ لم يكن في حاجةٍ إلى تعبئةٍ عسكريَّةٍ ، ولا مدنيَّةٍ ، فهو معبَّأً من تلقاء نفسه بدافع العقيدة ، وبتأثير شحنتها الدَّافعة لبذل النَّشاط في كلِّ اتجاه(٢) .

٦ ـ أنَّه مجتمعٌ متعبِّدٌ ، تلمس فيه روح العبادة واضحةً في تصرُّفاته ليس فقط في أداء الفرائض ، والتطوُّع بالنَّوافل ابتغاء مرضاة الله ، ولكن في أداء الأعمال جميعاً ، فالعمل في حسِّه عبادةٌ ، يؤدِّيه بروح العبادة ، الحاكم يسوس رعيَّته بروح العبادة ، والمعلِّم الَّذي يعلِّم القرآن ، ويفقه النَّاس في الدِّين يعلِّم بروح العبادة ، والتَّاجر الَّذي يراعي الله في بيعه ، وشرائه يفعل ذلك بروح العبادة ، والزَّوج يرعى بيته بروح العبادة والزَّوجة ترعى بيتها بروح العبادة ، تحقيقاً لتوجيه رسول الله ﷺ : « كلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته »(٣) .

هذه من أهم سمات عصر الصِّدِّيق ، وعهد الخلفاء الرَّاشدين ـ بصفةٍ عامَّةٍ ـ إلا أنَّ تلك السِّمات كانت أقوى كلَّما اقتربنا من عهد النُّبوَّة ، وتضعف كلَّما ابتعدنا عن عصر النُّبوَّة ، وهذه السِّمات جعلته مجتمعاً مسلماً في أعلى آفاقه ، وهي الَّتي جعلت هذه الفترة المثاليَّة في تاريخ الإسلام ، كما أنَّها هي الَّتي ساعدت في نشر هذا الدِّين بالسُّرعة العجيبة الَّتي انتشر بها ، فحركة الفتح ذاتها من أسرع حركات الفتح في التَّاريخ كلِّه ، بحيث شملت في أقل من خمسين عاماً أرضاً تمتدُّ من المحيط غرباً إلى الهند شرقاً ، وهي ظاهرةٌ في ذاتها تستحقُّ التَّسجيل ، والإبراز ، وكذلك دخول النَّاس في الإسلام في البلاد المفتوحة بلا قهرٍ ، ولا ضغطٍ ، وقد كانت تلك السِّمات الَّتي اشتمل عليها المجتمع المسلم هي الرَّصيد الحقيقيُّ لهذه الظَّاهرة ، فقد أحبَّ النَّاس الإسلام لَمَّا رأوه مطبَّقاً على هذه الصُّورة العجيبة الوضَّاءة ، فأحبُّوا أن يكونوا من بين معتنقيه(٤) .

إن دراسة هذه الفترة من التَّاريخ ينبغي أن تترك انطباعاً لا يمحى في نفس الدَّارس ، انطباعاً

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) كيف نكتب التَّاريخ الإسلامي ، ص(١٠٢) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٠٣) .

بأنَّ الإسلام دينٌ واقعيٌّ قابلٌ للتَّطبيق في عالم الواقع بكلِّ مثاليَّاته ، فهي ليست مثاليَّات معلَّقةٌ في الفضاء لمجرد التَّأمُّل ، أو التَّمنِّي ، ولكنَّها مثاليَّاتٌ واقعيَّةٌ ، في متناول التَّطبيق إذا حاولها النَّاس بالجدِّيَّة الواجبة ، وأعطوها حقَّها من الجهد ، ثمَّ انطباعاً بأنَّ ما حدث مرَّةً يمكن أن يحدث مرَّةً أخرى ؛ لأنَّ البشر هم البشر ، وقد استطاع البشر دائماً أن يحاولوا الصُّعود مرَّةً أخرى ؛ وسيصعدون حين يعزمون ، وسينالون على ذلك النَّصر ، والتَّمكين[1] .

قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

ومن الأمور الَّتي تساعد المسلمين على العودة إلى الخلافة الرَّاشدة : معرفة العوامل ، والأسباب الَّتي أدت إلى زوالها ؛ لكي نعمل على اجتنابها ، والأخذ بالأسباب الَّتي جعلها الله سبباً في إكرام الأمَّة بها ، ولذلك نريد أن نفصِّل في أسباب فتنة مقتل عثمان ؛ لأهمِّيتها ، وإليك أهمَّ هذه الأسباب :

أولاً : الرَّخاء وأثره في المجتمع :

كان رسول الله ﷺ يرى ما يعانيه أصحابه من شظف العيش ، وفقر الحال ، فكان يصبِّرهم ، ثمَّ يخبرهم : أنَّ هذا الحال الَّذي هم عليه لن يدوم طويلاً ، حتَّى تفتح عليهم خزائن الدُّنيا ، وخيراتها ، وحذَّرهم من الاشتغال بذلك عن العمل الصَّالح ، والجهاد في سبيل الله ، وما يمكن أن يجرَّه ذلك عليهم من التقاتل على الدُّنيا ومتاعها الزَّائل[2] ، وقد فقه عمر بن الخطَّاب هذا التَّحذير فكان من سياسته حماية المسلمين من غوائل فتنة المال ، وزخارف الدُّنيا ، فاجتهد في منع المسلمين من التوسُّع في بلاد العجم ، ولولا ظهور مصلحةٍ أخرى راجحةٍ في توسُّعهم ؛ لبقي المنع قائماً ، إلا أنَّ هذا التَّراجع من عمر لم يشمل كبار الصَّحابة ، والمهاجرين ، والأنصار الَّذين كانوا بالمدينة ؛ إذ بقي المنع في حقِّهم[3] .

ولا شكَّ : أنَّ الَّذي فعله عمر كان يدلُّ على إحساسه ، وخوفه من انتشار المسلمين في أرضٍ تزخر بألوان الخيرات والأرزاق ؛ فتستولي الدُّنيا على قلوبهم ، وتفسد عليهم آخرتهم[4] ، فلمَّا جاء عهد عثمان ، وتوسَّعت الفتوحات شرقاً ، وغرباً ، وبدأت الأموال

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٠٣ ، ٣٠٤) .

(٢) أحداث ، وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٥٥٩) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥٦٥) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

تتقاطر على بيت المال من الغنائم ، والأسلاب ، وامتلأت أيدي النَّاس بالخيرات ، والأرزاق[(١)] ، وغنيٌّ عن الإشارة : أنَّ النِّعم ، والخيرات ، وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثرها على المجتمع ؛ إذ تجلب الرَّخاء وما يترتَّب عليه من انشغال النَّاس بالدُّنيا ، والافتتان بها ، كما أنَّها مادةٌ للتَّنافس ، والبغضاء ، خاصَّةً بين أولئك الَّذين لم يصقل الإيمان نفوسهم ، ولم تهذِّبهم التَّقوى من أعراب البادية ، وجفاتها ، ومن مسلمة الفتوحات ، وأبناء الأمم المترفة الدُّخلاء في الإسلام الَّذين جروا شوطاً بعيداً في زخارف الدُّنيا ، وبهجتها ، واتَّخذوها غايةً يتنافسون فيها ، وقد أدرك عثمان هذه الظَّاهرة ، وأنذر بما سيؤول إليه أمر الأمَّة من التَّبدُّل والتَّغيُّر في كتابه الموجه إلى الرَّعية : فإنَّ أمر هذه الأمَّة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثةٍ فيكم : تكامل النِّعم ، وبلوغ أولادكم من السَّبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن[(٢)] .

أمَّا تكامل النِّعم فيتحدَّث الحسن البصريُّ ـ وهو شاهد عيانٍ ـ عن حالة المجتمع ، ووفور الخيرات ، وإدرار الأموال ، وما آل إليه أمر النَّاس من البطر وعدم الشُّكر ، فيقول : أدركت عثمان على ما نقموا عليه ، قلَّما يأتي على النَّاس يومٌ إلا وهم يقتسمون فيه خيراً ، يقال لهم : يا معشر المسلمين ! اغدوا على أعطياتكم ، فيأخذونها وافرةً ، ثمَّ يقال لهم : اغدوا على السَّمن ، والعسل ، فالأعطيات جاريةٌ ، والأرزاق دارَّةٌ ، والعدوُّ مُتَّقى ، وذات البين حسنٌ ، والخير كثيرٌ . . . والأخرى كان السَّيف مغمداً على أهل الإسلام ، فسلُّوه على أنفسهم ، فوالله ما زال مسلولاً إلى يوم النَّاس هذا ! وايم الله إنِّي لأراه سيفاً مسلولاً إلى يوم القيامة[(٣)] .

وأمَّا بلوغ أولاد المسلمين من السَّبايا ؛ فيتمثَّل فيما آل إليه أمر هؤلاء من الدَّعة ، والتَّرف ، وكان أوَّلُ مُنْكَرٍ ظهر بالمدينة حين فاضت الدُّنيا ، وانتهى وسع النَّاس طيرانَ الحمام والرَّمي على الجلاهقات[(٤)] فاستعمل عليها عثمان رجلاً من بني ليث سنة ثمانٍ[(٥)] ، فقصَّها ، وكسر الجلاهقات[(٦)] ، وحدث بين النَّاس النَّشو بتناولهم النَّبيذ ، فأرسل عثمان رضي الله عنه رجلاً يطوف عليهم بالعصا ؛ ليمنعهم من ذلك ، وعندما اشتدَّ ذلك ، شكاهم عثمان رضي الله عنه إلى النَّاس ، فأجمعوا على أن يجلدوا في النَّبيذ ، فأُخذ نفرٌ منهم ، فجُلدوا ، ثمَّ جعل عثمان لا

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٤٥) .

(٣) البداية والنِّهاية (٧/ ٢٢٤) .

(٤) قوس البندق الَّذي يرمى به .

(٥) أي : في السَّنة الثَّامنة من خلافته .

(٦) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤١٥) .

يأخذ أحداً على شرٍّ ، أو شهر سلاحاً إلا نفاه من المدينة ، فضجَّ آباؤهم من ذلك[١] .

وقام عثمان في المدينة ، فقال : إنَّ النَّاس تبلغني عنهم هناتٌ ، وهناتٌ ، وإنِّي لا أكون أوَّل من فتح بابها ، ولا أدار راحتها (أي : الفتنة) ، ألا وإنِّي زامٌّ نفسي بزمام ، وملجمها بلجام ، فأقودها بزمامها ، وأكبعها[٢] بلجامها ، ومنَّا ولكم طرف الحبل ، فمن اتَّبعني ، حملته على الأمر الَّذي يعرف ، ومن لم يتَّبعني ؛ فمن خلفٍ منه ، وعزاءٍ منه ، ألا وإنَّ لكلِّ نفسٍ يوم القيامة سائقاً ، وشهيداً ، سائقٌ يسوقها على أمر الله ، وشاهدٌ يشهد عليها بعملها ، فمن كان يريد الله بشيءٍ ؛ فليبشر ، ومن كان يريد الدُّنيا ؛ فقد خسر[٣] .

وهكذا لمَّا قام عثمان الرَّجل التَّقيُّ ، والخليفة الرَّاشد بواجبه ، وكانت إجراءاته تعزيريَّةً تجاه أبناء الأغنياء الَّذين بدؤوا نوعاً من حياة التَّرف ، وفساد الأخلاق ؛ انضمَّ أولئك المنحرفون إلى صفِّ النَّاقمين من الرُّعاع .

وبالنسبة لقراءة الأعراب ، والأعاجم القرآن ، فيظهر في شكلٍ واضحٍ في تكوين طبقةٍ في المجتمع المسلم تتعلَّم القرآن لا رغبةً في الثَّواب ، وإنَّما رغبة في الجُعْل الَّذي جعله الخليفة تشجيعاً ، وتأليفاً[٤] ، ويجب أن نلاحظ : أنَّ هذا التغيير بدأ أثره يظهر أولاً على أطراف الدَّولة الإسلاميَّة ، ثمَّ أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة ، ممَّا دفع عثمان رضي الله عنه إلى تذكير المسلمين في خُطَبِه بضرورة الحذر من التَّهالك على الدُّنيا ، وحطامها ، فكان ممَّا قاله في إحدى خطبه :

إنَّ الله إنَّما أعطاكم الدُّنيا ؛ لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكموها ؛ لتركنوا إليها ، إنَّ الدُّنيا تفنى ، وإنَّ الآخرة تبقى ، ولا تبطرنَّكم الفانية ، ولا تشغلنَّكم عن الباقية ، . . . واحذروا من الله الغِيَر ، والزموا جماعتكم ، لا تصيروا أحزاباً[٥] ، ثمَّ قرأ : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣ ـ ١٠٤] .

وفي مثل هذه الظُّروف ، والخيرات وافرةٌ ، فاضت الدُّنيا على المسلمين ، وتفرَّغ النَّاس

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٤١٦) .

(٢) أي : من الكبع ، وهو المنع .

(٣) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٣٦١) .

(٤) الوثائق السِّياسية في العهد النَّبويِّ والخلافة الرَّاشدة ، ص(٣٩٢) .

(٥) أحداث ، وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٥٦٧) .

بعد أن فتحوا الأقاليم ، واطمأنُّوا ، فأخذوا ينقمون على خليفتهم[١] .

ومن هنا يُعلم أثر الرَّخاء في تحريك الفتنة، ومن هنا أيضاً يمكن فهم مقالة عثمان رضي الله عنه لعبد الرَّحمن بن ربيعة ـ له صحبةٌ ـ وهو على الباب[٢] : إن الرَّعية قد أبطر كثيراً منهم البطنة ، فقصِّر بهم ، ولا تقتحم بالمسلمين ، فإنِّي خاشٍ أن يبتلوا[٣] . وفي آخر خطبةٍ لعثمان رضي الله عنه وهو يعظ المسلمين بعد أن فتحت الدُّنيا عليهم ، قال : ألا لا تبطرنَّكم الفانية ، ولا تشغلنَّكم عن الباقية . . . واحذروا أحداث الدَّهر المغير ، والزموا جماعتكم ، ولا تتفرَّقوا شيعاً ، وأحزاباً[٤] .

ثانياً : طبيعة التَّحوُّل الاجتماعيِّ في عهد عثمان رضي الله عنه :

حدثت تغيُّراتٌ اجتماعيَّة عميقةٌ ، ظلَّت تعمل في صمتٍ ، وقوَّةٍ لا يلحظها كثيرٌ من النَّاس ، حتَّى ظهرت على ذلك الشَّكل العنيف المتفجِّر بدءاً من النِّصف الثاني من خلافة عثمان ، وبلغت قمَّة فورانها في التمرُّد الَّذي أدَّى إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه[٥] .

لمَّا توسَّعت الدَّولة الإسلاميَّة عبر حركة الفتوح ، حصل تغيُّر في تركيبة المجتمع ، والاختلالات في نسيجه ؛ لأنَّ هذه الدَّولة بتوسُّعها المكانيِّ ، والبشريِّ ، ورثت ما على هذه الرُّقعة الواسعة من أجناسٍ ، وألوانٍ ، ولغاتٍ ، وثقافاتٍ ، وعاداتٍ ، ونظمٍ ، وأفكارٍ ، ومعتقداتٍ ، وفنونٍ أدبيَّةٍ ، وعمرانيَّةٍ ، ومظاهر ، وظهرت على سطح هذا النَّسيج ألوانٌ مضطربةٌ ، وخروقاتٌ غير منتظمةٍ ، ورقعٌ غير منسجمةٍ ممَّا صيَّرت المجتمع غير متجانسٍ في نسيجه التَّركيبيِّ ، وبالذَّات في الأمصار الكبرى المؤثِّرة : البصرة ، والكوفة ، والشَّام ، ومصر ، والمدينة ، ومكَّة ، فقد كانت الأمصار الكبيرة ـ بمواقعها وأهمِّيَّتها ـ تدفع بجيوش الفتوح ، وتستقبلها وهي عائدةٌ ، وقد نقص عددها بالموت والقتل ، وتستقبل بدلاً عنهم أو أكثر منهم أعداداً وفيرةً من أبناء المناطق المفتوحة ، فرسٌ ، وتركٌ ، ورومٌ ، وقبطٌ ، وكردٌ ، وبربرٌ ، وكان أكثرهم من الفرس ، أو من النَّصارى العرب ، أو غيرهم ، أو من اليهود[٦] ، وأكثر سكان هذه الأمصار الكبيرة هم ممَّن شاركوا في حركة الفتح الإسلاميِّ ، ثمَّ استقرُّوا في

---

(١) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٣٦٢) .

(٢) المقصود بالباب : منطقة في جهات أذربيجان تسمى الدر البند. معجم البلدان (١/ ٣٠٣).

(٣) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٣٦٢) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

(٥) الدَّولة الأمويَّة المفترى عليها ، ص(١٦٦) .

(٦) دراساتٌ في عهد النُّبوَّة ، والخلافة الرَّاشدة ، ص(٣٧٩) .

هذه الأمصار ، وكان أغلب هؤلاء من القبائل العربيَّة من جنوبها ، وشمالها ، وشرقها ، والّذين لم يكونوا ـ عادةً ـ من الصَّحابة ، وبمعنىً أدقَّ : ليسوا ممَّن تلقَّوا التَّربية الكافية على يد رسول الله ﷺ أو على أيدي الجيل الأوَّل من الصَّحابة ، إمَّا لانشغالهم بالفتوح ، أو لقلَّة الصَّحابة ، وقد حصلت تغيُّراتٌ في نسيج المجتمع البشريِّ المكوَّن من جيل السَّابقين ، وسكَّان البلاد المفتوحة ، والأعراب ، ومن سبقت لهم ردَّةٌ ، واليهود ، والنَّصارى ، وفي تكوين نسيج المجتمع الثَّقافيِّ ، وفي بساطة عيش المجتمع ، وفي ظهور لونٍ جديدٍ من الانحرافات ، وفي قبول الشَّائعات[١] .

١ـ المتغيِّرات في نسيج المجتمع البشريِّ :

أ ـ لقد تكوَّن هذا النَّسيج من قطاعاتٍ عدَّةٍ ، قطاع الأسبقين ممَّن بقي من الصَّحابة ، ومن الّذين نالوا قسطاً وفيراً من رعاية الصَّحابة ، ولكنَّ هذا القطاع وذاك ظلَّ يتناقص إمَّا عن طريق الموت والقتل في ميادين الفتوح ، وإمَّا عن طريق تفرُّقهم في الأمصار ، ممَّا جعلهم أقلَّ القطاعات حضوراً ، وكانوا موزَّعين في البلدان المفتوحة والأمصار الكبيرة المستحدثة كالبصرة ، والكوفة ، والشَّام ، ومصر ، وبعضهم في الجزيرة العربيَّة يخرجون منها ، ثمَّ يعودون إليها مرَّة أخرى[٢] .

ب ـ سكان المناطق المفتوحة ، وكانوا يشكلون الأكثريَّة بالنسبة للقادمين إليهم مع حركة الفتوح ، فقد ظلَّ القادمون قلَّةً ، وإن كان لهم حضور فعليٌّ في إدارة البلد أو التأثير السُّلوكيِّ ، والأخلاقيِّ ، والفكريِّ ، واللُّغويِّ ، إلا أنَّهم رغم ذلك يُعتبرون قلَّةً وظلَّ هذا القطاع ـ قطاع سكَّان المناطق المفتوحة ـ مقتصراً في استقراره ـ غالباً ـ على مناطقهم ، ومع هذا فقد تنقَّل بعضهم في المناطق الأخرى من بلدان الدَّولة الإسلاميَّة ، بل استقرَّ بعضهم في الأمصار الكبيرة ، وفي عاصمة الدَّولة أيضاً ، إما على شكل ما عرف بالسَّبي ، أي : يستقرُّون تابعين لمواليهم ، وإمَّا على شكل تنقُّلٍ تجاريٍّ ، ومعرفيٍّ وإداريٍّ ، حيث لا يوجد قانون يمنعهم من ذلك ، إن لم يكونوا يلقون التَّشجيع ، والدَّعم[٣] ، وقد كان الأعاجم الّذين جاؤوا من البلاد المفتوحة من أسرع النَّاس إلى الفتنة ؛ ذلكم لأنَّ أغلب الأعاجم من الأمم الموتورة ، والشُّعوب المقهورة ، فتكثر مسارعتهم للفتن لأسبابٍ كثيرةٍ ، منها :

* جهلهم ، وحداثة عهد أكثرهم بالكفر ، والمُلك ، والعزِّ الّذي كانوا عليه ، ثمَّ سُلبوه .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(٣٨٠) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

* قلَّة فقههم في الدِّين ، بسبب العجمة ، وغيرها .

* العصبية ، وكراهية العرب .

* أنَّ طوائف منهم دخلت الإسلام ظاهراً ، وخوفاً من السَّيف ، أو الجزية ، وأضمروا للإسلام والمسلمين الشَّرَّ ، والكيد ، فيسارعون إلى كلِّ فتنة .

* طمع أهل الأهواء فيهم للأسباب المذكورة ، وتحريضهم لهم[(١)] .

ج ـ أولئك الأعراب عرفوا بأنَّهم من سكان البادية ، وهم مثل بقيَّة النَّاس منهم المسلم التَّقيُّ ، ومنهم الكافر ، والمنافق ؛ إلا أنَّهم كما قال الله عنهم : ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩٧] . وذلك لأنَّهم أقسى قلوباً ، وأغلظ طبعاً ، وأجفى قولاً ، ولصفاتهم هذه فهم جديرون ، وأخلق بهم ألا يعلموا حدود ما أنزل الله من الشَّرائع ، والأحكام ، والجهاد[(٢)] ، فهم من أسرع النَّاس في الفتن ، ولمسارعتهم فيها له أسبابٌ ، منها :

* قلَّة فقههم في الدِّين .

* سرعة اغترار الواحد منهم بما يتعلَّمه من القرآن ، فيظنُّ : أنَّه صار عالماً بقليلٍ من العلم .

* جفاؤهم للعلماء ، وترك التَّلقِّي عنهم ، والاقتداء بهم .

* تمكُّن العصبية القبليَّة من نفوسهم .

* تغرير أهل المطامع بهم ، واستغلال سذاجتهم ، وجهلهم .

* حدَّة طباعهم ، ونفورهم من المدنيَّة ، والخلطة ، وإساءة الظنِّ بالآخرين ممَّن لا يعرفونهم ، وهذا من طباع الأعراب في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ .

* تشدُّدهم في الدِّين ، وتنطُّعهم بلا علمٍ ، لذلك صار غالب الخوارج من هذا الصِّنف[(٣)] .

وخرج من هؤلاء الأعراب رجالٌ عرفوا (بالقرَّاء) وقد اختلف مفهوم (القرَّاء) هذا عن منطوقه ، فالمنطوق يقصد به جماعةٌ ممَّن تخصَّصوا بقراءة القرآن ، إلا أنَّ المفهوم ومن خلال الواقع أنتج دلالاتٍ أخرى ، فمنهم من كان ـ على طريقة الخوارج ـ يفهمون القرآن بطريقتهم الخاصَّة ، ومنهم من كان زاهداً لا يفقه حقيقة ما يقرأ ، ولم يستطع التأقلم مع واقع

---

(١) دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، ناصر العقل ، ص(١٦١) .
(٢) دراساتٌ في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة، ص(٣٨٠). نقلاً عن الشَّوكاني فتح القدير (٢/ ٣٩٥ـ٣٩٧).
(٣) دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، ص(١٦١) .

المجتمع[1] ، وهؤلاء القرَّاء الجهلة يسارعون للفتن وذلك لأسبابٍ منها :

* الشِّدَّة في نزعة التَّديُّن عندهم مع قلَّة الفقه في الدِّين ، مما يورث غيرةً على الدين بغير علمٍ ، ولا بصيرةٍ ؛ فتجرفهم الأهواء ، والعواطف باسم الغيرة على الدِّين ، دون نظرٍ في العواقب ، ولا فقهٍ لقواعد الشَّرع ، كدرء المفاسد ، وجلب المصالح .

* الاغترار بما يحصله الواحد منهم من الآيات ، والأحاديث دون فقهٍ ، ولا بصيرةٍ ، فيتوهَّم : أنَّه صار من أهل العلم ، الّذين يحلُّون ، ويعقدون في مصالح المسلمين .

* تعاليهم على العلماء والأئمَّة ، وظنُّهم : أنَّهم وصلوا درجة الاستغناء عنهم ، وعن فقههم وعلمهم ، تحت شعارٍ : هم رجالٌ ، ونحن رجالٌ .

* اتِّخاذهم رؤساء جُهَّالاً من بينهم دون العلماء والأئمَّة .

* ولأنَّ أهل الأهواء ، ورؤوس البدع ، والفتن ـ وغالبهم من الدُّهاة ـ يفزعون إلى القرَّاء ، فيغوونهم ، ويستدرجونهم ، ويستغلُّون نزعة التَّديُّن فيهم ، ويستثيرون غيرتهم بلا بصيرةٍ .

* جهلهم بقواعد الاستدلال ، وأحكام الفتن[2] .

د ـ وفصيلٌ ، أو قطاعٌ آخر في نسيج المجتمع الإسلاميِّ ، وهو ممَّن سبقت لهم ردَّةٌ ، وكانت حياتهم في الإسلام قصيرةً ، وانتماؤهم إليه ضرورةً ، ولا ننفي أنَّ منهم من زَكا، وصلُح، وكان من الفضلاء إلا أنَّ منهم من لم يتذوَّق حلاوة الإسلام، فظلَّ ـ رغم انتسابه للإسلام ـ يعيش بعقليَّته السَّابقة ، ونفسيَّته الّتي عاشها قبل الإسلام الفعليَّة القبليَّة ، تناوشه العصبيَّات ، وكأنَّ الإسلام لم يدخل فيهم ، أو أنَّهم ظنُّوا عدم التناقض بين ما يعرفونه من إسلامٍ، وما يتعاملون به في الواقع من دوافع قبليَّةٍ[3] .

لقد شكلت طوائف من المرتدِّين عنصراً ساهم في تهيئة أجواء الفتنة ، والمرتدُّون كانوا على عهد أبي بكرٍ، وعمر، رضي الله عنهما، ولكنَّ الشَّيَّ الجديد هو اختلاف سياسة عثمان رضي الله عنه عن الخليفتين قبله تجاههم ، فأبو بكر رضي الله عنه يكتب إلى عمَّاله : ألا يستعينوا بمرتدٍّ في جهاد العدوِّ ، ويؤكِّد على خالد بن الوليد ، وعياض بن غنم ألا يغزو معهم أحدٌ قد ارتدَّ حتَّى يرى رأيه فيهم ، فلم تشهد أيَّامه[4] مرتدّاً ، ويقول الشَّعبيُّ : كان أبو بكر رضي الله عنه لا

---

(١) دراسات في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة ، ص(٣٨١) .

(٢) دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، ص(١٦٣) .

(٣) دراساتٌ في عهد النُّبوَّة ، والخلافة الرَّاشدة ، ص(٣٨١) .

(٤) عبد الله بن سبأ ، وأثره في أحداث الفتنة ، ص(١٥٥) .

يستعين في حروبه بأحدٍ من أهل الرِّدَّة ؛ حتَّى مات[١] ، ولذلك كان بعض من ارتدَّ ، وحسن إسلامهم بعد ذلك ، يستحيون من مواجهة أبي بكرٍ رضي الله عنه ، فطليحة بن خويلد ـ مثلاً ـ يذهب إلى مكَّة معتمراً ، وما استطاع مقابلة أبي بكر حتَّى مات[٢] ، وفي خلافة عمر رضي الله عنه تخفُّ هذه السِّياسة ، تجاه المرتدِّين ، فيندب أهل الرِّدَّة ليرمي بهم الشَّام ، والعراق[٣] .

وقد كان في مسيرة جيش سعد بن أبي وقَّاص في القادسية قيس بن مكشوح المرادي ، وعمرو بن معد يكرب ، كان يحمِّس النَّاس ، ويحرِّك مشاعرهم ، وهذا كلُّه كان بعد أن أذن عمر لأهل الرِّدَّة في الغزو[٤] ، ولكنَّ هذا التَّجاوز عن سياسة أبي بكر عند عمر يصحبه نوعٌ من الحذر ، والحيطة ، ولا ينفكُّ عن الضَّوابط ، والشُّروط المقيَّدة ، فأهل الرِّدة لا يولَّون على مئةٍ ، ولهذا اضطرَّ سعد أن يبعث قيس ابن المكشوح في سبعين رجلاً فقط ، في أثر الأعاجم ثاروا بهم في ليلة الهرير[٥] . ويأتي عثمان رضي الله عنه فيتجاوز سياسة التقييد الّتي فرضها الخليفتان قبله تجاه المرتدِّين، ويرتئي : أنَّ عامل الزَّمن ـ الّذي مضى على عهد الرِّدَّة ـ كافٍ لأن يتخلَّص من كان قد ارتدَّ من رواسبها، ويجتهد عثمان، فيستعمل أهل الرِّدَّة استصلاحاً لهم، فلم يصلحهم ذلك ، بل زادهم فساداً، وجعل قائلهم يتمثَّل قول القائل :

وَكُنْتُ وَعَمْراً كَالمُسَمِّنِ كَلْبَهُ فَتَخْدِشُهُ أَنْيَابُهُ وَأَظَافِرُهْ[٦]

وكانت من نتائج استعمال عثمان لأهل الرِّدَّة في الكوفة أن تبدَّل أهلها ، وأصيب قائدهم عبد الرَّحمن بن ربيعة في غزوة للتُّرك ، وهو الّذي كان يقاتلهم في عهد عمر فيفرقون منه ، ويقولون : ما اجترأ علينا هذا الرَّجل إلا ومعه ملائكةٌ تمنعه من الموت[٧] ، وتظهر الآثار بشكلٍ واضحٍ في الفتنة الّتي انتهت بقتل عثمان ، وذلك حينما نجد في أسماء المتَّهمين في دم عثمان رجالاً ينتسبون إلى قبائل كانت في عداد المرتدِّين أمثال : سودان بن حمران السُّكونيِّ ، وقتيرة ابن فلان السُّكونيِّ ، وحكيم بن جبلة العبديِّ[٨] .

---

(١) البداية والنِّهاية (٦/ ٣٤٧) .
(٢) التَّاريخ الإسلاميُّ (٩/ ٥٩) .
(٣) عبد الله بن سبأ ، وأثره في أحداث الفتنة ، ص(١٥٦) .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) تاريخ الطَّبري (٤/ ٣٨٢) .
(٦) عبد الله بن سبأ ، وأثره في أحداث الفتنة ، ص(١٥٧) .
(٧) تاريخ الطَّبري (٥/ ١٤٦) .
(٨) عبد الله بن سبأ ، وأثره في أحداث الفتنة ، ص(١٥٧) .

هـ ـ اليهود ، والنَّصارى ، وكان بعضهم ـ وهم كثيرٌ ـ قد خرج ، أو أخرج من جزيرة العرب ، فاستقرُّوا في الأمصار الكبيرة ، ومنها : الكوفة ، والبصرة ، وكان اليهود خاصَّة ـ حسب طبعهم ـ ظلُّوا في تلك الأمصار المطلَّة على ميادين الفتوح يمارسون مهنتهم المشهورة المزدوجة ، السَّيطرة الماليَّة بوسائلهم المختلفة ، والتآمر على قطع اليد الّتي تمدُّ لهم المساعدة[١] . وسيأتي الحديث عن دور اليهود بإذن الله تعالى .

٢ـ تكوينات نسيج المجتمع الثَّقافي :

فإلى جوار هذا الخليط البشريِّ كان هناك خليطٌ آخر لا يقلُّ خطره ـ إن لم يفق الخليط البشريُّ ـ ألا وهو الخليط الثَّقافيُّ ، حيث تدفَّقت الثقافات ، والأفكار ، والنُّظم ، والعقائد مع تلك الأعداد البشريَّة الّتي انضمَّت إلى محتويات المجتمع الإسلاميِّ ، فصارت تشكِّل حملاً ضخماً على عاتقه ، وممَّا زاد الطِّين بلَّةً : أنَّه بالرَّغم من اندماج المسلمين في نسيج البلدان المفتوحة ، حيث عاشوا في أوساطهم ، وتزوَّجوا منهم ، وتعلَّموا لغاتهم ، ولبسوا ملابسهم ، ومارسوا عاداتهم ، إلا : أنَّه بالرَّغم من ذلك ؛ فقد كان تأثيرهم في أهل البلد المفتوح محدوداً في هذه الفترة المبكِّرة[٢] ، فلم ينل أهالي هذه البلاد المفتوحة حظاً وافراً من التَّربية ، ولم تتشبَّع بروح الإسلام كما هو حال الصَّحابة من المهاجرين والأنصار ، وكذلك القبائل العربيَّة الّتي اختلطت بأهالي البلاد المفتوحة ، وإذا كان الإسلام قد تمكَّن من صهر هذه القبائل المختلفة في بوتقةٍ لفترةٍ معيَّنةٍ ، إلا أنَّه ممَّا يجب أن يوضع في الحسبان : أنَّ عمليَّة التَّعليم ، والتَّربية الّتي كانت تقودها القاعدة الصُّلبة من المهاجرين ، والأنصار لم تكن قادرةً على استيعاب هذه الأفواج الكبيرة ، واحتوائها ، فالموالي لم يتخلَّصوا من كلِّ الأفكار ، والعادات الّتي كانوا عليها في جاهليتهم ، ويرجع ذلك إلى عدم التَّوازن بين حركة التوسُّع الأفقي في فتح البلدان ، وبين التوسُّع الرَّأسي في تعليم النَّاس ، وتفقيههم من كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، على أنَّ حركة الجهاد لا بدَّ أن يصحبها ويتبعها الدُّعاة ، والمعلِّمون ليفقِّهوا النَّاس في دينهم ، حتَّى لا يختلَّ ميزان التَّربية ، وتحدث الخلخلة في الصفِّ الإسلاميِّ ، وتتوسَّع الفجوة بين الفاتحين ، وسكَّان الأراضي المفتوحة ، ممَّا يتسبب في حدوث ظواهر سلبيَّةٍ تؤثِّر في تماسك الصَّف الإسلاميِّ ، ووحدته السِّياسيَّة ، والفكريَّة[٣] ، ولم يمكن تفادي هذا الجانب السَّلبيِّ رغم وجود البذل ، والحماس في ميدان التَّعليم ، والتَّربية الإسلاميَّة ، حيث كان التَّوسُّع في الأرض سريعاً ، وواسعاً ، فقد فتحت العراق وما وراءها ، وبلاد الشَّام في سنواتٍ قليلةٍ معدودةٍ ، فلم يكن في

(١) دراسات في عهد النُّبوة ، والخلافة الرَّاشدة ، ص(٣٨١) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٣٥٨) .

مقدرة الطَّاقة البشريَّة في ميدان التَّربية ، والتَّعليم استيعاب الأعداد الهائلة من سكَّان تلك المناطق ، وتعليمها[١] .

ومن أسباب ذلك : أنَّ الصَّحابة الَّذين كان من المفروض أن يقوموا بهذه الأمانة قد قتل معظمهم في ميادين الجهاد ، ولم يبقَ إلا أفرادٌ قليلون متفرِّقون تجمَّع حولهم المسلمون الَّذين يحبُّون أن يتعلَّموا ، فظهرت طبقة التَّابعين ، ولأنَّ معظمهم مخلصون ؛ فقد كانوا في مقدِّمة ميادين الجهاد ، فقتل أيضاً منهم مَنْ قتل[٢] ، كما لم يكن الزَّمن كافياً لترسيخ التَّعاليم الإسلاميَّة في نفوس كثيرٍ منهم ، ممَّا ساعد ، مع غيره من العوامل ـ على وجود خلخلةٍ فكريَّةٍ ، وظواهر سلبيَّةٍ دخيلةٍ على النَّهج الإسلاميِّ ، مما كان له الأثر في عدم استقرار الدَّولة ، وظهر ذلك جلياً في السَّنوات الأخيرة من عهد عثمان رضي الله عنه[٣] .

٣ـ ظهور جيلٍ جديدٍ :

فقد حدث في المجتمع تغيُّر أكبر ، ذلك : أنَّ جيلاً جديداً من النَّاس ظهر ، وأخذ يحتلُّ مكانةً في المجتمع ، وهو غير جيل الصَّحابة ، جيلٌ يعيش في عصرٍ غير العصر الَّذي كانوا يعيشون فيه ، ويتَّصف بما لا يتَّصفون به ، فهو جيلٌ[٤] يعتبر في مجموعه أقلَّ من الجيل الأوَّل الَّذي حمل على كتفيه عبء بناء الدَّولة ، وإقامتها ، فقد تميَّز الجيل الأوَّل من المسلمين بقوَّة الإيمان ، والفهم السَّليم لجوهر العقيدة الإسلاميَّة ، والاستعداد التَّامّ لإخضاع النَّفس لنظام الإسلام المتمثِّل في القرآن ، والسُّنَّة ، وكانت هذه الميِّزات أقلَّ ظهوراً في الجيل الجديد الَّذي وُجد نتيجةً للفتوحات الواسعة ، وظهرت فيه المطامع الفرديَّة ، وبُعثت فيه العصبيَّة للأجناس ، والأقوام ، وبعضهم يحملون رواسب كثيرةً من رواسب الجاهليَّة الَّتي كانوا عليها . ولم ينالوا من التَّربية الإسلاميَّة على العقيدة الصَّحيحة السَّليمة مثل ما نال الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة رضي الله عنهم على يد رسول الله ﷺ ، وذلك لكثرتهم ، وانشغال الفاتحين بالحروب ، والفتوحات الجديدة[٥] ، فالصَّحابة كانوا أقلَّ فتناً من سائر مَنْ بعدهم ، فإنَّه كلَّما تأخَّر العصر عن النُّبوَّة كثر التَّفرُّق ، والخلاف[٦] .

كان الجيل الجديد لا يرضى بالواقع الَّذي كان يتَّسم به جيل الَّذين سبقوه ، فقد اعتاد على غير ما اعتادوا عليه ، فتكوَّنت عقليَّةٌ جديدةٌ ، ومفهومٌ جديدٌ للحياة ، وهو مفهومٌ قد ابتعد عن

(١) المصدر السَّابق نفسه .
(٢) اليمن في صدر الإسلام للشُّجاع ، ص(٣٣٤) .
(٣) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٣٥٩) .
(٤) الدَّولة الأمويَّة ، يوسف العش ، ص(١٣٢) .
(٥) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٣٥٦) .
(٦) ذو النُّورين عثمان بن عفَّان ، مال الله ، ص(٩٩) .

العقليَّة الّتي كانت سائدةً في عصر الرَّاشدين الأوَّلين ، فأصبح لا يفهم تلك العقليَّة ، ولا يستطيع تشرُّبها ، ولا يسعه أن يذعن لحكمها[١] ، ولذلك انضمَّ المنحرفون من الجيل الجديد لدعاة الفتنة .

٤ـ استعداد المجتمع لقبول الشَّائعات :

وهكذا ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس في نسيج المجتمع : أنَّه صار مهيَّئاً للهزَّات ، مستعدّاً للاضطراب ، قابلاً لتلقِّي الإذاعات ، والأقاويل والشَّائعات[٢] ، وهذا ما يعبِّر عنه بوضوح ابن تيميَّة قائلاً : ولهذا لمَّا كان النَّاس في زمن أبي بكرٍ، وعمر ـ اللَّذين أُمر المسلمون بالاقتداء بهما، كما قال رسول الله ﷺ : « **اقتـدوا بـاللَّذين من بعدي : أبي بكرٍ ، وعمر** » ـ أقرب عهداً بالرِّسالة ، وأعظم إيماناً ، وصلاحاً ، وأئمَّتهم أقوم بالواجب ، وأثبت في الطُّمأنينة لم تقع فتنةٌ ، إذ كانوا في حكم القسط (أي : النُّفوس المطمئنَّة) .

ولما كان في آخر خلافة عثمان ، وخلافة عليٍّ ؛ كثر القسم الثالث (أهل النَّفس اللَّوَّامة الّتي تخلط عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً) فصار فيهم شهوةٌ ، وشبهةٌ مع الإيمان ، والدِّين ، وصار ذلك في بعض الولاة ، وبعض الرَّعايا ، ثمَّ كثر هذا القسم ؛ (الّذي خلط عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً) بعد ، فنشأت الفتنة الّتي سببها ما تقدَّم من عدم تمحيص التَّقوى ، والطَّاعة في الطَّرفين ، واختلاطهما بنوعٍ من الهوى ، والمعصية في الطَّرفين ، وكلٌّ منهم متأوِّلٌ ، وأنَّه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وأنَّه مع الحقِّ ، والعدل ، ومع هذا التَّأويل نوعٌ من الهوى ، ففيه نوعٌ من الظنِّ ، وما تهوى الأنفس ، وإن كانت إحدى الطَّائفتين أولى بالحقِّ من الأخرى[٣] ، ويوضِّح هذا الواقع بدقَّةٍ أكثر ذلك الحوار الّذي دار بين أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب ، وأحد أتباعه ، قال الرَّجل : ما بال المسلمين اختلفوا عليك ، ولم يختلفوا على أبي بكرٍ ، وعمر ؟ قال عليٌّ : لأنَّ أبا بكرٍ ، وعمر كانا واليين على مثلي ، وأنا اليوم والٍ على مثلك[٤] . وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان مدركاً لما يدور في وسط المجتمع حيث قال في رسالته إلى الأمراء : أمَّا بعد ، فإنَّ الرَّعيَّة قد طعنت في الانتشار ، ونزعت إلى الشَّره ، وأَعْدَاها على ذلك ثلاث : دنيا مؤثرةٌ، وأهواءٌ مسرعةٌ، وضغائن محمولةٌ، يوشك أن تنفر، فَتُغيِّر[٥] .

---

(١) الدَّولة الأمويَّة ، يوسف العش ، ص(١٣٣) .

(٢) دراسات في عهد النُّبوة ، والخلافة الرَّاشدة ، ص(٣٨٢) .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيميَّة (٢٨/١٤٨ ، ١٤٩) .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، ص(١٨٩) .

(٥) التَّمهيد والبيان ، ص(٦٤) .

ثالثاً : مجيء عثمان بعد عمر ، رضي الله عنهما :

كان مجيء عثمان رضي الله عنه مباشرةً بعد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه واختلاف الطَّبع بينهما مؤدِّياً إلى تغيُّر أسلوبهما في معاملة الرَّعية ، فبينما كان عمر قوي الشَّكيمة ، شديد المحاسبة لنفسه ، ولمن تحت يديه ، كان عثمان ألين طبعاً ، وأرقَّ في المعاملة ، ولم يكن يأخذ نفسه ، أو يأخذ النَّاس بما يأخذهم به عمر حتَّى يقول عثمان لنفسه : يرحم الله عمر ! ومن يطيق ما كان عمر يطيق[١] ؟ ! لكن النَّاس ، وإن رغبوا في الشَّوط الأوَّل من خلافته ؛ لأنَّه لان معهم ، وكان عمر رضي الله عنه شديداً عليهم حتَّى أصبحت محبَّته مضرب المثل .

فقد أنكروا عليه بعد ذلك ، ويرجع هذا إلى نشأة عثمان في لطفه ، ولين عريكته ، ورقَّة طبعه ، ودماثة خُلقه ، ممَّا كان له بعض الأثر في مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده ، وعهد سلفه عمر بن الخطَّاب ، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوامٍ سجنهم : أتدرون ما جرَّأكم عليَّ ؟ ما جرَّأكم عليَّ إلا حلمي[٢] .

وحين بدت نوايا الخارجين وقد ألزمهم عثمان الحجَّة في ردِّه على المآخذ الّتي أخذوها عليه أمام الملأ من الصَّحابة والنَّاس ، أبى المسلمون إلا قتلهم ، وأبى عثمان إلا تركهم ؛ لحلمه ، ووداعته قائلاً : بل نعفو ، ونقبل ، ولنبصرهم بجهدها ، ولا نحادِّ أحداً حتَّى يركب حدّاً ، أو يبدي كفراً[٣] .

رابعاً : خروج كبار الصَّحابة من المدينة :

كان عمر رضي الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذنٍ، وأجلٍ، فشكوه، فبلغه، فقام، فقال : ألا إنِّي قد سننت الإسلام سَنَّ البعير ، يبدأ فيكون جذعاً، ثم ثَنِيّاً، ثمَّ رباعيّاً، ثمَّ سدسيّاً، ثم بازلاً[٤] . ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان، ألا فإنَّ الإسلام قد بَزَل، ألا وإنَّ قريشاً يريدون أن يتَّخذوا مال الله معوناتٍ دون عباده، ألا فأمَّا وابن الخطاب حيٌّ فلا، إنِّي قائمٌ دون شِعب الحرَّة، آخذ بِحلاقيم[٥] قريش، وَحُجَزِها أن يتهافتوا في النَّار[٦] .

لقد كان عمر يخاف على هؤلاء الصَّحابة من انتشارهم في البلاد المفتوحة ، وتوسُّعهم في

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤١٨) .
(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٥٠) .
(٣) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٣٦٤) .
(٤) البازل : الَّذي انشقَّ نابه بدخوله في التَّاسعة .
(٥) الحلاقيم : جمع حلقوم .
(٦) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤١٣) .

القطاع والضِّياع ، فكان يأتيه الرَّجل من المهاجرين ، وهو ممَّن حبس في المدينة ، فيستأذنه في الخروج ، فيجيبه عمر : لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخيرٌ لك من الغزو اليوم ألا ترى الدُّنيا ، ولا تراك[١] .

وأمَّا عثمان فقد سمح لهم بالخروج ، ولان معهم ، يقول الشَّعبيُّ : فلمَّا ولي عثمان ، خلَّى عنهم ، فاضطربوا في البلاد ، وانقطع إليهم النَّاس ، فكان أحبَّ إليهم من عمر[٢] ، فكان من نتائج هذا التوسُّع أن اتَّخذ رجالٌ من قريش أموالاً في الأمصار ، وانقطع إليهم النَّاس[٣] .

وفي روايةٍ : فلمَّا ولي عثمان لم يأخذهم بالّذي كان يأخذهم عمر ، فانساحوا في البلاد ، فلمَّا رأوها ، ورأوا الدُّنيا ، ورآهم النَّاس انقطع إليهم من لم يكن له طَوْلٌ ، ولا مَزِيَّةٌ في الإسلام ، فكان مغموماً (مغموراً) في النَّاس ، وصاروا أوزاعاً إليهم ، وأمَّلوهم ،وتقدَّموا في ذلك ، فقالوا : يملكون ، فنكون قد عرفناهم ، وتقدَّمنا في التَّقريب ، والانقطاع إليهم ، فكان ذلك أوَّل وهنٍ دخل في الإسلام ، وأوَّل فتنة كانت في العامَّة ليس إلا ذلك[٤] .

خامساً : العصبية الجاهليَّة :

يقول ابن خلدون : لما استكمل الفتح ، واستكمل للملَّة الملك ، ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة ، والكوفة ، والشَّام ، ومصر ، وكان المختصُّون بصحبة الرَّسول ﷺ والاقتداء بهديه ، وآدابه : المهاجرين ، والأنصار ، وقريش ، وأهل الحجاز ، ومن ظفر بمثل ذلك مِنْ غيرهم ، وأمَّا سائر العرب من بني بكر بن وائل ، وعبد القيس ، وسائر ربيعة ، والأزد ، وكندة ، وتميم ، وقضاعة ، وغيرهم فلم يكونوا في تلك الصحبة بمكانٍ إلا قليل منهم . وكانت لهم في الفتوحات قدمٌ ، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السَّابقة ، ومعرفة حقِّهم ، وما كانوا فيه من الذُّهول ، والدَّهش لأمر النُّبوَّة ، وتردُّد الوحي ، وتنزُّل الملائكة ، فلمَّا انحصر ذلك العباب ، وتنوسي الحال بعض الشَّيء ، وذل العدوُّ ، واستفحل الملك ؛ كانت عروق الجاهليَّة تنبض ، ووجدوا الرِّياسة عليهم من المهاجرين ، والأنصار ، وقريش ، وسواهم ، فأنفت نفوسهم منه ، ووافق ذلك أيَّام عثمان ، فكانوا يُظهرون الطعن في ولاته بالأمصار ، والمؤاخذة لهم باللَّحظات ، والخطوات ، والاستبطاء عليهم بالطَّاعات ، والتَّجنِّي بسؤال الاستبداد منهم ، والعزل ، ويفيضون في النَّكير على عثمان ، وفشت المقالة في ذلك في أتباعهم ، وتناولوا بالظُّلم في

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤١٤) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

جهاتهم ، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصَّحابة بالمدينة ، فارتابوا ، وأفاضوا في عزل عثمان ، وحمله على عزل أمرائه ، وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر . . . فرجعوا إليه فقالوا : ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكره أعيان المسلمين ، ولا عوامُّهم[(١)] .

سادساً : توقُّف الفتوحات :

حين توقَّفت الفتوح في أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعيَّة ، أو بشريَّة لم تتجاوزها ، سواءٌ في جهات فارس ، وشمالي بلاد الشَّام ، أو في جهة إفريقية ، توقفت الغنائم على أثرها ، فتساءل الأعراب ، أين ذهبت الغنائم القديمة ؟ أين ذهبت الأراضي المفتوحة الّتي يعدُّونها حقّاً من حقوقهم[(٢)] ، وانتشرت الشَّائعات الباطلة الّتي اتهمت عثمان رضي الله عنه بأنَّه تصرف في الأراضي الموقوفة على المسلمين وفق هواه ، وأنه أقطع منها لمن شاء من النَّاس ، وقد كان لها أثرٌ ، ووقعٌ على الأعراب ، خاصَّةً وأنَّ معظمهم بقي بدون عملٍ يقضون شطراً من وقتهم في الطَّعام ، والنَّوم ، والشَّطر الآخر بالخوض في سياسة الدَّولة ، والحديث عن تصرُّفات عثمان الّتي كانت تهوِّلها السَّبئيَّة ، وقد أدرك أحد عمَّال عثمان هذا الأمر ، وهو عبد الله بن عامر ، فأشار على الخليفة حيث طلب من عماله ـ وهم وزراؤه ، ونصحاؤه ـ أن يجتهدوا في آرائهم ، ويشيروا عليه ، فأشار عليه أن يأمر النَّاس بالجهاد ، ويجمهرهم في المغازي حتَّى لا يتعدَّى همُّ أحدهم قمل فروة رأسه ، ودبرة دابَّته[(٣)] .

وفي ذلك الجو من الحديث ، والفكر عند أفراد تعوَّدوا الغزو ، ولم يفقهوا من الدِّين شيئاً كثيراً يمكن أن يُتوقَّع كلُّ سوءٍ ، ويكفي أن يحرَّك هؤلاء الأعراب ، وأن يُوجَّهوا توجيهاً ، فإذا هم يثورون ، ويحدثون القلاقل والفتن ، وهذا ما حدث بالفعل ، فإنَّ الأعراب ـ بسبب توقُّف الفتوحات ـ ساهموا في بوادر الفتنة الأولى ، وكانوا سبباً من أسباب اندلاعها[(٤)] .

سابعاً : المفهوم الخاطئ للورع :

الورع في الشَّريعة طيِّبٌ ؛ وهو أن يُترك ما لا بأس به ، مخافة ممَّا فيه بأس ، وهو في الأصل ترفُّع عن المباحات في الله ، ولله ، والورع شيءٌ شخصيٌّ يصحُّ للإنسان أن يطالب به نفسه ، ولكن لا يصحُّ أن يطالب به الآخرين ، ومن أخطر أنواع الورع : الورع الجاهل الّذي يجعل

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٧٧) .

(٢) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٣٤٤) .

(٣) تاريخ الطَّبري (٢/ ٣٤٠) .

(٤) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة ، ص(٣٥٣) .

المباح حراماً ، أو مفروضاً ، وهذا الّذي وقع فيه أصحاب الفتنة[١] ، فقد استغلَّ أعداء الإسلام يومها مشاعرهم هذه ، ونفخوا فيها ، فرأوا فيما فعله عثمان من المباحات ، أو المصالح خروجاً على الإسلام ، وتغييراً لسنَّة من سبقه ، وعظمت هذه المسائل في أعين الجهلة ، فاستباحوا ـ أو أعانوا من استباح ـ دم الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم، وهذا الورع الجاهل نلاحظه اليوم في تصرفات بعض المسلمين الّذين يصرُّون على تكييف أحكام الإسلام وفق ما يشتهون، أو يكرهون، أو وفق عاداتهم، وتقاليدهم[٢] .

ثامناً : طموح الطَّامحين :

وجد في الجيل الثاني من أبناء الصَّحابة رضي الله عنهم من يعتبر نفسه جديراً بالحكم، والإدارة، ووجد أمثال هؤلاء أنَّ الطريق أمامهم مغلقٌ، وفي العادة أنَّه متى وجد الطَّامحون الّذين لا يجدون لطموحهم متنفَّساً ، فإنَّهم يدخلون في كلِّ عملية تغيير ، ومعالجة أمر هؤلاء في غاية الأهميَّة[٣] .

تاسعاً : تآمر الحاقدين :

لقد دخل في الإسلام منافقون موتورون اجتمع لهم من الحقد، والذَّكاء، والدَّهاء، ما استطاعوا به أن يدركوا نقاط الضَّعف الّتي يستطيعون من خلالها أن يوجدوا الفتنة، ووجدوا من يستمع إليهم بآذانٍ صاغيةٍ، فكان من آثار ذلك ما كان[٤]، فقد عرفنا سابقاً وجود يهود، ونصارى، وفرس، وهؤلاء جميعاً معروفٌ باعث غيظهم، وحقدهم على الإسلام، والدَّولة الإسلاميَّة.

ولكنَّنا هنا نضيف من وقع عليه حدٌّ ، أو تعزيزٌ لأمرٍ ارتكبه في وسط الدَّولة ، وعاقبه الخليفة ، أو ولاته في بعض الأمصار وبالذَّات البصرة ، والكوفة ، ومصر ، والمدينة ، فاستغلَّ أولئك الحاقدون من يهود ، ونصارى ، وفرس ، وأصحاب الجرائم مجموعاتٍ من النَّاس كان معظمهم من الأعراب ، ممَّن لا يفقهون هذا الدِّين على حقيقته ، فتكوَّنت لهؤلاء جميعاً طائفةٌ ، وصفت من جميع من قابلهم بأنَّهم أصحاب شرٍّ ، فقد وُصِفُوا : بالغوغاء من أهل الأمصار ، ونزَّاع القبائل ، وأهل المياه ، وعبيد المدينة[٥] ، وبأنهم ذؤبان العرب[٦] ، وأنَّهم حثالة النَّاس

(١) الأساس في السُّنَّة (٤/ ١٦٧٦) .
(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٥١٧) .
(٣) الأساس في السُّنَّة (٤/ ١٦٧٦) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) دراساتٌ في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة ، ص(٣٩٢) .
(٦) المصدر السَّابق نفسه .

ومتَّفقون على الشَّرِّ[١] ، وسفهاءُ عديمو الفقه[٢] ، وأراذل من أوباش القبائل[٣] ، فهم أهل جفاءٍ ، وهمج ، ورعاعٍ من غوغاء القبائل ، وسفلة الأطراف الأراذل[٤] ، وأنَّهم آلة الشَّيطان[٥] ، وقد تردَّد في المصادر اسم عبد الله بن سبأ الصَّنعاني اليهوديِّ ضمن هؤلاء الموتورين الحاقدين ، وأنَّه كان من اليهود ، ثمَّ أسلم ، ولم يُنقِّب أحدٌ عن نواياه ، فتنقَّل بين البلدان الإسلاميَّة باعتباره أحد أفراد المسلمين[٦] ، وسيأتي الحديث عنه في مبحثٍ مستقلٍّ بإذن الله .

عاشراً : التَّدبير المحكم لإثارة المآخذ ضدَّ عثمان رضي الله عنه :

كان المجتمع مهيَّئاً لقبول الأقاويل ، والشَّائعات نتيجة عوامل وأسبابٍ متداخلةٍ ، وكانت الأرض مهيّأةً ، ونسيج المجتمع قابلاً لتلقي الخروقات ، وأصحاب الفتنة أجمعوا على الطَّعن في الأمراء بحجَّة الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، حتَّى استمالوا النَّاس إلى صفوفهم ، ووصل الطَّعن إلى عثمان بن عفَّان رضي الله عنه نفسه باعتباره قائد الدَّولة ، وإذا ما حصرنا الدَّعاوَى الَّتي رُوِّجت ضد الخليفة ، وطعنوه بها ، فيمكننا تصنيفها إلى مجموعاتٍ خمس :

١ـ مواقف شخصيَّة له قبل توليه الخلافة (تغيُّبه عن بعض الغزوات ، والمواقع) .

٢ـ سياسته الماليَّة : الأعطيات ، الحِمَى .

٣ـ سياسته الإدارية النَّافذة : تولية أقربائه ، طريقته في التَّولية .

٤ـ اجتهادات خاصَّة به ، أو بمصلحة الأمَّة (إتمام الصَّلاة بمنى ، جمع القرآن ، الزِّيادة في المسجد) .

٥ـ معاملته لبعض الصَّحابة : عمَّار ، أبي ذرٍّ ، ابن مسعودٍ[٧] .

وقد بيَّنت موقف عثمان في كلِّ ما وجه إليه في موضعه ، ولم يبق إلا عمَّارٌ رضي الله عنه وسيأتي الحديث عنه بإذن الله . وقد حدث تزيُّد في إبراز المطاعن على عثمان رضي الله عنه سواءٌ في عهده ، وما واجهوه بها ، وردُّه عليها في حينه ، أو ما تُقوِّل عليه فيما بعد عند الرُّواة ،

---

(١) الطَّبقات (٣/ ٧١) هذا وصف ابن سعد .

(٢) دراساتٌ في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة ، ص(٣٩٢) .

(٣) شذرات الذَّهب (١/ ٤٠) هذا وصف ابن العماد .

(٤) شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٤٨ ، ١٤٩) .

(٥) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٢٧) .

(٦) دراساتٌ في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة ، ص(٣٩٤) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

والكتَّاب ، فإنَّها لم تصحَّ ، ولم تصل إلى حدٍّ أن تكون سبباً في قتله[١] .

إنَّ المآخذ السَّابقَ ذكرها والمدوَّنة في تاريخ الطَّبري ، وغيره من كتب التَّاريخ والمرويَّة عن طريق المجاهيل ، والإخباريِّين الضُّعفاء ـ خاصَّةً الإماميَّة ـ كانت وما تزال بليَّةً عظمى على الحقائق في سِيَر الخلفاء والأئمَّة ، خاصَّةً في مراحل الاضطرابات والفتن ، وقد كان مع الأسف لسيرة عثمان أمير المؤمنين رضي الله عنه من ذلك الحظُّ الوافر، فرواية الحوادث، ووضع الأباطيل على النَّهج الملتوي بعض ما نال تلك السِّيرة النَّيِّرة من تحريف المنحرفين، وتشويه الغالين ؛ بغية التأليب عليه، أو التَّشهير به وقد أدرك عثمان رضي الله عنه بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمرائه : أمَّا بعد، فإنَّ الرَّعية طعنت في الانتشار، ونزعت إلى الشَّرِّ ؛ أعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرةٌ، وأهواءٌ متسرِّعةٌ، وضغائن محمولةٌ[٢] ، وقال ابن العربيِّ عن تلك المآخذ جملةً: قالوا متعدِّين متعلِّقين برواية كذَّابين: جاء عثمان في ولايته بمظالم، ومناكير. . . هذا كلُّه باطلٌ سنداً، ومتناً[٣] .

وقد بيَّن ابن تيميَّة بأنَّ عثمان رضي الله عنه ليس معصوماً ، فقال : والقاعدة الكلِّيَّة في هذا ألا نعتقد أنَّ أحداً معصومٌ بعد النَّبيِّ ﷺ ، بل الخلفاء ، وغير الخلفاء يجوز عليهم الخطأ ، والذُّنوب الّتي تقع منهم قد يتوبون منها ، وقد تُكفَّر عنهم بحسناتهم الكثيرة ، وقد يبتلون أيضاً بمصائب يُكفِّر الله بها ، وقد يُكَفَّر عنهم بغير ذلك ، فكلُّ ما ينقل عن عثمان غايته أن يكون ذنباً ، أو خطأً ، وعثمان رضي الله عنه قد حصلت له أسباب المغفرة من وجوهٍ كثيرةٍ ، منها سابقته ، وإيمانه ، وجهاده ، وغير ذلك من طاعته ، وقد ثبت أنَّ النَّبيّ ﷺ شهد له ، بل بشَّره بالجنَّة على بلوى تصيبه[٤] ، ومنها : أنَّه تاب من عامَّة ما أنكروه عليه ، وأنَّه ابتلي ببلاءٍ عظيم ، فكفَّر الله به خطاياه ، وصبر حتى قتل شهيداً مظلوماً ، وهذا من أعظم ما يكفِّر الله به الخطايا[٥] .

الحادي عشر : استخدام الأساليب والوسائل المهيِّجة للنَّاس :

وأهم هذه الأساليب : إشاعة الأراجيف ، حيث تردَّدت كلمة الإشاعة ، والإذاعة كثيراً ، والتَّحريض ، والمناظرة ، والمجادلة للخليفة أمام النَّاس ، والطَّعن على الولاة ، واستخدام تزوير الكتب ، واختلاقها على لسان الصَّحابة رضي الله عنهم عائشة ، وعليٍّ ، وطلحة ، والزبير ، والإشاعة بأنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه الأحقُّ بالخلافة ، وأنَّه الوصيُّ بعد رسول الله ﷺ ، وتنظيم فرقٍ في كلٍّ من البصرة ، والكوفة ، ومصر ؛ أربع فرق من كلِّ مصر ممَّا

---

(١) دراسات في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة ، ص(٤٠٠) .

(٢) التمهيد والبيان ، ص(٦٤) .

(٣) العواصم من القواصم ، ص(٦١ ـ ٦٣) .

(٤) مسلمٌ ، كتاب فضائل الصَّحابة (٤/ ١٨٦٧ ـ ١٨٦٩) .

(٥) ذو النُّورين عثمان بن عفَّان ، محمد مال الله ، ص(٦٣) .

يدلُّ على التَّدبير المسبق ، وأوهموا أهل المدينة : أنَّهم ما جاؤوا إلا بدعوة الصَّحابة ، وصعَّدوا الأحداث ، حتَّى وصل الأمر إلى القتل[١] .

وإلى جوار هذه الوسائل استخدموا مجموعة من الشِّعارات منها : التَّكبير ، ومنها : أنَّ جهادهم هذا ضدَّ المظالم ، ومنها : أنَّهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، ومنها : المطالبة باستبدال الولاة ، وعزلهم ، ثمَّ تطورت المطالبة إلى خلع عثمان ، إلى أن تمادوا في جرأتهم ، وطالبوا ، بل سارعوا إلى قتل الخليفة ، وخاصَّةً حينما وصلهم الخبر بأنَّ أهل الأمصار قادمون لنصرة الخليفة ، فزادهم حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة ، والتَّشوُّق إلى قتله بأيِّ وسيلةٍ[٢] .

الثاني عشر : أثر السَّبئية في أحداث الفتنة :

١ـ السَّبئيَّة حقيقةٌ ، أم خيال ؟ :

أجمع القدماء على وجوده بلا استثناء ـ عبد الله بن سبأ ـ ، وخالف في ذلك قلَّةٌ من المعاصرين أكثرهم من الشِّيعة ، وحجَّة من أنكره : أنَّه من إبداع مخيِّلة سيف بن عمر التَّميميِّ ، وذلك لانتقاد بعض علماء الرِّجال له في مجال رواية الحديث إلا أنَّ العلماء يعدونه حجَّةً في الأخبار ، علماً بأنَّه وردت رواياتٌ كثيرةٌ عند ابن عساكر تذكر عبد الله بن سبأ ، وليس (سيف بن عمر) من الرُّواة ، وقد حكم الشَّيخ الألباني على بعضها بأنَّها صحيحةٌ من حيث السَّند ، هذا غير الرِّوايات الكثيرة عن ابن سبأ في كتب الشِّيعة سواءٌ في كتب الفرق ، أو الرِّجال ، أو الحديث عندهم ، وليس فيها عمر هذا لا من قريبٍ ، ولا من بعيدٍ .

وقد شكَّك بعض الباحثين في عبد الله بن سبأ[٣] ، وقالوا بأنَّه شخصيَّةٌ وهميَّةٌ وأنكروا وجوده ، بدون حجَّةٍ ، أو برهان ، وأضاف الَّذين أنكروا شخصيَّة ابن سبأ ، وهم طائفة من المستشرقين ، وفئةٌ من الباحثين العرب ، وغالبية الشِّيعة المعاصرين : أنَّه شخصيَّةٌ وهميَّةٌ لم يكن لها وجود ، فأين بلغ هؤلاء من قلَّة الحياء ، والجهل ، وقد ملأت ترجمته كتب التَّاريخ ،

---

(١) دراسات في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة ، ص(٤٠١) . كتاب الإنقاذ من دعاوى الإنقاذ للتَّاريخ الإسلاميِّ ، رد على حسن بن فرحان المالكي ، للدُّكتور/ سليمان بن حمد العودة ، وقد ذكر في ردِّه الطرق الَّتي عرضت على الألباني ـ رحمه الله ـ وحكم عليها .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٠٢) .

(٣) عبد الله بن سبأ الملقب بابن السَّوداء ، يهوديٌّ من صنعاء ، أظهر إسلامه في زمن عثمان بن عفَّان ، ظهر له نشاط ملحوظٌ في الشَّام ، والعراق ، ومصر خاصَّةً ، يرسم خططاً ، ويدلي بآراء هدَّامة ، ليلفت المسلمين عن دينهم ،وطاعة خليفتهم ، ويوقع بينهم الفرقة ، والخلاف . تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٢٨٤) .

والفرق ، وتناقلت أفعاله الرُّواة ، وطبّقت أخباره الآفاق ، لقد اتَّفق المؤرخون ، والمحدِّثون ، وأصحاب كتب الفرق ، والملل والنِّحل ، والطَّبقات ، والأدب ، والأنساب الّذين تعرَّضوا للسَّبئيَّة على وجود شخصيَّة عبد الله بن سبأ ؛ الّذي ظهر في كتب أهل السُّنَّة ، كما ظهر في كتب الشِّيعة شخصيَّةً تاريخيَّةً حقيقيَّةً ، ولهذا فإنَّ أخبار الفتنة ، ودور ابن سبأ فيها لم تكن قصراً على تاريخ الإمام الطَّبريِّ ، واستناداً إلى روايات سيف بن عمر التَّميمي فيه ، وإنَّما هي أخبارٌ منتشرةٌ في روايات المتقدِّمين ، وفي ثنايا الكتب الّتي رصدت أحداث التَّاريخ الإسلاميِّ ، وآراء الفرق ، والنِّحل في تلك الفترة ، إلا أنَّ ميزة تاريخ الإمام الطَّبريِّ على غيره : أنَّه أغزرها مادَّةً ، وأكثرها تفصيلاً لا أكثر ، ولهذا فإنَّ التَّشكيك في هذه الأحداث بلا سندٍ ، وبلا دليلٍ إنَّما يعني الهدم لكلِّ تلك الأخبار ، والتَّسفيه بأولئك المخبرين ، والعلماء ، وتزييف الحقائق التَّاريخية ، فمتى كانت المنهجيَّة ضرباً من ضروب الاستنتاج العقليِّ المحض في مقابل النُّصوص ، والرِّوايات المتضافرة ؟ ! وهل تكون المنهجيَّة في الضَّرب صفحاً والإعراض عن المصادر الكثيرة المتقدِّمة ، والمتأخِّرة الّتي أثبتت لابن سبأ شخصيَّةً واقعيَّةً ؟ !(١) ، وقد جاء ذكر ابن سبأ في كتب أهل السُّنة كثيراً ، منها :

ـ جاء ذكر السَّبئيَّة على لسان أعشى همدان(٢) ، المتوفَّى عام ٨٣ هـ وقد هجا المختار بن أبي عبيد الثقفي وأنصاره من أهل الكوفة بعدما فرَّ مع أشراف قبائل الكوفة إلى البصرة بقوله :

شَهِدْتُ عَلَيْكُمْ أَنَّكُمْ سَبَئِيَّةٌ ... وَأَنِّي بِكُمْ يَا شُرْطَةَ الْكُفْرِ عَارِفُ(٣)

وهناك روايةٌ عن الشَّعبيِّ المتوفَّى عام ١٠٣ هـ (٧٢١م) تفيد : أنَّ أوَّل من كذب عبد الله بن سبأ(٤) . وتحدَّث ابن حبيبٍ(٥) المتوفى عام ٢٤٥ هـ (٨٦٠م) عن ابن سبأ حينما اعتبره أحد أبناء الحبشيَّات(٦) . كما روى أبوعاصم خُشيش بن أصرم المتوفَّىٰ سنة ٢٥٣ هـ خبر إحراق عليٍّ

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/ ٧٠) .

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهمدانيُّ : المعروف بأعشى همدان : شاعرٌ فارسيٌّ ، أحد الفقهاء القرَّاء ، لكنَّه قال الشِّعر ، وعرف به ، قال الذَّهبي : شاعر مفوَّه شهيرٌ ، كان متعبِّداً فاضلاً ، قتل عام ٨٣هـ .

(٣) ديوان أعشى همدان ، ص(١٤٨) .

(٤) تاريخ دمشق ، لابن عساكر (٩/ ٣٣١) .

(٥) محمد بن حبيب بن أميَّة الهاشمي عالمٌ بالأنساب ، والأخبار ، واللُّغة ، والشِّعر توفي عام ٢٤٥هـ ، تاريخ بغداد (٢/ ٢٧٧) .

(٦) المحبّر ، لابن حبيب ، ص(٣٠٨) ، عبد الله بن سبأ ، العودة ، ص(٥٣) .

رضي الله عنه لجماعةٍ من أصحاب ابن سبأ في كتابه الاستقامة[١] ، ويعتبر الجاحظ[٢] المتوفى سنة ٢٥٥ هـ من أوائل من أشار إلى عبد الله بن سبأ[٣] ، ولكن روايته ليست أقدم رواية عن ابن سبأ ، كما يرى الدُّكتور جواد علي[٤] .

وخبر إحراق عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه لطائفة من الزَّنادقة تكشف عنه الرِّوايات الصَّحيحة في كتب الصِّحاح ، والسُّنن ، والمسانيد[٥] ، ولفظ الزَّندقة ليس غريباً عن عبد الله بن سبأ ، وطائفته ، يقول ابن تيميَّة : إنَّ مبدأ الضلال إنَّما كان من الزِّنديق عبد الله بن سبأ[٦] .

ويقول الذَّهبي : عبد الله بن سبأ من غُلاة الزَّنادقة ، ضالٌّ مضلٌّ[٧] . ويقول ابن حجر : عبد الله بن سبأ من غُلاة الزَّنادقة . . . وله أتباعٌ يقال لهم : السَّبئيَّة معتقدون الإلهية في عليِّ بن أبي طالبٍ ، وقد أحرقهم عليٌّ بالنَّار في خلافته[٨] ، ويوجد لابن سبأ ذكرٌ في كتب الجرح والتعديل ، يقول ابن حبان المتوفى ٣٥٤ هـ. وكان الكلبيُّ ـ محمد بن السَّائب الإخباري ـ سبئيّاً ، من أصحاب عبد الله بن سبأ ، من أولئك الَّذين يقولون : إنَّ عليّاً لم يمت ، وإنَّه راجعٌ إلى الدُّنيا قبل قيام السَّاعة . . . وإن رأوا سحابةً ، قالوا : أمير المؤمنين فيها[٩] . . . ، كما أنَّ كتب الأنساب هي الأخرى تؤكِّد نسبة (السَّبئيَّة) إلى عبد الله بن سبأ ، ومنها على سبيل المثال كتاب (الأنساب للسَّمعانيِّ)[١٠] المتوفى عام ٥٦٢ هـ[١١] ، وعرَّف ابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ هـ ابن سبأ بقوله : عبد الله بن سبأ الَّذي تنسب إليه السَّبئيَّة ، وهم الغُلاة من الرَّافضة ، أصله من اليمن ، كان يهوديّاً ، وأظهر الإسلام[١٢] .

---

(١) هو خشيش بن أصرم بن الأسود النَّسائي ، ترجم له الذَّهبي ، تذكرة الحفَّاظ (٢/ ٥٥١) . وشذرات الذَّهب (٢/ ١٢٩) .

(٢) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، من أئمَّة الأدب ، والعلم توفي عام ٢٥٥هـ . وفيات الأعيان (٣/ ٤٧٠) .

(٣) البيان والتَّبيين (٣/ ٨١) .

(٤) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٢٩٠) . عبد الله بن سبأ ، للعودة ، ص(٥٣) .

(٥) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٢٩٠) .

(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٨٣) .

(٧) ميزان الاعتدال للذَّهبي (٢/ ٤٢٦) .

(٨) لسان الميزان (٣/ ٢٩٠ ـ ٣٨٩) .

(٩) المجروحين (٢/ ٢٥٣) .

(١٠) عبد الكريم بن محمد السَّمعاني ، توفي عام ٥٦٢هـ . وتذكرة الحفَّاظ (٤/ ١٣١٦) .

(١١) الأنساب (٧/ ٢٤) .

(١٢) تاريخ دمشق (٩/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩) .

ولم يكن سيف بن عمر هو المصدر الوحيد لأخبار عبد الله بن سبأ ؛ إذ أورد ابن عساكر في تاريخه رواياتٍ لم يكن سيف فيها ، وهي تثبت ابن سبأ ، وتؤكِّد أخباره[١] ، ويذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة المتوفى سنة ٧٢٨ هـ : أنَّ أصل الرَّفض من المنافقين الزَّنادقة ، فإنَّه ابتداعُ ابن سبأ الزِّنديق ، وقد أظهر الغلوَّ في عليٍّ ودعا لإمامته ، والنَّص عليها ، وادَّعى العصمة له[٢] .

ويشير الشَّاطبيُّ[٣] ، المتوفَّى عام ٧٩٠ هـ إلى أن بدعة السَّبئيَّة من البدع الاعتقاديَّة المتعلِّقة بوجود إله مع الله ـ تعالى الله ـ وهي بدعةٌ تختلف عن غيرها من المقالات[٤] .

وفي خطط المقريزي المتوفى عام ٨٤٥ هـ أنَّ عبد الله بن سبأ قام في زمن عليٍّ محدثاً القول بالوصيَّة ، والرَّجعة ، والتَّناسخ[٥] .

وأمَّا المصادر الشِّيعيَّة الَّتي ذكرت ابن سبأ : فقد روى الكشِّيُّ عن محمَّد بن قولوية ، قال : حدَّثني سعد بن عبد الله ، قال : حدَّثني يعقوب بن يزيد ، ومحمَّد بن عيمن ، عن عليِّ بن مهزيار ، عن فضالة بن أيوب الأزديِّ ، عن أبان بن عثمان ، قال : سمعت أبا عبد الله يقول : لعن الله عبد الله بن سبأ ، إنَّه ادَّعى الرُّبوبية في أمير المؤمنين ، وكان والله أميرُ المؤمنين عبداً طائعاً . الويل لمن كذب علينا ! وإنَّ قوماً يقولون فينا ما لا نقول في أنفسنا نبرأ إلى الله منهم[٦] والرِّواية من حيث السَّند صحيحةٌ[٧] .

وفي كتاب (الخصال) أورد القمِّي الخبر نفسه ، ولكن موصولاً بسندٍ آخر ، وأمَّا صاحب روضات الجنَّات ، فقد ذكر ابن سبأ عنده على لسان الصَّادق المصدوق الَّذي لعن ابن سبأ لاتِّهامه بالكذب ، والتَّزوير ، وإذاعة الأسرار ، والتأويل[٨] .

وقد ذكر الدُّكتور سليمان العودة في كتابه مجموعة من النُّصوص الَّتي تزخر بها كتب الشِّيعة ، ومرويَّاتهم عن عبد الله بن سبأ ، فهي أشبه ما تكون بوثائق مسجَّلة تدين من حاول إنكار

---

(١) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٢٩٨) .

(٢) مجموع فتاوى (٤/ ٤٣٥) .

(٣) إبراهيم بن موسى ، محمد الغرناطي ، توفي عام ٧٩٠هـ .

(٤) الاعتصام (٢/ ١٩٧) .

(٥) المواعظ والاعتبار (٢/ ٢٥٦ ـ ٣٥٧) .

(٦) رجال الكشي (١/ ٣٢٤) .

(٧) عبد الله بن سبأ الحقيقة المجهول ، لمحمد علي المعلِّم ، ص(٣٠) .

(٨) عبد الله بن سبأ ، العودة ، ص(٦٢) .

ابن سبأ ، أو التَّشكيك فيه من متأخِّري الشِّيعة بحجَّة قلَّة ، أو ضعف المصادر الَّتي حكت أخباره[١] .

إنَّ شخصية ابن سبأ حقيقةٌ تاريخيَّةٌ لا لبس فيها في المصادر السُّنيَّة ، والشِّيعيَّة المتقدِّمة ، والمتأخرة على السَّواء ، وهي كذلك أيضاً عند غالبية المستشرقين أمثال : يوليوس فلهاوزن[٢] ، وفان فولتن[٣] ، وليفي ديلافيدا[٤] ، وجولد تسهير[٥] ، ورينولد نكلسن[٦] ، ودوايت رونلدسن[٧] . . . على حين يبقى ابن سبأ محلَّ شكٍّ ، أو مجرَّد خرافةٍ عند فئة قليلةٍ من المستشرقين ؛ أمثال : كيتاني ، وبرنارد لويس[٨] ، وفريد لندر المتأرجح[٩] علماً بأنَّنا لا نعتدُّ بهم في أحداث تاريخنا .

ومن استقرأ المصادر ، سواءٌ القديمة ، والمتأخِّرة ، عند السُّنَّة ، والشِّيعة ، يتأكَّد له بأنَّ وجود ابن سبأ كان وجوداً حقيقيّاً ، تؤكِّده الرِّوايات التَّاريخيَّة ، وتفيض فيه كتب العقائد ، وذكرته كتب الحديث ، والرِّجال ، والأنساب ، والأدب ، واللُّغة ، وسار على هذا النَّهج كثيرٌ من المحقِّقين والباحثين المُحدَثين ، ويبدو : أنَّ أول من شكَّك في وجود ابن سبأ بعض المستشرقين ، ثمَّ دعَّم هذا الطرح الغالبية من الشِّيعة المحدثين ، بل وأنكر بعضهم وجوده البتَّة ، وبرز من الباحثين العرب المعاصرين مَنْ أُعجِب بآراء المستشرقين ، ومن تأثَّر بكتابات الشِّيعة المُحدثين ، ولكنَّ هؤلاء جميعاً ليس لهم ما يدعمون به شكَّهم ، وإنكارهم إلا الشَّكَّ ذاته ، والاستناد إلى مجرَّد الظُّنون ، والفرضيات[١٠] ، ومن أراد التوسُّع في معرفة المراجع والمصادر السُّنيَّة ، والاستشراقيَّة والشِّيعيَّة ، الَّتي ذكرت ابن سبأ ، فليراجع : تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة للدُّكتور محمد أمحزون ، وعبد الله بن سبأ ، وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام ، للدكتور سليمان بن حمد العودة .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .
(٢) الخوارج والشِّيعة ، يوليوس فلها وزن ، ص(١٧٠) .
(٣) السِّيادة العربيَّة ، والشِّيعة ، والإسرائيليات ، ص(٨٠) فان فولتن .
(٤) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣١٢) .
(٥) العقيدة ، والشَّريعة الإسلاميَّة ، جولد تسهير ، ص(٢٢٩) .
(٦) تاريخ العرب الأدبي في الجاهليَّة ، وصدر الإسلام ، ص(٢٣٥) .
(٧) عقيدة الشِّيعة ، ص(٥٨) .
(٨) أصول الإسماعيليَّة ، ص(٨٦) .
(٩) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣١٢) .
(١٠) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣١٢) .

٢ـ دور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة :

في السَّنوات الأخيرة من خلافة عثمان رضي الله عنه بدت في الأفق سمات الاضطراب في المجتمع الإسلاميِّ نتيجة عوامل التَّغيير الَّتي ذكرناها ، وأخذ بعض اليهود يتحيَّنون فرصة الظهور مستغلِّين عوامل الفتنة ، ومتظاهرين بالإسلام ، واستعمال التَّقيَّة ، ومن هؤلاء : عبد الله بن سبأ الملقَّب بابن السَّوداء ، وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التَّهويل من شأنه كما فعل بعض المغالين في تضخيم دوره في الفتنة[١] ، فإنَّه كذلك لا يجوز التَّشكيك فيه ، أو الاستهانة بالدَّور الَّذي لعبه في أحداث الفتنة ، كعاملٍ من عواملها ، على أنَّه أبرزها ، وأخطرها ؛ إذ إنَّ هناك أجواءً للفتنة مهَّدت له ، وعوامل أخرى ساعدته ، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراءٌ ، ومعتقداتٌ ادَّعاها ، واخترعها من قبل نفسه ، وافتعلها من يهوديَّته الحاقدة ، وجعل يروِّجها لغايةٍ ينشدها ، وغرضٍ يستهدفه ؛ وهو الدَّسُّ في المجتمع الإسلامي بغية النَّيل من وحدته ، وإذكاء نار الفتنة ، وغرس بذور الشِّقاق بين أفراده ، فكان ذلك من جملة العوامل الَّتي أدَّت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وتفرُّق الأمَّة شيعاً ، وأحزاباً[٢] ، وخلاصة ما جاء به أن أتى بمقدِّماتٍ صادقةٍ ، وبنى عليها مبادىء فاسدةً راجت لدى السُّذَّج ، والغلاة ، وأصحاب الأهواء من النَّاس ، وقد سلك في ذلك مسالك ملتويةً لبَّس فيها على مَنْ حوله ، حتَّى اجتمعوا عليه ، فطرق باب القرآن بتأوُّله على زعمه الفاسد ، حيث قال : لَعَجبٌ ممَّن يزعم أنَّ عيسى يرجع ، ويكذِّب بأن محمَّداً يرجع ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص : ٨٥] فمحمَّد أحقُّ بالرُّجوع من عيسى[٣] ، كما سلك طريق القياس الفاسد من ادِّعاء إثبات الوصيَّة لعليٍّ رضي الله عنه بقوله : إنَّه كان ألف نبيٍّ ، ولكلِّ نبيٍّ وصيٌّ ، وكان عليٌّ وصيَّ محمَّدٍ ، ثمَّ قال : محمَّد خاتم الأنبياء ، وعليٌّ خاتم الأوصياء[٤] .

وحينما استقرَّ الأمر في نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج النَّاس على الخليفة عثمان رضي الله عنه فصادف ذلك هوىً في نفوس بعض القوم ، حيث قال لهم: من أظلم ممَّن لم يُجِزْ وصيَّة رسول الله ﷺ ووثب على وصيِّ رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمَّة ! ثمَّ قال لهم بعد ذلك : إنَّ عثمان أخذها بغير حقٍّ ، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر ، فحرِّكوه ، وابدؤوا بالطَّعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن

---

(١) مثال سعيد الأفغاني في كتابه (عائشة والسِّياسة) .

(٢) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٢٧) .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٤٧) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

المنكر ؛ تستميلوا النَّاس ، وادعوهم إلى هذا الأمر[١] ، وبثَّ دعاته .

وكاتب من كان استفسد في الأمصار ، وكاتبوه ، ودعوا في السرِّ إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتبٍ يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كلِّ مصرٍ منهم إلى مصرٍ آخر بما يصنعون ، فيقرأه أولئك في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم حتَّى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعةً ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرُّون غير ما يبدون ، فيقول أهل مصر : إنَّا لفي عافية ممَّا ابتلي به هؤلاء ، إلا أهل المدينة فإنَّهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار ، فقالوا : إنَّا لفي عافية ممَّا فيه النَّاس[٢] .

ويظهر من هذا النَّصِّ الأسلوب الَّذي تبعه ابن سبأ ، فهو أراد أن يوقع في أعين النَّاس بين اثنين من الصَّحابة ، حيث جعل أحدهما مهضوم الحقِّ ، هوعليٌّ ، وجعل الثَّاني مغتصباً ، وهو عثمان ، ثمَّ حاول بعد ذلك أن يحرِّك النَّاس ـ خاصَّة في الكوفة ـ على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولاتهم ، علماً بأنَّه ركَّز في حملته هذه على الأعراب الَّذين وجد فيهم مادَّةً ملائمةً لتنفيذ خطَّته ، فالقرَّاء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وأصحاب المطامع منهم هيَّج أنفسهم بالإشاعات المغرضة المفتراة على عثمان ، مثل تحيُّزه لأقاربه ، وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم ، وأنَّه حمى الحمى لنفسه ، إلى غير ذلك من التُّهم ، والمطاعن الَّتي حرَّك بها نفوس الغوغاء ضدَّ عثمان رضي الله عنه ، ثمَّ إنَّه أخذ يحضُّ أتباعه على إرسال الكتب بأخبارٍ سيِّئةٍ مفجعةٍ عن مصرهم إلى بقيَّة الأمصار .

وهكذا يتخيَّل النَّاس في جميع الأمصار : أنَّ الحال بلغ من السُّوء ما لا مزيد عليه ، والمستفيد من هذه الحال هم السَّبئيَّة ؛ لأنَّ تصديق ذلك من النَّاس يفيدهم في إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلاميِّ[٣] ، هذا وقد شعر عثمان رضي الله عنه بأن شيئاً ما يحاك في الأمصار ، وأنَّ الأمَّة تمخض بشرٍّ ، فقال : والله إن رحى الفتنة لدائرةٌ ، فطوبى لعثمان إن مات ، ولم يحرِّكها[٤] !

على أنَّ المكان الَّذي رتع فيه ابن سبأ هو في مصر ، وهناك أخذ ينظِّم حملته ضدَّ عثمان

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٣٤٨) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) الدَّولة الأمويَّة ، يوسف العش ، ص(٦٨) . وتحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٣٠) .

(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٥٠) .

رضي الله عنه ، ويحثُّ النَّاس على التوجُّه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى : أنَّ عثمان أخذ الخلافة بغير حقٍّ ، ووثب على وصيِّ رسول الله ، يقصد عليًّا[١] ، وقد غشَّهم بكتبٍ ادَّعى أنَّها وردت من كبار الصَّحابة حتَّى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنوَّرة واجتمعوا بالصَّحابة لم يجدوا منهم تشجيعاً ، حيث تبرَّؤوا ممَّا نسب إليهم من رسائل تؤلِّب النَّاس على عثمان[٢] ، ووجدوا عثمان مقدِّراً للحقوق ، بل وناظرهم فيما نسبوا إليه ، وردَّ عليهم افتراءهم ، وفسَّر لهم صدق أعماله ، حتَّى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك الأشتر النَّخعي : لعلَّه مُكر به ، وبكم[٣] ، ويعتبر الذَّهبي : أنَّ عبد الله بن سبأ المهيِّج للفتنة بمصر ، وباذر بذور الشِّقاق والنِّقمة على الولاة ثمَّ على الإمام ـ عثمان ـ فيها[٤] ، ولم يكن ابن سبأ وحده ، وإنَّما كان عمله ضمن شبكة من المتآمرين ، وأخطبوطاً من أساليب الخداع ، والاحتيال ، والمكر ، وتجنيد الأعراب ، والقرَّاء ، وغيرهم ، ويروي ابن كثير : أنَّ من أسباب تألُّب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ ، وذهابه إلى مصر ، وإذاعته بين النَّاس كلاماً اخترعه من عند نفسه ، فافتتن به بشرٌ كثيرٌ من أهل مصر[٥] .

إنَّ المشاهير من المؤرِّخين والعلماء من سلف الأمَّة وخلفها يتَّفقون على أنَّ ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد ، وأفكارٍ ، وخططٍ سبئيَّةٍ ليلفت المسلمين عن دينهم ، وطاعة إمامهم ، ويوقع بينهم الفرقة ، والخلاف ، فاجتمع إليه من غوغاء النَّاس ما تكوَّنت به الطَّائفة السَّبئيَّة المعروفة الَّتي كانت عاملاً من عوامل الفتنة المنتهية بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان رضي الله عنه والَّذي يظهر من خطط السَّبئيَّة أنَّها كانت أكثر تنظيماً ؛ إذ كانت بارعةً في توجيه دعايتها ، ونشر أفكارها ؛ لامتلاكها ناصية الدِّعاية ، والتَّأثير بين الغوغاء والرُّعاع من النَّاس ، كما كانت نشيطةً في تكوين فروعٍ لها سواءٌ في البصرة ، أم الكوفة ، أم مصر ، مستغلَّةً العصبية القبليَّة ، ومتمكِّنةً من إثارة مكامن التَّذمُّر عند الأعراب ، والعبيد ، والموالي ، عارفةً بالمواضع الحسَّاسة في حياتهم ، وبما يريدون[٦] .

* * *

---

(١) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٣٠) . وتاريخ الطَّبري (٥/ ٣٤٨) .

(٢) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٣٠) . وتاريخ الطَّبري (٥/ ٣٦٥) .

(٣) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٣١) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٣٣٨) .

(٥) البداية والنهاية (٧/ ١٦٧ ، ١٦٨) .

(٦) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة ، ص(٣٣٩) .

الفصل السَّابع
مقتل عثمان بن عفَّان رضي الله عنه

المبحث الأوَّل
اشتعال الفتنة

نجح الموتورون الحاقدون الكاذبون في إزاحة الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة ، وعيَّن عثمان رضي الله عنه سعيد بن العاص والياً جديداً على الكوفة ، وعندما وصل سعِيد إلى ولايته صعد المنبر ، وبعدما حمد الله ، وأثنى عليه ، قال : والله لقد بعثت إليكم ، وإنِّي لكارهٌ ، ولكنِّي عندما أمرني عثمان ؛ لم أجد بدّاً من التَّنفيذ ، ألا وإنَّ الفتنة قد أطلعت رأسها فيكم ، ووالله لأضربنَّ وجهها ، حتَّى أقمعها ، أو تغلبني وإنِّي رائدٌ نفسي اليوم[١] .

واطَّلع سعيد على أحوال الكوفة ، وعرف توجُّهات النَّاس فيها ، وأدرك تعمُّق الفتن فيها ، وضُلوع مجموعةٍ من الخوارج ، والموتورين ، والحاقدين ، وأعداء الإسلام في التآمر والكيد ، والفتنة ، وسيطرة الرُّعاع ، والغوغاء ، والأعراب على الرَّأي فيها[٢] ، وكتب سعيد رسالةً إلى أمير المؤمنين عثمان يخبره فيها بالأوضاع المتردِّية في الكوفة ، وممَّا قال فيها : إنَّ أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وقد غلب فيها أهل الشَّرف ، والسَّابقة ، والمقدمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت ، وأعراب لَحَتْ ، حتى ما ينظر فيها إلى ذي شرفٍ ، وبلاء . . ! فردَّ عليه عثمان رضي الله عنه برسالةٍ ، طلب منه فيها إعادة ترتيب أوضاع أهلها ، وتصنيفهم على أساس السَّبق ، والجهاد ، وتقديم أهل العلم ، والصِّدق ، والجهاد على غيرهم ، وممَّا قال له فيها : فضِّل أهل السَّابقة والقِدْمة ، ممَّن فتح الله على أيديهم تلك البلاد ، واجعل الَّذين نزلوا البلاد بعد فتحها من الأعراب تبعاً لأولئك السَّابقين المجاهدين ، إلا أن يكون السَّابقون تثاقلوا عن الجهاد ، والحقِّ ، وتركوا القيام به ، وقام به مَنْ بعدهم ! واحفظ

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٨٠) .

(٢) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٢٢) .

لكلِّ إنسانٍ منهم منزلته ، وأعطهم جميعاً قِسْطَهم بالحقِّ ، فإنَّ المعرفة بالنَّاس يتحقَّق بها العدل بينهم[(١)] ، وقام سعيد بتنفيذ توجيهات عثمان رضي الله عنه ، وأخبر الخليفة بما فعل ، وجمع عثمان أهل الحلِّ والعقد في المدينة، وأبلغهم بأوضاع الكوفة، ورسوخ الفتنة فيها، وإجراءات سعيد بن العاص لمواجهتها ، فقالوا : أصبت بما فعلت ، ولا تسعف أهل الفتنة بشيءٍ ، ولا تقدِّمهم على النَّاس ، ولا تطمعهم فيما ليسوا له بأهلٍ ، فإنَّه إذا تولَّى الأمور من ليس أهلاً لها ؛ لم يقم بها، بل يفسدها . فقال عثمان لهم : يا أهل المدينة! إنَّ النَّاس قد تحرَّكوا للفتنة، فاستعدُّوا لمواجهتها، واستمسكوا بالحقِّ، وسوف أخبركم بأخبارها، وأنقلها لكم أوَّلاً بأوّلٍ[(٢)] .

أولاً : تأذّي أصحاب الأهواء من الإصلاح :

تأذَّى الرُّعاع ، وأجلاف الأعراب من تقديم أصحاب السَّابقة ، والجهاد ، والبلاء ، والعلم ، والتَّقوى في المجالس والرِّئاسة ، والاستشارة ، وصاروا يعيبون على الولاة تقديم هؤلاء عليهم ، واستشارتهم دونهم ، ويعتبرونه تمييزاً ، وجفوةً ، وإقصاءً لهم ، واستغلَّ الحاقدون الموتورون هذا الأمر في نفوسهم ، وغرسوا فيهم كُره الخليفة ، والدَّولة ، ورفض أعمال الوالي سعيد بن العاص ، ونشر الإشاعات ضدَّه بين النَّاس .

ورفض عامَّةُ النَّاس في الكوفة كلام الموتورين الخارجين ، فسكت هؤلاء الحاقدون ، وصاروا يُخفون شبهاتهم ، ولا يظهرونها ؛ لرفض معظم المسلمين لها ، ولكنَّهم كانوا يُسِرُّون بها إلى من يؤيِّدهم من الأعراب ، أو الغوغاء ، أو المعاقبين المغرَّرين[(٣)] ، وكان أعداء الإسلام الموتورون على تعدُّد اتجاهاتهم ونزغاتهم يتآمرون على الإسلام ، والمسلمين ، وينشرون الإشاعات الكاذبة ضدَّ الخليفة ، والولاة ، ويستثمرون الأخطاء الَّتي تصدر عن بعضهم في تهييج العامَّة ضدهم ، ويزيدون عليها الكثير من الافتراءات والتَّزويرات ، وهم يهدفون من ذلك إلى نشر الفوضى ، وتعميق الفرقة بين المسلمين ، وذلك لتغذية غيظهم ، وحقدهم على الإسلام الَّذي قضى على أديانهم الباطلة ، وهدم نظام الحكم الإسلاميِّ ، الَّذي حطَّم دولهم ، وقضى على جيوشهم . وجنَّد هؤلاء الأعداء لتحقيق أهدافهم الموتورين من الرُّعاع ، والسُّذَّج ، والبُلهاء ، والتفَّ حولهم الحاقدون ممَّن أدَّبهم ، أو حدَّهم ، أو عزَّرهم الخليفة ، أو أحد ولاته ، ونظَّم هؤلاء الأعداء (جمعيَّة سرِّيَّة) خبيثةً ، جعلوا أعضاءها هؤلاء الَّذي استجابوا لهم ، وجعلوا لهم أتباعاً في المدن الكبيرة ؟ والأقاليم العديدة ، وكوَّنوا شبكة اتِّصالات سرِّيَّة

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٢٨٠) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٢٨١) .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٢٤) .

بينهم[١]، وكانت أهم فروع جمعيتهم الخبيثة في: الكوفة، والبصرة، ومصر، ولهم بعض العناصر في المدينة المنوَّرة، والشَّام[٢].

ثانياً: عبد الله بن سبأ اليهودي على رأس العصابة:

أوصى ابن سبأ أتباعه المجرمين في جمعيَّته السِّريَّة الخبيثة المنتشرين في بلاد المسلمين، فقال لهم: انهضوا في هذا الأمر، فحرِّكوه، وابدؤوا بالطَّعن على أمرائكم، وولاتكم الّذين يعيِّنهم الخليفة، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، لتستميلوا النَّاس إليكم، وادعوهم إلى هذا الأمر[٣]، وبثَّ عبد الله بن سبأ دعاته في الأمصار، وكاتب أتباعه الّذين أفسدهم في الأمصار، وضمَّهم إليه، وكاتبوه، وتحرَّك أتباعه في البلدان بدعوتهم، ودعوا مؤيِّديهم في السِّرِّ إلى ما هم عليه من الخروج على الولاة، والخليفة، والعمل على عزل عثمان عن الخلافة، وكانوا في الظاهر يُظهرون الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، ليؤثِّروا في النَّاس، ويستميلوهم، ويخدعوهم، وصار أتباع ابن سبأ يؤلِّفون الأكاذيب، والافتراءات عن عيوب أمرائهم، وولاتهم، وينشرونها في كتبٍ يرسلها بعضهم إلى بعض في الأمصار، وصار أهل كلِّ مصر منهم يكتبون كتباً بهذه الأكاذيب إلى أهل مصر آخرين، فيقرأ أهل كلِّ مصر تلك الكتب المزوَّرة على النَّاس عندهم، فيسمع النَّاس عندهم عن عيوب، وأخطاء الوالي في ذلك البلد، فيقولون: إنَّا لفي عافيةٍ، مما ابتُلي به المسلمون في ذلك البلد، ويصدِّقون ما يسمعون! وبذلك أفسد السَّبئيُّون في الأرض، وأفسدوا المسلمين، ومزَّقوا كلمتهم، وزعزعوا أخوَّتهم، ووحدتهم، وهيَّجوا النَّاس على الولاة، والأمراء، ونشروا الافتراءات ضدَّ الخليفة عثمان نفسه، وكانوا بهذه الجرائم المنظَّمة، والمدروسة بمهارةٍ يريدون غير ما يظهرون، ويُسرُّون غير ما يعلنون، ويهدفون إلى عزل عثمان، والقضاء على دولة الإسلام[٤].

توجَّه ابن سبأ إلى الشَّام ليفسد بعض أهلها، ويؤثِّر فيهم، ولكنَّه لم ينجح في هدفه الشَّيطانيِّ، فقد كان له معاوية رضي الله عنه بالمرصاد[٥]، ودخل البصرة؛ ليجنِّد الأتباع له من المارقين، أو الحاقدين، أو الرُّعاع البُلَهاء، وكان والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز،

---

(١) الخلفاء الرَّاشدون، للخالدي، ص(١٢٤).
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) تاريخ الطَّبري (٥/٣٤٨).
(٤) الخلفاء الرَّاشدون، للخالدي، ص(١٢٦).
(٥) المصدر السَّابق نفسه.

وكان حازماً عادلاً صالحاً ، ولمَّا وصل ابن سبأ البصرة ، نزل عند رجل خبيثٍ من أهلها كان لصّاً فاتكاً ، هو حكيم بن جبلة[١] .

وبلغ عبد الله بن عامر : أنَّ رجلاً غريباً نازلٌ على حكيم بن جبلة ، وكان حكيم بن جبلة رجلاً لصّاً ، وعندما كانت تعود جيوش الجهاد إلى البصرة ، كان حكيم يتخلَّف عنها ، ليسعى في أرض فارس فساداً ، ويُغِيرُ على أرض أهل الذمَّة ، ويعتدي على أرض المسلمين ، ويأخذ منها ما يشاء ، فشكاه أهل الذِّمَّة ، والمسلمون إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر ، وقال له : احبس حكيم بن جبلة في البصرة ، ولا تتركه يخرج منها حتَّى تأنس منه رُشداً ، فحبسه ابن عامر في بيته ، وكان لا يستطيع أن يخرج من البصرة ، وبينما كان اللِّصُّ ابن جبلة تحت الإقامة الجبريَّة في بيته ؛ نزل عليه اليهوديُّ عبد الله بن سبأ ، واستغلَّ ابن سبأ زعارة[٢] ابن جبلة ، وانحرافه ، وحقده ، ولؤمه ، فجنَّده لصالحه ، وصار ابن جبلة هو رجلُ ابن سبأ في البصرة ، وصار ابن جبلة يقدِّم لابن سبأ أمثاله من المنحرفين ، والموتورين ، فيغرس ابن سبأ في نفوسهم أفكاره ، ويجنِّدهم بجمعيته السِّريَّة . ولمَّا علم ابن عامر بابن سبأ ؛ استدعاه ، وقال له : ما أنت ؟ قال ابن سبأ : أنا رجل من أهل الكتاب ، رغب في الإسلام ، فأسلم ، ورغب في جوارك ، فأقام عندك .

قال ابن عامر : ما هذا الكلام الَّذي يبلغني عنك ؟ ! اخرج عنِّي ، أخرجه ابن عامر من البصرة ، فغادرها ابن سبأ ، بعد أن ترك فيها رجالاً ، وأتباعاً له ، وجعل فيها فرعاً لحزبه السَّبئيِّ اليهوديِّ ، ذهب ابن سبأ إلى الكوفة ، فوجد فيها رجالاً من المنحرفين ، جاهزين لاستقباله ، فجنَّدهم لجماعته وحزبه ، ولمَّا علم به سعيد بن العاص أخرجه من الكوفة ، فتوجَّه إلى مصر ، فأقام فيها ، وعشَّشَ فيها ، وباض ، وفرَّخ فيها ، وأفسد ، واستمال أناساً هناك من الرُّعاع والبلهاء ، ومن الحاقدين ، والموتورين ، ومن العصاة ، والمذنبين ، وكان ابن سبأ يرتِّب الاتصالات السِّرِّيَّة بين مقرِّه في مصر ، وبين أتباعه في المدينة ، والبصرة ، والكوفة ، ويتحرَّك رجاله بين هذه البلدان[٣] ، واستمرَّت جهود ابن سبأ وأعوانه حوالي ستِّ سنواتٍ ، حيث بدؤوا أعمالهم الشَّيطانيَّة سنة ثلاثين ، ونجحوا في آخر سنة خمس وثلاثين في قتل الخليفة عثمان ، واستمرَّ إفسادهم طيلة خلافة عليٍّ رضي الله عنه ، وقرَّرَ (السَّبئيُّون) أن تكون بداية الفتنة في الكوفة[٤] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٢٨) .

(٢) الأزعر : سيِّئ الخُلق .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٢٩) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٣٠) .

ثالثاً : أهل الفتنة يفسدون في مجلس سعيد بن العاص :

في يوم من أيام سنة ثلاث وثلاثين جلس سعيد بن العاص في مجلسه العام ، وحوله عامَّة النَّاس ، وكانوا يتحدَّثون ، ويتناقشون فيما بينهم ، فتسلَّلَ هؤلاء الخوارج من السَّبئيِّين إلى المجلس ، وعملوا على إفساده ، وعلى إشعال نار الفتنة .

جرى كلامٌ وحوار في المجلس بين سعيد بن العاص ، وبين أحد الحضور ، وهو (خُنيس بن حُبيش الأسديُّ) ، واختلفا على أمر ، وكان سبعةٌ من الخوارج ، أصحاب الفتنة جالسين ؛ منهم : جندب الأزديُّ ، الّذي قتل ابنه السَّارق بسبب تورطه في قضية قتلٍ ، ومنهم : الأشتر النَّخعيُّ ، وابن الكوَّاء ، وصعصعة بن صوحان ، فاستغلَّ أصحاب الفتنة المناسبة ، وقاموا بضرب خُنَيس الأسديِّ في المجلس ، ولمَّا قام أبوه يساعده ، وينقذه ، ضربوه ، وحاول سعيد منعهم من الضَّرب ، فلم يمتنعوا ، وأُغمي على الرَّجل وابنه من شدَّة الضَّرب ، وجاء بنو أسد للأخذ بثأر أبنائهم ، وكادت الحرب تقع بين الفريقين ، ولكنَّ سعيداً تمكَّن من إصلاح الأمر[(١)] ، ولمَّا علم عثمان بالحادثة ؛ طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمةٍ ، وأن يضيِّق على الفتنة ما استطاع .

ذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم ، وصاروا ينشرون الإشاعات ، ويُذيعون الافتراءات والأكاذيب ضدَّ سعيدٍ ، وضدَّ عثمان ، وضدَّ أهل الكوفة ، ووجوهها ، فاستاء أهل الكوفة منهم ، وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم ، فقال لهم سعيد : إنَّ عثمان قد نهاني عن ذلك ، فإذا أردتم ذلك ؛ فأخبروه ، وكتب أشراف أهل الكوفة ، وصلحاؤهم إلى عثمان بشأن هؤلاء النَّفر ، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة ، ونفيهم عنها ، فهم مفسدون مخرِّبون فيها ، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة ، وكانوا بضعة عشر رجلاً ، وأرسلهم سعيد إلى معاوية في الشَّام بأمر عثمان ، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء ، فقال له : إنَّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة ، فَرُعْهُم ، وأَخِفْهم ، وأدِّبهم ، وأقم عليهم ، فإن آنست منهم رشداً ، فاقبل منهم[(٢)] . ومن الّذين تمَّ نفيهم إلى الشام ، الأشتر النَّخعيُّ ، وجندب الأزديُّ ، وصعصعة بن صوحان ، وكميل بن زياد ، وعمير بن ضابئ ، وابن الكوَّاء[(٣)] .

رابعاً : أهل الفتنة منفيُّون عند معاوية :

لمَّا قدموا على معاوية رحَّب بهم، وأنزلهم كنيسةً تسمَّى مريـم، وأجرى عليهم بأمر عثمان

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٢٣) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٣٢٤) .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون ، ص(١٣١) .

ما كان يُجرى عليهم بالعراق ، وجعل لا يزال يتغدَّى ، ويتعشَّى معهم . فقال لهم يوماً : إنَّكم قوم من العرب لكم أسنان، وألسنةٌ، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً، وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم، ومواريثهم، وقد بلغني أنَّكم نقمتم قريشاً، وإنَّ قريشاً لو لم تكن؛ لعدتم أذلةً كما كنتم[(١)] .

كان عثمان رضي الله عنه يدرك : أنَّ معاوية للمعضلة ، فله من فصاحته ، وبلاغته ، وله من حلمه ، وصبره ، وله من ذكائه ، ودهائه ما يواجه به الفتن ، ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتَّى يرسلها لابن أبي سفيان كي يحلَّها ، وفعلاً بذل معاوية رضي الله عنه ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء النَّفر : أكرمهم أوَّلاً ، وخالطهم ، وجالسهم ، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما نُقِلَ عنهم ، وبعد أن أزال الوحشة عنهم ، وأزال الكلفة بينه وبينهم ، لاحظ أنَّ النَّعرة القبليَّة هي الَّتي تحرِّكهم ، وأنَّ شهوة الحكم والسُّلطة هي الَّتي تثيرهم ، فكان لا بدَّ أن يلج عليهم من زاويتين اثنتين :

الأولى : أثر الإسلام في عزَّة العرب .

الثانية : دور قريش في نشر الإسلام ، وتحمُّل أعبائه .

فإن كان للإسلام أثرٌ في تكوينهم ، فلا بدَّ أن يرعَوُوا لهذا الحديث ، بعد هذا وضع أمامهم صورةً لوضع العرب ، وقد انقلبوا بالإسلام أمَّةً واحدةً تخضع لإمامٍ واحدٍ ، وودعوا حياة الفوضى ، وسفك الدِّماء ، والقبليَّة المنتنة[(٢)] .

ويتابع معاوية حديثه معهم ، فيقول : إنَّ أئمَّتكم لكم إلى اليوم جُنَّة[(٣)] فلا تشذوا عن جنَّتكم ، وإن أئمَّتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ، ويحتملون منكم المؤونة ، والله لتنتهنَّ أو ليبتلينَّكم الله بمن يسومكم ، ثمَّ لا يحمدكم على الصَّبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرَّعيَّة في حياتكم ، وبعد موتكم ، فقال رجل من القوم : أمَّا ما ذكرت من قريش ، فإنها لم تكن أكثر العرب ، ولا أمنعها في الجاهلية ، فتخوفنا ، وأما ما ذكرت من الجُنَّة ، فإن الجُنَّة إذا اخترقت خلص إلينا . فقال معاوية : عرفتكم الآن ، علمت : أنَّ الَّذي أغراكم على هذا قلَّة العقول ، وأنت خطيب القوم ، ولا أرى لك عقلاً . أُعْظِم عليك أمر الإسلام ، وأذكِّرك به ، وتذكِّرني الجاهليَّة ؟ وقد وعظتك وتزعم لما يُجنُّك : أنَّه يخترق ، ولا ينسب ما يخترق إلى الجُنَّة ، أخزى الله أقواماً أعظموا أمركم ، ورفعوا إلى خليفتكم[(٤)] .

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٢٤) .

(٢) معاوية بن أبي سفيان ، لمنير الغضبان ، ص(١٠١) .

(٣) جُنّة : وقاية .

(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٢٤) .

وعرف معاوية أنَّ الإشارة العابرة لن تقنعهم ، لا بدَّ من شرحٍ مسهبٍ لواقع قريش أوَّلاً ، فقال : افقهوا ـ ولا أظنكم تفقهون ـ أنَّ قريشاً لم تعزَّ في جاهليةٍ ولا في إسلام إلا بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ؛ لم تكن أكثر العرب ، ولا أشدَّهم ، ولكنَّهم كانوا أكرمهم أحساباً ، وأمحضهم أنساباً ، وأعظمهم أخطاراً ، وأكملهم مروءةً ، ولم يمتنعوا في الجاهليَّة والناس يأكل بعضهم بعضاً ، إلا بالله الَّذي لا يُستَذَل مَنْ أعزَّ ، ولا يوضع مَنْ رفع ، هل تعرفون عرباً ، أو عجماً ، أو سوداً ، أو حمراً إلا قد أصابه الدَّهر في بلده ، وحرمته بدولةٍ ، إلا ما كان من قريشٍ ، فإنَّه لم يردهم أحد بكيدٍ إلا جعل الله خدَّه الأسفل ، حتَّى أراد الله أن ينقذ من أكرم ، واتَّبع دينه من هوان الدُّنيا ، وسوء مردِّ الآخرة ، فارتضى لذلك خير خلقه ، ثمَّ ارتضى له أصحاباً ، فكان خيارهم قريشاً ، ثمَّ بنى هذا الملك عليهم ، وجعل هذه الخلافة فيهم ، ولا يصلح ذلك إلا عليهم ، فكان الله يحوطهم وهم على دينه ، وقد حاطهم الله في الجاهليَّة من الملوك الَّذين كانوا يدينونكم . أفٍّ لك ، ولأصحابك ! ولو أن متكلِّماً غيرك تكلَّم ، ولكنَّك ابتدأت ، فأمَّا أنت يا صعصعةُ فإنَّ قريتك شرُّ قرىً عربيةٍ ، أنتنها نبتاً ، وأعمقها وادياً ، وأعرفها بالشَّرِّ ، وألأمها جيراناً ، لم يسكنها شريفٌ قطُّ ، ولا وضيعٌ إلا سُبَّ بها ، وكانت عليه هُجنةً ، ثمَّ كانوا أقبح العرب ألقاباً ، وألأمه أصهاراً نزَّاع[١] الأمم ، وأنتم جيران الخطِّ ، وفعلة فارس ، حتَّى أصابتكم دعوة النَّبيِّ ﷺ ، ونكبتك دعوته ، وأنت نزيع شَطير[٢] في عمان ، لم تسكن البحرين ، فتشركهم في دعوة النَّبيِّ ﷺ ، فأنت شرُّ قومك ، حتَّى إذا أبرزك الإسلام ، وخلطك بالنَّاس ، وحملك على الأمم الَّتي كانت عليك ؛ أقبلت تبغي دين الله عوجاً ، وتنزع إلى اللآمة والذِّلَّة ، ولا يضع ذلك قريشاً ، ولن يضرَّهم ، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم ، إنَّ الشَّيطان عنكم غير غافلٍ ، قد عرفكم بالشَّرِّ من بين أمَّتكم ، فأغرى بكم النَّاس ، وهو صارعكم ، لقد علم : أنَّه لا يستطيع أن يردَّ بكم قضاء الله ، ولا أمراً أراده الله ، ولا تدركون بالشَّرِّ أمراً إلا فتح الله عليكم شرّاً منه ، وأخزى ، ثمَّ قام وتركهم ، فتذامروا ، فتقاصرت إليهم أنفسهم[٣] .

وبذلك بذل معاوية كلَّ طاقاته الفكريَّة ، والثَّقافيَّة والسِّياسيَّة لإقناعهم :

ـ عرض لهم أولاً أمر قريش في الجاهليَّة ، والإسلام .

ـ تناول قبائل هؤلاء النَّفر ، ووضعها في الجاهليَّة ، حيث كانت تعاني سوء المناخ ، ونتن المنبت من الناحية الطَّبيعيَّة ، ثمَّ الذلَّة ، والتبعيَّة لفارس من النَّاحية السِّياسيَّة ، إلى أن أكرمها الله بالإسلام ، فعزَّت بعد ذلٍّ ، وارتقت بعد هوانٍ .

---

(١) النزاع : جمع نزيع وهو الغريب .
(٢) الشَّطير : الغريب .
(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٢٦) .

ـ تناول معاوية رضي الله عنه صعصعة بن صوحان خطيب القوم ، وكيف تلكَّأ عن تلبية نداء الرِّسالة ، وقد دخل قومه بها ، ثمَّ عاد وانضمَّ إلى الإسلام ، ورفعه الإسلام ثانيةً بعد انحدارٍ .

ـ كشف معاوية رضي الله عنه مخطَّطات صعصعة ، وأصحابه ، وكيف يبغون الفتنة ، ويبغون دين الله عوجاً .

وإنَّ الشَّيطان هو وكر هذه الفتنة ، ومحرِّك هذا الشَّرِّ ، وبذلك ربط تاريخ الأمَّة بالله ، ثمَّ بالإسلام ، والعقيدة ، ثمَّ كشف عن زيف هؤلاء النَّفر ، وفضحهم عن آخرهم ، وأبان عن مخطَّطاتهم ، وصلتها بدعوى الجاهليَّة(١) .

ـ جلسة أخرى :

ثمَّ أتاهم القابلة فتحدَّث عندهم طويلاً ، ثم قال : أيُّها القوم ! ردُّوا عليَّ خيراً ، أو اسكتوا ، وتفكَّروا ، وانظروا فيما ينفعكم ، وينفع أهليكم ، وينفع عشائركم ، وينفع جماعة المسلمين ، فاطلبوه ؛ تعيشوا ، ونعش بكم .

قال صعصعة : لستَ بأهلٍ لذلك ، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله . فقال معاوية : أوليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله ، وطاعته ، وطاعة نبيه ﷺ ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ، ولا تفرقوا ؟ ! قالوا : بل أمرت بالفرقة ، وخلاف ما جاء به النَّبيّ ﷺ ! قال : إنِّي آمركم الآن ، إن كنت فعلت فأتوب إلى الله ، وآمركم بتقواه ، وطاعته ، وطاعة نبيِّه ﷺ ، ولزوم الجماعة ، وكراهة الفرقة ، وأن توقِّروا أئمتكم ، وتدلُّوهم على كلِّ حسنٍ ما قدرتم ، وتعظوهم في لينٍ ، ولطفٍ في شيءٍ إن كان منهم . قال صعصعة : فإنا نأمركَ أن تعتزل عملك فإنَّ من المسلمين من هو أحقُّ به منك . قال معاوية : من هو ؟ قالوا : من كان أبوه أحسن قِدْماً من أبيك ، وهو بنفسه أحسن قِدْماً منك في الإسلام . قال معاوية : والله إن لي في الإسلام قِدْماً ، ولغيري كان أحسن قِدْماً منِّي ، ولكنَّه ليس في زماني أحدٌ أقوى على ما أنا فيه منِّي ، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطَّاب ، فلو كان غيري أقوى منِّي ؛ لم يكن لي عند عمر هوادةٌ ، ولا لغيري ، ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي ، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين ؛ لكتب بخطِّ يده ، فاعتزلت عمله ، ولو قضى الله أن يفعل ذلك ؛ لرجوت أن لا يعزم له على ذلك إلا هو خير . فمهلاً فإنَّ في ذلك وأشباهه ما يتمنَّى الشيطان ، ويأمر ، ولعمري لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم ، وأمانيِّكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلةً ، ولكنَّ الله يقضيها ، ويدبِّرها وهو بالغ أمره ، فعاودِوا الخير ، وقولوه . قالوا : لست

---

(١) معاوية بن أبي سفيان ، للغضبان ، ص(١١١) .

لذلك أهلاً . قال معاوية : أما والله إنَّ لله سطواتٍ ، ونقماتٍ ، وإنِّي لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشَّيطان حتَّى تُحلَّكم مطاوعة الشَّيطان ، ومعصية الرَّحمن دار الهوان من نقم الله في عاجل الأمر ، والخزي الدَّائم في الآجل ، فوثبوا عليه ، فأخذوا بلحيته ، ورأسه ، فقال : مه ! إن هذه ليست بأرض الكوفة ، والله لو رأى أهل الشَّام ما صنعتم بي وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتَّى يقتلوكم ؛ فلعمري إنَّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً ! ثم قام من عندهم ، فقال : والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت(١) .

هذه المحاولة الأخيرة الّتي بذل فيها معاوية أمير الشَّام كلَّ جهده ، واستعمل حلمه ، وثقافته ، وأعصابه كي يثنيهم عن الفتنة ، إنَّه يدعوهم إلى تقوى الله ، وطاعته ، والاستمساك بالجماعة ، والابتعاد عن الفرقة ، وإذ بهم يرفعون عقيرتهم قائلين : ليس لك أن تطاع في معصية الله(٢) . وبحلمه الكبير ، وصدره الواسع عاد ، فذكَّرهم بأنَّه لا يأمرهم إلا بطاعة الله ، وعلى حدِّ زعمهم ، فهو يتوب من المعصية ؛ إن وقعت ، ثمَّ يعود لدعوتهم إلى الطَّاعة ، والجماعة ، والابتعاد عن تفريق كلمة الأمَّة ، ولو كان الوعظ يجدي معهم ؛ لأمكن أن تتأثَّر قلوبهم لهذه المعاملة ، وهذا اللُّطف ، وهذا الحلم ، لكنَّهم اعتبروا ذلك ضعفاً ، وتهاوناً منه ، خاصَّة وهو يوجِّههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادئ في العظة ، واللِّين في النُّصح ، فوجدوا المجال رحباً أن يكشفوا عن مكنون قلوبهم . فقالوا : فإنَّا نأمرك أن تعتزل عملك ، فإنَّ في المسلمين من هو أحقُّ به منك ، وانتبه معاوية انتباهاً مفاجئاً إلى ما يكنُّون ، فأحبَّ أن يتعرف جانباً غامضاً عليه ، لعلَّ في هذا التعرُّف ما يوصله إلى من يحرِّكهم ، ويبثُّ في ذهنهم الأراجيف المغرضة ، ولكنَّهم أخفوا ما يكنُّون ، واكتفوا بالإشارة إلى أنَّهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه ، ولمن أبوه أفضل من أبيه ، ثمَّ تحلَّم عليهم أكثر فأكثر ، رغم الأسلوب الفجِّ الّذي سلكوه معه ، وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل . وهنا نجد لمعاوية جواباً مستفيضاً عن وجهة نظره في الحكم ، والإمارة ، والقيادة ، وقد لخَّص معاوية إجابته في ستِّ نقاطٍ أساسيَّة ومهمَّةٍ :

١ ـ هي أنَّ له قِدْماً ، وسابقة في الإسلام ، فهو حامي ثغر الشَّام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما .

٢ ـ أنَّ هناك في المسلمين من هو أفضل منه ، وأكرم ، وأحسن سابقةً ، وأكثر بلاءً ، وهو يرى أنَّه أقوى من يحمي هذا الثَّغر الإسلاميَّ العظيم ـ الشَّام ـ فمنذ أن تولاه تمكن مِنْ ضبطه ، وسياسته ، وفهم نفسيَّات أهله حتَّى أحبُّوه .

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٣٠ ، ٣٣١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٣٣٠) .

٣ ـ إنَّ الميزان الحساس، والمعيار الدَّقيق الّذي يقيِّم الولاة هو عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، الّذي لا تأخذه في الله لومة لائم، فلو وجد من معاوية شططاً، أو انحرافاً، أو ضعفاً؛ لعزله، ولما أبقى عليه يوماً واحداً، فقد عمل له طيلة خلافته، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله، واستخدمه كاتباً بين يديه، وولاه أبو بكرٍ الصِّدِّيق من بعده، ولم يطعن في كفاءته أحدٌ.

٤ ـ إنَّ اعتزال العمل يجب أن يستند لأسبابٍ موجبةٍ للاعتزال، فما هي الحجَّة الّتي يقدِّمها دعاة الفتنة؛ ليتمَّ الاعتزال على أساسها؟

٥ ـ إنَّ الّذي يقرِّر العزل عن العمل، أو البقاء في الإمارة ليس هؤلاء الأدعياء، إنَّ ذلك من حقِّ أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وهو الّذي له الحقُّ في تعيين الولاة، وعزلهم.

٦ ـ إنَّ أمير المؤمنين عثمان يوم يقرِّر عزل معاوية، فهو واثقٌ، أنَّ أمره خيرٌ كلُّه، ولا غضاضة في ذلك، فهو أميرٌ مأمورٌ، وهو أمر خليفة المسلمين[١].

كان ختام الجلسة مؤسفاً أشدَّ الأسف، مؤلماً أشدَّ الألم، لقد حذَّرهم نقمة الله، وغضبه، وحذَّرهم مهاوي الشَّيطان، ومنزلقاته، وحذَّرهم فرقة الكلمة، ومعصية الإمام وحذَّرهم الانقياد إلى أهوائهم، وغرورهم، فماذا كان منهم مقابل ذلك؟ وثبوا عليه، وأخذوا برأسه ولحيته، وعندئذٍ زجرهم، وقمعهم، ووجَّه لهم كلاماً قاسياً مبطَّناً بالتَّهديد، وعرف: أنَّ هؤلاء يستحيل أن ينصاعوا للحقِّ، فلا بدَّ من إبلاغ أمرهم لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وكشف هويَّاتهم، وخطرهم، ليرى فيهم أمير المؤمنين رأياً آخر[٢].

كتاب معاوية إلى عثمان رضي الله عنهما بشأن أهل الفتنة من الكوفة:

كتب معاوية إلى عثمان رضي الله عنهما قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إليَّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يُملون عليهم، ويأتون النَّاس ـ زعموا ـ من قِبَل القرآن فيشبهون على الناس، وليس كل النَّاس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة، ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكنت رُقَى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيراً من النَّاس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الّذي نجم فيه نفاقهم[٣].

---

(١) معاوية بن أبي سفيان، صحابيٌّ كبيرٌ، وملكٌ مجاهدٌ، ص(١١٤ إلى ١١٧).

(٢) معاوية بن أبي سفيان، للغضبان، ص(١١٧، ١١٨).

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٣١).

خامساً : رجوع أهل الفتنة إلى الكوفة ثم نفيهم إلى الجزيرة :

كتب عثمان إلى سعيد بن العاص بالكوفة ، فردَّهم إليه ، فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا ، وكتب سعيد إلى عثمان يضجُّ منهم ، فكتب عثمان إلى سعيدٍ أن سيِّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان أميراً على حمص[١] ، فلمَّا وصلوا إلى عبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد ، استدعاهم ، وكلَّمهم كلاماً شديداً ، وكان ممَّا قاله لهم : يا آلة الشيطان ! لا مرحباً بكم ، ولا أهلاً ! لقد رجع الشَّيطان محسوراً خائباً ، وأنتم ما زلتم نشيطين في الباطل ! خَسَّرَ الله عبد الرحمن إن لم يؤدِّبكم ، ويُخزِكم ! يا معشر من لا أدري من أنتم ! أعربٌ ، أم عجمٌ ؟ لن تقولوا لي كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية ، أنا ابن خالد بن الوليد ، أنا ابن من قد عجَمْته العاجمات ، أنا ابنُ فاقئ الرِّدَّة ، والله لأذلَّنكم ! وأقامهم عبد الرحمن بن خالد عنده شهراً كاملاً ، وعاملهم بمنتهى الحزم ، والشِّدَّة ، ولم يَلِن معهم كما لان سعيدٌ ، ومعاوية ، وكان إذا مشى مشوا معه ، وإذا ركب ركبوا معه ، وإذا غزا غزوا معه ، وكان لا يدع مناسبةً إلا ويذلُّهم فيها ، وكان إذا قابل زعيمهم (صعصعة بن صوحان) يقول له : يا بن الخطيئة ! هل تعلم أنَّ من لم يصلحه الخير أصلحه الشَّرُّ ، وأن من لم يصلحه اللِّين أصلحته الشدَّة ؟ وكان يقول لهم : لماذا لا تردُّون عليَّ ، كما كنتم تردُّون على سعيد في الكوفة ، وعلى معاوية بالشَّام ؟ لماذا لا تخاطبوني ، كما كنتم تخاطبونهما؟

ونفع معهم أسلوب عبد الرَّحمن بن خالدٍ ، وأخرسهم حزمه ، وشدَّته ، وقسوته ، وأظهروا له التَّوبة ، والنَّدم . وقالوا له : نتوب إلى الله ، ونستغفره ، أَقِلْنَا أقالك الله ! وسامحنا سامحك الله ! بقي القوم في الجزيرة عند عبد الرَّحمن بن خالدٍ ، وأرسل عبد الرَّحمن أحد زعمائهم وهو الأشتر النَّخعي إلى عثمان ليخبره بتوبتهم ، وصلاحهم ، وتراجعهم عمَّا كانوا عليه من الفتنة ، فقال عثمان للأشتر : احلُل أنت ومن معك حيث شئتم ، فقد عفوت عنكم . قال الأشتر : نريد أن نبقى عند عبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد ، وذكر من فضل عبد الرحمن ، وحزمه ، فأقاموا عند عبد الرَّحمن في الجزيرة مدَّةً ، أظهروا فيها التَّوبة ، والاستقامة ، والصَّلاح[٢] ، وسكت أصحاب الفتنة في الكوفة إلى حينٍ ، وكان هذا في شهور سنة ثلاثٍ وثلاثين ، بعدما تمَّ نفي رؤوس الفتنة إلى معاوية في الشَّام ، ثمَّ إلى عبد الرَّحمن بن خالد ، فرأى أصحاب الفتنة في الكوفة أنَّ المصلحة تقتضي أن يسكتوا إلى حينٍ[٣] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٢٧) .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٣٤) .

١ـ أهل الفتنة بالبصرة يفترون على أشجِّ عبد القيس :

أمَّا أهل الفتنة بالبصرة بزعامة حكيم بن جبلة ، فقد كانوا ضدَّ أهل الفضل فيها ، وتآمروا ، وكذبوا عليهم ، وكان من أفضل ، وأتقى أهل البصرة (أشجُّ عبد القيس) واسمه عامر بن عبد القيس ، وكان زعيماً لقومه ، وقد وفد على رسول الله ﷺ ، وتعلَّم منه ، ومدحه رسول الله ﷺ بقوله : « إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله ، ورسوله : الحلم ، والأناة »[١] . وكان عامر بن عبد القيس من قادة الجهاد في القادسيَّة ، وغيرها ، وكان مقيماً في البصرة ، وكان على قسطٍ كبيرٍ من الصَّلاح ، والتَّقوى ، فكذب الخارجون عليه ، واتَّهموه بالباطل ، فسيَّره عثمان إلى معاوية بالشَّام ، ولمَّا كلَّمه معاوية رضي الله عنه ، وعامله ، عرف براءته ، وصدقه ، وكَذِبَ الخوارج ، وافتراءهم عليه ، وكان الَّذي تولى الكذب على عامر ابن عبد القيس هو (حمران بن أبان) وهو رجلٌ عاصٍ بدون دينٍ ، حيث تزوَّج امرأة في أثناء عدَّتها ! ولما علم عثمان بذلك ؛ فرَّق بينهما ، وضربه ، ونكَّل به لمعصيته ، ونفاه إلى البصرة ، وهناك التقى مع زعيم السَّبئيِّين فيها ، اللِّصِّ حكيم ابن جبلة[٢] .

٢ـ ابن سبأ يحدِّد سنة أربع وثلاثين للهجرة للتَّحرُّك :

وفي سنة أربع وثلاثين ـ السَّنة الحادية عشرة من خلافة عثمان ـ أحكم عبد الله بن سبأ اليهوديُّ خطَّته ، ورسم مؤامراته ، ورتَّب مع جماعته السَّبئيِّين الخروج على الخليفة ، وولاته ، فقد اتَّصل ابن سبأ اليهوديُّ من وكر مؤامرته في مصر بالشَّياطين من حزبه في البصرة ، والكوفة ، والمدينة ، واتَّفق معهم على تفاصيل الخروج ، وكاتبهم ، وكاتبوه ، وراسلهم ، وراسلوه ، وكان ممَّن كاتبهم ، وراسلهم السَّبئيُّون في الكوفة ، وقد كانوا بضعة عشر رجلاً منهم منفيين في الشَّام ، ثمَّ في الجزيرة عند عبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد ، وبعد نفي أولئك الخارجين ، كان زعيم السَّبئيِّين الحاقدين في الكوفة يزيد بن قيس[٣] ، وقد خلت الكوفة في سنة أربع وثلاثين من وجوهها ، وأشرافها ؛ لأنَّهم توجَّهوا للجهاد في سبيل الله ، ولم يبق إلا الرُّعاع ، والغوغاء ، الذين أثَّر فيهم السَّبئيُّون والمنحرفون ، وشحنوهم بأفكارهم الخبيثة ، وهيَّجوهم ضدَّ والي عثمان على الكوفة سعيد بن العاص رضي الله عنه[٤] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، رقم (٢٥) . وقال النَّووي في شرحه : أمَّا الحلم ، فهو العقل ، وأمَّا الأناة فهي التثبُّت ، وترك العجلة .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٣٣ ، ٣٣٤) .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٣٥) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

٣ـ أوضاع أهل الكوفة عند تحرُّك أهل الفتنة :

قال الطَّبريُّ عن أوضاع الكوفة سنة أربع وثلاثين : وفد سعيد بن العاص إلى عثمان في سنة إحدى عشرة من إمارة عثمان ، وقد بعث سعيدٌ قبل خروجه الأشعث ابن قيس إلى أذربيجان ، وسعيد بن قيس إلى الرَّيِّ ، والنُّسير العجليَّ إلى همذان ، والسَّائب بن الأقرع إلى أصبهان ، ومالك بن حبيب إلى ماه ، وحكيم بن سلامة إلى الموصل ، وجرير بن عبد الله إلى قرقيسيا ، وسلمان بن ربيعة إلى الباب ، وعُتَيبة بن النَّهاس إلى حلوان ، وجعل على الحرب القعقاع بن عمرو التَّميميَّ ، وكان نائبه بعد خروجه عمرو بن حُريث ، وبذلك خلت الكوفة من الوجوه والرُّؤساء ، ولم يبق فيها إلا منزوعٌ ، أو مفتونٌ[١] ، وفي هذا الجوِّ خرج زعيم السَّبئيِّين في الكوفة (يزيد بن قيس) بعد اتِّفاقٍ مع شيطانه ابن سبأ في مصر ، وخرج معه أهل الفتنة الّذين انضموا إلى جمعية ابن سبأ السِّريَّة ، والغوغاء الّذين تأثَّروا بها[٢] .

٤ـ القعقاع بن عمرو التَّميميُّ يقضي على التَّحرُّك الأوَّل :

خرج يزيد بن قيس في الكوفة ، وهو يريد خَلْع عثمان ، فدخل المسجد ، وجلس فيه ، وتجمَّعَ عليه في المسجد السَّبئيُّون ، الّذين كان ابن السَّوداء يكاتبهم من مصر ، ولمَّا تجمع الخارجون في المسجد ، علم بأمرهم القعقاع بن عمرو أمير الحرب ، فألقى القبض عليهم ، وأخذ زعيمهم يزيد بن قيس معه ، ولمَّا رأى يزيد شدَّة القعقاع ، ويقظته ، وبصيرته ؛ لم يجاهره بهدفهم ، وخطَّتهم في الخروج على الخليفة عثمان ، وخلعه ، وأظهر له أنَّ كل ما يريده هو وجماعته عزل الوالي سعيد ابن العاص ، والمطالبة بوالٍ آخر مكانه ، فاستُجيب لطلبهم ، ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة ؛ لمَّا سمع كلام يزيد ، ثمَّ قال ليزيد : لا تجلس لهذا الهدف في المسجد ، ولا يجتمع عليك أحدٌ ، واجلس في بيتك ، واطلب ما تريد من الخليفة ، وسيحقِّق لك ذلك[٣] .

٥ـ يزيد بن قيس يكاتب أهل الفتنة عند عبد الرحمن بن خالد :

جلس يزيد بن قيس في بيته ، واضطرَّ إلى تعديل خطَّته في الخروج ، والفتنة ، واستأجر هذا السَّبئيُّ (يزيد بن قيس) رجلاً ، وأعطاه دراهم ، وبغلاً ، وأمره أن يذهب بسرعة ، وكتمانٍ إلى السَّبئيين من أهل الكوفة الّذين نفاهم عثمان بن عفَّان إلى الشَّام ، ثم إلى الجزيرة ، وهم

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٣٧) .

(٢) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٣٦) .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٣٧) .

مقيمون عند عبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد هناك ، وقد أظهروا له التَّوبة ، والنَّدم ، وقال يزيد لإخوانه الشَّياطين في كتابه : إذا وصلكم كتابي هذا فلا تضعوه من أيديكم ، حتَّى تأتوا إليَّ ، فقد راسلنا إخواننا في مصر ـ وهم السَّبئيُّون هناك ـ واتفقنا معهم على الخروج ، ولمَّا قرأ الأشتر كتاب يزيد خرج فوراً للكوفة ، ولحق به ، وإخوانه الخارجون ، وفقدهم عبد الرَّحمن بن خالد ، فلم يجدهم ، فأرسل جماعةً في طلبهم ، فلم يدركوهم ، واتَّصل يزيد بن قيس بجماعته مرَّةً ثانيةً ، واتَّصل جماعته بالرُّعاع ، والغوغاء في الكوفة ، وتجمَّعوا في المسجد ، ودخل عليهم الأشتر النَّخعيُّ في المسجد ، وعمل على إثارتهم ، وتهييجهم ، ودفعهم للثَّورة ، والخروج ، وكان مما قال لهم : لقد جئتكم من عند الخليفة عثمان ، وتركت واليكم سعيد بن العاص عنده ، وقد اتَّفق عثمان ، وسعيد على إنقاص عطائكم ، وخفض أموالكم من مئتي درهم إلى مئة درهم ، وقد كذب الأشتر فيما قال ، ولم يتحدَّث عثمان ، وسعيد بذلك ، ولكنَّه كيد السَّبئيِّين في نشر الأكاذيب ، والافتراءات لتهييج العامَّة ، واستخفَّ الأشتر بكلامه النَّاس في المسجد ، وأثَّر في الرُّعاع ، والغوغاء ، وهيَّجهم ، وكانت ضجةٌ كبيرةٌ في المسجد ، وصار يكلِّمه عقلاء المسلمين من وجوههم ، وأشرافهم ، وصالحيهم ، وأتقيائهم ، كأبي موسى الأشعريِّ ، وعبد الله بن مسعودٍ ، والقعقاع بن عمروٍ ، فلم يسمع لهم ، ولم يستجب لهم[1] .

وصاح يزيد بن قيس في الغوغاء ، والرُّعاع داخل المسجد وخارجه ، وقال : إنِّي خارج إلى طرق المدينة ، لأمنع سعيد بن العاص من دخول الكوفة ، ومن شاء أن يخرج معي لمنع سعيد من الدُّخول ، والمطالبة بوالٍ مكانه ؛ فليفعل . فاستجاب لندائه السَّبئيُّون والرُّعاع ، وخرج معه حوالي ألف منهم[2] .

٦ـ القعقاع بن عمرو يرى قتل قادة أهل الفتنة :

لمَّا خرج السَّبئيُّون ، والغوغاء طلباً للفتنة ، والتمرُّد ، وإحداث القلاقل ، بقي في المسجد وجوه المسلمين ، وأشرافهم ، وحلماؤهم ، فصعد المنبر نائب الوالي عمرو بن حُريث ، وطالب المسلمين بالأخوَّة ، والوحدة ، ونهاهم عن التَّفرُّق ، والاختلاف ، والفتنة ، والخروج ، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجين ، والمتمرِّدين[3] ، قال القعقاع بن عمرو : أتردُّ السَّيل عن عبابه ، فاردد الفرات عن أدراجه ، هيهات ! لا والله لا تُسكِّن الغوغاء إلا

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/٣٣٨) . والخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٣٨) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه (٥/٣٣٨) .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٣٩) .

المشرفيَّة[١] ، ويوشك أن تُنْتضى ، ثمَّ يعجُّون عجيج العتدان[٢] ، ويتمنَّون ماهم فيه ، فلا يرده عليهم أبداً ، فاصبر ، فقال : أصبر ، وتحوَّل إلى منزله[٣] .

٧ـ أهل الفتنة يمنعون سعيد بن العاص من دخول الكوفة :

سار يزيد بن قيس ومعه الأشتر النَّخعي بالألف من الخارجين إلى مكان على طريق المدينة ، يسمَّى (الجَرَعَة) ، وبينما كانوا معسكرين في الجرعة ، طلع عليهم سعيد بن العاص عائداً من عند عثمان ، فقالوا له : عُد من حيث أتيت ، ولا حاجة لنا بك ، ونحن نمنعك من دخول الكوفة ، وأخبرْ عثمان : أنَّنا لا نريد والياً علينا ، ونريد من عثمان أن يجعل أبا موسى الأشعريَّ والياً مكانك ، قال لهم سعيد : لماذا خرجتم ألفاً لتقولوا لي هذا الكلام ؟ كان يكفيكم أن تبعثوا رجلاً إلى أمير المؤمنين بطلبكم ، وأن توقفوا لي رجلاً في الطَّريق ليخبرني بذلك ، وهل يخرج ألف رجلٍ لهم عقول لمواجهة رجلٍ واحدٍ[٤] ؟

رأى سعيد بن العاص : أنَّ من الحكمة عدم مواجهتهم ، وعدم تأجيج نار الفتنة ، بل محاولة إخمادها ، أو تأجيل اشتعالها على الأقلِّ ، وهذا رأي أبي موسى الأشعريِّ ، وعمرو بن حريث ، والقعقاع بن عمرو في الكوفة[٥] ، وعاد سعيد بن العاص إلى عثمان وأخبره خبر القوم الخوارج . قال له عثمان : ماذا يريدون ؟ هل خلعوا يداً من طاعةٍ ؟ وهل خرجوا على الخليفة ؟ وأعلنوا عدم طاعتهم له ؟ قال له سعيد : لا ، لقد أظهروا أنَّهم لا يريدونني والياً عليهم ، ويريدون والياً آخر مكاني . قال له عثمان : من يريدون والياً ؟ قال سعيد بن العاص : يريدون أبا موسى الأشعريَّ . قال عثمان : قد عيَّنا ، وأثبتنا أبا موسى والياً عليهم ، ووالله لن نجعل لأحدٍ عُذراً ، ولن نترك لأحدٍ حُجَّة ، ولنصبرنَّ عليهم كما هو مطلوب منَّا ، حتَّى نعرف حقيقة ما يريدون ، وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه والياً على الكوفة[٦] .

وقبل وصول كتاب عثمان رضي الله عنه بتعيين أبي موسى والياً ، كان في مسجد الكوفة بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد حاولوا ضبط الأمور ، وتهدئة العامَّة ، ولكنَّهم لم يتمكَّنوا من ذلك ؛ لأنَّ السَّبئيِّين ، والحاقدين سيطروا على الرُّعاع ، والغوغاء ، وهيَّجوهم ، فلم يعودوا يسمعون صوت عقلٍ ، أو منطقٍ ، وكان في مسجد الكوفة وقت التمرُّد والفتنة اثنان من

---

(١) نوعٌ من السُّيوف .

(٢) تُنْتَضى : انتضى السَّيف أي : أخرجه من غمده . العتود : الجدي الَّذي استكرش ، وقيل : الحوليُّ من أولاد الماعز .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٣٨) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

(٥) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٤٠) .

(٦) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٣٩) .

أصحاب رسول الله ﷺ ، هما حذيفة بن اليمان ، وأبو مسعودٍ عقبة بن عمرو الأنصاريُّ البدريُّ ، وكان أبو مسعود غاضباً لتمرُّد ، وثورة الرُّعاع ، وخروجهم إلى الجرعة ، وعزلهم الوالي سعيد ، وعصيانهم له ، وهي أوَّل مرَّةٍ تحصل ، بينما كان حذيفة بعيد النَّظر ، يتعامل مع الحدث بموضوعيَّةٍ ، وتفكيرٍ [(١)] .

قال أبو مسعود لحذيفة : لن يعودوا من الجرعة سالمين ، وسيرسل الخليفة جيشاً لتأديبهم ، وستسفك فيها دماءٌ كثيرةٌ ، فردَّ عليه حذيفة قائلاً : والله سيعودون إلى الكوفة ، ولن يكون هناك اشتباكٌ أو حربٌ ، ولن تسفك هناك دماءٌ ، وما أعلم من هذه الفتن اليوم شيئاً ، إلا وقد علمته من رسول الله ﷺ وهو حيٌّ ، حيث أخبرنا عن هذه الفتن الّتي نراها اليوم قبل وفاته ، ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ: «أنَّ الرَّجل يصبح على الإسلام ، ثمَّ يمسي ، وليس معه من الإسلام شيءٌ، ثمَّ يقاتل المسلمين، فيرتدُّ، وينكصُ قلبه، ويقتله الله غداً» وسيكون هذا فيما بعد [(٢)] .

لقد كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه متخصِّصاً في علم الفتن، وتعامل مع فتن السَّبئيِّين في الكوفة، وغيرها، وفق ما سمعه، وعلمه من رسول الله ﷺ، واستحضر ما حفظه من تلك الأحاديث، ففهم حقيقة ما يجري حوله، ولم يستبعده، ولم يستغربه، وحاول الإصلاح ما أمكنه [(٣)] .

٨ ـ أبو موسى الأشعري يهدِّىء الأمور ، وينهى عن العصيان :

قام أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه بتهدئة الأمور ، ونهى النَّاس عن العصيان . وقال لهم : أيها النَّاس ! لا تخرجوا في مثل هذه المخالفة ، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان ، الزموا جماعتكم ، والطَّاعة ، وإيَّاكم والعجلة ، اصبروا ، فكأنَّكم بأميرٍ [(٤)] . فقالوا: فصلِّ بنا، قال: لا، إلا على السَّمع ، والطَّاعة لعثمان بن عفَّان ، قالوا : على السَّمع ، والطَّاعة لعثمان [(٥)] .

وما كانوا صادقين في ذلك ، لكنَّهم كانوا يخفون أهدافهم الحقيقيَّة عن الآخرين ، وكان أبو موسى يصلِّي بالنَّاس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه والياً على الكوفة ، ولمَّا هدأت الأمور في الكوفة إلى حينٍ ، في سنة أربع وثلاثين ؛ عاد حذيفة بن اليمان إلى أذربيجان والباب يقود جيوش الجهاد هناك ، وعاد العمَّال ، والولاة إلى أعمالهم في مناطق فارس [(٦)] .

---

(١) الخلفاء الرَّاشدون ، ص(١٤١) .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٤٢) .

(٣) حذيفة بن اليمان، لإبراهيم العلي، ص(٨٦). والخلفاء الرَّاشدون، للخالدي، ص(١٤١).

(٤) أي : يأتيكم من قبل أمير المؤمنين عثمان .

(٥) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٣٩) .

(٦) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٤٢) .

٩ـ كتاب عثمان إلى الخارجين في الكوفة :

كتب عثمان بن عفَّان إلى الخارجين من أهل الكوفة كتاباً ، يبيِّنُ فيه الحكمة من استجابته لطلبهم في عزل سعيد ، وتعيين أبي موسى بدله ، وهي رسالةٌ ذات دلالات هامَّة ، وتبيِّن طريقة عثمان في مواجهة هذه الفتن ، ومحاولته تأجيل اشتعالها ما استطاع ، مع علمه اليقينيِّ : أنَّها قادمةٌ ، وأنَّه عاجزٌ عن مواجهتها ، فهذا ما علمه من رسول الله ﷺ . قال لهم عثمان في رسالته : أمَّا بعد : فقد أمَّرت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم من سعيدٍ ، والله لأفرشنَّ لكم عِرضي ، ولأبذُلنَّ لكم صبري ، ولأستصلحنَّكم بجهدي ، واسألوني كلَّ ما أحببتم ، ممَّا لا يُعصى الله فيه ، فسأعطيه لكم ، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ، أنزل فيه عند ما أحببتم ، حتَّى لا يكون لكم علي حجَّةٌ . وكتب بمثل ذلك في الأمصار(١) ، رضي الله عن أمير المؤمنين عثمان ، ما كان أصلحه ! وأوسع صدره ! وكم ظلمه السَّبئيُّون والخارجون الحاقدون ، وكذبوا وافتروا عليه(٢) !

* * *

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٤٣) .

(٢) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٤٣) .

المبحث الثَّاني
سياسة عثمان رضي الله عنه في التَّعامل مع الفتنة

من خلال النُّصوص التَّاريخيَّة في العديد من المصادر يتَّضح : أنَّ عثمان رضي الله عنه قد واجه الفتنة بعددٍ من الأساليب ، وهي :

أولاً : رأي بعض الصَّحابة بأن يرسل عثمان لجان تفتيشٍ ، وتحقيقٍ :

اهتزَّ محمَّد بن مسلمة ، وطلحة بن عبيد الله ، وغيرهما لما سمعوا من الإشاعات الَّتي بثها عبد الله بن سبأ في الأمصار ، فدخلوا على أمير المؤمنين عثمان على عجلٍ ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ! أيأتيك عن النَّاس الَّذي يأتينا ؟ قال : لا والله ! ما جاءني إلا السَّلامة . قالوا : فإنَّا قد أتانا ، وأخبروه بما تناهى لسمعهم عن الفتنة الَّتي تموج بها الأمصار الإسلاميَّة ، وعن الهجوم الشَّرس على ولاته في كل صقع . وقال : أنتم شركائي ، وشهود المؤمنين ؛ فأشيروا عليَّ ! قالوا : نشير عليك أن تبعث رجالاً ممَّن تثق بهم إلى الأمصار حتَّى يرجعوا إليك بخبرهم(١) .

فقام عثمان بإجراءٍ سديدٍ عظيمٍ ، وتخيَّر نفراً من الصَّحابة ، لا يختلف اثنان في صدقهم ، وتقواهم ، وورعهم ، ونصحهم ، اختار محمَّد بن مسلمة الَّذي كان عمر يأتمنه على محاسبة ولاته ، والتَّفتيش عليهم في الأقاليم ، وأسامة بن زيد حبَّ رسول الله ﷺ ، وابن حبِّه ، وأمير الجيش الَّذي أوصى النَّبيّ ﷺ بإنفاذه في آخر عهده بالدُّنيا ، فقال ﷺ : « **أنفذوا بعث أسامة** » ، وعمَّار بن ياسر ، السَّبَّاق إلى الإسلام ، والمجاهد العظيم ، وعبد الله بن عمر ، التَّقيَّ الفقيه الورع ، فأرسل محمَّد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة إلى البصرة ، وعمَّاراً إلى مصر ، وابن عمر إلى الشَّام ، وكانوا على رأس جماعةٍ ، فأرسلهم إلى تلك الأمصار الكبيرة ، فمضوا جميعاً إلى عملهم الشَّاقِّ المضني الخطير العظيم ، ثمَّ عادوا جميعاً عدا عمَّار بن ياسر الَّذي استبطأ في مصر ، ثمَّ عاد ، وقدَّموا بين يدي أمير المؤمنين ما شاهدوه ، وسمعوه ، وسألوا النَّاس عنه(٢) ، وكان ما جاء به هؤلاء واحداً في كلِّ الأمصار ، وقالوا : أيُّها النَّاس ! ما أنكرنا شيئاً ! ولا أنكر

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٤٨) .

(٢) عثمان بن عفَّان الخليفة الشَّاكر الصَّابر ، ص(٢١٠) .

المسلمون إلا أنَّ أمراءهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم[١] . وأمَّا ما روي من اتِّهام عمَّار بن ياسر رضي الله عنه ـ بالتأليب على عثمان رضي الله عنه فإنَّ أسانيد الرِّوايات الّتي تتضمَّن هذه التُّهمة ضعيفةٌ ، لا تخلو من علَّةٍ ، كما أنَّ في متونها نكارةً[٢] .

رجع مفتشو الأمصار ، واتَّضح بأنه ليس هناك ما يوجب على الخليفةأن يعزل واحداً من ولاته ، والنَّاس في عافيةٍ ، وعدلٍ ، وخيرٍ ، ورحمةٍ ، واطمئنانٍ ، وأمير المؤمنين يعدل في القضيَّة ، ويقسم بالسَّويّة ، ويرعى حقَّ الله وحقوق الرَّعيَّة ، وما يثار هو شكوكٌ ، وأراجيف ، وأكاذيب يبثُّها الحاقدون في الظُّلمات ؛ لكي لا يُعرف مصدرها ، ولكنَّ الخليفة البارَّ الرَّاشد العظيم لم يكتف بهذا ، بل كتب إلى أهل الأمصار[٣] .

ثانياً : كتب إلى أهل الأمصار كتاباً شاملاً بمثابة إعلان عامٍّ لكلِّ المسلمين :

أمَّا بعد : فإنِّي آخذ العمال بموافاتي في كلِّ موسمٍ ، وقد سلَّطت الأمَّة منذ وليت على الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، فلا يُرفع عليَّ شيءٌ ، ولا على أحدٍ من عمَّالي إلا أعطيته ، وليس لي، ولعيالي حقٌّ قبل الرَّعيَّة إلا متروكٌ لهم، وقد رفع إلى أهل المدينة : أنَّ أقواماً يُشتَمون ، وآخرون يُضرَبون، فيا مَنْ ضُرِبَ سرّاً، وشُتم سرّاً، من ادَّعى شيئاً من ذلك ؛ فليواف الموسم ، فليأخذ بحقِّه حيث كان ، منِّي ، أو من عمَّالي ، أو تصدقوا ، فإنَّ الله يجزي المتصدِّقين . فلمَّا قرئَ في الأمصار أبكى النَّاس ، ودعوا لعثمان ، وقالوا : إنَّ الأمَّة لتَمخَّضُ بشرٍّ[٤] .

فهل تريد الدُّنيا أن تسمع بحزمٍ ، وعزمٍ أعلى ، وأشمخ من هذا الحزم ، والعزم من رجلٍ زاد سنُّه عن اثنتين وثمانين سنةً ، وهو في هذه الفورة ، والقوَّة من المتابعة والتَّنقيب عن المظالم ؟ أم هل يريد النَّاس أن يروا عدلاً أرفع ، وأسمى من هذا العدل والإنصاف ، حتَّى إنَّ حقَّ أمير المؤمنين الشَّخصي متروكٌ لرعيَّته ، ما دام حقُّ الله قائماً وحدوده مرعيَّةً ؟ نعم عند عثمان ، الّذي لم يقف عند ذلك ، ولم يكتف بأن أرسل أمناءه للتفتيش عن أحوال النَّاس ، وكتابته من ثمَّ إلى أهل الأمصار بأن يأتوا موسم الحجِّ ليرفعوا شكاتهم ـ إن كانت لهم ـ أمام جموع الحجيج ، ولم يكتف عثمان بذلك كلِّه ، بل بعث إلى عمَّال الأمصار أنفسهم ؛ ليواجهوا النَّاس عندما يرفعون مظالمهم ـ إن وجدت ـ ثمَّ ليسألهم أمير المؤمنين عما يتناقله النَّاس ، وليشيروا عليه بالرَّأي النَّاصح السَّديد الرَّشيد[٥] .

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٤٨) .

(٢) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ١١٧) .

(٣) تاريخ الطَّبري (١/ ٣٤٩) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

(٥) عثمان بن عفان الخليفة الشَّاكر الصَّابر ، ص(٢١٢) .

ثالثاً : مشورة عثمان لولاة الأمصار :

بعث عثمان رضي الله عنه إلى ولاة الأمصار واستدعاهم على عجلٍ : عبد الله ابن عامر ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن سعد ، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص ـ وهم من الولاة السَّابقين ـ : وكانت جلسةً مغلقةً وخطيرةً ، جرت فيها الأبحاث التَّالية الّتي تقرِّر خطَّة العمل الجديدة في ضوء الأخبار المتناهية إلى المدينة عاصمة دولة الإسلام[١] ، قال عثمان : ويحكم ! ما هذه الشِّكاية ؟ وما هذه الإذاعة ؟ إنِّي والله لخائف أن يكون مصدوقاً عليكم ، وما يعصب[٢] هذا إلا بي . فقالوا له : ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ، ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيءٍ ؟ لا والله ما صدقوا ، ولا برُّوا ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً ، وما كنت لتأخذ به أحداً فيضمنك على شيءٍ ، وما هي إلا إذاعةٌ لا يحلُّ الأخذ بها ، ولا الانتهاء إليها ! قال : فأشيروا عليَّ . فقال سعيد بن العاص : هذا أمرٌ مصنوعٌ يُصنع في السِّرِّ ، فيُلقي به غير ذي معرفةٍ ، فيخبر به ، فيُتحدث به في مجالسهم . قال : فما دواء ذلك ؟ قال : طلب هؤلاء القوم ، ثمَّ قتل هؤلاء الّذي يخرج هذا من عندهم .

وقال عبد الله بن سعد : خذ من النَّاس الّذي عليهم إذا أعطيتهم الّذي لهم ؛ فإنَّه خير من أن تدعهم . قال معاوية : قد ولَّيتني ، فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير ، والرَّجلان أعلم بناحيتهما ، قال : فما الرأي ؟ قال : حسن الأدب ، قال : فما ترى يا عمرو ؟ ! قال : أرى أنَّك قد لنت لهم ، وتراضيت عنهم ، وزدتهم عمَّا كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشدَّ في موضع الشِّدَّة ، وتلين في موضع اللِّين ، إنَّ الشِّدَّة تنبغي لمن لا يألوا النَّاس شرّاً ، واللِّين لمن يخلف النَّاس بالنُّصح ، وقد فرشتهما جميعاً اللِّين .

وقام عثمان ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال : كل ما أشرتم به عليَّ قد سمعت ، ولكلِّ أمرٍ باب يؤتى منه ، إنَّ هذا الأمر الّذي يُخاف على هذه الأمَّة كائنٌ ، وإنَّ بابه الّذي يُغلق عليه ، فيُكفكف به اللِّين ، والمؤاتاة ، والمتابعة ، إلا في حدود الله تعالى ذكره ، الّتي لا يستطيع أحدٌ أن يبادي بعيب أحدها ، فإن سدَّه شيءٌ فرفق ، فذاك والله ليُفتحنَّ ، وليست لأحدٍ عليَّ حجَّة حقٍّ ، وقد علم الله أنِّي لم آل الناس خيراً ، ولا نفسي . ووالله إنَّ رحا الفتنة لدائرةٌ ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرِّكها ! كفكفوا النَّاس ، وهبوا لهم حقوقهم ، واغتفروا لهم ، وإذا تعوطيت حقوق الله ؛ فلا تُدهِنوا فيها[٣] .

---

(١) معاوية بن أبي سفيان ، ص(١٢٦) .

(٢) يعصب بي : يناط بي .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٥١) .

لقد خالف عثمان رضي الله عنه رأي أخيه عمرو باتِّباع الشِّدَّة ، ولم يخالف في اتِّباع سنَّة صاحبيه ، فرحى الفتنة دائرةٌ ، ولا تعالج بالعنف ؛ لأنَّ العنف هو الَّذي يدير هذه الرَّحى ، ولن يرضى أمير المؤمنين أن يكون صاحبها ، (فطوبى لعثمان إن مات ، ولم يحركها !) وكان واضحاً صريحاً رضي الله عنه فيما لا هوادة فيه ، وهي حدود الله ، فلا مداهنة فيها ، وما غير ذلك فالرِّفق أولى ، والمغفرة أفضل ، ولا بدَّ من تأدية الحقوق كلِّها[١] .

وقد جاءت رواياتٌ بسندٍ فيه ضعيفٌ ، ومجهولون تشوِّه العلاقة بين عمرو بن العاص ، وعثمان رضي الله عنهما وساهمت رواياتٌ ساقطةٌ في مسخ صورة عمرو بن العاص رضي الله عنه وتحويل علاقته بعثمان رضي الله عنه إلى علاقة فاتكٍ خطَّط لقتل أميره ، ثم عاد بانتهازيَّة ليطالب بدمه[٢] ، وهذه الرِّواية ضعيفةٌ ، ومرفوضةٌ عند أهل التَّاريخ ، وأهل الحديث[٣] ، وقد جاء في روايةٍ بسندٍ فيها ضعفاء ، ومجهولون أيضاً بأنَّ عمرو بن العاص قال : يا عثمان ! إنَّك قد ركبت النَّاس بمثل بني أميَّة ، فقلت : وقالوا ، وزغت ، وزاغوا ، فاعتدل ، أو اعتزل ، فإن أبيت فاعتزم عزماً ، وامضِ قدماً[٤] ، وجاء في نفس الرِّواية : أنَّ عبد الله بن عامر قال : أرى لك أن تجمرهم في هذه البعوث حتَّى يهمَّ كلُّ رجلٍ منهم قمل فروة رأسه ، ودبر دابته ، وتشغلهم عن الإرجاف بك[٥] .

إنَّ عثمان رضي الله عنه منع الولاة من التَّنكيل بمثيري الشَّغب ، وحبسهم ، أو قتلهم ، وقرَّر أن يعاملهم بالحسنى ، واللِّين[٦] ، وطلب من عماله أن يعودوا إلى أعمالهم ، وفق ما أعلنه لهم من أسلوب مواجهة الفتنة الَّتي كان كلُّ بصيرٍ يرى أنَّها قادمةٌ[٧] .

١ـ اقتراحان لمعاوية يرفضهما عثمان رضي الله عنهما :

قبل أن يتوجه معاوية بن أبي سفيان إلى الشَّام أتى إلى عثمان وقال له : يا أمير المؤمنين ! انطلق معي إلى الشَّام ، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قِبَل لك بها .

قال عثمان : أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيءٍ ، ولو كان فيه قطعُ خيط عنقي . قال له

---

(١) عمرو بن العاص الأمير المجاهد ، للغضبان ، ص(٤٤٧) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٤٨) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٤٠) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه .

(٦) خلافة عثمان ، د . السُّلمي ، ص(٧٧) .

(٧) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٥١) .

معاوية : إذاً أبعث لك جيشاً من أهل الشَّام ، يقيم في المدينة ، لمواجهة الأخطار المتوقَّعة ؛ ليدافع عنك ، وعن أهل المدينة ، قال عثمان : لا حتى لا أقتِّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق ، بجندٍ ، تساكنهم ، ولا أضيِّق على أهل الهجرة والنُّصرة . قال له معاوية : يا أمير المؤمنين ! والله لتُغتالنَّ ، أو لتُغزينَّ . قال عثمان : حسبي الله ونعم الوكيل(١) !

لكأنَّما معاوية رضي الله عنه كان يعلم : أنَّ وراء تلك الفتن ، والشَّائعات يداً خبيثةً تخطِّط لهدفٍ مرهوبٍ ليس دونه ضرب الخليفة ، والخلافة ؛ لكن عثمان الخليفة الرَّاشد كان له رأيٌ آخر ، فهو يريد أن يسير مع هؤلاء لآخر الطَّريق حتَّى لا يترك لهم حجَّةً عند الله ولا عند النَّاس ، فيفضحهم في الدُّنيا ، والآخرة ، وتلك مصابرةٌ عظيمةٌ من هذا الإمام العادل العظيم(٢) .

٢ـ عثمان يخترق صفوف المتآمرين بعد مجيئهم للمدينة :

كان أمير المؤمنين عثمان من اليقظة والوعي ما يجعله يحقِّق بقلم استخباراته مع هؤلاء المتآمرين ؛ حيث بثَّ في صفوفهم رجلين من المسلمين كانا قد عوقبا من الخليفة ليطمئن المتآمرون إليهم ، فقد أرسل عثمان رجلين ، مخزوميّاً ، وزهريّاً ، فقال : انظرا ما يريدون ، واعلما علمهم ، وكانا ممَّا نالهما من عثمان أدبٌ ، فاصطبرا للحقِّ ولم يضطغنا(٣) فلمَّا رأوهما باثُّوهما ، وأخبروهما بما يريدون ، فقالا : مَنْ معكم على هذا من أهل المدينة ؟ قالوا : ثلاثة نفر ، فقالا : هل إلا ؟ قالوا : لا . قالا : فكيف تريدون أن تصنعوا ؟ وشرح هؤلاء القوم للرَّجلين أبعاد المؤامرة كاملةً والخطَّة المقترحة ، وقالوا : نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب النَّاس ، ثم نرجع إليهم ، فنزعم لهم أنا قرَّرناه بها ، فلم يخرج ، ولم يتب ، ثمَّ نخرج كأنَّا حجَّاج حتى نقدم ، فنحيط به ، فنخلعه ، فإن أبى ؛ قتلناه ، وكانت إيَّاها ، فرجعا إلى عثمان ، فضحك ، وقال : اللَّهمَّ سلم هؤلاء فإنَّك إن لم تُسلِّمهم ؛ شقوا .

فأرسل إلى الكوفيين ، والبصريين ، ونادى : الصَّلاة جامعة ! وهم عنده في أصل المنبر ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتَّى أحاطوا بهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأخبرهم خبر القوم ، وحقيقة ما يريدون ، من تأكيد الشُّبهات عليه تمهيداً للخروج عليه ، وخلعه ، أو قتله ، وقام الرجلان اللَّذان حادثا السَّبئيِّين ، فشهدا بما أخبروهما به . فقال المسلمون جميعاً في داخل المسجد : اقتلهم يا أمير المؤمنين ! لأنَّهم يريدون الخروج على أمير المؤمنين ، وتفريق كلمة المسلمين ، ورفض عثمان رضي الله عنه دعوة الصَّحابة لقتلهم ؛ لأنَّهم مسلمون ـ في الظاهر ـ

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٥٣) .

(٢) عثمان بن عفان الخليفة الشَّاكر الصَّابر ، ص(٢١٤) .

(٣) اضطغن فلانٌ على فلانٍ : حقد عليه .

من رعيته ، ولا يرضى أن يقال : عثمان يقتل مسلمين مخالفين له ؛ ولذلك ردَّ عثمان بن عفَّان على تلك الدَّعوة قائلاً : لا نقتلهم ، بل نعفو ، ونصفح ، ونبصِّرهم بجهدنا ، ولا نقتل أحداً من المسلمين ، إلا إذا ارتكب حدّاً يوجب القتل ، أو أظهر ردَّة ، وكفراً(١) .

رابعاً : إقامة الحجَّة على المتمرِّدين :

ثمَّ دعا عثمان القوم السَّبئيِّين إلى عرض ما عندهم من شبهاتٍ ، وإظهار ما يرونه من أخطاءٍ ، وتجاوزاتٍ ، ومخالفات وقع هو فيها ، وكانت جلسة مصارحةٍ ، ومكاشفةٍ في المسجد على مرأى ومسمع من الصَّحابة والمسلمين ، فتكلَّم السَّبئيُّون ، وعرضوا الأخطاء الَّتي ارتكبها عثمان ـ على حدِّ زعمهم ـ وقام عثمان رضي الله عنه بالبيان ، والإيضاح ، وقدَّم حججه ، وأدلَّته فيما فعل ، والمسلمون المنصفون يسمعون هذه المصارحة ، والمحاسبة ، والمكاشفة ، وأورد عثمان ما أخذوه عليه ، ثمَّ بيَّن حقيقة الأمر ، ودافع عن حُسن فعله وأشهد معه الصَّحابة الجالسين في المسجد(٢) .

١ـ قال : قالوا : إنِّي أتممت الصَّلاة في السَّفر ، وما أتمَّها قبلي رسول الله ، ولا أبو بكرٍ ، ولا عمر . لقد أتممت الصَّلاة لمَّا سافرت من المدينة إلى مكَّة ، ومكَّة بلدٌ فيه أهلي ، فأنا مقيمٌ بين أهلي ، ولست مسافراً أليس كذلك ؟ فقال الصَّحابة : اللهم نعم !

٢ـ وقالوا : إنِّي حميتُ حمىً ، وضيَّقتُ على المسلمين ، وجعلت أرضاً واسعةً ، خاصَّة لرعي إبلي !

ولقد كان الحمى قبلي ، لإبل الصَّدقة ، والجهاد ، حيث جعل الحمى كلٌّ من رسول الله ، وأبو بكرٍ ، وعمر ، وأنا زدت فيه لمَّا كثرت إبل الصَّدقة ، والجهاد ، ثمَّ لم نمنع ماشية فقراء المسلمين من الرَّعي في ذلك الحمى ، وما حميت لماشيتي ! ولمَّا ولِّيت الخلافة كنت من أكثر المسلمين إبلاً ، وغنماً ، وقد أنفقتها كلَّها ، وما لي الآن ثاغيةٌ ولا راغيةٌ ، ولم يبقَ لي إلا بعيران ، خصَّصتهما لحجِّي ! أليس كذلك ؟ فقال الصَّحابة : اللهمَّ نعم !

٣ـ وقالوا : إنِّي أبقيت نسخةً واحدةً من المصاحف ، وحرَّقت ما سواها ، وجمعت النَّاس على مصحفٍ واحدٍ ! ألا إن القرآن كلام الله ، من عند الله ، وهو واحدٌ ، ولم أفعل سوى أن جمعت المسلمين على القرآن ، ونهيتهم عن الاختلاف فيه ، وأنا في فعلي هذا تابعٌ لما فعله أبو بكر ، لمَّا جمع القرآن ! أليس كذلك ؟ فقال الصَّحابة : اللهمَّ نعم !

٤ـ وقالوا: إنِّي رددت الحكَم بن أبي العاص إلى المدينة، وقد كان رسول الله ﷺ نفاه إلى

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٥٤ ، ٣٥٥) .
(٢) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٥٤ ، ١٥٥) .

الطَّائف! إنَّ الحكم بن العاص مكّيٌّ، وليس مدنيّاً، وقد سيَّره رسول الله ﷺ من مكَّة إلى الطَّائف ، وأعاده الرسول ﷺ إلى مكَّة بعدما رضي عنه ، فالرَّسول ﷺ سيَّره إلى الطَّائف، وهو الذي ردَّه وأعاده! أليس كذلك؟ فقال الصَّحابة: اللّهمَّ نعم !

٥ـ وقالوا : إني استعملت الأحداث ،ووليت الشَّباب صغار السِّنِّ ! ولم أُوَلِّ إلا رجلاً فاضلاً محتملاً مرضيّاً ، وهؤلاء النَّاس أهل عملهم ، فسَلوهم عنهم . ولقد ولّى الّذين مِنْ قبلي من هم أحدث منهم، وأصغر منهم سنّاً، ولقد ولّى رسول الله ﷺ أسامة بن زيدٍ ،وهو أصغر ممَّن ولَّيته ، وقالوا لرسول الله ﷺ أشدَّ ممَّا قالوا لي ؛ أليس كذلك ؟ قال الصَّحابة : اللّهمَّ نعم ! إنَّ هؤلاء النَّاس يعيبون للنَّاس ما لا يفسِّرونه ، ولا يوضِّحونه .

٦ـ وقالوا : إنِّي أعطيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح ما أفاء الله به ، وإنما أعطيته خُمس الخمس ـ وكان مئة ألف ـ لمَّا فتح إفريقية ، جزاء جهاده ، وقد قلت له : إن فتح الله عليك إفريقية ؛ فلك خمس الخمس من الغنيمة نفلاً ، وقد فعلها قبلي أبو بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما ومع ذلك قال لي الجنود المجاهدون : إنا نكره أن تعطيه خمس الخمس ـ ولا يحقُّ لهم الاعتراض والرَّفض ـ فأخذت خمس الخمس من ابنِ سعد ، ورددته على الجنود ، وبذلك لم يأخذ ابن سعد شيئاً ! أليس كذلك ؟ قال الصَّحابة : اللّهمَّ نعم !

٧ـ وقالوا : إنِّي أحبُّ أهل بيتي ، وأعطيهم ! فأمَّا حبِّي لأهل بيتي ، فإنَّه لم يحملني على أن أميل معهم إلى جور ، وظلم الآخرين ، بل أحملُ الحقوق عليهم وآخذ الحقَّ منهم ، وأمَّا إعطاؤهم فإنِّي أعطيهم من مالي الخاص ، وليس من أموال المسلمين ؛ لأنِّي لا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحدٍ من النَّاس . ولقد كنت أعطي العطيَّة الكبيرة الرَّغيبة من صُلب مالي أزمان رسول الله ﷺ ، وأبي بكرٍ ، وعمر ، رضي الله عنهما ، وأنا يومئذ شحيحٌ حريصٌ ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي ، وفني عمري ، وجعلت مالي الّذي لي لأهلي ، وأقاربي ؛ قال الملحدون ما قالوا ؟ وإنِّي والله ما أخذت من مصر من أمصار المسلمين مالاً ، ولا فضلاً ، ولقد رددت على تلك الأمصار الأموال ، ولم يُحضروا إلى المدينة إلا الأخماس من الغنائم ، ولقد تولَّى المسلمون تقسيم تلك الأخماس ، ووضعها في أهلها ! ووالله ما أخذت من تلك الأخماس وغيرها فلساً فما فوقه ! وإنَّني لا آكل إلا من مالي ! ولا أعطي أهلي إلا من مالي !

٨ ـ وقالوا : إنِّي أعطيت الأرض المفتوحة لرجالٍ معيَّنين ، وإنَّ هذه الأرضين المفتوحة ، قد اشترك في فتحها المهاجرون ، والأنصار ، وغيرهم من المجاهدين ، ولمَّا قسَّمت هذه الأراضي على المجاهدين الفاتحين ؛ منهم من أقام بها ، واستقرَّ فيها ، ومنهم من رجع إلى أهله في المدينة ، أو غيرها ، وبقيت تلك الأرض ملكاً له ، وقد باع بعضهم تلك الأراضي ، وكان ثمنها في أيديهم !

وبذلك أورد عثمان رضي الله عنه أهمَّ الاعتراضات الّتي أثيرت عليه ، وتولّى توضيحها ، وبيان وجه الحقِّ فيها[١] .

وترى من ذلك الدِّفاع المحكم الّذي دافع به عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، وساجل الصَّحابة فيه ، وذاكرهم إيَّاه صورةً لما كان يجري من النَّقد المرِّ العنيف له ، رضي الله عنه ، وما كان يشيعه السَّبئيُّون من قالة السُّوء ، وما يعملون على ترويجه من باطلٍ مزيّفٍ ، فقد أجمل رضي الله عنه ذكر الاعتراضات الّتي كانوا يعترضون بها عليه ، وبيّن وجه الحقِّ فيما يفعل ، وأنّه كان على بيِّنةٍ من أمره ، وعلى حجَّةٍ من دينه ، ولكنَّهم مغرضون لا يريدون رشاداً ، ولا يبغون سداداً ، فمجادلته لهم مجادلة رجلٍ مخلصٍ مع آخر يتربّص به الدَّوائر ، ويتسقَّط هفواته ، لينفِّذ أغراضاً ، ويلقي في نفوس النَّاس عنه إعراضاً ، ومن كان شأنه كذلك لا تقنعه الحجَّة ، ولا يهديه الدَّليل ، ومن يضلل الله ؛ فلا هادي له[٢] .

وقد سمع كلامه ، وتوضيحه زعماء أهل الفتنة الّذين بجانب المنبر ، كما سمعه الصَّحابة الكرام ، ومن معهم من المسلمين الصَّالحين ، وتأثَّر المسلمون بكلام عثمان ، وبيانه ، وتوضيحه ، وصدَّقوه فيما قال : وازدادوا حبّاً ، أمَّا السَّبئيُّون دعاة الفتنة ، والفرقة ، فلم يتأثّروا بذلك ، ولم يتراجعوا ؛ لأنَّهم لم يكونوا باحثين عن حقٍّ ، ولا راغبين في خيرٍ ، إنَّما كان هدفهم الفتنة ، والكيد للإسلام ، والمسلمين ، وقد أشار الصَّحابة ، والمسلمون على عثمان بقتل أولئك السَّبئيِّين (زعماء الفتنة) بسبب ما ظهر من كذبهم ، وتزويرهم ، وحقدهم ، بل أصرُّوا عليه في قتلهم ، ليتخلَّص المسلمون من شرِّهم ، وتستقرَّ بلاد المسلمين ، ويُقضى على الفتنة الّتي يثيرها هؤلاء ، وأتباعهم ، ولكنَّ عثمان كان له رأيٌ آخر ، وتحليلٌ مغايرٌ ، فآثر أن يتركهم ، ورأى عدم قتلهم ، محاولةً منه لتأخير وقوع الفتنة ، ولم يتَّخذ عثمان ضدَّ السَّبئيِّين القادمين من مصر ، والكوفة ، والبصرة ، أيَّ إجراءٍ مع علمه بما يخطِّطون ، ويريدون ، وتركهم يغادرون المدينة ويعودون إلى بلادهم[٣] .

خامساً : الاستجابة لبعض مطالبهم :

الاستجابة لبعض مطالبهم في خلع بعض الولاة ، وتولية مَنْ طلبوا توليته ، فهذه الأساليب كافيةٌ في المعالجة ، وإقامة الحقِّ ، والعدل ؛ لو كانت الأمور تسير في وضعها الطَّبيعيِّ ، لكنَّ الواقع : أنَّ وراء هذه الشَّكاوى ، والإثارات أموراً خفيَّةً ، وأحقاداً جاهليَّةً ، تسعى لإثارة الفتنة

---

(١) العواصم من القواصم ، ص(٦١ إلى ١١١) . وتاريخ الطَّبري (٥/ ٣٥٥ ، ٣٥٦) . والخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٥٨) . والفتنة ، لأحمد عرموش ، ص(١٠ ـ ١٤) .

(٢) تاريخ الجدل ، لمحمد أبو زهرة ، ص(٩٨ ، ٩٩) .

(٣) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٥٨ ، ١٥٩) .

بين المسلمين ، وتفريق وحدتهم ، ووقع ما أخبر به النّبيّ ﷺ من استشهاد عثمان رضي الله عنه[(١)] .

سادساً : ضوابط التّعامل مع الفتن عند عثمان رضي الله عنه :

إنَّ المتأمِّل في هدي عثمان رضي الله عنه في تعامله مع الفتنة الّتي وقعت في عهده يمكنه أن يستنبط بعض الضّوابط الّتي تُعين المسلم في مواجهته للفتن ، ومن هذه الضّوابط :

١ـ التَّثبُّت :

فقد أرسل لجان تفتيشٍ للأمصار ، واستمع لأهلها ، واستطاع أن يخترق جماعة السَّبئيِّين ، ويقف على حقيقة أمرهم ، ولم يستعجل في إصداره للأحكام عليهم .

٢ـ لزوم العدل ، والإنصاف :

فقد اتَّضح هذا الضّابط في كتبه للأمصار ، وطلب ممَّن ادَّعى ، أنَّه شُتم ، أو ضرب من الولاة ؛ فليوافِ الموسم ، فليأخذ بحقِّه حيث كان ، منه أو من عمَّاله[(٢)] .

٣ـ الحلم والأناة :

ويتَّضح هذا الضّابط في كتابه لأهل الكوفة عندما طلبوا عزل سعيد بن العاص ، وتعيين أبي موسى الأشعريِّ، وقد جاء في هذا الكتاب : . . . والله لأفرشنَّكم عِرضي، ولأبذلنَّ لكم صبري ، ولأستصلحنَّكم بجهدي ، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه[(٣)] .

٤ـ الحرص على ما يجمع ، ونبذ ما يفرِّق بين المسلمين :

ولذلك جمع النَّاس على مصحفٍ واحدٍ كما مرَّ معنا ، وعندما عرض عليه الأشتر النَّخعيُّ عروضاً ثلاثة يأتي تفصيلها بإذن الله ؛ قال **عثمان** : . . . وإن قتلتموني ؛ فلم أرتكب ما يوجب قتلي ، ووالله لئن قتلتموني فإنَّكم لا تتحابُّون بعدي أبداً ، ولا تصلُّون جميعاً بعدي أبداً ، ولا تقاتلون العدوَّ جميعاً بعدي[(٤)] !

٥ـ لزوم الصَّمت ، والحذر من كثرة الكلام :

من خلال سيرة عثمان رضي الله عنه تتَّضح صفة قلَّة كلامه إلا فيما ينفع من علمٍ ، أو نصحٍ ،

---

(١) خلافة عثمان للسُّلمي ، ص(٧٨) .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٤٩) .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٤٣) .

(٤) البداية والنِّهاية (٧/ ١٨٤) .

أو توجيهٍ ، أو ردِّ اتِّهاماتٍ باطلةٍ ، وقد كان رضي الله عنه كثير الصَّمت قليل الكلام .

٦ـ استشارة العلماء الرَّبانيِّين :

فقد كان رضي الله عنه يستشير علماء الصَّحابة ، كعليٍّ ، وطلحة ، والزُّبير ، ومحمَّد بن مسلمة ، وابن عمر ، وعبد الله بن سلام ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ فالعلماء هم صمَّام الأمان ، والملجأ في الخطوب المدلهمَّة ، والفتن المظلمة ؛ لأنَّهم أبصر النَّاس بحالها ، وأعرفهم بمآلها، فمن التجأ إليهم ؛ وجد الفهم السَّليم ، والنَّظر الصَّحيح والموقف الشَّرعيَّ الواضح[1] .

٧ـ الاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ في الفتن :

إنَّ منهج عثمان رضي الله عنه أثناء الفتنة ، ومسلكه مع المتمرِّدين ، الَّذين خرجوا عليه لم تفرضه عليه مجريات الأحداث ، ولا ضغط الواقع ، بل كان منهجاً نابعاً من مشكاة النُّبوَّة حيث أمره رسول الله ﷺ بالصَّبر ، والاحتساب ، وعدم القتال حتَّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وقد وفَّى ذو النُّورين رضي الله عنه بوعده ، وعهده لرسول الله ﷺ طوال أيَّام خلافته ، حتَّى خرَّ شهيداً مضرَّجاً بدمائه الطَّاهرة الزَّكيَّة[2] .

وقد قال محبُّ الدِّين الخطيب : الَّذي يدلُّ عليه مجموع الأخبار عن مواقف عثمان من أمر الدِّفاع عنه ، أو الاستسلام للأقدار ، هو أنَّه كان يكره الفتنة ، ويتَّقي الله في دماء المسلمين إلا أنَّه صار في آخر الأمر يودُّ لو كانت لديه قوَّةٌ راجحةٌ يهابها البغاة ، فيرتدعون عن بغيهم ، بلا حاجةٍ إلى استعمال السِّلاح للوصول إلى هذه النتيجة ، وقبل أن تبلغ الأمور مبلغها ؛ عرض عليه معاوية أن يرسل إليه قوَّةً من جند الشَّام تكون رهن إشارته ، فأبى أن يضيِّق على أهل دار الهجرة بجند يساكنهم ، وكان لا يظنُّ أنَّ الجرأة تبلغ بفريقٍ من إخوانه المسلمين إلى أن يتكالبوا على دم أوَّل مهاجرٍ إلى الله في سبيل دينه .

فلمَّا تذاءب عليه البُغاة ، واعتقد : أنَّ الدفاع عنه تسفك فيه الدِّماء جزافاً ؛ عزم على كلِّ مَنْ له عليهم سمعٌ ، وطاعةٌ أن يكفُّوا أيديهم ، وأسلحتهم عن مزالق العنف .

والأخبار بذلك مستفيضةٌ في مصادر أوليائه ، وشانئيه ، على أنَّه لو ظهرت في الميدان قوَّةٌ منظَّمة ذات هيبةٍ تقف في وجوه الثُّوار ، وتضع حدّاً لغطرستهم وجاهليتهم ؛ لارتاح عثمان وذلك ، وسرَّ به ، مع ما هو مطمئنٌ إليه من أنَّه لن يموت إلا شهيداً[3] .

* * *

---

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٧٢٨) .

(٢) استشهاد عثمان ووقعة الجمل ، ص(١١٦) .

(٣) العواصم من القواصم ، ص(١٣٨) .

المبحث الثَّالث
احتلال أهل الفتنة للمدينة

أولاً : قدوم أهل الفتنة من الأمصار :

اتَّفق أهل الفتنة فيما بينهم على القيام بخطوتهم العمليَّة النهائيَّة في مهاجمة عثمان في المدينة ، وحمله على التنازل عن الخلافة ، وإلا ؛ يقتل ، وقرَّروا أن يأتوا من مراكزهم الثلاثة : مصر ، والكوفة ، والبصرة في موسم الحجِّ ، وأن يغادروا بلادهم مع الحجَّاج ، وأن يكونوا في صورة الحجَّاج ، وأن يعلنوا للآخرين : أنَّهم خارجون للحجِّ ، فإذا وصلوا المدينة تركوا الحجَّاج يذهبون إلى مكَّة لأداء مناسك الحجِّ ، واستغلُّوا فراغ المدينة من معظم أهلها ـ المشغولين بالحجِّ ـ وقاموا بمحاصرة عثمان ؛ تمهيداً لخلعه ، أو قتله[١] .

وفي شوَّال سنة خمسٍ وثلاثين كان أهل الفتنة على مشارف المدينة[٢] ، فقد خرج المتمرِّدون من مصر في أربع فرق ، لكلِّ فرقةٍ أمير ، ولهؤلاء الأمراء أميرٌ ، ومعهم شيطانهم عبد الله بن سبأ ، وأمراء الفرق الأربعة هم : عبد الرَّحمن بن عديس البلويُّ ، وكنانة بن بشر التَّجيبيُّ ، وسُودانُ بن حمران السَّكونيُّ ، وقتيرة بن فلان السَّكونيُّ ، وأمير هؤلاء الأمراء هو الغافقيُّ بن حرب العكيُّ ، وكان عدد الفرق الأربعة ألف رجل ، وخرج المتمرِّدون من الكوفة ألف رجلٍ في أربع فرقٍ ، وأمراء فرقهم هم : زيد بن صوحان العبديُّ ، والأشتر النَّخعيُّ ، وزياد بن النَّضر الحارثيُّ ، وعبد الله بن الأصمِّ ، وأمير متمردي الكوفة هو عمرو بن الأصمِّ .

وخرج متمردو البصرة ألف رجلٍ في أربع فرقٍ ، وأمراء فرقهم هم : حكيم بن جبلة العبديُّ ، وذريحُ بن عبَّاد العبديُّ ، وبشر بن شريح القيسيُّ ، وابن المحرِّش ابن عبد الحنفيُّ ، وأمير متمردي البصرة هو حُرقوص بن زهير السَّعديُّ ، وكان عبد الله بن سبأ يسير مع هؤلاء مزهوّاً مسروراً ، بنجاح خطَّته اليهوديَّة الشَّيطانيَّة ، وكان أهل الفتنة من مصر يريدون عليَّ بن أبي طالب خليفةً ، وكان أهل الفتنة من الكوفة يريدون الزُّبير بن العوَّام خليفةً ، وكان أهل الفتنة من البصرة يريدون طلحة ابن عبيد الله[٣] ، وهذا العمل منهم كان بهدف الإيقاع بين الصَّحابة رضوان

---

(١) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٥٩) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٣٥٧) .

الله عليهم ، وهو ما ذهب إليه الإمام الآجريُّ ، حيث قال : وقد برأ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وطلحة ، والزُّبير رضي الله عنهما من هذه الفرق ، وإنَّما أظهروا ؛ ليموِّهوا على النَّاس ، وليوقعوا بين الصَّحابة ، وقد أعاذ الله الكريم الصَّحابة من ذلك(١) .

وبلغ خبر قدوم عثمان رضي الله عنه قبل وصولهم ، وكان في قريةٍ خارج المدينة ، فلمَّا سمعوا بوجوده فيها ، اتَّجهوا إليه ، فاستقبلهم فيها ، ولم تصرِّح لنا الرِّوايات باسم هذه القرية ، ويحدِّد المدائنيُّ تاريخ قدومهم بليلة الأربعاء هلال ذي القعدة(٢) ، وكان أوَّلَ من وصل المصريُّون ، فقالوا لعثمان : ادع بالمصحف ، فدعا به ، فقالوا : افتح السَّابعة ، وكانوا يسمُّون سورة يونس بالسَّابعة ـ فقرأ حتَّى أتى هذه الآية : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩] .

فقالوا له : قف ، أرأيت ما حميت من الحمى ؟ آلله أذن لك أم على الله تفتري ؟ فقال : امضه ، نزلت في كذا ، وكذا ، فأمَّا الحمى فإنَّ عمر حماه قبلي لإبل الصَّدقة ، فلمَّا ولِّيت زادت إبل الصَّدقة ، فزدت في الحمى لمَّا زاد من إبل الصَّدقة ، امضه ، قال : فجعلوا يأخذونه بالآية ، فيقول : امضه ، نزلت في كذا ، فما يزيدون ، فأخذوا ميثاقه ، وكتبوا عليه شرطاً ، وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا ، ولا يفارقوا جماعةً ما أقام لهم شرطهم ، ثمَّ رجعوا راضين(٣) .

● علي بن أبي طالب يرسله عثمان للمفاوضة مع أهل الفتنة من الأمصار :

ونزل القوم في ذي المروة ، قبل مقتله بما يقارب شهراً ونصفاً ، فأرسل عثمان إليهم عليّاً رضي الله عنه ورجلاً آخر لم تسمِّه الرِّوايات ، والتقى بهم عليٌّ رضي الله عنه فقال لهم : تعطون كتاب الله ، وتعتبون من كلِّ ما سخطتم ، فوافقوا على ذلك(٤) ، وفي روايةٍ : أنَّهم شادُّوه ، وشادهم مرَّتين ، أو ثلاثاً ، ثمَّ قالوا : ابن عمِّ رسول الله ﷺ ، ورسول أمير المؤمنين يعرض عليكم كتاب الله ! فقبلوا(٥) ، فاصطلحوا على خمس : على أنَّ المنفي يُقبل ، والمحروم يُعطى ، ويوفر الفيء ، ويعدل في القسم ، ويستعمل ذو الأمانة والقوَّة ، وكتبوا ذلك في كتاب ، وأن يردَّ ابن عامر على البصرة ، وأن يبقى أبو موسى على الكوفة(٦) . وهكذا اصطلح

---

(١) استشهاد عثمان ووقعة الجمل ، لخالد الغيث ، ص(١١٨) .
(٢) فتنة مقتل عثمان ، د . محمد الغبان (١/ ١٢٧) .
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ١٢٨) .
(٤) تاريخ دمشق، ترجمة عثمان، ص(٣٢٨). وتاريخ خليفة بن خيَّاط ص(١٦٩ ـ ١٧٠) .
(٥) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٢٩) .
(٦) المصدر السَّابق نفسه .

عثمان رضي الله عنه مع كل وفدٍ على حدةٍ ، ثم انصرفت الوفود إلى ديارها[١] .

● **الكتاب المزعوم بقتل وفد أهل مصر :**

وبعد هذا الصلح وعودة أهل الأمصار جميعاً راضين تبيَّن لمشعلي الفتنة : أنَّ خطَّتهم قد فشلت ، وأنَّ أهدافهم الدَّنيئة لم تتحقَّق ، لذا خطَّطوا تخطيطاً آخر يذكي الفتنة ، ويحييها ، ويقتضي تدمير ما جرى من صلحٍ بين أهل الأمصار ، وعثمان ، رضي الله عنه ، وبرز ذلك فيما يأتي : في أثناء طريق عودة أهل مصر ، رأوا راكباً على جملٍ يتعرَّض لهم ، ويفارقهم ـ يظهر أنَّه هارب منهم ـ فكأنَّه يقول : خذوني ، فقبضوا عليه ، وقالوا له : مالك ؟ فقال : أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر ، ففتَّشوه ، فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان رضي الله عنه ، وعليه خاتمه إلى عامله ، فتحوا الكتاب فإذا فيه أمرٌ بصلبهم ، أو قتلهم ، أو تقطيع أيديهم ، وأرجلهم ، فرجعوا إلى المدينة حتَّى وصلوها[٢] ، ونفى عثمان رضي الله عنه أن يكون كتب هذا الكتاب ، وقال لهم : إنَّهما اثنتان : أن تقيموا رجلين من المسلمين ، أو يمين بالله الَّذي لا إله إلا هو ما كتبت ، ولا أمللت ، ولا علمت ، وقد يكتب الكتاب على لسان الرَّجل ، وينقش الخاتم . فلم يصدِّقوه[٣] .

وهذا الكتاب الَّذي زعم هؤلاء المتمرِّدون البغاة المنحرفون : أنَّه من عثمان ، وعليه خاتمه يحمله غلامه على واحدٍ من إبل الصَّدقة إلى عامله بمصر ابن أبي سرح ، يأمر فيه بقتل هؤلاء الخارجين هو كتاب مزوَّر مكذوبٌ على لسان عثمان ، وذلك لعدَّة أمور :

١ـ أنَّ حامل الكتاب المزوَّر قد تعرَّض لهؤلاء المصريِّين ، ثمَّ فارقهم ، وكرَّر ذلك مراراً ، وهو لم يفعل ذلك إلا ليلفت أنظارهم إليه ، ويثير شكوكهم فيه ، وكأنَّه يقول لهم : معي شيءٌ مهمٌّ بشأنكم ! وإلا فلو كان من عثمان ؛ لخافهم حامل الكتاب المزعوم ، ولأبعد عنهم ، وأسرع إلى والي مصر ؛ ليضع بين يديه الأمر ، فينفذه .

٢ـ كيف علم العراقيُّون بالأمر ، وقد اتَّجهوا إلى بلادهم ، وفصلتهم عن المصريين ـ الَّذين أمسكوا بالكتاب المزعوم ـ مسافةٌ شاسعةٌ ، فالعراقيُّون في الشَّرق والمصريون في الغرب ، ومع ذلك عادوا جميعاً في آنٍ واحدٍ ، كأنما كانوا على ميعادٍ ؟ لا يعقل هذا إلا إذا كان الَّذين زوَّروا الكتاب ، واستأجروا راكباً ليحمله ، ويمثِّل الدَّور في (البُوَيْب) أمام المصريِّين ، قد استأجروا راكباً آخر انطلق إلى العراقيِّين ؛ ليخبرهم بأنَّ المصريين قد اكتشفوا كتاباً بعث به عثمان لقتل

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .
(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٧٩) .
(٣) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (٥/ ١٣٢) . والبداية والنهاية (٧/ ١٩١) .

المنحرفين المصريِّين ! ! وهذا ما احتجَّ به عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فقد قال : كيف علمتم يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر ، وقد سرتم مراحل ؛ ثمَّ طويتم نحونا[(١)] ؟ بل إنَّ عليّاً يجزم : هذا والله أمرٌ أبرم بالمدينة[(٢)] .

٣ـ كيف يكتب عثمان إلى ابن أبي سرح بقتل هؤلاء ، وابن أبي سرح كان عقب خروج المتمرِّدين من مصر متَّجهين إلى المدينة كتب إلى الخليفة يستأذنه بالقدوم عليه ، وقد تغلَّب على مصر محمَّد بن أبي حذيفة ، وفعلاً خرج ابن أبي سرح من مصر إلى العريش ، وفلسطين ، فالعقبة ، فكيف يكتب له عثمان بقتلهم ، وعنده كتابه الّذي يستأذن به منه بالقدوم عليه ؟

٤ـ أن عثمان رضي الله عنه قد نهى عن قتل المتمرِّدين عندما حاصروه ، وأبى على الصَّحابة أن يدافعوا عنه ، ولم يأمر بقتال الخارجين دفاعاً عن نفسه ـ كما سيأتي تفصيله إن شاء الله ـ فكيف يكتب مثل هذا الكتاب المزوَّر وقد خرجوا عنه من المدينة مظهرين التَّوبة ، والإنابة .

٥ـ تخلُّف حُكيم بن جَبَلة ، والأشتر النَّخعيِّ ـ بعد خروج المتمرِّدين ـ في المدينة ، يشير إشارةً واضحة إلى أنَّهما هما اللَّذان افتعلا الكتاب ؛ إذ لم يكن لهما أيُّ عملٍ بالمدينة ليتخلَّفا فيها ، وما مكثا إلا لمثل هذا الغرض ، فهما صاحبا المصلحة في ذلك[(٣)] ، وربما كان ذلك بتوجيه من عبد الله بن سبأ ، ولم يكن لعثمان رضي الله عنه في ذلك أيّة مصلحةٍ ، وكذلك ليس لمروان بن الحكم أيّة مصلحةٍ ، والّذين يتَّهمون مروان في هذا إنَّما ينسبون إلى الخليفة الغفلة عن مهامِّه ، وأنَّ في ديوان الخلافة من يجري الأمور ، ويقضي بها دون علمه ، وبذلك يبرِّئون ساحة أولئك المجرمين النَّاقمين الغادرين ، ثمَّ لو أنَّ مروان زوَّر الكتاب ، لكان أوصى حامل ذلك الكتاب أن يبتعد عن أولئك المنحرفين ، ولا يتعرض لهم في الطَّريق حتَّى يأخذوه وإلا ؛ لكان متآمراً معهم على عثمان ، وهذا محالٌ .

٦ـ إنَّ هذا الكتاب المشؤوم ليس أوَّل كتاب يزوِّره هؤلاء المجرمون ، بل زوَّروا كتباً على لسان أمَّهات المؤمنين ، وكذلك على لسان عليٍّ ، وطلحة ، والزُّبير ، فهذه عائشة رضي الله عنها تُتَّهَم بأنَّها كتبت إلى النَّاس تأمرهم بالخروج على عثمان ، فتنفي ، وتقول : لا والذي آمن به المؤمنون ، وكفر به الكافرون ما كتبتُ لهم سوداء في بيضاء حتَّى جلست مجلسي هذا[(٤)] !

ويعقِّب الأعمش فيقول : فكانوا يرون : أنَّه كتب على لسانها[(٥)] ، ويتَّهم الوافدون عليّاً بأنَّه

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٥٩) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) عثمان بن عفان الخليفة الشَّاكر الصابر ، ص(٢٢٧) .
(٤) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٣٤) .
(٥) تاريخ خليفة بن خيَّاط ، ص(١٦٩) .

كتب إليهم أن يقدموا عليه بالمدينة ، فينكر ذلك عليهم ، ويقسم : والله ما كتبت إليكم كتاباً[١] ! كما ينسب إلى الصَّحابة بكتابة الكتب إلى أهل الأمصار يأمرونهم بالقدوم إليهم ، فدين محمَّدٍ قد فسد ، وترك ، والجهاد في المدينة خيرٌ من الرِّباط في الثغور البعيدة[٢] ، ويعلِّق ابن كثيرٍ على هذا الخبر قائلاً : وهذا كذبٌ على الصَّحابة ، وإنما كتبت كتبٌ مزوَّرة عليهم ، فقد كتب من جهة عليٍّ ، وطلحة ، والزُّبير إلى الخوارج ـ قتلة عثمان ـ كُتُبٌ مزوَّرةٌ عليهم أنكروها ، وكذلك زُوِّر هذا الكتاب على عثمان أيضاً ، فإنَّه لم يأمر به ، ولم يعلم به[٣] .

ويؤكِّد كلام ابن كثير ما رواه الطَّبريُّ ، وخليفة من استنكار كبار الصَّحابة ـ عليٍّ وعائشة ، والزُّبير ـ أنفسهم لهذه الكتب في أصحِّ الرِّوايات[٤] ، إنَّ الأيدي المجرمة الَّتي زوَّرت الرَّسائل الكاذبة على لسان أولئك الصَّحابة ، هي نفسها الَّتي أوقدت نار الفتن من أوَّلها إلى آخرها ، ورتَّبت ذلك الفساد العريض ، وهي الَّتي زوَّرت وروَّجت على عثمان تلك الأباطيل ، وأنَّه فعل ، وفعل ، ولقَّنتها للناس ، حتَّى قبلها الرُّعاع ، ثمَّ زوَّرت على لسان عثمان ذلك الكتاب ؛ ليذهب عثمان ضحيةً إلى ربه شهيداً سعيداً ، ولم يكن عثمان الشَّهيد هو المجنيُّ عليه وحده في هذه المؤامرة السَّبئيَّة اليهوديَّة ، بل الإسلام نفسه كان مجنيّاً عليه قبل ذلك ، ثمَّ التاريخ المشوَّه المحرَّف ، والأجيال الإسلاميَّة الَّتي تلقَّت تاريخها مشوَّهاً ، هي كذلك ممَّن جنى عليهم الخبيث اليهوديُّ ، وأعوانه من أصحاب المطامع ، والشَّهوات ، والحقد الدَّفين ، أما آن للأجيال الإسلاميَّة أن تعرف تاريخها الحقَّ ، وسير رجالاتها العظام ؟ بل ألم يأن لمن يكتب في هذا العصر ـ من المسلمين ـ أن يخاف الله ، ولا يتجرَّأ على تجريح الأبرياء قبل أن يحقِّق ، ويدقِّق حتَّى لا يسقط ، كما سقط غيره[٥] .

ثانياً : بدء الحصار ورأي عثمان في الصَّلاة خلف أئمَّة الفتنة :

لم تفصِّل الرِّوايات الصَّحيحة كيفية بدء الحصار ، ووقوعه ، ولعلَّ الأحداث الَّتي سبقته تلقي شيئاً من الضَّوء على كيفية بدئه ، فبينما كان عثمان رضي الله عنه يخطب النَّاس ذات يومٍ إذا برجلٍ يقال له : أعين[٦] ، يقاطعه ، ويقول له : يا نعثل[٧] ! إنَّك قد بدَّلت ، فقال عثمان

---

(١) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٣٥) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) البداية والنِّهاية (٧/ ١٧٥) .

(٤) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٣٥) .

(٥) عثمان بن عفان الخليفة الشَّاكر الصَّابر ، ص(٢٢٨ ، ٢٢٩) .

(٦) أعين بن ضبعية بن ناجية بن غفال التَّميميُّ الحنظليُّ الدَّرميُّ .

(٧) هو لقب أطلقه الخارجون على عثمان رضي الله عنه ، وهذا اللَّقب أطلق من باب التَّنقيص .

رضي الله عنه : من هذا ؟ فقالوا : أعين ، قال عثمان : بل أنت أيُّها العبد ! فوثب الناس إلى أعين ، وجعل رجلٌ من بني ليث يزعهم عنه حتَّى أدخله الدَّار[(١)] ، وكان رجوع المتمرِّدين الثاني ، وقبل اشتداد الحصار كان عثمان رضي الله عنه يتمكَّن من الخروج للصَّلاة ، ودخول من شاء إليه ، ثمَّ منع الخروج من الدَّار حتى إلى صلاة الفريضة[(٢)] ، فكان يصلِّي بالناس رجلٌ من المحاصرين ، من أئمَّة الفتنة ، حتَّى إنَّ عبيد الله بن عديٍّ بن الخيار تحرَّج من الصَّلاة خلفه ، فاستشار عثمان في ذلك ؛ فأشار عليه بأن يصلِّي خلفه ، وقال له : الصَّلاة أحسن ما يعمل النَّاس ، فإذا أحسن النَّاس ، فأحسن معهم ، وإذا أساؤوا ، فاجتنب إساءتهم[(٣)] .

وفي بعض الرِّوايات الضَّعيفة : أنَّ الَّذي كان يصلِّي بالنَّاس هو أميرهم الغافقيُّ[(٤)] ، ولا صحَّة لما روى الواقديُّ من أنَّ علياً رضي الله عنه أمر أبا أيوب الأنصاريَّ أن يصلِّي بالنَّاس ، فصلَّى بهم أوَّل الحصر ، ثم صلَّى عليٌّ رضي الله عنه بهم العيد ، وما بعده[(٥)] ، وإضافة إلى شدَّة ضعف إسناد هذه الرِّواية ، فلو كان الَّذي يصلِّي بالنَّاس هو عليٌّ ، أو أبو أيُّوب الأنصاريُّ رضي الله عنهما لما تحرج عبيد الله بن عديٍّ بن الخيار من الصَّلاة خلفهما[(٦)] .

ثانياً : المفاوضات بين عثمان ومحاصريه :

وبعد أن تمَّ الحصار ، وأحاط الخارجون بدار عثمان رضي الله عنه وطلبوا منه خلع نفسه ، أو يقتلوه[(٧)] ، ورفض عثمان رضي الله عنه خلع نفسه ، وقال : **لا أخلع سربالاً سربلنيه الله**[(٨)] ، يشير إلى ما أوصاه به رسول الله ﷺ ، بينما كان قلَّةٌ من الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يرون خلاف ما ذهب إليه ، وأشار عليه بعضهم بأن يخلع نفسه ليعصم دمه ، ومن هؤلاء المغيرة بن الأخنس ، رضي الله عنه ، لكنَّه رفض ذلك[(٩)] .

---

(١) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٤٣) . وتاريخ دمشق ، ترجمة عثمان (٢٤٧) إسناده حسنٌ . وزعهم : كفَّهم .

(٢) تاريخ دمشق ، ترجمة عثمان (٣٤١ ـ ٣٤٢) إسناده حسنٌ .

(٣) البخاريُّ ، كتاب الصَّلاة رقم (١٩٢) .

(٤) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٤٥) .

(٥) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٤٤) .

(٦) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٤٥) .

(٧) الطَّبقات ، لابن سعد (٣/ ٦٦) . وتاريخ خليفة بن خيَّاط ، ص(١٧١) .

(٨) التَّمهيد ، ص(٤٦ ـ ٤٧) .

(٩) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٤٧) .

١ـ ابن عمر يحثُّ عثمان على عدم التَّنازل عن منصب الخلافة :

دخل ابن عمر على عثمان رضي الله عنهما أثناء حصاره ، فقال له عثمان رضي الله عنه : انظر إلى ما يقول هؤلاء ، يقولون : اخلعها ولا تقتل نفسك ، فقال ابن عمر رضي الله عنهما : إذا خلعتها أمخلَّدٌ أنت في الدُّنيا ؟ فقال عثمان رضي الله عنه : لا ! قال : فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال عثمان : لا! قال: فهل يملكون لك جنَّة أو ناراً؟ قال: لا! قال : فلا أرى لك أن تخلع قميصاً قمَّصكه الله ، فتكون سنَّةً كلَّما كره قومٌ خليفتهم ، أو إمامهم ؛ قتلوه[١] .

رضي الله عن عبد الله بن عمر ، ما كان أبعد نظره ، إنَّه لا يريد أن يسنَّ عثمان سنَّةً سيئةً للخلفاء ـ وحاشا لعثمان أن يفعل ـ فلو تنازل عثمان لهؤلاء الخوارج السَّبئيِّين ، وخلع نفسه ، لصار الخلفاء ألعوبةً وملهاةً بأيدي الطَّامعين ، أو المغرضين ، وبذلك تهتزُّ صورة الخليفة ، وتزول هيبته عند النَّاس ، ولقد سنَّ عثمان سنَّة حسنةً لمن بعده بمشورة ابن عمر ، وغيره من الصَّحابة ، رضوان الله عليهم ، حيث صبر ، واحتسب ، فلم يتنازل عن الخلافة ، ولم يسفك دماء المسلمين[٢] .

إنَّ الاستجابة لمطالب المتمرِّدين ـ وهم فئة قليلةٌ من الأمَّة ـ ليسوا من أهل الحلِّ والعقد ، ولا من رجالات الإسلام ، وفقهاء الشَّريعة ستكون لها آثارٌ خطيرةٌ على مسيرة الأمَّة ، وهيبة الخلافة ، وعلاقة الرَّاعي بالرَّعيَّة ، وكان ثمن دفع هذه الآثار السَّيِّئة أن دفع الخليفة حياته ، وهو يعلم بمصيره ، ويستسلم له ، وهو أمرٌ ثقيل على النَّفس ، ولكنَّه قدَّم مصالح الأمَّة على مصلحته الشَّخصيَّة ، ممَّا يكشف عن قوَّةٍ ، وعزيمةٍ ، وشجاعةٍ ، ومضاءٍ ، ويردُّ به على تلك التُّهم الَّتي وجِّهت إليه من ضعفٍ في هذه الصفات ، فإنَّه رضي الله عنه كان قادراً بإذن الله على كبح الفتنة ، ولكنَّه قدَّر حدوث مفاسد تغلب على مصلحة كبحها ، فأعرض عن ذلك درءاً لها ، وبذلك يُعلم خطأ العقَّاد عندما قال بأن قتل عثمان : لا يوصف بأكثر من أنَّه (مشاغبةٌ دهماء) لم تجد من يكبحها[٣] ، فإنَّ في ذلك غمزاً في شخصيَّة ، وشجاعة عثمان رضي الله عنه ، وهي حقّاً فتنةٌ دهماء ، ولكن عدم كبحها يعدُّ منقبةً لعثمان رضي الله عنه ؛ لما فيه من تضحيةٍ في سبيل الله ، رجاء تحصيل مصلحةٍ للأمَّة ، وعملاً بوصيَّة رسول الله ﷺ[٤] .

---

(١) فضائل الصَّحابة (١/ ٤٧٣) إسناده صحيحٌ .

(٢) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٧٩) .

(٣) ذو النُّورين عثمان بن عفَّان ، ص(١٢٢) .

(٤) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ١٤٩) .

٢ـ توعُّد المحاصرين له بالقتل :

وبينما كان عثمان رضي الله عنه في داره ، والقوم أمام الدَّار محاصروها ؛ دخل ذات يوم مدخل الدَّار ، فسمع توعُّد المحاصرين له بالقتل ، فخرج من المدخل ، ودخل على من معه في الدَّار ، ولونه ممتقعٌ ، فقال : إنَّهم ليتوعَّدونني بالقتل آنفاً ! فقالوا له : يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين ! فقال : ولم يقتلونني ؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا يحلُّ دم امرئٍ مسلمٍ إلا في إحدى ثلاث : رجلٍ كفر بعد إيمانه ، أو زنى بعد إحصانه ، أو قتل نفساً بغير نفسٍ** » فوالله ما زنيت في جاهليةٍ ، ولا في إسلام قطُّ ، ولا تمنَّيت أن لي بديني بدلاً منذ هداني الله ، ولا قتلت نفساً ، ففيم يقتلونني[1] ؟ !

ثمَّ أشرف على المحاصرين ، وحاول تهدئة ثورتهم ، وثنيهم عن خروجهم على إمامهم ، مضمِّناً كلمة الردِّ على ما عابوه به ، وكشف الحقائق الَّتي لبَّسها القوم ، عسى أن يفيق المغرَّر بهم ، ويعودوا إلى رشدهم ، فطلب من المحاصرين أن يخرجوا له رجلاً يكلِّمه ، فأخرجوا له شابّاً يقال له : صعصعة بن صوحان ، فطلب عثمان رضي الله عنه أن يبيِّن له ما نقموه عليه[2] .

٣ـ إقامة عثمان الحجَّة على زيف استدلال صعصعة :

قال صعصعة : أُخرجنا من ديارنا بغير حقٍّ إلا أن قلنا : ربُّنا الله . فقال له عثمان رضي الله عنه : اتل ؛ أي : استدلَّ بالقرآن ، فقرأ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٣٩] . فقال عثمان : ليست لك ، ولا لأصحابك ، ولكنَّها لي ولأصحابي ، فقرأ عثمان الآية الَّتي استدل بها صعصعة ، وما بعدها ممَّا يفسرها ، ويبين زيف استدلال صعصعة بها فتلا : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٣٩ـ ٤١] .

فأفهم عثمان رضي الله عنه النَّاس الآيات فهماً صحيحاً ، كما نزلت ؛ مبيِّناً سبب نزولها ، وفيمن نزلت ، وعلى ما تدلُّ ؛ لئلا يلبِّس عليهم مَنْ قرأ القرآن ، وهو لا يعرف معناه ، ويستدلُّ به على ما يضادُّ مراده[3] ، كما أنَّ نفي عثمان لمن نفاه إنَّما هو عملٌ بالآية الَّتي تلي الآية التي

---

(١) المسند (١/ ٦٣) وقال أحمد شاكر (٤٥٢) : إسناده صحيحٌ .

(٢) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ١٥٠) .

(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ١٥١) .

استدلَّ بها صعصعة ، فإنَّها تأمر من مكَّنه الله في الأرض ، أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وعثمان خليفة ، ونفيهم أمرٌ بالمعروف ، ونهيٌ عن المنكر لما قاموا به من تعدٍّ على بعض المسلمين ، ومن محاولاتٍ لإثارة الفتنة[١] .

٤ـ تذكير عثمان رضي الله عنه النَّاس بفضائله :

وبعد أن ردَّ عثمان رضي الله عنه على هؤلاء ، ذكَّر النَّاس بمكانته ، وببعض فضائله مناشداً من يعلمها ، أو سمعها من رسول الله ﷺ ليبيِّنها للنَّاس ، فقد قال : أنشد الله مَنْ شهد رسول الله ﷺ يوم حراء ؛ إذ اهتزَّ الجبل ، فركله بقدمه ، ثمَّ قال : « **اسكن حراء ليس عليك إلا نبيٌّ ، أو صدِّيقٌ ، أو شهيدٌ** » وأنا معه[٢] ، فانتشد له رجالٌ . ثمَّ قال : أنشد الله مَن شَهد رسول الله يوم بيعة الرِّضوان ؛ إذ بعثني إلى المشركين إلى أهل مكَّة فقال : هذه يدي ، وهذه يد عثمان ، فبايع لي ، فانتشد له رجالٌ . ثمَّ قال : أنشد الله مَنْ شهد رسول الله ﷺ قال : « **من يوسِّع لنا لهذا البيت في المسجد ببيتٍ له في الجنَّة** » فابتعته من مالي ، فوسَّعت به المسجد . فانتشد له رجالٌ . ثمَّ قال : أنشد الله مَنْ شهد رسول الله ﷺ يوم جيش العسرة ، قال : « **من ينفق اليوم نفقةً متقبلة ؟** » فجهزت نصف الجيش من مالي . فانتشد له رجالٌ . ثمَّ قال : أنشد الله مَنْ شهد رومةَ يباع ماؤها ابن السبيل ، فابتعتها من مالي ، فأبحتها ابن السَّبيل ، قال : فانتشد له رجالٌ[٣] .

وعن أبي ثورٍ الفهمي يقول : قدِمت على عثمان ، فبينا أنا عنده ، فخرجت فإذا بوفد أهل مصر قد رجعوا ، فدخلت على عثمان ، فأعلمته ، قال : فكيف رأيتهم ؟ فقلت : رأيتُ في وجوههم الشَّرَّ ، وعليهم ابن عُديس البلويُّ ، فصعد ابن عُديس منبر رسول الله ﷺ فصلَّى بهم الجمعة ، وتنقَّص عثمان في خطبته ، فدخلت على عثمان ، فأخبرته بما قال فيهم ، فقال : كذب والله ابن عديس ! ولولا ما ذكر ما ذكرت ، إنِّي رابع أربعةٍ في الإسلام ، ولقد أنكحني رسول الله ﷺ ابنته ، ثمَّ تُوفِّيت ، فأنكحني ابنته الأخرى ، ولا زنيت ، ولا سرقت في جاهلية ، ولا إسلام ، ولا تغنَّيت ، ولا تمنَّيت الكفر منذ أسلمت ، ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت بها رسول الله ، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله ، ولا أتت عليَّ جمعة إلا وأنا

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (١/ ١٥٢) .

(٢) روى مسلم نحوه ، كتاب فضائل الصَّحابة ، حديث (٢٤١٧) ، ولفظه : أنَّه ﷺ كان على جبل حراء بمكَّة هو ، وأبو بكرٍ ، وعمر ، وعثمان ، وعليٌّ ، وطلحة ، والزُّبير ـ وفي روايةٍ : وسعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنهم ، فتحرَّكَ فقال ﷺ : « اسكن حراء ! فما عليك إلا نبيٌّ ، أو صديقٌ ، أو شهيدٌ » . وهو من معجزاته ﷺ .

(٣) المسند (١/ ٥٩) وقال أحمد شاكر (٤٢٠) : إسناده صحيحٌ .

أعتق فيها رقبةً منذ أسلمت ، إلا أن لا أجدها في تلك الجمعة ، فأجمعها في الجمعة الثَّانية[١] .

ولمَّا رأى عثمان رضي الله عنه إصرار المتمرِّدين على قتله ، حذَّرهم من ذلك ، ومن مغبَّته ، فاطَّلع عليهم من كُوَّةٍ[٢] ، وقال لهم : أيُّها النَّاس ، لا تقتلوني ، واستعتبوني ، فوالله لئن قتلتموني لا تقاتلوا جميعاً أبداً ! ولا تجاهدوا عدوّاً أبداً ، لتختلفنَّ حتَّى تصيروا هكذا . وشبَّك بين أصابعه[٣] .

وفي روايةٍ : أنَّه قال : أيها النَّاس لا تقتلوني ، فإنِّي والٍ وأخٌ مسلمٌ ، فوالله إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت ، أصبت ، أو أخطأت ، وإنَّكم إن تقتلوني لا تصلُّوا جميعاً أبداً ، ولا تغزوا جميعاً أبداً ، ولا يقسم فيئكم بينكم[٤] .

وقال أيضاً : فوالله لئن قتلوني لا يحابُّون بعدي أبداً ، ولا يقاتلون بعدي عدوّاً أبداً[٥] . وقد تحقَّق ما حذرهم منه ، فبعد قتله وقع كلُّ ما قاله رضي الله عنه ، وفي ذلك يقول الحسن البصريُّ : فوالله إنْ صلَّى القوم جميعاً إنَّ قلوبهم لمختلفةٌ[٦] .

رابعاً : دفاع الصَّحابة عن عثمان رضي الله عنه ورفضه لذلك :

أرسل عثمان رضي الله عنه إلى الصَّحابة رضي الله عنهم يشاورهم في أمر المحاصرين ، وتوعُّدهم إيَّاه بالقتل ، فكانت مواقفهم كالآتي :

١ـ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

فقد أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : أنَّ عليّاً أرسل إلى عثمان فقال : إنَّ معي خمسمئة دارع ، فائْذَنْ لي ، فأمنعك من القوم ، فإنَّك لم تحدث شيئاً يُستحلُّ به دمك ، فقال : جزيت خيراً ، ما أحبُّ أن يهراق دمٌ في سببي[٧] .

٢ـ الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه :

عن أبي حبيبة[٨] ، قال : بعثني الزُّبير إلى عثمان ـ وهو محاصرٌ ـ فدخلت عليه في يوم

---

(١) المعرفة والتَّاريخ (٢/ ٤٨٨) . وخلافة عثمان بن عفان ، للسُّلمي ، ص(٩١) .
(٢) الكوَّة : الخرق في الحائط يدخل منه الهواء ، والضوء (ج) كُوىً .
(٣) الطبقات (٣/ ٧١) . وتاريخ ابن خياط ، ص(١٧١) إسناده صحيحٌ .
(٤) الطَّبقات (٣/ ٦٧ ـ ٦٨) . وفتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٥٦) .
(٥) تاريخ ابن خيَّاط ، ص(١٧١) . وفتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ١٥٧) إسناده حسنٌ .
(٦) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ١٥٧) .
(٧) تاريخ دمشق ، ص(٤٠٣) .
(٨) هو أبو حبيبة مولى الزُّبير بن العوَّام ، روى عن الزُّبير ، وسمع أبا هريرة وعثمان محصورٌ .

صائفٍ ، وهو على كرسيٍّ ، وعنده الحسن بن عليٍّ ، وأبو هريرة ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزُّبير ، فقلت : بعثني إليك الزُّبير بن العوَّام ، وهو يقرئك السَّلام ، ويقول لك : إنِّي على طاعتي ، لم أبدِّل ، ولم أنكث ، فإن شئت ؛ دخلت الدَّار معك ، وكنت رجلاً من القوم ، وإن شئت ؛ أقمت ، فإنَّ بني عمرو بن عوف وعدوني أن يصبحوا على بابي ، ثمَّ يمضون على ما آمرهم به ، فلمَّا سمع ـ يعني : عثمان ـ الرِّسالة ، قال : الله أكبر ، الحمد لله الّذي عصم أخي ! أقرئه السَّلام ، ثم قل له : أحبُّ إليَّ ، وعسى الله أن يدفع بك عنِّي ، فلمَّا قرأ الرِّسالة أبو هريرة ؛ قام ، فقال : ألا أخبركم ما سمعت أذناي من رسول الله ﷺ ؟ قالوا : بلى ! قال : أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « **تكون بعدي فتنٌ ، وأمور** » فقلنا : فأين المنجى منها يا رسول الله؟! قال: «**إلى الأمين ، وحزبه**» وأشار إلى عثمان بن عفَّان، فقام النَّاس ، فقالوا : قد أمكنتنا البصائر ، فائْذنْ لنا في الجهاد ؟ فقال : أعزم على من كانت لي عليه طاعةٌ ألا يقاتل[1] .

٣ـ المغيرة بن شعبة رضي الله عنه :

فقد ورد : أنَّ المغيرة بن شعبة رضي الله عنه دخل عليه ـ وهو محاصرٌ ـ فقال : إنَّك إمام العامَّة ، وقد نزل بك ما ترى وإنِّي أعرض عليك خصالاً ثلاثاً ، اختر إحداهنَّ : إما أن تخرج ، فتقاتلهم ، فإنَّ معك عدداً ، وقوَّةً ، وأنت على الحقِّ وهم على الباطل ، وإمَّا أن تخرق باباً سوى الباب الّذي هم عليه ، فتقعد على رواحلك فتلحق بمكَّة ، فإنَّهم لن يستحلُّوك بها ، وإمَّا أن تلحق بالشَّام فإنَّهم أهل الشَّام ، وفيهم معاوية ، فقال عثمان : أما أن أخرج ، فأقاتل ؛ فلن أكون أوَّل من خلف رسول الله في أمته بسفك الدِّماء ، وأمَّا أن أخرج إلى مكَّة فإنَّهم لن يستحلُّوني ، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يلحد رجلٌ من قريش بمكَّة يكون عليه نصف عذاب العالم** » . ولن أكون أنا ، وأمَّا أن ألحق بالشَّام فإنَّهم أهل الشَّام ، وفيهم معاوية ، فلن أفارق دار هجرتي ، ومجاورة الرَّسول ﷺ[2] .

٤ـ عبد الله بن الزُّبير ، رضي الله عنه :

عزم الصَّحابة رضي الله عنهم على الدِّفاع عن عثمان رضي الله عنه ، ودخل بعضهم الدَّار ، ولكن عثمان رضي الله عنه عزم عليهم بشدَّةٍ ، وشدَّد عليهم في الكفِّ عن القتال دفاعاً عنه ممَّا حال بين رغبتهم الصَّادقة في الدِّفاع عنه وبين تحقيقها ، وكان من ضمن أولئك عبد الله بن الزُّبير

---

(١) فضائل الصَّحابة (١/ ٥١١ ـ ٥١٢) إسناده صحيحٌ .

(٢) البداية والنِّهاية (٧/ ٢١١) .

رضي الله عنهما ، فقد قال لعثمان رضي الله عنه : قاتلهم ، فوالله لقد أحلَّ الله لك قتالهم ! فقال عثمان : لا والله لا أقاتلهم أبداً[١] !

وفي رواية : يا أمير المؤمنين ! إنَّا معك في الدَّار عصابةٌ مستبصرةٌ ، ينصر الله بأقلَّ منه ، فائذَنْ لنا ! فقال عثمان رضي الله عنه : أنشد الله رجلاً أهراق فيَّ دمه[٢] ! ثم أمَّره على الدَّار ، وقال : من كانت لي عليه طاعةٌ فليطع عبد الله بن الزُّبير[٣] .

٥ـ كعب بن مالك ، وزيد بن ثابت الأنصاريَّان رضي الله عنهما :

حثَّ كعب بن مالك رضي الله عنه الأنصار على نصرة عثمان رضي الله عنه، وقال لهم : يا معشر الأنصار ! كونوا أنصار الله مرَّتين ، فجاءت الأنصار عثمان ، ووقفوا ببابه ودخل زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وقال له : هؤلاء الأنصار بالباب ، إن شئت كنَّا أنصار الله مرَّتين[٤] . فرفض القتال ، وقال : لا حاجة لي في ذلك ، كفُّوا[٥] !

٦ـ الحسن بن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنهما :

وجاء الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما وقال له : أخترط سيفي ؟ قال له : لا ! أبرأ[٦] الله إذاً من دمك ، ولكن ثم[٧] سيفك ، وارجع إلى أبيك[٨] .

٧ ـ عبد الله بن عمر بن الخطَّاب ، رضي الله عنهما :

ولما رأى الصَّحابة أنَّ الأمر استفحل ، وأنَّ السيل بلغ الزُّبى[٩] ؛ عزم بعضهم على الدِّفاع عنه دون استشارته ، فدخل بعضهم الدَّار مستعدّاً للقتال ، فقد كان ابن عمر معه في الدَّار ، متقلِّداً سيفه ، لابساً درعه ليقاتل دفاعاً عن عثمان ، رضي الله عنه ، ولكنَّ عثمان عزم عليه أن

---

(١) الطَّبقات ، ابن سعد (٣/ ٧٠) إسناده صحيح .
(٢) المصدر السَّابق نفسه (٣/ ٧٠) . وتاريخ ابن خياط ، ص(١٧٣) .
(٣) الطبقات ، ابن سعد (٣/ ٧٠) إسناده صحيح إلى عبد الله بن الزُّبير .
(٤) الطَّبقات ، ابن سعد (٣/ ٧٠) . وفتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٦٢) .
(٥) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١٦٢/ ١) .
(٦) هكذا في الأصل ولعلَّها (أبرأ إلى الله) .
(٧) هكذا في الأصل والثَّمُّ هو : إصلاح الشَّيء ، وإحكامه ، لسان العرب (١٢/ ٧٩) ويحتمل أن تكون مصحَّفةً من شِمْ ، والشَّيم هو : إعادة السَّيف .
(٨) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٦٢) . والمصنَّف لابن أبي شيبة (١٥/ ٢٢٤) .
(٩) بلغ الماء الزُّبى ، أو الرُّبى ، ويروى بلغ السيل الزُّبى ، أو الرُّبى والزُّبى : جمع زبية الأسد ، وهي حفرةٌ تحفر له في مكان مرتفع ليصطاد ، فإذا بلغ الماء فهو المجحف ، الرُّبا : جمع ربوة وهذا المثل يضرب في الشرِّ الفظيع ، المستقصى في أمثال العرب للزَّمخشري (٢/ ١٤) .

يخرج من الدَّار خشية أن يتقاتل مع القوم عند دخولهم عليه ، فيقتل . كما لبسه مرَّةً أخرى[١] .

٨ ـ أبو هريرة رضي الله عنه :

ودخل الدَّار على عثمان رضي الله عنه يقول : يا أمير المؤمنين ! طاب امضرب[٢] ، فقال له : يا أبا هريرة أَيَسُرُّك أن تقتل النَّاس جميعاً وإيَّاي ؟ قال : لا ! قال : فإنَّك والله إن قتلت رجلاً واحداً فكأنَّما قُتل الناس جميعاً ! فرجع ، ولم يقاتل ، وفي روايةٍ : أنَّ أبا هريرة كان متقلِّداً سيفه ؛ حتَّى نهاه عثمان[٣] .

٩ ـ سليط بن سليط :

قال : نهانا عثمان رضي الله عنه عن قتالهم ، ولو أذن لنا ؛ لضربناهم حتَّى نخرجهم من أقطارها[٤] .

ويقول ابن سيرين : كان مع عثمان رضي الله عنه في الدار سبعمئةٍ لو يدعهم ؛ لضربوهم ـ إن شاء الله ـ حتَّى يخرجوهم من أقطارها ، منهم : ابن عمر ، والحسن ابن عليٍّ ، وعبد الله بن الزُّبير ، ويقول أيضاً : لقد قتل عثمان ـ يوم قتل ـ وإنَّ الدَّار لغاصَّةٌ ، منهم : ابن عمر ، وفيهم الحسن بن عليٍّ في عنقه السَّيف ، ولكنَّ عثمان عزم عليهم ألا يقاتلوا[٥] .

وبذلك يظهر زيف ما اتُّهم به الصَّحابة مهاجرين ، وأنصاراً من تخاذلٍ عن نصرة عثمان رضي الله عنه ، وكلُّ ما روي في ذلك ، فإنَّه لا يسلم من علَّة إن لم تكن عللاً قادحةً في الإسناد ، والمتن جميعاً[٦] .

١٠ ـ عرض بعض الصَّحابة على عثمان مساعدته في الخروج إلى مكَّة :

ولمَّا رأى بعض الصَّحابة إصرار عثمان رضي الله عنه على رفض قتال المحاصرين ، وأنَّ المحاصرين مصرُّون على قتله ، لم يجدوا حيلةً لحمايته سوى أن يعرضوا عليه مساعدته في الخروج إلى مكَّة هرباً من المحاصرين ، فقد روي : أن عبد الله بن الزُّبير ، والمغيرة بن شعبة ، وأسامة بن زيد ، عرضوا عليه ذلك ، وكان عرضهم متفرِّقاً ، فقد عرض كلُّ واحدٍ منهم عليه

---

(١) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٦٣) .

(٢) الميم بدل اللاَّم ، فأصلها (الضَّرب) ؛ وهي لغةٌ لبعض أهل اليمن .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ، ص(١٦٤) .

(٤) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٦٥) .

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر ، ترجمة عثمان ، ص(٣٩٥) .

(٦) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٦٦) .

ذلك على حدةٍ ، وعثمان رضي الله عنه يرفض كلَّ هذه العروض[١] .

● **الأسباب الّتي دعت عثمان إلى منع الصحابة من القتال :**

يظهر للباحثين من خلال روايات الفتنة : أنَّ هناك أسباباً خمسةً ، هي :

١ـ العمل بوصيَّة رسول الله ﷺ الّتي سارَّه بها ، وبيَّنها عثمان رضي الله عنه يوم الدَّار ، وأنَّها عَهْدٌ به إليه ، وأنَّه صابر نفسه عليه[٢] .

٢ـ ما جاء في قوله : لن أكون أوَّل من خلف رسول الله ﷺ في أمَّته بسفك الدِّماء ، أي : كره أن يكون أوَّل من خلف رسول الله ﷺ في أمَّته بسفك دماء المسلمين[٣] .

٣ـ علمه بأنَّ البغاة لا يريدون غيره ، فكره أن يتوقَّى بالمؤمنين ، وأحبَّ أن يقيهم بنفسه[٤] .

٤ـ علمه بأنَّ هذه الفتنة فيها قتله ، وذلك فيما أخبره بها رسول الله ﷺ عند تبشيره إيَّاه بالجنَّة على بلوى تصيبه ، وأنَّه سيقتل مصطبراً بالحقِّ ، معطيه في فتنةٍ ، والدَّلالات تدلُّ على أنَّ أوانها قد حان ، وأكَّد ذلك تلك الرُّؤيا الّتي رآها ليلة قتله ، فقد رأى رسول الله ﷺ ، وقال له : أفطر عندنا القابلة ، ففهم رضي الله عنه : أنَّ موعد الاستشهاد قد قرب .

٥ـ العمل بمشورة ابن سلام رضي الله عنه له ؛ إذ قال له : الكفَّ ، الكفَّ ، فإنَّه أبلغ لك في الحجَّة[٥] .

وتحقَّق إخبار النَّبيِّ ﷺ بأنَّ عثمان رضي الله عنه سوف يقتل ، وذلك فيما رواه عبد الله بن حوالة رضي الله عنه[٦] ، عن النَّبيِّ ﷺ قال : « **من نجا من ثلاثٍ ؛ فقد نجا ـ ثلاث مرَّاتٍ ـ : موتي ، والدَّجال ، وقتل خليفة مصطبرٍ بالحقِّ ، معطيه** »[٧] .

وممَّا تقدَّم يتبيَّن هدوءه في التَّفكير رضي الله عنه وأنَّ شدَّة البلوى لم تحل بينه وبين ذلك التَّفكير الصَّحيح ، والرَّأي السليم ، فقد تضافرت الأسباب لتحديد هذا الموقف المسالم في قتال الخارجين عليه ، ولا شكَّ : أنَّه رضي الله عنه كان على الحقِّ في مواقفه الّتي اتَّخذها ؛ لما

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) فضائل الصَّحابة (١/ ٦٠٥) إسناده صحيح .

(٣) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٦٧) . و(المسند ١/ ٣٩٦) أحمد شاكر .

(٤) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٦٧) وإسناد الرِّواية فيه ضعفٌ .

(٥) الطَّبقات (٣/ ٧١) إسناده حسنٌ .

(٦) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٦٨) ، إسناده حسنٌ ، أو صحيح .

(٧) المسند (٤/ ٤١٩) (٥/ ٣٤٦) ، تحقيق : أحمد شاكر .

صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ : أنَّه أشار إلى وقوع هذه الفتنة ، وشهد لعثمان ، وأصحابه أنَّهم على الحقِّ فيها[١] .

قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ : ومن المعلوم بالتَّواتر : أنَّ عثمان كان من أكفِّ النَّاس عن الدِّماء ، وأصبر النَّاس عن من نال من عرضه ، وعلى من سعى في دمه ، فحاصروه ، وسعوا في قتله ، وقد عرف إرادتهم لقتله ، وقد جاء المسلمون ينصرونه ، ويشيرون عليه بقتالهم ، وهو يأمر النَّاس بالكفِّ عن القتال ، ويأمر مَنْ يطيعه ألا يقاتلهم . . . وقيل له : تذهب إلى مكَّة ؟ فقال : لا أكون ممن ألحد في الحرم ، فقيل له : تذهب إلى الشَّام ؟ فقال : لا أفارق دار هجرتي ، فقيل له : فقاتلهم ! فقال : لا أكون أوَّل من خلف محمَّداً في أمَّته بالسَّيف ، فكان صبر عثمان حتَّى قتل من أعظم فضائله عند المسلمين[٢] .

خامساً : موقف أمَّهات المؤمنين ، وبعض الصَّحابيات :

١ـ أمُّ حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما :

كان موقف السَّيدة أمِّ المؤمنين ، أمِّ حبيبة من المواقف البالغة الخطر في هذه الأحداث ، وهو موقفٌ كان من الخطورة بحيث كادت رضي الله عنها أن تقتل فيه ، ذلك أنَّه لما حوصر عثمان رضي الله عنه ومنع عنه الماء ، سرَّح عثمان ابناً لعمرو بن حزم الأنصاريِّ ـ من جيران عثمان ـ إلى عليٍّ بأنَّهم قد منعونا الماء فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئاً من الماء ؛ فافعلوا . وإلى طلحة وإلى الزُّبير ، وإلى عائشة ، وأزواج النَّبيِّ ﷺ ، فكان أوَّلهم إنجاداً له عليٌّ ، وأمُّ حبيبة[٣] ، وكانت أمُّ حبيبة معنيَّة بعثمان ، كما قال ابن عساكر ، وكان هذا طبيعيّاً منها ، حيث النَّسب الأمويُّ الواحد ، جاءت أمُّ حبيبة ، فضربوا وجه بغلتها ، فقالت : إنَّ وصايا بني أميَّة إلى هذا الرَّجل ، فأحببت أن ألقاه ، فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام ، وأرامل . قالوا : كاذبةٌ ، وأهووا لها ، وقطعوا حبل البغلة بالسَّيف ، فندَّت[٤] بأمِّ حبيبةَ ، فتلقَّاها النَّاس وقد مالت راحلتها ، فتعلَّقوا بها ، وأخذوها وقد كادت تقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها[٥] ، ويبدو : أنَّها رضي الله عنها أمرت ابن الجرَّاح ، مولاها أن يلزم عثمان رضي الله عنه ، فقد حدثت أحداث الدَّار ، وكان ابن الجرَّاح حاضراً[٦] .

---

(١) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٦٨) . انظر الأحاديث الصَّحيحة الَّتي ذكرتها في فضائله ، وإخبار النَّبي ﷺ عن قتله في هذا الكتاب .

(٢) منهاج السُّنَّة (٣/ ٢٠٢ـ٢٠٣) .

(٣) دور المرأة السِّياسي ، أسماء محمد ، ص(٣٤٠) .

(٤) ندَّ البعير ، ونحوه ندّاً ، وندوداً : نفر ، وشرد .

(٥) تاريخ الطَّبري نقلاً عن دور المرأة السِّياسي ، ص(٣٤٠) .

(٦) تاريخ المدينة (٢/ ٢٩٨) .

٢ـ صفية زوجة رسول الله ﷺ :

وما فعلته السَّيدة أمُّ حبيبة فعلت مثله السَّيدة صفيَّة رضي الله عنها ، فلقد روي عن كنانة[١] ، قال : كنت أقود بصفيَّة لتردَّ عن عثمان ، فلقيها الأشتر[٢] ، فضرب وجه بغلتها حتَّى مالت ، فقالت : ذروني ، لا يفضحني هذا ! ثمَّ وضعت خشباً من منزلها إلى منزل عثمان ، تنقل عليه الطَّعام ، والماء[٣] .

٣ـ عائشة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها :

ولمَّا حدث ما حدث للسَّيدة أمِّ حبيبة أعظمه النَّاس جدّاً ، فخرجت عائشة رضي الله عنها من المدينة وهي ممتلئةٌ غيظاً على المتمرِّدين ، وجاءها مروان بن الحكم ، فقال : يا أمَّ المؤمنين ! لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرَّجل . فقالت : أتريد أن يُصنع بي كما صُنع بأمِّ حبيبة ، ثمَّ لا أجد من يمنعني ! لا والله ! لا أُعيَّر[٤] ، ولا أدري إلام يسلم أمر هؤلاء[٥] ، ورأت رضي الله عنها : أنَّ خروجها ربما كان معيناً في فضِّ هذه الجموع كما سيتضح من الرِّواية الآتية بعد ، وتجهَّزت أمَّهات المؤمنين إلى الحجِّ هرباً من الفتنة ، على أنَّ خروجهنَّ لم يكن تنزُّهاً عن ملابسات الفتنة ، وحسب ، ولم يكن هرباً محضاً ، وإنَّما كان محاولةً منهنَّ لتخليص عثمان رضي الله عنه من أيدي هؤلاء المفتونين ، الَّذين كان منهم محمَّد بن أبي بكر ، أخو السَّيدة عائشة ؛ رضي الله عنهما الَّذي حاولت أن تَسْتَتْبعه معها إلى الحجِّ ، فأبى . ولقد دلَّل على هذه المحاولة منها أن استتباعها له ، ورفضه كانا لافتين للنَّظر ، حتَّى إنَّ حنظلة الكاتب[٦] ، قد هاله رفض محمَّد لأن يتبع أمَّ المؤمنين ، وقارن بين هذا الرَّفض وبين متابعته لأهل الأمصار ، قائلاً : يا محمد ! تدعوك أمُّ المؤمنين ، فلا تتبعها ، وتدعوك ذؤبان[٧] العرب إلى ما لا يحلُّ فتتبعهم ! فأبى ، فقالت السَّيِّدة عائشة : أما والله لو استطعت أن يحرمهم الله ما يجولون ؛ لأفعلنَّ[٨] !

---

(١) كنانة بن عدي بن ربيعة بن عبد العزَّى بن عبد شمس بن عبد منافٍ العبشمي .

(٢) دور المرأة السياسي ، ص(٣٤٠) .

(٣) سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٢٣٧) .

(٤) أعيَّر : من العار . ولقد يبدي هذا التَّعبير : أنَّ الحالة الَّتي وضع فيها الغوغاء السَّيدة أمَّ حبيبة كانت شديدة الإيلام .

(٥) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٠١) .

(٦) حنظلة بن ربيع التَّميمي ، كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فسمِّي الكاتب .

(٧) ذؤبان : لصوص وصعاليك .

(٨) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٠١) .

وهذا القول منها بعد ما حاولته مع أخيها دليل على أنّها قد بدأت محاولتها لفض الثّائرين عن عثمان ، ولإثارة الرّأي العامِّ عليهم منذ بدأ تفكيرها في الذّهاب إلى مكّة ، وهذا هو ما أكّد عليه الإمام ابن العربيِّ ، قال : إنّه يروى أن تغيبهم ـ تغيُّب أمّهات المؤمنين مع عددٍ من الصّحابة ـ كان قطعاً للشّغب بين النّاس ، وجاء أن يرجع النّاس إلى أمّهاتهم ، وأمهات المؤمنين ، فيرعوا حرمة نبيِّهم[١] ، ويستمعوا إلى كلمتهنَّ ، الّتي طالما كانوا يقصدونها من كلِّ الآفاق[٢] .

أي : أنَّ خروجهم كان نوعاً من التّفريق لهذه الجموع ، حيث كان معروفاً عند النّاس التماس رأيهنَّ ، وفتاواهنَّ ، وكنَّ ـ رضوان الله عليهن ـ لا يتصوَّرن أن يصل الأمر بهؤلاء النّاس إلى قتل الخليفة رضي الله عنه[٣] .

٤ـ مواقف للصّحابيّات :

أ ـ وقد حاولت أسماء بنت عُميس نفس المحاولة الّتي حاولتها أمُّ المؤمنين عائشة ، فبعثت إلى ابنيها ، محمَّد بن أبي بكر ، ومحمَّد بن جعفر[٤] ، فقالت : إنَّ المصباح يأكل نفسه ، ويضيء للنّاس ، فلا تأثما في أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيكما ، فإنَّ هذا الأمر الّذي تحاولون اليوم لغيركم غداً ، فاتّقوا أن يكون عملكم اليوم حسرةً عليكم ، فلجّا ، وخرجا مُغضَبين ، يقولان : لا ننسى ما صنع بنا عثمان ، وتقول : ما صنع بكما ! إلا ألزمكما الله[٥] ؟ ! وقيل : الحديث كان بين ليلى بنت أسماء ، وأخويها[٦] .

وهي في ذلك تشير إلى أنّه لما جاء أهل الأمصار وكرُّوا راجعين إلى المدينة ، بعدما كانوا ناظروا عثمان رضي الله عنه فناظرهم ، وأقام عليهم الحجّة ، فأظهروا : أنّهم راجعون إلى بلادهم ، ثمَّ ما لبثوا أن عادوا بدعوى : أنَّ عثمان رضي الله عنه بعث رسلاً في قتل أناسٍ كان منهم حسب دعواهم : محمَّد بن أبي بكر[٧] ، ولعلَّ هذا هو ما يشير إليه محمَّد بن أبي بكر في قوله : لا ننسى ما صنع بنا عثمان . وقد نفى عثمان رضي الله عنه نسبة هذا الكتاب إليه ، وقال :

---

(١) العواصم من القواصم ، ص(١٥٦) .

(٢) دور المرأة السياسي ، ص(٣٤٢) .

(٣) المصدر السّابق نفسه ، ص(٣٤٣) .

(٤) محمَّد بن جعفر بن أبي طالب ، أمُّه أسماء بنت عميس الخثعمية ، ولد بأرض الحبشة ، شهد صفين مع عليٍّ ، وكان مع أخيه محمَّد بمصر لما قتل .

(٥) تاريخ الطّبري (٥/ ٢٠٢) .

(٦) تاريخ الطّبري (٥/ ٢٠٢) .

(٧) دور المرأة السياسي ، ص(٣٤٣) .

إما أن تقيموا شاهدين عليَّ بذلك ، وإلا فيميني : أنِّي ما كتبتُ ، ولا أمرتُ ، وقد يكتب على لسان الرَّجل ، ويُضرب على خطِّه ، ويُنقش على خاتمه[١] .

لقد كانت السيدة أسماء رضي الله عنها واعية بما يجري من تدبير خفي لزعزعة أحوال المسلمين ، وتنحية عثمان رضي الله عنه عن الخلافة ، وهكذا فإن موقفها رضي الله عنها، من ابنيها، ووضوح الأمر عندها على هذا النحو الّذي جعلها لا تتأثر في مقام الأمومة ، ولا تبدو إلا مُحِقة للحق في هذا الموقف الواضح ، هذا الموقف لا يستهان به ولا شك، وهو يعد صورة جلية لعدالة هؤلاء الصحابة الكرام[٢] .

ب ـ الصعبة بنت الحضرمي :

ولمَّا اشتدَّ حصار عثمان رضي الله عنه طلبت الصَّعبة بنتُ الحضرميِّ من ابنها طلحة بن عبيد الله أن يكلِّم عثمان ؛ كي يردعه عن إصراره على إسلامه نفسه دون مدافعةٍ من الصَّحابة ، واستنصارٍ بأهل الأمصار ، فقد خرجت الصَّعبة بنت الحضرميِّ ، وقالت لابنها طلحة بن عبيد الله : إنَّ عثمان اشتدَّ حصره ، فلو كلَّمته ؛ حتَّى تردعه[٣] . والرِّواية يبدو منها إشفاق الصَّعبة على عثمان رضي الله عنه ، كما يبدو منها كذلك عناية أمِّ عبد الله بن رافع بالأمر ، ومتابعتها لما يجري من أحداث الفتنة[٤] ، وهي الّتي روت عن الصَّعبة بنت الحضرميِّ الحادثة[٥] .

هذا هو الموقف العامُّ لنساء المسلمين ، فقد كان موقفاً معتدلاً ، وقادراً على النَّظر السليم في المسألة رغم الغيوم ؛ الّتي كانت ملتبسةً بها ، وهو على كلِّ حال كان هذا موقف الصَّحابة جميعاً رضي الله عنهم ، وأرضاهم[٦] .

سادساً : من حجَّ بالنَّاس ذلك العام ؟ وهل طلب عثمان من الولاة نُصرته ؟

١ـ من حجَّ بالناس ذلك العام (٣٥ هـ) ؟ :

استدعى عثمان عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهم ، وكلَّفه أن يحجَّ بالنَّاس هذا الموسم ، فقال له ابن عبَّاس : دعني أكن معك ؛ وبجانبك يا أمير المؤمنين ! في مواجهة هؤلاء ، فوالله إن جهاد هؤلاء الخوارج أحبُّ إليَّ من الحج ! قال له : عزمت عليك أن تحجَّ بالمسلمين ! فلم يجد

---

(١) العواصم من القواصم ، ص(١٢٠) .
(٢) دور المرأة السياسي ، ص(٣٤٤) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(٣٤٥) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .
(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٤٥ ، ٣٤٦) .

ابن عبَّاسٍ أمامه إلا أن يطيع أمير المؤمنين ، وكتب عثمان كتاباً مع ابن عبَّاس ، ليقرأ على المسلمين في الحجِّ ، بيَّن فيه قصَّته مع الخوارج عليه ، وموقفه منهم ، وطلباتهم منه[1] ، وهذا نصُّ خطاب عثمان رضي الله عنه للمسلمين في موسم الحج عام ٣٥ هـ :

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم . من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى المؤمنين والمسلمين ، سلامٌ عليكم ، فإنِّي أحمد الله إليكم الَّذي لا إله إلا هو ، أمَّا بعد : فإنِّي أذكِّركم بالله ـ جلَّ وعز ـ الَّذي أنعم عليكم ، وعلَّمكم الإسلام ، وهداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الكفر ، وأراكم البينات ، وأوسع عليكم من الرِّزق ، ونصركم على العدوِّ ، وأسبغ عليكم نعمته ، فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول ، وقوله الحق : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

وقال عزَّ وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٢ ـ ١٠٥] .

وقال ، وقوله الحقُّ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [المائدة : ٧] .

وقال ، وقوله الحقُّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٦ ـ ٨] .

وقوله ـ عزَّ ، وجلَّ ـ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٧٧] .

وقال ، وقوله الحقُّ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن : ١٦] .

وقال وقوله الحقُّ : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ

---

(١) الخلفاء الراشدون ، للخالدي ، ص(١٦٧ ، ١٦٨) .

أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٩١ ـ ٩٦] .

وقال ، وقوله الحقُّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء : ٥٩] .

وقال ، وقوله الحقُّ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور : ٥٥] .

وقال ، وقوله الحقُّ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح : ١٠] .

أمَّا بعد : فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ رضي لكم السَّمع ، والطَّاعة ، والجماعة ، وحذَّركم المعصية ، والفرقة ، والاختلاف ، ونبَّأكم ما قد فعله الَّذين من قبلكم ، وتقدَّم إليكم فيه ليكون له الحجَّة عليكم ؛ إن عصيتموه، فاقبلوا نصيحة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ واحذروا عذابه ، فإنَّكم لن تجدوا أمَّة هلكت إلا بعد أن تختلف ، إلا أن يكون لها رأسٌ يجمعها ، ومتى ما تفعلوا ذلك لا تقيموا الصَّلاة جميعاً ، وسُلِّط عليكم عدوُّكم ، ويستحلُّ بعضكم حرمة بعضٍ ، ومتى يفعل ذلك ؛ لا يقم لله سبحانه دينٌ ، وتكونوا شيعاً ، وقد قال الله ـ جلَّ وعزَّ ـ لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وإنِّي أوصيكم بما أوصاكم الله ، وأحذركم عذابه ، فإن شعيباً ـ عليه السلام ـ قال لقومه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود : ٨٩ ـ ٩٠] .

أمَّا بعد : إنَّ أقواماً ممَّن كان يقول في هذا الحديث ، أظهروا للنَّاس أنَّما يدعون إلى كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والحقِّ ، ولا يريدون الدُّنيا ، ولا منازعة فيها ، فلمَّا عُرض عليهم الحقُّ ، إذا النَّاس في ذلك شتَّى ، منهم آخذٌ للحقِّ ، ونازعٌ عنه حين يُعطاه ، ومنهم تاركٌ للحقِّ ، ونازلٌ عنه

في الأمر ، يريد أن يبتزَّه بغير الحقِّ ، طال عليهم عمري وراثَ عليهم[١] ، أملهم الإمرة ، فاستعجلوا القدر ، وقد كتبوا إليكم : أنَّهم قد رجعوا بالّذي أعطيتهم ، ولا أعلم أنِّي تركت من الّذي عاهدتهم عليه شيئاً ، كانوا زعموا أنَّهم يطلبون الحدود ، فقلت : أقيموها على مَنْ علمتم تعدَّاها في أحدٍ ، أقيموها على من ظلمكم من قريبٍ ، أو بعيد ، قالوا : كتاب الله يُتلى ، فقلت : فليتله من تلاه غير غالٍ فيه بغير ما أنزل الله في الكتاب .

وقالوا : المحروم يرزق ، والمال يوفَّى ؛ ليُستنَّ فيه السُّنَّة الحسنة ، ولا يُعتدى في الخمس ، ولا في الصَّدقة ، ويؤمَّر ذو القوَّة ، والأمانة ، وتردُّ مظالم الناس إلى أهلها ، فرضيت بذلك ، واصطبرت له ، كتبت إليكم وأصحابي الّذين زعموا في الأمر ، استعجلوا القدر ومنعوا منِّي الصلاة ، وحالوا بيني وبين المسجد ، وابتزُّوا ما قدروا عليه بالمدينة ، كتبت إليكم كتابي هذا ، وهم يخبرونني إحدى ثلاث : إمَّا يقيدونني بكلِّ رجل أصبته خطأً ، أو صواباً ، غير متروكٍ منه شيءٌ ، وإمَّا أعتزل الأمر ، فيؤمِّرون آخر غيري ، وإمَّا يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد ، وأهل المدينة فيتبرَّؤون من الّذي جعل الله سبحانه عليهم من السَّمع والطَّاعة . فقلت لهم : أمَّا إقادتي من نفسي ، فقد كان من قبلي خلفاء تخطئ ، وتصيب ، فلم يُستقد[٢] من أحدٍ منهم ، وقد علمت أنَّما يريدون نفسي ، وأمَّا أن أتبرأ من الإمارة ، فإن يكلِّبوني[٣] أحبُّ إليَّ من أن أتبرأ من عمل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وخلافته ، وأمَّا قولكم : يرسلون إلى الأجناد ، وأهل المدينة فيتبرَّؤون من طاعتي ، فلست عليكم بوكيل ، ولم أكن استكرهتهم من قبل على السَّمع والطَّاعة ، ولكن أتوها طائعين ، يبتغون مرضاة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإصلاح ذات البين ، ومن يكن منكم يبتغي الدُّنيا ؛ فليس بنائلٍ منها إلا ما كتب الله عزَّ وجلَّ له ، ومن يكن إنَّما يريد وجه الله ، والدَّار الآخرة ، وصلاح الأمَّة ، وابتغاء مرضاة الله عزَّ وجلَّ ، والسُّنَّة الحسنة الّتي استنَّ بها رسول الله ﷺ ، والخليفتان من بعده ، رضي الله عنهما ، فإنَّما يجزي بذلكم الله ، وليس بيدي جزاؤكم ، ولو أعطيتكم الدُّنيا كلَّها ؛ لم يكن في ذلك ثمنٌ لدينكم ، ولم يُغْن عنكم شيئاً ، فاتَّقوا الله ، واحتسبوا ما عنده ، فمن يرضى بالنَّكث منكم فإنِّي لا أرضاه له ، ولا يرضى الله سبحانه ، أن تنكثوا عهده ، وأمَّا الذي تخيرونني فإنَّما كلُّه النَّزع ، والتأمير ، فملكت نفسي ، ومن معي ، ونظرت حكم الله وتغيير النِّعمة من الله سبحانه ، وكرهت سنَّة السُّوء ، وشقاق الأمَّة ، وسفك الدِّماء ، فإنِّي أنشدكم بالله ، وبالإسلام ألا تأخذوا إلا الحقَّ ، وتعطوه منِّي ، وترك البغي على أهله ، وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عزَّ وجلَّ ، فإنِّي أنشدكم الله

---

(١) راث : أبطأ .

(٢) استقاد الحاكم : سأله أن يقيد القاتل بالقتل .

(٣) كلَّبه : ضربه بالكُلاب . والكُلاب : المهماز ، وهو حديدةٌ في عقب خفِّ الفارس يستحثُّ بها فرسه .

سبحانه الّذي جعل عليكم العهد ، والمؤازرة في أمر الله ، فإنَّ الله سبحانه قال ، وقوله الحقُّ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

فإنَّ هذه معذرةٌ إلى الله ، ولعلكم تذكَّرون . أمَّا بعد : فإني لا أُبرِّئُ نفسي ، ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

وإن عاقبت أقواماً ؛ فما أبتغي بذلك إلا الخير ، وإنِّي أتوب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من كل عملٍ عملته ، وأستغفره ، إنَّه لا يغفر الذُّنوب إلا هو ، إنَّ رحمة ربي وسعت كلَّ شيء ، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الضَّالون ، وإنَّه يقبل التَّوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . وأنا أسأل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يغفر لي ، ولكم ، وأن يؤلِّف قلوب هذه الأمَّة على الخير ، ويُكرِّه إليها الفسق . والسَّلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون ، والمسلمون ! قال ابن عبَّاس : فقرأت هذا الكتاب عليهم قبل التَّروية(١) بمكَّة بيوم .

٢ـ هل طلب عثمان رضي الله عنه من الولاة نصرته ؟ :

يزعم سيف بن عمر في روايته عند الطَّبري : أنَّ عثمان لمَّا حصر كتب إلى عماله على الأمصار يستمدُّهم ، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري على رأس جيشٍ ، وكذا فعل عبد الله بن سعد في مصر ، فأرسل معاوية بن حديج ، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو على رأس قوَّاته(٢) . وهذا الزَّعم لا يتَّفق مع منهج عثمان في مواجهة الفتنة من إيثار العافية ، والكفِّ ، ولا يتَّفق مع تيقُّنه بالقتل ، ولا يتَّفق مع ما لجأ إليه من صرف المدافعين عنه من كبار الصَّحابة ، وأبنائهم ، بل عبيدة ، ومواليه الّذين نهاهم أشدَّ النَّهي عن القتال ، بل جعل العتق نصيب من يكفُّ يده منهم ، ولا يقاتل كما سوف نرى .

ولكنَّ الّذي يمكن تصوُّره هو : أنَّه كما بادر جماعةٌ من الصحابة إلى الدِّفاع عن عثمان دون أن يطلب منهم ذلك ، ورغم محاولاته العديدة لصرفهم ، فإنَّه قد بادرت جماعاتٌ كثيفةٌ من أجناد المسلمين في الأمصار للدِّفاع عن الخليفة المظلوم من تلقاء أنفسهم ، وتوجيهٍ من أمرائهم ، ولا يصحُّ أن نظنَّ : أنَّ رجلاً مثل معاوية في قرابته من عثمان كان سيسعه ـ لو أراد ـ أن يتقاعس عن السَّير إليه ، أو تسيير الجنود إليه ، ولا يمكن أن نفترض أنَّ رجالاً مثل أنصار عثمان بمصر ـ وعلى رأسهم معاوية بن حديج ، ومسلمة بن مخلد ، وغيرهما من أبطال المسلمين ـ كانوا سينتظرون قابعين حتَّى يقتل الخليفة ، ثمَّ يتحركون للثَّأر له ، ويعرضون نحورهم للقتل في سبيله ، بل الّذي يمكن تصوُّره ، وافتراضه ، أنَّ جنوداً من الأمصار قد تحرَّكت بالفعل نحو

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٢٥ إلى ٤٣١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، (٥/ ٣٧٩ إلى ٣٨٠) .

المدينة لنجدة الخليفة دون أن يطلب منها نجدته[١] .

٣ـ آخر خطبةٍ خطبها عثمان رضي الله عنه :

كان آخر لقاء عام لعثمان مع المسلمين ، بعد أسابيع من الحصار ، حيث دعا النَّاس ، فاجتمعوا له جميعاً ، المحارب الطَّارئ من السَّبئيِّين ، والمسالم المقيم من أهل المدينة ، وكان في مقدِّمة القادمين : عليٌّ ، وطلحة ، والزُّبير ، فلمَّا جلسوا أمامه ؛ قال لهم : إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إنَّما أعطاكم الدُّنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكم الدُّنيا لتركنوا إليها ، وإنَّ الدُّنيا تفنى ، والآخرة تبقى ، فلا تبطرنَّكم الفانية ، ولا تشغلنَّكم عن الباقية ، وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدُّنيا منقطعةٌ ، وإنَّ المصير إلى الله ، واتَّقوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنَّ تقواه جُنَّةٌ ، ووقايةٌ من بأسه ، وانتقامه ، والزموا جماعتكم ، ولا تصيروا أحزاباً . قال تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

ثمَّ قال للمسلمين : يا أهل المدينة ! إنِّي أستودعكم الله ، وأسأله أن يُحسن عليكم الخلافة من بعدي . وإنِّي والله لا أدخل على أحدٍ بعد يومي هذا ، حتَّى يقضي الله فيَّ قضاءه ، ولأدعنَّ هؤلاء الخوارج وراء بابي ، ولا أُعطيهم شيئاً ، يتَّخذونه عليكم دخلاً في دينٍ ، أو دنيا ، حتَّى يكون الله هو الصَّانع في ذلك ما أحبَّ . وأمر أهل المدينة بالرُّجوع ، وأقسم عليهم ، فرجعوا إلا الحسن ، ومحمَّد بن طلحة ، وابن الزُّبير ، وأشباهاً لهم ، فجلسوا على باب عثمان عن أمر آبائهم ، وثاب إليهم ناسٌ كثير ، ولزم عثمان الدَّار[٢] ، حتَّى أتاه أجله .

سابعاً : استشهاد عثمان رضي الله عنه :

وفضلاً عن تحرُّك جيوش الأمصار منها لنجدة الخليفة ، فقد كانت أيَّام الحج تنقضي سريعاً ، وتوشك جماعاتٌ من هؤلاء أن تزحف إلى المدينة لنجدة الخليفة ، وبخاصَّةٍ مع وجود عبد الله بن عبَّاس ، وعائشة ، وغيرهما من المدافعين عن عثمان ، وقدمت الأخبار إلى المتمرِّدين بأنَّ أهل الموسم يريدون نصرة عثمان ، فلمَّا أتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار إليهم أعلقهم الشيطان ، وقالوا : لا يُخرجنا ممَّا وقعنا فيه إلا قتل هذا الرَّجل فيشتغل بذلك النَّاس عنَّا[٣] .

---

(١) الدَّولة الإسلاميَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٢٧٨ ، ٢٧٩) .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٩٩ ، ٤٠٠) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، (٥/ ٤٠٢) .

١ـ آخر أيَّام الحصار وفيه الرُّؤيا :

وفي آخر أيَّام الحصار ـ وهو اليوم الّذي قتل فيه ـ نام رضي الله عنه ، فأصبح يحدِّث النَّاس : ليقتلني القوم[(١)] ، ثمَّ قال : رأيت النَّبيّ ﷺ في المنام ، ومعه أبو بكر ، وعمر ، فقال النَّبيّ ﷺ : يا عثمان ! أفطر عندنا . فأصبح صائماً ، وقتل من يومه[(٢)] .

٢ـ صفة قتله :

هاجم المتمرِّدون الدَّار ، فتصدَّى لهم الحسن بن عليٍّ ، وعبد الله بن الزُّبير ، ومحمَّد بن طلحة ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، ومن كان من أبناء الصَّحابة أقام معهم ، فنشب القتال فناداهم عثمان : الله ! الله ! أنتم في حلٍّ من نصرتي ، فأبوا ، ودخل غلمانُ عثمان لينصروه ، فأمرهم ألا يفعلوا ، بل إنَّه أعلن : أنَّه مَنْ كف يده منهم ؛ فهو حرٌّ[(٣)] ، وقال عثمان في وضوحٍ ، وإصرارٍ ، وحسم ـ وهو الخليفة الّذي تجب طاعته : أعزم على كلِّ من رأى : أنَّ عليه سمعاً ، وطاعةً إلا كفَّ يده ، وسلاحه[(٤)] ، ولا تبرير لذلك إلا بأنَّ عثمان كان واثقاً من استشهاده بشهادة النَّبيّ ﷺ له بذلك ؛ ولذلك أراد ألا تراق بسببه الدِّماء ، وتقوم بسببه فتنةٌ بين المسلمين[(٥)] .

وكان المغيرة بن الأخنس بن شريق فيمن حجَّ ، ثمَّ تعجل في نفرٍ حجُّوا معه ، فأدرك عثمان قبل أن يقتل ، ودخل الدَّار يحمي عنه ، وقال : ما عذرنا عند الله إن تركناك ، ونحن نستطيع ألا ندعهم حتَّى نموت ؟ فأقدم المتمرِّدون على حرب الباب والسَّقيفة ، فثار أهل الدَّار وعثمان يصلِّي حتى منعوهم ، وقاتل المغيرة بن الأخنس ، والحسن بن عليٍّ ، ومحمد بن طلحة ، وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، وأبو هريرة ، فأبلوا أحسن البلاء ، وعثمان يرسل إليهم في الانصراف دون قتالٍ ، ثمَّ ينتقل إلى صلاته ، فاستفتح قوله تعالى : ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه : ١ـ٣] .

وكان سريع القراءة فما أزعجه ما سمع ، ومضى في قراءته ما يخطئ ، وما يتعتع ، حتَّى إذا أتى إلى نهايتها قبل أن يصلوا إليه ثمَّ عاد ، فجلس ، وقرأ : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

---

(١) الطَّبقات ، لابن سعد (٣/ ٧٥) . وفتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ١٧٢) .

(٢) الطَّبقات (٣/ ٧٥) الخبر حسنٌ لغيره . وفتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ١٧٥) .

(٣) الدَّولة الإسلاميَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٢٨٢) . والبداية والنِّهاية (٧/ ١٩٠) .

(٤) العواصم من القواصم ، ص(١٣٣) .

(٥) الدَّولة الإسلاميَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، ص(٢٨٣) .

وأصيب يومئذٍ أربعة من شبّان قريش ، وهم : الحسن بن عليٍّ ، وعبد الله بن الزُّبير ، ومحمَّد بن حاطب ، ومروان بن الحكم[١] ، وقتل المغيرة بن الأخنس ، ونيار بن عبد الله الأسلميُّ[٢] ، وزياد الفهريُّ ، واستطاع عثمان أن يقنع المدافعين عنه ، وألزمهم بالخروج من الدَّار ، وخُلِّي بينه وبين المحاصرين ، فلم يبق في الدَّار إلا عثمان ، وآله ، وليس بينه وبين المحاصرين مدافعٌ ، ولا حام من النَّاس ، وفتح رضي الله عنه باب الدَّار[٣] .

وبعد أن خرج مَنْ في الدَّار ممَّن كان يريد الدِّفاع عنه ، نشر رضي الله عنه المصحف بين يديه ، وأخذ يقرأ منه وكان إذ ذاك صائماً ، فإذا برجلٍ من المحاصرين ـ لم تسمّه الرِّوايات ـ يدخل عليه ، فلمَّا رآه عثمان رضي الله عنه قال له : بيني وبينك كتاب الله[٤] ، فخرج الرَّجل ، وتركه . وما إن ولَّى حتى دخل آخر ، وهو رجلٌ من بني سدوس ، يقال له : الموت الأسود ، فخنقه قبل أن يضربه بالسَّيف ، فقال : والله ما رأيت شيئاً ألين من خنقه ، لقد خنقته حتَّى رأيت نفسه مثل الجانِّ[٥] ، تردَّد في جسده ، ثم أهوى إليه بالسَّيف ، فاتَّقاه عثمان رضي الله عنه بيده فقطعها ، فقال عثمان : أما والله إنَّها لأول كفٍّ خطَّت المفصَّل[٦] ، وذلك أنَّه كان من كتبة الوحي ، وهو أوَّل من كتب المصحف من إملاء رسول الله ﷺ ، فقتل رضي الله عنه والمصحف بين يديه ، وعلى أثر قطع اليد انتضح الدَّم على المصحف الَّذي كان بين يديه يقرأ منه ، وسقط على قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٣٧][٧] .

وفي روايةٍ : إنَّ أوَّل من ضربه رجلٌ يسمَّى رومان اليمانيَّ ، ضربه بصولجان ، ولما دخلوا عليه ليقتلوه أنشد قائلاً :

أَرَى الْمَوتَ لاَ يُبْقِي عَزِيزاً وَلَمْ يَدَعْ ... لِعَادٍ مَلاذاً فِي الْبِلادِ وَمُرْتَقَى

وقال أيضاً :

يُبَيَّتُ أَهْلُ الحِصْنِ وَالْحِصْنُ مُغْلَقٌ ... وَيَأْتِي الجِبَالَ فِي شَمَارِيْخِهَا[٨] العُلَى[٩]

---

(١) فتنة مقتل عثمان، رضي الله عنه (١/ ١٦٩) روايةٌ صحيحة. وتاريخ الطَّبري (٥/ ٤٠٤).

(٢) الخلفاء الراشدون ، للخالدي ، ص(١٨٤ ، ١٨٥) . والبداية والنِّهاية (٧/ ١٩٦) .

(٣) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ١٨٨) .

(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٠٥ ، ٤٠٦) .

(٥) تاريخ ابن خيَّاط ، ص(١٧٤ ، ١٧٥) إسناده صحيحٌ ، أو حسنٌ .

(٦) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٩٨) .

(٧) المصدر السَّابق نفسه ، (٥/ ٣٩٨) الخبر له طرقٌ عديدةٌ بمجموعها يرتقي إلى درجة الحسن لغيره .

(٨) شماريخها : رؤوسها (لسان العرب ٣/ ٣١) .

(٩) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ١٩١) . والبداية والنِّهاية (٧/ ١٩٢) .

ولمَّا أحاطوا به ، قالت امرأته نائلة بنت الفرافصة : إن تقتلوه ، أو تدعوه ، فقد كان يحيي اللَّيل بركعةٍ ، يجمع فيها القرآن[١] وقد دافعت نائلة عن زوجها عثمان ، وانكبت عليه ، واتَّقت السَّيف بيدها ، فتعمَّدها سودان بن حمران ، ونضح أصابعها ، فقطع أصابع يدها ، وولَّت ، فغمز أوراكها[٢] .

ولمَّا رأى أحد غلمان عثمان رضي الله عنه الأمر ؛ راعه قتل عثمان رضي الله عنه ، وكان يسمَّى (نجيح) فهجم نجيحٌ على سودان بن حمران ، فقتله ، ولمَّا رأى قتيرة بن فلان السَّكونيُّ نجيحاً قد قتل سودان ، هجم على نجيح فقتله ، وهجم غلام آخر لعثمان رضي الله عنه اسمه (صبيح) على قتيرة بن فلانٍ فقتله ، فصار في البيت أربعة قتلى ، شهيدان ، ومجرمان ، وأمَّا الشهيدان : فعثمان رضي الله عنه ، وغلامه نجيح ، وأمَّا المجرمان ، فسودان ، وقتيرة السَّكونيَّان ، ولما تمَّ قتل عثمان رضي الله عنه نادى منادي القوم السَّبئيِّين قائلاً : إنَّه لم يحلَّ لنا دم الرَّجل ويحرم علينا ماله ، ألا إنَّ ماله حلال لنا ، فانهبوا ما في البيت ، فعاث رعاع السَّبئيِّين في البيت فساداً ، ونهبوا كلَّ ما في البيت ، حتَّى نهبوا ما على النِّساء ، وهجم أحد السَّبئيِّين ، ويُدعى كلثوم التَّجيبي على امرأة عثمان رضي الله عنه نائلة رضي الله عنها ونهب الملاءة الَّتي عليها ، ثمَّ غمز وِرْكَها ، وقال لها : ويح أمّك من عجيزة ما أتمّك ! فرآه غلام عثمان رضي الله عنه (صبيح) وسمعه ، وهو يتكلَّم في حقِّ نائلة هذا الكلام الفاحش ، فعلاه بالسَّيف فقتله[٣] . وهجم أحد السَّبئيِّين على الغلام فقتله .

وبعدما أتمَّ السَّبئيُّون نهب دار عثمان ، تنادوا ، وقالوا : أدركوا بيت المال ، وإيَّاكم أن يسبقكم أحدٌ إليه ، وخذوا ما فيه ، وسمع حرَّاس بيت المال أصواتهم ، ولم يكن فيه إلا غرارتان من طعام فقالوا : انجوا بأنفسكم فإن القوم يريدون الدُّنيا ، واقتحم السَّبئيُّون بيت المال ، وانتهبوا ما فيه[٤] .

حقَّق الخوارج السَّبئيُّون مرادهم ، وقتلوا أمير المؤمنين . وتوقَّف كثير من أتباعهم من الرُّعاع والغوغاء بعد قتل عثمان ؛ ليفكِّروا ، وما كانوا يظنُّون : أنَّ الأمر سينتهي بهم إلى قتله ، لقد استغفلهم شياطينهم السَّبئيُّون ، واستغلُّوهم في الشَّغب على عثمان ، أمَّا أن يقتلوه فهذا ما استفظعوه ، واستشنعوه ، وأُسقط في أيدي هؤلاء الغوغاء ، وحصل لهم كما حصل لبني إسرائيل ، لما عبدوا العجل ، ندم بعضهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ

---

(١) الطَّبقات (٣/ ٧٦) . وفتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه(١/ ١٩١) .
(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٠٦ ، ٤٠٧) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥/ ٤٠٧) .
(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٠٧) .

حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1] [الأعراف : ١٤٨ ـ ١٤٩] .

وحزن الصَّالحون في المدينة لمقتل خليفتهم ، وصاروا يسترجعون ، ويبكون ، لكن ماذا يفعلون ؟ وجيوش الخوارج السَّبئيِّين تحتلُّ المدينة ، وتعيث فيها فساداً ، وتمنع أهلها من فعل أيِّ شيءٍ ؟ وكان الحاكم الفعليُّ للمدينة هو أمير خوارج مصر (الغافقيُّ بن حرب العكيُّ) وكان معهم شيطانهم المخطط (عبد الله بن سبأ) وهو فرحٌ مسرورٌ لما وصل إليه من أهدافٍ ، ومآرب يهوديَّة شيطانيَّةٍ ، وعلَّق كبار الصَّحابة على مقتل عثمان[2] .

أ ـ الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه لمَّا علم بمقتل عثمان ؛ قال : رحم الله عثمان ! إنَّا لله ، وإنَّا إليه راجعون ! فقيل له : إن القوم نادمون . فقال : دبَّروا ، ودبَّروا ، ولكن كما قال الله تعالى : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ : ٥٤] .

ب ـ طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه لمَّا علم بمقتل عثمان ؛ قال : رحم الله عثمان ! إنَّا لله ، وإنَّا إليه راجعون ! فقيل له : إن القوم نادمون . قال : تبّاً لهم ! وقرأ قوله تعالى : ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس : ٤٩ـ٥٠] .

جـ ـ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه لمَّا علم بمقتل عثمان ؛ قال : رحم الله عثمان ! إنَّا لله ، وإنَّا إليه راجعون ! فقيل له : إن القوم نادمون . فقرأ قوله تعالى : ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر : ١٦ ـ ١٧] .

د ـ سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه : ولمَّا علم سعد بن أبي وقَّاص بذلك ، قال : رحم الله عثمان ! ثمَّ تلا قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٦] .

ثمَّ قال سعد : اللِّهمَّ أندمهم ، واخزهم ، واخذلهم ، ثمَّ خذهم[3] ! واستجاب الله دعوة

---

(١) البداية والنِّهاية (٧/ ١٩٧ ، ١٩٨) .

(٢) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٩٠) . البداية والنِّهاية (٧/ ١٩٧) .

(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٠٧ ، ٤٠٨) . والبداية والنِّهاية (٧/ ١٨٩) .

سعد ـ وكان مستجاب الدعوة ـ فقد أخذ كل من شارك في قتل عثمان ، مثل عبد الله بن سبأ ، والغافقيّ ، والأشتر ، وحكيم بن جبلة ، وكنانة التَّجيبي ، حيثُ قتلوا فيما بعد[١] .

ثامناً: تاريخ قتله ، وسنُّه عند استشهاده ، وجنازته ، والصَّلاة عليه ، ودفنه :

١ـ تاريخ قتله :

إنَّ في تحديد السَّنة الّتي قتل فيها عثمان رضي الله عنه شبه إجماع من المؤرِّخين ، فلم يقع خلافٌ في أنَّه كان في السَّنة الخامسة بعد الثَّلاثين من الهجرة ، إلا ما رُوي عن مصعب بن عبد الله من أنَّه كان من السَّنة السَّادسة والثَّلاثين[٢] وهو قولٌ شاذٌّ مخالفٌ للإجماع ، فمن قال بالقول الأوّل جمعٌ غفيرٌ ، منهم : عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وعامر بن شرحبيل الشَّعبيُّ ، ونافع مولى ابن عمر ، ومخرمة بن سليمان ، وغيرهم كثير[٣] ، ولم يختلف المؤرِّخون في الشَّهر الّذي قتل فيه ، وأنَّه ذو الحِجَّة ، إلا أنَّه اختُلف في تحديد ما بعد ذلك من اليوم والسَّاعة ، والّذي ترجَّح لديَّ من أقوال العلماء الكثيرة : أنَّه استشهد في (١٨/ ١٢/ ٣٥ هـ)[٤] .

وأمَّا عن تحديد اليوم الّذي قتل فيه من أيَّام الأسبوع ففيه ثلاثة أقوال ؛ والّذي ترجَّح لديَّ من هذه الأقوال قول الجمهور ، وهو يوم الجمعة ؛ لأنَّه قول الجمهور ، ولم يخالفه قولٌ أقوى منه[٥] ، وكان وقت قتله صبيحة يوم الجمعة ، وهو ما ذهب إليه الجمهور ، ولم يخالف بأقوى منه[٦] .

٢ـ سنُّه عند استشهاده :

اضطربت الرِّوايات في سنِّه عند استشهاده ، والخلاف في ذلك قديمٌ ، حتَّى إنَّ الطَّبريَّ ـ رحمه الله ـ يقول : اختلف السَّلف قبلنا في قدر مدَّة حياته[٧] ، والّذي أميل إليه أنَّه توفي وسنُّه : اثنتان ، وثمانون (٨٢ سنة) وهو قول الجمهور ويترجَّح هذا القول لعدَّة أسبابٍ ، منها :

أ ـ أنَّ نتيجة مقارنة سنة ولادته مع سنة استشهاده تؤيِّد هذا القول ؛ فإنَّه ولد في السَّنة السَّادسة

---

(١) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدي ، ص(١٩٢) .
(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٣٥ ، ٤٣٦) .
(٣) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ١٩٣ ، ١٩٤) .
(٤) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٣٥) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥/ ٤٣٦) .
(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥/ ٤٣٧) .
(٧) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٣٨) .

بعد عام الفيل ، واستشهد في السَّنة الخامسة والثَّلاثين بعد الهجرة ، فَطَرْحُ تاريخ مولده من تاريخ استشهاده يتبيَّن لنا سنُّه عند استشهاده .

ب ـ إنَّه قول الجمهور ، ولم يخالفه قول أقوى منه[١] .

٣ـ جنازته والصَّلاة عليه ، ودفنه :

قام نفر من الصَّحابة في يوم قتله بغسله ، وكفَّنوه وحملوه على باب ، ومنهم حكيم بن حزام ، وحويطب بن عبد العزَّى ، وأبو الجهم بن حذيفة ، ونِيار بن مكرم الأسلميُّ ، وجبير بن مطعم ، والزُّبير بن العوام ، وعليُّ بن أبي طالب ، وجماعةٌ من أصحابه ، ونسائه ، منهنَّ امرأتاه نائلة ، وأم البنين بنت عتبة بن حصين ، وصبيان ، وصلَّى عليه جبير بن مطعم ، وقيل : الزُّبير بن العوام ، وقيل : حكيم بن حزام ، وقيل : مروان بن الحكم ، وقيل : المسور بن مخرمة[٢] ، والَّذي ترجَّح عندي : أنَّ الَّذي صلى عليه الزُّبير بن العوَّام لرواية الإمام أحمد في مسنده ، فقد بيَّنت تلك الرِّواية أنَّ الزبير بن العوَّام رضي الله عنه ، صلَّى على عثمان ، ودفنه ، وكان أوصى إليه[٣] .

وقد دُفن رضي الله عنه ليلاً وقد أكَّد ذلك ما رواه ابن سعدٍ ، والذَّهبيُّ حيث ذكرا أنَّه دفن بين المغرب ، والعشاء[٤] ، رضوان الله عليه ، وأمَّا ما رواه الطَّبرانيُّ من طريق عبد الملك بن الماجشون ، قال : سمعت مالكاً يقول : قتل عثمان رضي الله عنه فأقام مطروحاً على كناسة بني فلان ثلاثاً[٥] ، فالرِّواية السَّابقة ضعيفٌ سندها ، وباطلٌ متنها ، فأمَّا السَّند ففيه علَّتان :

أ ـ ضعف عبد الملك بن الماجشون الَّذي كان يروي المناكير عن الإمام مالكٍ .

ب ـ أن هذه الرِّواية مرسلةٌ حيث إنَّ الإمام مالكاً لم يدرك مقتل عثمان رضي الله عنه لأنه لم يولد إلا سنة ٩٣ هـ[٦] .

وأمَّا متن هذه الرِّواية ؛ فباطلٌ ، وفيه يقول ابن حزم : مَنْ قال : إنَّه رضي الله عنه أقام مطروحاً على مزبلةٍ ثلاثة أيَّامٍ فكذبٌ بحتٌ ، وإفكٌ موضوعٌ ، وتوليد مَنْ لا حياء في وجهه . . . ولقد أمر رسول الله ﷺ برمي أجساد قتلى الكفَّار من قريشٍ يوم بدر في القليب ، وألقى التُّراب

(١) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ٢٠٤) .
(٢) البداية والنِّهاية (٧/ ١٩٩) .
(٣) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (١/ ٥٥٥) رجال الإسناد ثقاتٌ إلا أنه منقطعٌ .
(٤) الطَّبقات (٣/ ٧٨) . وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء) ، ص(٤٨١) .
(٥) المعجم الكبير (١/ ٧٨) . واستشهاد عثمان ، ص(١٩٤) .
(٦) التهذيب ابن حجر (٦/ ٤٠٨) .

عليهم ، وهم شرُّ خلق الله تعالى ، وأمر عليه السَّلام أن يحفر أخاديد لقتلى يهود قريظة ، وهم شرُّ مَنْ وارته الأرض ، فمواراة المؤمن والكافر فرضٌ على المسلمين ، فكيف يجوز لذي حياءٍ في وجهه أن ينسب إلى عليٍّ وهو الإمام ، وَمَنْ بالمدينة من الصَّحابة ؛ أنَّهم تركوا رجلاً ميِّتاً بين أظهرهم على مزبلةٍ ثلاثة أيامٍ ، لا يوارونه[١] .

إنَّه لا يدخل في عقل أيِّ إنسانٍ سليمٍ من داء الرَّفض : أنَّهم يتركون إمامهم ملقى دون دفنٍ ثلاثة أيَّام مهما كانت قوة أولئك الفجرة الَّذين جاؤوا لحصاره وقتله، فالصَّحابة كما وصفهم ربُّهم لا يخافون في الله لومة لائم، وإنَّما تلك الرِّوايات الَّتي شوهت كتب التَّاريخ من دسِّ الرَّوافض[٢] .

٤ـ براءة محمَّد بن أبي بكر الصديق من دم عثمان رضي الله عنه :

إنَّ قاتل عثمان رضي الله عنه رجلٌ مصريٌّ ، لم تفصح الرِّوايات عن اسمه ، وبيَّنت : أنَّه سدوسيُّ الأصل، أسود البشرة، لقب بـ(جبلة) لسواد بشرته، كما لقِّب أيضاً بـ(الموت الأسود) وذهب محبُّ الدِّين الخطيب إلى أنَّ القاتل : هو عبد الله بن سبأ حيث قال : ومن الثَّابت أنَّ ابن سبأ كان مع ثوَّار مصر عند مجيئهم من الفسطاط إلى المدينة ، وهو في كلِّ الأدوار الَّتي مثَّلها كان شديد الحرص على أن يعمل من وراء ستار ، فلعلَّ بـ(الموت الأسود) اسمٌ مستعارٌ له أراد أن يُرمز به إليه ، ليتمكَّن من مواصلة دسائسه لهدم الإسلام[٣] ، وقد يشهد له : أنَّ ابن سبأ أسود البشرة ، فقد صحَّ عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه وصفه بالخبث ، وسواد البشرة ، وذلك في قوله : الخبيث الأسود[٤] .

وأمَّا ما يتعلَّق بتهمة محمد بن أبي بكر ، بقتل عثمان بمشاقصه ، فهذا باطلٌ ، وقد جاءت رواياتٌ ضعيفةٌ في ذلك ، كما أنَّ متونها شاذَّةٌ ، لمخالفتها للرِّواية الصَّحيحة الَّتي تبيِّن : أنَّ القاتل هو رجلٌ مصريٌّ[٥] ، وقد ذكر الدُّكتور يحيى اليحيى عدَّة أسباب ترجِّح براءة محمَّد بن أبي بكرٍ من دم عثمان ، منها :

أ ـ أنَّ عائشة رضي الله عنها خرجت إلى البصرة للمطالبة بقتلة عثمان ، ولو كان أخوها منهم ما حزنت عليه ، لمَّا قتل فيما بعد ، وسيأتي تفصيله عند حديثنا عن عليٍّ ابن أبي طالب رضي الله عنه بإذن الله تعالى .

---

(١) الفصل (٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠) .

(٢) عقيدة أهل السُّنَّة (٣/ ١٠٩١) .

(٣) العواصم من القواصم ، نقلاً عن فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ٢٠٧) .

(٤) لسان الميزان (٣/ ٢٩٠) .

(٥) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ٢٠٩) .

ب ـ لَعْنُ عليٍّ رضي الله عنه لقتلة عثمان رضي الله عنه وتبرُّؤه منهم يقتضي عدم تقريبهم ، وتوليتهم ، وقد ولَّى محمَّد بن أبي بكر مصر ، فلو كان منهم ؛ ما فعل ذلك .

ج ـ ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن محمَّد بن طلحة بن مصرف ، قال : سمعت كنانة مولى صفيَّة بنت حييٍّ ، قال : شهدت مقتل عثمان وأنا ابن أربع عشرة سنةً . قالت : هل أندى محمَّد بن أبي بكر بشيءٍ من دمه ؟ فقال : معاذ الله ! دخل عليه ، فقال عثمان : يابن أخي ! لست بصاحبي ، فخرج ، ولم يُنْدِ من دمه بشيءٍ[1] .

ويشهد لهذا ما أخرجه خليفة بن خيَّاط ، والطَّبري بإسنادٍ رجاله ثقاتٌ عن الحسن البصريِّ ـ وكان ممَّن حضر يوم الدَّار[2] ؛ أنَّ ابن أبي بكرٍ أخذ بلحيته ، فقال عثمان : لقد أخذت منِّي مأخذاً ، أو قعدت منِّي مقعداً ما كان أبوك ليقعده ! فخرج ، وتركه[3] .

وبهذا يتبيَّن لنا براءة محمَّد بن أبي بكر الصِّدِّيق من دم عثمان ، براءة الذِّئب من دم يوسف ، كما تبيَّن : أنَّ سبب تهمته هو دخوله عليه قبل القتل[4] ، وقد ذكر ابن كثيرٍ ـ رحمه الله ـ أنَّه لمَّا كلمه عثمان رضي الله عنه استحى ، ورجع ، وتندَّم ، وغطَّى وجهه ، وحاجز دونه ، فلم تفد محاجزته[5] .

* * *

(١) مرويَّات أبي مخنف في تاريخ الطَّبري ص (٢٤٣) .
(٢) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطَّبري ص (٢٤٤) . وتهذيب الكمال (٦/ ٩٧) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٤٤) .
(٤) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ٢٠٩) .
(٥) البداية والنِّهاية (٧/ ١٩٣) .

المبحث الرَّابع

موقف الصَّحابة رضي الله عنهم من مقتل عثمان رضي الله عنه

شوَّهت بعض كتب التَّاريخ مواقف الصَّحابة من فتنة مقتل عثمان ؛ وذلك بسبب الرِّوايات الإماميَّة الَّتي ذكرها كثيرٌ من المؤرِّخين ، فالمتتبِّع لأحداث الفتنة في تاريخ الإمام الطَّبريِّ ، وكتب التَّاريخ الأخرى من خلال روايات أبي مخنف ، والواقدي وابن أعثم ، وغيرهم من الإخباريين يشعر : أنَّ الصَّحابة هم الَّذين كانوا يحركون المؤامرة ، ويثيرون الفتنة ، فأبو مخنف ذو الميول الشِّيعيَّة لا يتورَّع في اتِّهام عثمان بأنَّه الخليفة الَّذي كثرت سقطاته ، فاستحقَّ ما استحقَّه ، ويُظهِرُ طلحةَ في مرويَّاته كواحدٍ من الثائرين على عثمان ، والمؤلِّبين ضدَّه ، ولا تختلف روايات الواقدي عن روايات أبي مخنفٍ ، فعمرو بن العاص يقدم المدينة ، ويأخذ في الطَّعن على عثمان ، وقد كثرت الرِّوايات الإمامية الَّتي تتَّهم الصَّحابة بالتآمر ضدَّ عثمان رضي الله عنه وأنَّهم هم الَّذين حرَّكوا الفتنة ، وأثاروا النَّاس ، وهذا كلُّه كذبٌ ، وزورٌ[١] .

وخلافاً للرِّوايات الإماميَّة والموضوعة والضَّعيفة فقد حفظت لنا كتب المحدِّثين ـ بحمد الله ـ الرِّوايات الصَّحيحة الَّتي يظهر فيها الصَّحابة من المؤازرين لعثمان ، والمنافحين عنه ، المتبرِّئين من قتله ، والمطالبين بدمه بعد مقتله ، وبذلك يُستبعد أيُّ اشتراكٍ لهم في تحريك الفتنة ، أو إثارتها[٢] .

إنَّ الصَّحابة جميعاً رضي الله عنهم أبرياء من دم عثمان رضي الله عنه ومن قال خلاف ذلك ؛ فكلامه باطلٌ لا يستطيع أن يقيم عليه أيَّ دليل ينهض إلى مرتبة الصِّحَّة ، ولذلك أخرج خليفة في تاريخه عن عبد الأعلى بن الهيثم ، عن أبيه ، قال : قلت للحسن : أكان فيمن قتل عثمان أحدٌ من المهاجرين ، والأنصار ؟ قال : لا ، كانوا أعلاجاً[٣] ، من أهل مصر . وقال الإمام النَّوويُّ : ولم يشارك في قتله أحدٌ من الصَّحابة ، وإنَّما قتله همجٌ ، ورعاعٌ من غوغاء القبائل سفلة الأطراف والأراذل ، تحزَّبوا ، وقصدوه من مصر ، فعجزت الصَّحابة الحاضرون عن

---

(١) تحقيق مواقف الصَّحابة (٢/ ١٤ إلى ١٨) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) العِلج : كلُّ جافٍ شديدٍ من الرِّجال .

دفعهم ، فحصروه حتَّى قتلوه ، رضي الله عنه[١] .

وقد وصفهم الزُّبير رضي الله عنه بأنَّهم غوغاء من الأمصار ، ووصفتهم السَّيدة عائشة بأنَّهم نزَّاع القبائل[٢] . ووصفهم ابن سعد بأنَّهم حثالة النَّاس متَّفقون على الشَّرِّ[٣] . ووصفهم ابن تيميَّة بأنَّهم خوارج مفسدون ، وضالُّون ، باغون معتدون[٤] ، ووصفهم الذَّهبيُّ بأنَّهم رؤوس شرٍّ ، وجفاء[٥] ، ووصفهم ابن العماد الحنبليُّ في الشَّذرات بأنَّهم أراذل من أوباش القبائل[٦] .

ويشهد على هذا الوصف تصرُّف هؤلاء الرُّعاع منذ الحصار إلى قتل الخليفة رضي الله عنه ظلماً ، وعدواناً ، فكيف يمنع الماء عنه ، والطَّعام ، وهو الَّذي طالما دفع من ماله الخاص ما يروي ظمأ المسلمين بالمجَّان[٧] ، وهو الَّذي ساهم بأموالٍ كثيرةٍ عندما يلمُّ بالنَّاس مجاعةٌ ، أو مكروهٌ ، وهو الدَّائم العطاء عندما يصيب النَّاس ضائقةٌ ، أو شدَّةٌ من الشَّدائد[٨] ، حتَّى إنَّ عليّاً رضي الله عنه يصف هذا الحال ، وهو يؤنب المحاصرين بقوله : يا أيُّها النَّاس ! إنَّ الَّذي تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين ، ولا أمر الكافرين ، فلا تمنعوا عن هذا الرَّجل الماء ، ولا المادَّة ـ الطَّعام ـ فإن الرُّوم ، وفارس لتأسر ، وتطعم ، وتسقي[٩] .

لقد صحَّت الأخبار ، وأكَّدت حوادث التَّاريخ على براءة الصَّحابة من التَّحريض على عثمان أو المشاركة في الفتنة ضدَّه[١٠] .

● **وإليك أقوال الصحابة في البراءة من دم عثمان :**

أولاً : ثناء أهل البيت على عثمان رضي الله عنه وبراءتهم من دمه :

١ ـ موقف السَّيدة عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها :

أ ـ عن فاطمة بنت عبد الرَّحمن اليشكريَّة عن أمِّها ؛ أنَّها سألت عائشة ، وأرسلها عمُّها ،

---

(١) شهيد الدَّار عثمان بن عفَّان ، ص(١٤٨) .
(٢) شرح النَّوويِّ على صحيح مسلم (١٥/١٤٨) ، كتاب فضائل الصَّحابة .
(٣) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٤٨١) ، طبقات ابن سعد (٣/ ٧١) .
(٤) منهاج السُّنَّة (٢/ ١٨٩ ـ ٢٠٦) .
(٥) دول الإسلام للذَّهبي (١/ ١٢) .
(٦) انظر : تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٤٨٢) . البخاري ، كتاب مناقب عثمان (٤/ ٢٠٢) . وشذرات الذَّهب (١/ ٤٠) .
(٧) المصدر السَّابق نفسه .
(٨) التمهيد والبيان ، ص(٢٤٢) .
(٩) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٠٠) .
(١٠) تحقيق مواقف الصَّحابة (٢/ ١٨) .

فقالت : إنَّ أحد بنيك يقرئك السَّلام ، ويسألك عن عثمان بن عفَّان ، فإنَّ النَّاس قد أكثروا فيه ! قالت : لعن الله من لعنه ، فوالله لقد كان قاعداً عند نبيِّ الله ﷺ وإنَّ رسوله ﷺ مسندٌ ظهره إليَّ ، وأنَّ جبريل عليه السَّلام ليوحي إليه القرآن ، وإنَّه ليقول : اكتب عثمان ، فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريماً على الله ، ورسوله[١] .

ب ـ وعن مسروق عن عائشة ، قالت حين قتل عثمان : تركتموه كالثَّوب النَّقيِّ من الدَّنس ، ثمَّ قرَّبتموه تذبحونه ، كما يذبح الكبش ! فقال لها مسروقٌ : هذا عملك ، أنت كتبت إلى النَّاس تأمرينهم بالخروج إليه ! قالت عائشة : لا والَّذي آمن به المؤمنون ، وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسوداء في بيضاء حتَّى جلست مجلسي هذا[٢] ! وقد مرَّ معنا كذب السَّبئيِّين ، وأنَّهم كتبوا رسائل لأهل الأمصار ، ونسبوها كذباً وزوراً للسَّيدة عائشة رضي الله عنها .

ج ـ ولما سمعت بموت عثمان في طريق عودتها من مكَّة إلى المدينة رجعت إلى مكَّة ودخلت المسجد الحرام ، وقصدت الحجر ، فتستَّرت فيه ، واجتمع النَّاس إليها ، فقالت : أيُّها النَّاس ! إن الغوغاء من أهل الأمصار ، وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الإرب[٣] ، واستعمال من حدثت سنُّه ، وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع من الحمى حماها لهم ، وهي أمورٌ قد سُبق بها ، لا يصلح غيرها ، فتابعهم ، ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم ، فما لم يجدوا حجَّةً ، ولا غدراً خلجوا[٤] ، وبادروا بالعدوان ، ونبا فعلهم عن قولهم ، فسفكوا الدَّم الحرام ، واستحلُّوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلُّوا الشَّهر الحرام . والله لإصبع عثمان خيرٌ من طباق الأرض أمثالهم ، فنجاةً[٥] من اجتماعكم عليهم حتَّى يُنكِّل[٦] بهم غيرهم ، ويشرِّد[٧] مَنْ بعدهم ، ووالله لو أنَّ الَّذي اعتدوا به عليه كان ذنباً ، لخلص منه كما يخلص الذَّهب من خبثه ، أو الثَّوب من درنه ؛ إذ ماصُّوه كما يماصُّ الثَّوب بالماء[٨] .

وعلى العكس من الصُّورة الطَّيبة الَّتي نفهمها من الرِّوايات السَّابقة الموثوقة للعلاقة بين أمِّ

---

(١) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٧٨) . المسند (٦/ ٢٥٠ ، ٢٦١) . والبداية والنِّهاية (٧/ ٢١٩) .

(٢) فتنة مقتل عثمان ، رضي الله عنه (١/ ٣٩١) . وتاريخ خليفة بن خيَّاط ، ص(١٧٦) ، إسناده صحيحٌ إلى عائشة ، رضي الله عنها .

(٣) الأرب : الحاجة ، والدَّهاء ، والفطنة ، والعقل .

(٤) خلجوا : تحرَّكوا ، واضطربوا .

(٥) نجاة : اطلبوا النَّجاة باجتماعكم عليهم .

(٦) ينكل بهم غيرهم : حتى يردعهم ، ويروِّع بهم غيرهم .

(٧) يشرِّد : يفرِّق ، ويبدِّد جمعهم .

(٨) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٧٣ ، ٤٧٤) .

المؤمنين عائشة ، وعثمان ، فإنَّه تبقى عند الطَّبريِّ وغيره رواياتٌ أخرى صوَّرت العلاقة بين عائشة، وعثمان على صورةٍ متناقضةٍ تماماً لما انتهينا إليه، وشوَّهت الدَّور الرَّائع النَّاصع ، الواعي ، الَّذي قامت به رضي الله عنها ، دفاعاً عن حرمات الله عزَّ وجل ، ودفعاً عن عثمان رضي الله عنه، وفهماً لألاعيب السَّبئيَّة[١] .

إنَّ الرِّوايات الَّتي جاءت في العقد الفريد ، وفي الأغاني ، وتاريخ اليعقوبي ، وتاريخ المسعودي ، وأنساب الأشراف ، وما انتهت إليه من استدلالات في شأن الدَّور السِّياسيِّ للسَّيدة عائشة رضي الله عنها في حياة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، إنَّ جميع ما تؤدِّي إليه من استدلالات تدين الموقف السِّياسيَّ للسَّيدة عائشة رضي الله عنها ، لا يعتدُّ بها لمخالفتها للرِّوايات الصَّحيحة ، وقيامها على رواياتٍ واهيةٍ[٢] ، فأغلبها رواياتٌ غير مسندةٍ ، والمسند مجروحُ الإسناد ، لا يحتجُّ بروايته ، هذا إلى فساد متونها إذا ما قورنت بالرِّوايات الأخرى الأكثر صحَّة ، وقرباً بالحقيقة[٣] .

وقد قامت السَّيدة أسماء محمَّد أحمد زيادة بدراسة الأسانيد، والمتون للرِّوايات الَّتي تحدَّثت عن الدَّور السِّياسيِّ للسيِّدة عائشة في أحداث الفتنة ، ونقدت الرِّوايات القائلة بالخلاف السِّياسيِّ بين عائشة، وعثمان عند الطَّبريِّ، وغيره، وبيَّنت زيفها ، وكذبها ، ثمَّ قالت : وكان الأحرى بنا أن نُعرض عن ذكرها جميعاً ـ كما ذكرت آنفاً ـ لعدم وصولها إلينا عن طريقٍ معتمدٍ ، بل الطُّرق الَّتي وصلت منها رُمي أصحابها بالتَّشيُّع ، والكذب ، والرَّفض ، لكننا عرضنا لها ؛ لشيوعها في أغلب الدِّراسات الحديثة ، وللتَّدليل على سقوطها ، فهي رواياتٌ ـ كما اتَّضح لنا ـ حاولت خلق تاريخ لا وجود له أصلاً من الخلاف ، والتنكُّر بين عثمان ، وعائشة ، وبين عثمان والصَّحابة جميعاً[٤] ، ولو صحَّ : أنَّ عائشة اتَّفقت مع المتمرِّدين على التَّحريض على عثمان رضي الله عنه لكان من المتوقَّع أن يكون عندها نوعٌ من التماس العذر لهؤلاء المتمرِّدين ، لكن لم يصحَّ عنها رضي الله عنها شيءٌ من هذا ، وإنَّه لو صحَّ شيءٌ من هذه الرِّوايات في وصف موقف السَّيدة عائشة رضي الله عنها من مقتل عثمان، فهي رواياتٌ كفيلةٌ بإسقاط العدالة عن عائشة رضي الله عنها وعن الصَّحابة الَّذين اشتركوا معها، وهو ما لا نقبل به للخبر الصَّادق عن الله، ورسوله في تقرير عدالتهم ؛ الَّتي كانت كافيةً لدحض هذه الرِّوايات ، لكنَّنا توقَّفنا أمام الرِّوايات ، تأكيداً منَّا

---

(١) دور المرأة السياسي في عهد النَّبيِّ ، والخلفاء الرَّاشدين ، ص(٣٥٢) .

(٢) انظر : أيضاً في هذه الاستدلالات الباطلة ، للعقاد (الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق) ، ص(١١٦ـ١٢٤) .

(٣) دور المرأة السياسي ، ص(٣٧٠) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

على سقوط هذه الرِّوايات ، وَمِنْ بعدها الاستدلالاتُ القائمة عليها ، حتَّى تجتمع الأدلَّة الدِّينيَّة ، والعلميَّة ، والتَّاريخيَّة ، في صعيدٍ واحدٍ تؤكِّد بعضها بعضاً[١] .

٢ـ عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه :

كان عليٌّ رضي الله عنه وآل البيت يجلُّونه ، ويعترفون بحقِّه فكان :

أ ـ أوَّل من بايعه بعد عبد الرَّحمن بن عوف عليٌّ بن أبي طالبٍ[٢] ، وعن قيس بن عبَّاد ، قال : سمعت عليّاً رضي الله عنه ، وذكر عثمان ، فقال : هو رجلٌ قال له رسول الله ﷺ : « ألا أستحي ممَّن تستحي منه الملائكة »[٣] .

ب ـ وقد شهد رضي الله عنه له بالجنَّة ، فعن النَّزال بن سبرة ، قال : سألت عليّاً عن عثمان ، فقال : ذاك امرؤٌ يُدعى في الملأ الأعلى : ذا النُّورين ، كان ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه ، ضُمن له بيتٌ في الجنَّة[٤] .

ج ـ وكان رضي الله عنه طائعاً ، معترفاً بإمامته ، وخلافته ، لا يعصي له أمراً ، فقد روى ابن أبي شيبة بإسناده عن ابن الحنفيَّة عن عليٍّ : قال لو سيَّرني عثمان إلى صرار ؛ لسمعت ، وأطعت[٥] ، والصِّرار : هو الخيط الَّذي يُشدُّ فوق الخِلْفِ ، والتَّودية لئلا يرضعها ولدها[٦] . وفيه دليلٌ على مدى اتِّباعه ، وطاعته لعثمان رضي الله عنهما[٧] .

د ـ ولما جمع عثمان رضي الله عنه النَّاس على قراءةٍ واحدةٍ ، بعد استشارة الصَّحابة رضوان الله عليهم ، وإجماعهم على ذلك ، قال عليٌّ رضي الله عنه : لو ولِّيت الَّذي ولي ، لصنعت مثل الَّذي صنع[٨] .

هـ ـ ولقد أنكر عليٌّ رضي الله عنه قتل عثمان ، وتبرَّأ من دمه ، وكان يقسم على ذلك في

---

(١) دور المرأة السياسي ، ص(٣٧١) .

(٢) البخاريُّ ، كتاب فضائل الصَّحابة ، رقم (٣٧٠٠) .

(٣) مسلم ، كتاب فضائل الصَّحابة ، رقم (٢٤٠١) .

(٤) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ، ص(٢٢٧) . المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصَّحابة للزَّمخشري ، مخطوط بمكتبة المخطوطات بالجامعة الإسلاميَّة . المخطوطة : قد طبعت عن طريق دار الحديث أخيراً .

(٥) السُّنَّة للخلال (١/ ٣٢٥) ، رقم (٤١٦) إسناده صحيحٌ .

(٦) لسان العرب (٤/ ٤٥١) .

(٧) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتَّفريط ، ص(٢٢٧) .

(٨) السُّنن للبيهقيِّ (٢/ ٤٢) .

خطبه ، وغيرها : أنه لم يقتله ، ولا أمر بقتله ، ولا مالأ ، ولا رضي ، وقد ثبت ذلك عنه بطرقٍ تفيد القطع(١) ، خلافاً لما تزعمه الإماميَّة من أنَّه كان راضياً بقتل عثمان ، رضي الله عنهما(٢) ، وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة في مقتله ، رضي الله عنه : فأمَّا الَّذي ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فإنَّه كذبٌ ، وزورٌ ، فقد تواترت الأخبار بخلافه(٣) . وقال ابن تيميَّة : وهذا كلُّه كذبٌ على عليٍّ رضي الله عنه ، وافتراءٌ عليه ، فعليٌّ رضي الله عنه لم يشارك في دم عثمان ، رضي الله عنه ولا أمر ، ولا رضي ، وقد روي عنه ذلك ، وهو الصَّادق البارُّ(٤) ، وقد قال عليٌّ رضي الله عنه : اللَّهمَّ إنِّي أبرأ إليك من دم عثمان(٥) .

وروى الحاكم بإسناده عن قيس بن عبَّاد ، قال : سمعت عليّاً رضي الله عنه يوم الجمل يقول : اللَّهمَّ إنِّي أبرأ إليك من دم عثمان ، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان ، وأنكرت نفسي ، وجاؤوني للبيعة ، فقلت : والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال فيه رسول الله ﷺ : « ألا أستحي ممَّن تستحي منه الملائكة » ، وإنِّي لأستحي من الله أن أبايع وعثمان قتيلٌ على الأرض لم يدفن بعد ، فانصرفوا ، فلمَّا دُفن رجع النَّاس ، فسألوني البيعة ، فقلت : اللَّهمَّ إنِّي مشفقٌ ممَّا أقدم عليه ، ثمَّ جاءت عزيمةٌ ، فبايعت ، فلقد قالوا : يا أمير المؤمنين ! فكأنَّما صُدع قلبي ، وقلت : اللَّهمَّ خذ منِّي لعثمان ؛ حتَّى ترضى(٦) !

وروى الإمام أحمد بسنده عن محمَّد بن الحنفيَّة قال : بلغ عليّاً : أنَّ عائشة تلعن قتلة عثمان في المربد(٧) قال : فرفع يديه ، حتَّى بلغ بهما وجهه ، فقال : وأنا ألعن قتلة عثمان ، لعنهم الله في السَّهل ، والجبل . قال مرَّتين ، أو ثلاثاً(٨) . وروى ابن سعدٍ بسنده عن ابن عبَّاسٍ ؛ أن عليّاً قال : والله ما قتلت عثمان ، ولا أمرت بقتله ! ولكنِّي نهيت ، والله ما قتلت عثمان ، ولا أمرت ! ولكنِّي غلبت . قالها ثلاثاً(٩) . وجاء عنه أيضاً : أنَّه قال رضي الله عنه : من تبرأ من

---

(١) البداية والنِّهاية (٧/ ٢٠٢) .
(٢) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتَّفريط ، ص(٢٢٩) . حقُّ اليقين لعبد الله شبر ص(١٨٩) .
(٣) المستدرك (٣/ ١٠٣) .
(٤) منهاج السُّنَّة (٤/ ٤٠٦) .
(٥) العقيدة في أهل البيت ، ص(٢٣٠) ، إسناده حسن ، الطَّبقات (٣/ ٣) رواه من طرقٍ كلِّها صحيحةٌ .
(٦) المستدرك (٣/ ٩٥) . حديثٌ صحيحٌ على شرط الشَّيخين ، ولم يخرِّجاه ، ووافقه الذَّهبي .
(٧) موضعٌ قرب البصرة بينهما نحو ثلاثة أميالٍ .
(٨) فضائل الصَّحابة (١/ ٥٥٥) رقم (٧٣٣) . إسناده صحيحٌ .
(٩) الطَّبقات (٣/ ٨٢) . والبداية والنِّهاية (٧/ ٢٠٢) .

دين عثمان ؛ فقد تبرأ من الإيمان ، والله ما أعنت على قتله ، ولا أمرت ، ولا رضيت[١] !

وقال عليٌّ رضي الله عنه عن عثمان رضي الله عنه : ... كان أوصلنا للرَّحم ، وأتقانا للرَّبِّ تعالى[٢] .

ز ـ وعن أبي عونٍ ، قال : سمعت محمَّد بن حاطب ، قال : سألت عليّاً عن عثمان ، فقال : هو من الّذين آمنوا ، ثم اتَّقوا ، ثم آمنوا ، ثم اتَّقوا ، ولم يختم الآية[٣] .

ح ـ عن عميرة بن سعدٍ قال : كنَّا مع عليٍّ رضي الله عنه على شاطئ الفرات ، فمرَّت سفينةٌ مرفوعٌ شراعها ، فقال عليٌّ : يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ [الرحمن : ٢٤] والّذي أنشأها في بحر من بحاره ما قتلت عثمان ، ولا مالأت على قتله[٤] !

ط ـ وروى الإمام أحمد في مسنده عن محمَّد بن حاطبٍ ، قال : سمعت عليّاً يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] منهم عثمان[٥] . وقال عليٌّ رضي الله عنه : إنَّما وهنت يوم قتل عثمان[٦] .

وقد اعتنى الحافظ ابن عساكر بجمع الطُّرق الواردة عن عليٍّ رضي الله عنه في تبرُّئه من دم عثمان ، وقسمه على ذلك في الخطب وغيرها ، وكذا قسمه : أنَّه لم يرض بذلك ، وثبت ذلك عنه من طرقٍ تفيد القطع عند كثيرٍ من أئمَّة الحديث[٧] .

٣ـ ابن عباسٍ رضي الله عنه :

روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباسٍ : أنَّه قال : لو اجتمع النَّاس على قتل عثمان ؛ لرموا بالحجارة كما رمي قوم لوطٍ[٨] ، وقال رضي الله عنه في مدح عثمان ، وذمِّ من ينتقصه : رحم الله أبا عمرو ! كان والله أكرم الحفدة ، وأفضل البررة ، هجَّاداً بالأسحار ، كثير الدُّموع عند ذكر النَّار ، نهَّاضاً عند كلِّ مكرمةٍ ، سبَّاقاً إلى كلِّ منحةٍ ، حبيباً أبيّاً وفيّاً ، صاحب جيش العسرة ، ختن رسول الله ﷺ ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين إلى يوم الدِّين[٩] !

---

(١) الرِّياض النَّضرة ، ص(٥٤٣) .
(٢) صفة الصَّفوة (١/ ٣٠٦) .
(٣) فضائل الصَّحابة (١/ ٥٨٠) إسناده صحيحٌ .
(٤) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٥٥٩ ، ٥٦٠) إسناده لغيره رقم (٣٧٩) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٥٨٠) ، رقم (٧٧١) إسناده صحيحٌ .
(٦) المنتظم في تاريخ الملوك ، والأمم (٥/ ٦١) .
(٧) انظر : البداية والنِّهاية (٧/ ١٩٣) .
(٨) فضائل الصَّحابة (١/ ٥٦٣) ، رقم (٧٤٦) .
(٩) العقيدة في أهل البيت ، ص(٢٣٤) . مروج الذَّهب للمسعودي (٣/ ٦٤) .

٤ـ زيد بن عليٍّ ، رحمه الله :

روى ابن عساكر بإسناده إلى السُّدِّيِّ ، قال : أتيته ـ أي : زيد ـ وهو في بارق ـ حيٍّ من أحياء الكوفة ـ فقلت له : أنتم سادتنا ، وأنتم ولاة أمورنا ، فما تقول في أبي بكرٍ ، وعمر؟ فقال: تولَّهما ، وكان يقول: البراءةُ من أبي بكرٍ ، وعمر ، وعثمان البراءةُ من عليٍّ ، والبراءةُ من عليٍّ البراءةُ من أبي بكرٍ ، وعمر ، وعثمان(١) .

٥ـ عليُّ بن الحسين ، رحمه الله :

وقد ثبت عن عليِّ بن الحسين البراءة من قول الإماميَّة في أبي بكرٍ ، وعمر ، وعثمان ، رضي الله عنهم ، فقد روى أبو نعيم بسنده عن محمَّد بن عليٍّ ، عن أبيه عليِّ بن الحسين : أنَّه قال : جلس قومٌ من أهل العراق ، فذكروا أبا بكرٍ ، وعمر ، فنالوا منهما ، ثمَّ ابتدؤوا في عثمان ، فقال لهم : أخبروني أأنتم من المهاجرين الأوَّلين : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] قالوا : لا ! قال : فأنتم من الَّذين ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] قالوا : لا ! فقال لهم : أمَّا أنتم فقد أقررتم ، وشهدتم على أنفسكم أنَّكم لستم من هؤلاء ، ولا من هؤلاء ، وأنا أشهد أنَّكم لستم من الفرقة الثَّالثة الَّذين قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] . فقوموا عنِّي ، لا بارك الله فيكم ! ولا قرَّب دوركم ، أنتم مستهزؤون بالإسلام ، ولستم من أهله(٢) !

ثانياً : موقف عمَّار بن ياسر رضي الله عنه :

جاء في الرِّوايات التَّاريخيَّة الَّتي تحمل في طيَّاتها غثّاً ، وسميناً ، أنَّ هناك خلافاً بين عمَّار ، وعثمان ، رضي الله عنهما ، وقد خُطم بعضها بأسانيد ، وأخرى لا خطام لها ، ولا زمام ، ولم أجد من أغنى فيه بحثاً ، وتحليلاً إلا لماماً ، والتَّعرض لمثل هذا الموضوع الَّذي يَمَسُّ كرامة أطهر خلق الله ، وأحبِّهم إليه ، وإلى نبيِّه ، لا يمكن معه الاعتماد على رواياتٍ تسرح في أعراض

---

(١) العقيدة في أهل البيت ، ص(٣٣٥) . وتهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١٢) .

(٢) العقيدة في أهل البيت ، ص(٢٣٦) . والبداية والنِّهاية (٩/ ١١٢) . والجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٣١ـ٣٢) .

الصَّحابة كما تشاء ، وتمرح من غير زمامٍ ، أو خطام[١] ، ومن التُّهم السَّاقطة الَّتي ساقتها الرِّوايات الضَّعيفة :

١ـ ضرب عمار بن ياسر .

تعتبر الرِّوايات الَّتي تحدَّثت عن ضرب عثمان لعمَّار من أشهر الرِّوايات في هذا الموضوع ، وأكثرها ، ولقد تفنَّن واضعوها في ذكر الأساليب الَّتي استخدمها عثمان رضي الله عنه بالضَّرب ، وفي ذكر ما نتج عنه ، وهي مع فساد أسانيدها تحمل نكارةً شديدةً في متونها[٢] ، يقول القاضي أبو بكر بن العربيِّ في عواصمه ضمن تفنيده لما نسب إلى عثمان رضي الله عنه من افتراءات : وأمَّا ضربه لابن مسعود رضي الله عنه ومنعه عطاءه ؛ فزورٌ ، وضربه لعمَّار رضي الله عنه إفكٌ مثله ، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبداً ، وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوهٍ لا ينبغي أن يُشتغل بها ؛ لأنَّها مبنيَّةٌ على باطلٍ ، ولا يُبنى حقٌّ على باطلٍ ، ولا نذهب الزَّمان في مماشاة الجهَّال ، فإنَّ ذلك لا آخر له[٣] .

إنَّ أخلاق عثمان رضي الله عنه في سنِّه ، وإيمانه ، وحيائه ، ولين عريكته ، ورقَّة طبعه وسابقته ، وجليل مكانته في الإسلام أجلُّ من أن تنزل به إلى هذا الدَّرك من التَّصرُّف مع رجلٍ من أجلاء أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، يعرف له عثمان سابقته ، وفضله ، مهما كان بينهما من اختلاف في الرَّأي ، أفيرضى عثمان لنفسه ـ وهو الَّذي أبى على النَّاس أن يقاتلوا دونه ، ورضي بالموت صابراً محتسباً حقناً لدماء المسلمين واتِّقاءً للفتنة العامَّة ـ أفيرضى أن يصنع بعمار ـ وهو أعلم بسابقته ، وفضله في الإسلام ـ ما ذكرت الرِّوايات المزعومة بأنَّه أمر غلمانه بأن يضربوه حتَّى أغمي عليه ، ثمَّ يقوم عثمان في هذه الحال فيطأه في بطنه ؟ ثمَّ هل ترضى أخلاق عثمان ، وحياؤه بأن يدعو بدعوة الجاهليَّة ، فيعيِّر عماراً بأمِّه سميَّة ، وهي من أهل السَّابقة ، والفضل ، وعثمان يعرف شرف انتساب عمَّار إلى أمِّه سميَّة رضي الله عنهما ، أوَّل شهيدةٍ في الإسلام ؟ !

كلا إنَّ الأخبار الصَّحيحة ، والموثوقة لا يوجد فيها ما يدني عثمان رضي الله عنه من هذا الأسلوب المنحطِّ في الزَّجر ، والتَّأديب ، علاوةً على أنَّ أخلاقه ، وطبيعته ، وسيرته ، تستبعد ذلك تماماً . وممَّا لا شكَّ فيه : أنَّ عرض أمثال تلك الرِّوايات الموضوعة على ما عرف من مواقف ، وأخلاق أولئك الأئمَّة الأعلام ، والأخذ بالاعتبار مقاييس ذلك العصر ، ومعاييره لهو

---

(١) عمَّار بن ياسر ، لأسامة أحمد سلطان ، ص(١٢٢) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) العواصم من القواصم ، ص(٨٢ـ٨٤) .

أصدق ميزانٍ في النَّقد ، لكشف دخائل الوضَّاعين ، والمفترين[١] .

٢ـ اتِّهام عمار بالمساهمة في الفتنة ، وإثارة الشَّغب ضدَّ عثمان :

اعتمد المؤرِّخون في نسبة هذه الافتراءات إلى عمَّار رضي الله عنه على روايات لم تسلم إحداها من الطَّعن في صحَّة أسانيدها ، أو في استقامة متونها ، وتتنوَّع التُّهم المنسوبة إلى عمَّار رضي الله عنه في تحريكه لأمر الفتنة ، وتحريضه على عثمان ، وسعيه بين العامَّة للتَّمرُّد عليه ، فمنها ما ذكر من إرسال عثمان رضي الله عنه له إلى مصر لاستجلاء ما يحدث فيها ممَّا نقل إليه عن تمرُّد العامَّة هناك ، أنَّ السبئيِّين استطاعوا استقطاب عمَّار ، والتأثير عليه . وهذا الخبر الَّذي يرويه الطَّبري[٢] فيه شعيب بن إبراهيم التَّميميُّ الكوفيُّ راوية كتب سيف ، فيه جهالةٌ ، وقال عنه الرَّاوي : ليس بالمعروف ، وله أحاديث ، وأخبار ، وفيها بعض النَّكارة ، وفيها ما فيه من تحاملٍ على السَّلف[٣] ، ورواه عمر بن شبَّة في تاريخ المدينة ، وفيه شيخ عمر : عليُّ بن عاصم . قال عنه ابن المدينيِّ : كان عليُّ بن عاصم كثير الغلط ، وإذا رُدَّ عليه ، لم يرجع ، وكان معروفاً في الحديث ، ويروي أحاديث منكرةً[٤] ، وقال يحيى بن معين : ليس بشيءٍ[٥] ، وقال مرَّة : كذَّاب ، ليس بشيءٍ[٦] ، وقال النَّسائيُّ : متروك الحديث[٧] ، وقال البخاريُّ : ليس بالقويِّ عندهم ، يتكلَّمون فيه[٨] ، وهناك من تلطَّف بالكلام عليه ، وقال عنه ابن حجر : صدوقٌ يخطئ ، ويصرُّ ، ورمي بالتَّشيُّع[٩] ، وخبرٌ هذا حال إسناده لا يمكن الاطمئنان إليه ، لا سيَّما ماعرف عن عمَّار رضي الله عنه من الورع الَّذي يربأ به عن الانغماس في مثل تلك الأوحال الَّتي ما عهدنا مرتاداً لها إلا سبئيّاً يهوديّاً حاقداً ، ومعاذ الله أن يصل الحال بصحابي من صحابة النَّبيِّ ﷺ إلى هذا المستوى . يقول خالد الغيث : وهذا الخبر يعارضه ما ثبت من عدالة الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ هذا فضلاً عن عدم وروده من طريقٍ صحيحٍ[١٠] .

---

(١) الخليفة المفترى عليه عثمان بن عفَّان ، ص(١٤ـ٤١) . وعمَّار بن ياسر ، ص(١٣٧) .

(٢) تاريخ الطَّبري (٥/ ٣٤٨) .

(٣) استشهاد عثمان ووقعة الجمل ، ص(٣٠) .

(٤) سير أعلام النُّبلاء (٩/ ٢٥٣) .

(٥) المصدر السَّابق نفسه (٩/ ٢٥٥) .

(٦) المصدر السَّابق نفسه (٩/ ٢٥٧) .

(٧) المصدر السَّابق نفسه (٩/ ٢٥٥) .

(٨) المصدر السَّابق نفسه .

(٩) تقريب التَّهذيب ، ص(٤٠٣) .

(١٠) استشهاد عثمان ووقعة الجمل ، ص(٨٦) .

ومن الرِّوايات الباطلة في هذا الباب ما نسب إلى سعيد بن المسيِّب ، وفيها : أنَّ الصحابة بمجملهم نقموا على عثمان رضي الله عنه مع من نقم ، وحنقوا عليه ، وخاصَّة أبا ذرٍّ ، وابن مسعودٍ ، وعمَّار بن ياسر ، رضي الله عنهم[١] . وآفة هذه الرِّواية : أنَّ فيها تدليساً ليس من النَّوع الممكن إقراره ، والتَّجاوز عنه ، فقد أسقط منها ، راوٍ متَّهم بالوضع ، والكذب ، وهو إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله ، ولذلك جاء تضعيف علماء الحديث لهذه الرِّواية وبيان زيفها عند ترجمتهم لمحمَّد بن عيسى ابن سميع راوي الخبر عن ابن أبي ذئبٍ ، يقول الإمام البخاريُّ عن ابن سميع : يقال : إنَّه لم يسمع من ابن أبي ذئب هذا الحديث ، يعني حديثه عن الزُّهري في مقتل عثمان . ويقول ابن حبَّان : إنَّ ابن سميع لم يسمع حديثه من ابن أبي ذئب ، وإنَّما سمعه من إسماعيل بن يحيى ، فدلَّس عنه .

وقال الحاكم : أبو محمد ـ يعني : ابن سميع ـ روى عن ابن أبي ذئب حديثاً منكراً ، وهو حديث مقتل عثمان ، ويقال : كان في كتابه عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي ذئب ، فأسقطه ، وإسماعيل ذاهب الحديث[٢] .

ويقول الدُّكتور يوسف العش : والرِّواية المنسوبة إلى سعيد بن المسيِّب يجب استبعادها ، فهي بعد التحرِّي تظهر موضوعةً ، فقد نصَّ الحاكم النيسابوريُّ : أنَّ أحد رجال سندها قد أسقط من السَّند رجلاً واهياً ، وأنَّها منكرةٌ ، والواقع : أنَّها لا تنبئ عن الاحترام الَّذي يكنُّه سعيد بن المسيِّب للصحابة في أقواله الأخرى الصَّحيحة[٣] .

٣ـ براءة عمَّار من دم عثمان رضي الله عنهما :

وممَّا يروى في ذلك اتِّهام مسروق ، وأبي موسى رضي الله عنهما لعمار بذلك عند قدومه مع الحسن لاستنفار أهل الكوفة ، وهذه الرواية قد وَهَى إسنادها بشعيبٍ المجهول ، وسيفٍ المعلول ، كما أنَّ الرِّواية الَّتي في صحيح البخاريِّ لا تذكر شيئاً من ذلك ، فزيادتها لا تحتمل القبول ، لا سيَّما مع طعنها في صحابيٍّ مثل عمَّار ابن ياسر المجار ـ على لسان النَّبيِّ ﷺ ـ من الشَّيطان[٤] ، والمليء إلى المُشاش من الإيمان[٥] .

---

(١) تاريخ دمشق (٣٩/ ٤١٥) . وعمَّار بن ياسر ، ص(١٤٤) .

(٢) تحقيق مواقف الصَّحابة (٢/ ١٦ ـ ١٨) . والتَّاريخ الكبير للبخاريِّ (١/ ٢٠٣) . والتَّهذيب (٩/ ٣٩١) . وتهذيب التَّهذيب (٩/ ٣٩٢) .

(٣) الدَّولة الأموية ، ص(٣٩) .

(٤) البخاريُّ ، رقم (٣٧٤٣) .

(٥) عمَّار بن ياسر ، ص(١٤٧) .

وقد بيَّن العلماء بطلان مثل هذا الاتِّهام الَّذي لم يختصَّ بعمَّار فحسب ، بل تعدَّاه إلى مجموعةٍ أخرى من أجلَّة الصَّحابة ، يقول ابن كثير : أمَّا ما يذكره بعض النَّاس من أن بعض الصَّحابة أسلمه ، ورضي بقتله ؛ فهذا لا يصحُّ عن أحدٍ من الصَّحابة بل كلُّهم كرهه ، ومقته ، وسبَّ مَنْ فعله[١] ، ويقول القاضي أبو بكر بن العربيِّ : فهذا أشبه ما روي في الباب ، وبه يتبيَّن ـ وأصل المسألة سلوك سبيل أهل الحقِّ ـ أنَّ أحداً من الصَّحابة لم يَسْعَ عليه ، ولا قعد عنه ، ولو استنصر ما غلب ألف أو أربعة آلاف غرباء عشرين ألفاً بلديِّين ، أو أكثر من ذلك ، ولكنَّه ألقى بيده إلى المصيبة[٢] ، ويقول : وقد انتدبت المردة ، والجهلة إلى أن يقولوا : إنَّ كلَّ فاضل من الصَّحابة كان عليه مشاغباً مؤلِّباً ، وبما جرى عليه راضياً ، واخترعوا كتاباً فيه فصاحةٌ وأمثالٌ ، كتب عثمان به مستصرخاً إلى عليٍّ ، وذلك كلٌّ مصنوعٌ ، ليوغروا قلوب المسلمين على السَّلف الماضين ، والخلفاء الرَّاشدين ، فالذي يُنخَل من ذلك : أنَّ عثمان مظلومٌ محجوجٌ بغير حجَّة ، وأنَّ الصَّحابة بُرآء من دمه بأجمعهم ؛ لأنَّهم أتوا إرادته ، وسلَّموا له رأيه في إسلام نفسه[٣] .

ثالثاً : براءة عمرو بن العاص من دم عثمان :

لما أحيط بعثمان رضي الله عنه خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجِّهاً إلى الشَّام ، وقال : والله يا أهل المدينة ! ما يقيم بها أحدٌ فيدركه قتل هذا الرَّجل إلا ضربه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بذلٍّ ، ومن لم يستطع نصره ؛ فليهرب ، فسار ، وسار معه ابناه عبد الله ، ومحمَّد ، وخرج بعده حسَّان بن ثابت ، وتتابع على ذلك ما شاء الله[٤] ، وعندما جاءه الخبر عن مقتل عثمان رضي الله عنه وبأنَّ النَّاس بايعوا عليَّ بن أبي طالبٍ ، قال عمرو : أنا أبو عبد الله ، تكون حربٌ مَنْ حكَّ فيه قرحةً ؛ نكأها ، رحم الله عثمان ، ورضي الله عنه ، وغفر له ! فقال سلامة بن زنباع الجذاميُّ : يا معشر العرب ! إنَّه قد كان بينكم وبين العرب بابٌ ، فاتَّخذوا باباً ؛ إذ كسر الباب . فقال عمرو : وذاك الَّذي نريد ، ولا يصلح الباب إلا أشافٍ[٥] ، تُخرج الحقَّ من حافرة البأس ، ويكون النَّاس في العدل سواءً ، ثم تمثَّل عمرو بن العاص بهذه الأبيات :

فَيَـا لَهْـفَ نَفْسِـي عَلَـى مَـالِـكٍ   أَيصْـرِفُ مَـالِـكُ حِفْـظَ القَـدَرْ

---

(١) البداية والنِّهاية (٧/ ٢٠٧) .

(٢) العواصم من القواصم ، ص(١٢٩) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٣٢) .

(٤) تاريخ الطَّبري ، نقلاً عن عمرو بن العاص ، للغضبان ، ص(٤٦٤) .

(٥) أشافٍ : جمع أشفى ، وهو المثقب .

أَنْـــزِعُ مِـــنَ الحَـــرِّ[١] أَوْدَى بِهِـــمْ فَـــأَعْـــذُرُهُـــمْ أَمْ بِقَـــومِـــي سَكَـــرْ

ثمَّ ارتحل راجلاً يبكي ، ويقول : يا عثماناه ! أنعي الحياء ، والدِّين . . حتَّى قدم دمشق[٢] .

هذه هي الصُّورة الصَّادقة عن عمرو رضي الله عنه والمتتالية مع شخصيته ، وخطِّ حياته ، وقربه من عثمان . أمَّا الصُّورة الَّتي تمسخه إلى رجل مصالح ، وصاحب مطامع ، وراغب دنيا ، فهي الرِّواية المتروكة الضَّعيفة رواية الواقديِّ عن موسى بن يعقوب[٣] وقد تأثَّر بالرِّوايات الضَّعيفة ، والسَّقيمة مجموعةٌ من الكتَّاب والمؤرِّخين ، فأهووا بعمرو إلى الحضيض ، كالَّذي كتبه محمود شيت خطَّاب[٤] ، وعبد الخالق سيِّد أبو رابية[٥] ، وعبَّاس محمود العقَّاد الَّذي يتعالى عن النَّظر في الإسناد ، ويستخفُّ بقارئه ، ويظهر له صورة معاوية وعمرو رضي الله عنهما بأنَّهما : انتهازيَّان ، صاحبا مصالح ، ولو أجمع النَّاقدون التَّاريخيُّون على بطلان الرِّوايات الَّتي استند إليها في تحليله فهذا لا يعني للعقَّاد شيئاً ، فقد قال بعد أن ذكر رواياتٍ ضعيفةً ، واهيةً ، لا تقوم بها حجَّةٌ : . . وليقل النَّاقدون التَّاريخيُّون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار ، وصحَّة هذه الكلمات ، وما ثبت نقله ، ولم يثبت منه سندُه ، ولا نصُّه فالَّذي لا ريب فيه ، ولو أجمعت التَّواريخ قاطبةً على نقضه : أنَّ الاتفاق بين الرَّجلين ، كان اتفاق مساومةٍ ، ومعاونةٍ على الملك ، والولاية ، وأنَّ المساومة بينهما كانت على النَّصيب الَّذي آل على كلٍّ منهما ، ولولاه لما كان بينهما اتِّفاقٌ[٦] .

إنَّ شخصية عمروَ بن العاص رضي الله عنه الحقيقية : أنَّه رجل مبادئَ غادر المدينة حين عجز عن نصرة عثمان ، وبكى عليه بكاءً مُرّاً حين قُتل ، فقد كان من أقرب أصحابه ، وخلانه ، ومستشاريه ، وكان يدخل في الشُّورى ـ في عهد عثمان ـ من غير ولاية ، ومضى إلى معاوية رضي الله عنهما ليتعاونا معاً على حرب قتلة عثمان والثَّأر للخليفة الشَّهيد[٧] ، لقد كان مقتل عثمان كافياً لأن يحرِّك كلَّ غضبه على أولئك المجرمين السَّفَّاكين ، وكان لا بدَّ من اختيار مكانٍ غير المدينة للثأر من هؤلاء الَّذين تجرَّؤوا على حرم رسول الله ، وقتلوا خليفته على أعين

---

(١) الحرُّ ، جمع حرَّة ، وهي الظُّلمة الشَّديدة .

(٢) تاريخ الطَّبري ، نقلاً عن عمرو بن العاص ، للغضبان ، ص(٤٨١) .

(٣) عمرو بن العاص ، للغضبان ، ص(٤٨١) .

(٤) سفراء النَّبي ﷺ ، ص(٥٠٨) .

(٥) عمرو بن العاص ، لعبد الخالق سيد أبو رابية ، ص(٣١٦) .

(٦) عمرو بن العاص ، للعقاد ، ص(٢٣١ـ٢٣٢) .

(٧) عمرو بن العاص ، للغضبان ، ص(٤٨٩ ، ٤٩٠) .

النَّاس ، وأيُّ غرابةٍ أن يغضب عمرو لعثمان ؟ وإن كان هناك من يشكُّ في هذا الموضوع ؛ فمداره على الرِّوايات المكذوبة الّتي تصوِّر عمراً : كلُّ همِّه السُّلطة والحكم[١] .

رابعاً : من أقوال الصَّحابة في الفتنة :

١ـ أنس بن مالك رضي الله عنه :

قيل لأنس بن مالك رضي الله عنه : إنَّ حبَّ عليٍّ ، وعثمان لا يجتمعان في قلبٍ ، فقال أنس : كذبوا ! لقد اجتمع حبُّهما في قلوبنا[٢] .

٢ـ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

عن خالد بن الرَّبيع قال : سمعنا بوجع حذيفة ، فركب إليه أبو مسعودٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه في نفرٍ فيهم إلى المدائن ، قال : ثمَّ ذكر قتل عثمان ، فقال : اللَّهمَّ إنِّي لم أشهد ، ولم أقتل ، ولم أرضِ[٣] ! وأخرج أحمد بن حنبل عن ابن سيرين عن حذيفة ، قال : لمَّا بلغه قتل عثمان ؛ قال : اللَّهمَّ إنَّك تعلم براءتي من دم عثمان ، فإن كان الّذين قتلوه أصابوا ، فإنِّي بريءٌ منهم ، وإن كانوا أخطؤوا فقد تعلم برائتي من دمه ، وستعلم العرب لئن كانت أصابت بقتله ؛ لحلبنا بذلك لبناً ، وإن كانت أخطأت بقتله لتحتلبنَّ بذلك دماً ، فاحتلبوا بذلك دماً ، ما رفعت عنهم السُّيوف ، ولا القتل[٤] .

وروى ابن عساكر عن جندب بن عبد الله ـ له صحبةٌ ـ : أنَّه لقي حذيفة ، فذُكِرَ له أمير المؤمنين عثمان فقال : أما إنَّهم سيقتلونه ! قال : قلت : فأين هو ؟ قال : في الجنَّة ، قلت : فأين قاتلوه ؟ قال : في النَّار[٥] .

٣ـ أُمُّ سليم الأنصاريَّة رضي الله عنها :

قالت أمُّ سليم الأنصاريَّة رضي الله عنها لما سمعت بقتل عثمان : رحمه الله ! أما إنَّه لن يحلبوا بعده إلا دماً[٦] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٩٢) .

(٢) تحقيق مواقف الصَّحابة (٢/ ٢٥) . والتَّهذيب لابن حجر (٧/ ١٤١) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢/ ٢٧) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٢٨) ، تاريخ دمشق ، ص(٣٨٨) .

(٦) البداية والنِّهاية (٧/ ١٩٥) .

٤ـ أبو هريرة رضي الله عنه :

وعن أبي مريم قال : رأيت أبا هريرة يوم قتل عثمان وله ضفيرتان ، وهو ممسكٌ بهما ، وهو يقول : قُتل والله عثمان على غير وجه الحقِّ[١] !

٥ـ أبو بكرة رضي الله عنه :

وروى ابن كثير في البداية والنهاية عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : لأن أخرَّ من السَّماء إلى الأرض أحبُّ إليَّ من أن أُشْرَكَ في قتل عثمان[٢] .

٦ـ أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه :

عن أبي عثمان النَّهديِّ قال أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه : إنَّ قتل عثمان رضي الله عنه لو كان هدىً ، لاحتلبت به الأمَّة لبناً ، ولكنَّه كان ضلالاً ، فاحتلبت به دماً[٣] .

٧ـ سَمُرَة بن جندب رضي الله عنه :

روى ابن عساكر بإسناده إلى سمُرة بن جُنْدُب رضي الله عنه قال : إنَّ الإسلام كان في حصنٍ حصينٍ ، وإنَّهم ثلموا في الإسلام ثلمةً بقتلهم عثمان ، وإنَّهم شرطوا أشرطةً ، وإنَّهم لم يسدُّوا ثلمتهم ، أو لا يسدُّونها إلى يوم القيامة ، وإنَّ أهل المدينة كانت فيهم الخلافة ، فأخرجوها ، ولم تعد فيهم[٤] .

٨ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما :

وأخرج أبو نعيم في (معرفة الصَّحابة) بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : عثمان بن عفَّان ذو النُّورين قتل مظلوماً ، أوتي كفلين من الأجر[٥] .

٩ـ عبد الله بن سلام رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : لا تقتلوا عثمان فإنَّكم إن فعلتم ، لم تصلُّوا جميعاً[٦] أبداً ! وفي روايةٍ : والله لا تهرقون مِحْجَماً من دمٍ ـ أي : من دم عثمان ـ إلا ازددتم به من الله بُعداً[٧] .

---

(١) تحقيق مواقف الصَّحابة (٢/ ٣١) ، تاريخ دمشق ، ص(٤٩٣) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) تاريخ المدينة (٤/ ١٢٤٥) .

(٤) تحقيق مواقف الصَّحابة (٢/ ٣١) . تاريخ دمشق ، ص(٣٨٨) .

(٥) معرفة الصَّحابة (١/ ٢٤٥) . والمعجم الكبير (١/ ٤٦) .

(٦) تحقيق مواقف الصَّحابة (٢/ ٣٤) . فضائل الصَّحابة وإسناده صحيحٌ .

(٧) الطَّبقات (٣/ ٨١) .

١٠ـ الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما :

عن طلق بن خشاف ، قال : انطلقنا إلى المدينة ، ومعنا قُرط بن خيثمة ، فلقينا الحسن بن عليٍّ ، فقال له قرط : فيم قُتِل أمير المؤمنين عثمان؟ فقال : قُتِل مظلوماً[١] .

١١ـ سلمة بن الأكوع رضي الله عنه :

وعن يزيد بن أبي عبيدة ، قال : لمَّا قُتِل عثمان ؛ خرج سلمة بن الأكوع ـ وهو بدريٌّ ـ من المدينة قبل الرَّبذة ، فلم يزل بها حتَّى كان قبيل أن يموت[٢] .

١٢ـ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

فعن أبي حازمٍ ، قال : كنت عند عبد الله بن عمر بن الخطَّاب ، فذكر عثمان ، فذكر فضله ، ومناقبه ، وقرابته ؛ حتَّى تركه أنقى من الزُّجاجة ، ثمَّ ذكر علي بن أبي طالبٍ ، فذكر فضله ، وسابقته ، وقرابته ؛ حتَّى تركه أنقى من الزُّجاجة ، ثم قال : من أراد أن يذكر هذين فليذكرهما ، هكذا ، أو فليدع[٣] ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما أيضاً : لا تسبُّوا عثمان ، فإنَّا كنا نعدُّه من خيارنا[٤] .

خامساً : أثر مقتل عثمان في حدوث فتنٍ أخرى :

لقد كانت فتنة قتل عثمان سبباً في حدوث كثيرٍ من الفتن الأخرى ، وألقت بظلالها على أحداث الفتن الّتي تلتها ، فتغيَّرت قلوب الناس ، وظهر الكذب ، وبدأ الخط البيانيُّ للانحراف عن الإسلام في عقيدته ، وشريعته[٥] ، وكان مقتل عثمان من أعظم الأسباب الّتي أوجبت الفتن بين النَّاس ، وبسببه تفرَّقت الأمَّة إلى اليوم[٦] ، فتفرَّقت القلوب ، وعظمت الكروب ، وظهرت الأشرار ، وذلَّ الأخيار ، وسعى في الفتنة من كان عاجزاً عنها ، وعجز عن الخير والصَّلاح من كان دأبه إقامته ، فبايعوا أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وهو أحق النَّاس بالخلافة حينئذٍ ، وأفضل من بقي ، لكنَّ القلوب متفرقةٌ ، ونار الفتنة متوقِّدةٌ ، فلم تتَّفق الكلمة ، ولم تنتظم الجماعة ، ولم يتمكَّن الخليفة ، وخيار الأمَّة من كلِّ ما يريدونه من الخير ، ودخل في الفرقة ، والفتنة أقوامٌ[٧] .

---

(١) تاريخ المدينة (٤/ ١٢٤) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٣٧٩) .

(٤) تحقيق مواقف الصَّحابة (٢/ ٣٧٩) . فضائل الصَّحابة وإسناده صحيحٌ .

(٥) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٥٩٠) .

(٦) مجموعة الفتاوى (٢٥/ ١٦٢) .

(٧) المصدر السَّابق نفسه .

وبدأ ضعف الفتوحات تدريجيّاً خلال السِّنين الأخيرة من خلافة عثمان ، عندما بدأت الفتن تضرب بلاد الإسلام ومركز الخلافة ، ثمَّ توقفت عندما قتل عثمان ، واستمرَّت متوقِّفة ـ بل تراجعت في بعض الأماكن ـ إلى بداية عهد معاوية ، حيث استقرَّت أحوال المسلمين ، فانطلقت الفتوحات شرقاً ، وغرباً وشمالاً[(١)] .

سادساً : الظُّلم والاعتداء على الآخرين من أسباب الهلاك في الدُّنيا ، والآخرة :

إنَّ الظَّلم ، والاعتداء على الآخرين بغير حقٍّ ، من أسباب الهلاك في الدُّنيا والآخرة ، كما قال الله عز وجل : ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف : ٥٩] وإنَّ المتتبع لأحوال أولئك الخارجين على عثمان رضي الله عنه المعتدين عليه يجد : أن الله تعالى لم يمهلهم ، بل أذلَّهم ، وأخزاهم ، وانتقم منهم فلم ينجُ منهم أحد[(٢)] .

روى خليفة بن خيَّاط في تاريخه بإسنادٍ صحيح إلى عمران بن الحُدير ، قال : إن لا يكن عبد الله بن شقيق حدَّثني أنَّ أوَّل قطرةٍ قطرت من دمه ـ يعني : عثمان ـ على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة : ١٣٧] ، فإنَّ أبا حُريث ذكر : أنَّه ذهب وسُهيلُ النَّميري ، فأخرجوا إليه المصحف ، فإذا القطرة على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فإنَّها في المصحف ما حُكَّتٍ ، وفي تاريخ ابن عساكر عن محمَّد بن سيرين قال : كنت أطوف بالكعبة ، فإذا رجل يقول : اللهمَّ اغفر لي ، وما أظنُّ أن تغفر لي ! قلت : يا عبد الله ! ما سمعت أحداً يقول ما تقول ! قال : كنت أعطيت الله عهداً إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته ، فلمَّا قُتل وُضع على سريره في البيت ، والنَّاس يجيئون ، فيصلُّون عليه ، فدخلت كأني أصلِّي عليه ، فوجدت خلوةً فرفعت الثَّوب عن وجهه ، فلطمت وجهه ، وسجَّيته ، وقد يبست يميني ، قال محمَّد بن سيرين : رأيتها يابسةً كأنَّها عود[(٣)] ، ولو لم يكن من آثار ظلم هؤلاء الحاقدين إلا سلُّ المسلمين السَّيف عليهم إلى يوم القيامة ؛ لكفى بذلك رادعاً لهم ، ولكلٍّ من سار في فلكهم ، قال القاسم بن محمَّد : مر عليٌّ رضي الله عنه على رجلين بالمدينة بعدما قتل عثمان ، وقبل بيعته ، وهما يقولان : قتل ابن بيضاء ، ومكانه من الإسلام والعرب ، ثمَّ والله ما انتطح فيه عنزان ! فقال عليٌّ : ما قُلتما ؟ فأعادا عليه، فقال : بلى والله ! ورجالٌ بعد رجالٍ ، وكتائب بعد كتائب ، أو يخرج ابن مريم[(٤)] .

---

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص(٥٩١) .

(٢) تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة (١/ ٤٨٣) .

(٣) سير الشُّهداء دروس وعبر ، للسحيباني ، ص(٦٧) . تاريخ دمشق ، ص(٤٥٨) ، وتحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٤٨٥) .

(٤) تحقيق مواقف الصَّحابة (١/ ٤٨٥) .

سابعاً : تأثُّر المسلمين لمقتل عثمان رضي الله عنه ، وما قيل من أشعار :

كان وقع المصيبة على نفوس المؤمنين عظيماً ، فجلَّلهم الحزن ، وفاضت مآقيهم بالدُّموع ، ولهجت ألسنتهم بالثَّناء على عثمان ، رضي الله عنه ، والتَّرحُّم عليه ، وقام حسَّان بن ثابت رضي الله عنه يرثي أمير المؤمنين ، ويكثر التفجُّع لمقتله ، ويهجو قاتليه ، ويقْرَعُهُم بما كسبت أيديهم[(١)] ، فيقول :

أَتَـرَكْتُـمُ غَـزْوَ الـدُّرُوبِ وَرَاءَكُـمْ ... وَغَـزَوْتُمُـونَـا عِنْـدَ قَبْـرِ مُحَمَّـدِ
فَلَبِئْـسَ هَـدْيُ المُسْلِمِيْـنَ هُـدِيْتُـمُ ... وَلَبِئْـسَ أَمْـرُ الفَـاجِـرِ المُتَعَمِّـدِ
إِنْ تُقْـدِمُـوا نَجْعَـلْ قِـرَى سَـرَوَاتِكُـمْ ... حَـوْلَ المَـدِيْنَـةِ كُـلَّ لِيْـنٍ مِـذْوَدِ[(٢)]
أَوْ تُـدْبِـرُوا فَلَبِئْـسَ مَـا سَـافَـرْتُـمُ ... وَلِمِثْـلُ أَمْـرِ أَمِيْـرِكُـمْ لَـمْ يَـرْشُـدِ
وَكَـأَنَّ أَصْحَـابَ النَّبِـيِّ عَشِيَّـةً ... بُـدْنٌ تُـذَبَّـحُ عِنْـدَ بَـابِ المَسْجِـدِ
أَبْكِـي أَبَـا عَمْـرٍو لِحُسْـنِ بَـلائِـهِ ... أَمْسَـى مُقِيمـاً فـي بَقِيْـعِ الغَـرْقَـدِ[(٣)]

* وقال حسَّان أيضاً :

مَـاذَا أَرَدْتُـمْ مِـنْ أَخِـي الـدِّيْـنِ بَـارَكَـتْ ... يَـدُ الله فِـي ذَاكَ الأَدِيْـمِ المُقَـدَّدِ[(٤)]
قَتَلْتُـمْ وَلِـيَّ الله فِـي جَـوْفِ دَارِه ... وَجِئْتُـمْ بِـأَمْـرٍ جَـائِـرٍ غَيْـرَ مُهْتَـدِ
فَهَـلا رَعَيْتُـمْ ذِمَّـةَ الله بَيْنَكُـمْ ... وَأَوْفَيْتُـمُ بِـالْعَهْـدِ عَهْـدِ مُحَمَّـدِ
أَلَـمْ يَـكُ فِيْكُـمْ ذَا بَـلاءٍ ومَصْـدَقٍ ... وَأَوْفَـاكُـمُ عَهْـداً لَـدَى كُـلِّ مَشْهَـدِ
فَـلا ظَفِـرَتْ أَيْمَـانُ قَـوْمٍ تَبَـايَعُـوا ... عَلَـى قَتْـلِ عُثْمَـانَ الـرَّشِيْـدِ المُسَـدَّدِ[(٥)]

* وقال حسَّان أيضاً :

مَـنْ سَـرَّه الْمَـوْتُ صَـرْفـاً لاَ مِـزاجَ لَـهُ ... فَلْيَـأْتِ مَـأْسَـدَةً فِـي دَارِ عُثْمَـانَـا
مُسْتَشْعِـري حَلَـقِ المَـاذِيِّ[(٦)] قَـدْ شُفِعَـتْ ... قَبْـلَ الْمَخَـاطِـمِ[(٧)] بَيْـضٌ زان أَبْـدَانَـا

---

(١) سير الشهداء ، للسحيباني ، ص(٦٢) .
(٢) مذود : آلة الذَّود .
(٣) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٤٥) .
(٤) الأديم المقدَّد : الجلد اليابس .
(٥) البداية والنِّهاية (٧/ ٢٠٥) .
(٦) الماذيُّ : خالص الحديد .
(٧) المخاطم : الأنوف .

صَبْراً فِدًى لَكُمُ أُمِّي وَمَا وَلَدَتْ ... قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِي المَكْرُوهِ أَحْيَانَا
فَقَدْ رَضِيْنَا بِأَهْلِ الشَّامِ نَافِرَةً ... وَبِالأَمِيْرِ وبِالإِخْوانِ إِخْوانَا
إِنِّي لَمِنْهُمْ وإِنْ غَابُوا وَإِنْ شَهِدُوا ... مَا دُمْتُ حيّاً وَمَا سُمِّيْتُ حسَّانا
لَتَسْمَعُنَّ وَشِيْكاً فِي دِيَارِهِم ... الله أكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَا[1] !

وقال أيضاً :

إِنْ تُمْسِ دَارُ ابْنِ أَرْوَى مِنْهُ خَاوِيَةً ... بَابٌ صَرِيْعٌ وَبَابٌ مُخْرَقٌ خَرِبُ
فَقَدْ يُصَادِفُ بَاغِي الخَيْرِ حَاجَتَهُ ... فِيْهَا وَيَهْوِي إِلَيْهَا الذِّكْرُ وَالْحَسَبُ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَبْدُوا ذَاتَ أَنْفُسِكُمْ ... لاَ يَسْتَوِي الصِّدْقُ عِنْدَ الله وَالْكَذِبُ
قُومُوا بِحَقِّ مَلِيْكِ النَّاسِ تَعْتَرِفُوا ... بِغُرَّةٍ عُصَبٌ مِنْ خَلْفِهَا عُصَبُ
فِيْهِمْ حبيبٌ شهابُ الموتِ يَقدُمُهُم ... مُسْتَلْئِماً قَدْ بَدَا فِي وَجْهِهِ الغَضَبُ[2]

* وقال كعب بن مالك ، رضي الله عنه :

وَيْحٌ لأَمْرٍ قَدْ أَتَانِي رَائِعٌ ... هدّ الجبال فَأنْغضَتْ بِرُجُوفِ
قَتْلُ الإِمَامِ لَهُ النُّجُومُ خَوَاضِعٌ ... والشَّمْسُ بَازِغَةٌ لَهُ بِكُسُوفِ
يَا لَهْفَ نَفْسِي إِذْ تَوَلَّوا غَدْوَةً ... بِالنَّعْشِ فَوْقَ عَوَاتِقٍ وَكُتُوفِ
وَلَّوا وَدَلَّوا فِي الضَّرِيْحِ أَخَاهُمُ ... مَاذَا أَجَنَّ ضَرِيْحُهُ المَسْقُوفُ[3]
مِنْ نَائِلٍ أَوْ سُؤْدُدٍ وَحمَالَةٍ ... سَبَقَتْ لَهُ فِي النَّاسِ أَوْ مَعْرُوْفِ
كَمْ مِنْ يَتِيْمٍ كَانَ يَجْبُرُ عَظْمَهُ ... أَمْسَى بِمَنْزِلَةِ الضَّيَاعِ يَطُوفُ
فَرَّجْتَهَا عَنْهُ بِرُحْمِكَ بَعْدَمَا ... كَادَتْ وَأَيْقَنَ بَعْدَهَا بِحُتُوفِ
مَا زَالَ يَقْبَلُهُمْ وَيَرْأَبُ ظُلْمَهُمْ ... حَتَّى سَمِعْتُ بِرَنَّةِ التَّلْهِيْفِ
أَمسَى مُقِيْماً بِالْبَقِيْعِ وَأَصْبَحُوا ... مُتَفَرِّقِيْنَ قَدْ أَجْمَعُوا بِخُفُوفِ[4]
النَّارُ مَوْعِدُهُمْ بِقَتْلِ إِمَامِهِمْ ... عُثْمَانَ صِهْرٍ فِي البِلادِ عَفِيْفِ
جَمَعَ الحَمَالَةَ[5] بَعْدِ حِلْمٍ رَاجِحٍ ... وَالْخَيْرُ فِيْهِ مُبَيَّنٌ مَعْرُوْفُ
يَا كَعْبُ لا تَنْفَكَّ تَبْكِي هَالِكاً ... مَا دُمْتَ حَيّاً فِي البِلَادِ تَطُوفُ

---

(١) تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٤٧) .
(٢) حبيب بن مسلمة الفهري ، تاريخ الطَّبري (٥/ ٤٤٦) .
(٣) التمهيد والبيان ، ص(٢١٠) .
(٤) التمهيد والبيان ، ص(٢١١) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .

وقال كعب أيضاً :

فَكَفَّ يَدَيْهِ ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ ... وَأَيْقَنَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِغَافِلِ
وَقَالَ لأَهْلِ الدَّارِ لاَ تَقْتُلُوهُمْ ... عَفَا اللهُ عَنْ كُلِّ امرىءٍ لَمْ يُقَاتِلِ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللهَ صَبَّ عَلَيْهِمُ ... العَدَاوَةَ والْبَغْضَاءَ بَعْدَ التَّوَاصُلِ ؟
وَكَيْفَ رَأَيْتَ الْخَيْرَ أَدْبَرَ بَعْدَهُ ... عَنِ النَّاسِ إِدْبَارَ النَّعَامِ الجَوَافِلِ[1]

* وقال راعي الإبل النّميريُّ في ذلك :

عَشِيَّةَ يَدْخُلونَ بِغَيْرِ إِذْنٍ ... عَلَى مُتَوَكِّلٍ أَوفى وَطَابَا
خَلِيْلُ مُحَمَّدٍ وَوَزِيْرُ صِدْقٍ ... وَرَابِعُ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ التُّرَابَا[2]

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) البداية والنِّهاية (٧/ ٢٠٥) .

(٢) أي : خير من وطئ التُّراب في أمَّة محمَّدٍ ﷺ بعد رسول الله ﷺ ، ثمَّ أبو بكر ، ثمَّ عمر ، ثمَّ عثمان . البداية والنِّهاية (٧/ ٢٠٦) .

الخلاصـــــة

١ ـ كان رضي الله عنه في أيَّام الجاهلية من أفضل النَّاس في قومه ؛ فهو عريضُ الجاه ، ثريٌّ ، شديد الحياء ، عذب الكلمات ، فكان قومه يحبُّونه أشدَّ الحبِّ ، ويوقِّرونه ، لم يسجد في الجاهلية لصنم قطُّ ، ولم يقترف فاحشةً قطُّ ، فلم يشرب الخمر في الجاهليَّة .

٢ ـ كان عثمان قد ناهز الرَّابعة والثلاثين من عمره حين دعاه أبو بكر الصِّدِّيق إلى الإسلام ، ولم يعرف عنه تلكُّؤٌ ، أو تلعثمٌ ، بل كان سباقاً أجاب على الفور دعوة الصِّدِّيق ، فكان بذلك من السَّابقين الأولين .

٣ ـ فرح المسلمون بإسلام عثمان فرحاً شديداً ، وتوثَّقت بينه وبينهم عُرا المحبَّة وأخوَّة الإيمان ، وأكرمه الله تعالى بالزَّواج من بنت رسول الله ﷺ رقيَّة .

٤ ـ إنَّ سنَّة الابتلاء ماضيةٌ في الأفراد ، والجماعات ، والشُّعوب ، والأمم ، والدُّول ، وقد مضت هذه السُّنَّة في الصَّحابة الكرام ، وتحمَّلوا من البلاء ما تنوء به الرَّواسي الشَّامخات ، وبذلوا أموالهم ، ودماءهم في سبيل الله ، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء ، فقد أوذي عثمان ، وعذِّب في سبيل الله تعالى على يدي عمِّه الحكم بن أبي العاص .

٥ ـ منذ اليوم الَّذي أسلم فيه عثمان لزم النَّبيّ ﷺ حيث كان ، ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه ، أو في مهمَّةٍ من المهامِّ الَّتي يندب لها ، ولا يغني فيها أحدٌ غناءه ، شأنه في هذه الملازمة شأن الخلفاء الرَّاشدين جميعاً ، كأنَّما هي خاصَّةٌ من خواصِّهم ، رشَّحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين .

٦ ـ كان ذو النُّورين على صلةٍ وثيقةٍ بالدَّعوة الكبرى من سنتها الأولى ، فلم يَفُتْهُ من أخبار النُّبوَّة الخاصَّة ، والعامَّة في حياة النَّبيّ ﷺ ، ولم يَفُتْهُ شيءٌ بعدها من أخبار الخلافة في حياة الشَّيخين ، ولم يَفُتْهُ بعبارةٍ أخرى شيءٌ ممَّا نسمِّيه اليوم بأعمال التأسيس في الدَّولة الإسلاميَّة .

٧ ـ كانَ المنهج التَّربويُّ الَّذي تربَّى عليه عثمان بن عفَّان ، وكلُّ الصَّحابة الكرام هو القرآن الكريم ، المنزَّل من عند ربِّ العالمين .

٨ ـ إنَّ الرَّافد القويَّ الّذي أثَّر في شخصية عثمان بن عفَّان ، وصقل مواهبه ، وفجَّر طاقته ، وهذَّب نفسه هو مصاحبته لرسول الله ﷺ ، وتتلمذه على يديه في مدرسة النُّبوة ، ذلك : أنَّ عثمان رضي الله عنه لازم الرَّسول ﷺ في مكَّة بعد إسلامه كما لازمه في المدينة بعد هجرته ، فقد نظَّم عثمان نفسه ، وحرص على التلمذة في حلقات مدرسة النُّبوَّة في فروع شتَّى من المعارف والعلوم على يدي معلم البشريَّة ، وهاديها ، والّذي أدَّبه ربُّه ، فأحسن تأديبه .

٩ ـ لم يكن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ممَّن تخلَّفوا عن بدرٍ لتقاعسٍ منه ، أو هروبٍ ينشده ، كما يزعم أصحاب الأهواء ممَّن طعن عليه بتغيُّبه عن بدرٍ ، فهو لم يقصد مخالفة الرَّسول ﷺ ، لأنَّ الفضل الّذي حازه أهل بدر في شهود بدر طاعةُ الرَّسول ، ومتابعتُه ، وعثمان رضي الله عنه خرج فيمن خرج مع رسول الله ﷺ فردَّه ﷺ للقيام على ابنته ، فكان في أجَلِّ فرضٍ لطاعته لرسول الله ، وتخلّفه ، وقد ضرب له بسهمه ، وأجره ، فشاركهم في الغنيمة ، والفضل ، والأجر لطاعته الله ورسوله ، وانقياده لهما .

١٠ ـ في الحديبية ذكر المحبُّ الطَّبريُّ اختصاص عثمان بعدَّة أمورٍ ، منها : اختصاصه بإقامة يد النَّبيِّ الكريمة مقام يد عثمان لمَّا بايع الصَّحابةَ ؛ وعثمان غائبٌ ، واختصاصه بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى مَنْ بمكَّة أسيراً من المسلمين ، وذكر شهادة النَّبيِّ لعثمان بموافقته في ترك الطَّواف لمَّا أرسله في تلك الرسالة .

١١ ـ قبل رسول الله ﷺ شفاعة عثمان بن عفَّان في عبد الله بن أبي السَّرح في فتح مكَّة .

١٢ ـ من حياة عثمان رضي الله عنه الاجتماعية في المدينة : زواجه من أمِّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة رقيَّة بنت رسول الله ، ووفاة عبد الله بن عثمان ، ثم وفاة أمِّ كلثوم رضي الله عنهما .

١٣ ـ من مساهمته الاقتصادية في بناء الدَّولة : شراء بئر رُومة بعشرين ألف درهم ، وجعلها عثمان رضي الله عنه للغني والفقير وابن السبيل ، وتوسعة المسجد النَّبويِّ ، وإنفاقه الكبير على جيش العسرة .

١٤ ـ وردت أحاديث كثيرة في فضل عثمان رضي الله عنه ؛ منها ما ورد في فضله مع غيره ، ومنها ما ورد في فضله وحده ، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن الفتنة الّتي يُقتل فيها عثمان .

١٥ ـ كان عثمان رضي الله عنه من الصَّحابة وأهل الشُّورى الّذين يؤخذ رأيهم في أمَّهات المسائل في عهد الصِّدِّيق ؛ فهو ثاني اثنين في الحظوة عند الصِّدِّيق ، فعمر ابن الخطاب للحزم والشَّدائد ، وعثمان للرِّفق والأناة ، وكان عمر وزير الخلافة الصِّدِّيقيَّة ، وكان عثمان أمينها العام ، وناموسها الأعظم ، وكاتبها الأكبر .

١٦ ـ كان عثمان ذا مكانة عند عمر ، فكانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شيء رَمَوه بعثمان ، وبعبد الرحمن بن عوف ، وكان عثمان يسمَّى الرَّديف ـ والرَّديف بلسان العرب هو الّذي يكون بعد الرَّجل ـ والعرب تقول ذلك للرَّجل الّذي يرجونه بَعْدَ رئيسٍ ، وكانوا إذا لم يقدر هذان على عمل شيء ؛ ثلَّثوا بالعبَّاس .

١٧ ـ من أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوف عزله نفسه من الأمر وقت الشُّورى ، واختياره للأمَّة من أشار به أهل الحلِّ ، والعقد ، فنهض في ذلك أتمَّ نهوضٍ على جمع الأمَّة على عثمان .

١٨ ـ هناك أباطيل ضالَّة ، وأكاذيب كثيرة دُسَّت في التَّاريخ الإسلاميِّ في قصَّة الشُّورى ، وتولية عثمان الخلافة ، وقد تلقَّفها المستشرقون ، وقاموا بتوسيع نشرها ، وتأثَّر بها الكثير من المؤرِّخين ، والمفكرين المُحْدَثين ، ولم يمحِّصوا الرِّوايات ، ويحقِّقوا في سندها ، ومتنها ، فانتشرت بين المسلمين .

١٩ ـ جاءت الأدلَّة الكثيرة الّتي تشير وتنبِّه إلى أحقِّيَّة عثمان رضي الله عنه بالخلافة ، ولا نزاع عند المتمسِّكين بالكتاب والسُّنَّة في ذلك ، وقد أجمع أصحاب رسول الله ، وكذا من جاء بعدهم ممَّن سلك سبيلهم من أهل السُّنَّة والجماعة على أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه أحقُّ النَّاس بخلافة النُّبوَّة بعد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما .

٢٠ ـ عندما بويع عثمان رضي الله عنه بالخلافة قام في النَّاس خطيباً ، وأعلن عن نهجه السِّياسيِّ ، مبيناً : أنَّه سيتقيَّد بالكتاب والسُّنَّة ، وسيرة الشَّيخين ، كما أنَّه أشار في خطبته إلى أنَّه سيسوس النَّاس بالحلم ، والحكمة إلا فيما استوجبوه من الحدود ، ثمَّ حذَّرهم من الرُّكون إلى الدُّنيا ، والافتتان بحطامها خوفاً من التَّنافس والتَّباغض ، والتَّحاسد بينهم ، ممَّا يفضي بالأمَّة إلى الفرقة والخلاف .

٢١ ـ إنَّ شخصية ذي النُّورين تعتبر شخصية قياديَّةً ، وقد اتَّصف رضي الله عنه بصفات القائد الرَّبَّانيِّ ؛ من العلم ، والقدرة على التَّوجيه ، والتَّعليم ، والحلم ، والسَّماحة ، واللِّين ، والعفو ، والتَّواضع ، والحياء ، والعفَّة ، والكرم ، والشَّجاعة ، والحزم ، والصَّبر ، والعدل ، والعبادة ، والخوف ، والبكاء ، والمحاسبة ، والزُّهد ، والشكر ، وتفقُّد أحوال النَّاس ، وتحديد الاختصاصات ، والاستفادة من أهل الكفاءات .

٢٢ ـ إنَّ معرفة صفات الخلفاء الرَّاشدين ، ومحاولة الاقتداء بهم خطوةٌ صحيحةٌ لمعرفة صفات القادة الرَّبَّانيِّين الّذين يستطيعون أن يقودوا الأمَّة نحو أهدافها المرسومة بخطواتٍ ثابتةٍ .

٢٣ ـ قامت سياسة عثمان الماليَّة على الأسس العامَّة التَّالية : تطبيق سياسةٍ ماليَّةٍ عامَّةٍ إسلاميَّةٍ ، عدم إخلال الجباية بالرِّعاية ، أخذ ما على المسلمين بالحقِّ لبيت مال المسلمين ، وأخذ ما على أهل الذِّمَّة لبيت مال المسلمين بالحقِّ ، وإعطاؤهم ما لهم ، وعدم ظلمهم ، وتخلُّق عمَّال الخراج بالأمانة ، والوفاء ، وتفادي أيَّة انحرافاتٍ ماليَّةٍ يسفر عنها تكامل النِّعم لدى العامَّة .

٢٤ ـ كانت النَّفقات في عهد عثمان تصرف على : صرف مرتَّبات الولاة ، ومرتَّبات الجند ، وعلى الحجِّ ، وإعادة بناء المسجد النَّبويِّ ، وتمويل توسعة المسجد الحرام ، وإنشاء أوَّل أسطولٍ بحريٍّ ، وتحويل السَّاحل من الشعيبة إلى جدَّة ، وحفر الآبار ، والإنفاق على المؤذِّنين ، وغيرها من الأمور .

٢٥ ـ اتُّهم عثمان رضي الله عنه من قبل الغوغاء والخوارج بإسرافه في بيت المال ، وإعطائه أكثره لأقاربه ، وقد ساند هذا الاتِّهام حملةٌ دعائيَّةٌ باطلةٌ قادها السَّبئيُّون ، وتلقَّفها أعداء الإسلام ضدَّه إلى يومنا هذا ، وتسرَّبت في كتب التاريخ ، وتعامل معها المفكِّرون والمؤرِّخون على كونها حقائق ، وهي باطلةٌ لم تثبت لأنَّها مختلَقةٌ .

٢٦ ـ يعتبر عهد ذي النُّورين امتداداً للعهد الرَّاشدي الَّذي تتجلَّى أهمِّيَّته بصلته بالعهد النَّبويِّ ، وقربه منه ، فكان العهد الرَّاشدي عامَّةً ، والجانب القضائيُّ فيه خاصَّةً ، امتداداً للقضاء في العهد النَّبويِّ ، مع المحافظة الكاملة ، والتَّامَّة على جميع ما ثبت في العهد النَّبويِّ ، وتطبيقه بحذافيره ، وتنفيذه بنصِّه ، ومعناه .

٢٧ ـ كانت خطَّة عثمان في الفتوحات تتَّسم بالحسم، والعزم، وتمثَّلت في الآتي : إخضاع المتمرِّدين من الفرس ، والرُّوم ، وإعادة سلطان الإسلام إلى هذه البلاد ، واستمرار الجهاد والفتوحات فيما وراء هذه البلاد لقطع المدد عنهم ، وإقامة قواعد ثابتةٍ يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلاميَّة ، وإنشاء قوَّةٍ بحريَّةٍ عسكريَّةٍ لافتقار الجيش الإسلامي إلى ذلك .

٢٨ ـ كانت معسكرات الإسلام ومسالحه (ثغوره) في عهد عثمان هي عواصم أقطاره الكبرى ، فمعسكر العراق : الكوفة ، والبصرة ، ومعسكر الشَّام في دمشق بعد أن خلص الشَّام كلُّه لمعاوية بن أبي سفيان ، ومعسكر مصر ، وكان مركزه الفسطاط ، وكانت هذه المعسكرات تقوم بحماية دولة الإسلام ، ومواصلة الفتوحات ، ونشر الإسلام .

٢٩ ـ من أشهر قادة الفتوحات في عهد عثمان رضي الله عنه : الأحنف بن قيس ، وسليمان ابن ربيعة ، وعبد الرحمن بن ربيعة ، وحبيب بن مسلمة .

٣٠ـ كانت معركة ذات الصواري من مظاهر تفوق العقيدة الصَّحيحة الصُّلبة على الخبرة العسكريَّة ، والتفوُّق في العدد والعُدد ، فلقد كان الرُّوم هم أهل البحر منذ القدم ، وقد مرُّوا بتجارب طويلةٍ في الحروب البحريَّة ، بينما كان المسلمون حديثي عهدٍ بركوب البحر ، والقتال البحريِّ .

٣١ـ من أهم الدُّروس ، والعبر ، والفوائد في فتوحات عثمان بن عفَّان رضي الله عنه : تحقُّق وعد الله للمؤمنين بالنَّصر ، والتمكين ، التطوُّر في فنون الحرب والسِّياسة ، ركوب المسلمين البحر ، جمع المعلومات عن الأعداء ، الحرص على وحدة الكلمة في مواجهة العدوِّ .

٣٢ـ يظهر من قصَّة جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه مدى فهم الصَّحابة رضي الله عنهم لآيات النَّهي عن الاختلاف ، حيث إنَّ الله نهى عن الاختلاف ، وحذَّر منه ، فلعمق فهمهم لهذه الآيات ارتعد حذيفة رضي الله عنه عندما سمع بوادر الاختلاف في قراءة القرآن ، فرحل فوراً إلى المدينة النبويَّة ، وأخبر عثمان رضي الله عنه بما رأى ، وبما سمع ، وفي مدَّة قصيرةٍ حسم عثمان الأمر ، وأغلق باب الخلاف .

٣٣ـ إنَّ الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين ، وتوحيد صفِّهم من أعظم الجهاد ، وهذه الخطوة مهمَّةٌ في إعزاز المسلمين ، وإقامة دولتهم ، وتحكيم شرع ربِّهم ، وهذا من فقه الخلفاء الرَّاشدين ، ويتجلَّى في أبهى صورةٍ في جمع عثمان رضي الله عنه للأمة على مصحفٍ واحدٍ .

٣٤ـ كانت أقاليم الدَّولة الإسلاميَّة في عهد عثمان رضي الله عنه كلاًّ من : مكَّة ، والمدينة ، والبحرين ، واليمامة ، واليمن ، وحضرموت ، والشَّام ، وأرمينية ، ومصر ، والبصرة ، والكوفة .

٣٥ـ اتَّخذ عثمان رضي الله عنه أساليب متنوِّعةً لمراقبة عمَّاله ، والاطِّلاع على أخبارهم ، منها : حضوره لموسم الحجِّ ، سؤال القادمين من الأمصار ، والولايات ، إرسال المفتِّشين إلى الولايات ، استقدام الولاة وسؤالهم ، وغير ذلك من الأساليب .

٣٦ـ من حقوق الولاة في العهد الرَّاشدي : الطَّاعة في غير معصية الله ، بذل النَّصيحة للولاة ، إيصال الأخبار الصَّحيحة إليهم ، احترامهم بعد عزلهم ، وإعطاؤهم مرتَّباتهم .

٣٧ـ من واجبات الولاة في العهد الرَّاشدي : إقامة أمور الدِّين ، تأمين النَّاس في بلادهم ، الجهاد في سبيل الله ، بذل الجهد في تأمين الأرزاق للنَّاس ، تعيين العمال ، والموظَّفين ،

رعاية أهل الذِّمَّة ، مشاورة أهل الرَّأي في ولايتهم ، النَّظر في حاجة الولاية العمرانيَّة ، مراعاة الأحوال الاجتماعيَّة لسكان الولاية .

٣٨ ـ إنَّ عثمان خليفةٌ راشدٌ يُقتدى به ، وأفعاله تشكِّل سوابق دستورية في هذه الأمَّة فكما أنَّ عمر سنَّ لمن بعده التَّحرُّج عن تقريب الأقربين ، فإنَّ عثمان سنَّ لمن بعده تقريب الأقربين إذا كانوا في كفاءتهم الإدارية ، وكلُّ ما أنكر على عثمان لا يخرج عن دائرة المباح .

٣٩ ـ إنَّ الولاة الّذين ولاهم عثمان رضي الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاية ، والمقدرة في إدارة شؤون ولاياتهم ، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان ، وساروا في الرَّعية سيرة العدل والإحسان ، ومنهم من تقلَّد مهام الولاية في عهد الصِّدِّيق ، والفاروق ، رضي الله عنهما .

٤٠ ـ إنَّ الّذي يرجع إلى الصَّحيح المحض من وقائع التَّاريخ ، ويتتبَّع سيرة الرِّجال الّذين استعان بهم أمير المؤمنين عثمان ، وما كان لجهادهم من جميل الأثر في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة ، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النَّتائج في هناء الأمَّة ، وسعادتها ؛ فإنَّه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الجهر بالإعجاب ، والفخر كلَّما أمعن في دراسة ذلك الدَّور من أدوار التَّاريخ الإسلاميِّ .

٤١ ـ إنَّ عثمان رضي الله عنه لم يسلم من كثيرٍ من الباحثين في كتاباتهم غير المنصفة ، وغير المحقَّقة عن عهد عثمان ، فقد تورَّط الكثير منهم في الرِّوايات الضَّعيفة والإماميَّة ، وبنوا أحكاماً باطلةً ، وجائرةً في حقِّ عثمان ، مثل طه حسين في كتابه : الفتنة الكبرى ، وراضي عبد الرَّحيم في كتابه : النُّظم الإسلاميَّة ، ومحمَّد الرَّيِّس في كتابه : النَّظريات السِّياسيَّة ، وعلي حسين الخربوطلي في كتابه : الإسلام والخلافة ، وأبي الأعلى المودودي في كتابه : الملك والخلافة ، وسيِّد قطب في كتابه : العدالة الاجتماعيَّة ، وغيرهم ، لقد كان عثمان رضي الله عنه بحق الخليفة المظلوم الّذي افترى عليه خصومه الأوَّلون ، ولم ينصفه المتأخِّرون .

٤٢ ـ إنَّ الحقيقة التَّاريخيَّة تقول : إنَّ عثمان رضي الله عنه لم ينف أبا ذرٍّ رضي الله عنه ، إنَّما استأذنه ، فأذن له ، ولكنَّ أعداء عثمان رضي الله عنه كانوا يشيعون عنه بأنَّه نفاه .

٤٣ ـ إنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه لم يتأثَّر لا من قريبٍ ولا من بعيد بآراء عبد الله بن سبأ اليهوديِّ ، وقد أقام بالرَّبذة حتَّى توفي ، ولم يحضر شيئاً ممَّا وقع من الفتن .

٤٤ ـ من أسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه أمورٌ عدَّةٌ ، منها : الرَّخاء ، وأثره في المجتمع ، طبيعة التحوُّل الاجتماعيِّ في عهد عثمان رضي الله عنه مجيء عثمان بعد عمر ،

رضي الله عنهما خروج كبار الصَّحابة من المدينة : العصبيَّة الجاهليَّة ، توقُّف الفتوحات ، المفهوم الخاطىء للورع ، طموح الطَّامحين ، تآمر الحاقدين ، التَّدبير المحكم لإثارة المآخذ ضدَّ عثمان ، استخدام الأساليب ، والوسائل المهيِّجة للناس ، دور عبد الله بن سبأ في الفتنة .

٤٥ ـ كانت بداية اشتعال الفتنة بالكوفة ، وقد تمَّ نفي رجالها إلى الشَّام ، ثمَّ استقرَّ أمرهم عند عبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد بالجزيرة ، ثمَّ رجعوا إلى الكوفة بعد مكاتبة يزيد بن قيس لهم بالمجيء للكوفة .

٤٦ ـ كانت سياسة عثمان رضي الله عنه في التَّعامل مع الفتنة قائمةً على الحلم ، والتَّأنِّي ، والعدل ، وقد اتَّخذ عدَّة أساليب لمواجهتها منها : إرسال لجان تفتيشٍ ، وتحقيقٍ ، كتب إلى أهل الأمصار كتاباً شاملاً بمثابة إعلانٍ عامٍّ لكلِّ المسلمين ، مشورة عثمان لولاة الأمصار ، إقامة الحجَّة على المتمرِّدين ، الاستجابة لبعض مطالبهم .

٤٧ ـ إنَّ المتأمِّل في هدي عثمان رضي الله عنه في تعامله مع الفتنة الَّتي وقعت في عهده ، يمكنه أن يستنبط بعض الضَّوابط الَّتي تعين المسلم لمواجهته للفتن ، ومن هذه الضَّوابط : التَّثبُّت ، لزوم العدل ، والإنصاف ، والحلم ، والأناة ، الحرص على ما ينفع ، ونبذ ما يفرِّق بين المسلمين ، لزوم الصَّمت والحذر من كثرة الكلام ، استشارة العلماء الربَّانيين ، الاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ في الفتن .

٤٨ ـ يظهر للباحثين أنَّ هناك أسباباً دعت عثمان إلى منع الصَّحابة من القتال ، وهي : العمل بوصيَّة الرَّسول ﷺ الَّتي سارَّه بها ، وبيَّنها عثمان رضي الله عنه يوم الدَّار ، وأنَّها عهدٌ عُهِد به إليه ، وأنَّه صابرٌ نفسه عليه ، كره أن يكون أوَّل من خلف رسول الله ﷺ في أمَّته بسفك دماء المسلمين ، عِلْمُه بأنَّ البغاة لا يريدون غيره ، فكره أن يتوقَّى بالمؤمنين ، وأحبَّ أن يقيهم بنفسه ، عِلْمُهُ بأنَّ هذه الفتنة فيها قتلُه ، وذلك فيما أخبره بها رسول الله ﷺ عند تبشيره إيَّاه بالجنة على بلوى تصيبه ، وأنَّه سيقتل مصطبراً بالحقِّ ، معطيه في فتنة ، العمل بمشورة ابن سلام رضي الله عنه له ، إذ قال له : الكفَّ ! الكفَّ ! فإنَّه أبلغ لك في الحجَّة .

٤٩ ـ إنَّ قاتل عثمان رضي الله عنه رجلٌ مصريٌّ ، لم تفصح الرِّوايات عن اسمه ، وأمَّا ما يتعلَّق بتهمة محمَّد بن أبي بكرٍ بقتل عثمان بمشاقصه ، فهذا باطلٌ ، والرِّوايات بذلك رواياتٌ ضعيفةٌ ، كما أنَّ متونها شاذَّةٌ لمخالفتها للرِّواية الصَّحيحة الَّتي تبيِّن : أنَّ القاتل هو رجلٌ مصريٌّ .

٥٠ ـ إنَّ الصَّحابة جميعاً رضي الله عنهم أبرياء من دم عثمان رضي الله عنه ، وقد صحَّت الأخبار ، وأكَّدت الحوادث ، والتَّاريخ على براءة الصَّحابة من التَّحريض على عثمان ، أو المشاركة في الفتنة ضدَّه ، كما أوردنا ذلك بالرِّوايات الصَّحيحة .

٥١ ـ إن عثمان رضي الله عنه كان متيقِّظاً ، ولم تنطل عليه المؤامرة ، ولا أهدافها ، بل استطاع أن يخترق صفوف المتمرِّدين ، ويكشف مخطَّطهم كاملاً ، وواجه بشجاعةٍ فائقةٍ ، وكره أن يكون أوَّل من يسلَّ السيف في المسلمين ، وآثر أن يفدي الأمَّة بنفسه ، وهذه قمَّة التَّضحية ، والإيثار .

٥٢ ـ كانت فتنة مقتل عثمان سبباً في حدوث كثيرٍ من الفتن الأخرى ، وألقت بظلالها على أحداث الفتن الَّتي تليها ، فتغيَّرت قلوب الناس ، وظهر الكذب ، وبدأ الخطُّ البياني للانحراف عن الإسلام في عقيدته ، وشريعته .

٥٣ ـ إنَّ الظُّلم ، والاعتداء على الآخرين بغير حقٍّ من أسباب الهلاك في الدُّنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف : ٥٩] وإنَّ المتتبِّع لأحوال أولئك الخارجين على عثمان رضي الله عنه المعتدين عليه يجد : أنَّ الله تعالى لم يهملهم ، بل أذلَّهم ، وأخزاهم ؛ وانتقم منهم ، فلم ينج منهم أحدٌ .

٥٤ ـ كان وقع المصيبة على نفوس المسلمين عظيماً ، فذهلت عقولهم ، وجلَّلهم الحزن ، وفاضت مآقيهم بالدموع ، ولهجت ألسنتهم بالثَّناء على عثمان ، والترحُّم عليه ، وقام حسَّان بن ثابت رضي الله عنه يرثي أمير المؤمنين ، ويكثر التفجُّع لمقتله ، ويهجو قاتليه بقصائد مبكيةٍ حزينةٍ ، حفظها لنا التَّاريخ ، ولم تهملها اللَّيالي ، ولم تفصلها عنَّا حواجز الزَّمن ، ولا أسوار القرون .

٥٥ ـ وبعد فهذا ما يسَّره الله لي من جمعٍ ، وترتيبٍ ، وتحليلٍ ، تضمَّنتها فصول هذا الكتاب (عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، شخصيَّته ، وعصره) فما كان فيه من صوابٍ ، فهو محض فضل الله عليَّ ، فله الحمد والمنَّة ، وما كان فيه من خطأ ، فأستغفر الله تعالى ، وأتوب إليه ، والله ، ورسولُه بريءٌ منه ، وحسبي أنِّي كنت حريصاً على بيان الحقائق ، والبراهين والأدلَّة الَّتي تبيِّن حقيقة الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين ، وأن يذكرني من يقرؤه في دعائه ، فإنَّ دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابةٌ ، إن شاء الله تعالى .

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا

وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠].

* وبقول الشَّاعر :

إِنْ تَجِــــدْ عَيْبَــــاً فَسُــــدَّ الخَلَــــلا ... جَــــلَّ مَــــنْ لا عَيْــــبَ فِيْــــهِ وَعَــــلا

* وبقول الشَّاعر :

اطْلُــــبِ العِلْــــمَ وَلا تَكْسَــــلْ ، فَمَــــا ... أَبْعَــــدَ الْخَيْــــرَ عَلَــــى أَهْــــلِ الْكَسَــــلْ

احْتَفِــــلْ لِلْفِقْــــهِ فِــــي الــــدِّيــــن وَلا ... تَشْتَغِــــلْ عَنْــــهُ بِمَــــالٍ وَخَــــوَلْ

وَاهْجُــــرِ النَّــــومَ وَحَصِّلْــــهُ فَمَــــنْ ... يَعْــــرِفِ المَطْلُــــوبَ يَحْقِــــرْ مَــــا بَــــذَلْ

لا تَقُــــلْ قَــــدْ ذَهَبَــــتْ أَرْبَــــابُــــهُ ... كُــــلُّ مَــــنْ سَــــارَ عَلَــــى الــــدَّرْبِ وَصَــــلْ

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
ومغفرته ، ورحمته ، ورضوانه
علي محمَّد محمَّد الصَّلابيِّ
٨ ربيع الثاني ١٤٢٣ هـ
١٨/ ٦/ ٢٠٠٢ م

تعريف ببعض المناطق الّتي ذكرت في البحث(١)

١ـ طبرستان : منطقةٌ تقع جنوب بحر قزوين ، عاصمتها مدينة همدان ، جاء اسمها من جمع كلمة « طبر » الّتي تعني في اللُّغة الفارسيَّة الفأس مع « زنان » الّتي تعني : النِّساء .

٢ـ أذربيجان : أصل الكلمة : أتروباتن ، الّتي تعني : أرض النَّار ، وتقع هذه المنطقة غرب بحر قزوين ، عاصمتها مدينة « أردبيل » .

٣ـ أرمينيا : صقعٌ كبيرٌ يقع شرق آسيا الصُّغرى جنوب البحر الأسود ، جاءت تسميتها من سكَّانها الأرمن ، وهم قبائل هندية وأوروبية اعتنقوا النَّصرانية في بداية القرن الرَّابع الميلادي ، بعد ذلك تحوَّلوا إلى المذهب المنوفيستي (أصحاب الطَّبيعة الواحدة للسَّيِّد المسيح عليه السَّلام) ، كان سكَّانها قد قاوموا الفتح الإسلاميَّ لبلادهم ، وبقوا محافظين على ديانتهم النَّصرانية .

٤ـ طخارستان : إقليم يقع جنوب غرب بلاد ما وراء النَّهر ، عاصمتها « بلخ » تقع غالبية أراضيها حاليّاً ضمن «أفغانستان» أهم مراكزها اليوم «قندز» و«خوست» .

٥ـ خراسان : معناها : مشرق الشَّمس ، تقع شرق الهضبة الإيرانيَّة ، عاصمتها مرو .

٦ـ سجستان : منطقة تقع جنوب إقليم خراسان ، عاصمتها « بست » جاء اسمها من سَكَنِ قوم فيها يدعون بالسَّاكا (الإسكيثيين) ، أمَّا التَّرجمة الحرفيَّة لها ؛ فتعني : أرض الكلاب على أساس أنَّ « سك » تعني : الكلاب في اللُّغة الفارسية ، وآستان المنطقة ، وحاليّاً تدعى « سيستان » .

٧ـ بلاد ما وراء النهر : وهي الأراضي الواقعة ما بين نهري جيحون (آموداريا) وسيحون (سرداريا) ، ومن مدنها بخارى وسمرقند وطشقند ، وحاليّاً تقع ضمن جمهوريات تركمنستان وأوزبيكستان وطاجيكستان .

٨ ـ جرجان : إقليمٌ يقع شرق بحر قزوين ، وكان اسمها سابقاً إقليم باكتريا ، حيث بشَّر فيه زرادشت بدعوته .

---

(١) التعريف بهذه المناطق قام به الدكتور فرست مرعي الدهوكي جزاه الله خيراً .

٩ـ خوزستان : إقليمٌ يقع جنوب غرب الهضبة الإيرانيَّة يحادد العراق العربي ، قصبتها الأهواز ، أطلق عليها العرب اسم إقليم عربستان ، سيطر عليه الشَّاه رضا بهلوي سنة ١٩٢٥م بعد أن اعتقل حاكمها العربيَّ الشَّيخ خزعل الكعبيَّ ، وهي مشهورةٌ بالنَّفط .

* * *

المصادر والمراجع

١ـ أباطيل يجب أن تمحى من التَّاريخ ، إبراهيم شعوط ، بيروت ، المكتب الإسلاميُّ ، ط٥ ، ١٤٠٣ هـ ـ١٩٨٣ م .

٢ـ أثر التَّشيُّع على الرِّوايات التَّاريخيَّة ، د . عبد العزيز نور ولي ، دار الخضيري ، المدينة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ١٩٩٦ م .

٣ـ أحداث وأحاديث الفتنة الأولى ، عبد العزيز صغير دخان ، تحت الطَّبع .

٤ـ الأحكام السُّلطانيَّة ، أبو الحسن عليُّ بن محمَّد بن حبيب الماورديُّ ، دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .

٥ـ أدب صدر الإسلام ، واضح الصَّمد .

٦ـ الأدب في الإسلام في عهد النُّبوَّة وخلافة الرَّاشدين ، د . نايف معروف ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الأولى ١٤١٠ هـ ـ١٩٩٠ م .

٧ـ الأساس في السُّنَّة ، وفقهها ، والسِّيرة النَّبويَّة ، سعيد حوَّى ، دار السَّلام ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ـ١٩٨٩ م .

٨ ـ أسد الغابة في معرفة الصَّحابة ، لعز الدين بن الأثير ، أبي الحسن بن عليٍّ بن محمد الجزريِّ ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ١٩٩٦ م .

٩ـ أشهر مشاهير الإسلام ، رفيق العظم ، دار الرَّائد العربي ، بيروت ، لبنان ، الطَّبعة السادسة ١٤٠٣ هـ ـ١٩٨٣ م .

١٠ـ أصول الإسماعيليَّة ، لويس بارنارد ، ترجمه إلى العربيَّة خليل أحمد جلُّو ، جاسم محمد الرَّجب ، بغداد مكتبة المثنَّى ١٣٦٧ هـ ـ١٩٤٧ م .

١١ـ أصول مذهب الشِّيعة الإماميَّة ، ناصر بن عبد الله الغفاري ، دار الرِّضا للنَّشر والتَّوزيع ، الطَّبعة الثَّالثة ١٤١٨ هـ ـ١٩٩٨ م .

١٢ـ أضواء البيان في تاريخ القرآن ، صابر حسن محمَّد أبو سليمان ، دار عالم الكتب ، الطَّبعة الأولى ١٤٢١ هـ ـ٢٠٠٠ م .

١٣ـ أعلام المسلمين لخالد البيطار .

١٤ـ الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي رسول الله والثَّلاثة الخلفاء ، لأبي الرَّبيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسيِّ ، عالم الكتب ، بيروت لبنان ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

١٥ـ الأموال لأبي عبيد .

١٦ـ أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالبٍ من الميلاد إلى الاستشهاد ، د . أحمد السَّيد يعقوب السيد يوسف الرِّفاعي ، دار الفضيلة ، القاهرة .

١٧ـ الأمين ذو النُّورين ، محمود شاكر ، المكتب الإسلاميِّ ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م .

١٨ـ الأنساب ، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التَّميمي ، تحقيق : عبد الرَّحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، بيروت ، النَّاشر محمَّد أمين دمج ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

١٩ـ أوَّليَّات الفاروق ، د . غالب عبد الكافي القرشيُّ ، المكتب الإسلامي بيروت ، مكتبة الحرمين الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .

٢٠ـ الإبانة في أصول الدِّيانة ، لأبي الحسن الأشعريِّ ، طبعة الجامعة الإسلاميَّة ١٩٧٥م .

٢١ـ الإتقان للسُّيوطيِّ ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

٢٢ـ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ، محمَّد الخضري ، دار المعرفة ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٢٣ـ الإدارة العسكريَّة في الدَّولة الإسلاميَّة نشأتها ، وتطوُّرها ، الدُّكتور سليمان بن صالح بن سليمان آل كمال ، جامعة أمِّ القرى ، معهد البحوث وإحياء التُّراث .

٢٤ـ إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد ، عبد العزيز المحمَّد السَّلمان ، مطابع الخالد ، الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٦ هـ .

٢٥ـ الإصابة في تمييز الصَّحابة ، أحمد بن علي بن حجر ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م .

٢٦ـ الانشراح ورفع الضِّيق بسيرة أبي بكر الصِّدِّيق ، د . علي محمَّد الصَّلابي ، مكتبة الصَّحابة ، الشَّارقة ، الطَّبعة الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

٢٧ـ الاجتهاد في الفقه الإسلامي ، عبد السلام السُّليمانيُّ ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة بالمغرب ، طبعة ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٢٨ـ استشهاد عثمان ، ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطَّبريِّ دراسة نقديَّة ، د . خالد بن محمد الغيث ، دار الأندلس الخضراء ، جدَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ .

٢٩ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، دار الجيل ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

٣٠ـ الاعتصام ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللَّخمي .

٣١ـ اقتضاء الصِّراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، لتقيِّ الدِّين ابن تيميَّة ، تحقيق : د . ناصر العقل ، طبع مطابع العبيكان الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .

٣٢ـ البحرين في صدر الإسلام ، وأثرها في حركة الخوارج ، عبد الرَّحمن عبد الكريم النَّجم ، دار الحرية بغداد ١٩٧٣ م .

٣٣ـ البداية والنِّهاية ، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدِّمشقي ، دار الرَّيان ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

٣٤ـ البيان والتَّبيين ، للجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، دار الخانجي بمصر ، ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

٣٥ـ تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة في زمن الرَّسول والخلفاء الرَّاشدين ، د . جميل عبد الله المصري ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٣٦ـ تاريخ ابن خلدون .

٣٧ـ تاريخ ابن خلدون ، دار النَّفائس ، الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م .

٣٨ـ تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر الطَّبري ، دار الفكر ، بيروت الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٣٩ـ تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الرَّاشدين ، محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي ، دار الكتاب العربي ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٤٠ـ التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ، د . عبد العزيز عبد الله الحميدي ، دار الدَّعوة ، الإسكندريَّة ، دار الأندلس الخضراء ، جدَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م .

٤١ـ تاريخ التَّشريع الإسلاميِّ ، محمَّد الخضري ، المكتبة التِّجارية الكبرى ، مطبعة السَّعادة ، الطبعة السَّادسة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م .

٤٢ـ تاريخ الجدل ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربيِّ ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٣٤م .

٤٣ـ تاريخ العرب الأدبي في الجاهليَّة وصدر الإسلام ، نكلسن ، رينولد ، ترجمة صفاء خلوصي ، بغداد : مطبعة المعارف ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م .

٤٤ـ تاريخ القضاء في الإسلام ، د . محمد الزُّحيلي ، دار الفكر دمشق ، دار الفكر المعاصر لبنان ، الطَّبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م .

٤٥ـ تاريخ القضاعي ، كتاب عيون المعارف ، وفنون أخبار الخلائف للإمام القاضي محمَّد بن سلام بن جعفر الشَّافعيِّ ، مطبوعات جامعة أمِّ القرى .

٤٦ـ تاريخ المدينة ، أبو زيد عمر بن شبَّة النَّميريُّ البصريُّ ، تحقيق : محمود شلتوت ، نشر السَّيد حبيب محمود أحمد ، المدينة ١٣٩٣ هـ .

٤٧ـ تاريخ اليعقوبي ، دار بيروت للطِّباعة والنشر ، طبعة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

٤٨ـ تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلاميِّ ، حسن سليمان محمود ، الطَّبعة الأولى ، بغداد ١٩٦٩ م .

٤٩ـ تاريخ خليفة بن خيَّاط ، أبو عمر خليفة بن خيَّاط بن أبي هبيرة اللَّيثي ، تحقيق : أكرم ضياء العمري ، الطَّبعة الثَّانية ، مؤسَّسة الرِّسالة ، ودار القلم ، بيروت ١٣٩٧ هـ .

٥٠ـ تاريخ دمشق ، ابن عساكر ، ترجمة عثمان رضي الله عنه ، تحقيق : سكينة الشِّهابي ، نشر المجمع العلمي بدمشق ١٩٨٤ م .

٥١ـ تبصير المؤمنين بفقه النَّصر والتَّمكين في القرآن الكريم ، علي الصَّلابي ، دار الصَّحابة ، الطَّبعة الأولى ١٤٢١ هـ .

٥٢ـ التَّبيين في أنساب القرشيين ، موفق الدِّين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ، حقَّقه محمد نايف الدُّليمي ، عالم الكتب ، الطَّبعة الثَّانية .

٥٣ـ تجريد أسماء الصَّحابة ، شمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي ، تصحيح صالحة عبد الحكيم شرف الدِّين ، طبعة شرف الدِّين الكتبي وأولاده بومباي ، الهند ، ١٣٨٩ هـ .

٥٤ـ تحفة الأحوذي بشرح سنن التِّرمذيِّ ، محمَّد عبد الرحمن المباركفوري ، تصحيح عبد الرَّحمن محمَّد عثمان ، مطبعة الاعتماد ، نشر محمد عبد المحسن الكتبي .

٥٥ـ تحقيق مواقف الصَّحابة في الفتنة من روايات الطَّبري والمحدِّثين ، تأليف د . محمد أمحزون ، دار طيبة ، مكتبة الكوثر ، الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤ م .

٥٦ـ تذكرة الحفَّاظ ، شمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي ، بيروت ، دار إحياء التُّراث .

٥٧ـ التَّربية القياديَّة ، منير الغضبان ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م .

٥٨ـ تفسير القرطبي ، لأبي عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاري ، القرطبي ، دار إحياء التُّراث العربي ، بيروت ، لبنان ١٩٦٥ م .

٥٩ـ التفوُّق والنَّجابة على نهج الصَّحابة ، حمد بن بيلة بن مرهان العجمي ، مكتبة العبيكان ، الرِّياض ، الطَّبعة الأولى .

٦٠ـ تقريب التَّهذيب ، لابن حجر .

٦١ـ التَّمهيد والبيان في مقتل الشَّهيد عثمان ، محمَّد بن يحيى بن أبي بكر المالقي الأندلسي ، حقَّقه د . محمود يوسف زايد ، دار الثقافة الدَّوحة ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٦٢ـ التَّنظيمات الاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة في البصرة في القرن الأول الهجري ، صالح العلي ، الطَّبعة الثانية ، دار الطَّليعة ، بيروت ١٩٦٩ م .

٦٣ـ تهذيب ابن عساكر ، دار إحياء التُّراث العربي ، بيروت ، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٦٤ـ تهذيب التهذيب ، أحمد بن علي بن حجر ، دار صادر ، بيروت .

٦٥ـ جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ، مكتبة طيبة ، المدينة المنوَّرة ، مؤسَّسة الكتب الثَّقافية ، بيروت ، الطَّبعة الثانية ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

٦٦ـ الجرح والتعديل ، أبو محمد عبد الرَّحمن بن أبي حاتم الرَّازي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة بحيدر آباد الدَّكن ، الهند ١٣٧٢ هـ .

٦٧ـ جمهرة أنساب العرب ، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي ، تحقيق : عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٣٨٢ هـ .

٦٨ـ جولة تاريخيَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، د . محمد السَّيِّد الوكيل ، دار المجتمع ، الطَّبعة الخامسة ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م .

٦٩ـ حذيفة بن اليمان ، إبراهيم العلي ، دار القلم ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٧٠ـ حروب الإسلام في الشَّام في عهود الخلفاء الرَّاشدين ، محمَّد أحمد باشميل ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

٧١ـ حروب الردَّة وبناء الدَّولة الإسلاميَّة ، أحمد سعيد بن سالم ، دار المنار ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤ م .

٧٢ـ الحضارة العربيَّة في الإسلام ، د . واضح الصَّمد ، المؤسَّسة الحديثة للكتاب ، طرابلس ـ لبنان .

٧٣ـ حقبة من التَّاريخ ، عثمان الخميس ، دار الإيمان ، الإسكندرية .

٧٤ـ الحكمة في الدَّعوة إلى الله ، سعيد القحطاني ، مؤسَّسة الجريسي ، الرِّياض ، السُّعوديَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

٧٥ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت .

٧٦ـ الخراج لأبي يوسف ، منشورات مكتبة الرِّياض الحديثة ، بدون تاريخ الطَّبع .

٧٧ـ الخراج وصناعة الكتابة ، أبو الفتوح قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي ، شرح ، وتحقيق : د . محمد حسين الزَّبيدي ، دار الرَّشيد ، بغداد ١٩٨١ م .

٧٨ـ الخلافة الرَّاشدة والدَّولة الأمويَّة من فتح الباري ، يحيى بن إبراهيم اليحيى ، دار الهجرة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٧٩ـ الخلافة بين التَّنظير والتَّطبيق ، محمود المرداوي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .

٨٠ ـ خلافة عثمان بن عفَّان ، د . محمد بن صامل السُّلمي ، مكتبة سالم ، العزيزيَّة ، جامعة أمِّ القرى ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ .

٨١ ـ الخلافة ، والخلفاء الرَّاشدون بين الشُّورى ، والديمقراطيَّة ، المستشار سالم البهنساوي ، مكتبة المنار الإسلاميَّة ، الطَّبعة الثانية ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٨٢ ـ الخلفاء الرَّاشدون أعمالٌ وأحداثٌ ، د . أمين القضاة ، دار الفرقان ، الأردن ، طبعة الفرقان الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

٨٣ ـ الخلفاء الرَّاشدون بين الاستخلاف والاستشهاد ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، الدَّار الشاميَّة ، بيروت الطَّبعة الأولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م .

٨٤ـ الخلفاء الرَّاشدون ، حسن أيُّوب ، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٨٥ـ الخلفاء الرَّاشدون ، عبد الوهاب النَّجار ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٨٦ـ الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ، عبد الرَّحمن عبد الكريم العاني ، د . حسن فاضل زغين ، دار الشؤون الثقافية العامَّة ، بغداد طبعة ١٩٨٩ م .

٨٧ـ الخوارج والشِّيعة ، يوليوس فلهاوزن .

٨٨ـ دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، وموقف السَّلف منها ، د . ناصر بن عبد الكريم العقل ، مركز دار إشبيليا ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٨٩ـ دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، د . عبد الرحمن الشُّجاع ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م . دار الفكر المعاصر ـ صنعاء .

٩٠ـ الدَّراهم المضروبة على الطِّراز الساساني للخلفاء الرَّاشدين في المتحف العراقي ، مجلَّة المسكوكات ، مديرية الآثار العامَّة بغداد ١٩٦٩م ، وداد علي القزاز .

٩١ـ دماء على قميص عثمان بن عفَّان ، دار البشير ، الطَّبعة الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م .

٩٢ـ الدَّوحة النَّبويَّة ، د . فاروق حمادة ، دار القلم ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

٩٣ـ دور المرأة السِّياسي في عهد النَّبيّ ﷺ والخلفاء الرَّاشدين ، تأليف : أسماء محمَّد أحمد زيادة ، دار السلام بمصر ، الطَّبعة الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م .

٩٤ـ الدَّولة الأمويَّة المفترى عليها ، دراسة الشبهات وردّ المفتريات ، د . حمدي شاهين ، دار القاهرة للكتاب ٢٠٠١ م .

٩٥ـ الدَّولة الأمويَّة ، يوسف العش ، دار الفكر ، الطَّبعة الثانية ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٩٦ـ الدَّولة الإسلاميَّة في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، د . حمدي شاهين ، دار القاهرة .

٩٧ـ الدَّولة والسِّيادة ، د . فتحي عبد الكريم ، مكتبة وهبة بمصر ، الطَّبعة الثانية ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

٩٨ـ الدِّين الخالص ، محمَّد صدِّيق حسن القنوجيُّ البخاريُّ ، تحقيق : محمد زهري النَّجار ، مكتبة الفرقان .

٩٩ـ ديوان أعشى همدان ، عبد الرَّحمن بن عبد الله بن الحارث ، تحقيق : د . حسن عيسى أبو ياسين ، الرِّياض ، دار العلوم ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .

١٠٠ـ ذات الصَّواري ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، الطَّبعة الرَّابعة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

١٠١ـ ذو النُّورين عثمان بن عفَّان ، محمَّد رشيد رضا ، دار الكتب العلميَّة ، الطَّبعة الثانية ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م بيروت ـ لبنان .

١٠٢ـ ذو النُّورين عثمان بن عفَّان ، محمد مال الله ، مكتبة ابن تيميَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م .

١٠٣ـ الردُّ على الرَّافضة لأبي حامد محمَّد المقدسي ، تحقيق : عبد الوهاب خليل الرَّحمن ، الدَّار السلفيَّة ، بومباي الهند ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

١٠٤ـ الرِّقَّة والبكاء ، موفق الدِّين عبد الله بن أحمد بن قدامة ، دار القلم ، دمشق ، الدَّار الشَّاميَّة ، بيروت الطَّبعة الثانية ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م .

١٠٥ـ الروض الأنف في شرح السِّيرة النَّبوية لابن هشام ، أبو القاسم السُّهيلي ، تحقيق : عبد الرَّحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة ، طبعة ١٣٨٧هـ .

١٠٦ـ الرِّياض النَّضرة في مناقب العشرة ، لأبي جعفر أحمد الشَّهير بالمحبِّ الطَّبريِّ ، المكتبة القيِّمة ، القاهرة .

١٠٧ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ، أبو عبد الله محمَّد بن أبي بكر ابن القيم ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، مؤسَّسة الرِّسالة بيروت ، ط١٣ ، ١٤٠٦هـ .

١٠٨ـ الزُّهد للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : محمد السَّعيد بسيوني زغلول ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م .

١٠٩ـ سفراء النَّبيِّ ﷺ ، محمود شيت خطَّاب ، مؤسَّسة الرَّيان ، ودار الأندلس الخضراء بجدَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

١١٠ـ سنن أبي داود ، الإمام أبو داود ، تحقيق وتعليق عزَّت الدَّعاس ، سورية ١٣٩١هـ .

١١١ـ سنن ابن ماجه ، الحافظ أبو عبد الله محمَّد بن زيد القزويني ، دار الفكر .

١١٢ـ سنن التِّرمذيِّ ، أبو عيسى محمَّد بن عيسى التِّرمذيُّ ، دار الفكر ١٣٩٨هـ .

١١٣ـ السُّنن الكبرى ، للحافظ أحمد بن الحسين البيهقيِّ ، طبع دار المعارف ، بيروت لبنان ، توزيع مكتبة المعارف ، الرِّياض .

١١٤ـ السُّنَّة ، والبدعة ، عبد الله باعلوي الحضرميُّ ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشَّاميَّة ، بيروت ، طبعة دار القلم الأولى ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م .

١١٥ـ السُّنَّة ، أبو بكر أحمد بن محمد الخلال ، تحقيق : د . عطية الزَّهرانيّ ، دار الرَّاية ، الرِّياض ، ط١ ، ١٤١٠هـ .

١١٦ـ السِّيادة العربيَّة ، والشِّيعة ، والإسرائيليَّات ، فان فولتن ترجمة حسن إبراهيم حسن ، ومحمد زكي إبراهيم ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصريَّة ، ط٢ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .

١١٧ـ السِّياسة الشَّرعيَّة في إصلاح الرَّاعي والرَّعيَّة ، تقي الدِّين أحمد بن تيميَّة ، دار المعرفة بيروت ، الطَّبعة الرَّابعة ١٩٦٩ م .

١١٨ـ السِّياسة الماليَّة لعثمان بن عفَّان ، قطب إبراهيم محمَّد ، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب ، ١٩٨٦ م .

١١٩ـ سير أعلام النُّبلاء ، شمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي ، الطَّبعة الثانية ، مؤسسة الرِّسالة بيروت ١٤٠٢هـ .

١٢٠ـ سير الشُّهداء دروس وعبر ، عبد الحميد بن عبد الرَّحمن السَّحيباني ، دار الوطن ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م .

١٢١ـ السِّيرة النبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة ، د . محمَّد أبو شهبة ، دار القلم ، دمشق ، ط٣ ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

١٢٢ـ السِّيرة النبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، د . مهدي رزق الله أحمد ، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلاميَّة ، الرِّياض ، ط١ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٩ م .

١٢٣ـ السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام ، دار إحياء التُّراث ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

١٢٤ـ السِّيرة النَّبويَّة ، دروسٌ ، وعبرٌ ، مصطفى السِّباعي ، المكتب الإسلاميُّ ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة التاسعة ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

١٢٥ـ السِّيرة النبويَّة ، عرض وقائع وتحليل أحداث ، د . علي محمد الصَّلابي ، دار الصَّحابة ، الشَّارقة ، طبعة أولى ٢٠٠١ م .

١٢٦ـ شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب ، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمَّد الحنبلي ، بيروت ، المكتب التِّجاري للطِّباعة ، والنَّشر .

١٢٧ـ شرح صحيح مسلم ، للإمام النَّوويِّ ، بيروت ، دار الفكر ، طبعة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .

١٢٨ـ الشَّرف والتَّسامي بحركة الفتح الإسلامي ، د . علي محمَّد الصَّلابي ، مكتبة الصَّحابة ، الشَّارقة ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م .

١٢٩ـ شعراء الخلفاء ، نبال تيسير الخماش .

١٣٠ـ شهيد الدَّار عثمان بن عفَّان ، أحمد الخروف ، دار البيارق ، دار عمَّار ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

١٣١ـ الصَّارم المسلول على شاتم الرَّسول ، لتقي الدِّين ابن تيميَّة .

١٣٢ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، وزارة الثَّقافة والإرشاد القومي ، القاهرة بدون تاريخ ، نسخة مصوَّرة عن الطبعة الأميريَّة .

١٣٣ـ صحيح البخاريِّ ، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاريِّ ، دار الفكر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

١٣٤ـ صحيح التَّوثيق في سيرة وحياة ذي النُّورين ، مجدي فتحي السَّيِّد ، دار الصَّحابة بطنطا ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

١٣٥ـ صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، إبراهيم العلي ، دار النَّفائس ، ط٣ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٩٨ م .

١٣٦ـ صحيح النَّسائيِّ للألباني ، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ، الرِّياض ، الطَّبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

١٣٧ـ صحيح سنن ابن ماجه ، للألباني ، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ، الرِّياض ، ط٣ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

١٣٨ـ صحيح سنن التِّرمذيِّ ، محمَّد ناصر الدين الألباني ، مكتبة التَّربية العربي لدول الخليج ، الرِّياض ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .

١٣٩ـ صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ، بيروت ـ لبنان الطَّبعة الثانية ١٩٧٢ م .

١٤٠ـ الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق ، للعقاد ، مطبعة المعارف ، مصر ١٩٤٣ م .

١٤١ـ صفة الصَّفوة للإمام أبي الفرج ابن الجوزي ، دار المعرفة ، بيروت .

١٤٢ـ صلاح الأمَّة في علو الهمَّة ، د . سيد بن حسين العفَّاني ، دار الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

١٤٣ـ الصَّواعق المحرقة في الردِّ على أهل البدع والزَّندقة ،شهاب الدِّين أبو العباس أحمد بن حجر الهيثمي ، دار الكتب العلميَّة بيروت .

١٤٤ـ الطَّبقات الكبرى، محمد سعيد بن منيع الهاشمي، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

١٤٥ـ عائشة والسِّياسة، سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، الطَّبعة الثانية ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

١٤٦ـ عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام ، سلمان بن حمد العودة ، دار طيبة ، الرِّياض ، الطَّبعة الثالثة ١٤١٢هـ .

١٤٧ـ عبد الله بن مسعود ، عبد السَّتار الشيخ ، دار القلم ، دمشق ، الطَّبعة الثانية ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م.

١٤٨ـ عبد الملك بن مروان والدَّولة الأمويَّة ، ضياء الدِّين الريِّس مطابع سجل العرب ، الطَّبعة الثَّالثة ، سنة ١٩٦٩ م.

١٤٩ـ عثمان بن عفَّان ، الخليفة الشَّاكر الصَّابر ، عبد السَّتار الشيخ ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م.

١٥٠ـ عثمان بن عفَّان ، صادق عرجون ، الدَّار السعودية ، الطَّبعة الثَّالثة ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م.

١٥١ـ عثمان بن عفَّان ، محمَّد حسين هيكل .

١٥٢ـ العشرة المبشَّرون بالجنَّة ، محمَّد صالح عوض ، مؤسَّسة المختار ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م.

١٥٣ـ عصر الخلافة الرَّاشدة ، الدكتور أكرم ضياء العمري ، مكتبة العلوم والحكم ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م.

١٥٤ـ عصر الخلفاء الرَّاشدين ، د . عبد الحميد بخيت ، دار المعارف بمصر ، الطَّبعة الثانية ١٩٦٥ م.

١٥٥ـ عقائد الشِّيعة ، رونلدسن ، دوايت تعريب (ع ، م) القاهرة ، مكتب الخانجي ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦ م.

١٥٦ـ العقد الفريد ، أبو عمر أحمد بن محمَّد بن عبد ربه بن حبيب ، دار الفكر ، بيروت .

١٥٧- عقيدة السَّلف ، وأصحاب الحديث ، ضمن الرَّسائل المنيريَّة ، للشَّيخ إسماعيل الصَّابوني ، نشر محمد أمين دمج ، بيروت ، ١٩٧٠ م .

١٥٨- عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في الصَّحابة الكرام ، الدُّكتور ناصر بن علي عايض حسن الشَّيخ ، مكتبة الرُّشد ، الرياض .

١٥٩- العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتَّفريط ، د . سليمان بن سالم بن رجاء السُّحيمي ، مكتبة الإمام البخاري ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

١٦٠- العقيدة والشَّريعة الإسلاميَّة ، جولد تسهير أجناس ، ترجمة د . محمَّد يوسف موسى وآخرين ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة .

١٦١- عمَّار بن ياسر ، رجل المحنة وميزان الفتنة ، أسامة أحمد سلطان ، المكتبة المكِّيَّة ، مكَّة المكرَّمة ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .

١٦٢- عمدة القاري شرح صحيح البخاري .

١٦٣- عمرو بن العاص الأمير المجاهد ، د . منير محمد الغضبان ، جامعة أمِّ القرى ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠هـ .

١٦٤- عمرو بن العاص، عبد الخالق سيِّد أبو رابية ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م .

١٦٥- عمرو بن العاص ، محمود العقَّاد ، النَّاشر : دار الكتاب العربيِّ ، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الثَّانية ١٩٦٩ م .

١٦٦- العواصم من القواصم ، القاضي أبو بكر بن العربي ، تحقيق : محبِّ الدِّين الخطيب ، إعداد محمد سعيد مبيِّض ، دار الثَّقافة قطر ، الدَّوحة ، الطبعة الثَّانية ١٩٨٩ م .

١٦٧- غزوة الحديبية لأبي فارس ، دار الفرقان ، عمَّان ، الأردن .

١٦٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تحقيق : الأستاذ محبِّ الدِّين الخطيب ، دار الريَّان ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧هـ .

١٦٩- فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير ، محمد علي الشَّوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .

١٧٠- الفتنة الكبرى ، عثمان ، طه حسين ، دار المعارف بمصر ١٩٤٧ م .

١٧١- الفتنة الكبرى ، علي وبنوه ، طه حسين ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م .

١٧٢- فتنة مقتل عثمان ، د . محمد عبد الله الغبَّان ، مكتبة العبيكان ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م .

١٧٣ـ الفتنة ، أحمد عرموش .

١٧٤ـ فتوح البلدان ، لأبي العبَّاس ، أحمد بن يحيى البلاذري ، مؤسَّسة المعارف ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

١٧٥ـ فتوح مصر وأخبارها ، لابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرَّحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، نسخة عن طبعة لندن ١٣٣٩ هـ ـ ١٩٢٠م ، نشر مكتبة المثنَّى ، بغداد .

١٧٦ـ فرائد الكلام للخلفاء الكرام، قاسم عاشور، الطَّبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨ م .

١٧٧ـ فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، محمَّد صالح الغرسي ، دار السَّلام ، مصر ، الطَّبعة الأولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م .

١٧٨ـ الفصل في الملل والأهواء والنِّحل، لأبي محمَّد بن حزم الظَّاهري، مكتبة الخانجي، مصر .

١٧٩ـ فضائل الصَّحابة ، لأبي عبد الله أحمد بن محمَّد بن حنبل ، دار ابن الجوزيِّ ، السُّعودية ، الطبعة الثَّانية ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .

١٨٠ـ فقه الأولويَّات ، محمَّد الوكيلي ، المعهد العالمي للفكر الإسلاميِّ ، هيرندن ، فيرجينيا ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٧م ، الطَّبعة الأولى .

١٨١ـ فقه الخلافة ، وتطوُّرها لتصبح عصبة أمم شرقيَّة ، د . عبد الرزَّاق أحمد السَّنهوري ، مؤسَّسة الرسالة ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م .

١٨٢ـ الفكر الإسلاميِّ بين المثاليَّة والتَّطبيق ، كامل الشَّريف .

١٨٣ـ فيض القدير للمناوي .

١٨٤ـ قادة الفتح الإسلاميِّ في أرمينية ، محمود شيت خطَّاب ، دار الأندلس الخضراء ، دار ابن حزم ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م .

١٨٥ـ قادة فتح السِّند وأفغانستان ، محمود شيت خطَّاب ، دار الأندلس الخضراء ، دار ابن حزم ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م .

١٨٦ـ قادة فتح بلاد المغرب ، محمود شيت خطَّاب ، دار الفكر ، الطَّبعة السَّابعة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

١٨٧ـ القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، بيروت ، لبنان .

١٨٨ـ القواعد الفقهيَّة ، مفهومها ـ تطوُّرها ، دراسة مؤلفاتها ، أدلَّتها ـ تطبيقاتها ، علي أحمد النَّدويُّ ، بيروت ، دار القلم ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

١٨٩ـ القيود الواردة على سلطة الدَّولة ، عبد الله الكيلاني ، دار البشير ، عمَّان ، مؤسسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

١٩٠ـ الكامل في التَّاريخ ، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الشَّيباني المعروف بابن الأثير ، تحقيق : علي شيري ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٩ م .

١٩١ـ الكامل في اللُّغة والآداب ، لأبي العبَّاس محمَّد بن يزيد ، النَّاشر : البابي الحلبي ، مصر ، طبعة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م ، مؤسسة الرِّسالة .

١٩٢ـ كتاب الإمامة ، والردُّ على الرَّافضة ، لأبي نعيم الأصبهاني ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنوَّرة ، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م .

١٩٣ـ الكفاءة الإداريَّة في السِّياسة الشَّرعيَّة ، د . عبد الله قادري ، دار المجتمع ، جدَّة ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

١٩٤ـ كيف نكتب التَّاريخ الإسلاميَّ ؟ محمَّد قطب ، دار الوطن السُّعودية ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ .

١٩٥ـ لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور ، دار صادر بيروت .

١٩٦ـ لسان الميزان ، أحمد بن علي بن حجر ، حيدر آباد الدَّكن ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٢ م .

١٩٧ـ ليبيا من الفتح العربي حتَّى انتقال الخلافة الفاطميَّة إلى مصر ، د . صالح مصطفى مفتاح المزيني ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، الطَّبعة الثَّالثة ١٩٩٤ م .

١٩٨ـ مبادىء الاقتصاد الإسلامي ، سعاد إبراهيم صالح ، دار عالم الكتب ، الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

١٩٩ـ المجروحين من المحدِّثين ، أبو حاتم محمَّد بن حبَّان بن أحمد التَّميمي ، تحقيق : إبراهيم محمود زايد ، حلب ، دار الوعي .

٢٠٠ـ مجلة البحوث الإسلاميَّة ، العدد العاشر .

٢٠١ـ مجلَّة المؤرِّخ العربي ، رقم ٢١ .

٢٠٢ـ مجمع الأمثال للميداني ، تحقيق : محمد محيي الدِّين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م .

٢٠٣ـ مجمع الزَّوائد ، ومنبع الفوائد ، نور الدِّين علي بن أبي بكر الهيثمي ، بتحرير

الحافظين : العراقي ، وابن حجر ، دار الكتاب العربي ، بيروت الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٢هـ .

٢٠٤ـ مجموعة الفتاوى ، تقي الدِّين أحمد بن تيميَّة الحرَّاني ، دار الوفاء ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٢٠٥ـ مجموعة الوثائق السِّياسيَّة في العهد النَّبويِّ ، والخلافة الرَّاشدة ، محمَّد حميد الله ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٢٠٦ـ المدينة المنوَّرة ، فجر الإسلام ، والعصر الرَّاشدي ، محمَّد محمَّد حسن شُرَّاب ، دار القلم ، دمشق ، الدَّار الشاميَّة ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤ م .

٢٠٧ـ مرويَّات أبي مخنف في تاريخ الطَّبري ، يحيى إبراهيم اليحيى ، دار العاصمة ، الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٠هـ .

٢٠٨ـ مرويات العهد المكِّي ، عادل عبد الغفور .

٢٠٩ـ مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطَّبري ، خالد الغيث ، دار الأندلس الخضراء ، جدَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

٢١٠ـ المستدرك على الصَّحيحين ، لأبي عبد الله محمَّد بن عبد الله النِّيسابوري ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الأولى ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م .

٢١١ـ مسند الإمام أحمد ، المكتب الإسلاميُّ ، بيروت ، لبنان .

٢١٢ـ المعارف لابن قتيبة .

٢١٣ـ معاوية بن أبي سفيان ، صحابيٌّ كبيرٌ ، وملكٌ مجاهدٌ ، منير محمد الغضبان ، دار القلم دمشق ، الطَّبعة الثالثة ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٢١٤ـ معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

٢١٥ـ معجم الطَّبرانيِّ الكبير ، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطَّبرانيِّ ، مكتبة العلوم والحكم ، الطبعة الثَّانية ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٢١٦ـ معرفة الصَّحابة لأبي نعيم المتوفى سنة ٤٣٠هـ تحقيق : محمَّد راضي بن حاج عثمان ، مكتبة الدَّار في المدينة النَّبوية ، ومكتبة الحرمين في الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

٢١٧ـ المعرفة والتَّاريخ ، لأبي يوسف الفسوي ، تحقيق : أكرم ضياء العمري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٣٩٤هـ .

٢١٨ـ المغازي ، محمَّد عمر الواقدي ، تحقيق : د . مارسدن جونسن ، عالم الكتب بيروت ، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

٢١٩ـ المغني ، موفق الدِّين أبو محمَّد عبد الله بن أحمد بن قدامة ، تحقيق : د . عبد الله التُّركي ، د . عبد الفتاح الحلو ، دار هجر القاهرة ، الطبعة الثَّانية ١٤١٢ هـ .

٢٢٠ـ المنار المنيف في الصَّحيح ، والضَّعيف ، القاهرة ، مطبعة السُّنَّة المحمَّديَّة .

٢٢١ـ مناقب الشَّافعيِّ للبيهقيِّ ، تحقيق : أحمد صقر ، مكتبة دار التُّراث ، طبع دار النَّصر ، الطَّبعة الأولى ١٣٩١هـ .

٢٢٢ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، لأبي الفرج عبد الرَّحمن بن عليٍّ بن محمَّد بن الجوزي ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت .

٢٢٣ـ منهاج السُّنَّة لابن تيميَّة ، تحقيق : محمَّد رشاد سالم ، مؤسَّسة قرطبة .

٢٢٤ـ منهج التربية الإسلاميَّة لمحمَّد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة الخامسة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .

٢٢٥ـ منهج الرسول في غرس الرُّوح الجهاديَّة في نفوس أصحابه ، د . السَّيِّد محمَّد نوح ، نشرته جامعة الإمارات العربيَّة المتحدة ، الطَّبعة الأولى ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م .

٢٢٦ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبَّان ، تحقيق : حسين الدَّاراني ، عبده كوشك ، دار الثقافة العربية ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ١٤١١هـ .

٢٢٧ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط للمقريزي ، أحمد ابن علي بن عبد القادر تقيِّ الدِّين أبي العبَّاس المقريزي .

٢٢٨ـ موسوعة التَّاريخ الإسلامي ، أحمد شلبي ، مكتبة النَّهضة المصرية ، الطَّبعة الرَّابعة عشرة ١٩٩٦ م .

٢٢٩ـ الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد ، وزارة الشؤون الإسلاميَّة ، والأوقاف ، والدَّعوة ، والإرشاد بالسُّعودية ، الطبعة الثَّانية ، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .

٢٣٠ـ موسوعة فقه عثمان بن عفَّان ، الدُّكتور محمد روَّاس قلعجي ، دار النَّفائس طبعة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٣ م .

٢٣١ـ ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال ، محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي ، تحقيق : علي البجاوي ، دار إحياء الكتب العربيَّة ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى ١٣٨٢هـ .

٢٣٢ـ النُّجوم الزَّاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدِّين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، وزارة الثَّقافة والإرشاد القوميِّ ، القاهرة بدون تاريخ .

٢٣٣ـ نساء أهل البيت ، أحمد خليل جمعة ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

٢٣٤ـ نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره ، محمَّد السايس ، مطبعة الأزهر ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م مجمع البحوث بالأزهر المؤتمر الرَّابع .

٢٣٥ـ نظام الأراضي في صدر الدَّولة الإسلاميَّة ، محمَّد حسن أبو يحيى ، دار عمَّار ، عمَّان ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

٢٣٦ـ نظام الحكم في الإسلام ، عارف أبو عيد ، دار النَّفائس ، الأردن ، الطَّبعة الأولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٢٣٧ـ نظام الحكم في الشَّريعة والتَّاريخ الإسلاميّ ، ظافر القاسمي ، دار النفائس ، بيروت ، الطَّبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٢٣٨ـ نظام الحكم في عهد الخلفاء الرَّاشدين ، حمد محمَّد الصَّمد ، المؤسَّسة الجماعية للدراسات والنشر والتَّوزيع ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ .

٢٣٩ـ نظام الخلافة في الفكر الإسلاميِّ ، الدكتور مصطفى حلمي ، دار الدَّعوة الإسكندريَّة .

٢٤٠ـ النُّظم الإسلاميَّة ، صبحي الصَّالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السَّابعة ١٩٨٩ م .

٢٤١ـ النُّظم الإسلاميَّة ، وقائع ندوة أبو ظبي ، مكتب التُّراث العربي لدول الخليج ، طبعة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٢٤٢ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدِّين أحمد بن عبد الوهاب النُّويري ، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .

٢٤٣ـ الهجرة في القرآن الكريم ، أحزمي سامعون جزولي ، مكتبة الرُّشد الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٢٤٤ـ وجوب التَّعاون بين المسلمين للسَّعدي ، دار المعارف ، الرِّياض ، طبعة ١٤٠٢هـ .

٢٤٥ـ الوحدة الإسلاميَّة ، محمَّد أبو زهرة .

٢٤٦ـ وفيات الأعيان ، وأبناء الزَّمان ، لابن خلكان أبي العباس شمس الدِّين أحمد ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

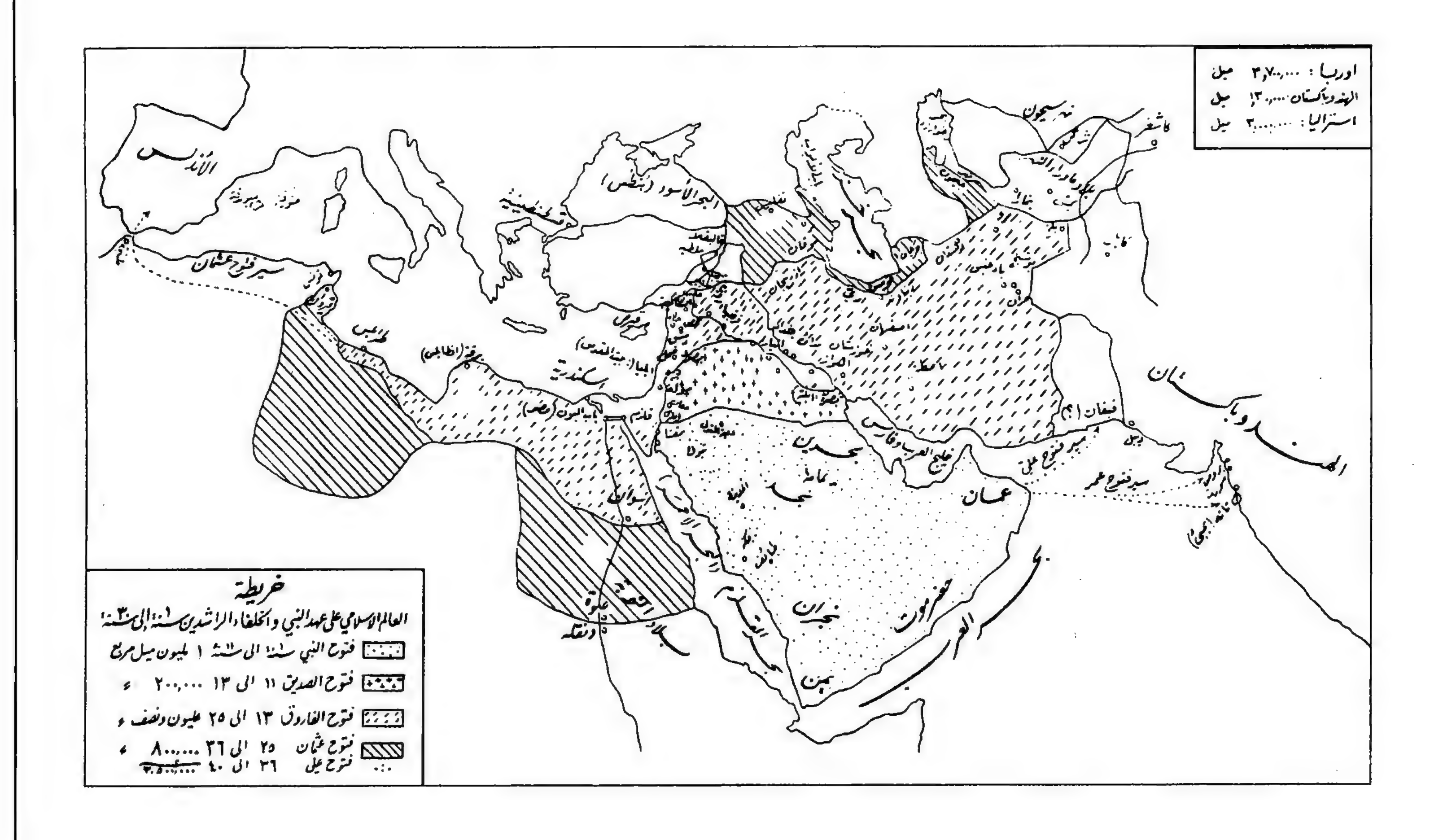
٢٤٧ـ ولاة مصر ، أبو يوسف محمَّد يوسف الكندي ، تحقيق : د . حسين نصَّار ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .

٢٤٨ـ ولاية الشُّرطة في الإسلام ، د . نمر الحميداني ، دار عالم الكتب ، الرِّياض ، الطبعة الثَّانية ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م .

٢٤٩ـ الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الرَّاشدين ، د . عبد العزيز إبراهيم العمري ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ .

٢٥٠ـ اليمن في صدر الإسلام ، د . عبد الرحمن الشُّجاع ، دار الفكر ، دمشق .

* * *


خريطة
العالم الاسلامي على عهد النبي والخلفاء الراشدين سنة ١ الى سنة ٣٠
فتوح النبي سنة ١ الى سنة ١١ ١ مليون ميل مربع
فتوح الصديق ١١ الى ١٣ ٢٠٠,٠٠٠ «
فتوح الفاروق ١٣ الى ٢٥ مليون ونصف «
فتوح عثمان ٢٥ الى ٣٦ ٨٠٠,٠٠٠ «
فتوح علي ٣٦ الى ٤٠
٢,٥٠٠,٠٠٠
اوربا : ٣,٧٠٠,٠٠٠ ميل
الهند وباكستان ١,٣٠٠,٠٠٠ ميل
استراليا : ٣,٠٠٠,٠٠٠ ميل
الأندلس
سير فتوح عثمان
البحر الأسود (بنطس)
الاسكندرية
خليج العرب وفارس
البحرين
عمان
نجد
نجران
حضرموت
يمن
سير فتوح علي
سير فتوح عمر
الهند وباكستان
بحر العرب

فهرس الموضوعات

الفصل الرَّابع

الفتوحات في عهد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه

الفصل الخامس
مؤسَّسة الولاة في عهد عثمان رضي الله عنه

* * *

المؤلف في سطور
علي محمَّد محمَّد الصَّلاَّبي

* ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م .

* حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدَّعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقديرٍ ممتازٍ ، وكان الأول على دفعته عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

* نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلاميَّة كلية أصول الدِّين قسم التَّفسير وعلوم القرآن عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

* نال درجة الدُّكتوراه في الدِّراسات الإسلامية .

* **صدرت له عدَّة كتب :**

١ ـ من عقيدة المسلمين في صفات ربِّ العالمين .

٢ ـ الوسطية في القرآن الكريم .

سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشَّمال الإفريقي) .

٣ ـ صفحاتٌ من تاريخ ليبيا الإسلاميِّ والشمال الإفريقي .

٤ ـ عصر الدَّولتين الأمويَّة ، والعباسيَّة ، وظهور فكر الخوارج .

٥ ـ الدَّولة العبيديَّة (الفاطمية) الرَّافضية .

٦ ـ فقه التَّمكين عند دولة المرابطين .

٧ ـ دولة الموحِّدين .

٨ ـ الدَّولة العثمانية ، عوامل النُّهوض ، وأسباب السُّقوط .

٩ ـ الحركة السَّنوسية في ليبيا .

(أ) الإمام محمد بن علي السَّنوسي ، ومنهجه في التَّأسيس .

(ب) محمَّد المهدي السَّنوسي ، وأحمد الشريف .

(ج) إدريس السَّنوسي ، وعمر المختار .

١٠ ـ فقه التَّمكين في القرآن الكريم .

١١ ـ السِّيرة النبوية ، عرض وقائع ، وتحليل أحداث .